

الْحِصَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي الْمَجَرَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ
"عَصْرُ الْمُرَابِطَيْنِ وَالْمَوْحِدَيْنِ"

الدكتور
عبد الحليم بن علي بن حمزة
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٨٠

الناشر
مكتبة المتأخرين بطن

الدكتور
عبد الحليم علي حسين
كلية دارالعلوم - جامعة القاهرة

الخصائص الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين

الطبعة الأولى

١٩٨٠

الناشر
مكتبة الفتاحي بطن

الدكتور حسن على حسن
كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الحضارة الإسلامية
في المغرب والاندلس
عصر المرابطين والموحدين

الحمد لله
فاتحة كل خير
وقام كل نعمة

محتويات الكتاب

صفحة	
١	مقدمة :
٣	التمهيد
١٧	الباب الأول : السلطة والإدارة
	الفصل الأول : التطور السياسي بالمغرب الأقصى من منتصف
١٨	القرن الخامس الهجري إلى نهاية السادس الهجري
٢٠	— عبد الله بن ياسين
٢٦	— يوسف بن تاشفين
٣٢	— علي بن يوسف بن تاشفين
٤١	— تاشفين بن علي
٤٣	— عوامل سقوط دولة المرابطين
٤٤	— جهود عبد المؤمن العسكرية
٤٦	— يوسف بن عبد المؤمن
٤٧	— المنصور الموحدى
٤٩	— الناصر الموحدى
٥٢	الفصل الثانى : السلطة العليا فى البلاد
٥٢	أ — الخلافة
٥٣	(١) المرابطون والخلافة
٥٥	(٢) الموحدون والخلافة
٥٧	(٣) طريقة تولية يوسف بن تاشفين الحكم
٦٢	(٤) طريقة تولية عبد المؤمن بن علي الحكم
٦٨	(٥) طريقة تولية أمراء المرابطين الحكم
٧٠	(٦) طريقة تولية خلفاء الموحدين الحكم
٧٦	(٧) اختصاصات ولاية الأمر
٧٨	(٨) ألتاب ولاية الأمر

(ح)

صفحة

٨١	(٩) نائب حاكم المغرب الأقصى
٨٤	ب - ولاية العهد
٨٥	(١) طريقة تولية العهد
٨٨	(٢) اعداد ولى العهد لتحمل مسئولية الحكم
٨٨	(٣) اسقاط ولاية العهد
٩٣	ج - الوزارة
٩٣	(١) المرحلة الأولى وتشمل عهد المرابطين
٩٥	(٢) المرحلة الثانية وتشمل عهد الموحيدين
١٠١	(٣) اختصاصات الوزراء
١٠٧	(٤) نكبة بعض الوزراء
١١٣	د - الكتابة
١١٣	(١) الكتاب
١١٧	(٢) ثقافة الكتاب
١١٧	(٣) اختصاصات الكتاب
١٢٢	هـ - الحجابة
١٢٥	الفصل الثالث : النظام الإدارى
١٢٥	١ - أمراء الأقاليم
١٢٨	أ - سياسة اختيار الولاة
١٣٣	ب - مؤهلات الولاة
١٣٤	ج - طريقة تعيين الولاة
١٣٧	د - سلطة الولاة
١٤١	هـ - سياسة نقل الولاة ومعاقبتهم
١٤٥	٢ - الدواوين
١٤٩	٣ - البريد
١٥٣	٤ - الشرطة

(ط)

صفحة	
١٥٦	الفصل الرابع : التنظيم القضائى
١٥٦	أ - القضاء
١٥٩	١ - أنواع القضاة
١٦٠	(٢) صفات القضاة
١٦٢	(٣) تعيين القضاة
١٦٣	(٤) طريقة التقاضى
١٦٥	(٥) اختصاصات القاضى
١٦٨	(٦) نقل القضاة وعزلهم
١٧٢	ب - المظالم
١٧٥	طريقة التقاضى أمام والى المظالم واختصاصه
١٧٦	ج - الحسبة
١٨١	الباب الثانى : الحياة الإقتصادية
١٨٤	الفصل الأول : النظام المالى
١٨٤	أولاً : الإدارة المالية
١٨٤	(١) الدواوين المالية
١٨٦	(٢) المشتغلون بالشئون المالية
١٨٩	(٣) موعد جمع الأموال
١٩٠	(٤) المناطق المالية
١٩١	(٥) مراقبة ولاية الأمر للإدارة المالية
١٩٤	ثانياً : السياسة المالية ومصادر بيت المال
١٩٤	أ - السياسة المالية
١٩٥	ب - مصادر الدخل المالى
١٩٥	١ - الخراج
١٩٨	٢ - الزكاة
١٩٩	٣ - الجزية والضرائب
٢٠٣	٤ - الغنيمة

صفحة

٢٠٦	٥ - المصادر
٢٠٧	وفرة الدخل المالى
٢٠٩	ثالثاً : النفقات وتنوعها
٢٠٩	(١) نفقات الحيش
٢١٥	(٢) المرتبات
٢١٨	(٣) نفقات البناء والتعمير
٢٢٠	(٤) نفقات متنوعة
٢٢٥	رابعاً : السكة
٢٢٦	أنواع السكة ووزنها
٢٣٠	خامساً : المكاييل والموازين
٢٣٢	الفصل الثانى : الزراعة والصناعة
٢٣٢	أ - الزراعة
٢٣٢	(١) عوامل إزدهار الزراعة
٢٣٩	(٢) المحاصيل الزراعية
٢٤٤	(٣) الفواكه
٢٤٨	(٤) الغابات
٢٤٩	(٥) الثروة الحيوانية
٢٥٣	(٦) الثروة السمكية
٢٥٤	(٧) أزمات اقتصادية
٢٥٧	ب - الصناعة
٢٥٨	عوامل إزدهار الصناعة
٢٦٢	المراكز الصناعية
٢٦٦	الفصل الثالث : التجارة الداخلية والخارجية
٢٦٦	أ - التجارة الداخلية
٢٦٨	(١) الطرق التجارية
٢٦٩	(٢) المراكز التجارية
٢٧٣	(٣) الأسواق

(ك)

صفحة

٢٧٥ ب - التجارة الخارجية
٢٧٦	(١) الطرق التجارية
٢٧٨	(٢) الموانئ التجارية
٢٧٩	(٣) الصادرات والواردات
	(٤) العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى وجنوب
٢٨١	الصحراء
٢٨٤	(٥) العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى والأندلس
٢٨٧	(٦) العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى وأوروبا
٢٨٨	(٧) علاقات المغرب الأقصى بالشرق
٢٩١	الباب الثالث : الحياة الاجتماعية
٢٩٢	الفصل الأول : عناصر تكوين المجتمع
٢٩٢	١ - البربر
٢٩٣	(١) البتر والبرانس
٢٩٤	(٢) قبائل صنهاجة
٢٩٩	(٣) المصامدة
٣٠٦	ب - العرب
٣٠٨	(١) العرب الهلالية في عهد المرابطين
٣٠٩	(٢) العرب الهلالية في عهد الموحدين
٣١٦	(٣) آثار العرب الهلاليين في المجتمع المغربي
٣٢٢	ج - أجناس أخرى
٣٢٢	(١) السودانيون
٣٢٣	(٢) الروم والصقالية
٣٢٥	(٣) الغزن
٣٢٦	عدد السكان

صفحة

الفصل الثانى : طبقات المجتمع وطوائفه ... ٣٢٩

١ — الطبقة الحاكمة ... ٣٢٩

طبقة الطلبة ... ٣٣١

٢ — طبقة الفقهاء والعلماء ... ٣٣٦

الفقهاء والعلماء فى الدولة المرابطة ... ٣٣٦

الفقهاء والعلماء فى دولة الموحدين ... ٣٣٨

المستوى المادى للفقهاء والعلماء ... ٣٤٠

طبقة القضاة ... ٣٤٢

٣ — أصحاب المهن ... ٣٤٣

(١) التجار ... ٣٤٣

(٢) الصناع ... ٣٤٧

(٣) أصحاب مهن متنوعة ... ٣٤٩

٤ — المرأة ... ٣٥٢

المرأة فى الدولة المرابطة ... ٣٥٢

المرأة فى عهد الموحدين ... ٣٥٥

ثقافة المرأة ... ٣٥٧

نفوذ المرأة ... ٣٥٨

بعض الأعمال التى اشتغلت بها المرأة ... ٣٦٢

٥ — أهل النمة ... ٣٦٣

أهل النمة فى عهد المرابطين ... ٣٦٤

أهل النمة فى عهد الموحدين ... ٣٦٨

الفصل الثالث : البناء والتعمير ... ٣٧٢

— طابع البناء ... ٣٧٤

— المدن ... ٣٧٨

— مدينة مراكش ... ٣٧٨

٣٨٣	— مدينة تافررت أو تلمسان الحديثة	...
٣٨٣	١ — مدينة تاودا، مدينة القصر	...
٣٨٤	— مدينة رباط الفتح	...
٣٨٥	ز — نظام المدن	...
٣٨٨	— المنازل والقصور	...
٣٩٢	— منشآت عسكرية	...
٣٩٢	— الحصون والقلاع	...
٣٩٤	— الأسوار	...
٣٩٦	— منشآت عامة	...
٣٩٦	— المساجد	...
٤٠٠	— المدارس	...
٤٠١	— المستشفيات	...
٤٠٢	— الحمامات	...
٤٠٣	— الفنادق	...
٤٠٤	— القناطر	...
٤٠٦	الفصل الرابع : العادات والتقاليد	...
٤٠٦	أولاً : الأسرة	...
٤٠٩	ثانياً : الصحة	...
٤١١	— وسائل العلاج	...
٤١٤	ثالثاً : المجالس	...
٤١٤	— مجالس الخلفاء	...
٤١٧	— مجالس وعظ	...
٤١٧	— مجالس عامة	...
٤١٨	رابعاً : الإحتفالات	...
٤١٨	— الإحتفالات الدينية	...

صفحة

٤٢١	— احتفالات عسكرية
٤٢٥	— احتفالات متنوعة
٤٢٨	خامساً : وسائل التسلية
٤٢٨	— المآثرات
٤٣٠	— الموسيقى والغناء
٤٣٢	— وسائل تسلية أخرى
٤٣٢	سادساً : الطعام والشراب
٤٣٧	سابعاً : الملابس
٤٤٣	— الفصل الخامس : الحياة الفكرية
٤٤٣	— عوامل ازدهار الحركة الفكرية
٤٤٧	— المراكز الفكرية
٤٤٩	أولاً : الحياة الدينية
٤٤٩	— الدعوة المرابطية
٤٥٠	— إحراق كتب الإمام الغزالي
٤٥٣	— الدعوة الموحدية
٤٥٨	— معارك كلامية
٤٦٠	— تطور الدعوة الموحدية
٤٦٣	— مذهب الإمام مالك
٤٦٤	— المذهب المالكي في الدولة المرابطية
٤٦٥	— المذهب المالكي في الدولة الموحدية
٤٦٨	— التطبيق العملي لأحكام الدين
٤٧٣	— المرابطون ونشر الإسلام
٤٧٦	— المتصوفون بالمغرب
٤٧٩	— الغيبيات والتبرك في التفكير المغربي
٤٨٣	— العلوم الدينية والمؤلفات فيها
٤٨٣	علم التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

فالت الدراسات المغربية لإهتمام وعناية كثير من الباحثين العرب في الفترة الأخيرة ، فوجهوا إهتمامهم لدراسة المغرب وكشف أوجه القوة والعظمة في تاريخه الحافل بالأحداث والأعمال العظيمة .

وحرصوا في بحثهم على دراسة التاريخ السياسي للمنطقة من قيام دولة وصقوطها ، ولقد شاركت غيرى من الباحثين في ذلك الميدان حين قامت بدراسة قيام دولة الأدراسة بالمغرب الأقصى وهي أول دولة إسلامية تأسست بهذه المنطقة .

يبد أن دراسة أوجه الحياة المختلفة بالمغرب من إدارة وإقتصاد وإجتماع لم تنل عناية الباحثين ، ولعل مرجع ذلك عدم إهتمام المؤرخين القدامى بدراسة ظواهر المجتمع المختلفة ، وترتب على ذلك قلة المادة العلمية المدونة في هذا الميدان ، فضلا عن الصعوبة والمشقة التي يجدها الباحث في دراسة الموضوعات المتعلقة بالحضارة .

في أثناء دراستي لتاريخ المغرب الأقصى الإسلامي ، لاحظت أن المنطقة أعلنت انفصالها المبكر عن الخلافة الأموية سنة ١٢٢ هـ ، ثم تأسست على أرضها دولة الأدراسة والتي لم تعمّر كثيراً ، نتيجة ضعف حكائها ، ومن ثم صارت المنطقة تخضع لغيرها فتارة تخضع للفاطميين وتارة تخضع للأمويين بالأندلس ، وأصاب الضعف والتفكك نواحي الحياة المختلفة .

حتى إذا ما حل منتصف القرن الخامس الهجري ، تبدلت الأوضاع بالبلاد ، وبعد أن كانت إمارات متفرقة أصبحت دولة وطيدة الأركان ، شاعخة البنيان يتولى مقاليد الأمور فيها المرابطون ، الذين وحدوا المنطقة في ظل حكومة مركزية واحدة ، تبسط نفوذها على أرجاء البلاد ؛ بل ويمتد النفوذ حتى يسيطر على إقليم الأندلس .

وعلى أنقاض المرابطين قام حكام جدد : هم الموحدون يواصلون مسيرة التقدم التي شهدتها البلاد ويضطون نفوذهم حتى إفريقيا ، وأصبح في الجناح الغربي للدولة الإسلامية ؛ دولة عزيزة الجانب مسموعة الكلمة . لها وزنها وتأثيرها في مجريات الأحداث بغرب البحر المتوسط .

ولا شك أن هذا التفوق السياسي والعسكري الذي شهدته البلاد منذ منتصف القرن الخامس الهجري إرتكز على حضارة إسلامية استمدت مقوماتها ونجاحها من الإدارة القوية الواعية والاقتصاد المتين والشعب المتجانس المتحد الأخذ بأسباب التقدم والرقى .

ومن هنا كان موضوع الكتاب : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس : عصر المرابطين والموحدين . والكتاب من حيث واقع الأحداث ينقسم إلى فترتين متميزتين لكل منها خصائصها وسماتها ؛ أما الفترة الأولى فتتمد من أواخر القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن الخامس الهجري وتتميز بالضعف إذ أن المنطقة كانت تتوزعها إمارات متناحرة يسودها النزاع والتخاصم ومن ثم لم تكن البلاد سوى التأخر والانحلال ، والفترة الثانية تمتد منذ قيام دولة المرابطين وحتى هزيمة العقاب بالأندلس سنة ٦١٠ هـ وتعتبر من أزهى فترات تاريخ المغرب الإسلامي بل العصر الذهبي للمنطقة .

ولقد حرصت على أن أقدم مادة الكتاب على المراجع الأصيلة على تعددها وتنوعها بين المخطوط والمطبوع فضلا عن المراجع الأجنبية .

وفي هذا المقام ، يطيب لى أن أقدم بجزيل شكرى وعظيم إمتنانى إلى أساتذتى بقسم التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم ، فن علمهم نهلت ومن توجيهاتهم استفدت فجزاهم الله عنى خير الجزاء .

وختاماً . . أرجو الله أن أكون قد وفقت فيما قمت به ؛ وأن يقبل الله منى هذا العمل ، وأن أكون قد شاركت ولو بقدر ضئيل فى كشف جوانب هذه الفترة من تاريخ أمتنا ، فإن كان ذلك فهو حسبى ، وإلا فما زلت سائراً على الطريق آمل الخير وأنشد التوفيق والله المستعان .

تمهيد

شهد المغرب الأقصى خلال القرنين الخامس والسادس من الهجرة فترة مزدهرة ، حتى أصبحت هذه الفترة بحق تعد من أخصب فترات حياته في العصور الوسطى ، حيث نشأت على أرضه أضخم دولتين عرفتهما هذه المنطقة خلال تاريخه الوسيط وهما دولتا المرابطين والموحدين ، في ظل هاتين الدولتين برزت شخصية المغرب الأقصى كدولة مستقلة ، قامت على أكتاف أبنائها ، بأسطة نفوذها على مناطق شاسعة من الشمال الإفريقي فضلا عن الأندلس ، ومشاركة غيرها في إرساء قواعد الحضارة الإسلامية في غرب الدولة الإسلامية الكبرى ، بما قدمته من نظم محكمة في الحياة الإدارية وإزدهار في حياتها الاقتصادية ، وما صاحب ذلك من كثرة في البناء والتشييد فضلا عن تيار الثقافة المتدفق بما فيه من آراء ومؤلفات وعلماء ، والذي أضاف إلى الفكر الإسلامي الكثير من الآراء والنظريات .

موقع المغرب لأقصى :

وكان لموقع المغرب الأقصى أثره في الأحداث التي مرت بها البلاد ، حيث تمتعت المنطقة بموقع ممتاز ، جعلها تتفوق على سائر أقسام المغرب الأخرى من حيث مجريات الأحداث والتطورات التاريخية ، فالمغرب الأقصى يقع في الركن الشمالي الغربي من القارة الإفريقية ، يحده شرقاً وادى ملويه وجبال تازا وغرباً المحيط الأطلسي وشمالاً بحر الروم وجنوباً جبال درن^(١) ، وهذا الموقع جعله على صلة بثلاث مناطق :

(١) ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ١٠١ المطبعة الأميرية سنة ١٢٨٤ هـ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٥٢ طبعة وزارة الثقافة سنة ١٩٦٣ م .

أولاً : هو إمتداد لإقليمي المغرب الأدنى والأوسط ، أى أنه منطقة أطراف
إذ يمثل النهاية القصوى لهذه الوحدة الجغرافية المسماة بالمغرب حيث
يطل على البحر المحيط (١).

ثانياً : إتصاله بمنطقة الأندلس إذا لا يفصل بين القطرين (المغرب الأقصى
والأندلس) سوى مسافة لا تتجاوز خمسة عشر كيلو متراً في
بعض نواحيها ، وبذلك كان المضيق الذى يفصل بينهما له أهمية
كبيرة ، وقد تفاوت الإتصال بين المغرب الأقصى والأندلس حتى
أواخر القرن الخامس الهجرى إذ بعد إنتصار الزلاقة فى سنة ٤٧٩ هـ /
١٠٨٧ م ، أصبح الأندلس إقليماً تابعاً للمغرب الأقصى . يشارك فى
الأحداث التى تمر بها المنطقة ، وما صاحب ذلك من تأثير واضح فى
شئ واحد الحياة بالمغرب الأقصى ، وفى نفس الوقت تأثر الأندلس
بما در على أرض المغرب الأقصى .

ثالثاً : إتصاله بمنطقة الصحراء فى جنوبه ، وقد بلغت قمة الإتصال ذروتها
عند تدفق المرابطين من الصحراء صوب المغرب الأقصى ليغيروا
من الأوضاع القائمة ، ويؤسسوا دولة المرابطين التى جمعت سكان
المغرب الأقصى فى ظل سلطة موحدة .

ومن هذا يتضح أهمية الموقع وتأثيره فى مجريات الأمور . وبجانب ذلك
كان هذا الموقع حافزاً على ذلك الإستقلال المبكر الذى حققه المغرب الأقصى
عن سلطة الخلافة الأموية وإفصاله عنها بعد ثورة ميسرة المدغرى سنة ١٢٢ هـ /
٧٣٩ م ، وبذلك كان أول أقاليم المغرب لإنفصالاً عن السلطة الأموية ،
مساعده فى ذلك هذا الموقع المتطرف ، ثم كان لهذا الموقع المتطرف أيضاً أثر
واضح فى توجه الإمام إدريس بن عبد الله إليه بعد فراره من فسخ سنة
١٦٩ هـ / ٧٨٥ م وتأسيسه لدولة الأدارسة بعيداً عن متناول أيدي الخلافة

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٧ النهضة
سنة ٥٧

العباسية ، وساعده الموقع على تأسيس دولة إسلامية لعبت دورها في تاريخ المنطقة .

غير أن الاضمحلال الذي أصاب دولة الأدارسة وخاصة بعد مجيء مصالة بن حبوس المكناسي قائد جيوش أبي عبد الله الشيعي إلى أرض المغرب الأقصى سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م^(١) جعل المنطقة تمر بفترة حالكة في تاريخها إذ أصبحت المنطقة لا تملك من أمرها شيئاً وإنما تخضع لغيرها فتارة تدعو على منابرهما للناظمين بالمغرب ، وتارة تدعو على منابرهما لحكام الأندلس يضاف إلى ذلك تلك المنازعات القبلية والحروب الطاخنة ، والتي استمرت حتى مجيء المرابطين . وقد أثرت هذه الحروب في أوضاع المنطقة وجعلتها لا تنعم بالاستقرار ذلك الاستقرار الذي شهدته في عهد الأدارسة من قبل ، ودبت الفوضى في أرجاء المنطقة ، ونتج عن هذا كله ، أنه لم تقم دولة واضحة المعالم في هذه الفترة التي تمتد من أوائل القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، ومن ثم فاني سوف أرسم صورة عامة للفترة الأخيرة من ذلك الانهيار الذي شهدته البلاد ، والتي هي إمتداد لفترة الضعف السابقة ، وتبدأ منذ أواخر القرن الرابع الهجري وحتى منتصف القرن الخامس حين ظهرت طلائع المرابطين على مسرح الأحداث بالمنطقة وحتى تتضح معالم الصورة لابد من إلقاء الضوء على الوضع السياسي للمنطقة في أواخر القرن الرابع الهجري ، لنلمس مدى التفكك الذي ساد البلاد .

فالمنطقة قد توزعت القبائل المختلفة والأسر المتناجرة ، كل قبيلة تسيطر على مدينة أو أكثر ، تمرض عليها سلطانها ، ومشتبكة مع غيرها في صراع حول السلطة ، فضلاً عن أن بعض رؤساء هذه القبائل كانوا يخضعون بالتبعية للدولة الأموية ، ويقدمون لها فروض الولاء والطاعة .

وكانت الخريطة السياسية للمغرب الأقصى تشمل ما يأتي :

(١) ابن أبي زرع : الأتيس ، ج ١ ص ١١٥ ، ١١٦ تعليق محمد الهاشمي الفيلاي ، الرباط ، سنة ١٩٣٦ م ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٦ البكري : كتاب المغرب ص ١٦٥ ط ٢ باريس سنة ١٩١١

- (١) منطقة فاس وما حولها وهي خاضعة لأمراء مغراوة .
(٢) منطقة سلا وتادلا وكانت تخضع لبني يفرن .
(٣) في الجنوب منطقة بملاس ودرعة وكانت تخضع لبني خزيمة (١)
(٤) وفي سهول تامسنا كانت إمارة برغواطية .

وفي لحظة سريعة عن الأوضاع السياسية لكل منطقة من المناطق الأربعة نلمس مدى التفكك والضعف الذي ساد البلاد فنطقة فاس وما حولها كانت تخضع لأمراء مغراوة وأول من حكمهم من مغراوة هو زيري بن عطية الذي دخلها سنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م واستوطنها وجعلها قاعدة لإمارته (٢) ولم يكن تملكه لفاس وما حولها إستقلالاً بنفسه وإنما كان يخضع للدولة الأموية حيث كان يخطب لهشام المؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر (٣) ثم نشب صراع بين زيري بن عطية ويدو بن يعلى أمير بني يفرن دارت خلاله الكثير من المعارك وانتهت بمقتل يدو بن يعلى سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م (٤) ثم دخل زيري بعد ذلك في صراع مع جيوش الأمويين وذلك حين أعلن انتقاصه للمنصور ، الذي غضب من زيري وعاقبه بأن منع عنه المرتب السنوي الذي كان يدفعه له مما أدى إلى توتر الموقف ونشوب القتال بينهما في معارك متلاحقة انتهت بوفاة زيري متأثراً بجراحه سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م (٥) وهكذا استمر زيري طيلة أربعة عشر عاماً في معارك متصلة تارة ضد بني يفرن ، وتارة ضد بني أمية . فلما تولى ابنه المعز حاول إصلاح العلاقة بينه وبين المظفر بن المنصور

(١) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٧٦ ، د. عبد الله علام : الدعوة الموحدية ، ص ١٢ ، ط ١ سنة ٦٤ دار المعرفة .
(٢) ابن أبي زرع : الانيس ج ١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ ت الفيلاي ، السلوى : الاستقصا ج ١ ص ١٩٢ الدار البيضاء سنة ١٩٥٤
(٣) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات ، كتون : مدخل الى تاريخ المغرب ص ٢٨ ط ١ سنة ١٩٤٤ تطوان .
(٤) ابن أبي زرع : الانيس ج ١ ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، السلوى : الاستقصا ج ١ ص ١٩٣
(٥) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٥٣ ط ١ سنة ١٩٦٥ م الدار البيضاء .

ابن أنى عامر، تلك العلاقة التى فسدت خلال حكم والده زيرى وقد نجح فى ذلك وتعهّد بدفع أموال ومعدات للمظفر^(١) وبذلك عادت إمارة فاس لتبعية حكام الأندلس مرة أخرى ، يقول ابن أبى زرع « فعزل المظفر واضحاً عن فاس وسائر بلاد المغرب وصرفه إلى الأندلس وكتب إلى المعز بن زيرى ابن عطية بعنده على مدينة فاس وسائر أعمال المغرب مدنه وبواديه ، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة ، وشرط المعز أن يعطيه فى كل سنة خيلاً ودرقاً ومالاً معلوماً يوصله إلى قرطبة ، وأعطاه المعز مع ذلك ولده معنصر رهينة^(٢) ، فلما مات المعز سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م تولى خلفاً له ابن عمه حمادة بن المعز ، الذى دخل فى صراع مع أمير بنى يفرن فى ذلك الوقت أبو الكمال تميم سنة ٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م ونتج عن ذلك فرار حمادة ومقتل الكثير من المغراويين^(٣) إلا أن الأمير حمادة عاود الكرة بعد ذلك واسترد مدينة فاس فى سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م وفى رواية أخرى سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م^(٤) ولم يستقم له الأمر إذ دخل فى صراع مع حماد الصنهاجى صاحب القلعة وانتهى بالمهادنة ووفاة حمادة سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م^(٥) وتولى خلفاً له ابنه دوناس الذى كان عهده مشحوناً بالاضطرابات والصراع مع حماد الصنهاجى وتوفى سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م^(٦) ، وتولى خلفاً له ابنه الفتوح بن دوناس واستمر حكمه خمس سنوات بلغت فيها القوضى والاضطرابات ذروتها إذ شهدت مدينة فاس الصراع بينه وبين أخيه عجيسة وكثر القتل بين الفريقين ، واستمرت الحروب ثلاث سنوات ، انتهت بمقتل عجيسة وقد اُصوّر هذه الاضطرابات

-
- (١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام : القسم الثالث ص ١٦٠
الكتاتى الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ ، السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ١٩٩
(٢) ابن أبى زرع : الانيس ج ١ ص ١٦٩ ت الفيلاى .
(٣) السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ٢٠٢ ، د. السيد عبد العزيز
مسالم : المغرب الكبير ص ٥١٤ الدار القومية سنة ١٩٦٦ ، ابن أبى زرع :
الانيس ج ١ ص ١٧٠ ت الفيلاى .
(٤) ابن أبى زرع : الانيس : ج ١ ص ١٧٢ ت الفيلاى .
(٥) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ١٨١ للجزائر سنة ١٣٥٠ هـ ،
حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٥٤
(٦) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٥٤ ، د. السيد عبد العزيز
مسالم : المغرب الكبير ص ٥١٥ .

ابن أبي ذرع بقوله « فكانا — أي الفتوح وعجيسة^(١) — لا يزالان يقتتلان ليلاً ونهاراً فكثير الخوف في أيامهم بالمغرب وغلّت الأسعار واشتدت الحاجة وعظم الهرج ، وقويت الفتنة في جميع نواحي المغرب وظهرت لمتونة على أطراف البلاد ، ليس لأهل المدينة شغل إلا القتال أثناء الليل وأطراف النهار إلى أن ظفر الفتوح بأخيه عجيسة فقتله . . وكانت مدة إقامة الفتوح بحارب أخاه عجيسة ثلاث سنين متوالية إلى أن دخل عليه عدوة القرويين ليلاً بالفسدر فقتله وملك العدوتين^(٢) (١) ثم تولى خلفاً للفتوح معنصر بن حماد من سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣ م إلى سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧ م قضاها في صراع ضد المرابطين^(٣) (٢) ثم خلفه ابنه تميم الذي استمر يحارب المرابطين طيلة سنتين حتى تم فتح مدينة فاس على يد يوسف بن تاشفين سنة ٤٦٢هـ / ١٠٦٩ م وقتل تميم فيمن قتل من أبناء مغراوة^(٣) وكان عدد من قتل في هذه المعارك من أبناء زناتة ما يزيد على عشرين ألفاً^(٤) ، وهكذا شهدت مدينة فاس عاصمة المغرب الأقصى في عهد الأدارسة وأهم مدن المنطقة وما حولها صراعاً مريراً ومعارك مستمرة طيلة خمسة وعشرين عاماً منذ تولى السلطة فيها زيري بن عطية وبنوه حتى استيلاء المرابطين عليها :

أما المنطقة الثانية فكانت تخضع لبني يفرن والذين كانت مواطنهم الأصلية بافريقية وما بين تلمسان وتاهرت^(٥) فقد أقاموا بمدينة سلا وشالة وما حولها وقد سبق أن أشرت كيف أنهم دخلوا في صراع مستمر مع أبناء عمومهم من أمراء مغراوة ، فتارة يستولون على فاس ويتأخر عنها أمراء مغراوة وتارة يطردون منها ويعودون إلى مواطنهم^(٦) وكان آخر أمرائهم محمد بن

(١) ابن أبي ذرع : الأتيس ج ١ ص ١٧٣ ، ١٧٤ ت الفيلاي .
(٢) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٧٥ ت الفيلاي ، السلاوي : الاستقصا ج ١ ص ٢٠٦ .
(٣) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .
(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ١٦٣ ت العبادي .
(٥) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٥٠ .

(٦) ابن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ، ص ٩٧ الدار البيضاء ، كتون : منخل إلى تاريخ المغرب ص ٣٠ ط ١ سنة ١٩٤٤ تطوان .

تميم بن زيري الذي تولى سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م إمارة بني يفرن حتى مقتله على أيدي المرابطين سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م (١).

والمنطقة الثالثة وكانت تشمل مجلّسة ودرعة وقد تولى الحكم فيها بنو خزرون منذ سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م واستمر حكمهم لها حتى مجيء المرابطين في سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٥٥ م حين استدعى فقهاء مجلّسة ودرعة ابن ياسين ومن معه من المرابطين لتخليصها بما هي فيه من مساوئ حكم الأمير مسعود بن وانودين الزناتي المغراوي ، يقول ابن أبي زرع « فلما كان في سنة سبع وأربعين وأربعمائة اجتمع فقهاء مجلّسة ودرعة وصلحواهم فكتبوا إلى الفقيه عبد الله بن ياسين وإلى الأمير يحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتاباً يرغبون منهم الوصول لبلادهم ليطهروها بما هي فيه من منكرات وشدة العسف والجور ، وعرفوهم بما هم فيه أي أهل العلم والدين من اللذل والصغار والجور مع أميرهم مسعود بن وانودين الزناتي المغراوي » (٢) وكانت استجابة المرابطين وبذلك قضوا على إمارة بني خزرون في مجلّسة ودرعة .

أما آخر إمارات المنطقة فهي إمارة برغواطة التي احتلت المناطق الساحلية جنوبي طنجة إلى آصيلا وتشتمل على مناطق تامسنا ، حيث أقامت عدة قبائل من زناتة ، اجتمعوا إلى صالح بن طريف الذي ابتدع لهم ديناً وشرعة جديدة (٣) وقد استهوهم بفنون السحر المختلفة حتى استطاع التأثير فيهم وسنّ لهم مبادئ وتعاليم ، وألف لهم قرآناً وسمى نفسه صالح المؤمنين (٤) وقد دخل الأدارسة معهم في صراع إلا أنهم لم يتمكنوا من إجتثاث جلورهم من المنطقة ، ثم دخلوا في صراع مع بني يفرن (٥) وهكذا ظلت دعواهم الفاسدة

-
- (١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ١٦٦ ت .
العبادي .
(٢) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ت الفيلاي .
(٣) ابن الخطيب : أعمال الاعلام : القسم الثالث ص ١٨٠ ت .
العبادي .
(٤) البكري : المغرب ص ١٣٥ ، ابن خلدون ، العبر ج ٦ ص ٢٠٧ .
(٥) عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٧ .

حتى يجيء المرابطون الذين قضوا عليهم ، ومحووا ضلالتهم من المنطقة وأسلموا
بسلاماً جديداً (١) .

وهكذا نلمس من هذا العرض السريع للتاريخ السياسي للمنطقة في ظل
الزناتيين مدى التفكك والضعف الذي عاشته البلاد نتيجة للحروب والفتن
التي عمت الإمارات المختلفة ، وهذا يرجع إلى عدة عوامل منها الفرقة التي
التفت في صفوف الزناتيين ، وانقسامهم إلى إمارات متناحرة ، فضلاً
عن التهديد المستمر من حكام المغرب الأوسط مع تبعية المغرب الأقصى
لحكام الأندلس ، كل هذا أدى إلى تلك الصورة الحزينة التي عاشها المغرب
الآنقي قبيل مجيء المرابطين ، وكان طبيعياً أن تتأثر نواحي الحياة الأخرى
في المغرب الأقصى بهذا الضعف السياسي حيث انعكست الأحداث السابقة
على نواحي الحياة المختلفة : إدارية كانت أو إقتصادية واجتماعية .

ففي مجال الإدارة :

لم تقم حكومة موحدة تجمع سكان المنطقة تحت سيطرتها ، وتبذل جهودها
في سبيل تقدمهم ، وإنما كان بعض رؤساء القبائل كأمرء مغراوة يدينون
بالتبعية لحكام الأندلس ، باعتبارهم وزراء أو ولاية من قبل بني أمية في
الأندلس ، يخطبون لهم على المنابر ويعلنون طاعتهم لهم (٢) وفي نظير ذلك
كانوا يتمتعون بحماية بني أمية فضلاً عن المرتبات التي ينالونها سنوياً من خزنة
الدولة الأموية ، يوضح ذلك أن المنصور بن أبي عامر حين غضب على زيري
ابن عطية ، قطع عنه رزق الوزارة الذي كان يجريه عليه في كل سنة (٣) .

وساد المنطقة الحكم القبلي ؛ حيث أن أبناء القبائل الزناتية وغيرها من
القبائل كانت تأنف أن تخضع لقائد من خارج القبيلة ، ومن ثم انقسمت إلى
أمر وقبائل مختلفة تخضع كل مجموعة لأمر ينتمي إليها ، وقد لمس عبد الله

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام : القسم الثالث ص ١٨٦ ، ص
١٨٧ ت د . العبادي .

(٢) ابن أبي زرع : الانيس ج ١ ص ١٥٩ ، ١٦٩ ت . الفيلاي .

(٣) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٥١١

ابن ياسين ذلك بنفسه أثناء مروره بديار المصامدة حين رجوعه من الأندلس / ووجدهم يعيشون حياة قبلية متنافرة ، وليس لهم قائد يجمعهم ويوحد كلمتهم يقول ابن عذارى^(١) «فر عبد الله بن ياسين ببلاد المصامدة بعد منصرفه من الأندلس فوجدهم يغيرون بعضهم على بعض يغنمون الأموال ، ويقتلون الرجال ويسبون الحريم ولا يرجعون إلى طاعة ، فكان لعبد الله بن ياسين بعض الإلهام أن قال لبعضهم : ألا تعرفون الله ربكم ومحمداً رسولكم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، فقالوا له : نعم عرفنا ربنا ومحمداً نبياً صلى الله عليه وسلم فقال لهم عبد الله : فما لكم بدلتهم وغيرتم ؟ هلا قدمتم عليكم إماماً يحكم بينكم بشريعة الإسلام وبسنة النبي عليه السلام ؟ فقال له بعض أشياخ المصامدة : لا يرضى أحد منا انقياداً إلى حكم أحد من غير قبيلته »^(٢) ومن خلال الحوار يتبين مدى تأصل العادات القبلية في نفوس السكان مما جعلهم يتوزعون تحت زعامات مختلفة ، وبجانب الحكم القبلي ، كان نظام الحكم وراثياً وقد تجلى ذلك في تولي أبناء زيري بن عطية إمارة فاس ، وكذلك في بني يفرن وأمراء سجلماسة ، وأمراء برغواطة وفي غياب الأمير كان بعض الولاة يتولون السلطة عن طريق التعيين وذلك ما حدث بالنسبة لمدينة فاس خلال حكم زيري بن عطية حيث تولاهما واليان أحدهما على عدوة القرويين والآخر على عدوة الأندلسيين ، فحين عزم زيري سنة ٣٨٢ / ٩٩٢ م على التوجه إلى الأندلس ، استخلف ابنه المعز في كرسي الإمارة ، واستخلف على عدوة الأندلس عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة وعلى عدوة القرويين على بن محمد بن علي بن قشوش^(٣) أما القضاء بالنسبة لمدينة فاس فكان يتولاه قاض واحد هو الفقيه أبو محمد عامر الأزدي^(٤) .

الحياة الاقتصادية :

فلم تكن بأسعد حظاً من الحياة السياسية إذ أصابها الاضطراب والتأخر

-
- (١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٠ بيروت د. احسان عباس .
(٢) ابن أبي زرع : الأتيس ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦١ ت الفيلالي ، السلاوي : الاستقصا ج ١ ص ١٩٣
(٣) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

نتيجة للحروب المستمرة ، والثورات والفتن التي شهدتها البلاد في هذه الفترة وبرغم أن المنطقة كانت تتمتع بمقومات النجاح في قيام زراعة مزدهرة وصناعة رائجة ، إلا أن الضعف السياسي وما صحبه من تمزق ، انعكست صورته على إقتصاديات البلاد ، وقلت الأموال بأيدي الناس^(١) مع تحمل أمراء مغراوة في بعض الأحيان دفع جزية سنوية من المال والخيل والمعدات لخزانة الأندلس كرمز للخضوع والتبعية لبني أمية^(٢) ولا شك أن هذه الجزية زادت من الأعباء الإقتصادية على سكان منطقة فاس ، كما أن الحروب أشاعت الفوضى والاضطراب فضلا عن الموت والهلاك الذي أصاب الأيدي العاملة بالبلاد ، ففي الصراع الدائر بين دوناس بن حماسة (٤٣١ / ٤٥١ هـ — ١٠٣٩ م / ١٠٥٩ م) وابن عمه حماد بن معنصر ، استولى حماد على بعض أجزاء فاس ومن ثم قطع مياه نهر فاس عن عدوة القرويين^(٣) ولا شك أن هذا يؤثر بالدرجة الأولى على السكان وزراعتهم وأعمالهم . وفي الصراع الدائر بين الأمير الفتوح بن دوناس (٤٥١ / ٤٥٥ هـ — ١٠٥٩ / ١٠٦٣ م) وأخيه عجيسة ، استمر القتال في فاس ثلاث سنوات ، وأصاب الناس القحط والغلاء نتيجة المعارك المستمرة يصور ذلك ابن أبي زرع بقوله « فكانا لايزالان يقتتلان ليلا ونهاراً فكثرت الخوف في أيامهم بالمغرب ، وثلت الأسعار ، واشتدت المجاعة وعظم المهرج وقويت في جميع نواحي المغرب ، وظهرت لموتنة على أطراف البلاد ، ليس لأهل المدينة شغل إلا القتال آتاء الليل وأطراف النهار . . »^(٤) وطوال فترة حكم الفتوح كان المغرب يعيش في محنة إقتصادية . وقد أسلمت هذه الفتن المستمرة المغرب إلى مجاعات وغلاء في الأسعار ونقص في الإنتاج « وثلت الأسعار وتبدل الرخاء بالشدة والأمن

Terrasse: Histoire du Maroc: P.256 - 257 Paris 1949 (1)

(٢) ابن أبي زرع : الانيس ج ١ ص ١٦٩ ت الفيلاى ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ١٦٠ ت . الغبادى ، السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ١٩٩

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٥١٥ ، ٥١٦

(٤) ابن أبي زرع : الانيس ج ١ ص ١٧٣ ، ١٧٤ ت الفيلاى ، السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ٢٠٤ .

بالخوف والعدل بالخور ، وتوالى فيهم ظلم وعدوان على رعيتهم وغلاء مفرط لم يسمع بمثله وفتنة شديدة فاتصل الجوع والغلاء ، وهدمت الأقوات^(١) في مدينة فاس وأعمالها أيام الفتوح بن دوناس وأيام ابن عمه معنصر وأيام "ولده" تميم بن معنصر إلى أن بلغ الدقيق بمدينة فاس وغيرها من البلاد المغربية القريبة منها أوقية الدقيق بدرهم وهدمت الأقوات بالكلية^(٢) ، ونتج عن نقص الأقوات وقلة الطعام أن عمد رؤساء المغراويين إلى الهجوم على المنازل والإستيلاء بالقوة على ما فيها من أنواع الطعام مع تعرضهم للنساء والأولاد بالإيذاء ، مما دفع الكثير من أهل فاس إلى صنع مخازن فوق أسطح المنازل لا يصعد إليها إلا بسلاسل متحركة ، ترفع ليلا حتى لا يتمكن المغراويون من الوصول إليها^(٣) وهذه الحيلة وإن كانت غير مجدية إلا أن هذا الصنيع من أهل فاس يصور مدى الإنهيار الذي أصاب لإقتصاد البلاد ، يضاف إلى ذلك تلك الضرائب والمكوس التي فرضها الزناتيون على سكان البلاد مما أدى إلى إرهاب المواطنين وانعكست آثاره على الوضع الإقتصادي بالبلاد ، فقد افتن ولادة الأمر في فرض أنواع مختلفة من هذه الضرائب كالمكوس والمعونات والقبالات وغيرها^(٤) مما سبب عبأ ثقيلا على كاهل السكان وأدى إلى اضطراب الوضع المالي بالبلاد ولذا حين دخل ابن ياسين مدينة بجلماسة ألغى الضرائب الجائرة التي فرضها ولادة الأمر « وارتحل — أي ابن ياسين — من فوره حتى دخل مدينة بجلماسة فقتل من وجد بها من مغراوة ، وأقام بها حتى هدتها وأصلح أحوالها ، وغير ما وجد بها من المنكرات ، وقطع المزامير وأحرق الديار التي كانت تباع بها الخمر ، وأزال المكوس وأسقط المغارم الخزنية ، وترك ما أوجب الكتاب والسنة^(٥) » أي أن ابن ياسين أبى الأوضاع المالية التي تتفق والشرع وألغى ما دون ذلك .

(١) ابن أبي زرع : الانيس ج ١ ص ١٧٦ ت الفيلاي ، السلاوي : الاستقصا ج ١ ص ٢٠٦
(٢) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .
(٣) ابن أبي دينار : كتاب المؤنس ص ١٠٣ ط ١ سنة ١٢٨٦ هـ
تونس ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٧٤
(٤) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ٢٠ ت الفيلاي .

إلا أنه في وسط هذه الظلمة الخالكة كانت هناك فترات ومض من الرخاء والازدهار نتيجة للهدوء النسبي الذي تعيشه المنطقة كما حدث في عهد دوناس بن حماسة حيث ازدهرت مدينة فاس وقصدها التجار واتسعت أرباضها (١) وكانت أيامه — أى أيام دوناس بن حماسة — أيام دعة وهدنة ورخاء كثير ، وفي أيامه عظمت فاس وعمرت وكثرت أرباضها وقصدها الناس والتجار من جميع النواحي والبلاد (٢) .

وأما بالنسبة للأوضاع الاجتماعية فقد افترشت القبائل المختلفة أرض المغرب الأقصى ، فكانت هناك القبائل الزناتية ومنها الأسر الحاكمة التي اقتسمت المغرب الأقصى فيما بينها ، وهناك قبائل المصامدة وهي تشكل غالبية السكان ، وكان لها دور بارز في قيام دولة الموحدين ، وكانت نظرة السكان إلى ولاية الأمر نظرة الكراهية والسأم (٣) وذلك لكثرة ما أصابهم من محن وكوارث نتيجة للحروب المتصلة ، وبجانب هذه القبائل كانت هناك جاليات من المسيحيين واليهود ففي تلمسان كانت هناك جالية مسيحية (٤) أما مدينة فاس فقد اشتهرت بكثرة اليهود بها حيث قصدها اليهود من كل مكان (٥) .

أما في مجال البناء والتعمير فلم تشهد البلاد إهتماماً من ولاية الأمر بالبناء نتيجة انشغالهم بالمعارك والحروب ، ونتج عن ذلك قلة في عدد المنشآت ، ومن هذه المنشآت ، بناء مدينة وجدة سنة ٣٨٤ هـ حيث اتخذها زييري بن عطية عاصمة له وأحاطها بالأسوار وصنع لها عدة أبواب (٦) .

(١) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ١٦١ ، ١٦٢ ت . الفيلالي ، السلاوي : الاستقصا ج ١ ص ٢٠٣ ، عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ، ج ١ ص ٩٧ ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٥١٥ .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس ج ١ ص ١٧٢ ت الفيلالي .

(٣) السلاوي : الاستقصا ج ١ ص ١٩٠ .

(٤) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية ص ٧٦ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ١١٥ .

(٦) ابن أبي زرع : الأنيس ج ١ ص ١٦٣ ت الفيلالي ، السلاوي : الاستقصا ج ١ ص ١٩٥ ، كتون : محفل إلى تاريخ المغرب ص ٢٨ .

وفي فترة الرخاء النسبي الذي شهدته مدينة فاس في عهد دوناس بن حماسة ، أقيمت بعض المنشآت كالمساجد والحمامات والفنادق ، وهذا يرجع إلى ميل الأمير دوناس بن حماسة وحبه للبناء والتشييد^(١) وفي مجال الحياة الدينية ، كان وجود أمراء مغراوة وتبعيتهم للأمويين في الأندلس حاجزاً ومانعاً ضد الدولة العبيدية ومبادئها الشيعية أن تنتشر أو تستقر في المغرب الأقصى^(٢) وفي نفس الوقت دعم للمذهب المالكي الذي اتخذه أهل البلاد مذهباً منذ دولة الأدارسة وكانت الاضطرابات ما نعاً من إزدهار الدراسات الدينية ، وهذا أدى إلى قلة العلماء المشتغلين بالدراسات الدينية^(٣) ؛ ويبدو أن الفقهاء والعلماء في هذه الفترة قد احتلوا مكان الزعامة بالنسبة لطوائف الشعب ، إذ هم الذين قاموا باستدعاء المرابطين ، ليخلصوا البلاد مما تعانيه من ظلم أمراءهم المغراويين فلما كان في سنة سبع وأربعين وأربعمائة اجتمع فقهاء بمهلماسة وفقهاء درعة وصلحاحوهم فكتبوا إلى الفقيه عبد الله بن ياسين وإلى الأمير يحيى بن عمر وأشباه المرابطين كتاباً يرغبون منهم الوصول لبلادهم ، ليظهروها ، مما هي فيه من المنكرات وشدة العسف والجور^(٤) كما أن المفاصد قد انتشرت ، وتدهورت الأخلاق وكثرت دور الخمر^(٥) مما جعل ابن ياسين يلجئ نداء الفقهاء للقضاء على كل هذه المفاصد ، وقد عبّر النويري عن ذلك بقوله « وكانت الدولة حينئذ في بلاد المغرب لزناثة الذين ساروا في أيام الفتن وهي دولة رديئة مختلة السيرة مدمومة الطريقة »^(٦) وبجانب هذه المفاصد كانت هناك انحرافات دليّة في إمارة برغواطة ، وقد سبق أن أشرت كيف أن إمامهم صالح بن طريف

(١) ابن أبي زرع : الانيس ج ١ ص ١٧٢ ، ١٧٣ ت الفيلاي ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ١٦١ ، ١٦٢ ت العبادي .
د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٥١٥ .

(٢) الميلي : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ١٨٠ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٥٨ .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٩٢ .

(٤) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ت الفيلاي .

(٥) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ١٩ ت الفيلاي ، رابح بونار :

المغرب العربي تاريخه وثقافته ص ٢٣٦ الجزائر سنة ٦٨ .

Nevill Barbour : Morocco P : 50 London 1965

(٦) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٧٩ تصوير شمسى .

قد شرع لهم مبادئ فاسدة وانحرافات تخالف عقيدة الإسلام ومن ثم فصلهم المرابطون بالقتل والتدمير حتى قضوا على ضلالتهم ، أما التواحي الثقافية الأخرى فلم تحظ بعناية ورعاية أمراء زناتة وذلك للمنازعات المستمرة والتي لا تشجع على البحث والتأليف (١) .

وهكذا شهد المغرب الأقصى في ظل أمراء زناتة فترة مضطربة ، تسهم بالضعف والتفكك ، حيث دبت الفوضى ، وانتشرت الفتن في أرجاء البلاد وكان عدم الإستقرار سبباً قوياً في التأخر الذي عانت منه المنطقة ، حتى أقبل المرابطون من الصحراء ووجدوا المنطقة ثم استولوا على الأندلس الذي أصبح إقليماً تابعاً للمغرب الأقصى ، وانطلقوا بالبلاد في مضمار الحضارة ، ثم أعقبهم الموحدون وأكملوا المسيرة الحضارية التي شهدتها البلاد ، وبلغ المغرب الأقصى في عهدهم أوج قوته وتقدمه ، حيث نعمت البلاد بحياة إدارية مستقرة ، وحياة إقتصادية مزدهرة ، فضلاً عن نهضة اجتماعية شاملة .

(١) كنون : محفل الى تاريخ المغرب ص ٣٠ ، رابح بونلر : المغرب للمصريين ص ٣٣٤ .

الباب الأول

السلطة والإدارة

الفصل الأول

التطور السياسى بالمغرب الأقصى من منتصف القرن الخامس الهجرى الى نهاية السادس

شهد المغرب الأقصى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى حركة دينية ، هى حركة المرابطين التى انبثقت فى الصحراء جنوب المغرب الأقصى وغيّرت من وجه الحياة فى شتى صورها سياسية كانت أو إدارية أو إقتصادية أو اجتماعية ، وامتد تأثير حركة المرابطين إلى الأندلس حيث خضعت لسلطة المرابطين .

وما إن ازدهرت حركة المرابطين ، وتأسست دولتهم فى المغرب الأقصى وتمكّن سلطانهم ، واستقرت أحوالهم حتى اندلعت حركة دينية أخرى معارضة وهى حركة الموحدين بزعماء المهدي بن تومرت وكانت ترمى إلى القضاء على دولة المرابطين ، وإقامة نظام جديد .

وبعد صراع مرير ، نجح الموحدون فى الإطاحة بدولة المرابطين ، وإقامة حكم جديد ، ومن ثم كان من الضرورى التعرّض للحياة السياسية للمغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين ، وحتى نهاية حكم الناصر الموحدى سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣م لما للأوضاع السياسية من أثر فى حياة السكان سواء من الناحية الإدارية أو الإقتصادية والاجتماعية .

يحيى بن ابراهيم الجدالى :

وأولى الدعوتين : هى دعوة المرابطين ، التى نمت وازدهرت فى ديار الملمّين بجنوب المغرب الأقصى ، بفضل الفقيه المالكى عبد الله بن ياسين ومن التف حوله من أبناء القبائل ، وقد بدأت صلة ابن ياسين بمنطقة الملمّين حين وفد مع زعيم قبيلة جدالة يحيى بن ابراهيم الجدالى عقب عودته من الحج

وتوجهه إلى القيروان^(١) ، وهناك في القيروان شاهد يحيى بن ابراهيم مجالس العلم والدين فجلس إلى أحد هذه المجالس حيث استمع إلى درس الشيخ أبي عمران موسى بن أبي حجاج الفاسي ، وقارن بين حياة العلم والمعرفة التي يحياها سكان القيروان ، وحياة الجهل والظلام التي تفشت بين عشيرته ومواطنيه ، ومن ثم أحس يحيى بحاجة مواطنيه إلى فقيه يعلمهم أحكام دينهم ويبصرهم بتعاليم الإسلام ولذا توجه بالطلب لأبي عمران أن يبعث معه من يحقق هذا الهدف^(٢) وقد استجاب الشيخ أبو عمران لهذا الطلب وأعطاه رسالة وأخبره بأنه سيجد ضالته عند الفقيه واجاج بن زلو اللمطي^(٣) بمدينة نفيس ويواصل يحيى بن ابراهيم رحلته إلى مدينة نفيس حاملا الرسالة وهناك يلتقي بالفقيه واجاج الذي قام بدوره في البحث عن الرجل المناسب لهذه المهمة حتى وجده في شخص عبد الله بن ياسين الجزولي^(٤) .

وبالنظر إلى سير الأحداث نجد أن الشخصيات التي التقى بها يحيى بن ابراهيم كانت على قدر كبير من الذكاء وحسن الاختيار فالفقيه أبو عمران اختار الفقيه واجاج الذي يقوم بتدريس العلم في منطقة نفيس قرب أنعمات بالمغرب الأقصى^(٥) ، وبالتالي فهو من أقدر الناس معرفة بسكان المنطقة

(١) ابن أبي دينار: كتاب المؤنس في أخبار إفريقية ص ١٠١ ط ١
سنة ١٢٨٦ هـ تونس

Anderé Julian : Histoire de l'Afrique du Nord P. 78.
Paris 1969.

(٢) ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٣) ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٠٢ ، لسان الدين بن الخطيب :
أعمال الاعلام : القسم الثالث ص ٢٢٧ ت العبادي .

() هو واجاج بن زلو اللمطي الصنهاجي ، وكان قد رحل إلى القيروان ودرس على أبي عمران الفاسي ثم عاد إلى بلاد السوس حيث بنى هناك دارا للعلم ودراسة القرآن ، وكانت له منزلة ومقام عند المصامدة ص ٢٢٧ .
حاشية أعمال الاعلام : لسان الدين بن الخطيب القسم الثالث ت د . العبادي .

(٤) ابن أبي زرع : الاتيس المطرب بروض القرطاس ج ٢ ص ١٠ ،
ص ١١ تحقيق الفيلاي .

(٥) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٦٩ .

وطباعهم وكيفية استمالتهم، ثم قام الفقيه واجاج بدوره في اختيار الرجل المناسب وهو عبد الله بن ياسين الذي تتلمذ على واجاج ونهل من ينابيع العلم والمعرفة (١)

عبد الله بن ياسين :

وهذا الفقيه بجانب علمه بشئون الدين ، كان يتمتع بصفات أهله لتحقيق النجاح لدعوته من بعد نظر ونفاذ بصيرة (٢) وصحب يحيى بن ابراهيم الفقيه عبد الله بن ياسين وتوجها إلى بلاد جندالة التي فرحت بمقدمه ونزوله بين ظهرائهم (٣) . غير أن فترة الترحيب لم تستمر طويلا وذلك حين بدأ ابن ياسين تغيير العادات التي ألفوها من الإنهمك في الملذات ، وجهلهم بأحكام الدين ، وذلك بفرض تعاليم وأحكام تخالف ما درجوا عليه ، ومن هنا بدأت الحفوة والإعراض (٤) وخاصة في صفوف الزعماء والنبلاء الذين رأوه ينتقص من حقه وقهم ويضع حداً لجبروتهم وعدوانهم وينشر المساواة بين المولى والسادة (٥) وقد ساءت العلاقة بين هؤلاء السادة وبين ابن ياسين حتى أنهم انتهبوا داره وهدموها (٦) ويبدو أن الأمير يحيى بن ابراهيم عجز عن حماية ابن ياسين والدفاع عنه مما اضطره إلى الارتحال إلى مكان يستطيع فيه تأدية واجبه الديني ، ولم يكن هذا المكان إلا جزيرة منعزلة بالسنتغال (٧) . وصحبه بعض مريديه وعلى رأسهم يحيى بن ابراهيم (٨) .

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك ج ٢ مجلد ٢ ، ص ٥٣٢ مخطوط .

(٢) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٤٢ .

(٣) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٢٧
ت د. العبادي ، ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١١ ت الفيلالي ، ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٠٢ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٢ ت الفيلالي .

(٥) د. حسن محمود : قام دولة المرابطين ص ١٢٢ .

(٦) ابن عذاري : البيان المخرب ج ٤ ص ٨ ت د. احسان عباس
بيروت ط ١ سنة ٦٧ ، بوفيل : الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا ص ٩٧
ترجمة د. زاهر رياض الانجلو سنة ١٩٦٨ .

(٧) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٨٣ ، ترجمة

د. نبيه فارس ومنير البعلبكي ط ١ سنة ٤٩٠٠ بيروت .

(٨) ابن أبي دينار : كتاب المؤنس ص ١٠٢ .

الدور الإيجابي في دعوة المرابطين :

وفي هذه الجزيرة بدأ ابن ياسين الدور الإيجابي في تأسيس الدعوة ونشرها وذلك بإعداد تلاميذه بالتربية الدينية الصارمة وذلك في الرباط الذي أنشأه^(١) والذي أصبح نواة مجتمع المرابطين ، وذاع صيته في المناطق المجاورة وتوافد الناس عليه من كل صوب^(٢) . ولم يكتف ابن ياسين بنشر دعوته ومبادئه بين تلاميذه وأتباعه في الرباط بل أرسل البعوث إلى القبائل المختلفة تنشر مبادئه وتعرفهم بحياة الرباط التي يحياها ابن ياسين وأتباعه^(٣) حتى إذا كثر أتباعه وصاروا منفذين لأوامره أطلق عليهم لقب المرابطين ، وقد اختلف المؤرخون في سبب هذه التسمية ، فابن دينار علل ذلك بسبب ملازمتهم للرباط الذي بناه^(٤) . ومنهم من أرجع هذه التسمية إلى شدة صبرهم وحسن بلائهم في المعارك^(٥) ثم انتقل عبد الله بن ياسين من الدور النظري في تلقين أتباعه مبادئ دعوته إلى دور التطبيق والتنفيذ حين أعلن ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك في النداء الذي وجهه إلى رؤسائهم « يامعشر المرابطين إنكم جمع كثير وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراط مستقيم ، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم ، وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ، وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده »^(٦) وكانت استجابة الأتباع وسرعة تلييتهم لندائه^(٧) وقد بين لهم في النداء طريقة تبليغ الدعوة فقال لهم : « اخرجوا على بركة الله وأنذروا

-
- (١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٢٤ .
 (٢) ابن أبي زرع : الأتييس ج ٢ ص ١٣ ت الفيلالى .
 (٣) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٤٢ .
 (٤) ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٠٢ ، بوفيل : الممالك الإسلامية ص ٩٧ ، ريمون فيرون : الصحراء الكبرى ص ٧٥ ترجمة د. جمال الدين الديناصورى القاهرة سنة ١٩٦٣ م . د. حسن إبراهيم : انتشار الإسلام ص ١٩ ط ٢ سنة ٦٤ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٦٩٥
 (٥) لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠ تصحيح البشير تونس ط ١ سنة ١٣٢٩ هـ .
 (٦) ابن أبي زرع : الأتييس ج ٢ ص ١٤ ت الفيلالى ؛ السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٢ الدار البيضاء سنة ١٩٥٤ .
 (٧) نفس المرجعين السابقين ص ١٤ ص ٩ .

قومكم وخوفهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته فإن تابوا ورجعوا إلى الحق ، وأقلعوا عما هم عليه ، فخلتوا سبيلهم ، وإن أبوا من ذلك وتمادوا في غيهم ، ولجئوا في طغيانهم ، استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين» (١).

بدء الكفاح المسلح للمرابطين :

وكان هذا النداء هو الشرارة الأولى في تاريخ الكفاح المسلح للمرابطين وكان من الطبيعي أن يبدأ المرابطون نشر دعوتهم بين تلك القبائل التي تمردت على سلطة ابن ياسين ، ومن هنا دعا قبيلة كدالة للانضمام إليهم تنفيذاً لتعاليم ابن ياسين فلما أبوا غزوهم في ثلاثة آلاف رجل من المرابطين فأنهزموا بين يديه وذلك في شهر صفر سنة ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢ م (٢) ثم أقبل من نجا منهم من القتل وانضم إلى الدعوة الجديدة ، وحسن إسلامهم (٣) وانطلقت هذه القوة الجديدة في طريقها المرسوم لإخضاع بقية القبائل فتوجه إلى قبائل لتونة فأخضعها وانضمت إلى دعوته (٤) ثم توجه بعد ذلك إلى قبائل مسوفة فغزاهم حتى أذعنوا وبايعوا على ما بايعه عليه قبائل لتونة وكدالة (٥) . وكان هذا النصر المتتابع مدعاة لبقيّة القبائل على الانضمام إليه والإنضواء تحت لوائه .

انتقال السلطة إلى لتونة :

وفي خلال هذه الفترة وقع حادث له مغزاه وهو وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي في سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م (٦) ونقل ابن ياسين السلطة العسكرية من قبيلة جدالة إلى قبيلة لتونة وذلك حين إختار يحيى بن تلاكاكين الممتوني (٧)

-
- (١) نفس المرجعين السابقين ص ١٤ ، ص ٩ .
 (٢) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٥ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٩ ، الميلى : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج ٢ ص ٢٠٩ .
 (٣) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٥ .
 (٤) نفس المرجع السابق ، ابن الخطيب ، الحلال الموشية ص ١٠ ، ابن عذارى : البيان ج ٤ ص ١٠ ت د . احسان عباس .
 (٥) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٥ .
 (٦) The Encyclopadia of Islam Vol. ١. P.;319
 (٧) اكتسوس : الجيش العرمرم الخماسى لوحة ٢٧ ميكروفيلم ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٢٨ ت د . العبادى .

قائداً لجند المرابطين ، وقد استند إلى أن قبيلة لمتونة كانت تتمتع بمكانة مرموقة في مجتمع الملتئمين فضلاً عن سيطرتها على طرق التجارة الساحلية مما أكسبها ثروة وغنى مع احتفاظها بالزعامة في أمرائها ما يقرب من قرنين ، وابن ياسين بذلك الاختيار يدل على خبرة عميقة بقدرة القبائل واستعدادها لحمل لواء دعوته (١) ، وبذلك ظهرت قبيلة لمتونة على مسرح الأحداث حين تولى أحد ابنائها يحيى بن عمر القيادة العسكرية ، وتتابع أبناء قبيلة لمتونة في السلطة حتى نهاية حكم المرابطين ، وما إن تسلم يحيى بن عمر مقاليد السلطة حتى باشر مشؤليته في جهاد القبائل المجاورة وخاصة حين اتجه إلى فتح كثير من بلاد السودان الغربي (٢) . وفي هذه الفترة أى سنة سبع وأربعين وأربعمائة استغاث فقهاء درعة وسجلماسة بعبد الله بن ياسين وقوته النامية لإنقاذ بلادهما من الفساد والظلم الذى انتشر في أرجاء البلاد يصور ذلك ابن أبى زرع بقوله « فلما كان في سنة سبع وأربعين وأربعمائة اجتمع فقهاء سجلماسة وفقهاء درعة وصلحائهم ، فكتبوا إلى الفقيه عبد الله بن ياسين وإلى الأمير يحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتاباً يرغبون منهم الوصول لبلادهم ليطهروها مما هي فيه من المنكرات وشدة العسف والجور ، وعرفوهم بما فيه بها أهل العلم والدين وسائر المسلمين من اللد والصغار والجور مع أميرهم مسعود بن وانودين الزناتى المغراوي (٣) ومن هذا النص يبرز دور الفقهاء الإيجائي ورغبتهم في تغيير أوضاع مجتمعاتهم ، كما يشير إلى إنتشار أخبار المرابطين كقوة إصلاحية ، ومن هنا كان استنجاد هؤلاء الفقهاء بقوة المرابطين وبطبيعة الحال استجاب المرابطون لهذه الدعوة ، وذلك لتمشيطها مع مبادئهم وهى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فخرج ابن ياسين في جيش المرابطين

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٤٧ .

(٢) لسان الدين بن الخطيب : أحوال الأعلام : القسم الثالث ص ٢٢٨ .

ت العبادى ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠٣ .

(٣) ابن أبى زرع : الأئیس ج ٢ ص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ت الفيلالى .

في سنة سبع وأربعين وأربعمائة متوجهين إلى درعة وسجلاسة^(١) . وبعد معارك ضارية استطاع المرابطون القضاء على أمراء مغراوة وتولية عمال تابعين لهم وغنم المرابطون مغانم كثيرة ، وزع ابن ياسين خسمها على فقهاء هرونة وسجلاسة والباقي على جنود المرابطين^(٢) ثم عادوا إلى الصحراء ، خير أن ثورة شبت في سجلاسة الهدف منها استعادة المدينة والقضاء على القوة المرابطية التي خلفها ابن ياسين ورائه وقد نجحت في ذلك^(٣) وما إن عاد الأمير يحيى إلى الأخذ بالتأثير حتى قُتل في خلال المعارك التي نشبت بينه وبين أعدائه^(٤) .

الأمير أبو بكر بن همر :

وهنا يختار ابن ياسين أخا الأمير المقتول وهو الأمير أبو بكر بن عمر^(٥) وكان ذلك في عام ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م^(٦) . وقد لعب أبو بكر بن عمر دوراً جديداً في تاريخ الدعوة ، إذ انتقل بها من مرحلة تلبية نداء المعونة من إمارات الشمال في سجلاسة ودرعة إلى مرحلة الغزو المسلح للمغرب الأقصى ، وربما كان السبب وراء ذلك لزيادة حجم القوات المرابطية ، مع وجود قحط أصاب ديار الملثمين ، مما جعلهم يندفعون صوب الشمال ، يضاف إلى ذلك رغبتهم في نشر مبادئهم وتعاليمهم^(٧) واتجه أبو بكر بن عمر بجنوده إلى قبائل برغواطة التي اعتنقت الحوسية ديناً لها^(٨) ، وكان الصراع عنيفاً أسفر عن إصابة داعية

(١) ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ١٩ ت الفيلالي ، لسان الدين ابن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٢٩ ت العبادي ، ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٠٣ .

(٢) ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ٢٠ .

(٣) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٢٩ ت العبادي .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٢٩ .

Encyclopeadia Britannica Vol. 1. P:673 U.A.S. 1960.

(٥) اكتسوس : الجيش العرمم الخبسي لوحة ٢٧ ، ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٠٣ ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٢٩ .

(٦) زامباور : معجم الاتساب ج ١ ص ١١٢ ، ستانلي لين بول : طبقات سلاطين الاسلام ص ٤٧ ترجمة بكى الطاهر مينة ٦٨ .

(٧) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٧٨ تصوير شمس .

(٨) ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٠٣ .

المرابطين عبد الله بن ياسين بجراح خطيرة أدت إلى وفاته (١). إلا أنه قبيل وفاته أكد مرة أخرى على مبادئه وتعاليمه بين تلاميذه حين أوصاهم بقوله « يامعشر المرابطين ، أنا ميت في يومى هذا ، وأنتم في بلاد أعدائكم ، فاياكم أن تحنثوا وتفشلوا وتذهب ربحكم ، كونوا ألفة على الحق وإخواناً في الله وإياكم والمخالفة والتحاسد على الدنيا وإني ذاهب عنكم فانظروا من ترضونه لأمركم يقود جيوشكم ويغزو أعداءكم ويقسم فيكم زكائكم وأشاركم (٢) وهذه الكلمات أنهى عبد الله بن ياسين حياته سنة ١٠٥٩ هـ / ١٠٥٩ م بعد فترة كفاح استمرت اثنتين وعشرين عاماً (٣) منذ أن جاء داعياً إلى ديار المرابطين وبعد أن كوّن نواة مجتمع المرابطين في رباط السنغال ، ثم انطلاقه محارباً في سبيل نشر مبادئه وهو في كل هذه المراحل يمثل الداعية الصادق في تبليغ دعوته ، البعيد عن ترف الدنيا ، المتقل في مطعمه ومشربه (٤) ، وحمل أبو بكر ابن عمر لواء الجهاد ، وواصل كفاحه ضد قبائل برغواطة فاستأصلهم فتكاً وداس بلادهم ، وفرق جموعهم ثم رجع إلى أغمات التي اتخذها عاصمة له (٥) ثم انطلق مرة أخرى إلى الشمال ليواصل انتصاراته ففتح بلاد فازاز ومدائن مكناسة (٦). وقد تحقق له النصر في معاركه بفضل جنوده الأشداء وعلى رأسهم ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي اشترك في كثير من الحملات العسكرية وأثبت كفاءة ومقدرة وحق نجاحاً (٧) غير أن أحداثاً وقعت بالصحراء

(١) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام : القسم الثالث من ٢٣٠ ت العبادى .

Scott : History of Moorish Empire Vol 2 P. 194
London 1904.

(٢) نفس المرجع السابق من ٢٣٠ .

(٣) Scott: History of Moorish Empire Vol 2. P. 194

(٤) ابن أبى زرع : الأتيس ج ٢ من ٣٠ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢

من ١٩ .

(٥) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث من ٢٣١ ت العبادى .

(٦) نفس المرجع السابق من ٢٣١ ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ من ١٨٣ .

(٧) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين من ٢١٩ ، ٢٢٠ .

جعلت أبا بكر يتوقف عن أعماله الحربية ويتوجه إلى الصحراء ، وفي رواية أخرى أنه ترك أعماله الحربية وتوجه إلى الجنوب لجهاد كفار السودان (١).

يوسف بن تاشفين :

ومن ثم ترك القيادة لابن عمه يوسف بن تاشفين وتوجه إلى الصحراء وكان ذلك في سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م (٢) . وكان تخلى أبي بكر عن قيادة المرابطين في الشمال له آثار بعيدة المدى إذ إنتقلت السلطة من يده على المناطق المفتوحة من المغرب الأقصى ، وصارت لابن عمه يوسف بن تاشفين الذي استأثر بها لنفسه ولبنيه من بعده ، كما أن إنفراد يوسف بالسلطة ، جعل أبا بكر بعد ذلك يصرف نظره عن استعادة السلطة من يوسف بن تاشفين وأن يوجه جهوده إلى نشر الإسلام في غانا تلك الجهود التي بدأت في عهد ابن ياسين .

ومن هنا شهد المغرب الأقصى حركتين مسلحتين إحداهما في الأطراف الجنوبية للمغرب الأقصى ومتجهة نحو غانا حيث دارت معارك بين جيش المسلمين والقبائل الوثنية استمرت أربعة عشر عاماً (٣) نتج عنها الاستيلاء على كومبي وانتشار الإسلام بين سكان المنطقة (٤) غير أن حركة الجهاد هذه توقفت وذلك بموت باعنها ومحركها أبي بكر بن عمر في سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م شهيداً في إحدى المعارك (٥) ، ونتج عن ذلك تقلص نفوذ المرابطين السياسي

(١) ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٠٤ .

(٢) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٣١
ت العبادي ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٨٣ ، بوفيل :
الممالك الاسلامية في غرب افريقيا ص ١٠٠ .

(٣) بوفيل : الممالك الاسلامية في غرب افريقيا ص ١١٢ ، ريمون
ميرون : الصحراء الكبرى : ص ٧٨ .

(٤) نفس المرجعين السابقين ص ١١٢ ، ص ٧٨ .

(٥) ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٠٤ ، د. أحمد شلبي : موسوعة

التاريخ الاسلامي ج ٦ ص ١٠٩ ط ١ سنة ٧٢ .

J. Spencer : A history of Islam in West Africe P. 30

Fag : An Introduction to the History of West Africa P. 22

إلا أن نفوذهم الديني ظل موجوداً متمثلاً في طبقة الحكام الذين اعتنقوا الإسلام^(١) وأما حركة الكفاح الثانية ، فكانت بقيادة يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقي للدولة المرابطين بالمغرب الأقصى وقد ذكر نسبه ابن أبي زرع بقوله « هو أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بن ابراهيم بن ترقوت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة بن أمية بن وائل بن تليت الحميري الصنهاجي اللمتوني من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير ، أمه حرة لمتونية بنت عم أبيه اسمها فاطمة بنت سيرين يحيى بن واجاج بن وارتقطين المذكور »^(٢) ، وقد تجمعت في هذا القائد المرابطي صفات الزعامة والقيادة من نجدة وشجاعة وحزم ومهابة^(٣) مما جعلت قلوب المرابطين تلتف حوله ، وتسانده في عملياته العسكرية المقبلة ، وتأكيدها لسلطانه ، شرع في بناء عاصمة مراکش في عام ٥٤٥هـ / ١٠٦٢م^(٤) لتكون بمثابة نقطة إنطلاق لإستكمال بسط نفوذه على المغرب الأقصى^(٥) .

وما إن حلت سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م حتى كان يوسف بن تاشفين قد أحكم قبضته على المغرب الأقصى ، ومكّن لسلطانه السياسي على البلاد بعد كفاح مرير خاضه على رأس جيش المرابطين^(٦) .

انطلاق المرابطين الى الأندلس :

وقد قيّض الله لهذه الشخصية الفذة وهي شخصية يوسف بن تاشفين أن تلعب دوراً آخر ، وذلك بعد أن قامت بتوحيد المغرب الأقصى في ظل

(١) جوليان : تاريخ إفريقيا ص ٨٢ ترجمة طلعت موسى الألف كتاب سنة ٦٨ د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٦ ص ١١٠ ط ١ سنة ١٩٧٢ .

(٢) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ٣٥ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٦ .

(٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٢ ، اشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٧١ ترجمة عنان (٥) ابن أبي زرع : الأندلس ج ٢ ص ٣٩ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٢٤ ، ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٧٣ .

Encyclopaedia Britannica Vol 1. P: 674.

(٦) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٠٦ .

زعامة موحدة ، ذلك الدور هو الانطلاق إلى الأندلس ، وتحمل أعباء الكفاح المسلح ضد أطباع النصارى ووقف الزحف المسيحى ، وكان هذا الانطلاق أيضاً بداية صفحة جديدة فى علاقة المغرب الأقصى بالأندلس التى ستصبح بعد ذلك تابعة للمغرب الأقصى فى ظل المرابطين والموحدين ، مما نتج عنه آثار بعيدة المدى فى شكل الحياة بالمغرب الأقصى فى عهد المرابطين والموحدين وهذا ما سنشير إليه فى الفصول القادمة وقد تمّ الإتصال بين المغرب الأقصى والأندلس حين استنجد بعض ملوك الطوائف وعلى رأسهم ابن عباد يوسف بن تاشفين كمنقذ لأرض الإسلام من وقوعها فى أيدي النصارى (١) وبعد استشارة يوسف لأهله ومن حوله أشاروا عليه بالإستجابة لهذه الدعوة وذلك لأنها تتفق مع مبادئهم من نصرته الدين والدفاع عنه (٢) .

معركة الزلاقة :

وعلى هذا الأساس انطلق يوسف بن تاشفين على رأس قواته صوب الأندلس ، ودارت بينه وبين الأذفونش رئيس المعسكر المسيحى عدة مكاتبات قبل بدء المعركة (٣) ثم كان لقاء يوسف بن تاشفين على رأس جيش المرابطين والأندلسيين فى مواجهة الأذفونش على رأس قواته المسيحية فى سهل الزلاقة فى عام ٥٤٧٩ / ١٠٨٦م (٤) وقد ذكر المراكشى أنها حدثت فى عام ٤٨٠ هـ -

(١) المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص ١٣٠ تحقيق العريان ط ١ سنة ٤٩ ، الصفاقسى : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٦٩ تونس سنة ١٣٤١ هـ لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثانى ص ٢٧٨ ، ص ٢٧٩ تحقيق ليفى بروفنسال سنة ١٩٣٤ رباط الفتح ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٨٥ ، د. على محمود حموده : تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى ص ٢٧٥ ط ١ سنة ٥٧ .

Altamira : A History of Spain. P : 154

Lane Pool : The Moors in Spain, P : 178.

فيليب حتى : تاريخ العرب المجلد الثانى ص ٧٠١ ترجمة مبروك نافع ط ٣ سنة ٥٢ .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٣١ .

(٣) الصفاقسى : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٦٩ ، ص ١٧٠ .

(٤) ابن أبى زرع : الأتييس ج ٢ ص ٥٢ ت الفيلالى ، أشباج :

١٠٨٧م^(١) وقد أفاضت المراجع في وصف المعركة، وذلك لأهميتها وما ترتب عليها من نتائج^(٢)، إذ أن أولى هذه النتائج أن فتحت عين القائد المرابطي على مدى الترف والثراء الذي يحياه ملوك الطوائف، وخاصة بعد أن قام بزيارة أشبيلية في صحبة المعتمد عقب نصر الزلاقة وشاهد بنفسه مظاهر البلخ والثراء الذي يتمتع به الأمراء في قصور أشبيلية^(٣) وبالرغم من نصيح يوسف ابن تاشفين للأمراء الأندلس بالاتحاد والتضامن في دفع الغزو الخارجي^(٤) إلا أنهم لم يستجيبوا لهذا النصيح مما أدام ضعفهم ودفع يوسف بن تاشفين إلى العبور بعد ذلك إلى الأندلس للقضاء على العدو الخارجي المتمثل في الجيوش المسيحية المتربصة، وفي العدو الداخلي المتمثل في أمراء المسلمين الضعفاء الذين يحكمون البلاد، حتى صارت الأندلس تابعة لسلطة المرابطين^(٥)، كما أن نصر المرابطين أوقف التيسار المسيحي من الاستمرار في إقطاع المدن الإسلامية^(٦) وبجانب ذلك فإن تبعية الأندلس للمرابطين ومن بعدهم الموحدون أسهم في الازدهار الحضاري الذي عاشه المغرب الأقصى.

تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٩٠، لسان الدين بن الخطيب: أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٤٢ ت العادي .
(١) المراكشي: المعجب ص ١٣٥ .

Julien : Histoire de L'Afrique, P 85.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٣٣، ابن أبي زرع: الأنيس ج ٢ من ص ٥٣ الى ص ٦٥، السلاوي: الاستقصا ج ٢ من ص ٤٠ الى ص ٤٩، أشباح: تاريخ الأندلس ج ١ ص ٩٠ .

Lare Pool : The Moors in Spain ; P. 179.

(٣) د. حسين مؤنس: الثغر الأعلى الأندلسي ص ٩٦ ديسمبر سنة ١٩٦٩ مجلة كلية الآداب م ١١ ج ٢ .

Gayangos : The History of Mohamedan Dynasties in Spain, Vol 2, P. 289, Nevill : A Survey of North West Africa, P : 24 London 1962.

(٤) الأمير عبد الله بن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٦ تحقيق ليفي بروفنسال . دار المعارف .

(٥) المراكشي: المعجب ص ١٦٢، ص ١٦٣ .

(٦) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ص ١٨٤، عبد الله ككون: مدخل الى تاريخ المغرب ص ٣٥ ط ١ سنة ١٩٤٤ تطوان، د. حسين مؤنس: الثغر الأعلى ص ٩٤ .

فاذا ما انتقلنا إلى المغرب الأقصى لوجدنا أن الكفاح المسلح في الأندلس ،
ساعد على صهر قبائل المغرب الأقصى في بوتقة واحدة وجمع بين القبائل
المختلفة التي توجهت للجهاد في الأندلس ، كما أنها رفعت من قدر هذه
الجيوش ، بحيث أصبح المرابطون قوة لا يستهان بها ، مما ساعد على استكانة
القبائل ، وسارت طائفة مختارة في ركب الدولة الجديدة (١) ، ومن ناحية أخرى
فلأنها أضفت على قائد المرابطين الذي حمل شرف الجهاد في المغرب والأندلس
لقب الزعامة والبطولة ، وأصبح يوسف بن تاشفين يحكم مملكة مترامية
الأطراف يصفها ابن أبي زرع بقوله « وكان — أي يوسف بن تاشفين —
ملكه من مدينة أفرانج أول بلاد الإفرنج قاصية شرق بلاد الأندلس إلى آخر
عمل شترين والأشبونة على البحر المحيط من بلاد غرب الأندلس وذلك مسيرة
ثلاثة وثلاثين يوماً طولا ، وفي العرض ما يثرب من ذلك ، وملك بالمغرب
من بلاد العدو من جزائر بني مزغنة إلى طنجة إلى آخر السوس الأقصى إلى
جبل الذهب من بلاد السودان » (٢).

وبجانب كونها مناطق شاسعة ، فإنها تمتعت بالازدهار والرقى ، وصار
العصر الذهبي للمرابطين هو فترة حكم يوسف بن تاشفين (٣) وابنه علي بن
يوسف وما إن حلت سنة ٤٩٨ هـ حتى أصيب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين
بالمرض الذي أودى به إلى الوفاة في عام سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م (٤) . ولم ينس
واجبه تجاه أمته ، وذلك حين أوصى ابنه وولي عهده بعدة وصايا لحفاظاً على
المبادئ والتعاليم التي قامت على أساسها الدولة ، وتبذلخص في الحرص على
العلاقات الطيبة مع المصامدة ، والمحافظة على المعاهدة المعقودة بين المرابطين

-
- (١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٨٥ .
(٢) ابن أبي زرع : الأتييس ج ٢ ص ٣٦ ، ٣٧ ت الفيلاي ،
السلوى : الاستقصا ج ٢ ص ٦٠ .
(٣) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي والثقافي ج ٤ ص ١٢٥
ط ١ سنة ٦٧ .

Scott ; History af Moorish Empire, Vol 2 : 197 .

Encyclopadia Britannica Vol 1. P : 674.

- (٤) ابن أبي زرع : الأتييس ج ٢ ص ٧٧ ، ابن الخطيب : الحل
الموشية ص ٦٠ ، أشباخ : تاريخ الأندلس ج ١ ص ١١٩ ترجمة عنان .

وبين بني هود في الأندلس والمعاملة الطيبة لسكان قرطبة (١) ، ثم أسلم روحه حيث دفن بمراكش (٢) .

علي بن يوسف بن تاشفين :

وتولى خلفاً له ابنه علي بن يوسف بن تاشفين في سنة ١١٠٦/٨٥٠٠ م (٣) . وبالرغم من أن أمير المسلمين الجديد لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره (٤) إلا أنه أحسن تولّى مقاليد الأمور ، حيث اقتنى سياسة أبيه (٥) ، بالإضافة إلى تمتعه بكثير من الخصال التي أحلتها مكاناً طيباً في نفوس رعيته ، فقد كان حسن السيرة ، جيد الطوية ، نزيه النفس بعيداً عن الظلم (٦) وبجانب ذلك استعان بالفقهاء والعلماء في تسيير دفة الحكم في البلاد (٧) وجرياً على سياسة والده في إحياء مبدأ الجهاد ، فإنه ما إن فرغ من تسلم مقاليد الحكم في البلاد حتى شرع في استكمال الجهود الحربية التي بدأها والده في ميدان الأندلس (٨) والمتبع للنشاط الحربي للأمير علي بن يوسف ، في الفترة الأولى من عهده يجد أن معظمها كان موجهاً للأندلس وذلك لتثبيت سلطان المرابطين بالأندلس

(١) محمد عثمان المراكشي : الجامعة اليوسيفية بمراكش ص ٩٠ سنة ٣٧ الرباط .

Cayangos : The History of Mohamedan V.2 P ; 302,

(٢) الميلى : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج ٢ ص ٢١٣ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٢ ، ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٠٥ ، لين بول : طبقات سلاطين الاسلام ص ٤٧ ، زامباور : معجم الانساب ج ١ ص ١١٣ .

Murphy : The History of the Mahometan, P: 130 London

1816, Scott : History of Moorish Empire, Vol 2 P: 242.

(٤) ليفى بروغنسال : الاسلام في المغرب والأندلس ص ٢٤١ ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم ، الألف كتاب .

(٥) المراكشي : المعجب ص ١٧١ .

Murphy : The History of Mahometan, P : 130.

(٦) المراكشي : المعجب ص ١٧١ ، اشباح : تاريخ الأندلس في عهد

المرابطين والموحدين ج ١ ص ١٢١ .

(٧) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٢ .

(٨) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٢ ب د . احسان

عباس .

ومواجهة هجمات المسيحيين المتكررة ، ولذلك نراه يعبر بنفسه إلى الأندلس أربع مرات (١) . وكان لانتصارات علي بن يوسف صدها في العالم الإسلامي مما دفع الخليفة العباسي المستظهر إلى إرسال رسالة يجدد فيها رضاه عنه كما فعل مع والده من قبل وينصحه بمواصلة الجهاد ، ومما جاء فيها « فاتخذ التقوى عمادك والحق منارك وكتاب الله وسنة رسوله شعارك وتجرّد للدفاع عن الإسلام والمسلمين وحط من صعادك في نحور أعداء الله الكافرين » (٢).

ظهور محمد بن تومرت :

غير أن الدولة لم تنعم بالإستقرار طويلا ، حيث ظهر على مسرح الأحداث داعية ديني هو محمد بن تومرت الذي استطاع بما أوتي من علم وذكاء أن يغير من أوضاع البلاد ويدخل في صراع جلدى وحربي مع المرابطين ذلك الصراع الذي انتهى بسقوط دولة المرابطين على يد عبد المؤمن بن علي خليفة المهدي بن تومرت . وكثير من المؤرخين يرجعون نسب ابن تومرت إلى البيت النبوي حيث يذكرون نسبه بقولهم : هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم (٣) ويذكر البيهقي نسبة أخرى تنتهي أيضاً إلى بيت النبوة حين يقول « ينقل من يوثق بنقله من قرابته وغيرهم ، محمد بن عبد الله بن وكليد بن يامصل ابن حمزة بن عيسى بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٤) وهذه النسبة إلى

- (١) د. السيد عبد العزيز : تاريخ مدينة المرية ص ٩١ سنة ٦٩٠ هـ ، دار النهضة ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٤١ .
(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦٤ ، ٦٥ .
(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ٣٤ ، الرباط سنة ١٩٦٥ ، ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ١٠١ ، ١٠٢ ، الفيلالي ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٥ ، الزركشي : تاريخ الدولتين ص ٢ ط ١ ، تونس سنة ١٢٨٩ هـ ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٦ .
١٩٢٨ م .
(٤) البيهقي : أخبار المهدي بن تومرت ص ٢١ ت بروفنس سنة ١٩٢٨ م .

بيت النبوة تشكك فيها بعض المؤرخين أمثال تراس وجولييان وليني ورفنسال وجولد تسهر (١) غير أن ابن خلدون دافع عن نسبة ابن تومرت إلى بيت النبوة ، وفند مزاعم من هاجم هذه النسبة ، وأرجعها إلى حقد العلماء والفقهاء في الدولة المرابطية ، الذين خشوا من ضياع نفوذهم وسلطانهم حين هاجمهم ابن تومرت وكشف عن ضيق أفقهم وتزمتهم ، وبخاصة حين كثرت الالتفاف الجماهير حول الداعي الحديد ودعوته (٢) وقد استغل ابن تومرت نسبته إلى البيت النبوي في تثبيت دعوته في نفوس أتباعه معلناً أنه المهدي المنتظر ، وابن تومرت من قبيلة هرغة إحدى قبائل المصامدة (٣) .

رحلة ابن تومرت العلمية :

وقد نشأ ابن تومرت نشأة دينية محبا للعلم وحريصاً عليه (٤) غير أن تلك الدراسات التي تلقاها في موطنه لم ترو ظمأه العلمي ومن هنا قام برحلة علمية إلى المراكز الثقافية المشهورة في العالم الإسلامي ، وقد بدأ رحلته إلى الأندلس على رأس المائة السادسة من الهجرة حيث نال حظاً من العلم (٥) ، ثم واصل رحلته بعد ذلك إلى المشرق ماراً بالإسكندرية ومنها إلى مكة ثم بغداد (٦) حيث التقى بأكابر علمائها وتلقى عنهم العلوم الدينية من أمثال أبي بكر الطرطوشي ، واختلف المؤرخون في لقاء ابن تومرت بالإمام الغزالي ، فمنهم من يثبت ذلك

(١) د. عبد الله علام : الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي ص ٤٧ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ .

(٢) ابن خلدون : مقدمته ص ٢٦ ، ٢٧ بيروت .

(٣) ابن أبي زرع : الأئیس ج ٢ ص ١٠٣ ، ١٠٤ ت الفيلالى ، المراكشى : المعجب ص ١٧٨ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٣٥ .

Budgett : The Moorish Empire, P : 165

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٣٦ .

(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ٤ .

(٦) المراكشى : المعجب ص ١٧٨ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٩٤ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٦ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٦ .

Scott : History of Moorish Empire Vol, 2 P : 249

Encyclopaedia Britannica Vol. 1 P : 672,

Encyclopaedia of Islam, Vol, 2, p : 426.

ومنهم من يتشكك فيه ، ومنهم من ينفيه^(١) حتى إذا أنهى دراسته العلمية والتي استغرقت خمسة عشر عاماً^(٢) كرّر راجعاً إلى المغرب ، وقد تزوّد من هذه الرحلة بقدر كبير من المعرفة والثقافة ظهرت نتائجها في كثير من آرائه الدينية التي نادى بها فيما بعد كتأثره بآراء ابن حزم^(٣) ، كما أن هذه الرحلة فتحت عينيه على حالة المسلمين السياسية بالشرق ومدى الانقسام الذي تعيشه الولايات الإسلامية وضعف الخلافة العباسية^(٤) لذا عزم على تحقيق الوحدة الإسلامية في ظل خلافة موحدة ومن ثم بدأ دوره كمصلح ديني خلال رحلة العودة وأثناء مروره بمدن المغرب حاول تغيير الأوضاع الفاسدة التي لمسها في المدن المغربية التي مر بها كبجاية وتلمسان^(٥) ، وفي كل مكان يحلّ به يجد إستجابة من الجماهير ورفضاً من الحكام الذين رأوه خطراً يهدد مصالحهم ومراكزهم .

اللقاء بين ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي :

غير أن رحلة العودة هذه تكتسب أهمية خاصة وذلك حين التقى ابن تومرت داعي الموحدين بعبد المؤمن بن علي التلميذ المخلص لابن تومرت والمؤسس الفعلي لدولة الموحدين في قصة طويلة تدل على ذكاء ابن تومرت

(١) «حول لقاء ابن تومرت بالامام الغزالي ، اختلف المؤرخون فمنهم من يثبت ذلك مثل ابن القطان وابن صاحب الصلاة وابن أبي زرع والسلوي وابن خلكان والزركشي في تاريخ الدولتين وابن أبي دينار حيث يذكر أن ابن تومرت لازم الغزالي ثلاث سنين . ومنهم من يشير الى هذا اللقاء في تحفظ لا يخلو من الشك مثل عبد الواحد المراكشي في المعجب وابن خلدون والنويري في نهاية الارب ، ومنهم من أنكر هذا اللقاء مثل ابن الأثير في الكامل ، وقد وفي هذه المسألة حتها من البحث الاستاذ أويثي في كتابه « تاريخ الدولة الموحدية » ، وانتهى الى أن قصة هذا اللقاء موضوعه وأن القرائن التاريخية تدل على استحالة وقوع ذلك : د. محمد علي مكي - حاشية نظم الجمان لابن القطان ص ١٦ » .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٤ .

(٣) The Encyclopediad of Islam Vol. 2. P ; 426,

(٤) المجلد : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٥) المراكشي : المعجب ص ١٧٩ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ٢١ ،

٢٢ ، الزركشي : تاريخ الدولتين ص ٢ ، ٣ .

وقدرته على استمالة الأنصار والأتباع^(١) ، وقد حرص عبد المؤمن على مصاحبة أستاذه في كل مكان يذهب إليه ، يحفظ عنه مبادئه وتعاليمه ، ويرقب عن كتب لثفاف الناس حول الداعي ودعوته^(٢) وكان الصدام المباشر بين ابن تومرت والسلطة الحاكمة في البلاد حين وصل إلى مراكش في منتصف ربيع الأول عام خمسة عشر وخمسمائة^(٣) ، وهناك قام بدوره في الوعظ والإرشاد ووصلت أنبأؤه إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين الذي جمع له مجلساً من كبار الفقهاء والعلماء وكانت مناظرة بين ابن تومرت وعلماء المرابطين حيث بدأها قاضى المرية مستفسراً من ابن تومرت عما صدر منه من أقوال ضد أمير المسلمين ، وهنا أقر ابن تومرت ما نسب إليه من أقوال ، ودعّم أقواله بذكر المنكرات المتفشية في المجتمع وذلك أن الخمر تباع جهاراً وأن الخنازير تمشى بين المسلمين ، وأن أموال اليتامى تؤخذ ظلماً وغير ذلك من الأقوال ، وهنا تأثر أمير المسلمين بأقواله حتى ذرفت عيناه وصمت علماء المرابطين ، غير أن مالك بن وهيب حذر أمير المسلمين من دهاء ابن تومرت وطالب بسجنه ولكن أمير المسلمين لم يستجب له^(٤) والواقع أن ابن تومرت استغل صلاح وتقوى أمير المسلمين حين ظهر في ثوب من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولم يفصح عن حقيقة نواياه وبذلك استطاع التأثير في أمير المسلمين ..

وأُسفرت المناظرة عن طرد ابن تومرت من مراكش ، خشية التأثير في العامة فضلاً عن إضعاف مركز الفقهاء ، وكان ذلك بأمر أمير المسلمين علي

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٢ ، المعنى : عقد الجمان ج ٢٠ قسم ٤ ص ٧٧٢ تصوير شمسي ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ ، ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٠٧ ت الفيلاي ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٦٧ ، ت العبادي

Nevill: Morocco, P: 71 London 1965.

(٢) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٢٧ .
(٣) الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٣ .
(٤) ابن خلكان : : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٣٨ — ١٤٠ ، د. عبد الله علام : دولة الموحدية بالمغرب ص ٦٠ ، ٦١ د. عبد الله علام : الدعوة الموحدية ص ١٠٠ ، ١٠١ ، عبد الله كنون : النبوغ المغربي ج ٢ ص ٧٣

ابن يوسف وكان هذا الطرد خطأ كبيراً دفعت الدولة المرابطية ثمنه غالباً حيث كلفها ذلك زوال الدولة ، فما إن فارق ابن تومرت مراکش حتى أعلن عن نواياه في مواجهة السلطة الحاكمة ، حيث أعلن خلع إمام المسلمين على ابن يوسف وبايعه من حوله إماماً للدعوة الجديدة ، وكان ذلك في سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م على أرجح الآراء^(١) وانتهى المطاف بابن تومرت في مدينة تينملل ، تلك المدينة التي أصبحت فيما بعد العاصمة السياسية والروحية للموحدين في عهد ابن تومرت ، ثم العاصمة الروحية لخلفاء الموحدين ، وقد توجه إليها ابن تومرت نتيجة لدعوة أهلها له للإقامة بين أظهرهم^(٢) . وفيها وجد ابن تومرت ضالته المنشودة حيث أنها مدينة منيعة وحصينة^(٣) مما جعلها مركزاً صالحاً في توجيه شئون الدعوة ، وفي نفس الوقت تتمتع بمناعة تجعلها بعيدة عن متناول السلطة الحاكمة .

وسائل ابن تومرت في دعم سلطته :

وما إن استقر ابن تومرت في تينملل حتى شرع في تحقيق مبادئه السياسية والدينية والتي تنحصر في إقامة خلافة إسلامية بالمغرب ، والقضاء على التزمّت الديني الذي كان يحياه فقهاء المغرب والحد من سيطرتهم^(٤) . وفي سبيل تحقيق هذه المبادئ استخدم ابن تومرت كل ما يملك من أسباب القوة من دهاء وحزم وعلم^(٥) حتى يحقق ما يريد ، وكانت وسائله متنوعة ومتعددة ، فقد بدأ ببناء رابطة يستقبل فيها المريدين ، ثم قام بدور المعلم الذي يبث نصالته

(١) المراكشي : المعجب ص ١٧٨ ، ابن القطان : نظم الجبلان

ص ٧٤ .

The Encyclopediad of Islam, Vol 1, P: 316

(٢) ابن القطان : نظم الجبلان ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٩٥ .

(٤) ابن عبود : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٢٧ ط ٢ سنة ٥٧ تطوان ، اشباح : تاريخ الاندلس ج ٢ ص ٢٤٠ ، محمد النوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص ١١ تطوان سنة ١٩٥٠ .

(٥) العمري : مسالك الأبنصار ج ١٥ ص ٣٧ ، ٣٨ تصوير شمسي .

وأفكاره بين مريديه ، بدون أن يظهر رغبة في الملك والسلطان^(١) ، وحتى يسهل على الأتباع حفظ مبادئه وأفكاره نراه يؤلف لهم عقيدة في التوحيد بلغة البربر^(٢). ثم هو يعمد إلى التأثير بوجه خاص في أنعم الناس وجهاتهم وذلك حتى يسلس قيادهم وفي ذلك يقول ابن خلكان والسلاوى : « ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول محمد بن تومرت إليهم ، وكان قد سار فيهم ذكره فجاءه من كل فج عميق ، وتبركوا بزيارته ، وكان كل من أتاه استندناه ، وعرض عليه ما في نفسه من الخروج على الملك ، فان أجابه أضافه إلى خواصه ، وإن خالفه أعرض عنه ، وكان يستميل الأحداث وذوى الغرة^(٣) » ، وفي نفس الوقت لم يكتف بالقبائل الوافدة عليه بل أرسل الكتب إلى القبائل المختلفة يدعوها إلى الإنضمام إليه والخروج على الدولة^(٤) ، وحتى يؤكد نفوذه وسيطرته بين أتباعه ، نراه يلجأ إلى الحيلة والخداع ، وذلك حين اتفق مع أحد تلاميذه ، وهو عبد الله الونشريسي وكان على علم ومعرفة فصيحاً في لغة العرب وأهل المغرب^(٥) اتفق معه على أن يظهر العجز والعتي والجهل أمام الأتباع والمريدين ، ثم يظهر عكس ذلك في الوقت المناسب الذي يختاره المهدي ، وجاءت اللحظة المناسبة حين جمع المهدي القبائل وأخبرهم بحال الونشريسي التي لمسوها بأعينهم وهي عدم القدرة على الكلام مع الجهل التام ، ثم حدوث المعجزة بأن أصبح فصيحاً بليغاً عالماً بشئون القرآن ، وهنا يظهر الونشريسي ويؤكد ما قاله الإمام ، وبذلك سيطر ابن تومرت على القلوب والعقول^(٦) ويبدو أن ابن تومرت لم يتدخر وسيلة إلا واستغلها مع

(١) المراكشي : المعجب : ص ١٨٧ ، الزركشي : تاريخ الدولتين ص ٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٧ ، جوليان : تاريخ افريقيا ص ٧٥ ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٠٩ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٤٢ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٨٣ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٣٩ .

(٦) نفس المصدر السابق ج ٤ ص ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، النويري :

نهاية الأرب ، ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٥ ، ٨٦ ، العيني : عقد الجمان ج ٢٠ قسم ٤ ص ٧٧٣ ، ٧٧٨ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٩٧ .

ما أوتي من ذكاء ومهارة بالإضافة إلى إختياره للسذج ليكونوا أتباعاً له ، ومن ثم يسهل عليه السيطرة عليهم وأصبحت له الكلمة العليا في كل شئونهم أو كما يقول المراكشي « ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد ، إلى أن بلغوا في ذلك إلى حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء » (١) فاذا ما حاول بعض أتباعه التشكك في سلطته السياسية ودعوته الدينية قضى عليهم مستغلاً في ذلك قصة البشير الونشريسي يقول البيذق « ثم أقام أياماً عدة فأكرم الله المهدي بدعوة البشير فأمر بالمير ، فكان البشير يخرج المخالفين والمنافقين والخبيثاء من الموحدين حتى امتاز الخبيث من الطيب ورأى الناس الحق عياناً » (٢) وكانت مذبحجة راح ضحيتها الكثير من الأنفس مع ما فيها من قسوة وبشاعة ، وقد صور ذلك العمرى والنويرى بقولهما « فكان الونشريسي يعتمد إلى الرجل الذي يخالف ناحيته ، فيقول هذا من أهل النار ، فيلقى من الجبل وإلى الشاب الغر ومن لا يخشاه ، فيقول هذا من أهل الجنة فيترك عن يمينه ، فكانت عدة القتلى سبعين ألفاً » (٣) ولا شك أن ابن تومرت قد عمد إلى التخلص من مناويله يدعم ذلك مارواه البيذق وهو أحد تلاميذ ابن تومرت ومن المخلصين للدعوة الموحديه ، غير أن مارواه العمرى والنويرى عن عدد من قتل يبدو عليه طابع المبالغة حيث لا يجوز منطقياً أن يتخلص ابن تومرت من سبعين ألفاً من أتباعه وهو بسبيل تأسيس دولة ، فضلاً عن الأثر السيء الذي يحدثه قتلهم في نفوس ذويهم وأقاربهم مما يشكل خطراً على الدعوة الموحدية ، وقد تكرر ذلك التمييز بهدف القضاء على المتشككين في الدعوة (٤) وبجانب عمليات التمييز المتكررة قضى ابن تومرت على كل معارضة في عاصمته تينملل وذلك حين أحس من بعضهم إعراضاً (٥) .

(١) المراكشي : المعجب ص ١٩١ .

(٢) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ص ٧٨ ت ليفى بروغنسال باريس سنة ١٩٢٨ .

(٣) العمرى : مسالك الابصار ج ١٦ قسم ٢ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٦ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ١١٤ .

(٥) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ١٥ .

ومن هنا نرى أن ابن تومرت لم يدع وسيلة إلا لاستخدامها في سبيل التأثير على أتباعه ، وجعلهم أداة طيعة لتحقيق أهدافه السياسية والدينية ، حتى إذا تحقق من ولائهم له بدأ الكفاح المسلح الذي أصبح ضرورة حتمية لنجاح دعوته (١) وقد شارك ابن تومرت في الكفاح المسلح إذ تذكر المراجع أنه اشترك في تسع غزوات ضد المرابطين (٢) ، إلا أن معركة البحيرة في سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م على أرجح الآراء ، كانت بداية النهاية لحياة ابن تومرت ، إذ أصيب ، الموحدون بهزيمة شنعاء قتل فيها عدد كبير من الموحدين (٣) . وكانت صدمة كبيرة لابن تومرت الذي وصلته أنبأؤها وهو في تينملل . غير أن ما خفف من هذه الصدمة هو بقاء عبد المؤمن بن علي على قيد الحياة (٤) . وقد صور ذلك المراكشي بقوله « فانهزم المصامدة وقتل منهم خلق كثير ، ونجا عبد المؤمن في نفر من أصحابه ، فلما جاء الخبر لابن تومرت قال : أليس قد نجا عبد المؤمن ، قالوا : نعم قال : لم يفقد أحد » (٥) إلا أن الصدمة كانت أقوى من أن يتحملها ابن تومرت فما لبث أن مرض ولزم داره حتى فارق الحياة في سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م (٦) بعد أن ترك حرباً مشتعلة على أرض المغرب الأقصى ، وأتباعاً يؤمنون بمبادئه ، ومحاربون

(١) د. أحمد شلبي : التاريخ الاسلامي ج ٤ ص ١٨٦ ط ٣ سنة ٦٩ النهضة .

(٢) البيهقي : اخبار المهدي ص ٧٤ الى ص ٧٨ د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٧٩ ، د. عبد الله على عظام : الدعوة الموحدية ص ٢٠٤ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١١٨ ، ص ١١٩ ، ص ١٢٠ ، المراكشي : المعجب ص ١٩٢ ، ص ١٩٣ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٨١ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٦ ت. د. احسان عباس ، محمد عبدالله منسان : عصر المرابطين والموحدين : القسم الأول ص ١٩٠ ط ١ سنة ٦٤

(٤) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٨١ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٢ .

(٥) المراكشي : المعجب ص ١٩٣ .

(٦) البيهقي : اخبار المهدي بن تومرت ص ٨٣ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٨٤ ت. د. احسان عباس ، ابن القطان : نظم الجمان ص ٧٤ ، المراكشي : المعجب ص ١٩٤ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٧٠ .

في سبيلها ، ودولة متداعية تحت ضربات الموحدين حتى سقطت في النهاية على يد تلميذه المخلص وخليفته من بعده عبد المؤمن بن علي .

عبد المؤمن بن علي :

وكما اختلف موقف المؤرخين من نسبة ابن تومرت إلى بيت النبوة ، كذلك أيضاً بالنسبة لخليفته عبد المؤمن بن علي ، فهم من نسبته إلى العرب (١) وفي ذلك يقول المراكشي « وعبد المؤمن هذا ، هو عبد المؤمن بن علي الكومي أمه حرة من كومية أيضاً ، من قوم يقال لهم بنو مجير ، مولده بضيعة من أعمال تلمسان تعرف بتاجرا ، وقيل أنه كان يقول إذا ذكرت كومية: لست منهم وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم وهم الأخوال » (٢) ومنهم من ينكر هذه النسبة (٣) وكان مولده في آخر سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م في أيام يوسف بن تاشفين (٤) ، وبعد أن فرغ عبد المؤمن من تنظيم شئون الموحدين ، وقد استغرق ذلك منه زهاء عام ونصف (٥) شرع في الكفاح المسلح ضد المرابطين ، ذلك الكفاح الذي استغرق سنوات طويلة حتى سقطت دولة المرابطين ، قضى عبد المؤمن منها زهاء عشر سنوات يحارب المرابطين في منطقة الأطلس الجنوبي مراكش في وادي درعة وبلاد السوس وفي بلاد حاحة من أحواف تينملل ، وقد كان النصر حليف الموحدين في معظم هذه المعارك (٦) .

تاشفين بن علي :

إلا أن وفاة عاهل المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين في عام

-
- (١) ابن أبي زرع : الأئیس ج ٢ ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، البيهقي : أخبار المهدي ص ٢١ ، ص ٢٢ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٤ .
(٢) المراكشي : المعجب ص ١٩٦ ، ص ١٩٧ .
(٣) العمري : مسالك الأبصار ج ١٥ ص ٤٠ تصوير شمسي ، ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ص ٢٧٥ ت . د . محمود السيد سالم .
(٤) المراكشي : المعجب ص ١٩٧ .
(٥) عنان : عصر المرابطين والموحدين . القسم الأول ص ٢٢٥ .
(٦) عنان : عصر المرابطين والموحدين . القسم الأول ص ٢٣٤ ، البيهقي : أخبار المهدي ص ٨٤ وما بعدها .

٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م^(١) ، وتولى ابنه تاشفين بن علي الحكم من بعده أدخل الكفاح المسلح في مرحلته الأخيرة ، حيث لم تفلح جهود تاشفين بن علي في صد موجات الموحدين المتتابعة ، وانتهى به المطاف في وهران حيث قتل سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م^(٢) ، وفّت هذا في عضد الدولة المتداعية ، والتي أصبح كثير من أراضيها في أيدي الموحدين .

اسحق بن علي :

وكمحاولة أخيرة من المرابطين في الاحتفاظ بكيانهم المتداعي فانهم قدّموا عليهم ابراهيم بن تاشفين الذي لم ينعم بالسلطة حيث نازعه فيها عمه اسحق بن علي بن تاشفين وتولى مكانه السلطة^(٣) . ولم يستطع اسحق بقواته المتجمعة في عاصمته أن يدفع ذلك الحصار الذي فرضه عبد المؤمن حول عاصمة المرابطين في سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م^(٤) حتى سقطت في يده ، وأعمل فيها عبد المؤمن السيف حتى قضى على كثير من أهلها^(٥) ، وبسقوط العاصمة مراکش انتهت دولة المرابطين ، ذلك الصرح الشامخ الذي وضع لبناته الأولى عبد الله بن ياسين كداعية ديني جمع حوله الأتباع ، وجهود يحيى ابن ابراهيم الجنالي ، في هذه الفترة من عمر الدولة ثم انتقال السلطة إلى

(١) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٩٢ ت الفيلاي ، زامبور : معجم الأنساب ج ١ ص ١١٣ .
(٢) ابن الخطيب : الاحاطة المجلد الاول ص ٤٦١ ت عنان ، المراكشي : المعجب ص ٣٠٣ ، ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٩٣ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٤ ت د . احسان عباس ، الزركلي ، الاعلام ج ١ ص ١٦١ مصر ١٩٢٧ م .
(٣) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام : القسم الثالث ص ٢٦٤ ت ٢٦٥ ت العبادي ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٥ ت د . احسان عباس ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الاول ص ٢٥٥ .

(٤) ابن عذاري : البيان المغرب : ج ٤ ص ١٠٨ ت د . احسان عباس ، ابن حجة : الطرب من اشعار المغرب ص ٣١ ط ١ سنة ٥٤ الخرطوم ، ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٣٨ ت الفيلاي .
(٥) ابن الخطيب : الاحاطة المجلد الاول ص ١٩٢ ت عنان ، ابن الخطيب : الحلال الموشية ص ١٠٥ ، المراكشي : الاعلام بمن حل مراکش من الاعلام ص ٢٣٠ ط ١ سنة ٣٦ فاس .

لثونة متمثلاً في رئاسة يحيى بن عمر ثم أخيه أبي بكر بن عمر الذى أسلم قيادة لجند الشمال لابن عمه يوسف بن تاشفين ، وبذلك دخلت الدولة في دور التوطيد والتوسع حتى بلغت قممها في أواخر عهد يوسف بن تاشفين وابنه على ، وفي عهده اندلعت ثورة الموحدين التى أتت على كل تلك الجهود الحربية .

عوامل سقوط دولة المرابطين :

ولنا بعد ذلك العرض السريع للتاريخ السياسى لدولة المرابطين أن نشير بإيجاز إلى عوامل سقوطها ، ويمكن أن نرجع ذلك إلى عدة عوامل : يأتي في مقدمتها ضعف القيادة العليا للبلاد ، وذلك منذ تولى على بن يوسف بن تاشفين حكم البلاد مما دعا كثيراً من الأمراء إلى الاستبداد يعتبر عن ذلك المراكشي بقوله « واختلف حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسة اختلالاً شديداً ، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة وذلك لإستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا في ذلك إلى التصريح ، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من على أمير المسلمين وأحق بالأمر منه » (١) ، وربما ساعدتهم على ذلك إنصراف الأمير على إلى العبادة ، وما زاد مركز القيادة ضعفاً ، ذلك الخلاف الخطير الذى حدث بين إبراهيم بن تاشفين وعمه اسحق ابن على ، على السلطة في البلاد والموحدون يزحفون نحو عاصمتهم مما أضعف مركز المرابطين وعجل بانتصار الموحدين ، وبجانب ضعف القيادة ، تخاذل الحند وتخليهم عن روح التقشف والجهاد التى تربوا في مهادها ، وذلك لتأثرهم بحياة الترف الأندلسية (٢) كما أن الحروب المستمرة في جبهة الأندلس استنفدت جزءاً كبيراً من طاقة المرابطين الحربية ، مما أسهم في هزائهم

(١) المراكشي : المعجب ص ١٧٧ .

(٢) جوليان : تاريخ أفريقيا ص ٧٥ ترجمة طلعت عوض ، ستانلى لين بول : طبقات سلاطين الاسلام ص ٤٧ ، د. على محمود : تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى ص ٢٨٤ ، حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٧٠٨ .

المتكررة أمام الموحدين يضاف إلى ذلك كثرة الإنفاق على المجهود الحربي الذي استنزف كثيراً من المال مما أدى إلى التدهور الإقتصادي الذي عانت به البلاد في أواخر أيامها .

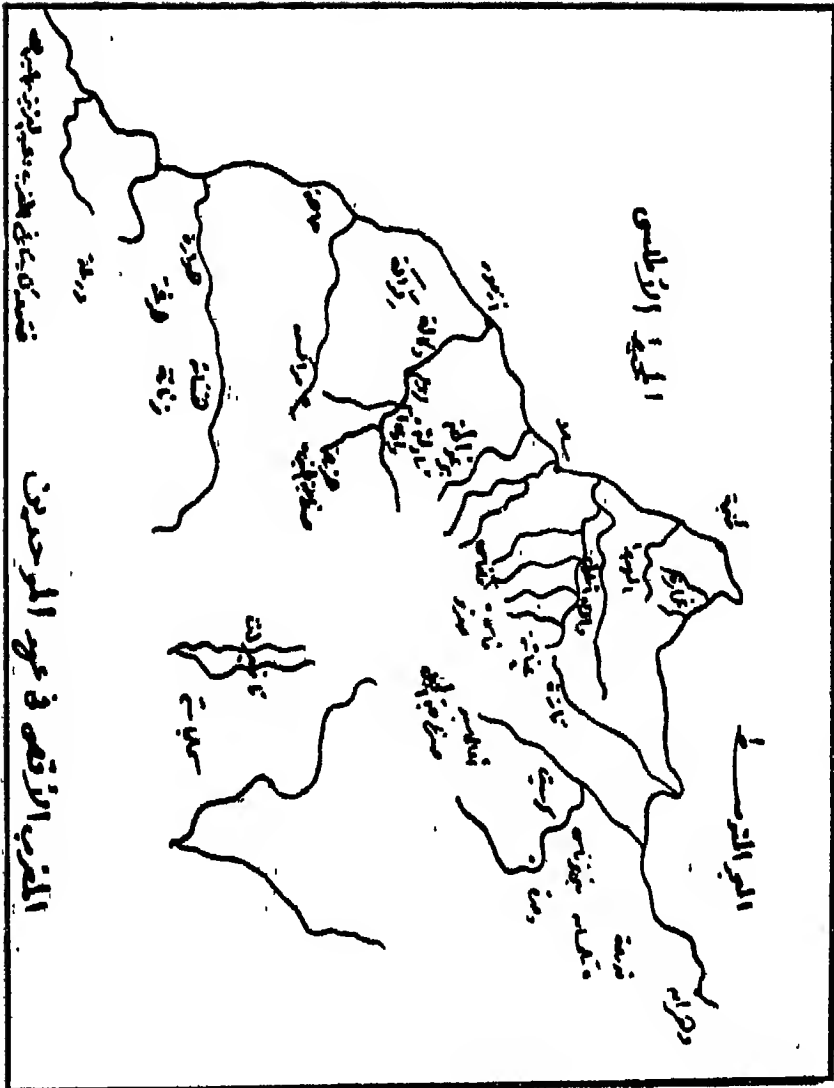
وبجانب ذلك وجود شخصية ذكية لعبت دورها بدهاء على مسرح الأحداث لاجتذاب أكبر عدد ممكن من الأتباع وهي شخصية ابن تومرت الذي تجول في العالم الإسلامي واستغل ذكاه وعلمه في نشر دعوته الدينية التي كانت تناهض مبادئ المرابطين الدينية ، واستخدم كل الوسائل الممكنة في التأثير على أتباعه ومريديه ، ثم تلك القيادة العسكرية القادرة المتمثلة في عبد المؤمن بن علي خليفة ابن تومرت في قيادة الموحدين والذي استخدم مقدرته وذكاه في محاربة المرابطين من اختيار للزمان والمكان المناسبين للحرب مع حسن الإمدادات لحيشته وعدم توفر ذلك للمرابطين ، وفي ذلك يقول ابن الخطيب « كان الموحدون يسرون في الجبال المانعة حيث الأرزاق الواسعة وكان تاشفين ينزل البساط فلا يجد من البرابرة من يواصله من يستعين به ويدخله وذلك بسبب الإدبار وإنقطاع الدولة والأنصار » (١) مع استناد الموحدين في دعوتهم إلى قبائل المصامدة الكثيرة العدد ، وقدم عداوتهم للملثمين (٢) .

جهود عبد المؤمن العسكرية :

وبعد أن سيطر عبد المؤمن على مقاليد الأمور في العاصمة مراکش ، وأحكم قبضته على المغرب الأقصى ، نراه يوجه اهتمامه إلى الشرق ، حيث خرجت الحيوش الموحدية في حملات متتابعة ناحية الشرق حتى وصلت إلى طرابلس في إفريقية ، محقة لانتصارات عسكرية متوالية ، وبذلك نجح الموحدون في تحقيق وحدة سياسية للمغرب الإسلامي ، تدار شؤونها من عاصمة الخلافة في مراکش ، غير أن خضوع هذه المناطق التبرامية لسلطة الخلافة الموحدية في مراکش ، انعكست آثاره على حياة المغرب الأقصى وخاصة

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج ٢ ص ٢١٨ .



منذ أن بدأ الصراع بين الموحدين والعرب الهلالية وهو ما سنعرض له فيما بعد وفي نفس الوقت لم ينس الموحدون واجبههم في حماية الأندلس ، وذلك حين شرع عبد المؤمن في تجهيز حملة كبيرة للدفع النصارى عن مدن الأندلس في سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م^(١) ، إلا أن مرض الخليفة عبد المؤمن حال دون إتمام هذه الحملة ، حيث أفضى المرض إلى موته في سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م^(٢) ، بعد أن ترك وراءه دولة مترامية الأطراف تمتد من طرابلس المغرب إلى المحيط الأطلسي ومن السوس الأقصى جنوباً إلى أكثر جزيرة الأندلس شياً لا^(٣) :

يوسف بن عبد المؤمن :

وتولّى خلفاً له ابنه يوسف بن عبد المؤمن حيث بويغ برباط الفتح عام ٥٥٨هـ / ١١٦٢م^(٤) ، وذلك لما يتمتع به من صفات العبدل والورع والعلم مما جعله أهلاً لتولي منصب الخلافة^(٥) وما إن استقر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن في عاصمته حتى واجهته ثورة في جبال غمارة بقيادة مرزوغ الصنهاجي من صنهاجة^(٦) حيث تبعه خلق كثير ودخل مدينة تازا^(٧) ، إلا أن الخليفة استطاع القضاء على الثورة وقتل زعيمها ، وحمل رأسه إلى مراكش . ثم وجه

(١) ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ١٦٣ ت الفيلاي .

René Millet ; Les Almohades, P ; 93 Paris 1923.

(٢) المراكشي : المعجب ص ٢٣٥ ، ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ١٦٨ ت الفيلاي ، البيهقي : أخبار المهدي ص ٨٣ ابن القطان : نظم الجمان ص ١٦٩ .

(٣) المراكشي : المعجب ص ٢٣٠ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٩ ، الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج ٢ ص ٢٢٤

Budgett Meakins ; The Moorish Empire, P ; 72.

(٤) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٦٥ تحقيق ميرندا تطوان سنة ٥٦ .

(٥) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٧٠ .

(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ تحقيق التازي ط ١ بيروت سنة ٦٩ ، ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ١٨٤ ت الفيلاي السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٤٧ .

(٧) نفس المرجع السابقة .

الخليفة يوسف جلّ جهوده لدعم السلطة السياسية للموحدين في الأندلس ، وقد استنفد منه ذلك كثيراً من الجهد والوقت ، حيث نراه يرسل الجنود في حملات متتابعة إلى الأندلس ، ثم نراه يرأس إحدى هذه الحملات في سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م^(١) أو سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م في رواية المراكشي^(٢) متوجهاً للأندلس لضبط ثغورها وإصلاح أحوالها . حتى إذا عاد إلى المغرب أخذ في الأبهة والاستعداد مرة أخرى لغزوة كبرى في الأندلس وذلك في عام ٥٧٩هـ ١١٨٣م^(٣) إلا أن هذه الغزوة لم يكتب لها النجاح حيث أصيب الخليفة بسهم عند أسوار شنترين مما دفع الجنود إلى الرجوع ومعهم الخليفة المصاب حيث قضى نحبه في عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م^(٤) بعد أن قضى في الحكم مدة اثنتين وعشرين سنة^(٥) .

المنصور الموحدى :

وتولى مقاليد الحكم خلفاً له ابنه يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن في سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م^(٦) ، ولقب بالمنصور ، وقد بلغت الدولة الموحدية في عهده الذى استمر ما يقرب من خمسة عشر عاماً ، أوج ازدهارها وتقدمها وقد توزعت جهود المنصور الموحدى العسكرية في أكثر من ميسدان ، فراه يوجه إهتمامه للقضاء على ثورتين نشبتا في عهده : الأولى بزعامة الجزيرى

(١) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ١٨٦ الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٤٩ .

(٢) المراكشي : المعجب ص ٢٤٨ .

(٣) المراكشي : المعجب ص ٢٥٦ ، ابن أبى دينار : كتاب المؤنس ص ١١٤ .

(٤) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ١٩٣ ، المراكشي : المعجب ص ٢٦١ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٢ ت مسراند ، ابن أبى دينار : كتاب المؤنس ص ١١٤ ، الزركشى : تاريخ الدولتين ص ١٤٧ ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثانى ص ٣٠٩ ت بروفسال

Murphy : The History of the Mohametan, P;132

(٥) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ١٩٣ ت الفيلالى .

(٦) زامباور : معجم الانساب ج ١ ص ١١٣ .

الذى أخذ يدعو لنفسه بين القبائل فى سنة ٨٥٨٥ / ١١٨٩م^(١) إلا أنه قضى عليها وقتل زعيمها^(٢) ، أما الثورة الثانية فكانت ببلاد الزاب حيث قام أحد الأدعياء ويدعى الأشل " بدعوة القبائل لطاعته ، فاجتمع حوله شراذم من العرب وكان ذلك فى عام ٨٥٨٩ / ١١٩٣م^(٣) وقد كان القشل مصير هذه الثورة أيضاً .

جهوده فى أفريقية :

وهناك ميدان آخر استنفذ جهداً وأموالاً كثيرة وذلك هو ميدان إفريقية وثورة بنى غانية ، تلك الثورة المدمرة التى وصفها الميلى بقوله « دامت ثورة ابن غانية نصف قرن ، ولم يجن الوطن منها غير الخراب »^(٤) ، وكان الهدف منها إحياء دولة المرابطين وإعادة الدعاء للخلافة العباسية على المنابر^(٥) ولذلك وجّه المنصور الموحدى جهوده للقضاء على هذه الحركة التمردية فخرج من مراكش فى سنة ٨٥٨٢ / ١١٨٦م^(٦) قاصداً تونس ومحاولاً القضاء على هذه الحركة وقد تمّ له ذلك ومن ثم رجع إلى عاصمته فى سنة ٨٥٨٤ / ١١٨٨م^(٧) غير أنه لم يبحث بدور الفتنة نهائياً ، ولذلك ظلت هذه الثورة شجا فى جنب الدولة الموحدية عهد المنصور الموحدى وابنه الناصر من بعده . أما الميدان الأخير والذى برزت فيه جهود المنصور الموحدى ، فهو ميدان الأندلس الذى أولاه المنصور إهتمامه وعنايته ، وتوجّ هذا الإهتمام بانتصاره العظيم فى معركة الأرك تلك المعركة التى أعادت أمجاد الزلاقة ، وكانت بين جيوش المسلمين بقيادة بطل الأرك المنصور الموحدى وجنود الروم بقيادة الأذفونش

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٤٠ ، ١٤١ ت ميراندا .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٣١ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٥٤ .

(٤) الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٥) الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٦) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٧) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ١٦١ .

في عام ٥٩١هـ / ١١٩٤م^(١) وقد أفاضت المراجع في وصف هذه المعركة تلك المعركة التي وطدت من سلطة الموحدين بالأندلس وأوقفت زحف المسيحيين ، وزادت من هيبة الموحدين ومكانتهم في الشمال الإفريقي حتى إذا حلت سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م أصيب المنصور الموحدي بوعكة أدت إلى وفاته^(٢) بعد فترة جهاد وكفاح استمرت خمسة عشر عاماً منذ توليه منصب الخلافة

الناصر الموحدي :

وتولى خلفاً له ابنه أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالناصر لدين الله حيث بويع البيعة العامة بعد أسبوع من وفاة أبيه وذلك في سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م^(٣) وقد حدثت في عهده تطورات سياسية وعسكرية ، إنتقلت بالدولة الموحدية من مرحلة القوة والسيادة التي تمتعت بهما في عهد عبد المؤمن بن علي وابنه يوسف وحفيده المنصور ، إلى مرحلة التمهيد للإنهيار العام للدولة ثم سقوطها . غير أن نذر الضعف لم تظهر في أوائل عهد الناصر ، حيث حقق في أوائل عهده وبعد معارك عنيفة في الجبهة الإفريقية عدة إنتصارات على ثورة بني غانية إذ توجه إلى إفريقية في سنة ٥٩٨هـ - ١٢٠٩م^(٤) وعاد في سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م بعد أن حقق نجاحاً في الميدان الإفريقي^(٥) ، وفي سبيل تأمين الجبهة الإفريقية ، ولّى الناصر عليها الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتائي وكان من أشياخ الموحدين^(٦) ،

(١) المراكشي : المعجب ص ٢٨٢ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ١٦٠ ت ميراندا ، الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ١٢ ت ليفي بروفنسال سنة ٣٧ ، ابن أبي دينار : المؤنس ص ١١٦ ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثاني ص ٣٠٩ ليفي بروفنسال .

(٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ٤ ص ١٨٣ ت ميراندا ، ابن أبي زرع : الأئيس ص ١٦٧ طبع حجر ، الزركشي : تاريخ الدولتين ص ١١ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ١٩٢ تحقيق ميراندا ، ابن أبي دينار : المؤنس ص ١١٦ ، الزركشي : تاريخ الدولتين ص ١٤٧ .

(٤) ابن أبي زرع : الأئيس ص ١٦٨ طبع حجر .

(٥) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثاني ص ٢٧٠ .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٢٧٠ .

(م ٤ — الحضارة)

الذى عكف على معالجة شئون إفريقية ودعم سلطان الموحدين بها^(١) ، إلا أن ولاية أبي حفص كانت البداية لقيام دولة الحفصيين في تونس حيث استقل أبناء أبي حفص بهذه الولاية وأسسوا ملكاً مستقلاً^(٢)، وذلك حين دبّ الضعف في قيادة الموحدين وأذنت الدولة بالزوال . ولعبت جبهة الأندلس دوراً كبيراً في ضعف الدولة الموحدية وذلك حين فجع الموحدين بهزيمة قاسية في معركة العقاب^(٣) راح ضحيتها الكثير من جند الموحدين ، وأفقدت الموحدين هيبتهم بالميدان الأندلسي ، تلك الهيبة التي أكد من وجودها المنصور الموحدى بطل معركة الأرك ، وامتدت آثار هزيمة العقاب على مستقبل الأندلس السياسى ، حيث دخلت منذ هذه المعركة في دور الضعف الذى عجل بسقوطها بعد ذلك في أيدي الفرنجة ، وانعكست هزيمة العقاب على المستقبل السياسى للمغرب الأقصى إذ أصيب الناصر بالمرض ، وتوفي سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م^(٤) وبوفاته انتهت فترة القوة والازدهار من عمر الدولة الموحدية حيث شهدت الدولة بعد ذلك صراعات بين أبناء عبد المؤمن على السلطة ، وتقلص نفوذ الدولة في الأندلس وإفريقية ، وسرى الضعف في أرجائها حتى سقطت الدولة في سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م^(٥) .

فترة الازدهار في الدولة الموحدية :

وبذلك عمرت الدولة الموحدية منذ إستيلاء الموحدين على عاصمة المرابطين

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٧٦ .

(٢) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٩٨ ، ابن تينغذ : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ص ١٠٨ ت محمد الشاذلى سنة ١٩٦٨ .

(٣) مجهول : الفخيرة السنية ت محمد بن أبى شنب سنة ١٩٢٠ . الجزائر ، المراكشى : المعجب ص ٣٢١ ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثانى ص ٣١٠ ت بروفنسال .

J. Spencer : A History of Islam P; 25.

(٤) المراكشى : المعجب ص ٣٢٣ ، الزركشى : تاريخ الدولتين ص ١٣ ابن أبى دينار : المؤنس ص ١١٩ .

(٥) أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ١٦٦ ، ترجمة ، عنان .

في سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م حتى سقوط مراكش في يد بني مرين سنة ٦٦٨هـ -
١٢٦٩م (١) سنة ، تمتعت فيها الدولة بالإزدهار والرتق في شتى المجالات
في عهد الخليفة الأول عبد المؤمن حتى حفيده الناصر ، وهي فترة زمنية تمتد
منذ سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م حتى هزيمة العقاب في سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م ، قام
فيها خلفاء الموحدين بدور كبير في تقدم المغرب الأقصى ، وكان ذلك استكمالاً
لجهود من سبقهم من أمراء المرابطين .
وهكذا شهد المغرب الأقصى منذ أن تولّى المرابطون السلطة السياسية
حتى هزيمة العقاب في عهد الموحدين ، عهداً غنياً بالأحداث السياسية ،
برزت من خلاله حياة إدارية محكمة ، وتقدماً إقتصادياً ، وحركة في البناء
والتعمير ، ومجتمعاً ينعم بالرخاء في ظل حركة ثقافية مزدهرة وهذا ما سنتناوله
باذن الله في الفصول التالية .

(١) ابن عيود : تاريخ المغرب ص ١٢١ .

الفصل الثاني

السلطة العليا في البلاد ١ - الخلافة

استقر الفتح الإسلامي في المغرب الأقصى على يد موسى بن نصير سنة ٨٨٧ / ٧٠٥م وأصبح إقليمياً إسلامياً تابعاً للخلافة الأموية في المشرق إلا أن هذه التبعية لم تستمر طويلاً إذ انفصل المغرب الأقصى بعد ذلك عن الخلافة الأموية في سنة ١٢٢هـ / ٧٣٩م وذلك بعد فترة من الصراع الدموي ضد السلطة القائمة (١) ، أي أن الفترة التي مكثها المغرب الأقصى معترفاً وخاضعاً لحكم الخلافة في المشرق استمرت خمسة وثلاثين عاماً ، ثم تولى الحكم في المنطقة سكان البلاد (٢) ، ولم يتخذ أحد منهم لقب خليفة ، حتى جاء إدريس ابن عبد الله وبايعته القبائل القاطنة بالمغرب الأقصى في سنة ١٧٢هـ / ٧٨٨م معلناً بذلك قيام دولة الأدارسة ، وبالرغم من استقلاله بالمغرب الأقصى عن سلطة الخلافة العباسية بالمشرق إلا أنه لم يتخذ لقب خليفة . ثم شهد المغرب الأقصى فترة من الضعف وذلك حين دخلت دولة الأدارسة في مرحلة التبعية للدولة العبيدية سنة ٣٠٥هـ / ٩١٧م ، وأصبحت لا تملك من أمرها شيئاً ، وإنما تخضع لغيرها فتارة تدعو على منابرها للدولة العبيدية بالمغرب ، وتارة تدعو على منابرها لحكام دولة الأندلس وأعقب ذلك إنقسام المغرب الأقصى إلى عدة إمارات أشبه ما تكون بدول الطوائف (٣) ، وقد استمر حكمهم حتى مجيء المرابطين ، وتوحيدهم للمغرب الأقصى في ظل قيادة سياسية موحدة . وبالنظر لهذا العرض التاريخي السريع ، نجد أن من تولّى حكم المغرب الأقصى لم يتخذ لقب خليفة ، بالرغم من استقلالهم السياسي عن سلطة الخلافة في المشرق ،

(١) د. حسن علي : دولة الأدارسة بالمغرب ص ٥٢ رسالة ماجستير سنة ١٩٦٧ تحت الطبع

(٢) نفس المرجع السابق ص ٥٢ .

(٣) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٥٦ .

المرابطون والخلافة :

قامت الدولة المرابطية على أساس دعوة دينية لإصلاحية قام بها عبدالله ابن ياسين في صحراء المرابطين ، ثم انطلق بهذه الدعوة إلى المغرب الأقصى حتى يتم نشرها في أرجائه ، وذلك في ظل حملات عسكرية متتابعة انتهت بخضوع المنطقة لقيادة يوسف بن تاشفين المؤسس الفعلي لدولة المرابطين ، وفي عهده تم الإتصال بالخلافة العباسية ، اعترافاً بالخليفة العباسي ، وسلطته الروحية على العالم الإسلامي وفي نفس الوقت طلباً للتأييد والاعتراف من الخلافة العباسية وفي هذا دعم للدولة ودعوتها الدينية التي تأسست عليها ، وقد علّل بعض المؤرخين سبب إتصال المرابطين بالخلافة العباسية من أن علماء الأندلس طلبوا من يوسف بن تاشفين إعتراف الخلافة العباسية بشرعيته في إدارة البلاد^(١) .

ومن هنا أرسل يوسف بن تاشفين وفداً إلى بغداد ومعه هدية نفيسة وكتاباً يذكر فيه ما قام به من جهود في سبيل نصره الدين ويطلب إعتراف العباسيين به^(٢) وبطبيعة الحال لم يرسل يوسف بن تاشفين الوفد إلى مصر حيث الخلافة الفاطمية وذلك لعدم إعتراف المرابطين بخلافة العبيدين نتيجة للخلاف المذهبي ، حيث أن المرابطين مالكية ، بخلاف الفاطميين المؤسسين لدولتهم على المذهب الشيعي^(٣) فضلاً عن أن الخلافة الفاطمية تسربت إليها عوامل الضعف والتفكك وكان إتصال المرابطين بالخلافة العباسية عقب الإنتصار العظيم الذي حققه يوسف بن تاشفين في الزلاقة سنة ١٠٨٦م وما أعقبه من فرض سلطانه السياسي على الأندلس^(٤) ، وقد استجابت الخلافة العباسية

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٢ ، العيني : مقفة الجمان ج ٢٠ قسم ٢ ص ٣٩٧ ، العمري : مسالك الإبصار ج ١٦ قسم ٢ ص ٢٥١ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٤٣ .
(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٢ .
(٣) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٣٢ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٤٣ ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ ، د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٣٤ .

لهذا الوفد وأرسلت الخلع والتقليد إلى يوسف بن تاشفين (١) ،
واتخذ لإعتراف المرابطين بالخلافة العباسية عدة مظاهر تؤيد تلك التبعية
الروحية للخلافة العباسية وذلك حين دعا المرابطون على منابرهم لبني العباس (٢)
كما كانوا يذكرون أسماء خلفاء بني العباس على نقودهم (٣) وبجانب ذلك
فلان المرابطين اتخلوا السواد شعاراً لهم في ملابسهم وأعلامهم اقتداء بزي
بني العباس (٤) .

ولم يكن موقف المرابطين بالنسبة للخلافة العباسية مقتصرأ على عهد
يوسف تاشفين ، بل امتد إلى من جاء بعده ، فابنه علي بن يوسف الذي تولى
حكم المرابطين في سنة ٥٥٠ هـ نراه يواصل نفس سياسة أبيه ، وذلك بالإتصال
بالخلافة العباسية معترفاً بها وطالباً تجديد العهد (٥) وبطبيعة الحال كان الترحيب
والإستجابة من جانب الخلافة العباسية ، وقد تمثل ذلك في تلك الرسالة التي
أوردها صاحب الحلل الموشية (٦) ، والتي أرسلها الخليفة المستظهر إلى أمير
المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين والتي تتضمن عدة نصائح موجهة من
الخليفة العباسي إلى أمير المرابطين — وقد سبق أن ذكرتها في الفصل السياسي

وقد أصبح الاعتراف بالخلافة العباسية والدعاء لها على المنابر سمة من
سمات حكم المرابطين ، وقد تجلّت ذلك عقب سقوط دولة المرابطين وقيام دولة
الموحدين ، وما حدث في خلال عهدها من ثورات ، أهمها ثورة بني غانية

-
- (١) العمري : مسالك الأبصار ج ١٦ قسم ٢ ص ٢٥١ ، النويري :
نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٢ ، ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ١٤٣ .
Arnold ; The Caliphate, P ; 83
- (٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ قسم ٣ ص ٥٩٩ ، السلاوي :
الاستقصا ج ٢ ص ٥٨ ، ابن عسود : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٠٩ ،
المراكشي : المعجب ص ٢٠٣ .
- (٣) الميلي : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢١٠ ، د. العبادي : دراسات
في تاريخ المغرب والاندلس ص ٩٩ ، ١٠٠ .
- (٤) د. العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ١٠٠ .
- (٥) محمد عثمان المراكشي : الجامعة اليوسيفية ص ٩٥ ، إبراهيم
حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .
- (٦) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦٤ .

الذين ينتمون بنسبهم إلى المرابطين ، فما إن ينجحوا في الاستيلاء على مدينة مغربية حتى يدعون في خطبهم لبني العباس ، وذلك ما حدث حين استولى على بن إسحاق الميورقي في سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م على مدينة بجاية وأقام الخطبة فيها لبني العباس (١) ، وكذلك حين استولى يحيى بن غانية على إفريقية لعدة أعوام يسيرة ودعائه على منابرها للخلافة العباسية (٢) وهذا السلوك من بني غانية المتمين للمرابطين ، إنما هو امتداد لسياسة أسلافهم المرابطين ، وفي نفس الوقت دعم لثوراتهم ضد الموحدين الذين لم يعترفوا بالخلافة العباسية :

الموحدون والخلافة :

اختلف موقف الموحدين عن المرابطين ، فبينما اعترف المرابطون بالخلافة العباسية ، كان الموحدون على العكس من ذلك غير معترفين بالخلافة العباسية بل اعتبروا أنفسهم خلفاء ، وأن مركز الخلافة مراکش وليس بغداد ، وهذا يرجع إلى عدة عوامل :

أولها : تلك الرحلة الطويلة التي قام بها ابن تومرت ، وطوف فيها ببلدان المشرق وعان الضعف السياسي الذي تعانيه الخلافة العباسية نتيجة للتفكك والانقسام (٣) ، ومن هنا أحس ابن تومرت بضرورة إنشاء خلافة إسلامية قوية متماسكة على أنقاض هذه الخلافة المتداعية .

والعامل الثاني : تلك الدعوة الإصلاحية التي عاد بها ابن تومرت من المشرق ، والتي كان يحاول فرضها في كل مكان يحل به ، حتى إذا وصل إلى المغرب الأقصى نشرها بكل الوسائل بين سكان المنطقة ، الذين آمنوا بأنهم على الحق ، وأن سواهم على الباطل ، وتأكيداً لذلك فقد أطلق عليهم ابن تومرت لقب الموحدين (٤) ، ومن هنا كان من يخلفه في رئاسة الموحدين هو الخليفة الحق وأن من عدا ذلك من الخلفاء على الباطل .

-
- (١) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثاني ص ١٥٠، ١٤٩
(٢) المراكشي : المعجب ص ٢٠٣ .
(٣) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٢٧ .
(٤) ابن أبي دينار : كتاب المؤنس ص ١٠٩ .

والعامل الثالث : ذلك الإتساع الكبير الذى حققه خلفاء الموحدين حتى امتد نفوذهم إلى طرابلس شرقاً وإلى المحيط الأطلسى غرباً مع خضوع الأندلس لسلطانهم كل هذه المناطق الشاسعة والخاضعة لسلطة الموحدين جعلتهم يشعرون بقوة مركزهم إذا ما قورن بمركز الخلافة ببغداد ، مما استلزم معه إنتحالمهم لألقاب الخلافة .

والعامل الرابع : هو محاربة الموحدين لكل آراء وأعمال المرابطين ، فاذا كان المرابطون قد عملوا إلى الإعتراف بالخلافة العباسية ووطدوا العلاقات معها ، فان الموحدين استقلالا بسلطانهم الروحى والسياسى رفضوا ذلك الإعتراف . وحتى يدعم الموحدون مركزهم الخلافى فقد اتخذوا من الوسائل ما يعضد من مقعد الخلافة فى المغرب يقول د . العبادى « كان لابد أن تستند خلافتهم — أى خلافة الموحدين — أيضاً إلى الأسس الشرعية اللازمة كالتسبب النبوى أو الأصل العربى ، لهذا قالوا بانتفاء كل من المهدي وعبد المؤمن إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق الأدارسة واتخذوا اللون الأخضر شعاراً لهم كى يظهرُوا ميلهم إلى الدعوة العلوية كما تشبهوا بالرسول فى تصرفاته وأعماله (١) » وقد وضح ذلك فى سلوك ابن تومرت والخطوات التى اتخذها فى سبيل إدعائه المهديّة ، كذلك إعلان عبد المؤمن — المؤسس الفعلى لدولة الموحدين — ذلك النسب العربى واعتزازه بذلك (٢) .

وهكذا شهد المغرب الأقصى فى ظل دولتين متعاقبتين موقفين مختلفين من الخلافة : موقف المرابطين الذى دعم وجوده الروحى والسياسى بالإتصال بالخلافة العباسية معترفاً بها طالباً تأييدها ورضائها ، وموقف الموحدين الذى لم يعترف بالخلافة العباسية ، وفى نفس الوقت مقبلاً لأول مرة فى تاريخ المغرب الأقصى مركزاً للخلافة .

(١) د . العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١١٠ ، ١١١ .

(٢) البيهقى : أخبار المهدي ص ٢١ ، ٢٢ ، ابن أبى زرع : الإنيس

ج ٢ ص ١٢٦ ، ص ١٢٧ ت القبلى ، المراكشى : المعجب ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

طريقة تولي يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي الحكم :

استقل يوسف بن تاشفين بالسلطة في المغرب الأقصى ، وورث الحكم من بعده أبنائه كذلك فعل عبد المؤمن بن علي حين أسس دولة الموحدين وورث الحكم من بعده أبنائه ، ومن هنا كان من الضروري إلقاء الضوء على الطريقة التي وصل بها كل منهما إلى معقد الحكم .

طريقة تولي يوسف بن تاشفين الحكم :

تولى الأمير أبو بكر بن عمر رئاسة المرابطين سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م وذلك بعد مقتل أخيه يحيى بن عمر في سجلماسة (١) ، واضطلع الأمير أبو بكر بدور الجهاد في المغرب الأقصى ، غير أن فتنة نشبت بين قبائل المرابطين القاطنة في الصحراء جنوب المغرب الأقصى مما جعلت أبا بكر بن عمر يسرع بالرجوع إلى الصحراء تاركاً ابن عمه يوسف بن تاشفين قائداً للجند وذلك للقضاء على الفتنة في مهدها وكان ذلك في سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م (٢) وهنا يبرز دور يوسف ابن تاشفين ككاتب لابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر في قيادة جند المرابطين أثناء غيابه ، وفي سبيل دعم مكانة يوسف بن تاشفين ، لم يكتف الأمير أبو بكر بن عمر باختياره ، وترشيحه ، بل أيد ذلك بموافقة شيوخ المرابطين حتى يدعم من مكانته . يقول ابن أبي زرع والساوي « فلما أراد السفر منها — أي الأمير أبو بكر بن عمر وسفره من سجلماسة إلى الصحراء — دعا ابن عمه يوسف بن تاشفين فعقد له على المغرب وفوض إليه أمره ، وأمره بالرجوع إلى قتال من به من مغراوة وبني يفرن وقبائل البربر وزناته ، واتفق على

(١) أكتنوس : الجيش العرمرم الخماسي لوحدة ٢٧ ميكروميل ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام : القسم الثالث ص ٢٣١ ت العبادي .

(٢) لسان الدين الخطيب : أعمال الأعلام : القسم الثالث ص ٢٣١ ت الغبادي ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٨٣ : يوفيل : الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا ص ١٠٠ .

تقديمه أشياخ المرابطين لما يعلمون من دينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجده
وعدله وورعه وسداد رأيه وبمن نقيته» (١)

ومنذ هذه اللحظة عمل يوسف على توطيد سلطته وإحكام قبضته على
مقاليد الأمور والإنفراد بالحكم حتى إذا عاد أبو بكر بن عمر من الصحراء في
سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م (٢) كان من الصعب عليه عزل يوسف بن تاشفين عن
مقعد الرئاسة وتضافرت عدة عوامل في تمكين يوسف من البقاء في مقعد الحكم :

أما العامل الأول : فتلك الحملات الحربية الناجحة التي قام بها يوسف
ابن تاشفين وأخضع بها الكثير من أقاليم المغرب الأقصى ، مما زاد في سلطانه
السياسي ومكانته كقائد ناجح بين صفوف المرابطين ، وأصبح مرهوب
الخانبة في المغرب ، يقول ابن خلدون : « سار يوسف بن تاشفين في عسكره
من المرابطين ودوخ أقطار المغرب » (٣) .

والعامل الثاني : تكوين يوسف بن تاشفين لخرسه الخاص ، كقوة
ضاربة يستعين بها عند تأزم الأمور ، كما أنه مظهر من مظاهر القوة والمنعة
وأبهة الملك ، وقد اختارهم من غير قومه ، وذلك بأن اشتراهم من السودان
ومن الأندلس (٤) ، وقد كوّن بهذا العمل قوة ضاربة تدافع عن منشئها ،
وخاصة أن يوسف بن تاشفين قد درّبها على جميع الفنون الحربية وزودهم
بالسلاح والخيول (٥) .

والعامل الثالث : زواجه من زينب النفزاوية ، وكانت امرأة حازمة
لبية ذات رأى وعقل ومعرفة بالأمور (٦) وكانت زوجة لأبي بكر بن

-
- (١) ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ٣٣ ت الفيلاى ، السلاوى :
الاستقصا ج ٢ ص ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٤ بيروت .
(٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣ بيروت .
(٥) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ٣٦٩ .
(٦) ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ٣٢ ت الفيلاى ، السلاوى :
الاستقصا ج ٢ ص ٢١ .

عمر (١) ، فلما عزم أبو بكر على السير إلى الصحراء لم يرغب أبو بكر في اصطحابها معه بل طلقها وتزوجت من ابن عمه يوسف بن تاشفين (٢) ، فلما صارت زينب زوجاً ليوسف ، استخدمت كل ما تملك في سبيل دعم مكانة زوجها ، فأمدته بالمال الذي استخدمه في شراء حرسه الخاص ، يقول ابن عذارى « وتزوج يوسف بن تاشفين زينب النفزاوية ، ودخل بها فسرت به وسر بها وأخبرته أنه يملك المغرب كله فبسطت آماله وأصلحت أحواله وأعطته الأموال الغزيرة فأركب الرجال الكثيرة » (٣) وبذلك لعب المال دوره في تمكين يوسف بن تاشفين من السلطة ، وساندته زينب برأيها ونصيحتها في تسير دفة الحكم (٤) ، وقد تمثل ذلك في تلك الخطوة التي رهنها لزوجها يوسف في لقائه بأبي بكر بن عمر عند عودته من الصحراء لاستعادة مقاليد الأمور وكانت هذه الخطوة نقطة الحسم في القضاء على أى رغبة في نفس أبي بكر من العودة مرة أخرى إلى مقعد الرياسة ، وقد أورد ابن أبي زرع هذه الخطوة بقوله « فأحس يوسف بن تاشفين بذلك — أى برغبة أبي بكر في استعادة مقعد الحكم — فشاور زوجته في ذلك الأمر ، فقالت له : إن ابن عمك رجل متورع في سفك الدماء فاذا لقيته فقصر عما كان يعهده منك من الأدب والتواضع ، وأظهر له غلظة حتى كأنك مساو له ومقاومه ولاطفه مع ذلك بالأموال والهدية والخلع والثياب والطعام والطرف ، واستكثر من ذلك فانه ببلاد الصحراء وكل شيء عندهم من هنا مستطرف » (٥) وبذلك استغلت زينب معرفتها بشخصية زوجها السابق أبي بكر بن عمر والظروف المحيطة به ، في كيفية تثبيت زوجها الحالي يوسف بن تاشفين في البقاء في الحكم .

-
- (١) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٣٣ ت الفيلاى ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ ، عباس المراكشى : الاعلام بمن حل مراکش من الاعلام ج ١ ص ٦٤ .
(٢) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ ت الفيلاى ، السلاوى الاستقصا ج ٢ ص ٢١ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢ ت د . احسان عباس .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٢ .
(٥) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٣٣ ، ٣٤ ، ت الفيلاى .

والعامل الرابع : استمالة يوسف بن تاشفين أصحاب الأمير أبي بكر بن عمر بالأموال والهدايا ، ليكونوا عوناً له إذا ما حاول الأمير أبو بكر استعادة منصبه ، وهذه الاستمالة كانت أحياناً مرأً وذلك حين راسل يوسف بعضهم يدعوهم إلى الحضور إليه ملوحاً لهم بالخير الجزيل يصور ذلك ابن عذارى بقوله « وكتب — أي يوسف بن تاشفين — إلى بعض إخوانه في السر من أبي بكر بن عمر — وكان أبو بكر يحارب قبائل جدالة في الصحراء — يحضهم على الوصول إليه والقلم عليه ويعدهم بالخير الجزيل فوصل منهم جماعة كبيرة » (١) وأحياناً جهراً حين منح الأموال والهدايا لأصحاب أبي بكر المرافقين له الذين حضروا معه للقاء يوسف حتى يكونوا أيضاً عوناً في تنفيذ خطته المرسومة ، يصور ذلك لسان الدين بن الخطيب « وتسابق أكثر أصحابه ممن وصل معه إلى مراکش لرؤية بنيانها والسلام على يوسف بن تاشفين أميرها وكانوا قد جمعوا عن ضخامته وجزيل كرامته وإحسانه لإخوانه ومعارفه ، فاجتمع عنده من القادمين كثير من الخلق فوصى لهم على قدر منازلهم وأعطاهم بمقدار مراتبهم وأمر لهم بالكسوة الفاخرة والخيول المسومة والأموال الحمة والعبيد المتعددة » (٢)

وأما العامل الخامس : فصفت شخصية في كل من يوسف بن تاشفين وأبي بكر بن عمر ، فبينما كان يوسف يستغل كل إمكانياته في سبيل البقاء على رئاسة المرابطين والإنفراد بالسلطة وكان ذلك نابعاً من حبه في الملك والرياسة (٣) ، نرى على العكس من ذلك في شخص أبي بكر بن عمر فهو رجل ورع لا يهون عليه سفك دم ولا تسهل عليه الفتنة كما وصفته بذلك زينب زوجة يوسف بن تاشفين (٤) فالإن وجد حرصاً من يوسف على الاستئثار بالسلطة حتى تنازل له عنها منعاً للفتنة والخلاف في صفوف المرابطين ، وآثر استكمال الجهاد في السودان .

-
- (١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣ ت د . احسان .
 (٢) لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٤ .
 (٣) لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٤ .
 (٤) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٣٢ ت العبادي .

بهذه العوامل مجتمعة لإستطاع يوسف بن تاشفين البقاء في منصبه والانفراد بالسلطة في البلاد، وقد أحسن أبو بكر بتغير الظروف وأنها كلها في صالح ابن عمه يوسف بن تاشفين ومن هنا أثار التنازل لابن عمه (١)، وقد صور ذلك اللقاء التاريخي ابن عذارى بقوله : « فبعث — أي أبو بكر بن عمر — إلى يوسف يعلمه بوصوله إليه ، وعين له معلوماً يكون فيه اجتماعه به فخرج يوسف من مراكش في جنده وعبيده ، وتلقاه في نصف الطريق ، فسلم عليه راكباً على دابته ولم تكن قبل عاداته ، ثم نزل إلى الأرض وقعدا على برنس بسط لهما في ذلك المكان . . وأبو بكر مع ذلك متعجب من كثرة عساكره واحتفال هيئته ، يطيل النظر في ذلك كله فتكلم الأمير أبو بكر مع يوسف في مصالح المسلمين ثم قال له يا يوسف أنت ابن عمي ومحل أخني وأنا لأغني لي عن معاونة إخواننا بالصحراء ولم أر من يقوم بأمر المغرب غيرك ، ولا أحق به منك ، وقد خلعت نفسي لك ووليتك عليه فاستمر على تدبير ملكك وأنت حقيق به ، وخلق له ، وما وصلت إليك إلا لأمرتك في بلادك وأسلم لك الأمر وأعود إلى الصحراء مقر إخواننا وموضع إستيطاننا فدعا له الأمير يوسف » (٢) .

وكان ما تم في هذا اللقاء بمثابة الإعلان الرسمي بخلع أبي بكر لنفسه من رئاسة المرابطين بالمغرب الأقصى وتنازله لابن عمه يوسف بن تاشفين . وحتى يأخذ هذا التنازل صفته الشرعية ، أشهد أبو بكر أشياخ لمتونة وأعيان القبائل على هذا التنازل « وأحضر أشياخ لمتونة الصحراويين وخلع له أبو بكر نفسه وشهد بذلك بعض العدول وأعيان القبائل » (٣) وفي نظير هذا التنازل من جانب أبي بكر بن عمر ، فان يوسف بن تاشفين عملاً من جانيه إلى كسب ود الأمير أبي بكر وذلك بأن تعهد أمامه بأنه سيكون على صلة دائمة به يتلّى مشورته ونصائحه وألا ينفذ أمراً دونه (٤) ، وفي محاولة لكسب ود أبي بكر بن عمر

(١) ابن أبي زرع : الأئيس ج ٢ ص ٣٤ ت الفيلاي ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٢١ ، ٢٢ ، لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٤ ، ١٥ ،

Budgett Meakins ; The Moorish Empire, P ; 52

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٤ ، ٢٥ ت د . أحسان .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٥ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٥ .

وإرضائه ، فان يوسف بن تاشفين قدم له هدية كبيرة يذكرها لسان الدين ابن الخطيب بقوله « بعث إليه بهدية أهداها إليه كان معظم ما فيها خمسة وعشرين ألف دينار من الذهب العين ، وسبعين فرساً منها خمسة وعشرون مجهزة بجهاز محلي بالذهب وسبعون سيفاً منها عشرون محلي والخمسون غير محلي وعشرون زوجاً من المهامز المحلات بالذهب ومائة وخمسون من البغال المتخيرة المذكور والإناث ومائة عمامة مقصورة وأربعمائة من الشوش ، ومائة غفارة ومائتين من البرانيس منها بيض وكحل وجر ومائة شقة من الكتان وغير ذلك مما يهدي للملوك وعشرون جارية من الأبقار ومائة خادم وغير ذلك مما يطول ذكره من البقر والغنم والقمح والشعير » (١) .

وكما استخدم يوسف بن تاشفين سلاح المال في ترضية أبي بكر بن عمر ، فقد استخدمه أيضاً في ترضية ابراهيم بن أبي بكر بن عمر حين قدم على الأمير يوسف بن تاشفين في سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م مطالباً بملك أبيه أبي بكر غير أن الأمير مزدلي وهو من كبار قادة المرابطين استخدم ذكائه في صرفه بعد أن حصل له على أموال كثيرة وهدايا من يوسف بن تاشفين ، وانصرف راجعاً إلى الصحراء حتى مات هناك (٢) .

وهكذا استطاع يوسف بن تاشفين بذكائه وبالظروف التي أحاطت به أن يمكن نفسه وأن ينفرد برئاسة المرابطين ويورثها من بعده لأبنائه حتى إنهاء دولة المرابطين .

طريقة تولي عبد المؤمن بن علي الحكم :

ما إن عاد ابن تومرت إلى المغرب الأقصى من رحلته إلى المشرق ، ونادى بدعوته الإصلاحية حتى التف حوله بعض الأتباع ، وكان من بينهم عبد المؤمن ابن علي الذي حظى بالمرلة الرفيعة لدى ابن تومرت منذ اللحظة الأولى ،

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٥ ، ١٦ .
(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٩ ، ٣٠ م د . احسان عباس .

وذلك لما توسّم فيه من معالم الذكاء والفطنة مع شجاعة وعزم وبعد نظر وحضور بديهة^(١)، هذه الصفات جعلت ابن تومرت يتوقع له مستقبلاً باهراً ، ويصرّح في أكثر من مناسبة — وذلك قبل أن تتأسس الدولة — بمستقبل عبد المؤمن السياسى وأن النصر فى ركابه ، يقول السلاوى « ولما اجتاز المهدي فى طريقه إلى المغرب بالثعالبية — عرب الجزائر — أهدوا إليه حملاً فارهاً يركبه ، لأنه كان ساعياً على رجله فكان يؤثر به عبد المؤمن ويقول لأصحابه : أركبوه الحمار يركبكم الخيول المسومة^(٢) » وحتى فى أحلك اللحظات التى مرّت بها الدعوة الموحدية فى بدء عهدها حين سيّر ابن تومرت الحملات لمحاربة المرابطين ، وأصيب الموحدون بهزيمة ساحقة فى معركة البحيرة ، وبلغت أنباء الهزيمة ابن تومرت ، كان أول من سأل عنه من أتباعه عبد المؤمن بن على ، فلما أخبروه ببقائه سالماً ، اطمأن ابن تومرت لبقاء الدعوة واستمرارها^(٣) ، يقول ابن الأثير « لما سيّر — أى ابن تومرت — الجيش إلى حصار مراکش مرض مرضاً شديداً فلما بلغه خبر الهزيمة اشتد مرضه وسأل عن عبد المؤمن فقيل هو سالم فقال ما مات أحد الأمر قائم وهو الذى يفتح البلاد^(٤) » ، وقد عمّد ابن تومرت فى خلال نشره لدعوته تنظيم أصحابه فى نظام إدارى معين ، وعلى قمة هذا التنظيم الإدارى هيئة العشرة أو الجماعة وهم المهاجرون الذين أسرعوا إلى إجابته^(٥) وهذه الهيئة تختص بالعظيم من الأمور الخاصة بالدعوة يقول ابن القطان « وكانوا إذا قطعوا الأمور العظام يخلون بالعشرة لايحضر معهم غيرهم^(٦) » ، واحتلّ عبد المؤمن مكانة سامية فى مجلس العشرة حيث كان يسميه المهديّ صاحب الوقت واختص بفرس أخضر^(٧) ولم يترك ابن تومرت أصحابه وأتباعه إلا وقد عهد إلى عبد المؤمن بن على أن يتولّى خلفاً له

(١) اشباح : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢

ص ٦٣ .

(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٠٠ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٩٨ .

(٥) المراكشى : المعجب ص ١٨٨ .

(٦) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨١ .

(٧) البيهقى : أخبار المهدي بن تومرت ص ٣٣ .

قيادة الموحدين^(١) وقد عبر ابن تومرت عن رغبته هذه حين جمع أهل الجماعة وأهل الخمسين وذلك في مرضه وقيل وفاته ، وأخبرهم باختياره لعبد المؤمن خلفاً له وذلك في حديث طويل أورده المراكشي ومنه « وقد اخترنا لكم رجلاً منكم وجعلناه أميراً عليكم ، هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريره ، وعلايته ، فرأيناه في ذلك كله ثباتاً في دينه ، متبصراً في أمره وإني لأرجو أن لا يخلف الظن فيه ، وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن ، فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعاً مطيعاً لربه ، فإن بدّل أو نكص على عقبه ، وارتاب في أمره ، ففي الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير والأمر أمر الله يقلده من شاء من عباده »^(٢) وبالرغم من هذا التصريح من جانب ابن تومرت ، إلا أن المراجع تذكر أن عبد المؤمن بويح بيعتان :

بيعة خاصة وبيعة عامة ، أما البيعة الخاصة فقد كانت عقب وفاة ابن تومرت سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م^(٣) واقتصرت هذه البيعة على أهل الجماعة وبعبارة أدق من بقي من أهل الجماعة حيث أن نصفهم استشهد في معركة البحيرة ولم يبق سوى عبد المؤمن بن علي وأبو حفص عمر بن علي وأبو إبراهيم ، وأبو حفص بن يحيى ، وعبد الله بن ملوية^(٤) . وكان لإختيار أهل الجماعة لعبد المؤمن تنفيذاً لوصية إمامهم الراحل ابن تومرت يضاف إلى ذلك عامل هام وهو عبد المؤمن في هذه الفترة لم تكن له قبيلة بالمغرب الأقصى يستند إليها وبالتالي انعدم عنصر المنافسة والموجود بالنسبة لبقية أعضاء الجماعة حيث كانوا ينتمون إلى قبائل كبيرة بالمغرب الأقصى^(٥) وعقب البيعة الخاصة

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ ، العمري : مسالك الأبصار ج ٣ قسم أول ص ١٣٢ ، محمد الشطبي : كتاب الجمان في أخبار الزمان مخطوط ورقه ٢١١ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٩٨

The Encyclopediia of Islam, Vol 1, P; 50

(٢) المراكشي : المعجب ص ٢٩٥ ، ١٩٦ ، محمد المتوني : العلوم والفنون والآداب ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٦٨ ، ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ١٣٢ ابن الخطيب : الخلل الموشية ص ١٠٤ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٢ .

(٥) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٤ ص ٢٢٠ ط ١ سنة ٦٧ .

أخفى عبد المؤمن ومن معه من أهل الجماعة خبر وفاة ابن تومرت فترة من الوقت حتى يهينوا الأذهان لهذا الخبر ومبايعة الخليفة الجديد وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون بقوله « وكنتموا موته زعموا ثلاث سنين يموتون بمرضه ويقىمون سنته في الصلاة والحزب الراتب يدخل أصحابه إلى البيت كأنه اختصهم بعيادته فيجلسون حوالى قبره ويتفاوضون في شئونهم ثم يخرجون لإنفاذ ما رموه ويتولاه عبد المؤمن بتلقيهم^(١) » ويبدو أن فترة الكتمان مبالغ فيها إذ يتعذر كتمان مثل هذا النبا هذه الفترة الطويلة ، واستطاع عبد المؤمن عقب البيعة الخاصة من أن يدعم مكانته بما يبذله من براعة في تسيير دفة الحكم ، كما أنه عمد إلى مصاهرة الشيخ أبي حفص كبير هتاتة^(٢) وذلك حتى يكسب ود وتأيد هذه القبيلة التي تعتبر من أعظم قبائل المصامدة وأكثرها جمعا وأشدّها قوة^(٢) وبرز أهمية دور الشيخ أبي حفص زعيم هتاتة واضحا في أن عبد المؤمن لم يطمئن إلى وصوله إلى الحكم إلا بعد أن وافق الشيخ أبو حفص عمر على ذلك وصّرح به ، يقول ابن خلدون « وتوقف عبد المؤمن عن ذلك ثلاث سنين ثم قال له أبو حفص نقدمك كما كان الإمام يقدمك ، فعلم أن أمره منعقد ثم أعلن بيعته وأمضى عهد الإمام بتقديمه وحمل المصامدة على طاعته فلم يختلف عليه اثنان^(٤) وهكذا استمدّ عبد المؤمن من شخصية أبي حفص وزعامته لقبيلة هتاتة سندا يعضد مركزه ، كما أن كتم موت المهدي فترة من الوقت يدلّ على البراعة السياسية التي كان يتمتع بها عبد المؤمن ، إذ أن الدعوة الناشئة في صراع مسلح مع المرابطين وقد منى الموحدون بهزيمة ساحقة عند أسوار مراكش في معركة البحيرة ولم يمكث ابن تومرت بعدها كثيرا إذ مرض ومات ومن هنا كان كتمان خبر وفاة ابن تومرت حتى لا يفجع الموحدون فجيعتين في فترة زمنية متقاربة مما يعرض الدعوة لخطر التفتت وبذلك يسهل على المرابطين القضاء عليها . حتى إذا استوثق عبد المؤمن من

-
- (١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .
 (٢) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٢٧ ، د. أحمد شلبي : التاريخ الاسلامي ج ٤ ص ١٨٧ ط ٣ سنة ٦٩ .
 (٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٥ .
 (٤) نفس المرجع السابق .

سير الأمور، أعلن عبد المؤمن خبر وفاة المهدي وكان ذلك في سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م على أرجح الآراء^(١) وقد صور البيهقي كيفية إذاعة نبأ وفاة المهدي وتلقى عبد المؤمن بيعة عامة الموحديين « وصاح بالقبائل — أي عبد المؤمن ابن علي بعد رجوعه من غزو كزولة — وضم الموحديين وجعل المجلس فاستعمل ركائز وحال بين الرجال والنساء ثم وعظ النساء وقال لهم في آخر كلامه بقي عندكم عهد بيعة المهدي قالوا نعم ، فقعد ثم وعظ أبو إبراهيم ثم وعظ عمر آصناك ثم سائر المشيخة ثم قال : المهدي قد توفي فبكي الناس ثم قال لهم اسكنوا فسكنوا ، فقال أبو إبراهيم وعمر آصناك وعبد الرحمن بن زكو ومحمد بن محمد لعبد المؤمن أمدد يمينك نبأ بك البيعة التي عقدناها مع الإمام المهدي فمد يده ثم تبعهم سائر الناس حتى الليل وكانت البيعة ثلاثة أيام متوالية^(٢) . وكما استخدم ابن تومرت الحيلة والدهاء في سبيل دعم مكانته الروحية والسياسية ، كذلك فإن خليفته عبد المؤمن لجأ أيضاً إلى الحيلة وذلك حتى يسيطر على قلوب المجتمعين ، وحتى يوحى إليهم بأنه مؤيد من السماء وذلك حين نطق الطير باسمه في المجتمعين ، وكذلك استكانة الأسد وخضوعه لعبد المؤمن ، وفي ذلك تشير بعض المراجع أن عبد المؤمن عمد إلى تربية طائر في تلك الفترة التي أخفى فيها موت ابن تومرت ، ودرّبه على نطق اسمه بهذه العبارة : النصر والتمكين لسيدنا الخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين ، وفي نفس الوقت رعى شبلاً صغيراً حتى آتس إليه ، ثم عمد أثناء اجتماعه بالموحديين للبيعة العامة ، أن أمر بعض أتباعه بإطلاق الطائر والأسد فأحدثا الأثر المطلوب في نفوس المجتمعين^(٣) وبالرغم مما يبدو على هذه الرواية من المبالغة فإنها تلتقي ضوءاً على أن عبد المؤمن لم يدخر جهداً في سبيل التمكين لنفسه بكل الوسائل ، وبالرغم مما أبداه عبد المؤمن من صنوف الذكاء وإتخاذه لكل الوسائل لدعم سلطانه ، فإنه لم يعدم معارضة في توليه رئاسة الموحديين ، وقد تمثلت

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٨١ .
(٢) البيهقي : أخبار المهدي بن تومرت ص ٨٥ .
(٣) ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ١٢٩ ، ١٣٠ ت الفيلالي ، ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٢٧٣ فاس سنة ١٣٠٨ هـ أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

تلك المعارضة في أحد أعضاء مجلس العشرة وهو عبد الله بن يعلى الزناتي الشهير بابن ملوية حين انتهز فرصة غياب عبد المؤمن في إحدى حملاته العسكرية وتفاهم مع أمير المسلمين علي بن يوسف على الغدر بعبد المؤمن وذلك بمهاجمة عاصمة الموحدين في ذلك الوقت مدينة تينملل إلا أن الموحدين الموجودين بالمدينة استطاعوا القبض على ابن ملوية وقتله وبذلك قضى على الفتنة في مهدها (١) .

ولون آخر من ألوان المعارضة واجهها عبد المؤمن وذلك حين عمد بعض قرابة ابن تومرت إلى الفتك بعبد المؤمن في إحدى حملاته العسكرية وذلك أثناء نومه ليلاً ، ولكن أحد الموحدين المخلصين وهو اسماعيل بن يحيى الهزرجي ، طلب من الخليفة السماح له بالنوم في فراشه فكانت نتيجة ذلك أن قتل بدلاً من الخليفة ، وبذلك ضحى بنفسه فداء للخليفة الذي علم بالأمر فتأثر لذلك أشد التأثر وتعقب الجناة حتى قتلهم (٢) وإزاء هذه المحاولات لانتزاع السلطة من يد عبد المؤمن ، شرع في تعزيز جانبته وذلك باستقدام قبيلة كومية من المغرب الأوسط حتى تكون له سنداً وعضداً ضد من يطمع في منصب الخلافة وتأمين مستقبل أبنائه من بعده (٣) وقد صور ذلك ابن أبي زرع بقوله « وردد على أمير المؤمنين قبيلة كومية في جيش عظيم من أربعين ألف فارس والسبب في قدومهم أنه لما همت الطائفة من الموحدين بقتله وقتلوا الشيخ الذي بات بمكانه وتحقق منهم جاء بهم لأخذ ثأره منهم بحيلة لكونه غريباً بين قبائلهم ، ليس له عشيرة يستند إليها ولا قبيلة يثق بها ويعتمد عليها ، فبعث في خفية إلى أشياخ كومية قبيلته وأمرهم بالقدوم عليه » (٤) .

وهكذا استطاع عبد المؤمن بن علي بما أوتي من صفات توهمه للمنصب الزعامة ، وبما اتخذته من وسائل أن يمكن لنفسه كأول خلفاء الموحدين ، وأن

(١) عنان : مصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٢٢٦ .
(٢) المراكشي : المعجب ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
(٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٢٧ ، الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج ٢ ص ٢٢٥ ، إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٧٥ .
(٤) ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ١٦٥ ت : الفيلاي .

يورث هذا المنصب لأبنائه من بعده بحيث انحصر هذا المنصب في بني عبد المؤمن طيلة عمر دولة الموحدين .

وبهذا شهد المغرب الأقصى في خلال القرنين الخامس والسادس من الهجرة زعامتين هما زعامة يوسف بن تاشفين وزعامة عبد المؤمن بن علي وكلاهما اتحدا في الغاية وهي الوصول إلى رئاسة الدولة والاحتفاظ بها وإن اختلفت وسائل كل منهما في سبيل تحقيق هذه الغاية .

طريقة تولي أمراء المرابطين الحكم :

أوضحت من قبل كيف وصل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى منصب رئاسة دولة المرابطين ، ثم أصبح هذا المنصب خاصاً بأسرة يوسف ابن تاشفين وقد شغله أربعة أشخاص من أسرته حتى سقطت دولتهم في سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م وهم على التوالي علي بن يوسف تولى سنة ٥٥٠هـ ومات في سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م (١) وتاشفين بن علي قتل في سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م (٢) وإبراهيم بن تاشفين سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م (٣) واسحق بن علي سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م (٤) ، وكل أمير من هؤلاء الأمراء شغل منصب ولى العهد وذلك قبل أن يصبح أميراً للمسلمين ما عدا اسحق بن علي الذى اغتصب السلطة من إبراهيم ، وذلك لصغر سنه ، وكان اسحق آخر من تولى رئاسة دولة المرابطين حيث سقطت الدولة في عهده القصير . ومن هنا كانت الدولة على اختلاف طبقاتها تعرف مقدماً من سيتولى رئاسة الدولة . وكانت هناك مراسم خاصة في تولية أمير المسلمين مقاليد الحكم وذلك بأن يتلقى الأمير بيعة خاصة من أفراد الأسرة المالكة والأمراء ثم سادة قبيلة لمتونة وبقية زعماء القبائل ثم الفقهاء

(١) زامباور : معجم الأنساب ج ١ ص ١١٣ .

(٢) المراكشي : المعجب ص ٢٠٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٤ ت احسان .

(٣) زامباور : معجم الأنساب ج ١ ص ١١٣ ، ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ٩٣ ت الفيلالى .

(٤) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١١٣ .

وعمال الدولة (١) وقد صور ابن أبي زرع مبايعة علي بن يوسف بقوله « وقيل لما توفي والده يوسف رحمه الله سبحانه بثوبه وخرج يده في يد أخيه أبي الطاهر تميم إلى المرابطين ، فتعاه لهم ، فوضع أبو الطاهر يده في يد علي ، فبايعه . ثم قال للمرابطين : قوموا فبايعوا أمير المسلمين ، فبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة والفقهاء وأشياخ القبائل فتتمت له البيعة بمراكش » (٢) ويعقب مبايعة أهل العاصمة أن يتلى عقد البيعة على منابر الدولة فتأثت البيعة من كل أنحاء المملكة (٣) وفي سبيل استكمال أمير المسلمين صفته الرسمية فإنه ينقش اسمه على السكة والطرز والبنود ، ويتبادل الرسائل مع العباسيين (٤) وقد يحدث ألا يرضى أحد أفراد الأسرة عن تولية الأمير ، وذلك كما حدث من يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين وكان والياً على فاس وفي ذلك يقول ابن أبي زرع والساوى « وأقبلت نحوه — أى نحو علي بن يوسف بن تاشفين — الوفود للتعزية والتهنئة إلا مدينة فاس فإن ابن أخيه يحيى بن أبي بكر بن أمير المسلمين كان أميراً عليها من قبل جده يوسف فلما وصله الخبر بموت جده وولاية عمه عظم ذلك عليه وأنف من بيعة عمه وخالف عليه وامتنع من البيعة » (٥) إلا أن هذا الإمتناع لم يستمر طويلاً حيث دخل في طاعة عمه بعد ذلك . كذلك فإن علي بن يوسف قد عمد بعد توليه إمارة المسلمين إلى عزل أخيه تميم عن بلاد المغرب وذلك في سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م (٦) وأقام مكانه القائد أبا عبد الله بن الحاج وذلك بالرغم أن تيمماً شارك

-
- (١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٤٢ ،
 د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٤ ص ١١٨ ، ص ٣١٦ ،
 أشباح : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٢٣٤ .
 (٢) ابن أبي زرع : الأئیس ج ٢ ص ٧٩ ، ٨٠ ت الفيلالى .
 (٣) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٨٠ ت الفيلالى ، د. حسن
 أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٤٢ .
 (٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٤٢ ،
 د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٤ ص ١١٨ .
 (٥) ابن أبي زرع : الأئیس ج ٢ ص ٨٠ ت الفيلالى ، الساوى :
 الاستقصا ج ٢ ص ٦١ .
 (٦) ابن القاضى : جذوة الإنتبابى ص ٢٩١ .

في مبايعة أخيه على بن يوسف (١) وربما يرجع ذلك إلى خوف على بن يوسف على مركزه وخاصة أن تيمما كان أكبر منه سناً (٢) .

طريقة تولي خلفاء الموحدين الحكم :

تعاقب على كرسى خلافة الموحدين بعد الخليفة الأول عبد المؤمن بن علي وذلك في الفترة من سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م وهي السنة التي مات فيها عبد المؤمن بن علي حتى سنة ٦١٠هـ وهي السنة التي مات فيها الناصر ، ثلاثة من الخلفاء هم على الترتيب : يوسف بن عبد المؤمن الذي توفي سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م (٣) ثم ابنه يعقوب المنصور الموحدي الذي توفي سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م (٤) ثم ابنه محمد الناصر الذي مات سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م (٥) وقد سبق أن تناولنا طريقة مبايعة الخليفة الأول عبد المؤمن وذلك تنفيذاً لوصية ابن تومرت وبمساعدة أبي حفص زعيم قبيلة هنتاتة ، وفي فترة حكم عبد المؤمن عهد بولاية العهد لابنه محمد ثم صرفه عنها وذلك على أرجح الآراء وولّى مكانه ابنه يوسف وذلك قبيل وفاته مباشرة . وقد لعب أفراد أسرة الخليفة دوراً بارزاً في مبايعة يوسف بن عبد المؤمن ودعم هذه البيعة ، وقد ظهر ذلك واضحاً في الدور الذي قام به السيد الأعلى أبو حفص شقيق يوسف بن عبد المؤمن وتأنيده لاختيار يوسف أمام أفراد الأسرة وأشياخ الموحدين ، يقول ابن صاحب الصلاة « في الليلة التي توفي فيها أبوه رضى الله عنهما ، وذلك ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة عام ثمانية وخمسين وخمسة ، وما كان من عضد السيد الأعلى أبي حفص شقيقه إليه في ولايته وحمايته وترشيحه لخلافته » (٦) وفي رواية أخرى تنازل أبو حفص عمر عن الخلافة لأخيه يوسف وذلك إذا وضعنا في الاعتبار الرواية التي تشير إلى أن محمداً

-
- (١) ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ٧٩ ، ٨٠ ب الفيلالي .
 (٢) لسان الدين بن الخطيب : الحل الموشية ص ٦١ .
 (٣) زامبور : معجم الأنساب ج ١ ص ١١٣ ، ستانلى لين بول : طبقات سلاطين الاسلام ص ٥٠ ، الميلى : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج ٢ ص ٢٣٢ .
 (٤) نفس المراجع السابقة ونفس الصفحات .
 (٥) نفس المراجع السابقة ونفس الصفحات .
 (٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢٣١ .

ظل ولياً للعهد خلال مدة حكم أبيه عبد المؤمن ، ثم تولى الحكم بعد وفاة أبيه وأنه لم يستمر طويلاً في الحكم نتيجة لسوء تصرفاته وأنه خلع من هذا المنصب (١) وتولى مكانه يوسف بتنازل من أخيه أبي حفص عمر يقول المراكشي « ولما تم خلع محمد في التاريخ المذكور بعد إتفاق من وجوه الدولة على ذلك ، دار الأمر بين اثنين من ولد عبد المؤمن : يوسف وعمر وهما من نهاء أولاده ونجبائهم وذوى الرأى والغناء منهم ، فأبأها عمر منهما وتأخر عنها مختاراً وبايع لأخيه أبي يعقوب ، وسلم له الأمر لأنه كان يعلم من نفسه أشياء لا يصلح معها لتدبير المملكة وضبط أمور الرعية ، فبايع الناس أبا يعقوب واتفقت عليه الكلمة فلم يختلف عليه أحد من الناس من أخوته ولا من غيرهم وذلك كله بحسن سعى أبي حفص عمر بن عبد المؤمن (٢) » وكانت هذه البيعة بمحضر من أفراد الأسرة وطبقات الموحدين والوزراء ورجال الدولة (٣) ولكن يبدو أن هذه البيعة قد صاحبها بعض الإرجاف ، وقد ساعد على هذا الإرجاف غيبة يوسف بالأندلس حسب رواية ابن أبي زرع وذلك حين مات والده عبد المؤمن بمدينة سلا وأنهم كنتموا موته حتى وصل يوسف وأخلوا له البيعة (٤) وهنا يضيف الشيخ أبو حفص زعيم هتاتة موقفاً آخر في دعم مقعد الخلافة — وكان قد سبق أن ساند عبد المؤمن في مقعد الخلافة — وذلك بمحاربة الإشاعات ونهى الموحدين عن الخوض في الأحاديث بالخزعبلات يقول ابن صاحب الصلاة « ووعظ الشيخ المرحوم أبو حفص الموحدين أجمع على طبقاتهم ومراتبهم ، وذكرهم بما يجب عليهم في دينهم وصلاح يقيهم وعرفهم بما أوجب الله عليهم من مفروضهم ومسئولهم وبحق البيعة ولم يعلم أحداً من الناس بالوفاة واشتد عليهم في لزوم الصلاة ، وضرب بالسياط أهل الفسق والحناة ، وشغلهم بأنفسهم من الأحاديث بالخزعبلات وألزم الحفاظ من الموحدين وغيرهم عند المساء وعند الفراغ من صلاة الصبح بقراءة الحزب (٥) »

(١) المراكشي : المعجب ص ٢٣٦ .

(٢) المراكشي : المعجب ص ٢٣٦ .

(٣) أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢

ص ٢٤١ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيب ج ٢ ص ١٨٢ ت الفيلاي .

(٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢٣٢ .

ومما دعم موجة الإشاعات هو امتناع أخوين للخليفة عن المبايعة مع قوم من أشياخ الموحدين ، وهذا يشير بوضوح إلى مدى تأثير أفراد أسرة الخليفة عبد المؤمن على مقعد الخلافة سواء في التأييد أو الإمتناع وقد عبّر عن إمتناع الأخوين ابن أبي زرع بقوله «لما بويع بعد وفاة والده توقف عن بيعته قوم من أشياخ الموحدين ، وامتنع من بيعته أخواه السيد أبو محمد صاحب بجاية والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة»^(١)، ولم يتخذ يوسف بن عبد المؤمن لإجراء حاجما ضد أخويه^(٢) وربما كان ذلك حفاظاً منه على وحدة الأسرة من التفكك نتيجة الصراع على السلطة ، ومن ثم عالج الخليفة يوسف هذا الموقف بمهارة ولباقة ، فلم يتسم بأمر المؤمنين وإنما اكتفى بلقب الأمير ، وبذل جهده ، في اكتساب محبة بقية الموحدين وطاعتهم ، وذلك بتفريق الأموال في قبائل الموحدين وأعطى كل الأجناد ، وتسريح من في السجون وتوزيع الصدقات وبذلك كسب محبة من حوله ، ثم أتمه بيعة جميع بلاد إفريقية وبلاد الأندلس ، ما عدا قرطبة وبجاية^(٣) وكان هذا الإجماع من الموحدين دافعاً للأخوين بتغيير موقفهما والإقبال على الخليفة ومبايعته ، وقد أحسن إليهم الخليفة بالمال والخلع^(٤) وفي رواية ابن صاحب الصلاة أن أبا محمد عبد الله والى بجاية مات في الطريق أثناء توجهه لمبايعة أخيه^(٥) وكان لمبايعة الممتنعين مع نجاح الأمير يوسف بن عبد المؤمن في القضاء على ثورتين في جبال غمارة^(٦) أثر في دعم مكانة يوسف ، ومن هنا كان تجديد بيعة يوسف بن عبد المؤمن وتلقيه بلقب أمير المؤمنين وذلك في سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م^(٧) يقول ابن صاحب الصلاة « في أول هذه السنة — أي سنة ٥٦٣هـ — جمع الله القلوب بخلوص الضمائر المؤذنة بالسعود والفتوح والبشائر من الآراء الموقفة والنفوس المصطفقة

-
- (١) ابن أبي زرع : الإتييس ج ٢ ص ١٨٣ ت الفيلاى ، السلاوى : الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٦ .
 (٢) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .
 (٣) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .
 (٤) ابن أبي زرع : الإتييس ج ٢ ص ١٨٤ ت الفيلاى ، السلاوى : الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٧ .
 (٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامابة ص ٢٣٩ .
 (٦) ابراهيم حركات : المقرب عبر التاريخ ص ٢٧٧ .
 (٧) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ .

بتجديد البيعة والتسريح بالاسمية المستحقة لبيدنا ، فكل ذلك بإجماع الموحدين
— أعزهم الله — واستسعادهم لديه « (١) » .

ولم يكن تجديد البيعة والتلقب بلقب أمير المؤمنين ، قاصراً على العاصمة
ولأنما شمل أنحاء الدولة كلها حيث صدرت الرسائل من العاصمة تحمل أنباء
تجديد البيعة وتطالب أمراء الأقاليم بالقيام بتجديد البيعة فيمن تحت رئاستهم
وقد ظهر ذلك حين صدر من العاصمة مراكش كتاب إلى وإلى أشبيلية السيد
أبي إبراهيم بن اسماعيل يعلمه فيها بتجديد البيعة ويطلبه بمخاطبة ولاية الأندلس
بذلك وأن يجددوا البيعة فيمن عندهم (٢) ، وسرعان ما قام الولاية بتنفيذ هذه
الأوامر وأرسلوا الرسائل إلى العاصمة بتمام تجديد البيعة وذلك كما فعل أهل
أشبيلية وقد ورد في بيعتهم « . . . » أما بعد فإنه لما اجتمعت طائفة التوحيد وهم
الذين تحضرهم من الله حاضرة التوفيق . . على تجديد البيعة المباركة بالاسم
المبارك الكريم الذي أول من دعا به الفاروق رضوان الله تعالى عليه . .
فجددنا من بيعته على الاسمية المباركة فرضاً أوجبه الشرع وجوب الإلزام . .
فبايعنا على السمع والطاعة بيعة إيمان وأمانة وعدل وعبادة والتمناها في السر
والعسر والمنشط (٣) » وكذلك فعل أهل غرناطة وكتبوا بتجديد بيعتهم
للخليفة (٤) ، وهكذا بويج الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بيعتين :

وقد اختلف الأمر بالنسبة لابنه يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب
بالمصور الموحدي وذلك لما صاحب وفاة والده من ظروف حرية حيث
أصيب بجراح عند أسوار شترين ومات في أثناء إنسحابه متوجهاً إلى أشبيلية ،
ومن هنا كنتم المحيطون به خبر موته حتى يحكموا أمرهم وفي ذلك يقول المراكشي
« ولما مات أبو يعقوب على مراحل من مدينة شترين سترت وفاته إلى أن بلغوا
أشبيلية ، وهم في كل يوم يصبحون يمشون بين يدي الدابة التي عليها الحفة
مشاة على أرجلهم كما جرت العادة ثم يركبون والحفة مسدول عليها ستر أخضر

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٣٤١ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٣٤٢ .

إلى أن بلغوا أشبيلية»^(١) وهنا يقوم أحد أفراد أسرة عبد المؤمن بالسعى للحصول على موافقة أفراد الأسرة وأشياخ الموحدين على مبايعة المنصور وخاصة أن والده يوسف قد مات ولم يوص لأحد من بعده^(٢) يقول المراكشي « وكان الذى سعى فى بيعته وقام بها ورغب فيها وتولى كبر أمرها ابن عمه أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن ، فتم له الأمر وبايعه الناس »^(٣) حتى إذا اطمأن المنصور إلى بيعتهم الخاصة أعلن وفاة والده وتمت بيعته العامة فى سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م^(٤) وخرجت الرسائل إلى أنحاء المملكة تعلن تولى المنصور الموحدى خلافة الموحدين ، وقد أورد ليني بروفنسال فى مجموع رسائل موحدية ، رسالة بعثها المنصور الموحدى إلى الطابة والموحدين والأشياخ بغرناطة يعرفهم فيها بتولية الخلافة نتيجة لإجماع الأسرة وأشياخ الموحدين وأعيانهم وزعماء القبائل وبقية الموحدين على اختياره والالتفاف حوله ، ويطالبهم بأخذ البيعة ممن حولهم من أهل الحواضر والبادى ، وكانت هذه الرسالة صادرة من أشبيلية فى السابع من جمادى الأولى عام ثمانين وخمسةائة^(٥) .

وكما واجه يوسف بن عبد المؤمن أفراداً من أسرته غير معترفين بخلافته ، كذلك فإن ابنه المنصور واجه نفس الموقف وذلك حين استغل أخو الخليفة عمر وعمه سليمان بن عبد المؤمن تغيب المنصور فى إفريقيا وحاولا استمالة الناس إليهما^(٦) وربما دفعهما إلى ذلك عدم اقتناعهما بأحقية المنصور لمنصب الخلافة وفى ذلك يقول المراكشي « وكان له من إخوته وعمومته منافسون

(١) المراكشي : المعجب ص ٢٦٥ .

(٢) النويرى : نهاية الارب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ١٠١ ، ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص ١٩٥ .

(٣) المراكشي : المعجب ص ٢٦٥ .

(٤) ابن أبى زرع : الأتيس ص ١٥٦ طبع حجر ، المراكشي : المعجب ص ٥٨٠ ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٦ تطوان سنة ٥٦ .

(٥) مجموع رسائل موحدية من ص ١٥٨ الى ص ١٦٣ ت ليني بروفنسال رباط الفتح سنة ١٩٤١ (مثبتة بقسم الملاحق) .

(٦) المراكشي : المعجب ص ٢٧٦ .

لا يرونه أهلاً للإمارة لما كانوا يعرفون من سوء صباه ، فلقى منهم شدة^(١) ، غير أن مواجهة المنصور لهذا الموقف اختلفت عن أبيه ، فبينما امتنع والده عن استخدام العنف ، كان المنصور حازماً ، فما إن فشل الثائران في تحقيق خطتهما ، أقبل على المنصور يبغيان صفحة إذ نراه يأمر بالقبض عليهما ويقتلهما^(٢) .

أما الناصر فقد تولى عقب وفاة والده سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ، وكان أبوه قد عهد إليه في حياته^(٣) ، فما إن مات والده المنصور حتى قام أحد أفراد الأسرة بالحصول على مبايعة الأسرة وأشياخ الموحدين وزعماء القبائل وهو أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن وهو الشخص الذي قام بنفس الدور مع والد الناصر من قبل^(٤) ثم تمت البيعة العامة وكانت في سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ومن العرض السابق نلمس أنه كانت هناك بيعتان : بيعة خاصة يبايع فيها أفراد الأسرة وأشياخ الموحدين وزعماء القبائل الخليفة الجديد ، ويتضح في هذه البيعة دور الأسرة وأثره في دعم مكانة الخليفة الجديد وبيعة عامة من الشعب تتم في العاصمة وأقاليم الدولة المختلفة .

وكانت للبيعة صيغة يتولى إلقاءها أحد الكتاب وهي « تبايعون أمير المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من السمع والطاعة في المنشط والمكره واليسر والعسر والنصح له ولولائه ولعامة المسلمين ، هذا ماله عليكم ولكم عليه ألا يجتمعو ببعوثكم وألا يدخروا عنكم شيئاً مما تعميكم مصلحته وأن يعجل لكم عطاءكم والا يجتجب عنكم ، أعانكم الله على الوفاء ، وأعانه على ما قلده من أموركم »^(٥) .

(١) المراكشي : المعجب ص ٢٦٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ابن أبي زرع : الانيس ص ١٥٧ طبع حجر ، ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدي ١٢٩ ، ١٣٠ مطبعة الشمال الافريقي .

(٣) المراكشي : المعجب ص ٣٠٧ ، ابن القاضي : جزوه الانبئاس ص ١٢٩ ، السلوى : الاستقصا ج ٢ ص ٢١٤ .

(٤) المراكشي : المعجب ص ٣١٣ .

(٥) ابراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ص ٣٢٩ .

اختصاصات ولاية الأمر :

تحمّل ولاية الأمر بالمغرب الأقصى مسئولية الحكم ، وتولوا مقاليد الأمور وقبل أن تندعم كلتا الدولتين ، مرّ المغرب الأقصى بفترتين متشابهتين هما فترة نشر الدعوة والتمهيد لقيام الدولة ، وقد قام بهذا الدور في الدولة المرابطية عبد الله بن ياسين ، وفي الدولة الموحدية ابن تومرت وقد قام الداعيان بإدارة شئون الدعوة وتوجيه الحملات العسكرية في هذه الفترة .

وبعد انتهاء فترة الدعوة في الدولتين ، تولّى ولاية الأمر في المرابطين والموحدين السلطة ، وشهد المغرب الأقصى في هذه الفترة التي تمتد من حكم يوسف بن تاشفين في دولة المرابطين إلى وفاة محمد الناصر في دولة الموحدين فترة من القوة والازدهار في شئون البلاد ومن أسباب ذلك إشراف أمراء المسلمين من المرابطين وخلفاء الموحدين على أمور البلاد ، وقيامهم بدورهم مستمدين سلطاتهم من كونهم ممثلين للأمة وبذلك يقع على عاتقهم حراسة الدين وسياسة الدنيا^(١) وبعبارة أخرى فهم المسئولون عن أعمال الجهاد وتدبير شئون الجند وحماية البلاد وتولية العمال وجباية الخراج وإقامة الحدود^(٢) فإذا ما حاولنا معرفة مدى تحقق هذه الاختصاصات في حكام المغرب الأقصى لوجدنا أن كلا من يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن قام بدور إيجابى في تأسيس دولته ، حيث قاد كل منهما الجنود في المعارك وقضى سنوات طويلة في سبيل تأسيس دولته ودعمها ، حتى إذا تأسست دولة المرابطين انطلق يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ليخوض معركة الجهاد ضد النصارى وينقلد الأراضى الإسلامية من الوقوع في قبضة الأعداء ، وقد ظهر ذلك جلياً في انتصاره العظيم بالزلاقة ، ولم يكن هذا النصر وغيره من الانتصارات إلا ثمرة جهود متواصلة بذلها القائد الأعلى يوسف بن تاشفين في تنظيم وإعداد جنده للقتال وإشرافه على تسليحهم وتجهيزهم بمختلف أدوات القتال حتى صار جيشه قوياً من حيث الكيف ضخماً من حيث الكم حتى بلغ مائة ألف جندي^(٣)

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٥ ، د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٢٩ القاهرة سنة ١٩٦٣ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٥ ، ١٦ ، د. أحمد شلبى : السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامى ص ٥٤ النهضة سنة ٦٤

(٣) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٢٧ .

وحمل راية الجهاد من بعده ابنه علي بن يوسف الذي واصل قيادته للجنود في معاركه بالأندلس ، حتى إذا سقطت دولة المرابطين وقامت على أنقاضها دولة الموحيدين قام خلفاء الموحيدين أمثال يوسف بن عبد المؤمن وابنه المنصور الموحدى وابنه محمد الناصر بدور كبير في جهاد النصارى بالأندلس في معارك مستمرة ، وحتى أصيب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن عند أسوار شنترين وهو يؤدي واجبه في الجهاد تلك الإصابة التي أودت بحياته ، وفي نفس الوقت قام خلفاء الموحيدين منذ يوسف بن عبد المؤمن في حماية الجبهة الشرقية من الدولة وذلك حين خرجوا على رأس الجيوش متوجهين إلى إفريقية للقضاء على الثورات بها وخاصة ثورة بني غانية التي كانت تطمع في اقتطاع أجزاء من جسم الخلافة الموحدية .

وبجانب إشراف أمراء المرابطين وخلفاء الموحيدين على حملات الجهاد فانهم اختصوا أيضاً بتولية العمال على أقاليم الدولة المختلفة ، وأشرفوا على شئون البلاد وقد تجلى ذلك في مظهرين إما بالطواف على أقاليم الدولة لتفقد أحوالها ، ومعرفة أوضاع سكان البلاد وصلتهم بعمالهم ، كما فعل يوسف بن تاشفين (١) يقول ابن أبي زرع « فخرج — أي يوسف بن تاشفين — في شهر ربيع الآخر منها — أي من سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م — يتطوف على بلاد المغرب ويفقد أحوال الرعية ، وينظر في أمور المسلمين ويسأل عن سير عماله في البلاد وقضائهم » (٢) وكما فعل أيضاً الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بتفقد أحوال بلاده القرية والبعيدة (٣) ، وكذلك المنصور الموحدى حين توجه إلى فاس في سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م وبحث في شئونها ومحاسبة عمالها (٤) . أو استدعاء العمال لحسابتهم عن أعمالهم وشئون أقاليمهم وذلك كما فعل الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م حين استدعى ولاة الأندلس وغيرهم من عمال الأقاليم إلى حضرة مراکش للتباحث والتشاور في شئون المسلمين (٥) وقام بنفس العمل في سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م (٦) ولم يمنع المرض الخليفة يوسف

(١) Budgett Meakins ; The Moorish Empire p ; 60

(٢) ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ٦٦ ت الفيلالى .
(٣) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٤ ت الفيلالى .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٥٢ تطوان سنة ٥٦ هـ .
(٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .
(٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٨ تطوان سنة ٥٦ هـ .

ابن عبد المؤمن من أن يمارس اختصاصاته وسلطاته ، فبالرغم من مرضه إلا أنه كان يطلع على سير الأمور ويدبّر شئون دولته عن طريق وزيره الذى كان يعرض عليه أمور الدولة (١) ، يضاف إلى الاختصاصات السابقة إشرافهم على النواحي المالية وبجانب ذلك فقد اختص حكام الدولة بالإشراف على إقامة الحدود وتنفيذ أحكام الدين باعتبار أن أمراء المرابطين منفذين لمبادئ إمامهم عبد الله بن ياسين ، كذلك خلفاء الموحدين الذين ورثوا ابن تومرت فى إمامتهم للموحدين .

اللقاب ولاة الأمر بالمغرب الأقصى :

تنوّعت ألقاب ولاة الأمر بالمغرب الأقصى منذ أن تأسست على أرضه دولة المرابطين ثم قيام دولة الموحدين ، وكان هذا التنوّع راجعاً إلى نظرة كل منهما إلى الخلافة .

ومنذ اللحظات الأولى فى دعوة المرابطين أطلق ابن ياسين لقب أمير المسلمين على أبى بكر بن عمر الذى تولّى خلفاً ليحيى بن عمر (٢) ، ويشير إلى ذلك النويرى بقوله « فأتوا — أى عبد الله بن ياسين ومن معه — أبابكر ابن عمر فأجاب وعقلوا له راية وبايعوه بيعة الإسلام وتبعه زمرة من قومه وسماه عبد الله بن ياسين أمير المسلمين » (٣) حتى إذا تولى يوسف بن تاشفين وجدناه يدعى هذا الاتجاه وهو اختياره لقب أمير المسلمين وذلك حين تحدّث إليه من حوله فى إختيار لقب يتناسب مع اتساع سلطته ودولته يصوّر ذلك ابن الخطيب بقوله « ويوسف بن تاشفين كان يدعى بالأمير فلما ضخمت مملكته واتسعت عمالاته اجتمعت إليه أشياخ قبيلته وأعيان دولته وقالت له أنت خليفة الله فى أرضه وحقلك أكبر من أن تدعى بالأمير بل ندعوك بأمير المؤمنين فقال لهم حاشا الله أن تنسب بهذا الاسم إنما يتسمى به خلفاء بنى العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم ، فقالوا له لا بد من اسم تمتاز به وبعدها أجاب إلى أمير

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٢) ابن سعيد : نزهة الانظار ج ١ ص ١٦٨ تونس سنة ١٣٢١هـ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٧٧ .

المسلمين وناصر الدين فخطب له بذلك في المنابر^(١) ومن النص السابق نلمس حرص يوسف بن تاشفين على عدم التلقب بألقاب الخلافة ، معللاً ذلك بتبعيته للخلافة العباسية ومن ثم اكتفى بلقب أمير المسلمين وناصر الدين ، ثم صدر مرسوم رسمي يشير إلى اللقب الرسمي لرئيس الدولة ، وذلك حين أمر يوسف بن تاشفين كتابه بكتابة مرسوم بهذا اللقب يقول فيه « إنا كتبناه إليكم من حضرتنا بمراكش حرسها الله في نصف محرم سنة ست وستين وأربعمائة وأنه لما من الله علينا بالفتح الحسيم وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم رأينا أن نخص أنفسنا بهذا الاسم لمتنازوا به على سائر أمراء القبائل وهو أمير المسلمين وناصر الدين فن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى والله ولي العدل بمنته وكرمه والسلام »^(٢) ومن المرسوم السابق يتضح أن تاريخ اتخاذ يوسف بن تاشفين لقب أمير المسلمين كان في عام سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م ، وقد أشارت بعض المراجع إلى أن تاريخ هذه التسمية حدث بعد الزلافة^(٣) إلا أن الدلائل تشير إلى غير ذلك ، فلقب أمير المسلمين قد اتخذ في الدولة المرابطية قبل ظهور يوسف بن تاشفين على مسرح الأحداث وذلك حين أطلق ابن ياسين هذا اللقب على الأمير أبي بكر بن عمر^(٤) ، ثم ذلك الحوار الذي ورد صراحة بين أشياخ المرابطين ويوسف بن تاشفين في اختيار لقب من ألقاب الخلافة ، وامتناعه عن ذلك واختياره للقب أمير المسلمين وإضافته لقب ناصر الدين . وقد تم هذا في أول سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م أي بعد تنازل أبي بكر بن عمر في سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م له عن رئاسة المرابطين ، فلم يكن هناك ما يمنع من اتخاذ لقب يشعر بعظم مكانة يوسف بن تاشفين ، ثم دعم هذا اللقب

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٦ .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٧ .

(٣) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ٦١ ت الفيلاي ، لسان الدين .
ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٥١ ، د. شعيرة :
المرابطون ص ١٢٢ ، د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص .
٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٧٧ .

بانتصاراته العظيمة في الأندلس واتصاله بالخلافة العباسية ورضاهها عن أعماله وموافقتها على لقبه (١) .

وأصبح لقب أمير المسلمين اللقب الرسمي ليوسف بن تاشفين ومن تولى من بعده من أبنائه ، فعلى بن يوسف تلقب بلقب أمير المسلمين (٢) وهكذا تحدد اللقب في الدولة المرابطية نتيجة لموقفهم من الخلافة العباسية ، وعلى العكس من ذلك كان موقف الدولة الموحدية حيث أن ابن تومرت منذ أن رجع إلى المغرب كان يعمل على قيام خلافة إسلامية في المغرب ، ومن هنا كانت الألقاب التي اتخذها هو ومن جاء بعده تشير إلى هذه الحقيقة وتدعم ذلك الاتجاه ، وقد اتخذ ابن تومرت لقب المهدي المعلوم والإمام المعصوم (٣) وذلك بعد أن هيا أذهان أصحابه وأتباعه لهذا اللقب .

حتى إذا دخلت الدعوة في دور الكفاح المسلح ضد المرابطين ، أطلق ابن تومرت لقب أمير المؤمنين على خليفته من بعده عبد المؤمن بن علي وذلك حين وجه ابن تومرت جنود الموحدين وعلى رأسهم عبد المؤمن بن علي لقتال المرابطين قائلا لهم « اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين فادعوهم إلى إمارة المنكر وإحياء المعروف وإزالة البدع والإقرار بالإمام المهدي المعصوم فان أجابوكم فهم إخوانكم لكم ما لهم وعليهم ما عليكم وإن لم يفعلوا فقاتلوهم ، فقد أباحت لكم السنة قتالهم وأمر على الجيش عبد المؤمن بن علي وقال : أنتم المؤمنون وهذا أميركم فاستحق عبد المؤمن من يومئذ اسم إمارة المؤمنين (٤) وهذا النص وإن كان يشير إلى إمارة المؤمنين من الناحية العسكرية حيث أن ابن تومرت ما زال على قيد الحياة يمارس دوره ، إلا أن فيه إشارة للقب الذي سيتخلده عبد المؤمن بن علي وبنوه من بعده ، وقد حدث هذا بعد وفاة المهدي بن تومرت ومبايعة الموحدين لعبد المؤمن البيعة العامة في سنة

(١) Arnold : The Caliphate. P ; 83, Mahmoud

Brelvi ; Islam in Africa, p ; 134.

(٢) المراكشي : المعجب ص ١٧١ ، ابن أبي زرع : الأئیس ج ٢ ص ٧٨ ت الفيلاي السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٦١ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ٣٣ ، العمري : مسالك الأبصار ج ٣ قسم أول ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، التلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٣٧ .

(٤) المراكشي : المعجب ص ١٩٢ .

٥٢٧ / ١١٣٢ م^(١) ويحددها بن أبي زرع بسنة ٥٢٨ / ١١٣٣ م^(٢) وصار لقب أمير المؤمنين خاصاً بعبد المؤمن ومن تولى من بعده من أبنائه^(٣) فهذا يوسف بن عبد المؤمن تسمى بأمر المؤمنين وذلك في سنة ٥٦٣ / ١١٦٧ م^(٤) وقد أمر الصناع أن يكتبوا على سيفه : لأمر المؤمنين بن أمير المؤمنين^(٥) وكذلك المنصور الموحدى تلقب بأمر المؤمنين وذلك بعد أن تمت مبايعته^(٦) وبجانب لقب أمير المؤمنين فإن خلفاء الموحدين أطلقوا أيضاً على أنفسهم لقب خليفة ، وقد لقب عبد المؤمن نفسه بهذا اللقب وذلك حين توافد عليه الشعراء بمدحونه في جبل الفتح سنة ٥٥٥ / ١١٦٠ م وكان ممن مدحه أحد الشعراء الذى بدأ قصيدته بقوله : ما للعدا جنة أوقى من الهرب . . حتى إذا فرغ منها استحسنا عبد المؤمن وعلّق عليها بقوله «يمثل هذا تمدح الخلفاء»^(٧) وهكذا شهد المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين لإختلافاً في الألقاب حكام المنطقة فتم من تسمى بأمر المسلمين ، كما حدث في الدولة المرابطية ومنهم من تلقب بألقاب الخلافة كما حدث في دولة الموحدين .

نائب حاكم المغرب الأقصى :

وجد هذا المنصب على أرض المغرب الأقصى ، وذلك حين تأسست

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٨١ .

(٢) ابن أبى زرع : الأتيس ج ٢ ص ٢١٣ .

(٣) العيني : عقد الجمان ج ١ قسم ٢ ص ٢٣٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٠٣ النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٧ ، ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٠ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٠٩ . ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ حاشية .

Encyclopaedia Britannica, Vol 1, P ; 672,

The Encyclopaedia of Islam, Vol 1, P ; 50

(٤) ابن أبى زرع : الأتيس ج ٢ ص ١٨٥ .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٣ تطوان .

(٦) نفس الرجوع السابق ج ٤ ص ٧٨ تطوان .

(٧) المراكشى : المعجب ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، محمد المنونى : العلوم والآداب ص ١٢ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٣٨٤ .

دولتا المرابطين والموحدين وهى وظيفة مؤقتة يشغلها النائب أثناء تغيب ولى الأمر عن العاصمة لسبب من الأسباب وكان يشغل هذا المنصب فى الدولة المرابطية أقرب المقربين من ولى الأمر أو أحد أفراد الأسرة الحاكمة (١) وذلك كما حدث حين توجه على بن يوسف إلى الأندلس سنة ٥٠٠ هـ بعد توليه الرئاسة وولّى أخاه تيمّا نائباً عنه فى حكم المغرب (٢)، وأيضاً بعد أن تولى تاشفين بن على بن يوسف الرئاسة وتوجهه إلى ميدان القتال لمحاربة عبد المؤمن بن على فإنه استخلف على مراکش أخاه اسحق بن على بن يوسف بن تاشفين (٣).

فاذا ما إنتقلنا إلى الدولة الموحدية فأننا نجد هذا المنصب أيضاً وذلك كلما ترك الخليفة مراکش فإنه يولّى مكانه نائباً عنه (٤) وقد انحصر هذا المنصب فى عهد عبد المؤمن بن على فى أشياخ الموحدين وخاصة الشيخ أبى حفص وذلك كما حدث فى سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م حين توجه عبد المؤمن إلى غزوة بجاية فإنه استخلف على مراکش الشيخ أبى حفص بن يحيى (٥) وكذلك فعل عبد المؤمن حين توجه لفتح المهديّة سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م فإنه استخلف أيضاً الشيخ أبى حفص (٦) وفى بعض الأحيان كان يستخلف عبد المؤمن بن على صهره الشيخ موسى الضرير وهومن شيوخ أهل تينملل وأعيانهم من ضبيعة يقال لها : أنسا ، فكان عبد المؤمن يستخلفه على مراکش إذا خرج عنها (٧) أما خلفاء عبد المؤمن فلمهم كانوا يخصصون أبناء أسرهم بهذا المنصب ، فالخليفة يوسف ابن عبد المؤمن استخلف على مراکش أخاه السيد أبى عمران وذلك حين توجهه إلى الأندلس سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ (٨) وأيضاً حين خرج إلى صنهاجة القبلة

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥١ .

(٢) إبراهيم جركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٧٨ .

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٧٠ .

(٤) إبراهيم جركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٥ .

J. F. Hopkins : Medieval Muslim P ; II.

(٥) ابن أبى زرع : الأتيس ج ٢ ص ١٤٧ ت الفيلالى .

(٦) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٧ ، الباجى : الخلاصة النقية ص ٥٥ تونس سنة ١٢٨٢ هـ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٣٦ .

(٧) المراكشى : المعجب ص ٢٣٧ .

(٨) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٥٠ .

لمحاربتهم سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م ، فانه استخلف أخاه أبا حفص والياً على مراكش وأميراً على الناس^(١) ، وكذلك فعل المنصور الموحدى في تعيين أحد أقاربه نائباً عنه وذلك حين توجه إلى قفصة سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م واستخلف على مراكش السيد أبا الحسن شيخ بنى العم وكبيرهم^(٢) وهكذا شغل منصب نائب الخليفة في الدولة الموحدية أشياخ الموحدين ثم أفراد الأمرة الحاكمة .

وبطبيعة الحال كان النائب يتولى مقاليد الأمور في العاصمة ويشرف على أعمال الدولة مستخدماً في ذلك حقه كممثل لولى الأمر ، ومن ثم كان من حقه تولية ولاية الأقاليم وهذا ما فعله أبو الحسن ابن عم الخليفة المنصور الموحدى نائب الخليفة على مراكش إذ قام بتولية أحد الولاة على تلمسان وذلك في سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م^(٣) ، وفي بعض الأحيان يكلف الخليفة نائبه بالإشراف على بعض الأعمال أثناء غيابه وذلك كما فعل المنصور الموحدى مع نائبه أبي الحسن ، يقول ابن عذارى « فلما قضى - أى المنصور الموحدى - فرض الصلاة خرج من مراكش في الثالث من شوال - أى سنة ٥٨٢هـ - واستخلف على مراكش السيد أبا الحسن شيخ بنى العم وكبيرهم وجعل له النظر في تتميم ما بقى من بناء الصالحة ووكّلها إلى أعمال خاطره والاستبداد برأيه ودقيق نظره »^(٤) .

-
- (١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٦ تطوان .
 - (٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٢ تطوان .
 - (٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٢٨ تطوان .
 - (٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٢ تطوان .

ب — ولاية العهد

ولاية العهد بالمغرب الأقصى :

ارتبط نظام ولاية العهد بنظام الرئاسة في المغرب الأقصى في القرنين الخامس والسادس من الهجرة ، ذلك النظام الذي نشأ في ظل دولتي المرابطين والموحدين ، نتيجة لرغبة كل من يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي في الاحتفاظ بالملك في أسرتهما وقد تجلّى ذلك في الدولة المرابطية حين تولى يوسف بن تاشفين القيادة العسكرية في المغرب الأقصى حيث نراه يعمل كما سبق أن أوضحنا للتمكن لنفسه في مقعد الحكم ، والانفراد برئاسة الدولة ومن ثم أصبح أمير للمسلمين ، يحكم دولة مترامية الأطراف حيث شملت المغرب والأندلس وإقليم الصحراء حتى نهر السنغال^(١) وبجانب هذا الإقتراس وما يتطلبه من استقرار نظام الحكم ، فإن ميداناً جديداً للجهاد صارت تبعاته ومسئوليته ملقاة على عاتق أمير المسلمين يوسف بن تاشفين منذ أن قضى على ملوك الطوائف وأصبحت الأندلس إقليماً تابعاً للمغرب الأقصى ، ومن هنا أدرك يوسف بن تاشفين أهمية استقرار الحكم وعدم التنازع على رئاسة الدولة ولذا اختار ولياً للعهد وهو ابنه علي بن يوسف حتى يكفل للدولة وحدتها ويعصمها من الفرقة ويحسم داء الخلاف الذي يهددها بانقسام خطير^(٢) وقد أشار إلى هذه الحقيقة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حين ذكر في كتاب تولية العهد لابنه علي بن يوسف مدى حرصه على وحدة الأمة وعدم تفككها وحمايتها من التنازع على منصب الرئاسة^(٣) يضاف إلى ذلك رغبة يوسف بن تاشفين في الاحتفاظ بالرئاسة في أسرته . وكذلك فعل ابنه علي بن يوسف الذي واجه خطراً محققاً على كيان الدولة متمثلاً في ثورة الموحدين بقيادة ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن علي ، ومن هنا اختار ابنه تاشفين بن علي ولياً لعهد وبالرغم من أن تاشفين بن علي لم يلبث في الحكم كثيراً ، إلا أنه اختار ولياً لعهد

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٤٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٤٤ .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٧ ، ٥٨ (مثبتة بقسم

الملاحق) .

وهو ابنه إبراهيم بن تاشفين ، فاذا انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا الحليفة عبد المؤمن ما إن مكّن لنفسه في مقعد الحكم حتى همد إلى الاحتفاظ بهذا المنصب في أسرته وذلك حين اختار أحد أبنائه ولياً للعهد ، وهو يهدف بذلك إلى الحفاظ على وحدة الدولة التي أنفق عمره في إنشائها ودعمها ، وحتى تستمر الدولة في تأدية رسالتها في جهاد الروم بالأندلس ودفع خطرهم عن المدن الأندلسية ، وقد برز الهدف الأخير واضحاً في حياة المنصور الموحدى حين اختار ابنه محمد الناصر ولياً للعهد سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م^(١) وذلك قبل أن يواجه حشود الروم سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م في موقعه الأرك وينتصر عليهم انتصاره الكبير . ومن هنا تشابهت الدولتان المرابطية والموحدية في الهدف من توريث للرئاسة وذلك للاحتفاظ بها في أسرتهما ، مع ضمان وحدة الدولة يضاف إلى ذلك لاستمرار عملية الجهاد في ميدان الأندلس .

طريقة تولية العهد :

اختار يوسف بن تاشفين ابنه علياً لولاية العهد^(٢) ولم يكن أكبر أبنائه بل كان هناك أخوه تميم أكبر منه سناً ، غير أن علياً كان يتفوق على أخيه تفوقاً كبيراً في المواهب والحلال اللازمة لحكم شعب من الشعوب^(٣) ، ومن هنا كانت مصلحة الدولة هي الدافع وراء اختيار يوسف بن تاشفين لابنه على ثم يلي ترشيح رئيس الدولة لولى عهده موافقة أمراء ملتونة وأشياخ البلاد وفقهاؤها لهذا الاختيار وذلك في مجلس يحضره أشياخ المرابطين وقد صور ذلك ابن عذارى في تولية تاشفين ولاية العهد في عهد أبيه على بن يوسف ، وذلك بعد وفاة أخيه سير ولى العهد السابق ، يقول ابن عذارى « ولما مات سير بن على ولى عهد أبيه ، طلب أشياخ المرابطين من على بن يوسف أن يولّى ولى عهد فقال لهم : اجتمعوا واختاروا لأنفسكم على من ترضونه وقصد بذلك

(١) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣١ .

(٢) ابن الخطيب : رقم الحلال ص ٥٣ تونس سنة ١٣١٧ هـ ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية ص ١٢ طبع حجر مراكش سنة ١٣٣٥ هـ .

De Gayangoss; The History of Mohamedan, Vol II, P; 302

(٣) ابن الخطيب: الحلال الموشية ص ٥٧ ، أشباخ : تاريخ الأندلس

ج ١ ص ١١٧ د . حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٤٥ .

التوثيق في أمر تاشفين ، فلما اجتمع الناس في المسجد الجامع بالسقاية بمراكش حرسها الله تعالى خاصة وعامة وتشاوروا في من يختارونه ومن عليه يجتمعون ، فقالوا كلهم بصوت واحد : تاشفين ، تاشفين ، فلم تعط السياسة لأبيه مخالفتهم فيه فعقد له الولاية بعهد^(١) ومن هذا النص يتضح دور أشياخ المرابطين في اختيار ولي العهد وأن دورهم كان استشارياً إذ أن أمير المسلمين على بن يوسف كان قد استقر رأيه على اختيار ابنه تاشفين ، ودعّم ذلك بموافقة أشياخ المرابطين ، وبعد هذا الإجماع من رئيس الدولة وأشياخ المرابطين يأتي دور ولي العهد الذي يقسم أمام المجلس لإتزامه كل الشروط والواجبات التي يفرضها عليه منصبه والتي يحددها رئيس الدولة^(٢) وكان من الشروط التي اشترطها يوسف بن تاشفين على ابنه على أن يمدّ الأندلس بسبعة عشر ألف فارس موزعة على مدن الأندلس المختلفة لحمايتها والدفاع عنها^(٣) وهذا يؤيد ما سبق ذكره أن دافع يوسف بن تاشفين في اختيار ولي للعهد هو صون الأندلس وحمايتها ولذا يشترط عليه هذا الشرط . ثم تأتي المبايعة ، ويقوم الكتاب بكتابة وثيقة ولاية العهد وتتضمن الدوافع في اختيار ولي العهد وإجماع أشياخ المرابطين على مبايعته والشروط التي اشترطها أمير المسلمين على ولي عهده واستجابته لذلك وقد تجلّت ذلك في وثيقة تولية على بن يوسف ولاية العهد^(٤) .

فاذا انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا حرص الخليفة عبد المؤمن بن علي ؛ على توريث أبنائه الملك من بعده ، ولكن الوضع يختلف هنا بالنسبة لعبد المؤمن ، فبينما يوسف بن تاشفين ينتمي إلى قبيلة لتونة القوية وإحدى القبائل المؤسسة لدولة المرابطين ، فإن عبد المؤمن لم تكن له هذه العصبية القبلية ،

(١) ابن حذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٩٧ ، ٩٨ ت د . احسان عباس .
(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٧ ، أشباخ : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ١١٨ ، ١١٩ .
(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٧ ، ٥٨ .
(٤) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦١ ، أشباخ : تاريخ الأندلس ج ١ ص ١١٨ ، محمد عثمان المراكشي : الجامعة اليوسيفية ص ٨٩ ، ٩٠ (مبنية بقسم الملاحق) .

ولذا نراه حتى يمكن لنفسه يستدعى قبيلة كومية وقد سبق الإشارة إلى ذلك .
وبجانب ذلك يستغل عنصرأ جديداً في الدولة وهم العرب في سبيل تحقيق غايته
من تولية ابنه محمد ولاية العهد، وقد مهد لتأييدهم باقامة علاقة مودة وحب
بينهم وبين ابنه محمد وذلك حين أمره أن يكتب أمراء العرب الهلالية بأن
نسأهم وأبنائهم في الحماية والرعاية ويطلب منهم الحضور إلى العاصمة لاستلامهم (١)
— وكان عبد المؤمن قد أمسك بهم كأمرى في إحدى حملاته ضد العرب — حتى
إذا حضروا إلى العاصمة وجلدوا الترحيب والتكريم والأموال الجزيلة بما دفعهم
للإقامة في العاصمة ، وقد امتلأت قلوبهم بالحب والإجلال للخليفة وإبنه (٢)
فلما اطمأن عبد المؤمن إلى ولائهم أوحى إليهم بمطالبتة بتصيب ابنه ولياً للعهد
وقد فعلوا ذلك (٣) إلا أن عبد المؤمن تظاهر في بادىء الأمر بالامتناع وذلك
حتى لا يبدو أمام أشياخ الموحدين وزعمائهم بمظهر الذى يريد أن يحول الدولة
إلى ملكية وراثية أو ملكاً دنيوياً (٤) يضاف إلى ذلك احترامه لشخصية أبى حفص
عمر بن يحيى الهنتاتى ، ويبدو أنه كان هناك إتفاق بين عبد المؤمن وأبى حفص
عمر بأن يتولى خلفاً له ، يدل على ذلك أن أبى حفص عمر حين أحس برغبة
الخليفة في تولية ابنه ومطالبة العرب بذلك ، خاف على نفسه وأسرع وأعلن
خلع نفسه يقول ابن الاثير «فلما تمكن عبد المؤمن من الملك وكثر أولاده
أحب أن ينقل الملك إليهم فأحضر أمراء العرب من هلال وزغب وعدى
وغيرهم إليه ووصلهم وأحسن إليهم ووضع عليهم من يقول لهم ليطلبوا من
عبد المؤمن ويقولوا له نريد أن تجعل لنا ولي عهد من ولدك يرجع الناس إليه
بعدك ، ففعلوا ذلك ، فلما علم عمر ذلك خاف على نفسه فحضر عند عبد المؤمن
وأجاب إلى خلع نفسه» (٥) فلما استوثق عبد المؤمن من عدم وجود أى معارضة

(١) النويرى : نهاية الارب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ابن الأثير :
الكامل ج ٩ ص ٤١ .

(٢) نفس المصدرين السابقين ونفس الصفحات .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥٠ ، النويرى : نهاية الارب ج ٢٢ ،
مجلد ٢ ص ٩٣ .

(٤) عنان : عصر المرابطين والموحدين : القسم الأول ص ٣٣٨ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥٠ .

عقد اجتماعاً في سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م^(١) وفي رواية أخرى في سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م^(٢) حضره الولاة وأشياخ القبائل من جميع أنحاء المملكة وأعلن فيه تولية محمد أكبر أولاده ولياً للعهد^(٣) ، ثم صدرت الرسائل تشير إلى هذا الحدث ومنها الرسالة الموجهة إلى أهل سبتة وطنجة متضمنة حرص الخليفة على مصلحة الأمة ، وحرص الموحدين والعرب على اختيار ولّي للعهد يصون للدولة وحدتها وقوتها ، وتنازل أبي حفص وإنضمامه للمطالبين بولي للعهد ، ثم نزول الخليفة عند رغبة المجتمعين واختياره لابنه محمد وما في ذلك من خير وبركة للأمة^(٤).

وكانت أقاليم الدولة المختلفة تقوم بدورها في إرسال موافقاتها على مثل هذا الحدث في شكل رسائل تتضمن مبايعة أهل الإقليم والناحية لولي العهد الجديد كما فعل أهل قرطبة حين وصلتهم رسالة من العاصمة تخبرهم باختيار المنصور الموحدى لابنه محمد الناصر ، فأرسلوا بيعتهم وموافقتهم في شكل رسالة موجهة إلى العاصمة في سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م جاء فيها « هذا ما أجمع عليه الملأ بقرطبة وأعمالها حرسها الله من الطلبة والموحدين والعرب والأجناد والوجوه من الأشياخ والأعيان والقواد والخواص والعوام من الرعية من حاضر منهم ومن ياد ، أجمعوا بتوفيق الله على المبايعة للأمير الأجل السيد الأوحده . . نجل الخلافة الأطهر . . وذلك عندما ورد عليهم وصح لديهم ما كان من إجماع من بالحضرة الإمامية العلية . . »^(٥).

أعداد ولي العهد لتحمل مسئولية الحكم :

حرص أمراء المسلمين في الدولة المرابطية وخلفاء الموحدين على إعداد

(١) البيهقي : أخبار المهدي ص ١١٨ ، الميلى : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥٠ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ .

(٣) أشباح : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٥٢ .

(٤) مجموع رسائل موحدية : ص ٥٥ إلى ص ٦١ ت ليفي برفنسل الرسالة الثالثة عشرة (مثبتة بقسم الملاحق) .

(٥) د. حسين مؤنس : عقد بولاية العهد ص ١٦٠ ، ١٦١ مجلة كلية الآداب م ١٢ ج ٢ ديسمبر سنة ١٩٥٠ .

ولى العهد ليتحمل مسئولية الحكم، ويقوم بها على خير وجه وقد تمثل ذلك الإعداد كما حدث في الدولة المرابطية في جعل ولى العهد يتمرس بأساليب الحكم وإدارة إقليم من أقاليم الدولة، وكانت الأندلس هي الميدان الذى يمارس فيه ولاية العهد تجاربهم حيث شارك في إدارتها على التوالى كل من على وتاشفين وإبراهيم (١) خلال الحكم المرابطى، وكذلك حين ولّى عبد المؤمن ابنه وولى عهده يوسف ابن عبد المؤمن لإشبيلية وأعمالها (٢). والأندلس من أهم أقاليم الدولة، فإذا ما تمرس ولى العهد بإدارتها ونجح في صد هجمات الروم المتربصين بها، فانه يزداد خبرة ومعرفة تؤهله لتحمل مسئولية حكم الدولة كلها. وكان الحاكم الأعلى للدولة يسلم السلطة لولى عهده في حياته ليمارسها تحت إشرافه، وذلك كما فعل أمير المسلمين على بن يوسف بالنسبة لولى عهده تاشفين يقول ابن عذارى «فمقد له — أى عقد على بن يوسف لابنه تاشفين — الولاية بعهد ونقش اسمه في الدنانير والدراهم مع اسمه، وقلّده النظر في الأمور السلطانية فاستقل بذلك» (٣) وهذا ما فعله أيضاً المنصور الموحدى عند تولية ابنه محمد الناصر ولاية العهد حيث أجلسه في حياته مجلس الخلافة (٤) وحتى يستكمل ولى العهد مظاهر السلطة فانه في الدولة المرابطية ينقش اسمه على النقود، ويلقب بـ «الأمير»، يقول د. حسن أحمد محمود «وكان — أى ولى العهد — ينقش اسمه على السكة، إلى جانب اسم أبيه فيقال «الأمير على بن الأمير يوسف» ويقال أحياناً أخرى «الأمير يوسف وولى عهده الأمير على». كما ظل اسم سير بن على يكتب على السكة حتى استبدل به الأمير تاشفين بن على، وقد اختار تاشفين ولده إبراهيم ولياً لعهد ونقش اسمه على السكة» (٥) أما أمراء الموحيدين فكانوا يلقبون بلقب السادة ولا ينعت بالسيد لعهدهم سواء (٦)

-
- (١) حركات: المغرب عبر التاريخ ص ٢٠٤، د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٣٥١.
 (٢) المراكشي: المعجب ص ٢٢٣.
 (٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٩٨ ت د. احسان عباس.
 (٤) ابن أبى دینار: المؤنس ص ١١٦.
 (٥) د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٣٤٦.
 (٦) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ٤٢٠، الميلى: تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٢٩ أشباح: تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٢٤١.

وكان ولي العهد بدوره يمارس هذه السلطات المخولة له ، ناهضاً بأعباء الحكم ، كما فعل سير ولي عهد علي بن يوسف يقول ابن عذارى « فاستقرت البيعة للمذكور — أى لسير بن علي بن يوسف — ولترنم قبولها واستقل بالأمر ونظر في سائر ما تدعوه الضرورة من أمور الجيش والأحكام والولايات والعزل ورد المظالم وقعد للناس قعوداً فخماً » (١) ، وكان يسبق هذا الإعداد العملي لولي العهد ، إعداد آخر ثقافى حيث حرص أمراء المرابطين وخلفاء الموحيدين على تثقيف أبنائهم ثقافة عالية تؤهلهم للاضطلاع بأعباء الحكم ، فالخليفة المنصور الموحدى اختار كثيراً من الأساتذة لولى عهده محمد الناصر 'يشرفوا على تعليمه وتثقيفه ومن هؤلاء الأساتذة عبد الله بن محمد اللخمي ابن علوش أستاذ التجويد والقرآن والعربية والآداب ، ومنهم عبد الله بن سليمان بن حوط الله وكان يلقنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمرّنه على إنشاء الخطب وتحرير الرسائل وعلى قرص الشعر وغير هؤلاء من الأساتذة (٢) كذلك لعبت النصائح التى أسداها رؤساء الدولة لأولياء عهدهم دورها في تزويدهم بالخبرة اللازمة والمعرفة التامة بأحوال الدولة وذلك كما فعل يوسف ابن تاشفين حين أوصى ولي عهده علي بن يوسف بعدة نصائح غالية منها : المحافظة على مودة المصامدة المقيمين في جبال الأطلس ، وكذلك المحافظة على معاهدة بني هود بتجديد فصولها وعدم خرق بنودها ، والإحسان إلى أهل قرطبة ، والتجاوز عن أخطائهم وعدم معاقبتهم (٣) . وهكذا ساهمت العلوم المختلفة التى كان يتثقف بها ولي العهد ومعها الوصايا التى كان يتروّد بها يضاف إلى ذلك تلك الممارسة العملية للحكم في إعداد ولي العهد لتحمل أعباء الحكم .

استقاط ولاية العهد :

قد يحدث في بعض الأحيان أن يتصرف ولي العهد تصرفات سيئة ويرتكب

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٨ ت د . احسان عباس .

(٢) محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٧٠ .

(٣) محمد عثمان المراكشي : الجامعة اليوسيفية ص ٩٠ ، د . حسن

ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي ج ٤ ص ١٢٦ .

De Geyangos ; The History of Mohamedan, P ; 302.

خطأ جسيماً ينتج عنه عزله من ولاية العهد وذلك بالرغم من الإعداد السابق له والدقة في اختياره . وذلك ما حدث لولى العهد محمد في عهد أبيه عبد المؤمن ابن علي إذ بدت منه بعض تصرفات سيئة كشربه للخمر أمام مرأى ومسمع من أشياخ الموحدين وارتكابه لهذا المنكر لا يؤهله لتحمل أعباء الحكم في دولة قامت على أساس دعوة دينية وهنا تتضارب الأقوال في شأن تاريخ عزله فبعضها يذكر أن هذا العزل تم بعد وفاة عبد المؤمن وأن محمد آتولى الحكم فعلاً وظل به مدة خمسة وأربعين يوماً حتى عزله يوسف بن عبد المؤمن وأخوه عمر^(١) يقول المراكشي « ولما مات عبد المؤمن اضطرب أمر محمد هذا واختلف عليه لإختلافاً كثيراً . فكانت ولايته إلى أن خلع خساً وأربعين يوماً ، واتفقوا على خلعه في شعبان من هذه السنة ، وكان الذي سعى في خلعه أخواه يوسف وعمر^(٢) » واستناداً لهذا الرأي لا يدخل خلع محمد تحت عنوان إسقاط ولاية العهد . حيث أنه تولى الخلافة فعلاً وخلع منها ، وهناك روايات أخرى تشير إلى أن عبد المؤمن هو الذي عزل ابنه محمداً عن ولاية العهد حين علم بفساد خلقه وولى مكانه ابنه يوسف^(٣) وفي مقدمة هذه الروايات رواية ابن صاحب الصلاة وهذا مما يرجح هذه الروايات على الرواية التي ذكرها ابن خلكان والمراكشي وذلك لوجود ابن صاحب الصلاة في قلب الأحداث حيث كان من المقربين لخلفاء الموحدين ومسجلاً لكثير من الأحداث التي شاهدها بنفسه ، وعلى العكس من ذلك المراكشي الذي سجل أحداثه بعيداً عن أرض المغرب وبعد حدوثها بسنوات ، يضاف إلى ذلك أن الفترة الزمنية بين الروايتين رواية المراكشي ومن معه ورواية ابن صاحب الصلاة ومن معه

(١) المراكشي : المعجب ص ٢٣٦ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٣ .

(٢) المراكشي : المعجب ص ٢٣٦ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ابن زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٦٧ ت الفيلسالي ، ابن خلدون : ج ٦ ص ٢٣٨ الزركشي : تاريخ الدولتين ص ٩ ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثاني ص ٣٠٩ ت ليفي بروفنسال ، النويري : نهاية الارب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٨ ، العمري : مسالك الأبصار ج ١٦ قسم ٢ ص ٣٢٢ .

لا تتجاوز مدة الشهرين حيث إن قرار العزل من عبد المؤمن تمّ في أثناء مرضه الأخير الذى أفضى إلى الموت ومن هنا حدث الاختلاف في توقيت العزل ، وقد أوضح ابن صاحب الصلاة العامل المباشر في عزل محمد حين قال « وعند الانصراف — أى لإنصراف عبد المؤمن من زيارته لقبر المهدي بتينملل سنة ٥٥٨هـ — منها في الطريق ظهر من جرحه محمد المخلوع بما وجب عليه في أثر ذلك الخلع ، وذهب في جانبه الصرع من شرب الخمر المحرمة وظهور السكر عليه ، وذلك أنه تقيأها على ثيابه وأطنابه وسرجه وهو راكب على فرسه في المحلة على مرأى من عظماء الموحدين وأشياخهم والعالم من المؤمنين الزائرين ، فصاح عند أبيه نكره وتخليطه وسكره فأسقط هو بفعله من الأمر نفسه وكسف بالنهار شمس^(١) » ومن هذا النص يتضح إرتكاب ولى العهد محمد لإحدى الكيثر على مرأى ومسمع من أشياخ الموحدين وكبار رجال الدولة مما يستحيل معه تقلده لمنصب الرئاسة الذى من أولى مبادئه المحافظة على أركان الدين وأحكامه مع اصطباغ الدولة بالدعوة الموحدية التى دعا إليها ابن تومرت وتشدده في تنفيذ أحكام دعوته وتبعه في ذلك خليفته عبد المؤمن ، كل هذا دفع عبد المؤمن إلى عزل ابنه^(٢) وذلك حين جمع أشياخ الموحدين وأخبرهم بعزل ابنه محمد يقول النويرى « أن عبد المؤمن لما حضرته الوفاة جمع أشياخ الموحدين وقال لهم قد جربت ابني محمد فلم أجد فيه نجابة تصلح للأمر ولا يستحق الولاية ولا يصلح لها إلا ابني يوسف وهو أولى بها فقبضوه لها ووصّاهم بها فباعوه وعقدوا له الولاية^(٣) » ، وهكذا خسر ولى العهد محمد مقعد الحكم نتيجة استهتاره وارتكابه لهذا الخطأ الجسيم .

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٢١ ، ابن أبى زرع : الانيس ج ٢

ص ١٦٧ . الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٩ الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢

ص ٢٢٥ ، العمري : مسالك الأبصار ج ١٦ قسم ٢ ص ٣٣٢ .

ج - الوزارة

استعان ولاية الأمر بالمغرب الأقصى بالوزراء في إدارة البلاد ، وبالرجوع إلى التعريفات المختلفة للفظلة وزارة نجد أنها تحمل في طياتها معنى المؤازرة^(١) والمعاونة^(٢) وقد تناول الماوردي وظيفة الوزارة بالشرح والتفصيل وعرفها بقوله « اسم الوزارة مختلف في اشتقاقه على ثلاثة أوجه : أحدها أنه مأخوذ من الوزر وهو الثقل لأنه يحمل عن الملك أثقاله ، الثاني أنه مأخوذ من الوزر وهو الملجأ ومنه قوله تعالى « كلا لا وزر » أى لا ملجأ فسمى بذلك ، لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته ، والثالث أنه مأخوذ من الأزر وهو الظهر لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر ولأى هذه المعانى كان مشتقاً فليس واحد منها ما يوجب الاستبداد بالأمر »^(٣) .

وقد لعب الوزراء بالمغرب الأقصى منذ منتصف القرن الخامس وحتى نهاية السادس من الهجرة دوراً بارزاً في معاونة حكام الدولة على تسيير دفة الحكم ورعاية شئون البلاد .

الوزارة بالمغرب الأقصى :

شهد المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين تنوعاً في نظام الوزارة وذلك بحسب السلطة الحاكمة ، ويمكننا أن نقسمه إلى مرحلتين متميزتين لكل منهما طبيعته وخصائصه .

المرحلة الأولى : وتشمل هذه المرحلة عهد الدولة المرابطية ، وذلك منذ أن وطئ يوسف بن تاشفين سلطانه وانطلق بمجهوده الحربية إلى ميدان الأندلس الذى أصبح إقليماً خاضعاً للسلطة المركزية في مراكش ، ومن هنا اتخذ امراء المرابطين الوزراء .

(١) النويرى : نهاية الارب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٨ .

(٢) ابن خلدون : مقسمة ابن خلدون : ص ٢٣٦ ، الطرطوشي : سراج الملوك ص ٥٧ ، د. صبحي الصالح . النظم الاسلامية ص ٢٩٤
S.D. Goiten ; Studies In Islamic History, P ; ١7٥

(٣) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٢٤ ط ١ سنة ١٩٦٠ .

وكان الوزير في أوائل عهد الدولة قائداً عسكرياً^(١) وقد تجلّى ذلك حين اتخذ يوسف بن تاشفين صهره سير بن أبي بكر وزيراً له^(٢) وكان سير من أعظم زعماء لمتونة وقادتها وقد ظهرت براعته العسكرية في موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م^(٣) ، وحين عزم يوسف بن تاشفين الاستيلاء على الأندلس أسند مهمة الاستيلاء على مدنها إلى وزيره وقائده سير بن أبي بكر^(٤) كذلك استوزر أمير المسلمين على بن يوسف القائد ينتيان بن عمر الذي كان قائداً لفرقة الحشم^(٥) وتولى القادة العسكريين منصب الوزارة يرجع إلى إنشغال ولاية الأمر بفكرة الجهاد وكثرة المعارك التي خاضوها في المغرب والأندلس .

وبجانب هذا الوزير كان هناك نوع آخر من الوزراء وهم الوزراء المدنيين ومعظمهم من الفقهاء الذين نالوا حظاً كبيراً من الثقافة العربية أمثال مالك بن وهيب وزير على بن يوسف الذي نال حظاً كبيراً من العلم والمعرفة في معاهد قرطبة وأشبيلية وغرناطة وبلنسية وغيرها من العواصم الأندلسية^(٦) ومن هنا ساعد أمير المسلمين نوعان من الوزراء :

أولاً : وزراء عسكريون من قادة الجيش وهم من قرابة السلطان عادة أو من قبائل لمتونة وصنهاجة التي قامت على أكتافها دولة المرابطين^(٧) .

ثانياً : وزراء كتاب وهم الفقهاء^(٨) .

وبجانب هذا التّنوع انقسم الوزراء من حيث إقامتهم إلى وزراء مركزين يقيمون في مراكنش بوصفها عاصمة البلاد^(٩) من أمثال اصحاق بن ينتيان بن

(١) J.F.P- Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 7.

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٢ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٧٣ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٧٣ .

(٥) د. أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب ص ١٥٤

(٦) محمد عثمان المراكشي : الجامعة اليوسيفية ص ١٧٥ .

(٧) د. العبادي : دراسات في تاريخ المغرب ص ١٥٢ .

(٨) نفس المرجع السابق ص ١٥٢ .

(٩) ابراهيم جريجات : المغرب عبر التاريخ ج ٢ ، ص ٢٠٤ ، د. حسن

ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي ج ٤ ص ٣٣١ .

عمر (١) ومالك بن وهيب (٢) وزيري علي بن يوسف ، ووزراء إقليميون تابعون للأمرء المحليين (٣) كابن الإمام وزير الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين يقول محمد المرير « ابن الامام توفي سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م هو علي بن عبد العزيز بن الإمام الأنصاري من أهل سرقسطة ، سكن غرناطة ، وأخذ عن شيوخها ، كان أحد علماء عصره متفقهاً محققاً من أهل البلاغة ، والفصاحة والكرم ، وكان وزيراً جليلاً معظماً ، صاحب معارف ومآثر جمة ، استوزره الأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين صاحب غرناطة فحمدت وزارته وشكرت مقاصده وأعماله » (٤) ، واتخاذ الأمير أبي بكر بن ابراهيم بن تاشفين وهو ابن عم أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وزيراً في ولايته سرقسطة الوزير أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة في سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م (٥) ، وقد نال الوزراء مكانة ممتازة في الدولة المرابطية ، إذ كان الوزير هو الشخص المقرب من السلطان والذي يحضر مجلسه (٦)

المرحلة الثانية : وتشمل عهد عبد المؤمن حتى الناصر الموحدي :

وقد سبق تولي عبد المؤمن رئاسة الموحدين وقضائه على المرابطين تنظيمياً إدارياً ابتدعه ابن تومرت داعية الموحدين ، وذلك لتنظيم شئون الدعوة والإشراف على سير المعارك ، وأشرك في هذا التنظيم أكبر عدد ممكن من زعماء القبائل ، وبذلك يتحقق الدعم والمساندة للدعوة الجديدة وقد قسمهم

(١) ابن الخطيب : الخلل الموشية ص ٦١ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ١٠١ ت د . احسان .

(٢) محمد عثمان المراكشي : الجامعة اليوسيفية ص ١٧٥ .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٠٤ .

(٤) محمد المرير : الأبحاث السامية ج ٢ ص ١٥٤ تطوان سنة ١٩٥٢ .

(٥) القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٦٥ ط ١ سنة ١٣٢٦ هـ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٤٧٠ ، أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٣ ص ٢٣٩ ط ٢ سنة ٥٩ .

(٦) د . حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٦٢ .

إلى عدة طبقات^(١) ويأتى فى مقدمتها طبقة العشرة أو أهل الجماعة ، وهم بمثابة وزراء لابن تومرت^(٢) وكان منهم عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين فيما بعد ، وتختص طبقة العشرة بالأمور الهامة ويتولى أفرادها الوزارة والقيادة^(٣) فلما تولى عبد المؤمن رئاسة الدولة اتخذ هو وأبناؤه من بعده الوزراء وذلك لمعاونتهم فى إدارة شئون البلاد ، وأصبح للخليفة وزير أو أكثر يتولى أعباء الحكم والإدارة بتوجيه الخليفة وإرشاده ويطالعه بمختلف الشئون الهامة^(٤) . وقد حدث تطور فى نوعية من يحتل منصب الوزارة ، فبعد أن كان الوزراء ينتمون إلى قبائل مختلفة فى عهد ابن تومرت والذى كوّن منهم طبقة العشرة أو أهل الجماعة باعتبار أسبقيتهم فى مبايعة ابن تومرت والالتفاف حوله فانهم فى عهد عبد المؤمن ومن جاء بعده تنوعت شخصياتهم فمنهم من كان ينتسب إلى أسرة الخلافة نفسها ومنهم من كان ينتسب إلى أسرة معينة لها مكانتها فى الدولة ، وكان غيرهم ينتسب إلى قبيلة معينة وأخيراً احتل بعضهم هذا المنصب لتمتعهم بصفات تؤهله لذلك ، ويمكننا أن نحدد هذه النوعيات فيما يلى :

أولاً : وزراء ينتسبون إلى أسرة الخلافة :
أما أول من احتل منصب الوزارة من أسرة الخلافة فهو عمر بن عبد المؤمن

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٨ ، المراكشى : المعجب ص ١٨٨ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٩ ، ٨٠ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٩٨ ، العيني : مقد الجمان ج ٢٠ قسم ٤ ص ٧٨١ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٦ .

Julien ; Histoire de L'Afrique du Nord, P ; 98, 100,
J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim ; P. 85,
The Encyclopaedia of Islām, P ; 317

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٧٤ ، د. أحمد مختار : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٥٥ .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٩ ، اشبناخ : تاريخ الاتنلس ج ١ ص ٢٠٠ .

(٤) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢١ ، ابن القنفذ : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية ص ١٠٢ ت محمد الشاذلى وعبد الحميد التركى ، الدار التونسية سنة ١٩٦٨ .

الذى استوزره أبوه في أخريات أيامه^(١) وبذلك اتخذ عبد المؤمن بن علي توليداً في الدولة وهو اتخذ الوزراء من أسرة الخلافة ، وقد سار على نهجه أبناؤه من بعده فالخليفة يوسف بن عبد المؤمن اتخذ أخاه السيد أبا حفص وزيراً في بدء عهده^(٢) ثم اتخذ ابنه أبا يوسف ولي عهده وزيراً له^(٣) ، حتى إذا ما تولى المنصور الموحدى الخلافة نراه يسير على نفس السياسة فاتخذ أخاه أبا عبد الله وزيراً له^(٤) واتبع نفس السياسة الناصر الموحدى حين استوزر أخاه إبراهيم^(٥) والمتأمل في سياسة تولية الوزراء من أسرة الخلافة يجد أن الهدف من وراء ذلك هو التمكن لأسرة عبد المؤمن في السلطة حيث تتجمع السلطة العليا في البلاد من خلافة ووزارة في يد أسرة واحدة مما يوطد من نفوذها ، فضلاً عن الخبرة المكتسبة من ممارسة الحكم وتوجيه الأمور في البلاد ، وقد ظهر ذلك واضحاً حين تولى المنصور الموحدى وزارة أبيه ، فانه تفرس بأعباء الحكم ونظمها ، يقول العيني « ولي وزارة أبيه فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة حسنة »^(٦) ومن ثم أفاده

(١) المراكشي : المعجب ص ١٩٨ ، ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢٢٤ ، ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ١٧٢ ت الفيلالي .
ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٣ ، البيهقي : أخبار المهدي ص ١٢١
J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 153
(٢) المراكشي : المعجب ص ٢٤٤ ، ابن الخطيب : الحلال الموشية ص ١٢٠

J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 153
(٣) المراكشي : المعجب ص ٢٤٤ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٣ تطوان : ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ١٧٤ ت الفيلالي ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٤ ، العيني : عقد الجمان ج ١ قسم ٢ ص ٢٣٢ ، المقرئ : نفع الطيب ج ٤ ص ١٠٢ .
Meakin ; The Moorish Empire, P ; 76.

(٤) ابن الخطيب : الحلال الموشية ص ١٢١ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٥ تطوان .
Hopkins : Medieval Muslim, p : 154,
(٥) المراكشي : المعجب ص ٣٠٨ ، د. العبادي : دراسات في تاريخ المغرب ص ١٧٢

Hopkins : Medieval Muslim, P : 154.

(٦) العيني : عقد الجمان ج ١ قسم ٢ ص ٢٣٢ .
(م ٧ — الحضارة)

هذا المنصب حيث أصبح عالماً بجزئيات الأمور خبيراً بها^(١).

ثانياً : وزراء ينتسبون إلى أسرة معينة :

كأسرة بنى جامع التى تولى أبناؤها منصب الوزارة منذ عهد عبد المؤمن واستمروا فى توليها فترات مختلفة حتى عصر الناصر^(٢) وترجع هذه الأسرة فى نسبها إلى ابراهيم بن جامع الذى كان من جملة أصحاب ابن تومرت وأصله من الأندلس ورحل إلى المغرب وتعرف بابن تومرت وصار من أصحابه^(٣) وضمته ابن تومرت إلى طبقة الخمسين^(٤) وأنجب ابراهيم ابناً هو أبو العلاء إدريس الذى تولى الوزارة فى عهد عبد المؤمن^(٥) كما تولّاها فى عهد ابنه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن^(٦) وفى عهد الناصر الموحدى تولى أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن ابراهيم بن جامع الوزارة^(٧) وهكذا شغل بعض أفراد أسرة بنى جامع منصب الوزارة منذ عهد عبد المؤمن.

ثالثاً : وزراء ينتمون إلى قبيلة معينة :

وأشهر هذه القبائل قبيلة هنتاته إحدى القبائل المؤسسة للدولة الموحدية والتي لعبت دوراً بارزاً فى قيام الدولة ودعمها وفى ذلك يشير ابن خلدون بقوله « وملوك هنتاته هؤلاء من أعظم قبائلهم وأكثرها جمعاً وأشدّها قوة وهم السابقون للقيام بدعوة المهدي والمهدون لأمره وأمر عبد المؤمن من بعده^(٨) »

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩ .

(٢) عثمان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢١ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٣١٠ ، ابن الأبار : الحلة السيرة ج ٢

ص ٢٣٩ حاشية د. حسين مؤنس .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ٣٢ .

(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٤ .

Hopkins : Medieval Muslim, P. 153

(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢٣٨ ، المراكشى :

المعجب ص ٣١١ ، ابن الأبار : الحلة السيرة ج ٢ ص ٢٤١ ت د. مؤنس

(٧) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ٢ ص ٢٤٠ حاشية د. مؤنس ،

د. العبادي : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٧٣ .

(٨) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٧٥ .

وقد شغل بعض أفرادها منصب الوزارة^(١) وتمثل ذلك في تولي أبي حفص عمر بن أبي زيد الهنتاتي وزارة المنصور الموحدى^(٢) وفي تولي أبي زيد بن يوجان وهو ابن أخ الشيخ أبي حفص زعيم هنتاة وزارة الناصر^(٣) ، والقبيلة الأخرى التي تولي بعض أفرادها منصب الوزارة هي قبيلة كومية والتي ينتمي إليها الخليفة الأول عبد المؤمن بن علي ، وقد تمثل ذلك في تولي عبد السلام بن محمد الكومي منصب الوزارة في عهد عبد المؤمن بن علي وهو من قبيلة كومية^(٤) وأيضاً حين تولي أبو بكر بن يوسف الكومي منصب الوزارة في عهد يوسف بن عبد المؤمن^(٥) وهو أيضاً ينتسب إلى قبيلة كومية .

رابعاً : وزراء لهم صفات معينة :

هؤلاء الذين ألهتهم صفاتهم ومواهبهم لاحتلال هذا المنصب ومن هؤلاء أبي جعفر أحمد بن عطية الذي سوّده براحته^(٦) وبسبب حذقه ومهارته في فن الكتابة أُوثر بالكتابة والوزارة^(٧) .

وهكذا كان الوزراء منذ عهد عبد المؤمن بن علي مختلفين في نوعياتهم ، وإن كان يجمع معظمهم الصلة الوثيقة بمؤسس الدولة إما بالنسب كأبناء الخلفاء وإما بالإنتماء إلى أسرة معينة اتصل عميدها بداعي الدولة ابن تومرت كأ أسرة بني جامع وإما قبائل معينة كقبيلة كومية التي ينتمي إليها الخليفة وقبيلة هنتاة التي شاركت مشاركة فعالة في قيام الدولة . وكان بعض الوزراء

-
- (١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٤ .
 (٢) المراكشي : المعجب ص ٢٦٢ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٢١ .
 (٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٩٤ تطوان سنة ٥٦ .
 (٤) البينقي : أخبار المهدي ص ١٢٠ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٣ .
 (٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٣ تطوان .
 Hopkins : Medieval Muslim P : 153
 (٦) ابن الأبار : اعتاب الكتاب ص ٢٢ ت د . صالح الاشتراط .
 سنة ١٩٦١ دمشق .
 (٧) ابن الأبار : اعتاب الكتاب ص ٢٢٧ ت د . صالح الاشتراط ، ابن الخطيب : الإحاطة المجلد الأول ص ٢٧٢ ت عنان .

يرتقى في رتبته عن وظيفة الوزارة ، إذ لم تكن الوزارة هي أعلى المناصب في الدولة (١) وبذلك يصبح هذا الوزير الرجل الثاني في الدولة بعد الخليفة (٢) وقد تجلّى ذلك في الوزير أبي حفص عمر أزنّاج وزير عبد المؤمن بن علي الذي أسندت إليه الوزارة فترة ثم أعني من منصبه لعلو قدره وفي ذلك يقول المراكشي « . . . وزر له في أول الأمر أبو حفص عمر أزنّاج إلى أن استقر الأمر واستقل عبد المؤمن فأجلّ أبا حفص عن الوزارة وربما بقدره عنها إذ كان عندهم فوق ذلك » (٣) وهذا يرجع إلى مكانة أبي حفص في الدولة حيث أنه من أهل الجماعة (٤) الذين سارعوا إلى مبايعة المهدي وموآزرته في نشر الدعوة وتأسيس الدولة كذلك الوزير عمر بن عبد المؤمن أخو الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فقد تولى الوزارة لأخيه ثم ارتقى في رتبته عنها وفي ذلك يقول المراكشي « وزر له أخوه عمر أياماً يسيره ثم ارتفع قدره عن الوزارة إذ رآها دونه » (٥) .

ومن ناحية أخرى فإن الوزراء من أسرة الخلافة كانوا يتخذون وزراء يعملون بين أيديهم وذلك لتميز أنفسهم عن سائر الوزراء (٦) ، وقد تجلّى ذلك حين اتخذ الوزير أبو حفص ابن الخليفة عبد المؤمن وزيراً بين يديه هو أبو العلا إدريس بن جامع في عهد الخليفة عبد المؤمن (٧) وكذلك الوزير أبو يعقوب ابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين كان يشغل منصب الوزراء لأبيه فانه اتخذ الوزير أبا بكر بن يوسف الكومي بين يديه (٨) ومن هنا كان هذا الإجراء يهدف إلى الإرتفاع بقدر أفراد أسرة الخلافة عن المساواة ببقية الوزراء

(١) J.F. Hopkins : Medieval Muslim; P: ١٥

(٢) Julien : Histoire du Maroc, P : ٣٥٩

(٣) المراكشي : المعجب ص ١٩٨ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ٧٦ .

(٥) المراكشي : المعجب ص ٢٢٤ .

(٦) د. العبادي : دراسات في تاريخ المغرب ص ١٥٧ .

(٧) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢٢٤ ، ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ١٧٢ ت الفيلاي ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٤ ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٨ .

(٨) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٣ تطوان ، ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ١٧٤ ت الفيلاي .

وفي نفس الوقت الاحتفاظ بلقب الوزراء وربتها في الأسرة (١) دعماً للسلطة وممارسة لتصرف شؤون البلاد .

اختصاصات الوزراء وسلطاتهم :

تنوعت اختصاصات الوزراء وسلطاتهم بالمغرب الأقصى وذلك تبعاً للظروف والأحوال التي مرت بها البلاد، ومنذ أن قامت دولة المرابطين وأعقبها بعد ذلك دولة الموحدين وموضوع الجهاد والقتال يشغل جيراً كبيراً من جهد الحكام ، واستتبع ذلك أن يشغل منصب الوزارة من له خبرة ودراية بالفنون العسكرية ليكون عوناً للحاكم في نشاطه العسكري ، ولذا رأينا في عهد المرابطين اتخاذ يوسف بن تاشفين وزيراً من العسكريين وهو صهره سير بن أبي بكر (٢) ذلك الوزير الذي ظهرت براعته ومقدرته العسكرية في معركة الزلاقة (٣) وكذلك فعل ابنه أمير المسلمين علي بن يوسف حين اتخذ وزيره نيتيان بن عمر وكان قائداً للفرقة الحشم (٤) ، واتبعت الدولة الموحدية نفس النظام وهو اتخاذ وزراء يكون من اختصاصهم تنظيم الجيش (٥) وقد تجلّى ذلك حين تولى الوزير أبو يحيى بن أبي حفص المهتاتى وزير المنصور الموحدي قيادة الجنود في معركة الأرك حيث قام بتنظيم الجند وإعدادهم لخوض المعركة وحقق بهم نصراً مؤزراً (٥) .

وكان الوزير في بعض الأحيان يقوم بوظيفة الحاجب ، والحجابه هنا معناها رئاسة الوزراء (٦) وقد أشار ابن خلدون إلى أن الوزارة معناها الحجابه في دولة الموحدين حيث يقول في مقدمته « ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر أولاً للبداوة ، ثم صارت إلى انتحال الأسماء والألقاب

J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim p : 9 (١)

J.F.P, Hopkins : Medieval Muslim P : 7 (٢)

(٣) ابن الخطيب : الحلال الموشية ص ١٢ .

(٤) د. العبادي : دراسات في تاريخ المغرب ص ١٥٤ .

Terrasse : Histoire du Maroc, P: 309 (٥)

(٦) ملين : عصر المنصور الموحدي ص ١٥٠ ، ابن عبود : تاريخ

المغرب ج ٥ ص ١٤٣ .

وكان اسم الوزير في مداولة ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والآداب التي تلزم من الكون بين يديه^(١) وقد ظهر هذا الاختصاص حين تولّى السيد أبو حفص ابن الخليفة عبد المؤمن وزارة أبيه الحجابة وندبه عبد المؤمن لكي يتولى أمر الوفود ويقودها إلى مجلسه للسلام وتجديد البيعة فأدخلوا بترتيب معين^(٢) كذلك في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين تولّى أخوه السيد أبو حفص وزارة أخيه وحجابه^(٣) ، وهنا يجدر الملاحظة أن الوزير الذي يتولى منصب الحجابة بهذا المعنى كان من أسرة الخلافة في الدولة الموحدية .

وأحياناً كان الوزير يمارس أعمال الكتابة في الدولة وقد سبق أن أشرت إلى اتخاذ المرابطين وزراء كتّاب من الفقهاء تجلّى ذلك حين اتخذ يوسف بن تاشفين وزيراً كاتباً هو الوزير الفقيه أبو محمد عبد الغفور ، ومن أبرز أعماله كتابته نص ولاية العهد باسم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لابنه علي بن يوسف^(٤) وفي الدولة الموحدية وجدنا اختلاطاً بين منصب الوزارة والكتابة في عهد عبد المؤمن^(٥) وحتى أن بعض الكتّاب أطلق اسم الوزير على الكاتب المتصرف يقول أكنسوس « وكذلك أول الدولة الموحدية فإنها لم تستمكن في مقام الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتميز المراتب والخطط الملكية إلا في أواسطها لما استفحل أمرها ، فلم يكن عندهم من المراتب إلا الوزير وكانوا يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف التصرف العام المشارك للسلطان في الرأي الخاص كأبي عطية وعبد السلام الكومي^(٦) » ، وقد ظهر ذلك حين

(١) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثاني ص ٦٢١ ،

Terrasse : Histoire du Maroc, P : 309

(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٠ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٣٨٢ .

(٤) نفس المرجع السابق : القسم الثاني ص ٦٢١ .

(٥) د. العبادي : دراسات في تاريخ المغرب ص ١٥٣ .

J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim, P : 7.

J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P : 10

(٦) أكنسوس : الجيش العرمرم الخماسي لوحة ٣١٠ ميكرو فيلم .

جمع أبو حفص أحمد بن عطية بين منصب الوزارة والكتابة^(١) ثم انفرد بعد ذلك بالوزارة فقط^(٢).

وكان الوزير في بعض الأحيان يختص بالإشراف على الشؤون المالية^(٣) وما يتبع ذلك من الإشراف على العمال والمتصرفين في أموال الدولة ، وكان لخبرة الوزير بالشؤون المالية مع عدله وإنصافه أثره في رخاء الحياة الاقتصادية وسعة أرزاق الناس وقد ظهر ذلك جلياً حين تولّى منصب الوزارة في عهد الناصر أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي عمران الضرير وفي ذلك يقول المراكشي « رأى الناس في أيام وزارته الخصب وسعة الأرزاق وكثرة العطاء مثل الذي رأوا في أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريباً منه »^(٤).

وفي بعض الأحيان كان الوزير يكلف بالإشراف على نواحي البناء والتعمير التي تقوم الدولة بانشائها وقد ظهر ذلك في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين أسند إلى وزيره أبي العلاء إدريس مهمة الإشراف على أعمال البناء والتعمير وذلك حين كان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بأشبيلية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م وأمر ببناء قصور البحيرة خارج باب جهور من أشبيلية^(٥) وحشد في سبيل ذلك العمال والبنائين من كل مكان وجعل وزيره مشرفاً على أعمال البناء « وأبو العلاء إدريس الوزير وابنه يحيى ملتزمان للخدمة بالجلوس على ذلك من وقت شروق الشمس إلى المساء حتى كمل البناء وانتهى غاية الانتهاء »^(٦) وأيضاً حين قائد المنصور الموحدى وزيره أبا زيد بن يوجان أشغال البرين ، يقول ابن عذاري « وفي هذه السنة - ٥٩٣ هـ - قلد - أي

(١) المراكشي : المعجب ص ١٩٨ ، د. العبادي : دراسات في تاريخ المغرب ص ١٥٩

Hopkins : Medieval Muslim, P: ١٥

(٢) المراكشي : المعجب ص ١٩٨ ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٣ .

(٣) القلقشندي : صبيح الاعشى ج ٥ ص ١٣٩ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٢ ، الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٢٩١ .

(٤) المراكشي : المعجب ص ٣١٠ .

(٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٤٦٤ .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٤٦٨ .

المنصور الموحدى حينما كان بأشبيلية سنة ٥٩٣هـ — أبو زيد بن يوجان أشغال البرين من الأعمال العلية والأشغال السلطانية والوزارة وما يتعلق بهامن أشغال الموحدين وملازمة الخدمة فاستقل بذلك كله استقلالاً ظهر به صلاح الأحوال» (١)

وكان الوزير فى بعض الأحيان تسند إليه وظيفة النظر فى المظالم وبحث ما تشتكى منه الجماهير (٢) وقد ظهر ذلك فى الدولة المرابطية حين تولى الوزير اسحق بن ينتيان بن عمر فى عهد على بن يوسف النظر فى المظالم فى ذلك يقول ابن الخطيب « ثم بعد ذلك فى آخر مدته — أى مدة على بن يوسف بن تاشفين استوزر اسحق بن ينتيان بن عمر بن ينتيان .. وكان يتوقد ذكاء ونبلا وفهماً فأعجب به إعجاباً كثيراً وجعل له النظر فى المظالم والشكايات فانتفع به الناس فى أمورهم وكافة شئونهم » (٣) .

وفى بعض الأحيان كان يسند الخليفة لإدارة إقليم من أقاليم الدولة إلى وزيره وذلك لأهمية الإقليم وكثرة الثورات به ، وهذا ما حدث فى عهد الناصر الموحدى حين أسند منصب ولاية إفريقية إلى وزيره الشيخ أبى محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص وفى ذلك يقول الزركشى « وعزم الناصر على الرحيل إلى المغرب فنظر فى من يوليه إفريقية فوقع اختياره على وزيره الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص فعقد له على ذلك سنة ثلاث وسمائة » (٤) .

ومن هذا العرض لاختصاصات الوزير يتضح أن بعضهم تحمل عبء النشاط العسكرى ، وبعضهم قام بوظيفة الحاجب ، وآخرون قاموا بوظيفة الكتابة ، وبجانب ذلك الإشراف على الشئون المالية بالدولة ، وأحياناً يشرف على أعمال الإنشاء والتعمير بها ، وتولى بعضهم النظر فى المظالم أو إدارة إقليم من أقاليم الدولة .

وقد أطلق لقب وزير على بعض من يقومون بخدمة الخليفة ومداواته

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٧٤ تطوان سنة ٥٦٠ .

(٢) J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P : 7

(٣) ابن الخطيب : الخطل الموشية ص ٦١ .

(٤) الزركشى : تاريخ الدولتين ص ١٣ .

والإشراف على شئونه^(١) وقد تجلّى ذلك حين أطلق لقب وزير على ابن زهر الذى خدم عدة سنوات فى منصب طبيب البلاط والوزير لعبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين^(٢) ، وكذلك الوزير الطبيب أبو بكر بن الطفيل والوزير أبو مروان عبد الملك بن قاسم القرطبي وكلاهما قام بخدمة الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن^(٣) .

وبعد هذا التنوع فى اختصاصات الوزير ، ما مدى سلطة الوزير؟ وبعبارة أخرى : هل كان الوزراء وزراء تنفيذ أم تفويض كما اصططح على ذلك العلماء^(٤) حيث اختص وزير التنفيذ بتنفيذ أوامر الخليفة الذى يشرف على جميع تصرفاته واختص وزير التفويض بتدبير شئون الدولة تبعاً لرأيه^(٥) . لقد شهد المغرب الأقصى كلا النظامين ، فى الدولة المرابطية ومعظم من تولوا الوزارة فى الدولة الموحدية منذ عبد المؤمن إلى الناصر كانوا وزراء تنفيذ حيث أحكم أمراء المسلمين من المرابطين وخلفاء الموحدين قبضتهم على مقاليد الأمور وأشرفوا بأنفسهم على أحوال البلاد ومن هنا كان الوزراء منفذين لأوامر حكام البلاد^(٦) ، ، إلا أنه فى بعض الأحيان ظهر من الوزراء من تولوا الأمور وأنفلوها برأيهم ، وكان هذا مرجعه لسببين :

السبب الأول :

إما أن يكون هؤلاء الوزراء من أسرة الخلافة الموحدية وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون فى تولّى السيد أبي حفص وزارة أخيه الخليفة يوسف

(١) أشباح : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب ص ٧٥٠ .

(٣) ابن أبى زرع : الاتيس ج ٢ ص ١٧٦ ت الفيلالى .

(٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٢٢ الى ص ٢٩ ط ١ . سنة

١٩٦٠ : ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٩ ، د. الرئيس : النظريات السياسية ص ١٨٠ سنة ١٩٥٢ .

(٥) د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٣٢ .

(٦) د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٥٨ ،

ابن عبد المؤمن بقوله « واستقل في رتبة وزارته »^(١) وقد أوضح ذلك الاستقلال ابن صاحب الصلاة بقوله « وتوالى استبداد السيد الأعلى أبي حفص على معنى الوزارة والإمارة بانفاذ الأوامر عن أمره على ما كان عليه عند أبيه من الوزارة في سره وجهه »^(٢) ، وكذلك حين تولى المنصور الموحدى وزارة أبيه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وإشرافه على جميع أحوال البلاد مع إشرافه على العمال والولاة والقضاة^(٣) وفي ذلك يقول المراكشى « ولّى الوزارة - أى المنصور الموحدى - أيام أبيه فبحث عن الأمور بحثاً شافياً ، وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور فدبرها بحسب ذلك »^(٤) .

والسبب الآخر :

حين يستبد الوزراء بهذا المنصب وقد ظهر ذلك في عهد الناصر ومن جاء بعده إذ علا سلطان الوزراء فأذن ذلك بتفكك الدولة^(٥) وأسباب ذلك ترجع إلى سوء اختيار الناصر لوزرائه^(٦) وقد تجلّى ذلك حين اختار الناصر وزيره أبا سعيد بن جامع الذى استبد بالأمور وأقصى شيوخ الموحدين وأعيانهم وذوى الحنكة والرأى عن الاتصال بالخليفة^(٧) يضاف إلى ذلك أنه حجب عن الخليفة الكتب الواردة من الأندلس بشرح الأحوال^(٨) مما أدى في النهاية إلى هزيمة العقاب التى آذنت بزوال الدولة الموحدية^(٩) ولم يكتف وزير الناصر

-
- (١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٨ .
 (٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢٣٧ .
 (٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٤ ، المعنى : عقد الجمان ج ١ قسم ٢ ص ٢٣٢ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨ .
 (٤) المراكشى : المعجب ص ٢٦٢ .
 (٥) د. أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ١٨٩ ط ٣ سنة ٦٩ .
 (٦) أشباح : تاريخ الاندلس ج ٢ ص ١٠٥ .
 (٧) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٢٢١ .
 (٨) ابن الخطيب : رقم الحلل ص ٥٩ .
 (٩) نفس المرجع السابق ص ٥٩ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٩٣ . السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٢٢١ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ٢٣٢ ، ابن عيود : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٥٦ .

بالاستبداد بالرأى بل وشارك في تدبير مؤامرة للقضاء على الخليفة نفسه حين وضع له السم في الشراب ونجاحه في الفتك به^(١) وفي ذلك يقول ابن القاضي « وتوفي — أى الناصر — سنة عشر وستمائة مسموماً في كأس خمر بأمر وزيره في يوم الأربعاء الحادى عشر لشعبان منها بقصره من قصبة مراکش »^(٢).

نكبة بعض الوزراء :

لحق بعض الوزراء مصرعهم ، كما عزل بعضهم وأبعد عن البلاد نتيجة للشكوك التي أثبتت حول إخلاصهم ، أو نتيجة للتصرفات السيئة التي ارتكبوها والتي عجلت بنهايتهم ، وقد ظهر ذلك واضحاً في الدولة الموحدية حيث وجدنا أكثر من وزير اعتقل وانتهت حياته إما بالقتل أو بالنفي .

ويأتى في مقدمة هؤلاء الوزراء أبو جعفر أحمد بن عطية وزير عبد المؤمن ابن على وهو من أهل مراکش وأصله القديم من طرطوشة^(٣) وقد اشتغل بالكتابة لأمراء المرابطين وكان ذا منزلة رفيعة لديهم^(٤) ، حتى إذا سقطت دولة المرابطين دخل في طاعة الموحدين واستطاع ببلاغته وبراعته في الكتابة أن ينال الخطوة عند الخليفة عبد المؤمن فيصبح كاتباً ووزيراً لخليفة الموحدين^(٥) وقد أثبت ابن عطية كفاءة ومقدرة حين تولى ذلك المنصب يصور ذلك المقرئ بقوله « وأسند إليه وزارته فنهض بأعبائها ، وتحبب إلى الناس بأعمال السعى والإحسان فعمت صنائعه وفشا معروفه ، وكان محمود السيرة ، مبحث المحاولات ، ناجح المساعي ، سعيد المآخذ . . . وكانت وزارته زيناً للوقت وكمالاً للدولة »^(٦) وكان هذا النجاح سبباً في حسد الحاسدين القريبين من

(١) ابن أبى زرع : الأتيس ص ١٧٥ طبع حجر ، ابن هذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢٤ تطوان ، عباس المراكشى : الأعلام ج ٣ ص ٨٣ .

(٢) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١٣٠ .

(٣) ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة المجلد الاول ص ٢٧١
ت عنان ، المقرئ : نفح الطيب ج ٧ ص ١١٠ ، السلاوى الاستقصا ج ٢ ص ١٣١ .

(٤) ابن الخطيب : الاحاطة المجلد الاول ص ٢٧١ ت عنان .

(٥) ابن الأبار : أعتاب الكتاب ص ٢٧٧ ت د . صالح الاشتري ،

المقرئ : نفح الطيب ج ٧ ص ١١٠ .

(٦) المقرئ : نفح الطيب ج ٧ ص ١١٠ .

الخليفة فما إن بعثه الخليفة عبد المؤمن في مهمة إلى الأندلس حتى بدأ هؤلاء الحساد في اغيار صدر الخليفة عليه^(١) وقد ساعدهم على ذلك صلة ابن عطية القديمة بدولة المرابطين أعداء الموحدين ، يضاف إلى ذلك تزوج ابن عطية من أميرة لمتونية لقبّت ببنت الصحراوية وهي حفيدة عاهل المرابطين يوسف ابن تاشفين^(٢) مع ما أشيع عنه من اصطناع الكثير من اللمتونيين^(٣) كل هذه الأمور استغلها أعداؤه أحسن استغلال ، حتى إذا تغيب ابن عطية عن العاصمة مراكش بدأوا خطتهم وذلك باطراح بعض الآيات التي تثير الشكوك حول موقف ابن عطية في مجلس الخليفة عبد المؤمن ومنها :

قل للإمام أطال الله مدته قولا تبين لى لب حقائقه
إن الزاجين قوم قد وترتهم وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميل لذلك ما كثرت فيهم علائقه^(٤)

وأحدثت هذه الآيات أثرها المطلوب في نفس الخليفة إذ وعر صدره على وزيره أبي جعفر وأضمر له في نفسه شراً^(٥) ومما زاد في موقف أبي جعفر سوءاً ، أن الخليفة أفضى إليه بسر فأفشاه^(٦) وبلغت أنباء المؤامرة الوزير ابن عطية في الأندلس فأسرع بالهجرة إلى العاصمة حيث اعتقل ، وجمع الخليفة الناس على طبقاتهم لإبداء رأيهم في الوزير ، فأجاب كل بما اقتضاه هواه^(٧) فأمر الخليفة بسجنه وسجن معه أخاه أبا عقيل عطية ، وما إن عاد الخليفة من زيارته لقبر المهدي حتى أمر بقتلهما وذلك في سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م^(٨) ، هكذا لعبت الشبهات التي أثّرت حول ابن عطية والتي استغلها الحاسدون ،

-
- (١) المقرئ : نفح الطيب : ج ٧ ص ١١٠ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٣١ . وص ١٣٢ .
(٢) د. العبادي : دراسات في تاريخ المغرب ص ١٦٠ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٣٤٩ .
(٣) عباس الراكشي : الاعلام بمن حل مراكش ج ١ ص ٢١٧ .
(٤) المقرئ : نفح الطيب ج ٧ ص ١١٠ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٣٢ .
(٥) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .
(٦) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .
(٧) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .
(٨) المقرئ : نفح الطيب ج ٦ ص ١١٠ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٣٢ .

دورها في القضاء على ابن عطية وأخيه ويبدو أن الخليفة عبد المؤمن توجس شراً من ابن عطية نظراً لعلاقاته القديمة بالدولة المرابطية مما جعله يستجيب للوشاة والحاسدين حرصاً على أمن وسلامة الدولة .

ولقي نفس المصير الوزير عبد السلام بن محمد الكومي وزير عبد المؤمن وإن اختلفت الأسباب الداعية إلى ذلك ، وكان قد تولى منصب الوزارة عقب مقتل ابن عطية^(١) وهو ينتمي إلى قبيلة كومية وتربطه بالخليفة عبد المؤمن صلة قرابة حتى كان يدعى بالمقرب^(٢) ، هذه المكانة والمنزلة أغرته بالوقوع في كثير من الأخطاء ، وقد ذكرها ابن صاحب الصلاة وتنهصر فيما يأتي :

أولاً : إساءته إلى أبناء الخليفة عبد المؤمن حين ادّعى عليهم ارتكابهم لبعض الأفعال القبيحة وفي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة « وطال السادات وضايقهم ونسب إليهم عند أبيهم قبائح الأفعال من الراحة والبطالات بالنهار وطول الليل ، وقد كان قديماً قبل هذه الحركة المنصورة يقصر بهم ويسىء العشرة معهم ، فرفع إلى أمير المؤمنين رضى الله عنه أنهم يشربون الخمر المحرمة وقرر ذلك وكرر المطالبة لهم هنالك »^(٣) فلما تحرى الخليفة الأمر عن طريق شيوخ الموحدين تبين له كذب وزيره^(٤) .

ثانياً : وأما الخطأ الثاني حين أرسله الخليفة على رأس حملة إلى قابس فما أتم فتحها حتى استأثر الوزير بالغنائم والأسلاب وفي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة « واستبد عبد السلام بجمع الغنائم والأموال وتنفيذ ما شاء من الأنفال ولم يعلم بما فتح الله من الآمال وأدل بقرابته ووزارته غاية الإدلال فنسب إليه

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٧ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٤ حاشية .

(٢) ابن الأبار : الحلة السراء ج ٢ ص ٢٣٨ ت د . حسين مؤنس ، المراكشي : المعجب ص ١٩٨ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ١٧٤ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٧٥ .

في الأموال والاحتجان والإنكار والكتمان»^(١) وقد عالج أشياخ الموحدين تصرفات الوزير بمطالبة الخليفة تعيين أحد أبنائه وزيراً وأن يكون هو الصلة بين الخليفة وبين أشياخ الموحدين وموافقة عبد المؤمن على ذلك واختياره لابنه أبي حفص وزيراً له^(٢).

ثالثاً : شكوى سكان تلمسان من عمالهم الذين ولاهم الوزير عبد السلام ووصول هذه الشكوى مباشرة إلى الخليفة وذلك حين وصوله إلى تلمسان . «ووصل — أي الخليفة عبد المؤمن — مدينة تلمسان، تشكى أهل العدو بعمال عبد السلام من حملهم على الرعية وظلمهم وتعديهم ومن كومية أصحابه ووصفهم باحتجان الأموال والخيانة للأمر في جميع الأعمال وأظنوا في التشكى والتبكي وأضافوا ذلك كله إلى الرضى من عبد السلام بجورهم»^(٣) «وهكذا استغل الوزير قرباته في التعالي على أبناء الخليفة مع الاستئثار بالأموال ، واستغلاله لمنصبه في تعيين من شاء من أصحابه ورضاه عن ظلمهم ، وقد تجمعت كل هذه الأخطاء لدى الخليفة عبد المؤمن الذي جمع المشتكين وأشياخ الموحدين وطلبة الحضر والقاضى لسماع أقوالهم ، حتى إذا انتهى المشتكون من أقوالهم تغير وجه الخليفة وقال «عجباً من هذا الأمر وسعته وعدم المال عند مأمته ، كانت لتؤنة إنما يملكون إلى تلمسان هذه وكانوا ينصفون أجنادهم ونحن الآن قد ملكنا ذلك وزائداً على ما كان بأيديهم : أفريقية كلها ولا عندنا ما نعطي للموحدين هذا من عجب العجب»^(٤) وهنا أجابه أحد أشياخ الموحدين بقوله «يا أمير المؤمنين ذلك لتضيع الخازن والدين»^(٥) فغضب الخليفة غضباً شديداً وأمر بسجنه^(٦) ، وقد تلطف بعض الموحدين في تخفيف غضب الخليفة بعد ذلك حتى بدا أن الخليفة سيطلق سراحه^(٧) إلا أن أعداء الوزير لم يدعوا

-
- (١) نفس المرجع السابق ص ١٧٦ .
 - (٢) نفس المرجع السابق ص ١٧٧ .
 - (٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٧٧ ، ١٧٨ .
 - (٤) نفس المرجع السابق ص ١٧٨ .
 - (٥) نفس المرجع السابق ص ١٧٩ .
 - (٦) نفس المرجع السابق ص ١٧٩ .
 - (٧) نفس المرجع السابق ص ١٧٩ .

الفرصة تفلت من أيديهم فأغروا سبحانه بوضع السم له في الطعام فأتت من ليلته (١) وهكذا لقي وزيران مصرعهما : ابن عطية وعبد السلام الكومي في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي .

فاذا ما انتقلنا إلى عهد ابنه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن نجد أنه عاقب أحد وزرائه وهو أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع ، وإن كان العقاب لم يصل إلى حد القتل كما حدث في عهد والده ، وكان أبو العلاء إدريس قد تولّى الوزارة في عهد والده الخليفة عبد المؤمن واستمر في منصبه حتى سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م (٢) ومكث في منصبه خمسة عشر عاماً (٣) ثم نكبه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ولم تشر المراجع إلى أسباب ذلك ، فقبض عليه وعلى ابنيه واستصفي أموالهم ونفاهم إلى مدينة ماردة بالأندلس فظلوا بها حتى وفاة الخليفة وتولى ابنه الخليفة المنصور الموحدى الذي عفا عنهم (٤) .

وقد اتبع الخليفة المنصور الموحدى نفس سياسة النفي بالنسبة للوزراء وذلك حين نفي وزيره أبا زيد عبد الرحمن بن موسى بن وجان بن يحيى الهنتاني وفي ذلك يقول الحميري « جنجالة : حصن بالأندلس في شمال مرسية فيها حبس أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن وجان بن يحيى الهنتاني ، الذي كان وزير المنصور من بني عبد المؤمن » (٥) ولم تذكر المراجع التي اطلعت عليها سبب هذا النفي .

وربما يلجأ الخليفة إلى تحديد إقامة الوزير وذلك كما فعل الناصر مع وزيره وفي ذلك يقول ابن عذارى « وفي هذه السنة — سنة ٦٠٥هـ — قدّم الناصر

(١) نفس المرجع السابق ص ١٨٠ ، ابن الأبار : الحلة السبراء ج ٢ ، ص ٢٣٨ ، ت د . حسين مؤنس ، ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ١٦٣ ، ت الفيلالى .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٩ تطوان ، ابن الأبار : الحلة السبراء ج ٢ ص ٢٤٠ ت د . حسين مؤنس ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٥٢ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٩ تطوان .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٩ تطوان ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٩٨ .

(٥) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ٦٧ ت ليفى بروفنسال سنة ١٩٣٧ .

بعض الولاة على أعماله وآخر آخرين عن أشغاله ، فأخترأبا يحيى بن أبي الحسن ابن أبي عمران عن الوزارة وألزمه في داره وقدم للوزارة أبا سعيد بن أبي اسحق ابن جامع^(١).

وبتتبع معاقبة الوزراء نلمح أن عقوبة القتل كانت مصيرهم في عهد عبد المؤمن ثم النني والاعتقال فقط في عهد من جاء بعده وهذا يتمشى مع تطور نمو الدولة واستقرارها حيث كانت الدولة في أول أمرها محتاجة للدعم والتمكين ومن هنا كان القتل مصير كل من تسوّل له نفسه خيانة الدولة أو استغلال نفوذه وهذا ما حدث في عهد عبد المؤمن فاذا ما استقرت الدولة وتدعم مركز الخلفاء ، كان النني والاعتقال مصير الوزراء .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢٣ تطوان .

د - الكتابة

عرف العالم الاسلامى نظام الكتابة كوظيفة معاونة ومساعدة للسلطة العليا فى تصريف شئون البلاد ، وقد عرف المشرق هذه الوظيفة ، واتخذ الخلفاء والأمراء الكتّاب لمعاونتهم فى إدارة شئون الدولة^(١) ومنذ أن قامت دولتا المرابطين والموحدين على أرض المغرب الأقصى فى القرنين الخامس والسادس من الهجرة ، اتخذ حكامها الكتّاب لمعاونتهم ومساعدتهم فى تسجيل المكاتبات الخاصة بشئون الدولة . وقد استعانت الدولة المرابطية منذ نشأتها بطائفة من الكتّاب وخاصة بعد أن سيطر المرابطون على الأندلس ، واحتاجت الدولة المترامية الأطراف إلى من يحرر الرسائل المتنوعة عن لسان أمير المسلمين إلى عمال دولته وقوادها وكبار موظفيها^(٢) كذلك كانت خطة الكتابة من الخطط الهامة فى الدولة الموحدية حيث حشد خلفاء الموحدين فى بلاطهم أقطاب الكتّاب المحدثين ليكونوا لساناً للخليفة الموحدى وترجمانا له فى مخاطبة الولاة والقبائل والكافة سواء بالمغرب أو الأندلس^(٣) وخير دليل على إرتقاء وظيفة الكتابة فى الدولة الموحدية ذلك العدد الكبير من أئمة البلاغة والأدب والذى خدم فى قصور خلفاء الموحدين ، بالإضافة إلى تلك الرسائل التى جمعها ليلى بروفنسال تحت عنوان « مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية » التى تتناول معظم الأحداث فى الدولة الموحدية وهى بقلم أشهر كتّاب الدولة ، وقد بلغت سبعة وثلاثين رسالة ، وبقراءة هذه الرسائل يمكننا أن نستخلص مدى إهتمام الخلفاء بتسجيل الأحداث الهامة والأوامر والمكاتبات الصادرة من الخليفة الموحدى مما يدل على أهمية وظيفة الكتابة فى الدولة .

الكتّاب : لعبت الأندلس إحدى الأقاليم التابعة لدولتي المرابطين والموحدين دوراً كبيراً فى تزويد السلطة العليا بالمغرب بطائفة كبيرة من الكتّاب^(٤) وقد

-
- (١) د. صبحى الصالح : النظم الاسلامية نشأتها وتطورها ص ٣٠٣ .
 - (٢) د. حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ٤٣٦ .
 - (٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢٢ .
 - (٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥٩ ، د. حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ٤٣٦ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢٢ .

J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P : 12

(م ٨ - الحضارة)

عبر المراكشي عن كثرة كتاب الأندلس في بلاط أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين بقوله « ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته لذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك (١) » .

وبجانب إقليم الأندلس ، قام المغرب الأقصى بدوره في تخريج مجموعة من الكتاب المغاربة نتيجة لازدهار الحركة الفكرية وخاصة في عهد الموحدين ويتصفح تراجم هؤلاء الكتاب بالمغرب الأقصى يمكننا أن نلمح نوعية هؤلاء الكتاب :

أولاً : كتاب شغلوا هذه الوظيفة بالأندلس خلال حكم ملوك الطوائف ومن هؤلاء الكتاب ابن عبدون وهو من أهل يابرة والذي اشتغل كاتباً ليوسف بن تاشفين وكان قبل ذلك يكتب للمتوكل بن الأفطس (٢) وأيضاً الكاتب أبو بكر المعروف بابن القصيرة كاتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وكان من قبل كاتب ابن عباد في الأندلس (٣) وكان ابن القصيرة من أهل أشبيلية ورأس أهل البلاغة في وقته (٤) وكذلك الكاتب أبو بكر عبدالعزيز ابن سعيد بن عبد العزيز البطليوسي والذي كان كاتباً لعمر المتوكل بن الأفطس ثم بعد ذلك كاتباً في دولة المرابطين (٥) ، ولا شك أن هؤلاء الكتاب لم يصلوا إلى شغل وظيفة الكتابة في دولة ملوك الطوائف إلا بعد أن أثبتوا جدارتهم الأدبية في عصر بلغت فيه الحياة الأدبية الأوج حيث كان التنافس واضحاً بين ملوك الطوائف في تشجيع الأدباء والكتاب مما أذكي شعلة الأدب حتى

(١) المراكشي : المعجب ص ١٧٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٨٧ ، كنون : النبوغ المغربي ج ١ ص ٧٨ ط ٢ سنة ٦١ .

(٣) المراكشي : المعجب ص ١٦٤ ، الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ٩١ ، : الفتح بن خاقان : ملاند العقيان ص ١٠٨ ط سنة ٣٢٠ هـ ابن الأبار : اعتاب الكتاب ص ٨٤ ت د . صالح الاشتري .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٥٣٩ القاهرة سنة ١٩٥٥ .

(٥) ابن الأبار : الحلة السراء ج ٢ ص ١٠٣ ، ١٠٤ ت د . حسين

مؤنس حاشية .

بلغت الذروة في ذلك العصر^(١) وبالتالي فقد أضفوا على وظيفة الكتابة بالمغرب القوة والازدهار نتيجة لخبراتهم وتجاربهم السابقة .

ثانياً : كَتَّاب ولدوا ونشأوا بالأندلس ونالوا حظاً كبيراً من العلم والمعرفة ومن هؤلاء أبي عبد الله بن أبي الخصال الغافقي من فرغليط قرية على مقربة من شقورة في كورة جيان ، وقد كان أكتب أهل زمانه وأدب أهل الأندلس بالإجماع^(٢) وحتى أنه كان يلقَّب برئيس كتاب الأندلس^(٣) وقد اشتغل كاتباً لعل بن يوسف بن تاشفين^(٤) وكذلك القاسم بن الجحد وهو من لبلة وقد سكن أشبيلية وكان من أهل التفنن في المعارف والتقدم في الآداب والبلاغة والتحق بوظيفة الكتابة لدى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين^(٥) .

وعلى نفس السياسة سار خلفاء الموحدين في الاستعانة بكتاب الأندلس في شغل وظيفة الكتابة ومعاونة الخلفاء في المكاتبات الرسمية فقد استخدم الخليفة عبد المؤمن ميمون الهواري كاتباً له وهو من سكان قرطبة وكان أديباً فقيهاً^(٦) كما استخدم أيضاً أبا الحسن بن عياش وهو من أهل قرطبة^(٧) وجرى على نفس السياسة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين استخدم كاتباً من أهل الأندلس وهو أبو الحسن بن عياش الذي اشتغل كاتباً للخليفة عبد المؤمن من قبل^(٨) ، كذلك استخدم المنصور الموحدي كاتباً من الأندلس

-
- (١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥٩ .
(٢) ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ص ١٧١ .
(٣) آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٧٧ ت د. حسين مؤنس ط ١ سنة ٥ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ١٧٧ ، المراكشي : المعجب ص ١٧٣ ، د. حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي ص ١٣٧ سنة ١٩٤٩ .
(٥) ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ص ١٧٤ ، كنون : النبوغ المغربي ج ١ ص ٨٢ ط ٢ سنة ٦١ .
(٦) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٦ حاشية ، ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٢٣ حاشية .
(٧) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٦ حاشية ، ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٦٠ .
(٨) المراكشي : المعجب ص ٢٤٤ ، ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ١٧٥ ت الفيلاي .

وقد ظهر ذلك حين اتخذ المنصور أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عباس من أهل برشانة من أعمال المرية من بلاد الأندلس ، وقد ظل في منصبه كاتباً مدة ولاية المنصور الموحدى وابنه الناصر من بعده^(١) وقد لعب هؤلاء الكتاب دوراً بارزاً في دعم وظيفة الكتابة بما اكتسبوه من خبرة وثقافة ومعرفة من الأندلس .

ثالثاً : كتاب من أبناء المغرب وخاصة في فترة حكم الدولة الموحدية ، وكان هذا طبيعياً حيث أن دولة المرابطين التي نشأت في مهد البداوة والتشرف لم تكن قد وصلت إلى ما وصل إليه إقليم الأندلس من تقدم وازدهار في فن الكتابة في ظل ملوك الطوائف ، ومن هنا استعان المرابطون بعد أن أخضعوا الأندلس بمجموعة كبيرة منهم حتى إذا ازدهرت النواحي الثقافية في البلاد قدم المغرب من أبنائه من يضطلع بهذه الوظيفة ، وقد رأينا ذلك حين استخدم ابن تومرت اثنين من أتباعه لشغل وظيفة الكتابة وهما ملول بن إبراهيم بن يحيى الصنهاجي وأبو الربيع سليمان بن مخلوف الحضرمي^(٢) وكذلك حين استخدم الخليفة عبد المؤمن بن علي : أبا القاسم عبد الرحمن القالمى من أهل مدينة بجاية وكان من نبهاء الكتاب^(٣) واستخدم أيضاً أبا محمد عبد الله بن جبل من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان^(٤) ، واستخدم أيضاً أبا علي الأشيري وهو من أهل تلمسان^(٥) وكذلك فعل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن في استخدامه لكتاب من المغرب فقد استخدم أبا الفضل جعفر بن أحمد المعروف بابن محشوة من أهل مدينة بجاية^(٦) .

(١) المراكشي : المعجب ص ٢٣٦ ، ابن الأبار : امتاز الكتاب ص ٢٣٠ حاشية ت د ، صالح الأشتري .
(٢) البيهقي : أخبار المهدي ص ٣٩ ، محمد المنوني : العلوم والفنون والآداب ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P : 13

(٣) المراكشي : المعجب ص ٢٠٠ ، الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٣٢٤ .
(٤) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٧٥ حاشية ، ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٢٣ .
(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٦ حاشية .
(٦) المراكشي : المعجب ص ٢٢٤ ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٧٥ . ت الفيلاي .

ثقافة الكتاب :

١. تروّد هؤلاء الكتاب بقسط وافر من الثقافة العربية التي أعانهم وأهلّتهم لشغل هذا المنصب حيث حرص هؤلاء الكتاب على الاغتراف من ينابيع الثقافة العربية ومن ذلك ما وصف به ابن القصيرة الكاتب بأنه « رأس أهل البلاغة في وقته وكان من أهل الأدب البارع والتفنن في أنواع العلم »^(١) ويصف المراكشي ابن أبي الحصال الكاتب « أحد من انتهى إليه علم الآداب وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولي »^(٢) وابن دحية في وصفه للكاتب أبي القاسم بن الجحد « وكان من أهل التفنن في المعارف والتقدم في الآداب والبلاغة وله حظ جيد من الفقه والتكلم في الحديث »^(٣) وبجانب الثقافة العربية العريضة فإن بعضهم كان على معرفة بلغات غير العربية ، وقد ظهر ذلك حين طلب يوسف بن تاشفين من كاتبه ترجمة كتاب وصله من أهل الأندلس يعلنون فيه طاعتهم وفي ذلك يقول العيني « وكان له - أي ليوسف بن تاشفين - كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية فعرفه بما في الكتاب فكتب الجواب بما يشرح صدورهم ويطمئن قلوبهم »^(٤) واللغة المرابطية هنا المقصود بها لغة البربر التي كانت تتكلم بها القبائل في ذلك الوقت .

اختصاصات الكتاب :

تنوعت اختصاصات الكتاب بالمغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين فكانت وظيفتهم الأساسية في الدولة المرابطية كتابة الرسائل والأوامر الخاصة بأمير المسلمين وإرسالها إلى طوائف الأمة وعمال الدولة وكبار موظفيها وذلك بعد اعتمادها بخاتم الأمير^(٥) وقد ظهر ذلك حين أراد يوسف بن تاشفين اتخاذ لقب أمير المسلمين فأنه أمر كاتبه بكتابة هذا القرار وإرساله إلى الأشياخ

(١) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٥٣٩ .

(٢) المراكشي : المعجب ص ١٧٣ .

(٣) ابن دحية : المطرب من اشعار أهل المغرب ص ١٧٤ .

(٤) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ قسم ٣ ص ٦٠٠ .

(٥) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٦١ ، د. حسن

ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي ج ٤ ص ٤٣٦ .

والأعيان والكافة في كل مكان ^(١) وكذلك قام الكتاب بالرد على المخاطبات الواردة من الخارج وقد تجلّى ذلك حين كاتب أهل الأندلس يوسف بن تاشفين يطلبون عوناً ونصرته ، فأمر كاتبه بالرد عليهم بما يشرح صدورهم ويطمئن قلوبهم ^(٢) .

وبجانب قيام الكاتب بتسجيل المكاتبات والردّ عليها فإنه كان يقوم بدور المستشار لأمر المسلمين نظراً لخبرته ومعرفته وقد تجلّى ذلك حين استشار أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كاتبه عبد الرحمن بن أسبط في العبور إلى الأندلس لنجدة ابن عباد وفي ذلك يقول ابن الخطيب « وبعد ذلك خلا - أي يوسف ابن تاشفين - بأحد كتابه وهو عبد الرحمن بن أسبط وكان أندلسياً من أهل المرية واستشاره فقال له إن الأمر لله تعالى ولكم فقال له ومع هذا فقل ما عندك » ^(٣) وهكذا كانت معرفة ابن أسبط بأوضاع الأندلس سبباً في طلب يوسف بن تاشفين مشورته .

حتى إذا تولى عبد المؤمن بن علي الخلافة تولى الكتاب عبء تسطير أخبار معارك عبد المؤمن ، وأوامره ونصائحه لولائه . وبعض القرارات التي اتخذها من مثل تولية ابنه ولاية العهد وتولية أبنائه الأقاليم المختلفة . وكل ذلك كانت تصدر به رسائل رسمية يكتبها الكتاب ويبعثون بها إلى عمال الأقاليم وأعيان الموحدين وطبقات الأمة المختلفة ، وقد جمع ليبي بروفنسال مجموعة من هذه الرسائل تحت عنوان « مجموع رسائل موحديه من إنشاء كتاب الدولة الموحمية » ضمّت سبعة وثلاثين رسالة كتب منها في عهد عبد المؤمن ثلاث وعشرون رسالة .

ثم تحدت اختصاصات الكتاب منذ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حيث أصبح هناك نوعان من الكتاب لكل منهما اختصاصه :

فهناك كتاب ديوان الانشاء وهؤلاء يتولون كتابة المراسيم السلطانية

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ قسم ٣ ص ٦٠٠ .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٣٢ .

والرسائل الموجهة إلى الولاة والقضاة^(١) ويصف ابن عذارى اختصاصهم بقوله « يشرفون على كتب التوقيعات وكل ما ترتب عليه وقوع العلامة من وجوه الأوامر »^(٢) ومن كتبه الانشاء أبو محمد عباس بن عبد الملك بن عباس وأبو القاسم المعروف بالقلمى وبابن محشوة في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن^(٣) أما في عهد المنصور الموحدى فقد تولى كتابة الانشاء ابن محشوة وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عباس^(٤) وفي عهد الناصر : أبو الحسن علي بن عباس بن عبد الملك بن عباس وأبو عبد الله محمد بن يخلفتن بن أحمد الفازازي^(٥).

وبجانب كتاب الانشاء هناك كتاب الجيش الذين يختصون بالشئون العسكرية^(٦) وقد أشار ابن عذارى إلى اختصاصهم بقوله « وانه د أبو عبد الله ابن منيع - وهو الكاتب المختص - بديوان العسكر وما انضاف إليه من التنفيذات السلطانية وتقييد الجزيات العامة في أنواع النفقات »^(٧) ومن كتاب الجيش في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن : أبو الحسن الهوزنى الأشبيلي وأبو عبد الرحمن الطوسي^(٨) وفي عهد المنصور الموحدى : الكباشي وأبو الحسن ابن مغن^(٩) وفي عهد الناصر أبو الحجاج يوسف المراني ثم بعده أبو جعفر أحمد بن منيع^(١٠).

وقد قام بعض الكتاب بدور المحققين مع العمال الذين يبلغ الخليفة عنهم سوء تصرفهم واستبدادهم في أعمالهم واسرافهم في أموال الدولة ، وقد حدث ذلك حين وصل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لإشبيلية بالأندلس سنة ٥٦٦هـ -

-
- (١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٣ .
 - (٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢٤ ، ٢٦٣ تطوان .
 - (٣) المراكشي : المعجب ص ٢٤٤ .
 - (٤) نفس المرجع السابق ص ٢٦٣ .
 - (٥) نفس المرجع السابق ص ٣١١ ، ٣١٢ .
 - (٦) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٣ .
 - (٧) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢٤ تطوان .
 - (٨) المراكشي : المعجب ص ٢٢٤ .
 - (٩) نفس المرجع السابق ص ٢٦٤ .
 - (١٠) المراكشي : المعجب ص ٣١٢ .

١١٧٠م وحاسب أحد عماله وفي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة « وعندما احتل بها - أي نزل الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن بأشيلية سنة ٥٦٦هـ - أختار محمد بن أبي سعيد المعروف بابن المعلم عن أعمال الخزن بأشيلية والأندلس وعزله عنها وأمره بالمشى إلى قرطبة لمحاسنته والوقوف على عمله . . وعندما وصل إلى قرطبة جعل لمحاسنته أبو القاسم بن عساكر - أحد الكتاب المبرزين في البلاط الموحدى ممن كان يعين أحياناً لمحاسبة المتصرفين في أموال الخزن - وأبو عبد الله بن محسن كاتب العسكرية وأمر بالحضور على تسطير عمله الفقيه أبو محمد الماتى والكاتب أبو الحكم بن عبد العزيز يشهدان على كل ما يسطره دام ذلك إلى آخر شهر ذى الحجة من عام ستة وستين وخمس مائة^(١) وكذلك استخدم المنصور الموحدى كتابه في محاسبة عامل أشيلية حين بلغه ظلمه ، يقول ابن عذارى « فأبرز لمحاسنته - أي محاسبة المنصور الموحدى لعامله داود بن أبي داود - أبا محمد عبد الله بن يحيى وأبا عبد الله بن الكاتب وقد كان تحت نظرهما من كتاب الجهات نحو خمسين كاتباً ، وأقاموا في نسخ وتقييد وتبيض وتسويد واكباب على بحث وتنقيب وتصديق بعض وتكذيب^(٢) »

وكانت فصاحة الكاتب وبلاغته توهلانه في بعض الأحيان للوقوف خطيباً أمام الخليفة بجانب اختصاصه بوظيفة الكتابة ، وذلك ما حدث في عهد عبد المؤمن بن علي وكاتبه ابن جبل ، وقد أشار إلى ذلك ابن صاحب الصلاة في ترجمته لابن جبل بقوله « الفقيه الخطيب أبو محمد عبد الله المعروف بابن جبل ، كان صاحب أبي الحسن الأشيلى عند الخليفة رضى الله عنه - أي عبد المؤمن بن علي - يخطب بعده إذا خطب ويحضر إذا حضر فيورى الخطابة والفصاحة من كتب وتتعجب الوفود من بلاغته غاية العجب^(٣) .

وكما اتخذ أمراء المسلمين في الدولة المرابطية وخلفاء الموحدين الكتاب لمعاونتهم في العاصمة مراکش ، كذلك فعل أمراء الأقاليم في اتخاذهم الكتاب لمعاونتهم في تحرير الرسائل وما يتعلق بالأعمال الإدارية^(٤) فقد اتخذ سير بن

-
- (١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٥٣ .
 (٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٧٣ تطوان .
 (٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٣١ .
 (٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥٣ .

أبى بكر الذى ولى أشيلية الكاتب ابن عبدون وظل يكتب له إلى أن اتصل
بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين باستدعاء منه (١) وتولى الكاتب محمد بن
أحمد بن جبير بن محمد بن عبد السلام الكتانى من أهل شاطبة وظيفه الكتابة بغرناطة
لأبى سعيد بن أبى محمد عبد المؤمن ثم رحل عنه وكتب لأبى سعيد عثمان بن
عبد المؤمن والى سبتة (٢) وكذلك الكاتب أبو الحسن بن عباس القرطبي الذى
اشتغل كاتباً لأبى حفص وتوجه معه إلى تلمسان وصار فى صحبته وكتابته ثم
استدعاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ليشغل وظيفة الكتابة لديه (٣).

وهكذا قام الكتاب سواء من كان منهم بعاصمة الدولة ويتبعون فى ذلك
السلطة العليا فى البلاد ، أو فى أقاليم الدولة المختلفة ويتبعون أمراء الأقاليم
بواجباتهم فى معاونة الحكام فى تسيير شئون البلاد .

وهنا يجدر الإشارة إلى العلامة التى اتخذها الكتاب فى رسائلهم الرسمية
والصادرة عن السلطة الحاكمة فى الدولة المرابطية كانت علامة الملك « العظمة
لله » (٤) حتى إذا جاء الموحدون اتخذوا علامة لدولتهم وهى « الحمد لله وحده » (٥)
وفى ذلك يقول ابن خلدون « ثم نظر الموحدون فى موضع العلامات المكتوبات
بخط الخليفة فاختراروا الحمد لله وحده لما وقفوا عليها بخط الإمام المهدي فى
بعض مخاطباته فكانت علامتهم إلى آخر دولتهم » (٦).

-
- (١) المراكشى : المعجب ص ٨٧ .
(٢) ابن القاضى : جذوة الابتباس ص ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٣) ابن مغازى : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٣ تطوان .
(٤) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٧ .
(٥) ابن القاضى : جذوة الابتباس ص ٣٤٨ ، ابن أبى زرع : الانيس
ص ١٥٧ ، طبع حجر ، السنلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٤٧ .
(٦) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ .

هـ - الحجابة

عاون الوزراء والكتّاب أمراء المسلمين في الدولة المرابطية وخلفاء الموحدين في تصريف شئون الدولة وتسيير الأمور بما يحفظ على الدولة تقدمها وازدهارها وبجانب الوزراء والكتّاب كان هناك الحجاب الذين ساعدوا الحكام في تنظيم الصلة بينهم وبين الرعية وكان الحجاب « واسطة بين الناس وبين الخليفة وهو الذى يدرس حوائجهم ويأذن لهم بالثول بين يدى الخليفة أو يوصى بقضاء حوائجهم فلا تكون هناك حاجة للمثول بين يديه ، أو يرفض الاذن لهم إذا كانت الأسباب للمقابلة غير قوية أو لم توجد أسباب»^(١) ، ومن هنا كانت مهمة الحجاب تنظيم مقابلات الخليفة مع العامة والخاصة ، حفظاً لهيبة الخلافة وتنظيلاً لمرض المسائل بحسب أهميتها للحاكم الأعلى للبلاد .

وبالنسبة لوظيفة الحجابة في الدولة المرابطية فأننى لم أعر في المراجع التى اطلعت عليها على وجود لهذه الوظيفة سوى إشارة بسيطة أوردها ابن الخطيب في الاحاطة عند ترجمته لتاشفين بن على بن يوسف بقوله « عكف -- أى تاشفين بن على -- على زيارة قبر أبى وهب الزاهد بقرطبة وصاحب أهل الارادة ، وكان وطىء الاكتاف سهل الحجاب ، يجالس الأعيان ويذاكرهم»^(٢) فسهل الحجاب التى وردت في النص لا تكفى للتدليل على وجود هذه الوظيفة في الدولة المرابطية وربما يرجع السبب في ذلك إلى أن الدولة المرابطية تميزت بالبساطة مع تمكن البداوة منها^(٣) مما جعلها لا تتخذ مظاهر الأبهة والملك والى تستلزم وجود حجاب بين الحاكم والرعية .

فاذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية فان ابن خلدون يبنى وجود هذه الوظيفة في بدء قيام الدولة وذلك حين قال في مقدمته « ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتمييز الخطط وتعيينها

(١) د. أحمد شلبي : السياسة والاقتصاد ض ١٦٢ .
(٢) ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة المجلد الاول ص ٤٥٧
ت . عنان .
(٣) اكتسوس : الجيش العرمم الخماسي لوحة ٣١٠ ميكروفيلم ،
د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ٣٣٦ .

بالأسماء إلا آخرها ، فلم يكن عندهم من الرتب إلا الوزير ^(١) ، إلا أن جماعة من المؤرخين أشاروا إلى وجود هذه الوظيفة في عهد الخليفة عبد المؤمن حيث اتخذ الحجاب ^(٢) ووجدنا من وزرائه من يقوم بمهمة الحجابة وذلك حين تولى ابنه أبو حفص مهمة الحجابة وفي ذلك يقول النويري « ثم مات عبد المؤمن وكان بسلا — فكنتموا موته وحمل في محفة من سلا بصورة أنه مريض إلى أن وصل إلى مراکش ، وكان ابنه أبو حفص حاجباً لأبيه فبقى مع أخيه على مثل حاله مع أبيه يخرج إلى الناس فيقول أمر أمير المؤمنين بكذا وكذا ^(٣) » وقام عبد السلام الكومي وزير عبد المؤمن بمهمة الحجابة وتنظيم دخول الوفود على الخليفة عبد المؤمن وفي ذلك يقول النويري « وفتح — أي عبد المؤمن بن علي سنة ٥٥٤هـ — مدينة قابس بالسيف وأتاه تميم صاحب قفصة ومعه جماعة من أعيانها ولما قدموا عليه دخل حاجبه عبد السلام الكراي — وصحبها الكومي — يستأذنه عليهم ^(٤) » ، فلما تولى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن تولى حجابته أكثر من شخص . وأول هؤلاء الحجاب أخوه أبو حفص الذي اشتغل من قبل حاجباً لوالده عبد المؤمن ، يقول ابن أبي زرع « حاجبه — أي حاجب يوسف بن عبد المؤمن — الضابط لأمره والقائم بملكه أخوه السيد أبو حفص ^(٥) » كذلك تولى الوزير إدريس بن جامع في أكثر من مناسبة مهمة تنظيم دخول الوفود وتبليغ الخليفة بحاجيات الجماهير ومن ذلك حين جلس الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن لتلقي بيعة أتباع ابن مردنيش سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، يقول ابن صاحب الصلاة « فحين جلس الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه — أي أي يوسف بن عبد المؤمن — في مجلسه العالي الكريم خرج الوزير أبو العلا إدريس بن جامع وأمرهم بالدخول والمثول بين يديه فدخلوا وسلموا سلام جماعة ثم بايعوا واحداً بعد آخر ^(٦) » وحين خرج الخليفة يوسف بن عبد المؤمن

-
- (١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٤١ .
 (٢) ابن القنفذ : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ص ٦٠٢ .
 (٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٨ .
 (٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ .
 (٥) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ١٧٤ ت الفيلاي .
 (٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٧٣ .

لحضور الاحتفالات باستقبال العرب الوافدين من إفريقية سنة ٨٥٦٦/١١٧٠م وذلك بعد شفائه من مرضه ، كان الوزير أبو العلاء إدريس يقوم بمهمة الحاجب خلال الموكب ، وقد أشار إلى ذلك ابن صاحب الصلاة بقوله « فاستوى أمير المؤمنين على صهوة فرسه الأشقر الأغر ، وخرج راكباً عليه وهي أول ركبة خرج فيها للقاء أحد أو تشييعه من حين مرضه المؤرخ ، والوزير أبو العلاء راجلاً على قدميه بين يديه لصق ركابه على حجابيه مهما أراد أحد من الرافعين أو المتشكين أو من أهل الحاجات وذوى اللبانات كلاماً أو إشارة يخرج إليهم مستفهماً كلامه موصلاً أعلامه » (١) ومن الأمثلة السابقة نلمس وجود الحجاب في الدولة الموحدية منذ تولى عبد المؤمن بن علي الحكم .

وبجانب هؤلاء الوزراء فإن المراكشي أشار إلى وجود حاجب لدى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن من مواليه وهو كافور الخصى « وكان يدعى كافور بغرة » (٢) أما في عهد المنصور الموحدى فقد ذكر المراكشي اثنين من موالى المنصور توليا حجابته وهما عنبر الخصى وريحان الخصى (٣) وذكر ابن عذارى حاجباً آخر بدلا من ریحان وهو فضيل (٤) ، حتى إذا تولى الناصر الموحدى الخلافة استبد وزيره أبو سعيد بن جامع بمنصب الوزارة والحجابه (٥) ولم تكن الأمور المتعلقة بالدولة تصله إلا بعد جهد ومشقة (٦) وذلك لاستبداد الحجاب وبجانب تولى الوزير حجابته ، ذكر المراكشي حاجباً له من الموالى يقول المراكشي « ریحان الخصى ويدعى ریحان بينك ، حجبه ریحان هذا إلى أن مات ثم حجبه بعده مبشر الخصى ، يدعى مبشر ولدى فلم يزل مبشر هذا حاجباً له إلى أن توفى أمير المؤمنين رحمه الله » (٧) .

-
- (١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣١ .
 (٢) المراكشي : المعجب ص ٢٤٤ .
 (٣) نفس المرجع السابق ص ٢٦٣ .
 (٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٥ تطوان .
 (٥) ابن أبي زرع : الأئیس ص ١٦٨ طبع حجر .
 (٦) نفس المرجع السابق ص ١٩٨ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٢٩ ، عباس المراكشي : الأعلام ج ٣ ص ٨١ .
 (٧) المراكشي : المعجب ص ٣١١ .

الفصل الثالث

النظام الإداري

١ — أمراء الأقاليم

شهد المغرب الأقصى تقسيماً إدارياً لأقاليمه وذلك منذ أن تأسست على أرضه دولة المرابطين ومن بعدها دولة الموحدين ، وتولّى إدارة الأقاليم ولاية من قبل السلطة الحاكمة في العاصمة مراكش .

وقد شملت ولايات المغرب الأقصى في عهد المرابطين ست ولايات عدا العاصمة مراكش وما يتبعها من قرى ، والولايات هي : فاس — وبجلماسة — والسوس وتلمسان — والصحراء — وسبتة وطنجة تكونان إقليماً واحداً (١) .

واتبع الموحدون في تقسيماتهم الإدارية تقسيماً إدارياً مشابهاً لنظام المرابطين وإن كانوا قد زادوا عليه إقليم الريف (٢) مع إدماجهم لولاية الصحراء فيما جاورها من ولايات كإقليم السوس (٣) .

وقد تمتعت بعض الولايات بأهمية خاصة وذلك إما لتاريخها الديني كولاية فاس وأهم مدنها مدينة فاس ، التي كانت عاصمة المغرب الأقصى في عهد دولة الأدارسة وظلت بعد ذلك مركزاً دينياً وثقافياً ، وحتى بعد أن فقدت زعامتها السياسية في عهد المرابطين والموحدين حيث اتخذ المرابطون والموحدون مراكش عاصمة سياسية لهم ، فإنها ظلت محتفظة بما لها من مكانة وكان أمير المسلمين في دولة المرابطين لا يولّى عليها إلا أقرب الناس وأدناهم منه (٤) وإما لموقعها كولاية بجلماسة التي على حدود الدولة الجنوبية (٥) .

(١) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١١ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٣٦ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٢٧ .

(٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥٤ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٣٥٥ .

التقسيمات الإدارية في عهد الموحدين



مياسة اختيار الولاة :

تولى السلطة بأقاليم المغرب الأقصى منذ أن تأسست دولة المرابطين ولاة من قبل السلطة الحاكمة بمراكش، وكانت هناك سياسة مشتركة بين أمراء المسلمين في الدولة المرابطية وخلفاء الموحدين في الدولة الموحدية هي اختيارهم هؤلاء الولاة من الأسرة الحاكمة نفسها ومن ذوى قرباهم أو من القبائل المؤسسة للدولة وقد وضح ذلك حين عهد يوسف بن تاشفين إلى توزيع أقاليم المغرب الأقصى على بنيه وذويه ، يقول ابن خلدون « ثم اقتسم — أى يوسف بن تاشفين — المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه »^(١) وقد تحققت هذه السياسة حين عهد يوسف بن تاشفين سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م إلى توزيع عماله على أقاليم المغرب الأقصى ، فولى سيري بن أبي بكر مدائن مكناسة وبلاد مكلانة وبلاد فازاز ، وولى عمر بن سليمان مدينة فاس وأحوازها ، وولى داوود بن عائشة بمهاسة ودرعة وولى ولده تميما مدينتي أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وبلاد تادلا وتامسنا^(٢) ، وقد دعم يوسف بن تاشفين انجاء تعيين أبناء القبائل المؤسسة للدولة في الوظائف الهامة ومنها إمارة الأقاليم حين استدعى هذه القبائل من مواطنها إلى المغرب الأقصى وذلك بعد أن وطئ نفوذه واتسع سلطانه ، يقول ابن الخطيب « وبعث أى يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٠هـ إلى الصحراء للمتونة ومسوفة وغيرهم يعلمهم بما فتح الله عليه من ملك المغرب وطاعة أهله ويؤكد عليهم في القدوم فوفد إليه منهم جموع كثيرة ولآهم الأعمال وصرف أعيانهم في مهمات الأشغال فاكتمسوا الأموال وملكوا رقاب الرجال وكثروا بكل مكان »^(٣) وبذلك صارت القبائل المؤسسة وهي لمتونة ومسوفة وجدالة يحتل ابناؤها المراكز الهامة في الدولة^(٤) وكان يوسف بن تاشفين يرمى

-
- (١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٥ .
 (٢) ابن أبى زرع : الأنييس ج ٢ ص ٤٥ ت الفيلالى ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٢٩ ، د. السيد عبد العزيز : المغرب الكبير ص ٧١٤ .
 (٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٢٠ .
 (٤) أشباح : تاريخ الاندلس ج ٢ ص ٢٣٤ ، د. شعيرة : المرابطون ص ٣٠ .

من وراء ذلك الاحتفاظ بتآلف هذه القبائل وتماسكها مما يدعم السلطة الحاكمة ويحفظ الدولة من خطر التفرق والانقسام^(١).

وسار على نفس السياسة أمير المسلمين على بن يوسف ، وقد تجلّى ذلك بعد إتمام بيعته ، يقول ابن عذارى « وبادر — أى بعد تمام مبايعة على بن يوسف — الأمير أبو الطاهر إلى مكناسة بالخيـش ، والأمير يحيى بن أبي بكر بفاس والأمير مزدلى بتلمسان ، وكان الأمير سير بن أبي بكر فى طاعة أشيلية ولحق الأمير أبو بكر بن ابراهيم بغرناطة فى ربيع الأول من هذه السنة »^(٢) وحتى فى التنقلات التى كان يقوم بها أمراء المسلمين من المرابطين بين ولايتهم كانوا يتبعون نفس السياسة ، فقد ولى أمير المسلمين على بن يوسف ابنه عمر على ولاية فاس فى سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م وحين استبد وظلم عزله أمير المسلمين ، وولى مكانه يحيى بن أبي بكر بن تيفلويت بن أخته وكان والياً على تلمسان وما وراءها فجمع بين الولايتين^(٣).

فاذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية لمسنا نفس السياسة وهى تعيين أبناء الخلفاء الحكم فى أقاليم الدولة المختلفة ، غير أن هذا الإجراء سبقه إعداد وتنظيم من جانب الخليفة عبد المؤمن حتى يستطيع مواجهة طبقات الموحدين ، إذ أن الخليفة عبد المؤمن أحس منذ اللحظة الأولى التى تولى فيها خلافة الموحدين مدى نفوذ طبقات الموحدين تجلّى ذلك حين عجز الخليفة عبد المؤمن فى توقيع العقوبة على أحد أفراد أهل الجماعة حين قتل أخاه ابراهيم وذلك لاعتراض أهل الجماعة على ذلك^(٤) ومثل آخر ذكره البيهقى يشير إلى عجز الخليفة عبد المؤمن أمام نفوذ أحد أعضاء أهل الخمسين وذلك حين توسل اصمحق بن على بن يوسف آخر أمراء المرابطين بعبد المؤمن ليعفو عنه حين اقتحامه مراکش

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٤٧ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٤٨ ت د. احسان عباس .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٨٣ .

(٤) البيهقى : أخبار المهدي ص ٩٣ .

وقد قبل الخليفة هذا التوسل ورفضه أحد أعضاء الخمسين ، يقول البيذق «ولم يبق منهم إلا أبو بكر بن تيرمت واصلح وغلّامه طلحة ، وكان اصحق يتضرع للخليفة ويقول يا أمير المؤمنين ماله في الرأي شيء فيقول له طلحة اصمت عنا هلى رأيت ملكاً يتضرع لملك مثله فقال أمير المؤمنين لأبى الحسن — وأو الحسن هذا هو أبو الحسن يوكوت بن واكالك من أهل الخمسين من تينملل — اترك هؤلاء الصبيان ، ما الذى تعمل بهم فصاح أبو الحسن وقال فى صيحته : ويوا ويوا الموحدين ، ارتد علينا عبد المؤمن يريد أن يربى علينا فراخ السبوعة فقام الخليفة غضباً واتبعه الموحدون إلا أبا الحسن والشيخ أبا حفص فأخذ اصحق وضرب عنقه» (١) وهكذا عجز الخليفة عبد المؤمن عن حماية من استجار به من المرابطين ، وبالرغم من أن تدخل أبى الحسن لمصلحة الخليفة والدولة الناشئة إلا أن الخليفة عبد المؤمن أحسّ بضرورة الحد من نفوذ طبقات الموحدين واتخذ فى سبيل ذلك عدة إجراءات منها استقدامه لقبيلة كومية واستعانه بالقبائل العربية فى تولى ابنه ولاية العهد ، وتغييره لطبقات الموحدين وجعلها فى ثلاث طبقات .

وقد استعان الخليفة عبد المؤمن فى بداية الأمر بأشياخ الموحدين من أصحاب المهدي والذين ينتمون إلى طبقات الموحدين فى ولاية أقاليم الدولة (٢) . وفى نفس الوقت أنشأ مدرسة فى عاصمته مراکش ألحق فيها أبناءه وجمع فيها ثلاثة آلاف طالب من قبائل المصامدة وغيرها من القبائل وزودهم بمختلف العلوم مع تعليمهم إدارة شئون البلاد وتدريبهم على فنون الحرب والقتال (٣) حتى إذا أتم هؤلاء الطلبة الحفاظ دراساتهم المتنوعة ، بدأ عبد المؤمن الخطوة التالية فى إحلال هؤلاء الطلبة أماكن شيوخ الموحدين فى تولى السلطة على أقاليم الدولة (٤) مستنداً فى ذلك إلى كفاءة هؤلاء الطلبة فى حمل مسئولية إدارة

(١) البيذق : أخبار المهدي ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٤ ، ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥٠ .

(٣) أشباح : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٥١ ، ٥٢ ، الجيلالى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٩٥ .

(٤) الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٢٩٥ عنان : فصر المرابطين والموحدين القسم الاول ص ٤٠٣ .

أقاليم الدولة وقائلا لأشياخ الموحدين « العلماء أولى منكم فسلموا لهم »^(١) مع بقاء هؤلاء الأشياخ بصفة مستشارين ، وقد قابل أشياخ الموحدين هذا الإجراء بارتياح وذلك لأن أبناءهم كانوا ضمن هؤلاء الطلبة^(٢) ثم اتخذ الخطوة النهائية في سبيل تحقيق هدفه المنشود وهو تولية أبنائه أقاليم الدولة ، وذلك حين دسّ بين أشياخ الموحدين من يلومهم على استمرار أبنائهم في رئاسة ولايات الدولة وبقاء أبناء الخليفة بدون توليهم لأقاليم الدولة وما في ذلك من أثر سيء في نفس الخليفة^(٣) وقد عبّر عن ذلك ابن الأثير بقوله « تولى — أى عبد المؤمن ابن علي — أولادهم — أى أولاد أشياخ الموحدين بعد تدريبهم — ثم وضع عليهم بعضهم ممن يعتمد عليه فقال إني أرى أمرا عظيما قد فعلتموه ، فارقم فيه الحزم والأدب فقالوا وما هو ؟ فقال أولادكم في الأعمال وأولاد أمير المؤمنين ليس لهم فيها شيء مع ما فيهم من العلم وحسن السياسة وإني أخاف أن ينظر في هذا فتسقط منزلتكم عنده فعملوا صدق القائل »^(٤) ومن ثم أسرع الأشياخ والحقوا على عبد المؤمن في تعيين أبنائه وهو يتظاهر بالرفض حتى أذعن في نهاية الأمر لمطلبهم وعين أبنائه مكانهم^(٥) .

وما إن تم تعيينهم حتى صدرت رسالة رسمية سنة ٥٥١ هـ من رباط الفتح أشار فيها الخليفة عبد المؤمن إلى أن اختيار أبنائه كان نتيجة لإحاح العرب الهلالية وأشياخ الموحدين وذلك حتى لا يتطرق الخلل إلى إدارة الدولة ، وحرص جموع الموحدين على الالتفاف حول أبناء الخليفة^(٦) ومن هذه الرسالة وما سبقها من تصرفات من جانب الخليفة تشير إلى أن الخليفة لم يكن بمقدوره فرض أبنائه على أقاليم الدولة مباشرة خوفاً من اعتراض أشياخ

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٤ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥١ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥١ .

(٥) نفس المرجع السابق ج ٩ ص ٥١ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ٩٤ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٤ .

(٦) مجموع رسائل موحدية ص ٦١ الى ص ٦٦ ت ليفي بروفنسال (مثبته بقسم الملاحق) .

الموحدين وطبقاتهم ، وذلك بالرغم من استدعائه لقليلة كومية ليدعم بها سلطته ومن ثم لجأ إلى الحيلة بأن جعل أمر تعيينهم نتيجة رغبة وإلحاح العرب المالكية والموحدية في اتخاذ هذه الخطوة وأنه رضخ في النهاية لمطالبهم .

وهكذا استطاع عبد المؤمن بذكائه ودهائه تولية أبنائه أقاليم الدولة المختلفة ملبساً في ذلك رغبات أشياخ الموحدين فولى ابنه السيد أباحفص تلمسان وأحوازاها (١) وولى ابنه السيد أبا سعيد على سبتة وطنجة (٢) وولى ابنه أبا الحسن على ولاية تلمسان (٣) وولى السيد أبا الربيع تادلا (٤) .

وبجانب أبناء الخليفة الذين تولوا السلطة في أقاليم الدولة ، كان هناك الطلبة الحفاظ وهم خريجو المدرسة التي أنشأها عبد المؤمن ، وقد ولى عبد المؤمن بعضهم أقاليم الدولة ، ظهر ذلك حين اتجه عبد المؤمن إلى إفريقية وأنقذ المهدية من أيدي النصاري ، فانه ولى على مدينة سوسة أحد الحفاظ وهو عبد الحق بن علناس الكومي (٥) كما عين الخليفة عبد المؤمن بن علي ، على مدينة صفاقس أحد الحفاظ من الموحدين (٦) ، وقد اتبع خلفاء الموحدين سياسة الخليفة عبد المؤمن في تعيين الأقارب والحفاظ في أقاليم الدولة فالخليفة يوسف بن عبد المؤمن ولى أخاه أبا علي الحسن على سبتة (٧) وكذلك ولى أخاه أبا زكريا يحيى على بجاية سنة ٥٦١ هـ (٨) وولى أيضاً أخاه أبا الحسن على إفريقية سنة ٥٧٦ هـ ثم وكل إليه عمل تلمسان سنة ٥٨٠ هـ (٩) .

-
- (١) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٥١ ت الفيلاي ، البيئق : اخبار المهدى ص ١١٦ ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٦ .
(٢) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٥١ ت الفيلاي ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٦ .
(٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٦ .
(٤) البيئق : اخبار المهدى ص ١١٧ .
(٥) أبو عبد الله محمد بن محمد : الحلال السندسية في الاخبار التونسية ص ١١٧ ط ١ تونس سنة ١٢٨٧ هـ ، ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١٩٧ .
(٦) ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١٩٦ .
(٧) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧١ حاشية .
(٨) نفس المرجع السابق ص ١٧١ حاشية .
(٩) نفس المرجع السابق ص ١٧٢ حاشية .

مؤهلات الولاة :

كان الولاة يتمتعون بوضع اجتماعي معين من حيث انتسابهم إلى الأسرة الحاكمة أو القبائل المؤسسة للدولة ، وبجانب ذلك فقد توفرت فيهم عدة صفات مكنتهم من مزاوله أعمالهم ، وتحملهم لمسئولية الحكم في ولاياتهم ، وكانت الصفة الأولى لهم في دولة المرابطين الصفة العسكرية حيث لاحظنا أن كثيراً من هؤلاء الولاة أمثال سيري بن أبي بكر وداود بن عائشة والأمير مزدي وغيرهم من القادة العسكريين الذين قاموا بنشاط ملحوظ في المعارك ، وفي نفس الوقت تولوا السلطة في أقاليم الدولة ، وهذا يرجع إلى طبيعة الظروف التي واجهتها الدولة منذ تأسيسها في صحراء المرابطين ، وقيام مؤسسها بنشر أفكارهم ودعوتهم في أقطار المغرب ، ثم عملية الجهاد المستمرة في إقليم الأندلس والذي أصبح أحد أقاليم الدولة بعد نصر الزلاقة ، ومن هنا كان ولاية الأندلس أيضاً من العسكريين أمثال أبي بكر بن ابراهيم وعبد الله بن فاطمة وسير بن الحاج وعبد الله بن مزدي وسير بن أبي بكر وغير هؤلاء (١) ولهذا ترك هؤلاء القادة الشئون المدنية بالأندلس للأندلسيين واحتفظوا لأنفسهم بشئون الحرب والدفاع (٢) .

وبجانب هذه الصفة العسكرية فقد حرص كثير من الولاة على التزوّد بمختلف الثقافات العربية حتى يتمكنوا من حمل أعباء المسئولية « فكانوا على شيء كثير من العلم كالمنصور بن الحاج الذي جمع بين الأدب والفقه وتلقى عن علماء أجلاء كأبي علي الصديقي وأبي بحر الأسدي ووصفه ابن الأبار بأنه فخر صنهاجة ، وكأبي بكر ابن تيفلويت الذي كان أديباً يجمع مجلسه كثيراً من الأدباء والشعراء وعمر بن إمام الصنهاجي الفقيه » (٣) .

فاذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا الاهتمام الشديد من الخليفة عبد المؤمن بن علي بأعداد الولاة ، وقد تمثل ذلك الاهتمام في إنشائه مدرسة

(١) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١١ .

(٢) د. حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي ص ٩٧ ديسمبر سنة ١٩٤٩ .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٣ .

لإعداد هؤلاء الولاة وجمع فيها زهاء ثلاثة آلاف طالب من أبناء المصامدة والقبائل الأخرى ، وحدّد لهم منهجاً دراسياً يتقنه كل طالب ، وكان المنهج نظرياً وعملياً ، أما النظرى فهو حفظ القرآن الكريم وحفظ الموطأ ودراسة رسائل المهدي وحفظها عن ظهر قلب ودراسة عدة كتب فى إدارة الولايات (١) هذا عن المنهج النظرى ، أما الدراسة العملية فكانت تتعلق بالفنون الحربية من طعن ورمى بالحراّب والسهام والمبارزة وركوب الخيل والركض وفن القتال ، ثمّ السباحة والمعارك البحرية وذلك فى بحيرة خاصة أنشأها لذلك الغرض على مقربة من قصره ، وأعدّ فيها مجموعة من السفن الكبيرة والصغيرة من كل لون ، ليمرّن الطلاب فيها على القتال فى البحر والتجديف وقيادة السفن والوثب إلى سفن العدو ومزاولة جميع التمارين البدنية التى تقتضها الخدمة البحرية (٢) وقد بلغ من اهتمام الخليفة عبد المؤمن بهؤلاء الطلاب أن نفقهم من حيث المأكل والمشرب وما يلزمهم ، وكذلك ما يحتاجون إليه من خيل ومعدات وغير ذلك كانت من مال الخليفة (٣) وبجانب ذلك فقد حرص الخليفة على متابعة دراستهم والإشراف عليها ، ولذا كان يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة فى قصره ويمتحنهم فيما درسوه ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه (٤) وذلك تشجيعاً لهم على الاجتهاد والاستفادة من هذه الدراسة ، حتى إذا أتموا تدريبهم استخدمهم الخليفة فى وظائف الدولة المختلفة وجعل منهم عمالاً على الأقاليم ، وهكذا جمع الولاة فى الدولة الموحدية بين الثقافة الإسلامية والتدريب العسكرى

طريقة تعيين الولاة :

كان تعيين الولاة يجرى وفق مراسم معينة ، وقبل أن يقع الاختيار على وال من الولاة ، كان الخليفة يقوم باستشارة من حوله فى ذلك الاختيار وقد

-
- (١) أشبّاخ : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٥١ ، الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٢٤ .
(٢) أشبّاخ : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٥١ ، الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٢٤ .
(٣) الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم ج ٢ ص ٢٢٤ .
(٤) أشبّاخ : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٥١ .

تجلى ذلك حين استشار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أخاه في اختيار وال لجاية سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥ م ، يقول ابن صاحب الصلاة « نظر الأمير — أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — أولا بمشاورة أخيه السيد الأعلى أبى حفص فى حديث بجاية وأنظارها إذ كانت رن وال ، وعلى حال إغفال محتاجة للنظر لها بسيد يفتح لهم زهرة الآمال ، فاختروا لها من الأخوة السيد أبى زكريا يحيى بن أمير المؤمنين الخليفة » (١) وكذلك استشار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى اختيار وال لأشبيلية (٢) ، فاذا ما وقع الاختيار على الوالى صحبه من يعاونه فى إدارة الإقليم ، وهذا الإجراء خاص بالدولة الموحدية حيث حرص خلفاء الموحدين على ضم جماعة من أشياخ الموحدين لولاياتهم يكونون لهم بمثابة هيئة استشارية ، يقول المراكشى « فولى — أى عبد المؤمن بن على — مدينة أشبيلية وأعمالها ابنه يوسف ، وهو الذى ولى الأمور بعده على ما سيأتى بيانه وترك معه بها من أشياخ الموحدين وذوى الرأى والتحصيل منهم من يرجع إليه فى أموره ويعول عليه فيما ينويه » (٣) .

وبجانب هذه الهيئة الاستشارية كان هناك الموظفون المساعدون للوالى والمعينون من قبل الخليفة فى مراكش ، وقد تجلى ذلك حين وجه الخليفة عبد المؤمن بن على أبناءه لحكم الولايات المختلفة وأصحبهم من يعاونهم من الموظفين فقد ولى عبد المؤمن ابنه السيد أبى حفص تلمسان وأحوازا واستوزر له أبى محمد عبد الحق ومن الكتاب الفقيه أبى الحسن عبد الملك بن عياش (٤) وولى السيد أبى سعيد سبتة وطنجة واستوزر له أبى محمد عبد الله بن سليمان وأبى عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجى واستكتب له أبى بكر بن طفيل القيسى وأبى بكر بن حبش الباجى (٥) ، وولى السيد أبى محمد عبد الله بجاية وأعمالها واستوزر له أبى سعيد يخلف بن الحسن (٦) .

-
- (١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٩٣ .
 (٢) نفس المرجع السابق ص ٢٩٣ .
 (٣) المراكشى : المعجب ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
 (٤) ابن أبى زرع : الاتيس ج ٢ ص ١٥١ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٢٣ .
 (٥) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .
 (٦) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

أما ولاية المرابطين فكانوا يتخذون من أبناء الأقاليم كتاباً يستعينون بهم في تصريف شئون ولايتهم كما فعل سير بن أبي بكر واتخاذ عبد المجيد بن عبدون كاتباً له (١) ومحمد بن الحاج أمير بلنسية واتخاذ ابن أبي الحصل كاتباً له (٢) وأبو بكر بن إبراهيم أمير سبتة وفاس وبلنسية واتخاذه لأبي بكر ابن الصائغ كاتباً له (٣) .

وقبل أن يصل الوالى إلى مقر ولايته كانت تسبقه الرسائل الرسمية من العاصمة تعلن فيها لإختيار الوالى وتبين لأهل الولاية محاسنه وترغيبهم في طاعته والالتفاف حوله (٤) وهذا ما فعله أمير المسلمين على بن يوسف حين وقع اختياره على الأمير أبي زكريا يحيى بن الأمير أبي بكر ليتولى إقليم سبتة فان أمر كاتبه أبا القاسم بن الجحد بكتابة رسالة لأهل سبتة يخبرهم فيها بهذا الاختيار ويطلبهم بالالتفاف حول واليهم الجديد وطاعته ، وقد جاء فيها « وقد رأينا والله بفضلله يقرن جميع آرائنا بالتسديد ولا نخلينا في كافة أمئنا من النظر الحميد أن نولى أبا زكريا يحيى بن أبي بكر محل ابننا الناشئ في حجرنا أعزه الله وسدده فيما قلدهنا إياه من مدينتي فاس وسبتة وجميع أعمالها حرسهما الله على الرسم الذى تولاه غيره قبله فأنفذنا ذلك لما توهمناه من تخايل النجاة قبله ووصيناه بما نرجو أن يحتديه ويتمثله ويجرى عليه قوله . . فاذا وصل إليكم خطابنا فالترموا له السمع والطاعة والنصح والمشايعه جهد الاستطاعة وعظموا بحسب مكانه منا قدره وامثلوا في كل عمل من أعمال الحق نبيه وأمره » (٥) .

وكذلك فعل الخليفة عبد المؤمن بن على حين قام بتولية أبنائه أقاليم الدولة إذ أمر كاتبه أبا جعفر بن عطية بكتابة رسالة مطولة إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بسبتة يخبرهم فيها بهذا الإجراء ودواعيه ، ورغبة الموحدين في

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢١٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢١٣ .

(٤) د. حسن أحمد محمود : قيا مهدولة المرابطين ص ٣٥٧ ،

١٣٢٠ هـ مصر .

(٥) الفتح بن خاتمان : قلائد العقيان ص ١١٦ ، ١١٧ ط ١ سنة

١٣٢٠ هـ — مصر .

هذا الإجراء ومما جاء فيها خاصاً بسبته « ثم تذاكر الطلبة العاملون على سبته وأعمالها - وفقهم الله - مع إخوانهم في معنى البحر ومجازه وإتساع النظر في راسيه وأحوازه ، وكونه رابطاً بين العدوتين . . . وأنه إذا أبقى معه النظر في أمر غمارة وسائر القبائل إلى سبته وطنجة والخزيرتين وما لقه وأعمال جميعها محتاج إلى من يدور عليه ذلك المحيط ويجتمع إليه هذا النظر المؤيد البسيط . . . أنه إن كان هنالك من الأخوة المذكورين من يساعد ويساعد ويعاضد في ذات الله ويعاضد . . . اتصلت المواد وانفصلت القواطع الحواد » (١) ثم يخبرهم في نهاية رسالته باختياره لأحد أبنائه ومعه جماعة من الموحدين للمشاورة والمعاونة (٢).

سلطة الولاة :

تمتع ولاية المغرب الأقصى خلال حكم المرابطين بسلطات واسعة إذ كان من حقهم التصرف في عزل وتعيين من دونهم من الولاة المحليين والقيام بتحركات عسكرية داخل مناطق نفوذهم (٣) وكان هذا راجعاً إلى طبيعة الدولة نفسها إذ أن المرابطين كما يقول د. حسن أحمد محمود « درجوا على نوع من الحكم الإقطاعي ، يولون أميراً من الأمراء على إقليم بعينه ويطلقون يده فيه يتصرف كيف يحلو له على ألا ينازع صاحب السيادة حقه في الملك » (٤) وبهذا المعنى يكون نوع الإمارة ، إمارة استكفاء وقد عرفها الماوردي بقوله : « إمارة الاستكفاء التي تنعقد عن اختياره على عمل محدود ونظر معهود ، والتقليد فيها أن يفوض إليه الخليفة إمارة بلد أو إقليم أو ولاية على جميع أهله ونظراً في المعهود من سائر أعماله فيصير عام النظر فيما كان محدوداً من عمل ومعهوداً من نظره » (٥) وعلى هذا يكون من اختصاصات الوالي تدبير أمر الجيش وتقليد القضاة والحكام وجباية الخراج وحماية الساحة والدفاع عنها

-
- (١) مجموع رسائل موحدية من ٦١ إلى ٦٦ م ليفي بروفنسال .
 - (٢) نفس المرجع السابق من ٦١ إلى ٦٦ .
 - (٣) حركات : المغرب عبر التاريخ من ٢١٢ .
 - (٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين من ٢٨٧ .
 - (٥) الماوردي : الأحكام السلطانية من ٣٠ .

ولإقامة الحدود والمحافظة على شعائر الدين وغير ذلك (١) .

غير أن أمراء المسلمين من المرابطين لم يتركوا الولاية دون رقابة وإشراف منهم وذلك حتى لا يستبد أحد الولاية بولايته وينفصل بها عن الدولة ، ومن هنا كان أمير المسلمين يرسم لولائه السياسة التي يتبعونها في حكم ولاياتهم كما فعل أمير المسلمين على بن يوسف حين وجه كتاباً إلى واليه أبي محمد عبد الله بن فاطمة — الذي تولى عدة أقاليم في الدولة المرابطية حيث تولى ولاية بلنسية وشرق الأندلس سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م ، ثم ولاية غرناطة في سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ثم بعد ذلك والياً على ولاية فاس سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م إلى سنة ٥٠٩هـ / ١١١٥م وعاد بعد ذلك إلى الأندلس والياً على أشبيلية يحكمها حتى توفي في سنة ٥١١هـ / ١١١٧م (٢) وكان الكتاب يتضمن السياسة التي يجب إتباعها في ولايته وتتلخص فيما يأتي :

(١) اتخاذ الحق منهاجاً وقاعدة في محاسبة القوى والضعيف من رعاياه .

(٢) ألا يجعل حجاباً بينه وبين الرعية وبذلك يسهل عليه معرفة المظلومين

منهم .

(٣) أن يستخدم عمالاً عادلين ومن ظلم منهم أو استولى على مال بدون وجه حق فعليه أن يعزله ويعاقبه (٣) .

وبجانب هذه السياسة المرسومة للولاية كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يتفقد الولايات المختلفة ليلم بأحوالها والاطلاع على تصرفات عماله (٤) وقد فعل ذلك حين خرج في سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م ليطوف على جميع أعمال المغرب وليتفقد أحوال الرعية وينظر في سير ولائهم وعملهم فيهم (٥) وخرج أيضاً في سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م حيث تفقد أحوال الرعية ولينظر في أمور

(١) محمد المير : الأبحاث السامية ج ٢ ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨ حاشية ت . د . محمود على

مكي .

(٣) الفتح بن خاقان : تلاند العقيان ص ١١٧ (مثبتة في قسم

الملاحق) .

(٤) Meakins : The Moorish, Empire P : 60 (٤)

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٤٤ ت الفيلاي .

المسلمين والسؤال عن سير عماله في البلاد^(١) وبذلك كان الولاية تحت المراقبة المستمرة من جانب السلطة الحاكمة.

وقد اتخذ الموحدون نفس السياسة وهي الإشراف على أعمال ولايتهم وذلك باستدعائهم إلى العاصمة لمحاسبتهم على أعمالهم ، وقد فعل ذلك الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين استدعى ولاية الأندلس في عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م وذلك للإطلاع على أعمالهم ، يقول ابن صاحب الصلاة « وفي هذه السنة أيضاً — أى سنة ٥٦٤هـ — استدعى سيدنا أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين رضى الله عنه أخويه السيدين أبا إبراهيم اسماعيل الوالى بأشبيلية وأبا اسحق إبراهيم الوالى بقرطبة واستدعى معهما الشيخ الحافظ أبا عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم الوالى بأغرناطة مع حفاظهم وعمّال البلاد ليصلوا إلى الحضرة مراکش حرسها الله فأسرعوا إلى استدعائه العالى »^(٢) وكذلك فعل الناصر الموحدى في سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م حين استدعى العمال والكتاب لمحاسبتهم ، يقول ابن عذارى « ونظر — أى الناصر بعد استقراره في مراکش أثر رجوعه من إفريقيا سنة ٦٠٤هـ — في وصول العمال إلى الحضرة بأعمالهم وكتابهم المقيدين لأشغالهم فبادر من عين الوصول لما أمر به ووصلوا مستعدين على ما حذبه فشرع في تصفح بعضها^(٣) » .

وفي بعض الأحيان كان الولى ينتقل من ولايته متوجهاً للعاصمة ليعرض على الخليفة بعض المشاكل التى تواجهه وذلك ما فعله أبو على الحسين بن الخليفة عبد المؤمن حين توجه من ولايته قرطبة في عام ٥٧٥هـ / ١١٧٩م قاصداً العاصمة مراکش واجتمع بالخليفة وعرض عليه غدر صاحب طليطلة للعهد ونقضه للصلح مما دفع الخليفة للاستعداد للقيام بحملة عسكرية بالأندلس^(٤) وكان الخلفاء يستفسرون عن ولايتهم عن طريق الوفود القادمة إلى العاصمة وذلك ما كان يفعله المنصور الموحدى مع الوفود القادمة عليه ، يقول المراكشى

(١) نفس المرجع السابق ص ٦٦ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢١٧ ، ٢١٨ تطوان .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٣١ تطوان .

« وكان — أى المنصور الموحدى — إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن عمالهم وقضايتهم وولاتهم فاذا أثبتوا خيراً قال : اعلّموا أنكم مسئولون عن هذه الشهادة يوم القيامة فلا يقولن امرؤ منكم إلا حقاً ، وربما تلافى بعض المجالس « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » (١).

وفى نفس الوقت كان خلفاء الموحدين يتفقون أحوال الأقاليم بأنفسهم والإطلاع على سير عمالهم وتصرفاتهم ، فحين توجه المنصور الموحدى إلى فاس ترامت إليه الأنباء عن بخيانة مشرفها وعمالها المختلفين واختلاساتهم فأمر بالقبض عليهم جميعاً ومصادرة دورهم وأموالهم لحساب الخزن (٢) ونفس العمل قام به الخليفة المنصور حين استقر بأشبيلية فى سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦ م يقول ابن عذارى « وفى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة استقر المنصور بحضرة أشبيلية لتفقّد أشغاله وتشككه على خدامه وعماله » (٣).

وكما رسم أمراء المسلمين فى الدولة المرابطية السياسة التى يجب على الولاة اتخاذها ، كذلك فعل الخليفة عبد المؤمن بن على فى رسالة مطولة وجهها إلى ولاة الأقاليم بالأندلس لتكون دستوراً لهم ولغيرهم من ولاة أقاليم الدولة صادرة من تينملل أثناء زيارته لقبر المهدي فى سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م (٤) وقد تضمنت الأسس الآتية :

- ١ — وجوب التزام الدقة فى تطبيق الأحكام الشرعية .
- ٢ — وجوب الكف عن اقتضاء أية مغارم أو مكوس لا تبيحها الشريعة ولا تتفق مع قواعد العدل .
- ٣ — لا يجوز الحكم فى مواد الحدود بالإنعدام أو تنفيذه قبل الرجوع إلى الخليفة ليصدر هو قراره فى هذا الشأن .
- ٤ — وأنه يجب تحريم الخمر ومطاردتها فى سائر أنحاء الدولة .

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ١١٥ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٧٢ تطوان .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان من ص ١٥٠ الى ص ١٦٧ .

هـ — وأنه يجب حماية أموال الدولة وصونها وعدم التصرف في شيء منها (١)

وحق يمكن تنفيذ سياسة الخليفة ، واتباع أوامره ، رسم لهم الخليفة طريقة مباشرة الحكم في رسالته بالآتي يجعلوا وسطاء بينهم وبين الرعية — والامتناع عن الإكثار من الحجاب الذين يمنعون الرعية من عرض مشاكلهم على ولايتهم يصور ذلك ما جاء على لسان الخليفة في رسالته إليهم « ولا شك — والله أعلم — في أن أسباب تلك المنكرات ، ودواعي تغيير تلك الأحوال المتغيرات قوم يتوسطون بينكم وبين الناس ويقولون مالا يفعلون ذهاباً إلى التدليس عليكم والإلباس ويجعلون التغيير بالظلم والعدوان بدلاً من العدل والقول الحميل والإيناس وذلك لغيب المباشرة ومباينتها ، ويعدكم عن مشاهدة الأمور ومعابنتها والتحجب عن مطالعة الأمور داعية كبرى لفسادها واختلالها . . . فلا تكلوا النظر فيها إلى أحد سواكم ولا تبعدوا بغلظ الحجاب عما قصدكم من الخير ونواكم وياشروا الأحكام هنالك مباشرة المتعهد المتفقد » (٢) .

وهكذا كانت السياسة التي ترسمها الإدارة العليا لولاتها وطريقة تطبيق هذه السياسة مع إشرافهم على أعمال الولاية وتصرفاتهم مما حدد من سلطانهم وجعلهم دائماً على صلة مستمرة بالإدارة العليا يستمدون منها التوجيه والنصح في تصرفاتهم .

سياسة نقل الولاية ومعاقبتهم :

جرى حكام المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين على إجراء سلسلة من التنقلات والتعيينات بين ولاية أقاليم الدولة بحيث لا يستمر الوالي حاكماً لإقليم فترة طويلة من الزمن وكان الدافع وراء ذلك عدة عوامل :

العامل الأول :

إما خوفاً من استبداد أحد العمال بأقليم من الأقاليم والانفصال به عن الدولة مما يهدد الدولة بالانقسام وهذا ما حدث في الدولة المابطية حيث

(١) نفس المرجع السابق من ص ١٥٠ إلى ص ١٦٧ ، عنان : عصر المرابطين القسم الثاني ص ٦١٩ (مثبت بعض فقراتها بقسم الملاحق) .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٥٨ .

كان أمير المسلمين يحرص على إجراء تنقلات مستمرة بين ولاية الأقاليم حتى لا يستأثر أمير بالسلطة أو يفكر في الخروج على ولي الأمر (١) ولذلك وجدنا أحد الولاة وهو محمد بن الحاج يتنقل في أقل من سنتين بين قرطبة وولاية المغرب عموماً وإقليم بلنسية، كما تنقل أبو بكر بن ابراهيم بين سرقسطة وغرناطة وعبد الله بن فاطمة بين بلنسية وأشبيلية (٢) وكذلك وجدنا الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين يعزله أخوه عن بلاد المغرب في سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م (٣) ثم يوليه غرناطة وبعد ذلك عزله وولاه تلمسان (٤) وهكذا كان عامل الخوف على أمن الدولة دافعاً لأمراء المسلمين في إجراء التنقلات بين ولااتهم.

وكان العامل الثاني وراء هذه التنقلات هو تغيير القيادة العليا للبلاد وذلك بوفاة خليفة وتولى خليفة آخر ، وهذا ما حدث في الدولة الموحدية ، فما إن تولى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن مقاليد الأمور حتى أجرى سلسلة من التنقلات إذ عقد الخليفة على بحاية لأخيه السيد أبي زكرياء وعلى أشبيلية للشيخ أبي عبد الله بن ابراهيم ثم بدّله بأخيه السيد أبي ابراهيم وعقد على قرطبة لأخيه السيد أبي اسحق (٥) كذلك عقد في سنة ٥٦٢هـ / ١١١٦م لأخيه السيد أبي الحسن على سبتة وما حولها (٦) ، وحين تولّى الناصر الموحدى في سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م أجرى بعض التنقلات فقد عقد للسيد أبي زيد الحسن بن السيد أبي حفص على بحاية وجهاتها وسائر أنظارها وأقطارها ، وقدّم أخاه السيد أبا محمد بن المنصور على أشبيلية وأخّر عنها السيد أبا زيد بن الخليفة (٧) وربما كان هذا الإجراء المقصود منه هو إحلال عناصر جديدة تتميز بالولاء والإخلاص للخليفة الجديد مكان عناصر خدمت في ظل خليفة سابق .

أما العامل الثالث : فهو تعيين بعض الولاة ممن يساعدون على إنجاح هدف

-
- (١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٨٤ .
 - (٢) نفس المرجع السابق ص ٢١١ .
 - (٣) ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ٨٢ ت الفيلالى .
 - (٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٥ ت د. احسان عباس .
 - (٥) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ .
 - (٦) نفس المرجع السابق ج ٦ ص ٢٣٩ .
 - (٧) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٩٤ تطوان .

معين كما فعل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين عزم على القيام بحملة عسكرية كبرى في الأندلس تلك الحملة التي تمت في سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م وانتهت باصابة الخليفة لإصابة قاتلة عند أسوار شنترين ، فقد عمد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى إجراء حركة تعيينات في مدن الأندلس الهامة فولى أبناءه الأربعة بها يقول ابن عذارى « وفي يوم الجمعة الحادى والعشرين من شعبان المكرم — سنة ٥٧٩هـ — ولّى أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بنيه الأربعة قواعد بلاد الأندلس ، صرف أبا اسحق إلى أشبيلية والياً عليها كما كان أولاً ، وولى أبا يحيى قرطبة برغبة أبي الوليد ابن رشد وولى أبا زيد الحرصاني غرناطة وولى أبا عبد الله مدينة مرسية^(١) وكان الهدف من وراء ذلك الإعداد للمعركة القادمة وذلك بتوفير المؤن والعتاد للجيش القادمة من المغرب الأقصى والتي ستعبر للأندلس مع توفير الأمن والحماية لجنود الخليفة .

وبجانب سياسة النقل التي اتخذها ولاية الأمر بالمغرب الأقصى ، فانهم لجأوا إلى سياسة العزل وتوقيع العقوبة على من أخطأ من ولايتهم .

وقد تنوعت الأسباب الداعية إلى ذلك فكان بعضها راجعاً إلى عصيان بعض الولاة وتهديدهم لسلامة الدولة ، وهذا ما حدث في الدولة المرابطية حين ولى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ابنه سير ولياً للعهد فلم يرض بذلك أبو بكر بن على بن يوسف وكان أكبر من أخيه وصرح بذلك وأعلن ضيقه وتذمره^(٢) ولذلك قرر أمير المسلمين على بن يوسف عزله وصحبه صيانة لأمن الدولة يقول ابن القطان « وفيها — أى سنة ٥٢٢هـ — عزل على ولده أبا بكر عن أشبيلية وغرّبه مكبولا إلى الصحراء لأمر نسيبه إليه ، لأنه لم يرض ببيعة أخيه وولّى مكانه بأشبيلية أجداى^(٣) » وكذلك فعل المنصور الموحدى ببعض قرابته والذين كانوا يحتلون منصب الإمارة على بعض أقاليم الدولة وذلك لعدم اقتناعهم بتولّى المنصور وحسد لهم له ، يقول ابن عذارى « كان ابتداء سطوة المنصور في أوبته — أثناء رجوعه من غزو قنصبة سنة ٥٨٤هـ — ١١٨٨م وأثناء نزوله بتلمسان — قبل وصوله إلى حضرته ببعض قرابته

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٥ تطوان .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٠٥ حاشيه .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

الحاسدين لبيعته»^(١) وبدأ بمعاقبة السيد أبي اسحاق والى تلمسان بأن طرده من مجلسه وأخذت العامة تسبه وتهينه ولم يلبث إلا يسيراً حتى مات^(٢) وكذلك عاقب المنصور عمه أبا الربيع والى تادلا وذلك حين خلع طاعة المنصور وأظهر ما يكنه من حسد وبغض لابن أخيه الخليفة المنصور ، فأرسل المنصور إليه من يقبض عليه وجئ به مقيداً ونفذ فيه الخليفة حكم الاعدام^(٣).

وكان من أسباب العزل تصرف الوالى تصرفات سيئة وظلمه لأهل ولايته مما يدفعهم للعمل على الإتصال بالسلطة الحاكمة ليعرضوا شكواهم ومطالبهم كما فعل أهل مرسية حين ضجّوا بالشكوى من ظلم واليهم الرشيد وبلغت هذه الأنباء المنصور الموحدى فاستدعاه معزولا وبجئته سنة ٥٨٤هـ — ١١٨٨م^(٤) وكذلك حين نزل الناصر الموحدى مدينة فاس لتفقد أحوالها فى سنة ٦٠٤هـ تجمع على باب الخليفة كثير من الوفود تشتكى من عامل فاس ووفود أخرى تشتكى من عامل مكناسة يقول ابن عذارى « وفى سنة أربع وستمائة ، فى صدر المحرم منها نزل — أى الناصر — بظاهر مدينة فاس وفيها تجدد النظر فى أشغال العمال ووقع البحث عما إلى نظرهم من الأعمال ، وازدحت على باب الخليفة قبائل من أقطار المدينة وأخلط من الناس مشتكين بعامل فاس وكان أبو الحسن بن أبي بكر ، وبعامل مكناسة أبي الربيع بن أبي عمران فنكبا جميعاً واستصنى ما وجد لهما من أحوال وأثاث وبقي كل منهما محبوباً فى بلد عمله » .

وكان الإهمال سبباً من أسباب العزل فقد عزل أحد أبناء عبد المرثم عن ولاية بجاية لإهماله يقول المقرئ « وذكر السرخسى أيضاً فى رحلة السيد أبا الحسن على بن عمر بن أمير المؤمنين عبد المؤمن وقال فى حقه : إنه كان من أهل الأدب والطرب ، ولّى بجاية مدة ثم عزل عنها لإهماله وإغفاله وانهماكه فى

-
- (١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٢٢ تطوان .
 - (٢) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ١٢٣ تطوان .
 - (٣) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ١٢٥ ، ص ١٢٦ تطوان .
 - (٤) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ١٢٣ الى ص ١٢٦ تطوان .
 - (٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢١٥ ، ٢١٦ تطوان .

ملاده» (١) وقد يلمس الخليفة آثار هذا الإهمال بنفسه مما يؤدي إلى عزل الوالى ومعاقبته وهذا ما فعله الناصر الموحدى حين توجهه إلى الأندلس فى سنة ٦٠٧هـ ١٢١٠م على رأس جيشه إذ لمس قلة الطعام وارتفاع الأسعار يقول ابن عذارى «وسبب سطوته - أى الناصر - فى هذه السنة - ٦٠٧ هـ - أن لقي الناس فى هذه الحركة من تنوع المسغبة وانتشار المجاعة وتعذر الأوطار وعدم الأقوات ما لم يعهده الناس ولا علموه فى أسفارهم القاضيات» (٢) ومن هنا اشتد غضب الناصر لإهمال عامل فاس فأمر بالقبض عليه وعلى كل من يأتمر بأمره (٣) وكذلك أوقع العقاب بعامل مدينة سبتة لإهماله فى توفير المؤن والطعام (٤) وكان عقاب المهملين الإعدام أمام الجموع من الناس حتى يكونوا عبرة لغيرهم من الولاة « فأخرج المذكورون يوم جمعه بعد الصلاة بحضور الآلاف من الناس فضربت أعناقهما صبراً عبرة للمعتبرين وذكرى للغافلين» (٥) .

وربما كان العزل بسبب عجز الوالى عن تحمّل أعباء حكم ولايته وتقديمه استقالته للخلافة وقبولها ذلك ، يقول ابن عذارى « وفى سنة خمس وستائة وصلت كتب السيد أبى الحسن والى تلمسان بثقل مرضه وتوالى إعتلاله وخوف ضياع ما لديه من الأشغال واضطراب قبائل زناته واختلافهم وقطعهم السبل .. فأعفى عن ولاية البلد وأذن له فى الوصول وعومل بالبر الموصول» (٦) وهكذا تنوعت أسباب عزل الولاة ، فبعضها يرجع إلى عصيان الولاة وتهديدهم لأمن الدولة ، أو ظلم الوالى لرعيته وقيامه ببعض التصرفات السيئة ، أو إهماله فى إدارة ولايته ، وأخيراً عجزه عن إدارة ولايته .

٢ - الدواوين

أنشأ ولاة الأمر بالمغرب الأقصى الدواوين منذ أن تأسست دولة المرابطين وذلك لمعاونتهم فى تصريف شئون الدولة ، حيث أن الديوان كما يقول الماوردي

-
- (١) المقرئ : نفح الطيب ج ٤ ص ١٠٦ .
 - (٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣٣ تطوان .
 - (٣) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٢٣٤ تطوان .
 - (٤) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٢٣٤ تطوان .
 - (٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٤٠ تطوان .
 - (٦) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ تطوان .
- (م ١٠ - الحضارة)

«موضوع لحفظ ما يتعلق بالسلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من من الجيوش والعمال»^(١) ومن هنا كان للديوان أهمية كبرى وخاصة ما يتعلق بأموال الدولة وحقوقها ، وحصر جنودها ومرتباتهم ، ولذا جعل ابن خلدون الديوان ووجوده من الأمور اللازمة للملك يقول في مقدمته « اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهى القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة فى الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم فى أبنائها والرجوع فى ذلك إلى القوانين التى يرتبها قومة تلك الأعمال وقهارة الدولة وهى كلها مسطورة فى كتاب شاهد بتفاصيل ذلك فى الدخل والخرج مبنى على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال »^(٢) ، وكلمة ديوان فارسية الأصل كان معناها فى بادئ الأمر السجل الذى يكتب فيه ما يختص بشئون الإدارة ، ثم صار يطلق على المكان الذى يعمل فيه الكتاب^(٣) أو أن الديوان بالفارسية اسم لشياطين فسمى الكتاب باسمهم لحذفهم بالأمور وقوتهم على الجلى والخفى وجمعهم لما شد وتفرق^(٤) .

وحين قامت الدولة المرابطية ، اتخذ يوسف بن تاشفين الدواوين سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م يقول ابن عذارى «فدون يوسف - أى يوسف بن تاشفين سنة ٤٦٤هـ - الدواوين ورتب الأجناد وطاعته البلاد»^(٥) وكان من هذه الدواوين ديوان الرسائل أو الإنشاء ويرأسه موظف كبير يعرف بالكاتب^(٦) وقد سبق أن أشرت فى وظيفة الكتابة إلى حرص أمراء المسلمين من المرابطين على حشد أكبر عدد من الكتاب المحيدين فى بلاطهم وخاصة بعد أن أصبحت الأندلس إقليماً تابعاً للدولة المرابطية وذلك حتى يؤدوا دورهم فى كتابة الرسائل

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٩ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٤٣ ، الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٩ - د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣٤ ، د. صبحى الصالح : النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ص ٣١٢ .

(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٩ .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣ ث د. احسان عباس .

(٦) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج ٤ ص ٣٣١ .

والعهود والتوجيهات التي يأمر بها ولاية الأمر في الدولة المرابطية والتي تجعل أقاليم الدولة على صلة مستمرة بالسياسة العليا للبلاد ، وبجانب هذا الديوان كانت هناك الدواوين الخاصة بمالية الدولة ، وكانت موزعة بين أربعة دواوين يقول الجرارى « وكانت لإدارة مالية الدولة موزعة بين أربعة دواوين مماثلة لدواوين العصر الحاضر :

١ - ديوان الغنائم ونفقات الجند . ٢ - ديوان الضرائب .

٣ - ديوان الحباية . ٤ - ديوان مراقبة الدخل والخرج » (١).

فاذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية ، وجدنا اهتمام خلفاء الموحدين بإنشاء الدواوين المختلفة والتي تخدم احتياجات البلاد ، وفي مقدمة هذه الدواوين ديوان الإنشاء والذي يختص بالمراسيم السلطانية والرسائل الموجهة إلى الولاة والقضاة (٢) وقد حشد فيه خلفاء الموحدين نخبة ممتازة من أدباء الأندلس والمغرب الذين قاموا بكتابة رسائل الخلفاء ، وقد ظهر ذلك جلياً في تلك المجموعة التي جمعها ليفي بروفنسال « مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية » تتناول الأمور الهامة في الدولة ، وقد قام بكتابتها كتّاب الدولة المعينون في ديوان الإنشاء ، ومن هنا اكتسب ديوان الإنشاء أهميته إذ أنه الجهة التي تتحدث بلسان الخلفاء . وكان مما يلحق بديوان الكتابة كتب التوقيعات والظواهر وكل ما يمهر بالعلامة (٣) .

وبجانب ديوان الإنشاء ، كان هناك ديوان الجيش ، وكان يتفرع إلى ديوانين لكل منها اختصاصه :

أما الديوان الأول فديوان العسكر وهو الذى يختص بالجند النظامى والحرب والعيد ، ووظيفته إحصاء الجند ، ومعرفة حاجاته المتجددة (٤)

(١) الجرارى : تقدم العرب في العلوم والصناعات ص ١٥٣ ط ١ سنة ٦٣ .

(٢) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٣ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين : القسم الثانى ص ٦٢٣ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٥٣ حاشية .

ويرأس هذا الديوان رجل من العسكريين حيث يكون ملماً بالشئون العسكرية (١).
ويعمل معه كتاب وذلك لمعاونته ومساعدته (٢).

وأما الديوان الثاني فهو ديوان التمييز ، وكان التمييز عادة جرى عليها الموحدون منذ عهد ابن تومرت وهو نظام شبيه بنظام الامتحان ويسمى «التمييز» وكل من ميز وثبت توحيدده عدد موحداً وبجمل في سجل خاص في العاصمة والنواحي (٣) وكانت عادة التمييز تستخدم خاصة قبل القيام بمعاركة من المعارك وبجانب اهتمام ديوان التمييز بتنظيم المشتركين في المعارك المقبلة ، كان يعمل على إيجاد التوافق بين الكتائب وتنسيقها (٤) وكان له كاتب ، وقد أشار إلى اسم كاتب ديوان التمييز ابن صاحب الصلاة بقوله « حدثني الكاتب أبو عبد الله ابن محسن كاتب ديوان التمييز . . (٥) » وكان لهذا الديوان السجلات التي تكتب فيها أسماء من يدخلون في الفرق التي ستحارب والتي يقرر لها العطاء وقد أورد أحمد بن القاسم في ترجمته لأبي مدين شعيب أحد المتصوفين بالمغرب والمتوفى سنة ٥٩٤هـ انضمامه للجند وتسجيل اسمه يقول أحمد بن القاسم « ثم قال لي - أي قال أحد الصالحين لأبي مدين - يا هذا أراك تروم أمراً وإن الله تعالى لا يعبد بالجهل ، اذهب إلى الحاضرة لتعلم دينك ، قال : دخلت مدينة سلا ثم مراكش فأدخلني الأندلسيون الذين كانوا بها في حملة الأجناد وكتبوني في ديوانهم فكانوا يأكلون عطاى ولا يعطون إلا القليل » (٦).

وهكذا اختص ديوانان بالإشراف على شئون الجند والتعبئة اللازمة لهذا الجيش ، وهذا الاهتمام بوجود ديوانين يتمشى مع طبيعة الدولة العسكرية حيث كانت الأعمال العسكرية في المغرب والأندلس تستغرق الجزء الأكبر من اهتمام الخلفاء . وبجانب الدواوين السابقة كان هناك ديوان الأعمال المخزنية

(١) عنان : عصر المرابطين والموحدين : القسم الثاني ص ٦٣٨ .

(٢) عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٢٦ الدار

البيضاء .

(٣) د. حسين مؤنس : عقد بولاية العهد ص ١٥٠ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٤ حاشية .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٤٣٦ .

(٦) أحمد بن القاسم : المعزى في أخبار أبي يعزى ص ٦٩ مخطوط .

وهو المختص بالشئون المالية في الدولة من تحصيل للأموال العامة وإنفاقها وفي رقابة العمال والمشرفين ومحاسبهم (١).

٣ - البريد

عرف ولاية الأمر بالمغرب الأقصى نظام البريد كوسيلة سريعة في توصيل الأوامر والأخبار إلى ولايتهم وموظفيهم في أنحاء الدولة ومن ناحية أخرى تلقي رسائل الولاية . والبريد اصطلاحاً هو أن تجعل خيل مضمرات في عدة أماكن فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً وكذلك يفعل في المكان حتى يصل بسرعة (٢) وكان للرومان الفضل الأكبر في معرفة البريد وترتيب نظامه بمعناه الشامل ومن هنا فإن كلمة يريد أعجمية في أصلها وليست عربية (٣) ومسافة البريد تقاس بالأميال أو الفراسخ وكانت مسافة البريد بالمغرب أربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة أميال (٤) وكان هناك خط بريدي منتظم بين الاسكندرية وسبته بالمغرب الأقصى إلا أن هذا الخط توقف قبيل قيام دولة المرابطين في سنة ١٠٤٨م وذلك لتعذر حماية الأربطة والحصون الواقعة على طول الطريق من غارات البدو (٥) كان يطلق على حامل البريد بالمغرب الرقاص وهو لفظ معروف منذ القدم إلى الآن في المغرب ويطلق على الشخص الذي يقوم بالبريد (٦).

ولم تشر المراجع التي اطلعت عليها إلى وجود ديوان خاص بالبريد في الدولة المرابطية ، وذلك بالرغم من وجود ديوان للإنشاء لكتابة الرسائل وتبادل الرسائل بين العاصمة مراكش وغيرها من أقاليم الدولة وهذا لا يمنع من وجود موظفين ينقلون الرسائل والأوامر إلى جهات الدولة المختلفة ، وقد

-
- (١) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثاني ص ٦٢٣ .
(٢) د. نظير حسان سعداوي : نظام البريد في الدولة الإسلامية ص ١٩ سنة ٥٣ مصر ، د. صبحي الصالح : النظم الإسلامية ص ٣٣١ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٢١ .
(٤) د. نظير سعداوي : نظام البريد ص ٢٠ .
(٥) لويس أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ٣٨٦ ترجمة أحمد عيسى .
(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٢٩ حاشية ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٢ حاشية .

استخدم المرابطون رجالاً من القبائل المختلفة في وظائف متعددة ومنها البريد^(١) ومن أمثلة استخدام المرابطين لرجال البريد حين بعث يوسف بن تاشفين في سنة ٤٦٦هـ/١١٧٣م ، عسكراً إلى المغرب وجعل قائده يطى بن اسماعيل ولما وصل إلى وادي بهت بعث رقاصاً إلى أمير مكناسة الخير بن خزر الزناتي بأنه قد عفا عنه ، وبعث كتابه إليه بذلك^(٢) وكذلك استخدم قائد المرابطين مزدلي الرقاص حين توجه إلى فتح تلمسان في توصيل عفو يوسف بن تاشفين إلى أميرها إن استسلم بدون قتال^(٣) ،

فاذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا اهتمام خلفاء الموحدين بنظام البريد ، فقد نظموا البريد بشكل متقن وسريع وفي الليل والنهار وفي البر والبحر^(٤) وكانت وظيفة حمل الرسائل تسند لرجال أقوياء مدربين على الركض والعدو وكان فيهم الرقاص العادي ورقاص الشرط وهو ساعي البريد المستعجل ينقله بين المدن على الخيل بمنتهى السرعة ، وكان يجد في كل محطة حصاناً مسرجاً يمتطيه إلى المحطة التي تليها^(٥) وقد أعطانا العمري وصفاً لطريقة نقل الرسائل في الدولة الحفصية — وهي امتداد للدولة الموحدية — تلقى ضوءاً على شخصية حامل البريد وكيفية توصيله للرسائل « وأما اتصال الاخبار بين السلطان ونوابه فانها إذا كتب الكتاب يجهز مع من يقع الاختيار على تجهيزه من نوع الثقباء والوصفان وهم عبيد السلطان ويركب ذلك المجهز على بغل أما أن يكون له مالكا أو يستعيره من أصحابه ويسافر عليه إلى الجهة المجهزة لها فاذا عى بغله في مكان تركه عند الوالي بذلك المكان وأخذ منه بغلاً عوضه يعده الوالي له أو بسخرة من الرعايا لركوبه إلى أن يبلغ جهة قصده ثم يعود»^(٦) وقد استخدم حامل البريد السفن في نقل رسائله وذلك كما فعل الرقاص في حمل رسالة من الخليفة عبد المؤمن بن علي في سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م إلى ابنته

-
- (١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥٨ .
(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٧ ت د. احسان عباس .
(٣) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٢٩ ت د. احسان عباس .
(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٦٤ حاشية .
(٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٢٩ حاشية .
(٦) العمري : وصف افريقية والمغرب والأندلس ص ٢٧ ت حسن حسنى عبد الوهاب .

يوسف بن عبد المؤمن بالأندلس يخبره فيها بانتصاراته الحربية وفتحته لمدينة قفصة « وركب الرقاص بالجواب المذكور - أى خبر الانتصارات - مركباً من مدينة بجاية ساجحاً في البحر في طريق غير ينس ، ويسر الله له - بسعد الأمر العزيز - أن ساعدته الريح بنفس ، وسار أسرع من كوكب إذا خنس وخرج في ألمرية مرسة وحده سبحة في غدوه ومساء ووصل أشبيلية وغرناطة في أقرب تاريخ دون تعب في مسراه » (١).

وكان للرقاص أهمية خاصة إذ كان يقوم بحمل الأوامر والأخبار من العاصمة إلى ولاية أقاليم الدولة وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بالإعداد لمعركة من المعارك وذلك ما فعله أبو الحسن عم الخليفة المنصور الموحدى ونائبه على مراکش حين أرسل المخاطبات في سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م بالتأكيد على العمال في ضرب الآلات وما تحتاج إليه الجيوش من العدد والأقوات (٢) وكذلك الرسائل الصادرة إلى أشبيلية وما حولها في الاستعداد لاستقبال جيوش المنصور الموحدى في سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م القادمة لنصرة أهل الأندلس على علوهم (٣) وحتى حين يعتمد الخلفاء إلى تشييد بعض المنشآت كانوا يتبادلون الرأي مع سكان الأقاليم عن طريق الرسائل يقول التازي « كما أنهم لا يقومون بتشيد منشآت في الدولة إلا بعد أخذ رأي الأعيان في ذلك وكانت موافقة الشعب على القرارات المتخذة من طرف الدولة تنجلي في شكل رسائل تجهزها الطبقة الواعية في البلاد وتبعث بها إلى السادة » (٤) ومن هنا كان الرقاص أو حامل البريد له أهمية كبيرة في الدولة حيث يعتبر همزة الوصل بين الحكام وولايتهم وبين الحكام والشعب من جهة أخرى وقد بلغ من اهتمام الشعب بهذه الرسائل نسخهم لهذه الرسائل وحفظهم لها وقد ظهر ذلك حين أرسل الخليفة عبد المؤمن إلى ابنه بالأندلس رسالة يخبره فيها بانتصاره وفتحته لقفصة سنة ٥٥٥هـ فما إن أذاعه بين الناس حتى « انشرفت صنادير الموحدين ، وتحققوا نصر الله وفتحته

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٣٠ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٢٨ تطوان .

(٣) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ١٣٢ تطوان .

(٤) التازي : محقق كتاب تاريخ المن ص ٥٤ .

القريب بأوفى اليقين ، وقرىء على المنابر وتكررت المسار في الرعايا والعشائر وانتسخ الناس والطلبة والموحدون والعامّة نسخاً من الشعر المبشر المدرج المذكور فحفظوه وصانوه وحفظوه ودونوه . . . »^(١)

ويبدو أن هؤلاء الرقاصين قد استغلوا وظيفتهم وأهميتها في الدولة في الحصول على الطعام من السكان بدون وجه حق ، وقد أشار إلى ذلك الخليفة عبد المؤمن في رسالته التي وجهها إلى ولاته بالأندلس في سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م والتي يرسم فيها سياسته العامة في الدولة ، ومما جاء خاصاً باستغلال هؤلاء الرقاصين « وإن ممن يسعى في نوع من أنواع الفساد ويستصحب الإضرار بالمسلمين في الإصدار والإيراد هؤلاء الرقاصين الذين يردون بالكتب ويصدرون ويمشون فيما بيننا وبينكم وينفرون فانه ذكر لنا أنهم يأخذون الناس بالنظر في كلفهم ويلزمونهم في زادهم من كل موضع وعلفهم وهذا فعل كل فرقة منهم في سيرها ، وسوء رأيهم بذلك في الخازن وغيرها وإن من جملة ما حكى عنهم أنهم يتألفون في الطرق جماعات ويحلون بأفنية الناس حلولاً شنيعاً يكلفونهم موانئهم تكليف المحرم ويتحكمون عليهم بحكم المغرم ، حتى أنهم لا يرضون في ضيافتهم إلا بأشمن الجزر وناهيكم بهذا الاجترار العظيم الضرر »^(٢) ومن هذا النص نستنتج أنهم يسرون في جماعات ، وأنهم يفرضون أنفسهم على الناس ويستحلون لأنفسهم الحصول على الطعام على حساب الرعية وهذا فيه ظلم وإجحاف بحقوق الناس . ومن هنا رسم الخليفة أولاته العلاج بقوله : « فسارعوا وفقكم الله تعالى - إلى حسم هذه العلة من أصلها ، وبادروا إلى قطع تلك العادة الذميمة وفصلها ، وتخبروا لرسائلكم لإرسالها ، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالاً ، وادفعوا إليهم زاد ايقوم بهم في الحجى والإنصراف ويقطع شأنهم عن التكليف والإلحاف ، وارحموا لهم أياماً معروفة العدد معلومة الأمد ، لينتهوا بها إلى مواقف رسائلهم ، ويوزعوها على مسافات مراحلهم وحذروهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة ، وأوصلوا من

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ١٣٥ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٦٢ .

تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أو مضرة والله تعالى المستعان»^(١) ومن النص: يمكننا أن نستخلص آراء عبد المؤمن في علاج ظاهرة استغلال حاملي البريد للرعية :

أولاً : القضاء على العادات السيئة وذلك باختيار أهل الثقة ممن يشغلون هذه الوظيفة .

ثانياً : تزويدهم بما يلزمهم من الطعام حتى لا يتطفلوا على السكان في طعامهم .

ثالثاً : تعيين فترة زمنية محددة في توصيل الرسائل حتى لا يجد أحد من الرقاصين فرصة في الإقامة عند أحد الناس .

رابعاً : تحذير وتخويف كل من يحاول مخالفة أوامره .

٤ - الشرطة

اتخذ ولاة الأمر بالمغرب الأقصى منذ أن تأسست دولة المرابطين الشرطة للمحافظة على أرواح الناس وحماية ممتلكاتهم ، وصيانة حقوقهم ، وقد أطلق على صاحب الشرطة بالمغرب العريف^(٢) وقد أشار إلى ذلك التادلي في تعريف أبي العباس بن العريف أحد متصوفي المغرب بقوله « إن أصل أبي العباس بن العريف من طنجة وإنما سمى والده بالعريف لأنه كان بطنجة صاحب الليل »^(٣) وكان يطلق عليه أيضاً صاحب الليل^(٤) وهذه التسمية ربما تكون راجعة للوظيفة التي يؤديها من قيامه بالحراسة ليلاً ، وبالنسبة لاختصاصات صاحب الشرطة فهي معاونة الحكام وأصحاب المظالم وإقامة الحدود والتعازير وإشخاص الناس لذلك^(٥) وقد حدد ابن تيمية وظيفة صاحب الشرطة بالمغرب بأنه منفذ لما يأمر به متولى القضاء^(٦) ويضاف إلى هذه الاختصاصات مراقبتهم لأبواب

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim, P : 46

(٣) التادلي : التشوف إلى رجال التصوف ص ٩٧ .

(٤) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٠٣ ، عباس المراكشي : «الإعلام

بمن حل مراكش ج ١ ص ٢٧٦ .

(٥) محمد المرير : الأبحاث السامية ج ٢ ص ٥٧ .

(٦) ابن تيمية : الحسبة في الإسلام ص ٩ سنة ١٩٦٧ .

المدينة ، وتحصيناتها بحيث يحولون دون تسرب المشبهين والمجهولين إلى المدينة^(١) وقد أشار ابن عبدون إلى بعض التنظيمات المتعلقة بصاحب الشرطة ومنها اتخاذ الأعوان كى يساعده في تأدية وظيفته^(٢) وقد حدد لهم ابن عبدون ألا يزيدوا عن عشرة أعوان لأن بكثرتهم تفسد الأعمال والأحوال^(٣) كما حثّهم بأن توضع لهم علامة حتى يعرفون بها^(٤) .

وقد اهتم الموحدون بوظيفة الشرطة فكانت عندهم من المناصب الإدارية الهامة^(٥) وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته « وأما في دولة الموحدين بالمغرب فكان لها — أى وظيفة الشرطة — حظ من التنويه وإن لم يجعلوها عامة وكان لا يليها إلا رجالات الموحدين وكبرائهم^(٦) » وقد ظهر اهتمام الموحدين بالشرطة في عهد يوسف بن عبد المؤمن الذي زوّد المدن المغربية بأحسن الرجال الممتازين والساشرين من الشرطة وبذلك اختفى قطاع الطرق من الطرقات^(٧) .

وكان هناك حراس يطوفون بالليل في طرقات المدن وذلك لحمايتها من اللصوص ، وهم مسئولون أمام الخليفة عما يحدث من سرقات ، وقد اتضح مدى هذه المسئولية من تلك الحادثة التي وقعت لأحد أصحاب الخوانيت في مراكش حيث وجد حانوته مسروقاً فاتهم صاحب الليل عند الخليفة الذى بحث الموضوع وأمر بتغريم صاحب الليل ما ضاع من حانوت الرجل وضرب خمسمائة سوط جزاء إهماله^(٨) .

-
- (١) روجية لوتورنو : فاس في عصر بنى مرين ص ٧٨ ترجمة د. نقولا زيادة سنة ٦٧ .
(٢) ابن عبدون : رسالة ابن عبدون في الحسبة ص ١٧ ، الجبلاى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٩١ .
(٣) ابن عبدون : رسالة في الحسبة ص ١٧ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٥١ .
(٥) محمد المرير : الأبحاث السامية ج ٢ ص ٦٥ ، الجبلاى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٩١ .
(٦) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٢ .
(٧) S.P. Scott : History of Moorish Empire, V.2 P :305
(٨) عثمان المراكشى : الاعلام ج ١ ص ٢٧٦ .

كذلك خصّص للأسواق رجال من الشرطة لحمايتها من اللصوص والمتسللين وقد أشار إلى ذلك التادلي في ترجمته لأبي عبد الله محمد بن حسان التاونتي المعروف بابن الميلي وأصله من تاونت من عمل تلمسان وتوفي في عام تسعين وخمسة ، يقول التادلي « إن أبا عبد الله خرج بالليل فقبض عليه حرس السوق . ظنوا أنه سارق فأوجعوه ضرباً إلى أن قيل : هذا ولي من أولياء الله تعالى فخلّوا عنه » (١) .

(١) التادلي : التشوف ص ٣٧٥ .

الفصل الرابع

التنظيم القضائي

١ - القضاء

كان للتنظيم القضائي الذي شهده المغرب الأقصى في القرنين الخامس والسادس من الهجرة دوره في الحياة الإدارية ، حيث قام القضاء بالفصل بين الناس وإقرار العدل بين طبقات الأمة مما ساعد على إنتشار الهدوء والأمن في ربوع المنطقة .

ولفظ القضاء معناه انقطاع الشيء وتماحه ، فيقال : قضى الحاكم إذا فصل في الحكم وقضى دينه أى قطع لغريمه قبله بالأداء ، وقضيت الشيء أحكمت عمله ومنه قوله تعالى « إذا قضى أمراً ، أى أحكمه وأنفذه » (١) .

والقضاء من الوظائف الهامة وقد أشار إلى أهميتها النبأى بقوله « وخطة القضاء في نفسها عند الكافة من أسنى الخطط ، فان الله تعالى قد رفع درجة الحكم وجعل إليهم تصريف أمور الأنام يحكمون في الدماء والأبضاع والأموال والحلال والحرام ، وتلك خطة الأنبياء ومن بعدهم من الخلفاء ، فلا شرف في الدنيا بعد الخلافة أشرف من القضاء » (٢) وقد اعتبرها ابن خلدون من الوظائف الداخلة تحت الخلافة أى أن الأصل أن يتولى الخليفة القضاء بنفسه ، يقول ابن خلدون « وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسباً للتداعى وقطعاً للتنازع إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجاً في عمومها » (٣) .

وقد اهتم ولاة الأمر بالمغرب الأقصى سواء أكانوا من المرابطين أم من

(١) النبأى : تاريخ قضاة الاندلس ص ٢ ت بروفنسال ط ١ دار الكاتب المصرى سنة ١٩٤٨ .

(٢) النبأى : تاريخ قضاة الاندلس ص ٢ ت بروفنسال .

(٣) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ .

الموحدين بالنظام القضائي ، فالرابطون أقاموا نظامهم القضائي مستنديين في ذلك إلى نظام الأندلس القضائي ، ذلك النظام الذي جعله الأمويون محكما وفصلوا بين السلطة الإدارية والقضائية^(١) ، وقد أخذ الرابطون كثيراً من النظم القضائية الأموية وطبقوها سواء بالمغرب والأندلس^(٢) ، حتى إذا سقطت دولة المرابطين وقامت على أنقاضها دولة الموحدين ، اتخذت نظاماً قضائياً مشابهاً للنظام القضائي في الدولة المرابطية^(٣) وقد أحاط خلفاء الموحدين النظام القضائي بالهيبة والجلال حيث حرص الخلفاء على تعيين كبار القضاة بأنفسهم^(٤) وقد استعان ولاة الأمر بالمغرب الأقصى بكثير من القضاة الذين يختلفون في مواطنهم ، ففي الدولة المرابطية استخدم ولاة الأمر قضاة مغاربة ، كـ موسى ابن حماد الصنهاجي وهو من أهل العدو ، وقد تولى القضاء بمراكش في عهد أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وتوفي سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م^(٥) ، وكذلك القاضي ابن الملجوم من أهل مدينة فاس وتولى القضاء بفاس ومات سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م^(٦) والقاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي وهو من أهل سبتة وقد تولى القضاء ببلدة سبتة وتوفي بمراكش سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م^(٧) .

كذلك استعان خلفاء الموحدين بقضاة مغاربة ومنهم أبو عمران موسى وهو من أهل تينمل (٨) وأبو يوسف حجاج بن يوسف الهواري وهو من أهل بجاية^(٩) وغير هؤلاء من القضاة المغاربة .

-
- (١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٥ .
 - (٢) نفس المرجع السابق ص ٢١٥ .
 - (٣) نفس المرجع السابق ص ٣٣٧ .
 - (٤) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثاني ص ٦٢٨ .
 - (٥) الضبي : بغية الملتبس ص ٤٤١ ، ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص ٩٧ .
 - (٦) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص ١٠٢ .
 - (٧) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٤٠٩ ، ٤١٠ ، الضبي : بغية الملتبس ص ٤٤٥ ، النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص ١٠١ .
 - (٨) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٢٤ ، ابن القطان : نظم الجهان ص ١٧٥ ، ابن أبي زرع : الأئیس ج ٢ ص ١٧٢ ت الفيلاي .
 - (٩) نفس المراجع السابقة ونفس الصفحات .

وربما اشتهرت أسرة بالزراة ودقة الاجتهاد مما يدفع ولاية الأمر إلى اختيار أفراد منها لتولى منصب القضاء ، وقد ظهر ذلك في الدولة الموحدية حين تولى بعض أفراد أسرة عيسى التادلى منصب القضاء^(١) ومن أفرادها عبد الله بن محمد بن عيسى التادلى الذى تولى قضاء فاس في عهد يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م^(٢) ، وكذلك أسرة عيسى بن عمران التازى وهو من أهل رباط تازا من أعمال مدينة فاس ، وكان عيسى له أولاد تولوا القضاء في مدن المغرب وهم : على الذى تولى قضاء بجاية ثم عزل عنها وولى قضاء مدينة تلمسان^(٣) وطلحة ولى قضاء تلمسان^(٤) ، ويوسف ولى قضاء فاس^(٥) وأبو عمران موسى قاضى الجماعة بمراكش^(٦) .

كذلك استعان خلفاء الموحدين بقضاة من خريجي مدرسة الحفاظ تلك المدرسة التى أنشأها الخليفة عبد المؤمن لتخريج طبقة من الموظفين الذين شغلوا مناصب الإدارة في الدولة ومن هذه المناصب وظيفة القضاء^(٧) وقد تمثل ذلك في تولى القاضى أحمد بن عبد الرحمن بن محمد منصب القضاء في عدة جهات في عهد عبد المؤمن بن على يقول عباس المراكشى « ولما تصير الأمر للموحدين ألحقه عبد المؤمن بحمله طلبه العلم وتحفى به وقدمه إلى الأحكام بحضرة مراكش ، فقام بها مرة ثم ولاه قضاء غرناطة ثم نقله إلى أشبيلية قاضياً »^(٨) .

ومن الطبيعى أن يكون القضاة من أهل البلاد إلا أن ولاية الأمر اتخذوا أيضاً قضاة من الأندلس^(٩) كأبى القاسم أحمد بن محمد بن بقى قاضى الجماعة بمراكش وهو من أهل قرطبة^(١٠) والقاضى أبو جعفر أحمد بن مضاء من أهل

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٥ .

(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٣٦ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٤٦ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٢٤٦ .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٢٤٦ .

(٧) أشباح : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٥٢ .

(٨) عباس المراكشى : الاعلام ج ١ ص ٢٢٨ .

(٩) Terrasse : Histoire du Maroc, P : 309

(١٠) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص ١١٧ .

مدينة قرطبة وتولى القضاء للخليفة يوسف بن عبد المؤمن في فاس ثم نقل إلى قضاء الجماعة بمراكش^(١) وغير هؤلاء من قضاة الأندلس .

وبجانب القضاة المغاربة والأندلسيين فقد تولى أحد المصريين منصب القضاء في عهد المنصور الموحدي وهو هبة الله بن الحسين المصري ويكنى أبا المكارم وفي ذلك يقول ابن القاضي « كان من أهل العلم عارفاً بالأصول حافظاً للحديث متيقظاً حسن الصورة دخل الأندلس وولى قضاء أشبيلية وبه صرف أبو القاسم الخولاني وحضر غزوة شترين ، وكان قدوم أبي المكارم خوفاً من صلاح الدين أيوب وولى قضاء مدينة فاس ثم استصحبه المنصور معه في غزوه لإفريقية الثانية وولاه حينئذ قضاء تونس وتوفي وهو يتولى قضاء تونس سنة ست وثمانين وخمسمائة »^(٢).

وهكذا شهد المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين العديد من القضاة : أفراداً وأسراً ينتمون إلى المغرب ، وبعضهم ينتمي إلى الأندلس وأخيراً من ينتمي منهم إلى مصر .

أنواع القضاة :

وبجانب هذا التنوع في موطن القضاة ، كان هناك أيضاً نوعان من القضاة قضاة المدن المغربية ، وقاضى الجماعة في العاصمة ، وكان كل من قاضى مراكش وقاضى قرطبة يدعى بقاضى الجماعة^(٣) وهذا اللقب يوازي قاضى القضاة بالمشرق^(٤) وقد فسر النباهي لفظة جماعة بقوله « وإضافة لفظ القضاء إلى الجماعة جرى الترامه بالأندلس منذ سنين إلى هذا العهد والظاهر أن المراد بالجماعة جماعة القضاة ، إذ كانت ولايتهم قبل غالباً من قبل القاضى بالحضرة السلطانية كائنا من كان فبقى الرسم كذلك »^(٥) وكان قاضى الجماعة أعظم

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٤٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٣ تطوان ، ابن الأبار : التكملة ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٧٥ ت الفيلالى .
(٢) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٣٣٤ .
(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٦ .
(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٤٠ ، عبد العزيز بن عبد الله : المعجم التاريخي ص ٥٥ .

J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P : ١٢٥

(٥) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص ٢١ .

رتبة ومنزلة من بقية القضاة إذ كان ولي الأمر يستشير في الشئون القضائية^(١) وكان يعين مباشرة من رئيس الدولة كما كان يعتبر من كبار موظفي الدولة^(٢) وقد بلغ عدد قضاة الجماعة بالدولة الموحدية اثنا عشر قاضياً تولوا قضاء الجماعة بمراكش^(٣) ومنهم أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء اللخمي^(٤) وكذلك أبو الحسن علي بن عبد الرحمن المعروف بابن جنتون قاضي الجماعة بمراكش وتوفي سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م^(٥) وأبو موسى عمران وتوفي سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م^(٦).

صفات القضاة :

حدّد الماوردي وغيره عدة صفات لا بد من توفرها في من يشغل منصب القضاء منها أن يكون رجلاً عاقلاً حراً مسلماً عادلاً والسلامة في السمع والبصر وأن يكون عالماً بالأحكام الشرعية^(٧) وقد أوضح النباهي المصادر التي يلجأ إليها القاضي لمعرفة الأحكام الشرعية « العلم بالكتاب والسنة وما وقع عليه إجماع الأمة والاجتهاد والمتكلم به عند الفقهاء »^(٨) وقد رسم ابن عبدون السلوك الشخصي للقاضي بقوله « يجب للقاضي أن يكون مصوناً عند الناس وعند الرئيس والجمهور . . ولا يمكن من نفسه ولا ينبسط مع الفقهاء ولا مع الأعوان فإن منهم يأتيه الضرر . . ويتحرز أن لا ينبسط عليه أحد منهم في قول ولا فعل فيهن وتنقض أوامره »^(٩) ويرجع حرص العلماء في وضع

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٨ .

(٢) J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P : ١٢٤

(٣) J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P : ١٨١ - ١٩٢

(٤) ابن حجية : المطرب ص ٩٤ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٤ ، أبي زكرياء : بنية الرواد ج ١

ص ٢٤ .

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٠ تطوان .

(٧) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٦٥ ، ٦٦ ، د. عطية مشرفة : القضاء في الاسلام ص ١٥٨ ، ص ١٥٩ ، النباهي : تاريخ القضاة ص ٤ .

(٨) النباهي : تاريخ قضاة الاندلس ص ٢٠٦ .

(٩) ابن عبدون : رسالة ابن عبدون في الحسبة ص ٧ ، ٨ .

الشروط والمواصفات الخاصة بالقاضى وذلك لعظم هذه الوظيفة وتأثيرها المباشر فى أوضاع الرعية من حيث العدل وإقامته ، ومدى ثقة الناس واطمئنانهم فى الحصول على حقوقهم ، وبتصفح تراجم القضاة الذين شغلوا منصب القضاء بالمغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين نجد توفر كثير من الشروط السابقة فيهم حيث حرص ولادة الأمر على اختيار أكابر العلماء والفقهاء لشغل هذا المنصب فالقاضى موسى بن حماد الصنهاجى الذى تولى القضاء بحضرة مراکش وتوفى سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م يصفه ابن بشكوال بقوله « كان فقيهاً حافظاً للرأى ، عالماً بالمسائل والأحكام مقدماً فى معرفتها ، وكان من جملة القضاة فى وقته ، وشهر بالفضل والعدل فى أحكامه »^(١) ويشير النباهى إلى سلوكه بقوله « كان شديداً على أهل الأهواء ، مترقفاً بالضعفاء ، متغاضياً عن هنات الفقهاء »^(٢) ، والقاضى محمد بن الحسن الحضرمى الذى تولى القضاء بأزكى بصحراء المغرب وتوفى بها سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٥م يصفه ابن بشكوال بقوله « كان رجلاً نبهاً عالماً بالفقه وإماماً فى أصول الدين وله فى ذلك تواليف حسان مفيدة ، وكان مع ذلك ذا حظ وافر من البلاغة والفصاحة »^(٣) والقاضى أحمد بن مضاء قاضى الخلافة الموحدية الذى توفى سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م كان فقيهاً محدثاً وإماماً فى النحو^(٤) والقاضى عياض بن موسى بن عياض اليعصبى الذى توفى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م كان من أهل التفنن فى العلم والدكاء واليقظة والفهم^(٥) وكان فقيهاً محدثاً عارفاً أديباً وله تأليف^(٦) والقاضى أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود تولى القضاء بسبتة وسلا كان فقيهاً أصولياً نحويماً أديباً شاعراً ، ودرس كتاب سيبويه ومستصنى أبى حامد الغزالى وكان يعيل إلى الإجتهد فى نظره^(٧) ومن هذا النماذج يتضح كيف كان القضاء على درجة كبيرة من العلم والمعرفة وأن ولادة الأمر لم يكونوا يختارون

-
- (١) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٥٧٩ ، ٥٨٠ .
 (٢) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص ٩٧ .
 (٣) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٥٧٢ .
 (٤) الضبى : بغية الملتبس ص ١٩٣ .
 (٥) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٤١٠ .
 (٦) الضبى : بغية الملتبس ص ٤٤٥ .
 (٧) محمد بوجندار : تعطير البساط بذكر تراجم قضاة الرباط ص ٦
 المقرئ نفح الطيب ج ٦ ص ٦٦ ، ٦٧ .
 (م ١١ — الحضارة)

إلا من كان مبرزاً في العلم كاملاً في أخلاقه (١) .

تعيين القضاة :

اختص ولاية الأمر بالمغرب الأقصى بتعيين قاضي الجماعة بالعاصمة (٢) كذلك قاموا بتعيين القضاة في المدن الكبرى (٣) أما قضاة المدن الأخرى فقد ترك للأمراء المحليين أمر تعيينهم (٤) وقبل اختيار القاضي كان ولي الأمر يقوم باستشارة من حوله في اختيار القاضي حتى إذا أجمع أربعة من الفقهاء على اختياره أصدر ولي الأمر أمره بتعيين القاضي (٥) وفي بعض الأحيان كان الخليفة يستدعي أحد القضاة من مكان عمله ليؤديه القضاء بجهة أخرى كما فعل المنصور الموحد في استدعائه أبي محمد عبد الله بن سليمان من الأندلس « وولى - أى أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر بن حوط الله - قضاء أشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة ، ولما بنى الجامع الأعظم بسلا وتمت أبنية الرباط استدعاه السلطان المنصور الموحدى وولاه على العدوتين معاً واستمر قاضياً عليها نحو الثلاث سنين » (٦) .

فإذا تم اختيار القاضي أصدر ولي الأمر مرسوماً بتعيين القاضي الجديد وقد أورد النباهي مرسوماً صادراً من أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين بتعيين القاضي موسى بن حماد في سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م ونصه « وبعد فانا قد فرغناك برهة من الدهر لشأنك ، وأرسلنا على جهة الترفيه زمناً من عنانك .. خيرناك لحظة القضاء ثانية بزمامك ، وأعدناك إلى سيرتك الأولى من لزمالك وقلدناك بعد استمخارة الله القضاء بين أهل غرناطة وأعمالها - أمنهم الله وحرسها - للثقة المكيبة بإيمانك والمعرفة الثاقبة بمكانك ، فتقلد معنا مسدداً ما قلدناك ، وأنهمض نهوض مستل بما حملناك... وليس هذه بأول ولايتك لها فنبديء بوصيتك

(١) الجيلالي : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٤٩ .

(٢) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٧٣ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢٨ .

(٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٧٣ .

(٥) J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim, P ; 131

(٦) بوجندار : تعطير البساط ص ٦ .

. . . ان ساست فيها أياما وشكر فيها متنامك . . . » (١) وهناك صيغة أخرى في تركية القاضى أوردها د . حسين مؤنس نقلا عن نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المراتلين إلى الموحدين وهى « كتاب ترفيع واطهار أمر بعقد الرئيس الأجل أبو فلان للفقير صاحب الأحكام فلان بن فلان تولا فيه شد أمره برخصه أمره ، والإشادة برفعة مكانه والاطلاف من يده وإنسانه . . من التمس . . . بذهبات فلانة وذلالة لينفذ الحقوق غير مرتاب ويجاهر فيها غير محاب . . . » (٢) . ثم يستمر الرسوم فى بيان الطريقة التى يسير بها وواجب الأداء فى طاعته والامتنال له (٣) .

وفى بعض الأحيان يترك الرأى لسكان إقليمه حرية اختيار القاضى يقول ملين « واختار المصور لقضااته . لم يكن مبنياً إلا على ما يعلمه من كفايتهم واستحقاقهم للقيام بحملتهم أحسن قيام ، فاذا لم يتمتحت بأهلية أحد لذلك ، ترك للأمة نفسها تعيين من ترضيه حامياً لحقوقها فمن ذلك ما فعل والى أشبيلية إذ كتب إلى أهل شريش أن يجتمعوا على رجل منهم يتولى القضاء فاجتمعوا على ابن أحمد بن لبال الورع الزاهد » (٤) .

طريقة التقاضى :

مارس القضاة اختصاصاتهم فى المسجد حيث كان مجلس حكمهم (٥) وقد أورد البابائى فى ترجمته للقاضى أبى عبد الله محمد بن سليمان قاضى مالقة والمتوفى سنة ٥٠٠ هـ كيف كان يقضى فى مسجد مدينته يقول « وكان يعود القاضى أبى عبد الله المذكور لتنفيذ الأحكام بالمسجد المذكور من داخل مالقة » (٦) .

-
- (١) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص ٩٨ .
 (٢) د . حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المراتلين والموحدين ص ١٣٧ مجلة المعهد المصرى — مدريد عدد ٣ سنة ٥٥ مجلد ١ .
 (٣) د . حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المراتلين إلى الموحدين ص ١٣٧ .
 (٤) ملين : عصر النصور الموحدى ص ١٠٢ .
 (٥) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٧ ، د . عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٤٨ .
 (٦) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص ١٠٠ .

وكان القاضي له حجاب ينظمون دخول المتخاصمين (١).
وبجانب هؤلاء الحجاب كان له كتاب يقومون بكتابة ما يأمر به القاضي
فقد اتخذ القاضي أبو موسى عيسى بن يوسف بن ملحوم قاضي فاس كاتباً
هو حسن بن ابراهيم بن عبد الله بن أبي سهل (٢) كذلك استكتب ابن الملحوم
قاضي مكناسة الكاتب محمد بن عيسى بن القاسم الصدفى الذى توفى سنة
٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م (٣)

ومع هؤلاء الكتاب كان هناك الموثقون وكانوا مكلفين بالإشراف على
سير الدعاوى وكتابة الشروط (٤) ومن هؤلاء الموثقين على بن عبد الله بن
ابراهيم بن عبيد الله الأنصارى من الجزيرة الخضراء وكان موثقاً له تأليف
عظيم فى الوثائق وقد استوطن سبتة وكتب للقاضي أبي موسى عمران بن عمران
وتوفى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م (٥) وكذلك الموثق أبو الربيع سليمان بن عبد الرحمن
المقرى الصنهاجى كان موثقاً بمدينة سلا وتوفى سنة ٥٢٩ هـ / ١١٨٣ م (٦).

وكان القضاة فى فترة حكم المرابطين لا يصدر عن أحكامهم إلا بعد
استشارة أربعة من الفقهاء (٧) وفى ذلك يقول المراكشى « فكان — أى على بن
يوسف بن تاشفين — إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع
أمراً ولا يبت فى صغير ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء » (٨) وكانت
هذه الاستشارة موزعة بين القاضي والمتخاصمين فائتان من هؤلاء الأربعة
يلازمان القاضي ليستشيرهما فى إصدار الأحكام ، وإثنتان يختصان بإصدار
المشورة للمتنازعين والمستشيرين (٩) .

-
- (١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٧ .
 - (٢) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١١٣ ، ١١٤ .
 - (٣) ابن زيدان : اتحاف أعلام الناس ج ٣ ص ٥٧٧ .
 - (٤) روجيه لوتورنو : فاس فى عصر بنى مؤيين ص ٨٤ .
 - (٥) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٣٠٥ .
 - (٦) نفس المرجع السابق ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .
 - (٧) المراكشى : المعجب ص ١٧١ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٦ ،
 - (٨) المراكشى : المعجب ص ١٧١ .
 - (٩) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٦ .

اختصاصات القاضي :

أشار الماوردي والنباهي إلى الأعمال التي يقوم بها القاضي ، والاختصاصات التي يمارسها ، والتي تبنى على قاعدة عامة وهي المحافظة على حقوق الرعية وإقرار العدل والإنصاف بين طبقات الأمة وحماية الأخلاق العامة فإذا ما حاولنا توضيح هذه القاعدة لوجدنا أن القاضي يقوم بالأعمال الآتية : أولاً : الفصل في المنازعات . ثانياً : إرجاع الحقوق إلى أصحابها . ثالثاً : الحجر على السفهاء والمجانين والمفلسين . رابعاً : الإشراف على الأوقاف والأحباس . خامساً : الإشراف على تنفيذ الوصايا . سادساً : تزويج الأيتام بالكفاءة إذا وافقت الشرع . سابعاً : إقامة الحدود . ثامناً : الإشراف على الآداب العامة في الطرقات . تاسعاً : الإشراف على معاونيه الذين يقومون بمعاونته في تأدية وظيفته (١) .

فإذا ما تصفحنا أعمال القضاة واختصاصاتهم منذ قيام دولة المرابطين بالمغرب الأقصى وجدنا اضطلاعهم بالأعمال السابقة ، بل وأضيف إلى بعضهم بعض الاختصاصات التي زادت من أعبائهم ووسعت دائرة اختصاصهم فيوسف بن تاشفين جعل أحكام البلاد بيد للقضاة (٢) ومن هنا أشرف القضاة على الأفراد الذين بيدهم إصدار الأحكام ومن هؤلاء الفقيه المشاور الذي يختص بخطة الشورى ويتولى صاحبها إبداء الرأي والفتوى في مسائل الأحكام (٣) وكذلك أشرف القضاة على خطة الأحكام ويتولاها فقيه يجلس للناس وينظر في مظالمهم ويحكم بينهم ويفض المنازعات (٤) كما كان له النظر في القضايا المتعلقة بالشئون الزوجية والطلاق (٥) وهو بذلك يقوم بالتخفيف عن القاضي الرئيسي في بعض مهامه كذلك القضايا المتعلقة بالمواريث فقد كان يعين لها أحد الفقهاء

-
- (١) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٧٠ ، ٧١٣ ، النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص ٥ ، ٦ .
(٢) ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ٣٧ ت الفيلاي ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩ .
(٣) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٦٨ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين : القسم الثاني ص ٦٢٨ ، ٦٢٩ .
(٤) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .
(٥) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٢٩ .

المتخصصين وذلك تحت إشراف القاضى (١) وقد أشار ابن عبدون إلى أن من حق القاضى تعيين قاض خاص ببطقة الصنائع (٢) أما القضايا الكبيرة التى تحتاج إلى جرأة وشجاعة فكانت تترك للقاضى نفسه يفصل فيها بين المتخاصمين أياً كانت رتبهم ومنزلتهم الاجتماعية (٣) .

وبجانب المهمة الأساسية للقضاة وهى إقرار العدل بين طبقات الأمة أضيف لبعضهم بعض المهام المتعلقة بشئون الدولة . فقد أعطى المنصور الموحدى القضاة الحق فى مراقبة جميع العمال والولاة باعتبار القضاة ممثلين للشرعية وأن على العمال والولاة الخضوع والامتثال لأوامرهم (٤) .

وكان بعضهم يجمع بين وظيفة القضاء ووظيفة المظالم والكتابة كالقاضى أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن فقد تولّى قضاء الجماعة بمراكش مضافاً إلى ذلك خطى المظالم والكتابة العليا وكان مولده سنة سبع وثلاثين وخمسمائة (٥) .

كذلك كان بعضهم يجمع بين وظيفتى القضاء بالمغرب والأندلس كالقاضى ابن رشد قاضى الأندلس حين استدعاه الخليفة عبد المؤمن ليضيف إليه قضاء المغرب بجانب قضاء الأندلس (٦) .

وفى بعض الأحيان كان قاضى الجماعة فى العاصمة يتولى تعيين غيره من القضاة (٧) وقد ظهر ذلك حين قام قاضى الجماعة أبو يوسف حجاج بن يوسف التجيبى باستدعاء عبد العزيز الباغانى وكان من الصالحين ليؤليه قضاء أنعمات (٨) كذلك قام أبو منظور قاضى الجماعة بمراكش بتعيين القاضى

(١) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢٩ .

J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim, P ; 124

(٢) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢٤ .

(٣) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٦٩ .

(٤) محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٥٠ ، ٩٩ .

(٥) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ص ١٤١ ، ١٤٢ ، عباس المراكشى ج ١ ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(٦) عباس المراكشى : الاعلام ج ٣ ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٧) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٦ ، عباس المراكشى :

الاعلام ج ١ ص ١٥٣ .

(٨) التادلى : التشوف ص ١٨٦ .

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن من أهل سبتة والمتوفى سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م قاضياً على مدينة سلا (١).

كذلك قام بعض القضاة بتعيين المحتسبين ومن هؤلاء القاضي أبي يوسف حججاج بن يوسف قاضي مراکش الذي استدعى أحد الصالحين وهو عبد الملك مروان بن عبد الملك للمتوفى من أهل فاس والمتوفى سنة ٥٧١ هـ ليوليّه خطة الحسبة في مراکش (٢).

وتولى بعضهم الإشراف على بيت المال (٣) كالقاضي ابن صقر الذي كان مسئولاً عن بيت المال في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن (٤).

كذلك اتسعت اختصاصات بعض القضاة حتى شملت الإشراف على بعض أعمال البناء وخاصة ما يتعلق ببناء المساجد فقد أمر يوسف بن تاشفين قاضيه محمد بن عيسى ببناء جامع سبتة سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م (٥) كذلك حين ضاق الجامع الكبير بمدينة فاس عن استيعاب المصلين قام القاضي ابن معيشة قاضي فاس باستشارة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين في توسعة المسجد ، فأعطاه الإذن بذلك ، فقام القاضي بتجهيز المال لذلك وأشرف على أعمال البناء بنفسه (٦) وقد عزل القاضي ابن معيشة قبل استكمال البناء فقام بالإشراف على إتمامه القاضي أبو مروان عبد الملك بن بيضا القيسي الذي تولى القضاء بفاس سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م (٧) ولم يقتصر إشرافهم على بناء المساجد بل وقام بعضهم بالإشراف على بعض المباني الأخرى كبناء سور مدينة سبتة ، يقول ابن عذارى « وقبل بناء الجامع بأعوام — تم بناء الجامع سنة ٤٩١ هـ —

-
- (١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٢٦١ .
 (٢) التادلي : التشوف ص ٢٢٣ ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية ص ١٥٠ ، ١٥١ ، ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٣٠٩ .
 (٣) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٧٠ .
 (٤) J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslims p 57
 (٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٨ ت د. احسان عباس
 (٦) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٤١ ، ٤٢ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٢٤ ، التازي : أحد عشر قرناً في جامعة القرويين ص ٨ سنة ١٩٦٠ .
 (٧) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٤٢ .

أمر يوسف بن تاشفين ببناء سور الميناء السفلى لسبته على يد القاضى ابراهيم ابن أحمد^(١). وكذلك حين أمر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م قاضيه أبا القاسم أحمد بن محمد الحوفى أن يختط له ما يتصل بالقصور والمباني التى أزمع بناءها بأشبيلية وذلك ليغرس فيها أشجار الزيتون والأعناب والقواكه المختلفة^(٢) والسبب فى إسناد هذه المهمة لقاضيه معرفته بالمساحة والتكسير والفلاحة فضلا عن أمانته ودينه^(٣). ومما سبق يمكننا أن نستنتج تنوع اختصاصات القضاة ، فبجانب فصلهم فى المنازعات بين المتخاصمين ، كان بعضهم يشرف على بعض النواحي الإدارية والمالية بالبلاد ، كما أن بعضهم قام بالإشراف على أعمال البناء ، وهذا التنوع يشير إلى أهمية منصب القضاة .

نقل القضاة وعزلهم :

جرى ولاية الأمر بالمغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين على نقل القضاة فى أقاليم الدولة المختلفة ، وذلك تبعاً للظروف المتغيرة واحتياجات كل إقليم لشغل هذا المنصب ، وقد ساعد على هذه التقلات وحدة التشريع الذى يستقى منه هؤلاء القضاة أحكامهم^(٤) والمتتبع لحركات النقل بين القضاة يلحظ أن قاضى الجماعة بمراكش كان فى كثير من الأحيان يتولى قضاء بعض المدن قبل توليه لهذا المنصب فى العاصمة ، فالقاضى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن تولى قضاء الجزيرة الخضراء ثم ولى قضاء مدينة سلا ثم نقل إلى مراكش حيث تولى قضاء الجماعة وقد توفى سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م^(٥) وكذلك القاضى محمد بن على بن مروان بن جبل الهمداني الذى ولى قضاء تلمسان ثم نقل إلى قضاء الجماعة بمراكش فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة^(٦) والقاضى

-
- (١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٨ تتد. احسان عباس.
(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ .
(٤) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٧ .
(٥) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .
(٦) عباس المراكشى : الاعلام ج ٣ ص ٧٠ .

أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن سعيد الذي تولى قضاء مدينة فاس ثم نقل إلى قضاء مراكش سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م^(١) والقاضي مخلوف بن خلف الله الصنهاجي من البربر يكنى أبا سعيد ولى قضاء غرناطة سنة ٥١٠هـ — ١١١٦م ، وولى قضاء فاس ثم ولى قضاء الجماعة بمراكش^(٢) وغير هؤلاء من القضاة .

وسياسة نقل القضاة من المدن المغربية والأندلسية إلى العاصمة وتعيينهم في منصب قاضي الجماعة يرجع إلى أهمية هذا المنصب باعتباره أعلى مناصب القضاء ، وله الصلة المباشرة بالسلطة العليا في البلاد ، كما أن بعضهم اختص بتعيين غيره من قضاة المدن الأخرى ، فمن هنا كان لابد له من التمسك بأعمال القضاء في المدن المختلفة ، حتى إذا أثبت جدارته واستحقاقه ، نقل لشغل وظيفة قاضي الجماعة .

وكثيراً ما كان القاضي ينتقل بين المدن المغربية والأندلسية فالقاضي أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داوود بن عبد الرحمن بن حوط الله الأنصاري ولى القضاء بمدن أندلسية ومغربية ، فولى بأشبيلية وميورقة ومرسية وقرطبة وسبتة وسلا ثم عاد من سلا والياً قضاء مرسية وتوفي بمدينة غرناطة في شهر ربيع الأول سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م^(٣) والقاضي مروان بن محمد بن علي بن مروان ولى القضاء بتلمسان وسبتة وغرناطة ومرسية^(٤) والقاضي محمد بن داوود بن عطية بن سعد الجراوي استقضى بتلمسان ثم بأشبيلية ثم بفاس وتوفي سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م^(٥) والقاضي أبو موسى عيسى بن عمران بن دافال الوردميثي ولى القضاء بأشبيلية ثم بمراكش وتوفي سنة ٥٧٨هـ — ١١٨٢م^(٦) وغير هؤلاء من القضاة .

وربما اقتصر نقل القضاة بين مدن المغرب فقط كما يحدث للقاضي أبي

-
- (١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٧١ .
 - (٢) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١١٥ ، ١١٦ .
 - (٣) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص ١١٢ .
 - (٤) أبو زكرياء : بنية الرواد ج ١ ص ٣٢ .
 - (٥) أبو زكرياء : بنية الرواد ج ١ ص ٢٥ .
 - (٦) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١٥٧ .

العباس أحمد بن محمد بن أحمد البكرى وهو من أهل شريش وقد استوطن مدينة سلا وتولى القضاء بها ثم انتقل إلى مكناسة لتولى القضاء بها وقد توفى سنة ٥٦١١ هـ / ١٢١٤ (١).

أما بالنسبة لعزل القضاة ، فإنه بالرغم من حرص ولاة الأمر بالمغرب الأقصى على اختيار أكفأ العناصر من العلماء والفقهاء لشغل هذا المنصب ، وأن بعض خلفاء الموحدين كان يباشر بنفسه الإشراف على أعمال القاضى كما فعل المنصور الموحدى مع أحد قضاياه يقول ملين « كان — أى المنصور الموحدى — يتابع عن كثب سيرة قضاياه ، فكان قاضيه أحمد بن محمد بن بتي يقعد فى موضع بينه وبين الخليفة ستر من ألواح ، فكان يسمع ترفع المتداعين وحكم القاضى فيكون بذلك آمناً على حقوق رعيته » (٢) إلا أن بعضهم أساء التصرف فى أعماله وبذلك استحق العزل . فالقاضى عتيق بن على بن حسن ابن حفاظ الصنهاجى ولى قضاء الجزيرة الخضراء ولكن لم تحمد سيرته ، وأكثر أهلها التشكى منه فصرف عن قضاها وقد توفى بمراكش سنة ٥٥٩٥ هـ . ١١٩٨م (٣) ، كذلك حين تولى القاضى ابن رشد قضاء مراكش فى عهد المنصور الموحدى خلفاً لقاضيه الذى ثارت به العامة نظراً لسوء سيرته وطلبوا من الخليفة عزله فصرفه عن القضاء وولى ابن رشد مكانه (٤) .

وربما توجه وفد من أهل البلد إلى الخليفة ليقدموا شكواهم من سوء تصرف قاضيه وهذا ما فعله أهل المريّة حين توجهوا إلى الخليفة عبد المؤمن يشكون قاضيه أبا محمد عبد الحق بن غالب وينسبونه إلى الزندقة (٥) . وكان العزل فى بعض الأحيان بسبب إنشغال القاضى بالدرس والتحصيل وهذا ماحدث لابن رشد وفى ذلك يقول ابن التاضى « وفى سنة ثلاث عشرة

(١) ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس ج ١ ص ٣٠٣ ط ١ سنة

١٩٢٩ .

(٢) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٠٠ .

(٣) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٧٨ .

(٤) عباس المراكشى : الاعلام ج ٣ ص ٤٨ .

(٥) الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٦ .

وخمسائة عزل الإمام ابن رشد عن قضاء قرطبة وإنما عزله على بن يوسف بن تاشفين عن القضاء لأنه اشتكى له اشتغاله بالبيان والتحصيل فعزله وولى مكانه أبا القاسم بن حمدين» (١) .

وقد يصحب عزل القاضي رسالة من العاصمة إلى أهل إقليمه توضح أسباب العزل وقد فعل ذلك أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين حين عزل قاضي المرية أبا الحسن بن أضحى الغرناطي وكتب إلى أهل المرية ومما جاء فيها بعد البسملة « كتابنا زكى الله أعمالكم وكفر عنكم سيئاتكم وأصلح بالكم من حضرة مراکش حرسها الله بعد أن نعى إلينا وتقرر لدينا أن الجهول ابن أضحى أجهل بأحكام القضاء من العلجوم ، إذ قد أظهر فيكم أحكاماً يترحم فيها على سدوم ، وقد جعلنا شهب العزلة لشياطينه كالرجوم ، وقلدناه خطة الشوم ، ونبدناه دون أن تدركه نعمة من ربه بالعراء وهو مذموم . . » (٢) وكذلك أرسل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين رسالة يوضح فيها أسباب عزله لقاضي فاس ابن الملجوم سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٣م (٣) .

(١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٢٩١ .
(٢) أحمد بن محمد : أخبار وتراجم أندلسية ص ٧٨ ، ٧٩ ت د . احسان عباس بيروت ط ١ سنة ٦٣ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٩٢ ت د . احسان عباس .

ب - المظالم

أسهم نظام القضاء في المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين في إقرار العدل بين الرعية ، وشارك القضاء في تحقيق هذه الغاية نظام ولاية المظالم وهو لون من ألوان القضاء تترج فيه سطوة السلطان بنصفه القضاء^(١) وبعبارة أخرى هو نوع من القضاء العالى ابتكره الإسلام^(٢) ويشبه في وقتنا الحاضر مجلس الدولة أو المحاكم العليا^(٣) وكان الهدف من هذا النظام هو تحقيق ما يعجز القضاء عن تحقيقه من أوجه العدل ورد الحقوق إلى أصحابها ومن ذلك محاكمة أصحاب النفوذ في المجتمع أو الولاة أنفسهم أو عمال الدولة من الموظفين إذا اعتدوا على الناس^(٤) ولذا كان لمن يتولاها سلطات أوسع من سلطة القاضى .

وفى دولة المرابطين كانت ولاية المظالم من اختصاص أمير المسلمين أو نائبه أو قاضى الجماعة الذى كان يتعين عليه أن ينصف الناس من ظلم الولاة^(٥) وقد باشر الأمير تاشفين بن على بن يوسف ولاية المظالم بنفسه حين تولّى إمارة غرناطة فى سنة ٥٢٣هـ / ١١٢٨م وفى ذلك يقول ابن الخطيب « وواصل — أى تاشفين بن على — الجلوس للنظر فى الظلامات وقراءة الرقاع ورد الجواب وكتب التوقيعات »^(٦) وكذلك حين تولّى الوزير احمق بن يثيان بن عمر بن يثيان وزير أمير المسلمين على بن يوسف منصب الوزارة ، قام بالنظر فى المظالم والشكايات^(٧) .

حتى إذا قامت دولة الموحدين ، اهتم خلفاء الموحدين بولاية المظالم وكانوا

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٧٨ د. عطية مشرفة : القضاء فى الاسلام ص ١٧١ .

(٢) د. الرئيس : النظريات السياسية ص ٢٠٦ .

(٣) د. صبحى الصالح : النظم الإسلامية ص ٣٢٥ .

(٤) د. الرئيس : النظريات السياسية ص ٢٠٦ .

(٥) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٨ .

(٦) ابن الخطيب : الاحاطة المجلد الأول ص ٤٥٨ ت عنان .

(٧) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦١ .

يخصصونها أياماً معلومة من الأسبوع يجلسون فيها إلى الرعية لبحث ظلاماتهم (١) فالخليفة عبد المؤمن بن علي حين توجه إلى جبل طارق سنة ٥٥٥ هـ / ١١٩٠ م لبحث أمور الأندلس مع الأشياخ والقادة ، وفي خلال إقامته التي استمرت شهرين كان ينظر في المظالم ويقضى فيها (٢) ولم يكن الخليفة عبد المؤمن في خلال بحثه ظلامات الناس يتوانى عن توقيع أقصى العقوبات وأشدّها على من تثبت إدانته فقد بلغه أن رجلاً من التجار ببجاية فقد كمية من بضاعه فاستدعى التاجر ولما وصل باب قصر الخلافة وجد جماعة كبيرة من المصامدة ، وقد التف حولهم الحرس بالرماح المشرعة فلما استفسر الرجل عن ذلك قيل له هم أهل المكان الذي أخذ متاعك منه ، قال التاجر : فدخلت وأنا خائف وجلست بين يدي الخليفة واستدعى مشايخهم وقال لي : كم تكون قيمة بضاعتك ؟ فقلت كذا وكذا فأمر لي بالمبلغ وقال لي : قم أنت أخذت حقك وبقي حق وحق الله عز وجل وأمر باخراج المشايخ وقتل الجميع ، وقال : هذه طريق شوك أزيلها عن المسلمين ، فأقبلوا ييكون ويتضرعون ويقولون : يؤأخذ سيدنا الصلحاء بالمفسدين فقال : تخرج كل طائفة منكم من فيها من المفسدين ، فصار الرجل يخرج ولده وأخاه وابن عمه إلى أن اجتمع نحو خمسمائة فأمر اهلهم أن يتولوا قتلهم ففعلوا ذلك (٣) وهذه الحادثة وإن كان يبدو فيها نوع من المبالغة من حيث حجم من نفذت فيهم العقوبة إلا أنها تشير إلى مدى حرص الخليفة عبد المؤمن ، على إرجاع الحقوق إلى أصحابها .

وكذلك الخليفة المنصور الموحدى مارس مهام الوظيفة بنفسه فقد كان يقعد للعامة ولا يحجب عنه أحداً من صغير ولا كبير (٤) فأقبل الناس على الخليفة يعرضون عليه ظلاماتهم وشكاواهم حتى اندس في هؤلاء المشتكين من ليس له حق وقد صور ذلك ابن عذارى بقوله « كان — أى المنصور

(١) محمد الرير : الأبحاث السامية ج ٢ ص ٣٥ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٩ ، عبد الله كنون : مدخل الى تاريخ المغرب ص ٦١ ط ١ سنة ١٩٤ .

(٢) عفان : عصر المرابطين والموحدين : القسم الأول ص ٢٨٥ ، ٣٨٦ .

(٣) محمد الرير : الأبحاث السامية ج ٢ ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) المراكشي : المعجب ص ٢٨٥ .

الموحدى — ابتداء جلوسه غرة رجب سنة ثمانين المذكور — أى سنة ٥٨٠ هـ —
 فى المسجد الجامع المحاور لقصر الحجر أياماً من صلاة الضحى إلى قرب
 الزوال مع تأنيس الخصوم لاستدعاء ما لديهم من الأموال ، فارتاع الأعيان
 من حضور ذلك المقام لما فيه من هجوم وخجل وضيق بحال المقام ، وتطرق
 إليهم السفال وأغرموهم جملة الأموال وكل من ادعى شيئاً بشبهة أو دعوى
 صولح بما يرضيه دفعاً للبلوى ، قال يوسف بن عمر ولقد حضرت لأناس
 من السوق والتجار ادعوا على السيد أبى زيد فمنهم من قال : أهديت له فرساً
 وآخر جارية وشتى دعاوى فكل أرضاه ووفى له ما ادعاه (١) فلما كثرت
 دعاوى الناس وكانت بعض هذه الدعاوى يسيرة ولا تستحق عرضها على
 الخليفة ، خصص أياماً معلومة وقضايا معينة لا يفصل فيها غيره « فقد اختصم
 إليه رجلان فى نصف درهم فقضى بينهما وأمر الوزير أبى يحيى صاحب الشرطة
 أن يضربهما ضرباً خفيفاً تأديباً لهما ، وقال لهما : أما كان فى البلد حكام قد
 نصبوا للمثل هذا ؟ فكان هذا أيضاً مما حمّله على القعود فى أيام مخصوصة لمسائل
 مخصوصة لا ينفذها غيره (٢) » حتى إذا كثرت تراحم الناس فى تلك الأيام
 المخصوصة ، وكان بعضهم يذهب إلى هذه المجالس لرؤية السلطان لا للوصول
 لحق واجب امتنع الخليفة عن الجلوس للعامة (٣) ولم يكن تولى المنصور الموحدى
 ولاية المظالم فى العاصمة فقط ، بل كان يتلقى الشكاوى فى أسفاره ويبحثها
 ويصدر حكمه فيها فحين استراح الخليفة بمدينة فاس أثناء توجهه إلى غزو
 قفصة سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م اشتكى بعض الناس من أن أبى القاسم بن الملقوم
 بنى غرفة فى داره يشرف منها على بعض جيرانه ، وجعلها منزلاً له ولإخوانه
 فأمر الخليفة بعض أعوانه ببحث ذلك فأخبروه أنها لا تشرف إلا على صحن
 حمام وسطح بعض أقوام ، فأمر المنصور بهدمها وتغيير رسمها (٤) وهكذا
 ساهم خلفاء الموحدين فى إقرار العدل بين الناس حين تولوا خطة المظالم .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٨٠ ، ٨١ تطوان .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٨٥ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٨١ تطوان .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٣ تطوان .

طريقة التقاضى أمام والى المظالم واختصاصاته :

كانت للقضايا والشكاوى التى تعرض على ولاية الأمر بالمغرب الأقصى أيام محددة يجلس فيها الخليفة أو الوالى لبحث هذه المظالم فالمنصور الموحدى بعد أن كان يجلس معظم الأيام ، خصص أياماً محددة لبحث هذه الشكاوى (١) إما إذا كان الموظف المسئول عن خطة المظالم مختصاً بهذه الوظيفة فقط فانه يجلس فى جميع الأيام (٢) أما المكان الذى تبحث فيه الشكاوى فكان المسجد الجامع حيث اتخذ المنصور الموحدى مجلسه فى المسجد الجامع الجاور لقصر الحجر (٣) أو المقر الذى ينزل فيه الخليفة حين يكون على سفر (٤) .

أما كيفية توصيل الظلامة إلى الخليفة أو الوالى فذلك عن طريق عرض الشكاوى والتظلم أمامه وربما لا يتيسر للمتظلم الوصول إلى مقر الخليفة ، فيكتفى بالقاء مظلمته على مصلى الخليفة وذلك ما فعلته الشلبية حين تظلمت من عمال بلدها . يقول المقرئ « ومنهم الشلبية قال ابن الآبار : ولم أقف على اتهمها ، وكتبت إلى السلطان يعقوب المنصور تنظم من ولاية بلدها وصاحب خراجها :

يا قاضى المصر السدى يرجى به إن قدر الرحمن رفع كراهية
ناد الأيسر إذا وقفت بيساء يا راعيا إن الرعية فانية

فيقال أنها ألفت يوم جمعة على مصلى المنصور ، فلما قضى الصلاة وتصفحها بحث عن القضية فوقف على حقيقتها وأمر للمرأة بصلة « (٥) .

وكانت المحكمة التى تعقد لبحث المظالم تتكون من خمس جماعات :

الأولى : الجماعة والأعوان للتغلب على من تحدته نفسه بالالتجاء إلى القوة

والثانية : الحكام ليردوا الحقوق إلى أصحابها .

والثالثة : الفقهاء للتشاور معهم .

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٨٥ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٨٠ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٨٠ تطوان .

(٤) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ١٠٣ تطوان .

(٥) المقرئ : نفح الطيب ج ٦ ص ٢٩ ، ٣٠ .

والرابعة : الكتاب لتدوين ما حدث أثناء الجلسة .
والخامسة : الشهود الذين يشهدون بأن ما أصدره القاضي من الأحكام لا يتنافى الحق والعدل (١) .

وقريباً من هذا التنظيم الذى أشار إليه الماوردى ، كان تنظيم محكمة المظالم بالمغرب الأقصى فى عهد الموحدين فقد أورد محمد الميرى نظام المحكمة بقوله « جرت عادة من له ظلامة أن يرتقب السلطان فى ركوبه فى موكبه يعنى يوم جلوسه للمظالم فإذا اجتاز به السلطان صاح من بعد لا إله إلا الله ، انصرفى نصرك الله ، فتؤخذ قصته ، وتدفع لكاتب السر ، فإذا عاد جلس فى قبة معينة لجلوسه ويجلس معه أكابر أشياخه مقلدين السيوف ويقف من دونهم على بعد مصطنعين متكئين على سيوفهم ويقرأ كاتب السر قصص أصحاب المظالم وغيرها فينظر فيها بما يراه » (٢) .

أما بالنسبة لاختصاصات صاحب المظالم فتعددة ومتنوعة ويمكن إجمالها فيها إلى : النظر فى تعدى موظفى الدولة على الرعية وتوقيع العقوبة عليهم ورد الحقوق لأصحابها مع إشرافهم على الأوقاف العامة وإقامة الشعائر والعبادات وأخيراً تنفيذ الأحكام التى يعجز القضاة العاديون عن تنفيذها (٣) .

وبتأمل الاختصاصات السابقة نجد أن معظمها يتعلق بتلك القضايا الناشئة عن ظلم السلطة الحاكمة لبعض أفراد الرعية ، والتى تحتاج للبت فيها إلى نوع من القضاء تتوفر فيه الهيبة والسلطان كأن يكون الخليفة نفسه أو من ينوب عنه وهذا تضطلع به وظيفة المظالم .

ج - الحسبة

لعبت وظيفة الحسبة دورها بجانب وظيفتى القضاء والمظالم فى إقرار الحق والعدل بين الناس فى المغرب الأقصى ، والحسبة من الوظائف الدينية

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٨٠ ، د. عطية مشرفة : القضاء فى الإسلام ص ١٧٥ .
(٢) محمد الميرى : الأبحاث السامية ج ٢ ص ٣٩ ، ٤٠ .
(٣) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣ ، ٢٤ ، الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٨٠ ، ٨٣ ، د. صبحى الصالح : النظم الإسلامية ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١) وهي بذلك معاونة للقضاء إذ هي تسهر على تنفيذ القوانين المتعلقة بالمصالح والآداب العامة ، وتعمل على حماية الجمهور من الغش والاستغلال^(٢) ولارتباطها بحماية الجماهير فإن لها صلة وثيقة بالشرطة حيث يعد المحتسب الشرطي المسئول عن الأسواق والآداب العامة^(٣) وقد حدد العلماء شروطاً لا بد من توفرها فيمن يضطلع بالقيام بوظيفة الحسبة ومنها أن يكون فقيهاً عارفاً بأحكام الشريعة حراً عدلاً ذا صرامة وخشونة في الدين ، غنياً نبيلاً ، فطنا لا يميل ولا يرتشي^(٤) وحتى يؤدي المحتسب واجبه على خير وجه فله أن يتخذ الأعوان والغلمان^(٥) وهؤلاء يكونون بمثابة العيون له يوصلون إليه الأخبار وهذا أدعى لبث الرعب والخوف في قلوب العامة^(٦).

وقد أغفلت المراجع — التي تيسر لي الإطلاع عليها — الأخبار عن المحتسبين بالمغرب الأقصى في عهد المرابطين سوى ما ذكرته عن داعية المرابطين عبد الله بن ياسين وقضائه على وسائل اللهو وحرقة متاجر الخمر في مدينة سجلماسة^(٧) ويبدو أن البساطة الصحراوية لازمت المرابطين حتى بعد أن كونوا دولة قوية فلم يحفلوا بالتأليف واعتمدوا في تغيير المنكر والأمر بالمعروف في الأسواق والطرقات والأماكن العامة على كتب الفروع القديمة وعلى الدوق

-
- (١) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢٤٠ ، ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٣٢٥ ، د. أحمد شلبي : السياسة والاقتصاد ص ١٧٠ .
 (٢) د. الرئيس : النظريات السياسية ص ٢٠٩ .
 (٣) د. أحمد شلبي : السياسة والاقتصاد ص ١٧٠ .
 (٤) الشيزري : نهاية الرتبة ص ٦ ت د. الباز العريني سنة ١٤٦٠
 الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٤١ ، ابن عبدون : رسالة في الحسبة ص ٢٠ ، د. عطية مشرفة : القضاء في الإسلام ص ١٧٩ ، محمد المرير : الأبحاث السامية ج ٢ ص ١١٥ .
 (٥) الشيزري : نهاية الرتبة ص ١٠ ، ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٥ .
 (٦) الشيزري : نهاية الرتبة ص ١٠ .
 (٧) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٢٠ .

Nevill Barbour : Morrocco, P 50

وقوة الشعور الديني (١).

وقد مارس ابن تومرت داعية الموحدين خلال رحلة العودة إلى المغرب الأقصى وظيفة المحتسب حيث قام بإهراق الخمر التي وجدها بمدينة ملالة يقول البيهقي « فلما كان في بعض الأيام دخل المدينة — أي دخل ابن تومرت مدينة ملالة — حتى وصل البحر فأهرق بها الخمر وقال المؤمن تمار والكافر حمار . . . وقالوا له من أمرك بالحسبة فقال الله ورسوله ثم رجع إلى المسجد المذكور (٢) كذلك حين وصل فاس واستقر بها بعض الوقت مارس وظيفة المحتسب حيث هاجم هو وتلاميذه حوانيت اللهو ، وقام بتكسير آلات اللهو والطرب (٣) يقول البيهقي « فخرجنا السبعة — أي ابن تومرت وتلاميذه — وأقبلنا بسبعة مقارع من ذكار (التين) فقالوا لنا اخفوا مقارعكم وسرنا معه ولا علمنا أين نتوجه حتى وصلنا زقاق بزقالة قال لنا تفرقوا على الحوانيت وكانت الحوانيت مملوءة دفوفاً وقراقير ومزامير وعيداناً وروطاً وأرببه وكيترات وجميع آلات اللهو ، فقال لنا المعصوم اكسروا ما وجدتم من اللهو فقام أربابها بالصراخ وساروا شاكين نحو قاضيهم ابن معيشة ، وكان يومئذ قاضيها فقال لهم لولا ما أرى في السنة فما كسرنا مزقها مروا فانكم مخالفون للحق (٤) » حتى إذا قامت دولة الموحدين برزت وظيفة المحتسب في أكثر من خبر ، فالمنصور الموحدي كان يحاسب أمناء الأسواق في كل شهر مرتين يقول المراكشي « وكان — أي المنصور الموحدي — قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين ، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم (٥) وأمناء الأسواق كانوا من أعوان المحتسب (٦) كذلك أشار التادلي إلى أن قاضي مراكش أبا يوسف حجاج بن يوسف استدعى

-
- (١) موسى لقبال : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب : نشأتها ونطورها ص ٤٩ ط ١ سنة ٧١ الجزائر .
 (٢) البيهقي : أخبار المهدي ص ٥٣ .
 (٣) نفس المرجع السابق ص ٦٤ ، ٦٥ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٧٦ .
 (٤) البيهقي : أخبار المهدي ص ٦٤ ، ٦٥ .
 (٥) المراكشي : المعجب ص ٢٨٥ .
 (٦) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٩ .

أحد الصالحين من فاس وهو عبد الملك مروان بن عبد الملك اللمتوني والمتوفى سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م أو سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م ليتولى وظيفة الحسبة يقول التادلي « حدثني الثقة أن مروان بعث إليه القاضي أبو يوسف حمّاج بن يوسف أن يصل من فاس ليقدمه على خطة الحسبة بمراكش »^(١) كذلك أشار التادلي إلى تولّى أحد الصالحين وظيفة الحسبة بمدينة داي وكراهيته لذلك يقول التادلي « ومنهم أبو يعقوب يوسف بن علي المؤذن من أهل داي وبها مات في رمضان عام سبعة وخمسين وخمسة ، كان عبداً صالحاً ورعا كثير البكاء . . وأكره على ولاية الحسبة ببلد داي ، فدخل على أهله وهو يبكي ويقول : لو أراد الله بي خيراً ما عرفني أحد فامتنع من أكل اللحم من السوق إلى أن أعفى من تلك الولاية »^(٢) وقد ترجم ابن القاضي لأحد الصالحين وهو ميمون بن علي من مدينة فاس وكيف أنه تولى حسبة الطعام بمراكش^(٣) .

وجددير بالملاحظة أن الفقر في تأليف كتب عن الحسبة في عصر المرابطين سرى أيضاً إلى عصر الموحدين بالرغم من وجود وظيفة المحتسب في دولة الموحدين ، وربما كانت هناك مؤلفات وضاعت ، أو أن الموحدين انصرفوا عن التأليف في الموضوع لأنه ارتبط في الأذهان بالمذهب المالكي وبأمهات فروع الفقه وكانت محل مقت وإنكار من الموحدين الذين رفعوا لواء فكرة الرجوع إلى الأصول الحقيقية للتشريع الإسلامي^(٤) .

وقد أشارت المراجع إلى اختصاصات المحتسب وتنوعها وتعددتها فمنها ما يتصل بالنواحي الدينية كأن يأمر العامة بالصلوات الخمس وإقامة صلاة الجمعة والجماعات^(٥) ومنها ما يتعلق بالآداب العامة كمرقبة الحمامات ومراقبة النساء في الأفراح والمآتم والجبانات وتأديب المحاهرين بالمحرّمات من شرب الخمر والزنى والفواحش وكسر آلات الملاهي^(٦) ومنها ما يتعلق بالناحية

(١) التادلي : التشوف ص ٢٢٣ .

(٢) التادلي : التشوف ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٣) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٢٠٩ ، ٢١٨ .

(٤) موسى لقبال : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب ص ٤٩ .

(٥) ابن تيمية : الحسبة في الاسلام ص ٩ ، ١٠ ، ١١ .

(٦) د. أحمد شلبي : السياسة والاقتصاد ص ١٧١ ، روجيه

لوتورنو : فاس في عصر بني مرين ص ٦٥ ، محمد الرير : الأبحاث

السامية ج ٢ ص ١٠٣ .

الاقتصادية والمعاملات من بيع وشراء كمرقبة للموازن والمكايل ومراقبة الأسواق وما فيها من أنواع المتاجر المختلفة^(١) ويضاف إلى هذه الاختصاصات حقه في الإشراف على التعليم والمعلمين واختيارهم ومنعهم من إلقاء المتعلمين^(٢) وحتى يتمكن المحتسب من ممارسة هذه الاختصاصات فقد منح السلطة اللازمة في توقيع العقوبات على المذنبين فكان من حقه أن يطرح الشيء المغشوش أو يتلفه أو إهانة الحائى وتوبيخه ، وكذلك نفيه من السوق ، أو رفع يد الحائى عن الصنعة ، وكذلك يحجته أو ضربه^(٣) وبهذه الاختصاصات والسلطات استطاع المحتسب أن يؤدي دوره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

-
- (١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٥ ، د. أحمد شلبي : السياسة والاقتصاد ص ١٧١ ، محمد المرير : الأبحاث السامية ج ٢ ص ١١٨ .
- (٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٥ ، محمد المرير : الأبحاث السامية ج ٢ ص ١٠٣ .
- د. ماجد : الحضارة الإسلامية ص ٥٦ .
- (٣) محمد المرير : الأبحاث السامية ج ٢ ص ١٢٣ .

الباب الثاني الحياة الاقتصادية

الحياة الاقتصادية :

شهد المغرب الأقصى فترة من الازدهار الاقتصادي منذ أن تأسست على أرضه دولة المرابطين وحتى نهاية حكم الناصر الموحدي ، حيث حرص أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين على النهوض بالمنطقة في شتى المجالات زراعية كانت أم صناعية أو تجارية ، وعمم الرخاء السكان وارتفع الدخل المالى للبلاد نتيجة لتلك المساحات الكبيرة التي كانت تجبي منها الأموال للحكومة المركزية في العاصمة مراكش ومن ثم رخصت الأسعار ، وقد عبر ابن أبي زرع عن الرخاء الذي كانت تتمتع به البلاد في عهد المرابطين بقوله « وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعاينة وأمن ، تناهى الفمخ في أيامهم إلى أن بيع أربعة أوسق بنصف مثقال ، والثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال والقطاني لا تباع ولا تشتري ، كان ذلك مصطحباً بطول أيامهم . . . وكثرت الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قطاع ولا من يقوم عليهم » (١) فهذا الأمن والاستقرار الذي عاشته البلاد في ظل المرابطين أسهم في دفع عجلة الاقتصاد بالبلاد اذ جعل السكان ينصرفون إلى العمل والإنتاج .

وكنموذج لازدهار مدن المغرب الأقصى ، أشار ابن غازي إلى أوضاع مدينة مكناسة في عهد المرابطين حيث قال « وكانت هذه المواضع كلها في غاية من الخصب — أى أحياء مدينة مكناسة — وكثرة المياه والأشجار وكان أهلها آمنين مطمئنين في عيش رغد ونعمة منذ ملك أمراء المسلمين بنو تاشفين بلاد المغرب ، وأخذ الله تعالى بسيفهم نار الفتنة البربرية فانقطعت مطامع رعوس النفاق من بربر المغرب » (٢) ونتج عن هذا الأمن والاستقرار كثرة الأموال وتوفر المحصولات وصارت رخيصة الثمن بأسعار زهيدة (٣)

وامتد هذا الرخاء إلى عصر الموحدين حيث شهدت البلاد ازدهاراً اقتصادياً ورخاء في عهد خلفائها حتى حكم الناصر الموحدي سنة ٦١٠ هـ -

(١) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٩٤ ت الفيلاي .

(٢) ابن غازي : الروض الهمتون ص ٥ .

(٣) Soctt : History of Moorish Empire V 2 P 239-240

١٢١٣م وقد أشار المراكشي إلى مدى الرخاء والازدهار الذي كانت تنعم به البلاد في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بقوله « ولم تزل أيام أبي يعقوب هذا أعياداً وأعراساً ومواسم كثيرة خصب ، وانتشار أمن ، ودرور أرزاق ، واتساع معاش ، لم ير أهل المغرب أياماً قط مثلها ، واستمر هذا صدرأ من إمارة أبي يوسف »^(١) واستمرت فترة الرخاء والازدهار بالبلاد في عهد المنصور الموحدى نتيجة للأمن والاستقرار الذي عاشته المنطقة في عهده حتى أن الظعنبة كانت تخرج من بلاد نول لمطة حتى تصل إلى برقة وحدها لا ترى من يعارضها ولا يمسها بسوء^(٢) .

هذا الرخاء الذي شهدته المنطقة منذ قيام المرابطين وحتى حكم الناصر الموحدى كان ناتجاً عن إدارة مالية منظمة فضلاً عن ازدهار زراعى وتقدم صناعى ونشاط تجارى .

(١) المراكشي : المعجب ص ٢٥٦ .

(٢) ابن أبى زرع : الأتيس ص ١٥٧ طبع حجر ، السلاوى :
الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١١٤ .
Budgett Meakins ; The Moorish Empire, P ; 78

الفصل الأول

النظام المالى

ساهم النظام المالى فى استقرار الأوضاع الإقتصادية بالبلاد وكان النظام المالى وما تضمنه من إدارة مالية مع سياسة مالية خاصة بالمصادر التى تجبى منها الأموال ، وموازنة ذلك بالنفقات التى كانت تشمل أوجه الإنفاق المختلفة وإصدار عملات نقدية تنتظم بها المعاملات بين السكان ، كان لذلك كله أثر كبير فى دفع عجلة الإقتصاد بالبلاد ، إذ أن تنظيم علاقة السكان بولاية الأمر من الناحية المالية ومعرفة كل مواطن ما له وما عليه مما ييث الثقة والطمأنينة فى النفوس وبالتالى يدفعها للعمل والإنتاج فى ظل مبادئ وقوانين يخضع لها الجميع .

أولا : الادارة المالية

حرص ولاية الأمر منذ أن تأسست دولة المرابطين على تنظيم الشؤون المالية وفى مقدمة ذلك إعداد الجهاز الذى يتولى النظر فى النواحي المالية .

(١) الدواوين المالية :

ومن الخطوات الأولى التى اتخذها يوسف بن تاشفين بنائه لقصبة صغيرة لحزن الأموال والسلاح^(٢) ، حتى إذا استقرت الأوضاع واتسعت أعمال الدولة نرى يوسف بن تاشفين يدوّن الدواوين ، يقول ابن عذارى « فدوّن يوسف — أى يوسف بن تاشفين سنة ٤٦٤ هـ — الدواوين ورتّب الأجناد وطاعته البلاد »^(١) ومن هذه الدواوين تلك المتعلقة بالشؤون المالية وهى :

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٤٣ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣ ت . د . احسان عباس .

« ديوان الغنائم ونفقات الجند ، وديوان الضرائب ، وديوان الجباية وديوان مراقبة الدخل والخرج » (١) .

فاذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية ، وزادت الأقاليم التابعة للمغرب الأقصى مع اتساع في النشاط العسكري كانت هناك الإدارة المشرفة على النواحي المالية من جباية وإنفاق ، وظهر في هذه الفترة ديوان لم يكن موجوداً من قبل وهو ديوان التمييز ، وكان يختص بالمتطوعين للحملات العسكرية حيث تكتب أثمانهم في سجلات حتى يتقرر لهم العطاء اللازم .

وكما كانت هناك دواوين للمال بالعاصمة ، كان هناك ديوان مالى بكل إقليم يختص بما ليته كديوان المال بمدينة سبتة حيث أشار أبو عبد الله محمد مؤلف الحلل السندسية إلى وصول المملوك ناصح صاحب ديوان المال بسبتة بالهدايا العظيمة إلى الناصر الموحدي سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م (٢) .

ويبدو أن الموحدين قد أفردوا داراً أطلق عليها دار الإشراف : ويرجح أنها كانت خاصة بالإشراف على النواحي المالية إذ اشتق منها كلمة المشرف وهو من الموظفين المشتغلين بالشئون المالية في دولة الموحدين ويدعم هذا الترجيح ما ذكره المؤرخون من أخبار عن دار الإشراف واتصالها بشئون المال ومن ذلك تلك الرواية التي وردت عن المتصوف أبي العباس السبتي والمتوفى بمراكش سنة ٦٠١ هـ فحين نزل قحط بأهل مراكش ، توجه إلى دار الإشراف وكان النظر فيها لأبي يحيى أبي بكر بن يوسف الكومي وطلب منه معونة ورفض أبي يحيى ذلك فدعا عليه فعزل بعد ذلك (٣) وكان لدار الإشراف مسئول كأي عمران موسى والذي ترجم له ابن سعيد بقوله : « أبو عمران موسى بن عيسى بن المناصف : ولى دار الإشراف بمراكش في مدة الناصر » (٤) كذلك كانت هناك دار للإشراف بفاس ، فالناصر الموحدي

(١) الجزارى : تقدم العرب في العلوم والصناعات ص ١٥٣ .
(٢) أبو عبد الله محمد : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ص ٢٥٨ .
(٣) عباس المراكشي : الاعلام ج ١ ص ٢٥٧ .
(٤) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ١٠٧ ت د . شوقي ضيف سنة ١٩٥٣ .

حين واجه إرتفاعاً في الأسعار وقلة الأقوات في أثناء توجهه إلى الأندلس سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠م وتأكد أن ذلك نتيجة لإهمال عماله ، أرسل الشيخ أبو محمد بن أبي على مثنى صاحب الأعمال المخزنية لحاسبة عامل فاس عن ذلك الإهمال ، فتوجه الشيخ أبو محمد إلى هناك وفاجأ العامل بدار الإشراف وألقى القبض عليه^(١) ومن هذه الاشارات المختلفة يرجح أن دار الإشراف كانت خاصة بما يتعلق بالشئون المالية .

(٢) المشتغلون بالشئون المالية :

وكان المشتغلون بالشئون المالية في الدولة المرابطية الكتاب وهم يقومون بتدوين النواحي المالية المختلفة والعمال الذين يقومون بمجايئها ، وقد استخدم أمير المسلمين على بن يوسف الروم في جباية الأموال يقول ابن الخطيب « وهو — أي على بن يوسف بن تاشفين — أول من استعمل الروم بالمغرب وأركبهم وقدّمهم على جباية المغارم »^(٢) وقد ذكر النويري وابن الأثير أن جباة الأموال في عهد على بن يوسف كانوا من الفرنج والروم^(٣) وربما كان هذا الاجراء راجعاً إلى أن والدته على بن يوسف كانت أم ولد رومية^(٤) فتأثر بنشأته الأولى مع كثرة تردد أمير المسلمين على الأندلس في حملاته العسكرية يضاف إلى ذلك ما أثبتته هؤلاء الجباة من دقة في جمع الأموال .

فاذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا اشتغال الوزراء والكتاب بالأعمال المالية في عهد عبد المؤمن ويعاونهم الأمناء في جمع الأموال ، فبعد أن فتح الخليفة عبد المؤمن مدينة مراكش أرسل أمناءه إلى المدينة لحصر أموالها يقول البيهقي « وأرسل الأمناء — أي أمناء الموحدين بعد فتح مراكش — إلى المدينة مع الوزير وكان السبي يضمنون للمخزن أنماه الله ما كان من الحلى والسلاح وما كان بالمدينة كلها رفع للمخزن وابتيع النساء ، ورجع كل شيء

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ تطوان .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦١ ، ٦٢ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٥ ، ابن الأثير :

الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٢٩٦ .

(٤) ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ٧٨ ت الفيلاي .

إلى الخزن» (١) كذلك حين استولى الخليفة عبد المؤمن على مدينة تونس سنة ٥٥٤ / ١١٤٨ م واستلم المدينة أرسل أمناءه لاقتسام أموال أهلها (٢).

ثم تطورت الوظائف المالية واتضحَت صورتها ، وصار هناك وزير مشغول عن الشؤون المالية في الدولة يطلق عليه صاحب الأشغال وقد أشار ابن خلدون إلى مهمته « وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها — أى صاحب الأموال والخراج — إنما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الأشغال (٣) » وكان صاحب الأشغال يتمتع بمكانة ممتازة نظراً للعمل الذي يقوم به ، وقد أشار المقرئ إلى أهمية مكانته بالأندلس قائلاً « وصاحب الأشغال الخراجية في الأندلس أعظم من الوزير ، وأكثر أتباعاً وأصحاباً وأجدي منفعة فإليه تميل الأعناق ونحوه تمتد الأكف » (٤) وكان يعاون صاحب الأشغال رؤساء الدواوين المالية بالدولة وهم :

١ — صاحب ديوان الأعمال الخزنية : الذي يراقب إيرادات الدولة ويشرف على الدخل والمنصرف ويراقب العمال والمشرفين ويحاسبهم (٥) وكان يعاون صاحب ديوان الأعمال الخزنية المشرفون وقد ذكر ابن الخطيب وجود مشرف بمدينة فاس في عهد المرابطين وهو غير الوالي ، يقول ابن الخطيب « كان عبد المؤمن يريد أن يدخلها — أى مدينة فاس بعد أن حاصرها حصاراً شديداً — فوقف له أهل فاس على متهدم السور وقتلوه من خارجها ، ولما طال عليهم الحصار وجه الجياني مشرفها في خفية لعبد المؤمن فأمنته وأدخله من باب الفتوح وذلك أن واليها من المرابطين طلبه في مال وضيق عليه فلم

-
- (١) البيهقي : أخبار المهدي ص ١٠٥ ، ١٠٦ .
 (٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٥ ، أبو عبد الله محمد : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ص ٢٥٠ .
 (٣) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٥ .
 (٤) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٠٢ .
 (٥) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثاني ص ٦٢٣ ، د. عبد الله علي : الدولة الموحدية بالمغرب في عهد المؤمن بن علي ص ٢٦٤ دار المعارف سنة ٧١ .

يكن في وسعه من أن يعطيه فحين بدأ عمل الحيلة في دخول عبد المؤمن وخرج صاحبها عنها» (١) ومن هذا النص يتضح أن المشرف غير الوالى ، وأن الوالى طلب مالا من المشرف فرفض ، ويبدو أن وظيفته كانت الإشراف على العوائد والمكوس (٢) وقد أشار التازى إلى وظيفته بقوله « المشرف بالأسبانية Almojarife كان هو الذى يتوصل بكل الواجبات والحقوق اللازمة عند الإيراد والإصدار للسلع فهو بمثابة المفتش العام للديوانة » (٣) وكانت المدن المغربية الأخرى بها مشرفون كتلمسان ومكناسة وتازا (٤) كما أن ابن عذارى أشار إلى وفاة ابن مثنى المشرف بافريقية سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م (٥).

وكان المشرف بدوره يعاونه مجموعة من العمال أولهم خازن المال ، والآخر خازن الطعام ، وقد أشار إلى ذلك ابن عذارى حين ذكر معاقبة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م لمشرف فاس وهو عبد الرحمن بن يحيى ومعاونه من العمال يقول ابن عذارى « ثم قبض — أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — على سائر العمال وكان عددهم ثمانية عشر عاملاً أولهم مشرف فاس المذكور ، وخازنه على المال الذهبى ، وخازنه أيضاً على الطعام الطرسوقى » (٦) وكان يعاون المشرف أيضاً المتقبل وهو الذى يتعامل مع التجار ويحدد مقدار الضرائب المفروضة على بضائعهم (٧) وقد أشار ابن عبادون إلى أن المتقبل لابد أن يكون معه زمام ويكون لهذا الزمام نسخة عند القاضى وأخرى عند المشرف . (٨)

وهكذا كان صاحب ديوان الاعمال المخزنية يشرف على مجموعة من الموظفين فهو يرأس المشرفين وهؤلاء يعاونهم خازنو الأموال ، وخازنو الأطعمة والمتقبلون .

- (١) ابن الخطيب : الحلال الموشية ص ١٠١ ، ١٠٢ .
- (٢) J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 52
- (٣) التازى : حاشية كتاب تاريخ المن بالامامة ص ١٨٧ .
- (٤) J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, M P ; 52
- (٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٤ تطوان .
- (٦) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٦٠ تطوان .
- (٧) ابن عبادون : رسالة فى الحسبة ص ٣٠ .
- (٨) نفس المرجع السابق ص ٣١ ، ٣٢ .

٢ — متولى الجابى :

وهو المسئول عن تحصيل الضرائب والجزيات على مختلف أنواعها وله عمال فى مختلف المدن (١) .

٣ — متولى المستخلص :

وهو المشرف على أموال الخليفة ، والمحافظة عليها وتحميل ما يتعلق بها من مختلف أبواب الدخل (٢) وقد عين الخليفة عبد المؤمن ، ابن ومانون فى سنة ٥٤٩ هـ على نصيبه من إحدى الحملات وكانت ثمانمائة ناقة (٣) كما أن أبا بكر بن ملول بن ابراهيم بن يحيى الصنهاجى كان أميناً على ضياع وأموال المنصور الموحدى (٤) كذلك كان الكاتب يوسف بن عمر — بعد انسلخه من خدمة السادات بنى السيد أبى حفص بن عبد المؤمن — مستخلصاً بالشرف ومدينة لبلبة فى سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦ م (٥) .

وهكذا صارت هناك ثلاث وظائف رئيسية خاصة بشئون المال فى الدولة الموحدية :

الوظيفة الأولى : وتتعلق بمراقبة الإيرادات والمصروفات .

والوظيفة الثانية : تتعلق بتحصيل الموارد المالية للدولة .

أما الثالثة : وتتعلق بالإشراف على أموال الخلفاء .

٣ — موعد جمع الأموال :

وبالنسبة لتاريخ جمع الأموال فإنه كان فى كل عام وذلك بالنسبة للزكاة والجزية المفروضة على أهل الذمة وذلك ما أشار إليه ابن خلكان وابن الاثير والنويرى بأن جباة الأموال فى الدولة المرابطية كانوا يصعدون إلى الجبل فى

-
- (١) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢٣ ،
د. عبد الله علام : الدولة الموحدية ص ٢٦٤ .
(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢٤ ،
د. عبد الله علام : الدولة الموحدية ص ٢٦٤ .
(٣) البيذق : أخبار المهدي ص ١١٨ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٤٠ .
(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٧٤ . تطوان .

كل عام لجباية ما على الرعية من أموال (١) أما بالنسبة لغير ذلك من مصادر المال كالغنيمة والعشور فإنها كانت مرتبطة بظروفها ، أما الخراج الذى فرضه الخليفة عبد المؤمن بالنسبة للمغرب فإن أهواله كانت تجبى سنوياً .

٤ - المناطق المالية :

لم تشر المراجع التى اطلعت عليها الى المناطق التى كانت تجبى منها الأموال المستحقة لخزينة الدولة فى الدولة المرابطية أما فى الدولة الموحدية فقد اختلفت من خليفة لآخر فى عهد الخليفة عبد المؤمن كانت تجبى الأموال من الأقاليم الآتية بالمغرب الأقصى :

تلمسان ، فاس ، تادلا ، سبتة وطنجة ، مراكش والسوس (٢) أما فى عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فقد أشار المراكشى إلى هذه المناطق بقوله « وكان يرتفع إليه - أى إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن - خراج إفريقية وجملة فى كل سنة وقرمئة وخمسين بغلا هذا من إفريقية وحدها ، خلا بجاية وأعمالها ، وتلمسان وأعمالها ، والمغرب وحد عمل المغرب عندهم الذين يطلقون عليه هذا الاسم من مدينة تدعى رباط تازا إلى مدينة تدعى مكناسة الزيتون . . ومدينة سلا وأعمالها ، وسبتة وأعمالها وأعمال سبتة هذه فى غاية السعة والضخامة . . مضافاً إلى مراكش وأعمالها ، وأعمال مراكش أيضاً فى نهاية السعة » (٣) وهى تختلف عن القائمة السابقة فى أن المراكشى ضم منطقة فاس وتادلا والسوس وجعلهم منطقة واحدة أطلق عليها لفظة المغرب ثم أفرد مدينة سلا ويبدو أن هذه المناطق الضريبية ظل معمولاً بها فى الدولة المرينية التى قامت على أنقاض دولة الموحدين فأبو الحسن فى كتابه المدوحة المشبكة أشار إلى هذه المناطق الضريبية فى سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م بقوله « إن الإقطار التى تجب فيها الأعشار من بلادنا خمسة : حضرة فاس وما والاها من البلاد من سلا إلى تاز قطر واحد ، وسبتة وما والاها من البلاد إلى الريف

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٤٢ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٩٦ .

(٢) J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 36

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

والهبط إلى قصر كتامة قطر ثان ، ومراكش وما والاها من البلاد إلى السوس قطر ثالث ، ودرعة وسجلماسة وما والاها من البلاد قطر رابع ، وتلمسان وما والاها وما وراءها من البلاد إلى الجزائر قطر خامس «^(١) وهذه القائمة تزيد على القائمتين السابقتين ، لإقليم درعة وسجلماسة .

مراقبة ولاية الأمر للإدارة المالية :

وكان المشتغلون بمالية الدولة دائماً تحت المراقبة الشديدة ، فالمرابطون كانوا يراقبونهم مراقبة شديدة ويحاسبونهم حساباً عسيراً ، فإذا اعتزل العامل الخدمة حاسبوه فإذا وجدوا تقصيراً مجنوه وصادروا أمواله (٢) .

وسار الموحدون على نفس السياسة في محاسبة المشتغلين بالنواحي المالية ، وقد وجد الخليفة عبد المؤمن بعض مظاهر الفساد المالي والمتفشى في البلاد وذلك عن طريق بعض الحياة والعمال الذين يفرضون على الناس المغارم والمكوس ويدعون أنها للمخزن ، لذا أرسل رسالة في سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م إلى الأشياخ والطلبة بالأندلس ، يامرهم فيها بقمع هؤلاء العمال ومعاقبتهم أشد العقاب ومما جاء في الرسالة « ولقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسي وغيرها ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً ، وأدناها إلى من تولاها دماراً وهلكاً ، وأكثرها في نفس الديانة عبثاً وفتكاً ، فانا لله ولانا إليه راجعون ، هل قام هذا الأمر العالى إلا لقطع أسباب الظلم وعلقه ؟ وتمهيد سبيل الحق وطرقه وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطلقه ؟ » (٣) ثم تعرض الخليفة بعد ذلك لهؤلاء الذين يفرضون ضرائب جائرة على التجار مدعين أنها تخص الدولة « وإن من ذلك الرأي الذميم والسعى المنقوم ما ذكر لنا في أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها والطوائف المارة على البلاد لمعنى تجارتها ، يتسبب إليهم قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء الذين يضعون الغش طي ما يوهمون به من النصيحة ويستبطنون المكر في

(١) أبو الحسن : الدوحة المشبكة ص ١١٩ ، ١٢٠ ت د. حسين مؤنس .

(٢) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤١١ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

تصرفاتهم القبيحة فيقولون للرجل منهم : عندك من حقوق الله كيت وكيت ، وإن للمخزن جميع ما به أثبت ويقرنون بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ما يرضى له المذكور بالخروج عن جملة ماله ، ويعتقد السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم مناله وإنها لداهية عاقرة قاصمة للظهر فاقرة»^(١) . ولم يقتصر فساد هؤلاء العمال على فرض الإتاوات على التجار المسافرين بل كانت تمتد أيديهم إلى أموال الحكومة نفسها ظلماً وعدواناً « وتمتد أيديهم إلى الخازن هنالك فيعيشون فيها ويتحكمون ، ويجرعون في التعدي عليها ملء شأوهم وأنفسهم يظلمون ، فاتقوا الله تعالى فيها فانها أمواله المخزونة في أرضه وبادروا إلى كف كل معتد وقبضه»^(٢) ، وقدهدّد الخليفة هؤلاء المارقين أشدّ تهديد وحذر الشيوخ والطلبة من التهاون في محاسبتهم ومعاقبتهم^(٣) .

وتابع خلفاء الموحدين سياسة الخليفة عبد المؤمن في محاسبة المشرفين على سوء تصرفهم في النواحي المالية ففي سنة ٥٧٣ هـ عاقب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ابن فاخر مشرف بمجلسه وبعثه^(٤) ، كذلك عاقب الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م مشرف تلمسان يقول ابن عذارى « وفيها — أى سنة ٥٧٩ هـ — كانت السطوة بأبي زكرياء بن حيون شيخ كومية وبابنه على الذى كان مشرف تلمسان وغيره وكان كل يوم يخرج مكبولاً للحساب على عمله ثم أخرج ابن حيون المذكور منفياً إلى الحضرة إلى بطليوس وبقي على ابنه في السجن إلى خروج أمير المؤمنين في غزوته إلى شترين»^(٥) وفي نفس العام حاسب الخليفة كثيراً من عماله ومنهم بعض المشتغلين بالشئون المالية كعبد الرحمن بن يحيى مشرف فاس وأعوانه خازن المال وخازن الطعام ، وكذلك ابن عاصم مشرف مكناسة وابن عمر المشرف برباط تازا^(٦) كذلك عاقب المتصور الموحدى في سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م مشرف مرسية وطلب منه

(١) نفس المرجع السابق ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٦٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٦٤ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٩ تطوان .

(٥) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٥٣ تطوان .

(٦) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٦٠ تطوان .

احضار المحابي وأزمته المجتمع فيها بجملة وضرب بالسوط حتى مات (١) وبذلك كان المشتغلون بالنواحي المالية تحت الرقابة المستمرة من ولاية الأمر ، فن حاد منهم عن طريق الحق والعدل حوسب وعوقب أشد العقاب .

وهكذا انتظمت الإدارة المالية بالبلاد نتيجة اشتغالها على دواوين ومسؤولين عن الشئون المالية وبجانب ذلك تحددت مواعيد وأماكن جمع المال فضلا عن مراقبة المشتغلين بشئون المال ومعاقبتهم عند استغلالهم لأموال الشعب .

(١) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ١٢٤ تطوان .
(م ١٣ — الحضارة)

ثانيا - السياسة المالية ومصادر بيت المال

أ - السياسة المالية :

منذ أن قامت دولة المرابطين على أرض المغرب الأقصى ، وولاة الأمر يؤكّدون المعنى الديني الذي تأسست عليه الدولة ، وأن الهدف الأساسي من قيامها هو التمسّاء على الضلّالات المنتشرة ، والجهل بأحكام الدين ، وقد وضع ذلك منذ اللحظات الأولى في تأسيس الدعوة حيث قرّر عبد الله بن ياسين المبدأ المالي الذي ترتكز عليه الدعوة في جبايتها للأموال وهو ما قرّره الشرع : أي كتاب الله وسنة رسوله وما ورد فيهما من أحكام بشأن الأموال ، ولذا حين افتتح مدينة سجلماسة ألغى كل الرسوم والضرائب والتي لم يرد بها نص من كتاب أو سنة يقول ابن أبي زرع « وأزال المكوس وأسقط المغارم ، وترك ما أوجب الكتاب والسنة تركه وقدّم عليها عاملا من لمتونة وانصرف إلى الصحراء » (٢) ومن هنا حرص عبد الله بن ياسين على القضاء على تلك الضرائب الجائرة التي كان يفرضها أمراء زناته ، حتى إذا تولى أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين مقاليد الأمور ، حرص على اتباع أوامر عبد الله بن ياسين ومن هنا كانت مصادره المالية هي الزكاة والأعشار وجزية أهل الدمة وأخماس غنائم المشركين (٣) إلا أن هذه المصادر المالية لم تف بحاجة الأعمال العسكرية التي قام بها يوسف بن تاشفين وخاصة بعد أن صار لإقليم الأندلس تابعا للمغرب الأقصى واحتياجه المستمر للحملات العسكرية لتدافع عنه ضد أطماع الفرنج ومن هنا فرض بعض الإتاوات على أهل المغرب والأندلس (٤) وسوف أتناول أنواع هذه الضرائب حين التحدث عن الجزية والضرائب كمصدر مالي .

فلما تولى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، إستمر في عمليات الجهاد بالأندلس ، ثم ظهرت في عهده ثورة ابن تومرت ، والنشاط المسلح الذي قامت به الدولة ، بالإضافة إلى أعمال البناء والتعمير التي قام بها ، مما

(١) ابن أبي زرع : الأتييس ج ٢ ص ٢٠ ت الفيلاي .

(٢) ابن أبي زرع : الأتييس ج ٢ ص ٣٧ ت الفيلاي .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٤٢٠ .

استلزم كثيراً من الأموال ، ومن هنا ظهرت بعض أنواع القبلات والضرائب على السلع لم تكن موجودة من قبل ، تلك المكوس والضرائب التي هاجمها فيما بعد الخليفة عبد المؤمن بعد سقوط دولة المرابطين في إحدى رسائله سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م مشيراً إلى ألوان الظلم التي كانت موجودة في دولة المرابطين بقوله « ولقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبلات وتحجير المراسي وغيرها ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً »^(١) ومن هنا فإن الرواية التي ذكرها ابن أبي زرع والتي يقول فيها « لم يجر في عملهم طول أيامهم — أي أيام المرابطين — رسم مكس ولا معونة ولا خراج في بادية ولا حاضرة .. ولم يكن في عمل بلادهم خراج ولا معونة ولا تقسيط ولا وظيف من الوظائف الخزنية حاشا الزكاة والعشر »^(٢) مشكوك في صحتها حيث أن الظروف التي أحاطت بعلي بن يوسف ومن جاء بعده الخاتمة إلى أنواع من الضرائب سوف أتناولها بالتفصيل في مصدر الجزية والضرائب .

حتى إذا اندلعت ثورة الموحدين بأرض المغرب الأقصى ، التزم الداعية ابن تومرت في النواحي المالية ، أحكام الكتاب والسنة ، وكانت مصادره الزكاة وخمس الغنائم ، فلما تولى الخليفة عبد المؤمن وقضى على دولة المرابطين التزم بسياسة ابن تومرت في الاكتفاء بالمصادر التي حددها الشرع ، حتى إذا كانت سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م ، لجأ إلى فرض الخراج على أرض المغرب وبقية المناطق التابعة للدولة ، وهذا الخراج لمصدر جديد للمال لم يكن مفروضاً من قبل في دولة المرابطين .

ب — مصادر الدخل المالي :

وبذا أصبحت مصادر المال للدولة : الخراج — الزكاة — الجزية والضرائب
الغنيمة — المصادرات :

١ — الخراج :

أشارت المراجع إلى ذلك الإجراء الذي اتخذه الخليفة عبد المؤمن بن علي

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٥٦ ت ، د. محمود مكي .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٩٤ ت الفيلاي .

في سنة ٥٥٥٥ / ١١٦٠م وهو المسح الشامل لأراضي المغرب الأقصى وأراضي الشمال الإفريقي حتى برقة طولا وعرضاً بالفراسخ والأميال ، وأسقط ثلث المساحة في مقابل الجبال والأنهار والطرق وفرض الخراج على ما تبقى من الأراضي (١) وفي ذلك يقول ابن أبي زرع « وفي هذه السنة أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد إفريقية والمغرب وكسرها من بلاد إفريقية من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصى بالفراسخ والأميال طولا وعرضاً فأسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعراء والأنهار والسياب والطرق والحزون ، وما بقي قسّط عليه الخراج ، وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب » (٢) .

وأصبح هذا الاجراء قاعدة سار عليها خلفاء الموحدين من بعد ومصدراً من المصادر الثابتة لحماية الأموال فابن خلكان يصف الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بقوله « وكان — أى يوسف بن عبد المؤمن — جمعاً متاعاً ، ضابطاً لخراج مملكته عارفاً بسياسة رعيته » (٣) كذلك اقتنى المنصور الموحدي سياسة أبيه « وسلك في جباية الأموال ما كان أبوه يأخذه ولم يتعهده إلى غيره » (٤) وصارت مصادره المالية الخراج والزكاة والأعشار (٥) .

والخراج هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عليها (٦)

(١) ابن أبي دينار : كتاب المؤنس ص ١١٢ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٣٩ عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ١ ص ٧٨ ، ٧٩ ، عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١٨ ، الجبلاى : تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٣١٩ ، عبد الله كنون : مدخل الى تاريخ المغرب ص ٤٧ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٧٤ ، الزركلى : الاعلام ج ٢ ص ٦٠٤ سنة ١٩٢٧ .

J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 34,

Budgett Meakins ; The Moorish Empire, p ; 27

Julien, Histoire du L'Afrique, P ; 111, 112,

Terrasse ; Histoire du Maroc, P ; 311, 312.

(٢) ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ١٦١ ت الفيلاى .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٠ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص ١٦٥ .

(٥) ابن أبي زرع : الاتيس المطرب ص ١٦٧ طبع حجر .

(٦) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤٦ .

والمقصود بالأرض هنا هي تلك الأرض التي استولى عليها المسلمون من المشركين عنوة أو صلحاً^(١) وبهذا المعنى فإن أراضي المغرب الأقصى وغيرها من الأراضي التي فرض عليها الخليفة عبد المؤمن بن علي الخراج لا يجوز أن يوضع عليها خراج إذ أنها أرض عشر أي أرض أسلم أهلها عليها^(٢) ولكن يبدو أن الخليفة عبد المؤمن حين اتخذ هذا الاجراء كان له من المبررات ما دفعه إلى تنفيذ هذا العمل ومن هذه المبررات :

أولاً : نظرة الموحدين إلى المرابطين على أنهم كفرة ومجسمين ومبدلين لأحكام الله ومن هنا ساوى الخليفة عبد المؤمن بين أرض المرابطين وأرض المشركين وفرض عليها الخراج مستنداً في ذلك لرأى الامام مالك في فرض الخراج على أرض المشركين والتي استولى عليها المسلمون^(٣).

ثانياً : احتياج الخليفة عبد المؤمن بن علي للأموال وذلك مواصلة أعمال الجهاد وخاصة بعد أن أصبحت الدولة مترامية الأطراف تمتد من برقة شرقاً حتى المحيط الاطلسي يضاف إلى ذلك الأندلس ، وما تحتاجه هذه الأقاليم من حماية ورعاية ، وهذا يتطلب الجيوش المعدة والأساطيل المجهزة والقلاع والحصون مع ميل الخليفة عبد المؤمن للبناء والتعمير ، كل ذلك استلزم أموالاً كثيرة لا تفي بها المصادر الشرعية الأخرى ومن هنا أباح لنفسه إتخاذ هذه الخطوة .

ثالثاً : ربما استند إلى فتوى بعض العلماء المحيطين به أن من حقه فرض الخراج على الأرض التي أسلم عليها أصحابها مستندين في ذلك لرأى الامام أبي حنيفة الذي قرر أن الامام يختار بين أن يجعلها خراجاً أو عشراً فان جعلها خراجاً لم يجز أن تنقل إلى العشر وإن جعلها عشرأ جاز أن تنقل إلى الخراج^(٤) .
والواقع أن الخليفة عبد المؤمن بن علي لم يتخذ هذا الاجراء إلا بعد أن استقرت الأوضاع في البلاد وصار له من القوة بحيث يفرض ما شاء من أنواع

(١) د. صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص ٣٥٩ .
(٢) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٤٧ د. الرئيس : الخراج والنظم المالية ص ١٣٠ ط ٢ سنة ١٩٦٢ .
(٣) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٤٧ .
(٤) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٤٧ .

الجبايات ولذا لم يتخذ هذه الخطوة إلا سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م بعد سقوط دولة المرابطين بأربعة عشر عاماً ، وتمكّن سلطانه في البلاد وصار لا ينازعه أحد ، مع جيوش جرارة تخضع لكلمته وتنفذ أوامره ، ومن ثم فرض الخراج وهو واثق بأنه لن ينازعه أحد فيها يتخذه من قرارات .

٢ — الزكاة :

اتخذ ولاية الأمر من المرابطين والموحدين الزكاة مصدراً من مصادر الدخل المالى للدولة فابن ياسين منذ اللحظة الأولى التى فرض فيها سلطانه على بعض المناطق الجنوبية بالمغرب ألغى الضرائب والمكوس السابقة وفرض الزكاة مستنداً فى ذلك إلى الشرع^(١) واتبع سياسته من جاء بعده بالنسبة للزكاة .

فلما قامت دولة الموحدين كانت الزكاة أيضاً من المصادر المالية التى لحا إليها ولاية الأمر وحرصوا عليها باعتبارها من الأمور الدينية الواجب تنفيذها ولما كانت دولتى المرابطين ، الموحدين قامتتا على أساس دعوة دينية ، فن هنا احتلت الزكاة منزلة هامة فى فرضها وتطبيق أحكامها ، ولذا فلإن الخليفة عبد المؤمن أكد هذا المعنى فى رسالته التى أرسلها إلى أهل بجاية فى ربيع الثانى سنة ٥٦٦ هـ وهى الرسالة المعروفة برسالة الفصول يقول فيها « وخذوا إيتاء الزكاة ، وبالكشف عن ما نعيها وتشخيص ممسكها أو التزير اليسير منها ، فالزكاة حق المال ، والجهاد واجب على من منع منها قدر العقل فن ثبت منعه للزكاة فهو لاحق بمن ثبت تركه للصلاة فن منع فريضة كمن منع الفرائض كلها ومن منع عقلاً فما فوقه كمن منع الشرع كله »^(٢) وهكذا جعل عبد المؤمن مانع الزكاة كمن منع كل الفرائض وهو يستحق الحرب والنكال .

أما أصناف المال التى تؤخذ منها الزكاة فقد ذكرها القاضى عياض وهو من علماء مدينة سبتة وتوفى بها سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م بقوله « وأما قيم تجب — أى الزكاة — فالأموال المركبة ثمانية النقود من الذهب والفضة . والحلى المتخذ

(١) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ٢١ ت الفيلىلى ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١٠ .
(٢) مجموع رسائل موحدية ص ١٣٣ .

منها للتجارة ، وفي معناه النقر والتبر والأنعام وهي الغنم والبقر والإبل ، والحبوب وهو كل مقتاة من الحبوب ، وفي معناها ما له زيت منها والثمار وهي ثلاثة : تمر وزبيب وزيتون ، والعرض المتخذة للتجارة والمعادن من الذهب والفضة والركاز^(١) « وهذه الاصناف من المال لا بد أن يحول عليها الحول وذلك ما ذكره الامام مالك » أخبرنا مالك ، أخبرنا نافع عن ابن عمر ، قال لا تجب في مال زكاة حتى يحول عليه الحول^(٢) . وأما مقادير الزكاة فقد حددها القاضي عياض : نصاب النقود والحلى والمعادن من الذهب والفضة عشرون ديناراً ذهباً أو مائتان درهم فضة خالصين ، ونصاب العروض قيمتها من ذلك ويخرج ربع العشر عن ذلك فما زاد فبحسابه ، إلا النذرة في المعدن ففيها الخمس ، ونصاب الحبوب والثمار أن يرفع من كل نوع منها خمسة أوسق ، حاشى البر والشعير السلت فانه يجمع بعضه إلى بعض ، وكذلك القطاني ، تجمع كلها على الصحيح من القولين ويخرج منها العشر إن كان بعلاً أو يسقى سيجاً ونصف العشر إن كان يسقى بالدلو والساقية . وأما الركاز فيخرج الخمس من قليله وكثيره إن كان ذهباً فضة واختلف في غيرها وأما الأنعام فتختلف^(٣) وقد ذكر أصنافها وزكاة كل صنف .

٣ — الجزية والضرائب :

والمصدر الثالث من مصادر المال كانت الجزية التي جباها ولاية الأمر بالمغرب الأقصى منذ تأسست دولة المرابطين ، وهي ضريبة موضوعة على رؤوس أهل الكتاب^(٤) هؤلاء الذين يتمتعون بالأمن والحماية في ظل الحكومة الإسلامية وهذه الجزية تؤخذ من الرجال الأحرار العقلاء ولا تجب على امرأة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد لأنهم أتباع وذراى^(٥) وأما مقدارها ففي رأى

(١) القاضي عياض : الأعلام بحدود قواعد الاسلام ص ٦٣ ت محمد ابن تايوت الطنجى سنة ١٩٦٤ الرباط .

(٢) أبو عبد الله مالك بن أنس : موطأ الامام مالك ص ١١٥ القاهرة سنة ١٩٦٧ .

(٣) القاضي عياض : الأعلام بحدود قواعد الاسلام ص ٦٣ ، ٦٤ ص ٦٤ . الطنجى .

(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٢ ، د. الرئيس : الخراج والنظم المالية ص ١٢٢ د. صبحى الصالح : النظم الاسلامية ص ٣٦٣ .

(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٤ .

الامام مالك أنها موكولة لولاية الأمر واجتهادهم^(١) وفي رأى آخر له ذكره الطرطوشى « وقال مالك يؤخذ من الموسر أربعون درهما ومن الفقير دينار وعشر دراهم »^(٢) وكان للمرابطين ومن جاء بعدهم مواقف خاصة من أهل الكتاب ومن هذه المواقف تشددهم في معاملة أهل الكتاب وقد ظهر ذلك حين فرض يوسف بن تاشفين على اليهود فريضة ثقيلة في سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م^(٣) وقد أشار إلى مقدارها ابن عذارى بقوله « وفيها — أى سنة ٤٦٤هـ — افترض على اليهود فريضة ثقيلة في جميع طاعته اجتمع له فيها مائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار »^(٤).

وأما بالنسبة للضرائب فإن المرابطين في بدء عهدهم التزموا أحكام الشرع ولم يفرضوا الا ما جاء به الكتاب والسنة وألغوا ما عدا ذلك من الضرائب سواء بالمغرب أو الأندلس^(٥) فلما اتسع النشاط الحربي للدولة وما يستلزمه من أموال ونفقات جددت بعض أنواع القباله^(٦) وقد أشار إلى هذه القباله وتطبيقها على أسواق مراکش الادريسي بقوله « وكانت أكثر الصنع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والصفور والمغازل ، وكانت القباله على كل شيء دق أو جل كل شيء على قدره »^(٧) وفرضت المكوس على أماكن العبور ، وقد اعترض ابن تومرت على من طالبه بالمكس حين

-
- (١) نفس المرجع السابق ص ١٤٤ .
 (٢) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١١٣ .
 (٣) ابن الخطيب : الحلال الموشية ص ١٣ .
 (٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣ تتد. احسان عباس.
 (٥) د. حسن أحمد محمود : تيام دولة المرابطين ص ٤٠٤ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 41

Lane Pool ; The Moors in Spain P ; 170.

(٦) « القباله هى فى الاصل الضريبة التى تدفع لبيت المال ، وقد أطلق استعمال هذا اللفظ على الضرائب الزائدة على ما يقضى به الشرع ، وكانت هذه الكلمة تستخدم فى المغرب والأندلس للدلالة على الضرائب التى كان يؤديها أهل الحرف أو بائعوا السلع الرئيسية د. محمود مكى : حاشية نظم المجان ص ١٥٦ » .

(٧) الادريسي : وصف المغرب والأندلس ص ٧٠ .

أراد عبور وادي أم ربيع ، يقول البيهقي « ثم جد بنا — أي ابن تومرت وصحبه حين توجهوا إلى مراکش — حتى وصلنا وادي أم ربيع وما كنا نعرف أن الامام يتكلم باللسان الغربي فأردنا الجواز فنحنونا حتى نعطى المكس وهو المكوى وقالوا لنا تعطوا على كل رأس كذا وكذا فلما سمعهم المعصوم قال لهم « و مورن ملولنين أن سوس آواون فاك » وصاح عليهم ثم جزنا وكان في بعض ما قال لهم إنما السبيل للمسلمين وأنتم تعطونها وهذا غير جائز في الشرع » (١).

وفي بعض الاحيان كانت الدولة تواجه بعض المواقف العسكرية التي تستلزم فائضاً من المال ، ومن ثم تلجأ إلى فرضها على الرعية فقد لجأ المرابطون إلى فرض ضريبة تسمى التعطيب أو التعطيب على أهل الأندلس يخصص دخلها لإقامة أسوار جديدة وترميم القديم منها (٢) كما فرض أمير المسلمين على بن يوسف سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م على أهل فاس أن يرموا أسوار المدينة على نفقتهم وأن يدفعوا عشرين ألف دينار معونة للجيش (٣) أو تتحمل الرعية تجهيز فريق من أبنائها بسلاحهم ونفقاتهم ليشاركوا في الجيوش المرابطية ضد أعدائهم فأمر المسلمين على بن يوسف حين علم بعزم ابن رزمير غزو بلاد المسلمين سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٨ قسط على الرعية سوداناً يغزون في العساكر يقول ابن القطان « فقسط — أي على بن يوسف — على الرعية سوداناً يغزون في العساكر ، وكان قسط أهل فاس منها ثلاثمائة غلام من سودانهم بزرقتهم وسلاحهم ونفقاتهم ، يخرجون ذلك من أموالهم ففعلوا » (٤).

حتى إذا قامت دولة الموحدين حرص الخليفة عبد المؤمن على إلغاء الرسوم والضرائب التي تخالف الشرع والتي فرضها المرابطون (٥) وصدرت الرسائل الرسمية تعبر عن رفض الخليفة لكل أنواع المكوس والقبالات التي

-
- (١) البيهقي : أخبار المهدي بن تومرت ص ٦٧ .
 (٢) د. السيد عبد العزيز سائل : المغرب الكبير ص ٤٧٠ ،
 د. شعيرة : المرابطون ص ١٥٢ .
 (٣) ابن القطان : نظم الجنان ص ٢٢٦ ت د. مكي .
 (٤) ابن القطان : نظم الجنان ص ١٠٩ .
 (٥) J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 43
 S.P. Scrtt ' History of Moorish; Empire p ; 302.

فرضها المرابطون لخالفها للشرع ، ومن هذه الرسائل ، الرسالة الصادرة من
تينملل في السادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة
وهي موجهة إلى جميع الطلبة بالأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان
والكافة وقد جاء فيها « ولقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات
وتحجير المراسي وغيرها ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً وأدناها إلى
من تولاهما دماراً وهلكاً . . . هل قام هذا الأمر العالى إلا لقطع أسباب الظلم
وعلقه ؟ وتمهيد سبيل الحق وطرقه ؟ وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطلقه » (١)
وفي موضع آخر من الرسالة يذكر أن الباعث على كتابة هذه الرسالة هو
ما لمسه الخليفة بنفسه من أنواع تلك الضرائب الجائرة « وكان مما تعين -
وفقكم الله - على تنبيهكم وإذكاركم وإيقاظكم للنظر في تلك المصالح وإشعاركم
ما ألفيناه بحضرة مراکش . حرسها الله - من بعض تلك الأنواع مما أحدثه
فيها بعض أهل الابتداع . كنوع القبالة وما يجرى مجراها في وجوب الإزالة
والإحالة » (٢) ثم يختم رسالته مطالباً إياهم بالاستمسك بكتاب الله وإزالة
كل هذه الضرائب « فانظروا هذا - وفقكم الله تعالى - نظر أولى الألباب
ولتسعوا جهدكم في رفع ذلك المستراب ، ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه
على موجب الكتاب » (٣) وفي رسالة أخرى أصدرها الخليفة عبد المؤمن في
الربع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وموجهة إلى أهل
قسنطينة يوضح فيها موقفه من الضرائب الجائرة يقول فيها « وقد كان بهذه
الأصقاع من آثار أهل الاختلاف والابتداع ما علمتموه من القبالات والمكوس
والمغارم وسائر تلك الأنواع وكان الأشقياء من ولائها يرون إيجابها والزامها
شريعاً يلتزمونه وواجباً يقدمونه ولا يلتفتون إلى ما أوجب الله من الزكوات
والأعشار ، بل كانوا يطرحون ذلك إطراح أمثالهم من الفجار » (٤) ثم أخبرهم
الخليفة بأنه لن يؤخذ منهم سوى ما قرره الشرع ، « وقد قطع الله بفضله
أصولهم وفروعهم . . . وأجرى الشرع بالإمام المهدي على بابه وأراح جميع

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٦٧ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٦٧ .

(٤) مجموع رسائل موحدية ص ٢١ ، ص ٢٢ .

أهل البلاد والمعمورة بالتوحيد من جميع ما كانوا يكلفونه من المغارم .
فلا يطلبون إلا بما توجه السنة وتطلبه ولا يلزمون—ومعاذ الله مكسا ولا مغرما
ولا قبالة ولا سباً مما تسميه الظلمة بأسمائها وتلقبه ، ولكم في علم ذلك ومعرفته
دليل على ما سواه والله يهدي بهداه من اختار وارفضاه « (١) وهكذا حدد
الخليفة عبد المؤمن موقفه من هذه الضرائب بصورة واضحة . وقد اتبع هذه
السياسة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين خفف الضرائب (٢) وأسقط
بعضها كإلغاء القبالة على أحد الحسور المقامة بمدينة أشيلية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م
والتي كان يستخدمها السكان في العبور (٣) .

٤ — الغنيمة :

شكلت الغنيمة مصدراً هاماً من مصادر الدخل للدولة نظراً للمعارك
المستمرة التي خاضها ولاية الأمر في الدولة المرابطية والموحدية ضد الفرنج في
الأندلس ، بجانب المعارك التي خاضها الموحدون في الشمال الإفريقي حتى صار
خاضعاً لسلطانهم وما حدث في خلال ذلك من ثورات وخاصة ثورة بني غانية
فهذا النشاط العسكري وما تخلله من انتصارات كثيرة نتج عنه منافع وأموال
استولى ولاية الأمر على نصيبهم الشرعي منها وضموه لخزانة الدولة . ومنذ
اللعظات الأولى في كفاح المرابطين فإن عبد الله بن ياسين طبق أحكام القرآن
والسنة بشأن المغنم ، فحين استولى المرابطون على سجلماسة ودرعة طبق هذا
المبدأ يقول ابن أبي زرع « فأخذ عبد الله بن ياسين أموالهم ودوابهم وأسلحتهم
مع الإبل التي أخذها في درعة فأخرج منه خمس جميعه ففرقه في فقهاء سجلماسة
ودرعة وصلحتهم وقسم الباقي على المرابطين » (٤) وأصبح هذا المبدأ مطبقاً في
حروب المرابطين (٥) ثم فتحت صفحة جديدة من المعارك في الأندلس ،

(١) مجموع رسائل موحدية ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) S.P. Scott :History of Moorish Empire V.2, p ; 305

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٣٤ ، ص ٢٣٥ ، ٤٦٣

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ج ٢ ص ١٩ ، ت . الفلالى .

J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P ; 29 (٥)

وأحرز المرابطون انتصارات عدة على الفرنج في معارك متتابة وعلى رأسها معركة الزلاقة ، وبعد ذلك وجه المرابطون نشاطهم العسكرى للقضاء على ملوك الطوائف ، وحصل المرابطون على أموال ومغانم كثيرة ، وقد أشار الأمير عبد الله في مذكراته إلى أنواع المال التى استولى عليها يوسف بن تاشفين من مدينة غرناطة وذلك بعد استسلام أهلها^(١) يقول الأمير عبد الله « واستقصى ما كان بالقصر ، فظهر على ما يحول الناظر ، ويروى الخاطر من الأعلاق والذخيرة والحلى ، ونفيس الجواهر وأحجار الياقوت وقصب الزمرد وآنية الذهب والفضة وأطباق البلور المحكم والجرجانيات والعراقيات والثياب الرفيعة والأنماط والكلل والستائر وأوطئة الديباج مما كان فى ادخار باديس واكتسابه وأقبلت دواب الظهور من المنكب بأحمال السبيك والمسبوك^(٢) .

حتى إذا قضى الموحدون على المرابطين وسقطت مراکش ، استولى الخليفة عبد المؤمن على أموالها وسكانها وجعلهم غنيمة للموحدين يقول ابن الخطيب « ولما تم لعبد المؤمن فتح مراکش ودخلها رجع منها إلى محلته وجعل الأمناء على أبوابها مدة من شهرين فاجتمع فيها وأموالها فقسمه على الموحدين وقسم عليهم ديارهم وبيع عيال مراکش وأولادهم بيع العبيد . . . واستولى عبد المؤمن على ذخائر على بن يوسف وذخائر لمتونة مما يقصر على وصفه اللسان^(٣) ثم واصل الخليفة عبد المؤمن أعماله العسكرية فى الشمال الافريقى واستولى على مدنه حتى برقة ، وجمع أموالا ضخمة من المغانم التى حصل عليها من هذه الاعمال العسكرية ومن ذلك ما حصل عليه من أموال ضخمة عند فتحه لمدينة تونس يقول الباجى « وأغرم أهل تونس أموالا جمة وضايقهم فى اقتضاها^(٤) ودخل الموحدون فى معارك كثيرة مع الفرنج فى الأندلس حصلوا منها على أموال كثيرة ، وخرجت الرسائل تبشر بمقدار الغنائم التى

(١) Lane Pool : The Moors in Spaine P ; 181

(٢) الأمير عبد الله : مذكرات الأمير عبد الله ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ت ليفى بروفنسال .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠٨ .

(٤) الباجى : الخلاصة النقية ص ٥٥ .

حصل عليها الموحدون ومنها تلك الرسالة الصادرة من عمر وعثمان ابني الخليفة عبد المؤمن إلى الطلبة والأشياخ بأشبيلية يخبرونهم فيها بما أحرزوه من نصر ومقدار الغنائم التي حصلوا عليها من الفرنج في معاركهم بالاندلس سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م « وفي خلال مقام تلك الأيام ، بعثت خيل مباركة من الموحدين والعرب لشن الغارة في الميمنة والميسرة من تلك الأقطار والجهات فاستاقوا من الغنائم من جهة غليظة وقرباكة وبسطة وجبال شقورة عدداً جماً وسوائم كثيرة من الدواب والبقر وعشرات الآلاف من الغنم فلأت الوادى واشتملت على كريمتها الأيادي ، وتقلب الموحدون في نعم لا تحصى عدة تتناسق منها نعم فنعيم والشكر لله على ما أولاه » (١) وأيضاً حصل الموحدون على كثير من الغنائم والأموال وذلك بعد أن قضى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على ثورة ابن منغفاد بمجبل غمارة سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م وقد عتبر عن هذه الأموال تلك الرسالة الصادرة من معسكر الموحدين بمجبل غمارة باسم الخليفة إلى الموحدين والشيوخ بمدينة غرناطة بالاندلس سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م وقد جاء فيها « والذي نفل الله الموحدين أعزهم الله من ضروب المغانم والأنفال ، وذلك من البقر اثنا عشر ألفاً ، ومن الغنم سبعة وعشرون ألفاً وثلاث مائة ، ومن السبي ثلاثة آلاف وست مائة وسبعة وأربعون ومن الدواب ستمائة وسبعة عشر وهي الآن متصلة متتابعة (٢) » .

وكانت المعارك الكبرى كالزلاقة والأرك مصدراً ضخماً للمغانم ففي الأرك حصل الموحدون على كثير من هذه المغانم يقول المقرئ « وحكى أن الذي حصل لبيت المال من دروع الإفرنج ستون ألفاً ، وأما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصر لها عدد » (٣) وفي رواية أخرى أن الموحدين غنموا من معركة الأرك : ١٣ ألف أسير ومن الخيام ١٤٣ ألف ومن الخيل ٤٦ ألف ومن السلاح ٧٠ ألفاً (٤) ولا شك أن نصيب خزانة الدولة من هذه

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٧٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٢١ .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ٦ ص ١١٦ .

(٤) محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٥٢ .

المغانم كثير .

وهكذا كانت المغانم والأموال التي يحصل عليها الموحدون من هذه المعارك تشكل مصدراً هاماً من مصادر الدخل نظراً لكثرة المعارك التي خاضها المرابطون والموحدون .

٥ — المصادر :

كان حزم ولادة الأمر بالمغرب الأقصى ومراقبتهم المستمرة لعماهم ، ومحاسبتهم على ما يجنون من أموال عن طريق غير مشروع سبباً في الحصول على الكثير من الأموال وإضافتها إلى خزينة الدولة فيما يسمى بالمصادرات ، ولم تشر المراجع التي اطلعت عليها إلى وجود هذه الظاهرة بالدولة المرابطية ، حتى إذا قامت دولة الموحدين تتبع خلفاؤها ولائهم وعماهم بالمراقبة والمحاسبة فحين أساء مشرف أشبيلية التصرف سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م أمر الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن بمعاقبته ومصادرة أمواله يقول ابن عذارى « وفي سنة إحدى وسبعين وخمسة عشر أمر الخليفة أبو يعقوب بن كبة محمد بن عيسى مشرف أشبيلية في جمادى الآخرة وتولى تثقيف حاله وماله للمخزن يول بن جلداسن واستصنى ما كان عنده من المال والعتار بأنواع العذاب وأسوأ العقاب حتى ضرب نفسه بسكين كان في يده فلم يمت من ذلك ثم عذب وضرب حتى مات » (١) كذلك قام الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م بمحاسبة وزرائه وعماهم ومنهم وزيره ادريس بن جامع الذي استصنى أمواله (٢) ومشرف أشبيلية الذي أمر بسجنه والإستيلاء على أمواله (٣) وفي نفس العام سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م حاسب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن عمال فاس ومكناسة وغيرهم سواء كانوا ولاية أو مشرفين على الأموال وبعد محاسبتهم ومصادرة أموالهم فرض المحققون عليهم أموالاً يدفعونها لـ خزينة الدولة يقول ابن عذارى « فاستأصل أموالهم ورد للمخزن ضياعهم ورباعهم وترك لكل رجل منهم داراً واحدة وكان الذي قاطعوه على أنفسهم أن يعطوه ويدفعوه أربعاً ألف

-
- (١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣ تطوان .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٩ تطوان .
(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن. ص ٢٢٤ حاشية .

دينار وستين ألفاً يقسطنونها على أنفسهم وشهد العدول بذلك عليهم فعمل عليهم الرقباء حتى دفعوا المال المذكور» (١).

فلما تولى المنصور الموحدى سار على نفس سياسة أبيه من مصادرة الأموال ففي سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩ م أمر بالقبض على ابن سنان حين بلغ الخليفة أنه فرّ في إحدى المعارك « فأمر المنصور إذ ذاك باستصفاء أحواله وضم أمواله » (٢)، كذلك حين استقر الخليفة المنصور بإشبيلية سنة ٥٩٣هـ - ١١٩٦ م وحاسب عماله هناك ومن هؤلاء أبي سليمان داود بن أبي داود الذي غرّم مقداراً من المال بلغ خمسين ألفاً واستصفيت أحواله وأمواله (٣) كذلك حاسب الخليفة أبا علي عمر بن أيوب « على ما كان تحت نظره وفي اختارته من أموال النفقات والموقف عنده من سائر المرتبات عليه مال جسيم واستفهم عنه فلم يوجد له جواب فضم ديونه وجميع أطرافه وجمع نحو الخمسة عشر ألف دينار فقبضت منه وطلب باستيفاء الباقي فعجز عنه فاعتقل مع أبي سليمان » (٤).

وقد يحدث أن تصادر الخلافة أموال أحد العمال ثم تكتشف ظلم هذا الاجراء فتُرد له أمواله وهذا ما حدث لمحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف من أهل قلعة يحصب بالاندلس وقد تولى عدة أعمال للموحديين ثم غضب الخليفة المنصور الموحدى عليه ولما صفح عنه رد عليه كل ما أخذ منه يقول عباس المراكشي « فأمر المنصور بالقبض عليه وعلى ابن عمه صاحب أعمال إفريقية أبي الحسن سنة ٥٩٣هـ ثم رضى عنهما وأمر محمد بن عبد الملك أن يكتب بخطه كل ما أخذ منه فصرفه عليه ولم ينقص منه شيئاً » (٥).

وهكذا تكونت مصادر الدخل المالي من خمسة مصادر : الخراج والزكاة والضرائب والغنيمة والمصادرات .

وفرة الدخل المالي :

ساهمت المصادر المالية المتنوعة والتي كان يحصل منها قولاة الأمر من

-
- (١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٩ ، ٦٠ تطوان .
 - (٢) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ١٣٩ تطوان .
 - (٣) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ١٧٣ تطوان .
 - (٤) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ١٧٣ ، ص ١٧٤ تطوان .
 - (٥) عباس المراكشي : الاعلام ج ٣ ص ٤٠ ، ٤١ .

المرابطين والموحدين على الأموال اللازمة والتي مكنتهم من تحقيق ما كانوا يرجونه من تجهيز حملات وإقامة منشآت والإنفاق على أوجه الإصلاح والتعمير في أرجاء الدولة المترامية الأطراف ، وكان الدخل المالى فى دولة المرابطين من الكثرة بحيث وفى ما احتاجه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من أموال لإنفاذه على حملاته العسكرية المتعددة وغير ذلك من شئون الإصلاح فى البلاد يضاف إلى ذلك أنه ترك فى خزينة الدولة بعد وفاته مقداراً كبيراً من المال (١) وقدرت هذه الثروة بسبعة ملايين ونصف مليون من الفضة وزناً ، ومائة وخمسة وعشرين ألفاً من الذهب وزناً (٢) وفى رواية ابن أبى زرع « يقال أنهم وجدوا فى بيت المال بعد وفاته أى وفاة يوسف بن تاشفين — ثلاثة عشر ألف ريع من الورق وخمسة آلاف وأربعين ربعاً من دنانير الذهب المطبوعة » (٣)

فلما قامت دولة الموحدين وامتد نشاط الموحدين العسكرى حتى برقة شرقاً وصارت المنطقة تخضع كلها للسلطة المركزية، فى مراكز وتجي إليها الأموال فى كل عام ، ازداد الدخل المالى ، وجمعت الأموال الكثيرة (٤) وقد أشار إلى كثرة الجبايات ابن خلدون بقوله « وقطر المغرب وإن كان فى القديم دون إفريقية فلم يكن بالقليل فى ذلك العصر وكانت أحواله فى دولة الموحدين متسعة وجباياته موفورة » (٥) وهذا يفسر لنا كثرة البناء والتعمير والرخاء الذى شهدته البلاد فى عهد الموحدين ، وتوفر الأموال فى أيدي الناس يقول المراكشى « وكان — أى يوسف بن عبد المؤمن - شديد الملوكة ، بعيد الهمة ، مخياً جواداً استغنى الناس فى أيامه وكثرت فى أيديهم الأموال » (٦) وقد

(١) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٦٠ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٤٨ ، الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢١٢ .

(٢) S.P. Scott ; "History of Moorish Empire, V.2, P 239

(٣) ابن أبى زرع : الأنيس ج ٢ ص ٣٧ ت الفيلالى .

(٤) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٣ ت الفيلالى ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٥ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ١٠١ .

Budgett-Meakins ; The Moorish Empire, P : 76

(٥) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ١٣٦٧ .

(٦) المراكشى : المعجب ص ٢٣٨ .

أعطانا المراكشي مقدار ما كان يجبي من إفريقية في عهد يوسف بن عبدالمؤمن للتدليل على كثرة الأموال بقوله « وكان الذي يسهل عليه — أي على أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن — بذل ما جبل عليه من ذلك سعة الخراج وكثرة الوجوه التي يتحصل منها الأموال ، كان يرتفع إليه خراج إفريقية وجملته في كل سنة وقر مائة وخمسين بغلا ، هذا من إفريقية وحدها ، خلا بجاية وأعمالها ، وتلمسان وأعمالها والمغرب ومدينة سلا وأعمالها وسبته وأعمالها.. وجزيرة الأندلس قاطبة . . مضافاً إلى مراكش وأعمالها . . » (١) واستطاع ولاة الأمر عن طريق هذه الأموال الكثيرة مواجهة أوجه النفقات المختلفة والتي تطلبها تلك المملكة المترامية الأطراف .

ثالثاً — النفقات وتنوعها :

تعددت أوجه الإنفاق بالمغرب الأقصى في ظل المرابطين والموحدين ويمكننا أن نجملها تحت بنود أساسية : نفقات الجيش — المراتب — نفقات البناء والتعمير — المنح والهدايا .

١ — نفقات الجيش :

يحتل الإنفاق على الجنود ومعداتهم سواء كانوا في البر أو البحر النصيب الأوفى من الدخل المالي ، باعتبار أن الجهاد احتل ركنها مامن نشاط ولاة المرابطين وخلفاء الموحدين نظراً للظروف التي أحاطت بهم من مواجهة لعدو متربص بالأندلس يحاول الاستيلاء عليها ، ومن هنا تعددت الحملات العسكرية برّاً وبحراً المتجهة إلى الأندلس ، وغير ذلك من الحملات التي اتجهت إلى شرق البلاد ، ومنذ اللحظات الأولى اهتم يوسف بن تاشفين بتكوين جيش كبير مزود بكل أنواع السلاح وذلك حتى يدعم مركزه في الحكم ، وفي نفس الوقت في مواصلة عملية الجهاد المستمرة في الأندلس ، ومن هنا اشترى الأنواع المختلفة من السلاح ليدعم بها قواته ففي سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م بعث إلى الأندلس بأموال كثيرة ليشتري ما يلزمه من أنواع السلاح المختلفة (٢) وقد

(١) نفس المرجع السابق ص. ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية . ص. ٢٢ .

(م ١٤ — الحضارة)

تضاربت الأقوال في تعداد جند يوسف بن تاشفين ، فبعض الروايات تذهب إلى أن تعداد جيشه كان يبلغ مائة ألف مقاتل (١) وبعضها يشير إلى أن عدد جنده كان حوالى أربعين ألف مقاتل (٢) ولا شك أن تعداد الجند يختلف من معركة إلى أخرى بحسب أهمية المعركة وخطورتها ، ففي معركة الزلاقة كان عدد المتطوعة والمرزقة في جيش المرابطين عشرين ألفاً (٣) وفي رواية أخرى أنه بلغ تعداد الجيش الإسلامى ما بين ١٣٠ ألفاً إلى ١٥٠ ألفاً (٤) وهو رقم مبالغ فيه ، ولو أخذنا برواية المراكشى والتي تشير إلى أن عدد المتطوعة كان عشرين ألفاً وأضفنا إلى هذا العدد ما يقاربه من قبائل المرابطين لصار العدد أربعين ألف مقاتل فإذا كان مرتب الجندى كما يقول ابن الخطيب خمسة دنائير في الشهر (٥) لصارت مرتبات الجند مائتى ألف دينار ولا شك أن هذا مبلغ كبير سوى ما تتكلفه الخزانة من عتاد وسلاح وموئ تزود بها جنودها .

فلما تولى على بن يوسف تابع سياسة أبيه من مواصلة الجهاد في الأندلس وتجهيز الكتائب لمواجهة ثورة ابن تومرت التي اندلعت في البلاد يقول ابن الخطيب « ولم يزل أمير المسلمين على بن يوسف يوالى الحروب على أصحاب المهدي من كل جانب ويبعث لمحاربتهم الجيوش والكتائب . . . ويتفق عليهم بيوت الأموال رجاء دفع دائهم العضال فدامت أكثر مدته في حروب معهم وكروب » (٦) .

واحتل الاتفاق على الأسطول المرابطى جزءاً من النفقات الحربية حتى يتمكن المرابطون من تأمين سواحل المغرب الأقصى والأندلس ضد هجمات القرصنة والقراصنة ، وفي نفس الوقت إقامة جسر بين المغرب الأقصى والأندلس لنقل الجنود والمعدات إلى الأندلس ومن هنا صار للأسطول المرابطى شأن كبير مما استلزم معه كثير من النفقات في تشييد السفن وتجهيزها وقد

-
- (١) أشباح : تاريخ الأندلس ج ١ ص ٧١ .
S.P. Scott ; History of Moorish Empire, V.2 P ; 196.
(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٢٣ .
(٣) المراكشى : المعجب ص ١٣٣ .
(٤) أشباح : تاريخ الأندلس ج ١ ص ٨٥ .
(٥) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٩ .
(٦) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٨١ ، ٨٢ .

أشار ابن خلدون إلى أهمية أسطول المرابطين بقوله « وكان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد - أى عهد المرابطين - موفور الأساطيل ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرة » (١) .

حتى إذا قامت الدولة الموحدية وجدنا الجيش يحظى بإهتمام خلفاء الموحدين من حيث العدد والعدة واستلزم ذلك الكثير من الأموال التي تنفق عليه وذلك ليتناسب مع النشاط العسكرى الكبير الذى قام به الخليفة عبد المؤمن ومن جاء بعده من أبنائه فى ميدان الأندلس وشرق البلاد ، واختلفت أعداد الجند من معركة إلى أخرى فحين عزم الخليفة عبد المؤمن على غزو إفريقية اجتمع له من الجند مائة ألف مقاتل ومن الأتباع والسوقة أمثالهم (٢) ونفس هذا العدد اجتمع له حين عزم على الخروج إلى الأندلس سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م (٣) وفى رواية أخرى أنه اجتمع له حين عزم على الخروج إلى الأندلس من الموحدين وقبائل زناته أزيد من ثلثمائة ألف فارس ومن جيوش المطوعة ألف فارس ومائة ألف راجل (٤) ويشير الميلى إلى أن عدد جند الموحدين أثناء الحرب يبلغ أربعمائة ألف فارس عدا المشاة وأن جيش الناصر الذى خرج إلى الأندلس سنة ٦٠٨هـ بلغ المليون جندي (٥) وبالرغم أن هذه الأرقام يبدو عليها طابع المبالغة إلا أنها تعطينا إحساساً بمدى ضخامة جيش الموحدين .

كذلك كان عدد جند الموحدين والذين يرتقون من وراء انتسابهم للجنسية بمدينة مراكش وحدها عشرة آلاف جندي تبعاً للإشارة التي ذكرها المراكشى حين قال « ثم من ذكرنا من الموحدين صنفان : فالصنف الأول يدعون الجموع وهم المرتزقة الذين يكونون بمراكش لا يبرحونها والصنف الآخر يدعون العموم وهم الكائنون ببلادهم لا يحضرون إلى مراكش إلا فى النفي الأعظم ، وعدد المرتزقة الذين بمراكش من قبائل الموحدين وسائر من ذكرنا من الأجناد على ما صح عندي تلخيصه عشرة آلاف نفس هؤلاء

-
- (١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٥ .
 - (٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٣٦ .
 - (٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢١٨ .
 - (٤) ابن أسى دينار : المؤنس ص ١١٢ .
 - (٥) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٢٦ .

الذين بمراكش خارجاً عما في سائر البلاد ومن الموحدين وأصناف الجند» (١) فإذا كان عدد جند العاصمة من المرتزقة والذين لا يرحونها فضلاً عن المدن الأخرى لتبين لنا مدى ضخامة جند الموحدين ، هذه الأعداد الكبيرة كانت لها مرتبات مع ما تأخذ من منح وأموال أثناء القيام بحملة من الحملات ، يضاف إلى ذلك ما يوزع عليها أثناء الاحتفالات العامة ، أما بالنسبة لمرتباتهم فإنها كانت ثلاث مرات سنوياً وذلك بالنسبة لجند الموحدين أما بالنسبة لغيرهم من جنود الغز فإن مرتباتهم كانت شهرية وقد علل المنصور الموحدى ذلك بأن الموحدين لهم الإقطاعات التى تدر عليهم الأموال يقول المراكشى «فأحسن نزلهم — أى أحسن المنصور الموحدى نزل الممالك الغز — وبالع في تكرمهم وجعل لهم مزية ظاهرة على الموحدين ، وذلك أن الموحدين يأخذون الحامكية ثلاث مرات في كل سنة ، في كل أربعة أشهر مرة ، وجامكية الغز مستمرة في كل شهر لا تختل وقال : الفرق بين هؤلاء وبين الموحدين أن هؤلاء غرباء لا شيء لهم في البلاد يرجعون إليه سوى هذه الحامكية والموحدون لهم الإقطاع والأموال المتأصلة» (٢) وفي رواية العمرى أن مرتبات الموحدين في الدولة الحفصية وهى امتداد للدولة الموحدية في إفريقية كانت أربع مرات في السنة «وهذه البركات تفترق أربع مرات في كل سنة ، في عيد الفطر تفرقة ، وفي رجب تفرقة وفي ربيع الأول تفرقة وفي عيد الأضحى تفرقة» (٣) هذا بالنسبة للمرتبات الثابتة الدورية لجند المرحدين ، وإن كانت المراجع لم تعطينا مقدار مرتب كل جندي ، إلا أن المنح التى كانوا يأخذونها عند الخروج إلى المعارك تعطينا صورة تقريبية لمرتب كل جندي ، وقد اعتاد الموحدون عند الخروج إلى معاركهم تمييز الجند أى استعراضهم وتفريق الأموال عليهم فالخليفة عبد المؤمن حين عزم على التوجه إلى بجاية مير جيوشه وفرق فيهم الأموال (٤) وكذلك المنصور الموحدى حين وصل من مراكش إلى الأندلس واستقر

(١) المراكشى : المعجب ص ٣٤١ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٨٩ .

(٣) العمرى : وصف إفريقية والمغرب ص ١٨ ت حسن حسنى

عبد الوهاب . تونس .

(٤) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ١٤٨ ت الفيلىلى ، السلاوى :

الاستقصا ج ٢ ص ١٢٠ .

بأشبيلية مثير الجند وأعطى البركات (١) وقد أعطانا ابن صاحب الصلاة تصويراً دقيقاً لعملية التمييز التي قام بها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن عند الاستعداد للعبور إلى الأندلس سنة ٥٦٦ / ١١٧٠ م وقد بدأ التمييز بحشد الأعداد الوفيرة من جند الموحدين وغيرهم وبدأ بتزويدهم بالملابس والسلاح يقول ابن صاحب الصلاة « ولما كان غرة جمادى الأخيرة من السنة المؤرخة — سنة ٥٦٦ هـ — أمر سيدنا الخليفة بتمييز الموحدين على عدد قبائلهم ومنتهى مناوهم ، وتربية صفاتهم فامتثل ذلك وتمادى بتمييزهم مدى خمسة عشر يوماً ، وقسم عليهم الخيل المسومة والحياد الروقة على أعدادها المذكورة ، وكذلك على العرب الوافدين وأعطى للجميع الرماح والدروع البيض والسيوف وأنعم على الجميع بما استعد به لهذه الغزوة الحافلة من الآلات المذكورة » (٢) حتى إذا فرغ المكلفون بتوزيع السلاح من مهمتهم ، جلس الخليفة ليعاين بنفسه توزيع الأموال والمنح على الجنود ورؤسائهم « وجلس أمير المؤمنين — أى يوسف ابن عبد المؤمن — فى مجلسه العالى وأشياخ الموحدين معه وأشياخ طلبة الحضر وأشياخ العرب وأمر وزيره أبا العلا ادريس المذكور أن يأمر الخزانين باحضار الأموال بين يديه من الدنانير والدرهم فأحضرت أمامه وعلت أكداساً ، وجنسها من الذهب والفضة أجناساً ، وقدم الموحدين فى تنفيذ البركة لهم ، فخرج للفارس الكامل منهم عشرة دنانير ، ولغير الكامل ثمانية دنانير وللراجل خمسة دنانير ، ولغير الكامل ثلاثة دنانير ، وأمر للعرب ببركتهم فخرج للفارس الكامل منهم خمسة وعشرون ديناراً ، ولغير الكامل خمسة عشر ديناراً والراجل سبعة دنانير وخرج لأشياخ العرب لكل شيخ منهم خمسون ديناراً ، ولكل رئيس منهم على قبيلة مائتا دينار ، وكسا جميعهم بالقباطى والقمص والغفائر والعمائم » (٣) ، ومن هذه الأعطيات للجنود ورؤسائهم يتضح ضخامة الأموال التي كان يحصل عليها الجنود كمنح أثناء الخروج للمعارك فضلاً عن الملابس وأنواع السلاح المختلفة وقد أعطانا ابن عذارى مقدار المنح المالية فى أثناء غزو الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لقفصة سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م « كان — أى

(١) الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ص ١٣ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٤٣٦ ، ٤٣٧ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٧ .

يوسف بن عبد المؤمن يعطى البركة لعساكره فى غزوته لقفصة ألف دينار
تمادى فى ذلك مدة غزوته إلى أن انصرف سوى العاوفات والمواسات والمرافق
فى كل منزل « (١) .

وفى الاحتفالات العامة والمناسبات الكبيرة التى يحتفل فيها الخلفاء
بالعاصمة كان الجند يحظون بالمنح والأموال ومن ذلك الاستقبال الكبير الذى
قام به الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦١ / ١١٦٥ م فى استقبال أخيه
السيد أبى حفص القادم من الأندلس ، وبعد مراسم الاحتفال وإطعام الطعام
وزعت الأموال على الموحدين يقول ابن صاحب الصلاة « وأنعم — أى
الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — على جميع الناس الغازين والقاطنين وعلى طلبة
الحضر وأدرت عليهم البركة الحافلة من الذهب والدرهم : لكل فارس
عشرون ديناراً ، ولأعيان الموحدين وأشياخهم لكل واحد مائة دينار ولأشياخ
العرب لكل واحد مائة دينار ولسائر عسكر العرب عشرون ديناراً لكل فارس
فاجتمع لجميع الناس السرور والمال الحاضر الموفور » (٢) .

وبجانب هذه الأموال كانت هناك المواساة وهى غلة تفرق عليهم عند
تحصيل الغلال التى فى المخازن (٣) وكان يخرجها خلفاء الموحدين وقد وصف
ابن صاحب الصلاة وابن عذارى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بأنه كان
صادقاً رأيه للموحدين بالمواساة فى كل شهر وبالبركات مدى الدهر (٤) وقد
أشار العمرى إلى أن الموحدين فى الدولة الحفصية كانوا يأخذون المواساة
فى كل سنة ومعها الإحسان وهو مبلغ يفرق عليهم وكلاهما أى المواساة
والإحسان من السنة إلى السنة (٥) فالمرتبات والتميز عند المعارك والمنح مع
المواساة والإحسان كلها نفقات كان يحصل عليها الجنود من بيت المال .

وبجانب هذا كان هناك الإنفاق على الأسطول وجنوده ، وقد اهتم

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٣١ ، ٣٢ تطوان .

(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٣) العمرى : وصف إفريقية ص ١٩ ت حسن حسنى عبد الوهاب .

(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٣٣ ، ابن عذارى :

البيان المغرب ج ٤ ص ٧٠ تطوان .

(٥) العمرى : وصف إفريقية ص ١٩ ت حسن حسنى .

عبد الوهاب .

الموحدون اهتماماً كبيراً بإنشاء الأساطيل المختلفة لتواجه نشاط العدو البحري ولتحمي تلك الامبراطورية الضخمة ومن هنا اهتم الخليفة عبد المؤمن بإنشاء أسطول ضخم بلغ أربعائة قطعة^(١) وفي رواية أخرى أنه بلغ سبعمائة قطعة^(٢) ولا شك أن هذا العدد الكبير والمتنوع من السفن احتاج للقدر الكبير من المال حتى يمكن تجهيزه وإعداده ، وقد أشار ابن خلدون إلى ضخامة أسطول الموحدين بقوله « ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد »^(٣) وهذا العدد الكبير من السفن احتاج عدداً كبيراً من الجند المزودين بمختلف أنواع الأسلحة ، وكان هؤلاء الجند يحصلون على مرتباتهم وأرزاقهم ولا يحرمون المكافآت والمنح إذا أحرزوا نصراً على عدوهم فحين حقق الاسطول الموحدى انتصاراً على أسطول الفرنج في المهديّة في عهد الخليفة عبد المؤمن وزع عليهم قدرأ من المال^(٤) يقول أبو عبد الله محمد « واستولى — أى أسطول الموحدين على ثمان قطع منه — أى من أسطول الفرنج — فاجتمع بقية الأسطول وولوا منهزمين ، فسجد عبد المؤمن شكراً لله تعالى وفرق في غزاة الاسطول اثني عشر ألف دينار مؤمنية »^(٥).

وهكذا كانت نفقات الحرب والجند تشغل حيزاً كبيراً من الدخل المالى نظراً لكثرة الجنود والمعارك واهتمام ولاية الأمر بجنودهم .

٢ - المرتبات :

شكلت المرتبات والأرزاق المصدر الثانى من أوجه الانفاق من بيت المال :

(١) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ١ ص ٤٤٧ .
عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١٨ ، أحمد بن عبد السلام : الريف بعد الفتح الإسلامى ص ٥١ ، الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٦٦ .

Budgett ; The Moorish Empire P ; 74.

(٢) ابن أبى دينار : المؤنس ص ١١٢ .
(٣) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٥ .
(٤) د. أحمد مختار العبادى : دراسات في تاريخ المغرب ص ٢٣٥ ،
د. السيد عبد العزيز سالم ود. العبادى : المجرية الإسلامية في المغرب والاندلس ص ٢٥٣ .
(٥) أبو عبد الله محمد : الحلل السننسية : ص ٢٥٢ .

وكان ولاية الأمر في الدولة المرابطية يجرون المرتبات والأرزاق على الهيئة الادارية بالبلاد ومن هؤلاء القضاة الذين كانوا ينالون مرتبات معتادة وقد أشار النباهي في ترجمته للقاضي أبي محمد عبد الله الوحيدى الذى ولى القضاء برية سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م ثم استشعر من نفسه مللاً فاعتزل الخدمة وامتنع عن أخذ الجراية المعتادة يقول النباهي « ثم استشعر من نفسه قصور ملالة وفطور شائعة فآلى إلى الزهادة وقبض يده عن أخذ الجراية المتعادة — وصحبها المعتادة — لأمثاله من القضاة » (١).

كذلك كان للفقهاء والعلماء منزلة كبيرة في دولة المرابطين ، ومن هنا أجريت عليهم الأرزاق ، يقول ابن القاضي « ورد — أى يوسف بن تاشفين أحكام البلد إلى القضاء وأسقط ما دون الاحكام الشرعية وكان محباً في الفقهاء والصلحاء ومقرباً لهم صادراً عن رأيهم وأجرى عليهم الارزاق من بيت المال » (٢).

حتى إذا قامت الدولة الموحدية لمسنا مدى تعدد أنواع المرتبات فالوزراء ورجال البلاط والحشم والقضاة والفقهاء والطلبة كانوا ينالون مرتباتهم من خزينة الدولة (٣) وقد أعطانا القلقشندي مقدار ما كان يأخذه أشياخ الموحدين من مرتبات في ظل الدولة الحفصية « لهم — أى أشياخ الموحدين الكبار — مع ذلك راتب يفرق عليهم في طول السنة يسمونها البركات بمثابة الخواملك بمصر يفرق أربع مرات في السنة . . نصيب كل واحد منهم من ذلك أربعون ديناراً مسماة ، تكون بثلاثمائة درهم عتيقة . . فيكون جملة ما لكل واحد منهم في كل سنة مائة وعشرين ديناراً مسماة عنها ألف ومائتا درهم مغربية » (٤) وهنا خطأ في الحساب لأن الفرد يحصل على أربعين ديناراً في أربع مرات يصبح مجموعها مائة وستين ديناراً وليس مائة وعشرين ديناراً ، وهذا ما كان يحدث في الدولة الحفصية ، وقد كانت ولاية موحدية قبل أن ينفصل بها أحد أشياخ

(١) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص ١٠٤ ت ليفى بروغنسال .

(٢) ابن القاضي : جفوة الاقتباس ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٣) أشياخ : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٢٤٩ .

(٤) القلقشندي : صبيح الاعشى : ج ٥ ص ١٤٠ ، ١٤١ .

الموحدين وهو الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص . ومن هنا جاز لنا أن نقول أن احتمال تشابه مراتب أشياخ الموحدين في الدولة الحفصية كان مقارباً لما كان يحصل عليه أشياخ الموحدين بالمغرب الأقصى . ويلحق بهذا مرتب القضاة في الدولة الحفصية حيث كان قاضي الجماعة يحصل على مرتب خمسة عشر ديناراً يقول العمرى « ومبلغ ما لقاضي الجماعة فهو خمسة عشر ديناراً مسمى في كل شهر وكان له معها عليق لبغلته » (١) . وربما كان نظيره في الدولة الموحدية يحصل على نفس المرتب الشهري .

وكان الطلبة ينعمون بالمراتب والأرزاق ، والطلبة هم أبناء القبائل الذين جمعهم الخليفة عبد المؤمن وأعدّهم اعداداً خاصاً في مدرسة أنشأها لهم ليكونوا هم الطبقة الإدارية بالبلاد ، وكانت نفقتهم وسائر مئونتهم من خزانة الدولة (٢) واهتم خلفاء الموحدين الذين جاءوا بعد الخليفة عبد المؤمن بالطلبة وأجروا عليهم المراتب والأرزاق (٣) وقد بينت الرسالة الصادرة من الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن بمراكش سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م إلى الموحدين بأغرناطة اهتمام الخليفة بدفع مراتب الطلبة بها وقد جاء في الرسالة « وقد خاطبنا — أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — الطلبة الذين بأشبيلية أن يدفعوا للموحدين الذين بأغرناطة من البركة — أى المراتب — مثل ما أخذه أهل قرطبة » (٤) ، وبرغم ما أجراه الخليفة عبد المؤمن على هؤلاء الطلبة من أرزاق ومراتب إلا أنه لم يضيع حال الطلبة الموجودين بعاصمة الخلافة لذا استشار من حوله في إعطائهم قروضاً من بيت المال يقول ابن القطان « ومنها أنه — أى عبد المؤمن ابن علي — أحس بضعف طلبة أهل مجلسه المكرم من طلبة الحضرة منهم أبو محمد المالقي وغيره فقال لأشياخ الموحدين أعزّهم الله تعالى : هؤلاء طلبة غرباء ضعفاء والإقلال عليهم ظاهر فنرى أن ندفع إليهم مالا نقارضهم فيه ،

(١) العمرى : وصف إفريقية ص ٢٠ ت حسن حسنى عبد الوهاب

(٢) محمد النونى : العلوم والآداب ص ٢٤ ، عنان : عصر المرابطيين

القسم الأول ص ٤٠٣ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٨٦ ، ابن أبى زرع :

الأنيس ص ١٥٧ طبع حجر ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٥٦ .

ويتجرون به ويردون السلف لنا ، فقالوا : نعم فأسلفهم من مال المخزن ألف دينار لكل واحد فاكْتَسَبُوا منها وكانت أصل غناهم ولم يأخذها منهم أبداً^(١).

وتمتعت الطوائف الأخرى من أطباء ومهندسين وغيرهم من كانوا يعملون بخدمة الموحدين بالأرزاق والمرتبات وقد أشار عباس المراكشي إلى أن ابن طفيل طبيب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن كان يأخذ جامكية — أى مرتباً — مع غيره من الموظفين « وبلغني أنه كان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد إلى غير هؤلاء من الطوائف »^(٢).

وهكذا شملت المرتبات أنواع متعددة من الموظفين والمشتغلين في خدمة الحلفاء .

٣ — نفقات البناء والتعمير :

اهتم ولاية الأمر من المرابطين والموحدين بالبناء والتعمير ، وتنوعت هذه المباني وشملت مبان عسكرية كالقلاع والحصون والأسوار ومنشآت عامة كالمساجد والمدارس والمستشفيات والحمامات والفنادق والقناطر والسدود ، وهذه المنشآت استلزمت المبالغ الضخمة حتى يتم إنجازها ، وكان مصدر ذلك بيت المال ، ولن أتعرض الآن لهذه المنشآت والمباني فسوف أفرد لها فصلاً بإذن الله ، ولكنني سوف أتخير بعض النماذج منها سواء في الدولة المرابطية أو الموحدية وتكاليفها حتى يتضح مدى ما كان ينفقه ولاية الأمر من أموال على البناء والتعمير .

ففي الدولة المرابطية حين عزم على بن يوسف على بناء الجامع الكبير بالعاصمة مراكش كلفه ذلك سبعين ألف دينار ، يقول ابن المؤقت « وبنى على بن يوسف أيضاً الجامع الأعظم المنسوب إليه اليوم والمثار الذي عليه وأنفق عليه سبعين ألف دينار أخرى »^(٣) وقيل أنه أنفق عليه نحو الستين ألف دينار^(٤) وحين أراد تسوير مدينة مراكش استجابة لنصيحة ابن رشد خوفاً

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٧ ت. د. محمود مكي .

(٢) عباس المراكشي : الأعلام ج ٣ ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ١ ص ١٤ .

(٤) عباس المراكشي : الأعلام ج ١ ص ٩٧ .

من هجوم عبد المؤمن بن علي فان ذلك كلفه سبعين ألف دينار^(١) وفي رواية محمد الشطبي أن ذلك تكلف ستين ألف دينار يقول محمد الشطبي « وبويع ابنه علي بن يوسف في مراکش فجاء الإمام أبو الوليد بن رشد من قرطبة لعقد البيعة لعلي ، فقال له لا يحل لك أن تدع هذه المدينة بلا سور . . فشرع في بناء السور وانفق عليه ستين ألف دينار أخرى »^(٢).

ونال البناء والتعمير سواء أكان بالمغرب الأقصى أو الأندلس إهتمام وعناية خلفاء الموحدين فعبد المؤمن بن علي بعد أن اتسعت مملكته وتوطد سلطانه أمر ببناء مدينة الفتح على جبل طارق وانفق في سبيل ذلك الأموال الجمة يقول الحميري « وكان أحد خلفاء بني عبد المؤمن — وهو عبد المؤمن ابن علي — أمر ببناء مدينة جبل طارق ، فندب إليها البنائين والنجارين وقطاع الحجر للبنيان والحيار من كل بلدة وخطت فيه المدينة ، وقدم إليها من المال ما يعجز كثرة ، واتخذ فيها الجامع وقصراً له ، وقصوراً تجاوره للسادة بنيه وتولى العمل في ذلك وسميت بمدينة الفتح »^(٣).

أما الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فإنه وجه عنايته وإهتمامه للبناء والتعمير سواء في المغرب أو الأندلس ، وقد حظت الأندلس بإهتمامه ففي سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م حين توجه إلى أشبيلية أمر بعض العارفين بشئون البناء والغرس ببناء القصور وأن تحاط هذه القصور بمساحات واسعة من الحدائق والتي غرس بها الزيتون والأشجار والأعنان وقد تكلف ذلك أموالاً طائلة صرفت من خزينة الدولة^(٤) وفي نفس العام أمر ببناء الجامع المكرم بأشبيلية وعدة منشآت أخرى وانفق في سبيل ذلك أموالاً جمة^(٥).

حتى إذا تولى المنصور إهتم إهتماماً كبيراً بالبناء فقبل توجهه إلى معركة

(١) نفس المرجع السابق ج ١ ص ٩٧ .

(٢) محمد الشطبي : كتاب الجمان في أخبار الزمان ورقة ٢١٠ مخطوط .

(٣) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ١٤١ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

(٥) ابن أبي زرع الأنيس ج ٢ ص ١٨٦ ت الفيلالي ، السلاوي :

الاستقصا ج ٢ ص ١٥١ .

الأرك أمر ببناء عدة قصور وجوامع وصوامع بالعاصمة مراکش ، فلما عاد استفسر عن هذه المباني فوجدوها قد تمت على خير ما تكون وأنفق عليها أموالاً كثيرة (١) وأثناء وجوده بأشبيلية تمم أعمال البناء في جامع أشبيلية وتشيد منارته وصنع له التتافيح الذهبية التي تكلفت كثيراً وقد بلغ قيمة ما موهبت به من الذهب مائة ألف دينار ذهباً (٢) وبني المنصور الموحدى مستشفى كبيراً بمدينة مراکش وكانت نفقاته اليومية ثلاثين ديناراً (٣) وبذلك يتكلف المستشفى وحده من النفقات سنوياً ما يقرب من أحد عشر ألف ديناراً ، وقد أحس المنصور الموحدى بالندم حين وفاته وذلك لإنفاقه الأموال الكثيرة في بناء مدينة رباط الفتح يقول ابن أبي زرع « قال — أى المنصور الموحدى في مرضه الذى توفى فيه — ما ندمت على شئ فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أنى لم أفعلها . . . والثانية بناء رباط الفتح أنفقت فيه من بيت المال وهو صعد لا يعمر » (٤) .

٤ — نفقات متنوعة :

لم تكن مصارف بيت المال قاصرة على الجيش والمرتبات والإنشاء والتعمير فحسب ، بل كانت هناك أوجه أخرى للإنفاق لحأ إليها ولاية الأمر بالمغرب الأقصى نظراً لظروف وأوضاع واجهتهم ، ومن ذلك الإنفاق على هؤلاء الأمراء والقادة الذين استولى ولاية الأمر بالمغرب الأقصى على أوطانهم وممتلكاتهم ، وقد واجه المرابطون هذا الموقف حين قضى يوسف بن تاشفين على دول الطوائف بالأندلس واستولى على ممتلكاتهم وفي نفس الوقت أرسل بعض هؤلاء الأمراء إلى المغرب الأقصى ليكونوا تحت رعايته ومراقبته ، وقد استلزم ذلك الإنفاق عليهم يقول الأمير عبد الله في مذكراته « وأمرنا — أى يوسف بن تاشفين بإنزال الأمير عبد الله وابن عباد وغيرهم من أمراء

(١) عباس المراكشى : الأعلام ج ١ ص ٩٢ ، ٩٣ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٥ .

(٢) ابن أبي زرع : الانيس المغرب ص ١٦٦ طبع حجر .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٨٧ .

(٤) ابن أبي زرع : الانيس المطرب ص ١٦٧ طبع حجر ، السلاوى :

الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٦ .

الأندلس — أن نستوطن أغمات فأثيناها ولقينا من أمير المسلمين كل جميل ، وأنزلنا بداره الصغرى في الحريم ، ولم يزل يفتقدنا من إنعامه كيف ما هيا الله على يديه » (١) وفي موضع آخر يذكر الأمير عبد الله أن يوسف بن تاشفين أرسل له مبلغ ثلاثمائة دينار « ثم أنه وافأني من عند السلطان ثلاثمائة دينار أخرى وأنا بمكناسة وخاطبني بكتاب يعدني بكل جميل ويقول لي : لا أنساك ما بقيت فسرني ذلك . . » (٢).

وتحمل بيت المال نفقات أكثر في ظل الموحدين نظراً لاتساع الدولة مع كثرة من دخل في طاعة الموحدين ، وكان من يسرع في مبايعة الموحدين من الأمراء والقبائل والأفراد يتمتع بوضع اقتصادي خاص ، فضلاً عن الجوائز والإقطاعات التي يحصل عليها ، فأهل شريش بالأندلس حين دخلوا في طاعة الموحدين ، أطلق عليهم الموحدون : السابقون الأولون ، وحررت أملاكهم وكانوا مقدمين عند الخليفة على سائر الوفود (٣) كذلك وفد أشبيلية حين أقبل على الخليفة عبد المؤمن يعلن بيعته قبول بالترحيب ومنحوا الجوائز والإقطاعات لجميع الوفود سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م (٤) وحين استولى الخليفة عبد المؤمن ، على بجاية واستسلم يحيى بن العزيز فإنه أرسل ومن معه من خاصته إلى مراكش حيث عاش في رغد من العيش وأجريت عليه الأرزاق من بيت المال (٥) . وقد وصف المراكشي الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بأنه كان جواداً سخياً حيث أعطى هلال بن محمد بن سعد — ابن مردنيش — صاحب شرق الأندلس اثني عشر ألف دينار في يوم واحد (٦) وحين التجأ فرنانده راييس

(١) الأمير عبد الله : مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧١ تحقيق ليفي بروفنسال .

(٢) الأمير عبد الله : مذكرات الأمير عبد الله ص ١٦١ ت ليفي بروفنسال .

(٣) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٤) ابن سعيد : نزهة الأنتظار ج ١ ص ١٨١ .

(٥) العمري : مسالك الأبصار ج ١٦ قسّم ٢ ص ٣٢٧ ، النويري :

نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٢ ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦

ص ٢٣٦ ، أبو عبد الله محمد : الحلل السنديسية ص ٢٤٩ ابن أبي زرع :

الأنيس ج ٢ ص ١٥١ ت الفيلاي .

(٦) المراكشي : المعجب ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

النصراني صاحب ترجالة ليكون في طاعة الموحدين ، فإنه وصل ومن معه إلى مراکش سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م وقوبل بالإحسان والمبرة يقول ابن صاحب الصلاة « وأقام — أي فرنانده — في الحضرة العلية خمسة أشهر تحت إحسان من الأمر العالي وامتنان وعطاء جزيل واسكان كفيل وألف قلبه بالأنعام الحفيل حتى كاد أن يسلم »^(١) وفي عهد الناصر الموحدي حين دخل يحيى بن غانية في طاعة الموحدين سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م فان الناصر وصله « من الصلوات النفيسة بما لا قيمة ولا يصل بمثله إلا الخلفاء »^(٢) ولا شك أن أموالا كثيرة صرفت في مواجهة الإنفاق على هؤلاء الامراء والقادة .

وكانت هناك معونات عاجلة تصرف لأهل المدن التي يصيبها العدو بأضرار جسيمة فأهل زويلة وهي مدينة قريبة من المهدية حين استنجدوا بالخليفة عبد المؤمن لما أصابهم على يد الفرنج ، وعدهم بالتأييد والمعونة وصرف لهم معونة عاجلة مقدارها ألفي دينار^(٣) يقول النويري « كان الفرنج قد تغلبوا على مدينة المهدية وملكوها في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . . . وفعلوا بمدينة زويلة الأفعال الشنيعة من القتل والنهب والتخريب فسار أهلها إلى عبد المؤمن وهو بمراكش يستنجدونه ويستخبرونه فأكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين وأنه ليس في ملوك لإسلام من يقصد غيره فأطرق ثم رفع رأسه وقال أبشروا لا نصرنكم ولو بعد حين وأمر بإنزالهم وأطلق لهم ألفي دينار »^(٤) كذلك حين استغاث أهل قونكة بالأندلس بالخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م لما أصابهم على يد الفرنج فإنه أمر باحصاء سكانها وصرف لهم الاعانات العاجلة .

وبجانب أموال الغوث والنجدة ، كانت هناك الأموال التي تفرق على هيئة منح ومن هذه المنح ما يكون عاماً توزع على الشعب جلباً لمحبته ، وتودداً إليه وخاصة في مناسبة تولي الحكم ، فيوسف بن تاشفين حين شرع في التمكن

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(٢) المراكشي : المعجب ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٧٣ ، السلاوي : الاستقصا

ج ٢ ص ١٣٥ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٤ .

لنفسه أرسل في سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١ م إلى أمراء الغرب وأشياخ القبائل من زناته والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر لمبايعته فلما تحقق له ذلك وصلهم بالأموال وكساهم جميعاً^(١) ويلحق بهذا تلك الأموال والهدايا الضخمة التي أعطاها لأبي بكر بن عمر حين تنازل الأخير عن الإمارة وكان مقدار المال فيها خمسة وعشرين ألف دينار من الذهب^(٢) واتبع هذه السياسة وهي سياسة التودد إلى الشعب خلفاء الموحدين ، فالخليفة عبد المؤمن بن علي حين زار قبر المهدي بن تومرت بمدينة تينملل فرق في أهلها أموالاً عظيمة^(٣) وحين تجددت بيعة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فإنه أمر بتفريق الأموال على أهل مراکش يقول ابن صاحب الصلاة « ولما كان البشر العام واليسر التام بتجديد البيعة الميمونة . . أمر أمير المؤمنين رضى الله عنه ببركة تعيم الناس محضرة مراکش ليصالاً للعفو الذي تقدم واتصالاً بتتيم منه الذي أنعم »^(٤) فلما تولى المنصور الموحدي أخرج مائة ألف دينار ذهباً من بيت المال وفرقها على فقراء البلاد^(٥) يقول ابن زرع والسلوى « ولما تمت له البيعة وأطاعته الأمة كان أول شيء فعله أنه أخرج مائة ألف دينار ذهباً من بيت المال وفرقها في الضعفاء من بيوتات بلاد المغرب »^(٦).

ومن المنح ما كان خاصاً وهي تلك المنح والعطايا التي كانت تمنح للأفراد فأمراء المرابطين كانوا يكرمون العلماء والصالحين ويمنحونهم الأموال والعطايا ، فأبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضريبر وهو من سر قسطة وسكن بمدينة مراکش وتوفي بها سنة ٤٥٢هـ « كان عالماً زاهداً . . ووفد وقتاً

-
- (١) ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ٤٤ ت الفيلالي ، السلوى : الاستقصا ج ٢ ص ٢٩ ، ٣٠ .
 (٢) ابن مذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٦ ت د احسان عباس
 (٣) ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ١٥١ ت الفيلالي .
 (٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٥٣ .
 (٥) ابن عبود : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٣٦ ، أشبناخ : تاريخ الاندلس ج ٢ ص ٧٧ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين القسم الثاني ص ١٤٢ .

Budgett Meakins : The Moorish Empire, P : 77, 78.

- (٦) ابن أبي زرع : الاتيس ص ١٥٦ طبع حجر ، السلوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٥٨ و ١٥٩ .

على السلطان فبعث إليه جملة مال^(١) وكذلك حين زار أمير المسلمين على ابن يوسف مدينة أنعمات وريكة فإنه منح أحد الصالحين وهو أبو محمد عبد الله المليجي — توفي قبل سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥ م ألف دينار^(٢) .

وجرى على نفس السياسة خلفاء الموحدين نتيجة لاتصافهم بصفة الكرم وتكريمهم للعلماء والأدباء والشعراء فبعد المؤمن حين نزل مدينة بجاية سأل عن أهل بيت فأخبروه بوفاة صاحبه وقد ترك امرأة وأربعة أبناء فأمر لهم بأرض للحرث وأعطى كل واحد منهم ألف رأس من الغنم ومثلها من البقر وأربعة آلاف دينار^(٣) ، وكان هذا دأبه في العاصمة من الإنفاق على الفقراء والمحتاجين يقول ابن القطان « وكان رضى الله تعالى عنه يتفقد من يرتب ببابه الكريم بأن يغلق الباب على غفلة من الناس ويحص من حضر ، فيعطوا على السوية عشرة دنانير ، يفعل هذا في العام مراراً كثيرة وربما إلى ذلك في كل شهر^(٤) » وبجانب ذلك كان يكرم العلماء والشعراء فقد منح أحد الشعراء ألف دينار على بيت قاله : ما هز عطفه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي^(٥) وحين مدحه أبو القاسم بن مسعدة أمر وزيره بكتابه اسمه وقال له : إنما يكتب اسم هذا في جملة الحساب وأجزل صلته وأمر له بضبعة^(٦) .

واتبع خلفاء الموحدين سياسة الخليفة عبد المؤمن في منح الأموال للفقراء وغيرهم فقد منح الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أحد الفقراء بمدينة المهدية مائتي دينار فضلاً عن ثلاثمائة مثقال لبناته^(٦) كذلك أنعم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على كثير من العلماء والكتاب سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠ م حين شفى من مرضه ومن هؤلاء الكتاب ابن صاحب الصلاة الذي أرخ لدولتهم^(٨) ومنح

-
- (١) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢٢ .
 (٢) نفس المرجع السابق ج ١ ص ٦٣ ، التادلى : التشوف ص ١٢٤ ، ١٢٥ .
 (٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٧ .
 (٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣١ .
 (٥) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٥ .
 (٦) المقرئ : نفع الطبيب ج ٤ ص ٣٨٦ .
 (٧) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٥١ .
 (٨) نفس المرجع السابق ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

المنصور الموحدى أموالاً ضخمة للفقراء والمساكين يقول المراكشي « وكان كثير الصدقة ، بلغني أنه تصدق قبل خروجه إلى هذه الغزوة — أعنى التي كانت فيها الوقعة الكبرى — أى غزوة الأرك — بأربعين ألف دينار خرج منها للعامة نحو نصفها والباقي في القرابة ، أدركتهم وقد قسموا مدينة مراكش أربعاً وجعلوا في كل ربع أمناء منهم أموال يتحرون بها المساكين وأرباب البيوتات» (١) .

ومن هذا العرض للنفقات المتنوعة نرى مقدار ما كانت تتحمله الخزنة في سبيل الصرف على الجماعات والأفراد .

رابعاً : السكة

تسهم السكة في إعطائنا صورة عن الأوضاع الاقتصادية بالبلاد ، إذ هي توضح مدى التقدم والاستقرار الذي تنعم به وذلك برسم صورة لطريقة التعامل بين أفراد الشعب ، وعن طريق قيمتها نستطيع أن ندرك مدى رواج التجارة أو تدهورها ، ومن هنا كان من الضروري إلقاء الضوء على العملة النقدية للمغرب الأقصى في فترة البحث حتى تكتمل الصورة بالنسبة للنظام المالي بالبلاد .

والسكة أشار إلى معناها ابن خلدون بقوله « هي النظر في النقود والتعامل بها بين الناس وحفظها مما بداخلها من الغش أو النقص إن كان يتعامل بها عدداً أو ما يتعلق بذلك ويوصل إليه من جميع الإعتبارات ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجداء والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك ، ونقش فيه نقوش خاصة به فيوضع على الدينار بعد أن يقدر الضرب عليه بالمطرقة حتى ترسم فيه النقوش وتكون علامة على صورته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة» (٢) .

وما أن تأسست دولة المرابطين ثم أعقبتها دولة الموحيدين حتى اتخذتا عملة نقدية من الذهب والفضة يتعامل بها السكان في أنحاء الدولة ، وأنشئت

(١) المراكشي : المعجب ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٦ .

(م ١٥ — الحضارة)

لذلك الدور لسك النقود ، وقد تعددت هذه الدور في عهد المرابطين فابن عذارى أشار إلى أن يوسف بن تاشفين بنى داراً للسكة بمراكش سنة ٦٤٤هـ / ١٠٧١م . ضرب فيها السكة^(١) كما أنه عثر على نقود نقش عليها اسم يوسف ابن تاشفين سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م بسجل ماسة^(٢) وأخرى نقش عليها اسم على ابن يوسف بن تاشفين سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م وضربت بتلمسان^(٣).

ولم تشر المراجع لهذا التعدد في دولة الموحدين ففضلاً عن دارسك النقود بالعاصمة مراكش كانت هناك داران لسك النقود بمدينة فاس وقد قام الناصر الموحدي بضمهما في دار واحدة يقول أبو الحسن « وكان بمدينة فاس القرويين والأندلسيين داراً سكة فنقلهما الخليفة أبو عبد الله الناصر بن المنصور لدار أعدها بقصبتها حين بناها سنة ست مائة وأعدها مودعاً للأموال المندفعة بها ولطوابع سكها وأتقن ثقافها على أتم حال »^(٤).
أنواع السكة ووزنها :

اتخذ المرابطون النقود وذلك لتأكيد سلطانهم السياسى والاقتصادى على البلاد ، وما إن تأسست مدينة مراكش حتى أنشأ فيها يوسف بن تاشفين داراً للسكة وأصدر عملة نقدية سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م وقد نقش عليها اسم الأمير أبو بكر بن عمر^(٥) باعتباره الأمير الشرعى للبلاد ، حتى إذا تولى يوسف ابن تاشفين مقاليد الأمور ومكن لسلطانه السياسى أصدر عملة نقدية مدورة الشكل وقد كتب عليها اسمه وكان ذلك في سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م^(٦) ثم صارت بعد ذلك العملة تحمل أسماء أمراء المسلمين من بنى تاشفين ولقب « الأمير عبد الله العباسى » وهذا يشير إلى الصلة الروحية التي كانت تربط أمراء المرابطين بالخلافة العباسية كما نقش عليها « لا إله إلا الله ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » وهذا يؤكد

-
- (١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢ ت د . احسان عباس
(٢) الميلى : تاريخ الجرائز في القديم والحديث ج ٢ ص ٢١٩ .
(٣) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٩ .
(٤) أبو الحسن : الدوحة المشتبكة ص ٥١ ت د . حسين مؤنس .
(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢ ت د . احسان عباس
(٦) ابن أبى زرع : الأتيس ج ٢ ص ٧٦ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٣٢ .

المبدأ الدينى الذى قامت من أجله الدولة مع ذكر تاريخ ضربه ومكانه (١) وقد أشار إلى شكل العملة ابن المؤقت بقوله « وضرب — أى يوسف بن تاشفين — السكة من يومئذ وجددها ونقش فى دينارها لا اله إلا الله محمد رسول الله وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وكتب فى الدائرة ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين وكتب فى الصفحة الأخرى الأمير عبد الله العباسى وفى الدائرة تاريخ ضربه » (٢). أما بالنسبة لوزن العملة المرابطية فكان الدينار يزن قريباً من أربع جرامات (٣) أى حوالى ٣,٩٦٠ جراماً (٤) ويبدو أن العملة المرابطية اكتسبت قيمة مرتفعة نظراً لرواج التجارة بين المغرب وغيره من دول البحر المتوسط وسارت متداولة فى بلدان البحر المتوسط حتى وصلت القسطنطينية (٥).

حتى إذا قامت الدولة الموحدية اتخذت لها عملة نقدية من الدنانير والدراهم وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون بقوله « ولما جاءت دولة الموحدين كان ممن سنّ لهم المهدى اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل وأن يرسم فى دائرة الدينار شكل مربع فى وسطه ويملاً من أحد الجانبين تهليلاً وتحميداً ومن الجانب الآخر كتباً فى السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدون » (٦) وقد أشارت بعض المراجع إلى أن ابن تومرت أصدر عملة نقدية تسمى الدرهم المكنى أى المربع (٧) يقول أبو الحسن « وذلك أن صاحب الدرهم المكنى هو أبو عبد الله المهدى القائم بأمر الموحدين وكانت الدراهم قبل ظهور الدولة

(١) ابن أبى زرع : الأتيس ج ٢ ص ٣٨ ، ٣٩ ت الفيلالى ، ابن مذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٤٦ ت د. احسان عباس ، ابن أبى ديناؤ : المؤنس ص ١٠٥ عبد الله كتون : النبوغ المغربى ص ٦١ .

Nevill Barbour : Morocco, P : 59-60.

(٢) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ٩٠ .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٠ .

(٤) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ١ ص ٧٥

(٥) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣١ .

Nevill Barbour : Morocco P : 59

(٦) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٢ .

(٧) أبو الحسن : الدوحة المشتبكة ص ٥١ ، ابن زيدان : اتحاف

أعلام الناس ج ٢ ص ١٢ .

الموحدية كلها مدورة فأمر المهدي أن تكون دراهم مركنة^(١) « وبتتبع الأحداث السياسية لابن تومرت منذ أن أعلن ثورته بالمغرب الأقصى سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١م حتى وفاته سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩م لم نشر المراجع إلى إصداره لعملة نقدية فضلاً عن أنه لم يفرض سيطرته السياسية على البلاد حتى يتمكن من إصدار عملة تؤكد سلطته إذا أن الدولة المرابطية كانت قائمة تفرض سلطانها السياسي وعمالها النقدية ويرجح أن هذه العملة قام بإصدارها الخليفة عبد المؤمن ابن علي والذي سبب إليه اسم العملة فأطلق عليها العملة المؤمنية^(٢) وقد عثر أخيراً في منطقة الريف بالمغرب الأقصى على عملة فضية مربعة الشكل نقش في أحد وجهيها « الله ربنا ، محمد رسولنا ، المهدي امامنا وفي الوجه الآخر لا إله إلا الله الأمر كله لله ولا قوة إلا بالله » وهي خالية من التاريخ ويرجح أنها ترجع إلى سنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٥م^(٣) كما كانت هناك العملة اليوسيفية وهي منسوبة إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن^(٤) يقول ابن خلكان « والدنانير اليوسيفية المغربية منسوبة إليه »^(٥) كما أن الدنانير يعقوبية كانت منسوبة إلى يعقوب المنصور^(٦) يقول ابن خلكان « وإلى الأمير يعقوب — أي المنصور الموحدي — تنسب الدنانير يعقوبية المغربية »^(٧) وقد ظهرت في هذه الفترة أيضاً العملة الجشمية تلك العملة التي استخدمها أبو يحيى بن الشيخ أبي حفص وإلى بطليوس من قبل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨م في فداء أسرى المسلمين من الفرنج حيث دفع ثلاثمائة دينار جشمية^(٨)

(١) أبو الحسن : الدوحة المشتبكة ص ٥١ .

(٢) أبو عبد الله محمد : الحلال السندسية ص ٢٥٢

J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim, P : 99.

(٣) أحمد بن عبد السلام : الريف بعد الفتح الإسلامي ص ٥٢ .

(٤) العيني : عقد الجمان ج ١ قسم واحد ص ١٣ ، ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، الزركلي : الاعلام ج ٣ ص ١١٨٢

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٠ .

(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٨٤ حاشية ، أبو الحسن :

الدوحة المشتبكة ص ٥١ ، ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١٨٦ ،

الزركلي : الاعلام ج ٣ ص ١١٧١ .

(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٢ .

(٨) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٩٣ .

والدراهم الخشمية تعنى الدراهم الرديئة ويبدو أن بعض خلفاء الموحدين كانوا يصنعون من النحاس ما يعطونه زيفاً اسم الدينار الذهبي (١) .

ولم تكن الدينانير والدراهم هي المستخدمة فقط بل كانت هناك عملات أصغر لسهولة التعامل ، وقد اشتكى يحيى بن العزيز ملك بجاية والمقيم في مراكش بعد فقدته للملكة - اشتكى من تعذر الإنفاق لقلة العملات الصغيرة يقول المراكشي « بلغني من طرق عدة أن يحيى بن العزيز كان في مجلس عبد المؤمن يوماً فذكروا تعذر الصرف ، فقال يحيى : أما أنا فعلى من هذا كلفة شديدة ، وعبيدي في كل يوم يشكون إلي ما يلقون من ذلك ويدكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف وذلك أن عاداتهم في بلاد المغرب أنهم يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والحراريب فيستريح الناس في هذا وتجري هذه الصروف في أيديهم فتتسع بياعاتهم (٢) » وقد وعد عبد المؤمن بتوفير ذلك (٣) .

أما وزن العملة الموحدية فكانت ٤,٧٢٩ جراماً وهو الوزن الشرعي كما كان أيام سيدنا عمر بن الخطاب (٤) وقد أشار ابن عذارى إلى أن المنصور الموحدى ضاعف وزن الدينار حتى يتناسب مع ضخامة الدولة وثروتها يقول ابن عذارى « فرأى المنصور الموحدى - أن الدينار القديم يصغر عن مرأى ما ظهر بالمملكة من المنازع العالية وأن جرمه يقل عما عارضه من المناظر الفخمة الحارية فعظم جرمه ورفع قدره بالتضعيف وسومه فجاء من النتائج الملوكية والاختراعات السرية جامعاً بين الفخامة والثناء والطيب وشرف الانتهاء (٥) وهذه الزيادة تشير إلى الرخاء الاقتصادي الذي كانت تنعم به البلاد ومن ناحية أخرى إلى وجود الذهب بكثرة حتى يتمكن الخليفة من زيادة وزن العملة .

(١) نفس المرجع السابق ص ٣٩٣ حاشية .

(٢) المراكشي : المعجب ص ٢٧٧ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٠٧ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٩٢ حاشية ، عبد العزيز

بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ١ ص ٧٦ ، عبد العزيز

بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٢٦ .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٩٧ تطوان .

خامساً : المكايل والموازين

ومما يتصل بالحياة الاقتصادية بالبلاد تلك المكايل والموازين التي كان يستخدمها السكان في تعاملهم اليومي وفي شراء بضائعهم ومستلزماتهم ، وقد استخدم السكان المدة في تعاملهم أشار إلى ذلك ابن صاحب الصلاة حين تحدث عن رخص الأسعار بوادي تنسيفت قريباً من العاصمة مراكش سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م « أن الشعير خمسة وعشرون مداً بدرهم »^(١) وحين غلت الأسعار بالأندلس سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م أثناء حملة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بها - بلغ المد المراكشي من الشعير بدرهمين^(٢) أما في سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م فقد بلغ الشعير اثنا عشر مداً بدرهم والقمح خمسة عشر مداً بدرهم^(٣) ، والمد هنا غير المد النبوي الذي يزن ٤٠٠ جراماً إذا كان من الشعير ، ٥٢٥ جراماً إذا كان من القمح ولكنه فوق هذا الوزن بقليل^(٤) وقد جعله البكري يزن ثمانين أوقية يقول البكري « ومدهم — أي مد أهل فاس — ثمانين أوقية »^(٥) .

واستخدم السكان الوسق في كيلهم وقد أشار ابن أبي زرع إلى الرخاء في دولة المرابطين بقوله « وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن ، تناهى القمح في أيامهم إلى أن يبيع أربعة أوسق بنصف مثقال ، والثار ثمانية أوسق بنصف مثقال »^(٦) والوسق وسق حمل أي حمل جبل وكان مقداره ستون صاعاً^(٧) وبجانب المكايل المختلفة استخدم السكان الموازين ومنها الأوقية حيث يقول البكري « وجميع المأكولات من الزيت والعسل واللبن والزبيب يباع عندهم — أي عند أهل فاس — بالأواق »^(٨) وأشار ابن

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٤٢ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٥٠٩ .

(٣) ابن هذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٦٣ تطوان .

(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٥٠٩ حاشية .

(٥) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية ص ١١٧ .

(٦) ابن أبي زرع : الأتيس المطرب ج ٢ ص ٩٤ ت الفيلاي .

(٧) أبو الحسن : الدوحة المشتبكة ص ٨٦ .

(٨) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية ص ١١٧ .

صاحب الصلاة إلى أن اللحم سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م بالقرب من مراكش
كان ستين أوقية بدرهم^(١) للدلالة على رخص الأسعار والست عشرة أوقية
تعاادل رطلاً^(٢).

كما استخدموا الرطل في أوزانهم حيث بلغ رطل الدقيق بدرهم واحد
سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م^(٣) وذلك علامة على غلاء الأسعار والرطل يساوى
بالوزن الحالى ٥٠٤ جراماً^(٤).

وهكذا تنوعت المكايل والموازين حتى تفي بحاجات السكان في البيع
والشراء.

-
- (١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٤٢ .
 - (٢) نفس المرجع السابق ص ٤٤٢ حاشية .
 - (٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٥٠٩ .
 - (٤) نفس المرجع السابق ص ٤٤٢ حاشية .

الفصل الثاني

الزراعة والصناعة

أ - الزراعة

تقدمت الزراعة بالمنطقة خلال عهد المرابطين وحتى حكم الناصر الموحدي وزاد الإنتاج الزراعي . وشهدت البلاد وفرة في المحصولات ، وقد تضافرت عدة عوامل على ازدهار الزراعة منها : النواحي الطبيعية التي تمتعت بها المنطقة يضاف إلى ذلك القوى البشرية والتي اتخذت فلاحه الأرض مهنة لها وأخيراً اهتمام ولاية الأمر بقيام زراعة ناجحة بالبلاد ، وفيما يلي هذه العوامل بشيء من الشرح والتفصيل :

أولاً : نواح طبيعية : تمتعت بها المنطقة حيث ساهم السطح وما يتضمنه من تربة خصبة وأنهار متعددة بالإضافة إلى مناخ متنوع في تقدم الزراعة بالبلاد ، وأما بالنسبة للسطح فقد تمتع المغرب الأقصى بتربة خصبة صالحة للزراعة كونها مجارى الأنهار ، ففي ناحية المحيط الأطلسي تنبسط أراضي التبرس السوداء وأراضي الحمري الكلسية والتي تمتاز بشدة الخصوبة وقابلية الانتاج بفضل ما تضمه بين جوانبها من مياه وشماد^(١) وقد أشار المراكشي إلى مدى خصوبة تربة المغرب الأقصى قائلاً « وهي — أى أرض المغرب — أخصب رقعة على الأرض فيما علمت وأكثرها أنهاراً مطردة وأشجاراً ملتفة وزروعاً وأعشاباً »^(٢) وبجانب التربة الخصبة ، فقد انقسم السطح إلى عدة مناطق وكان لكل منطقة أثرها في النشاط الزراعي والمحاصيل بها والمناطق هي (١) — الإقليم الساحلي : على شاطئ البحر المتوسط وتفصله عن الداخل جبال الريف وهي تمتد على شكل أقواس مفتوحة نحو جبل طارق^(٣) ويمتاز

(١) عبد العزيز بنعبد الله : جغرافية المغرب ص ٢٢ .

G.A.Jackeon ; Algiers Being Complete, P ; 64.

(٢) المراكشي : المعجب ص ٢٥٥ .

(٣) أنور الرفاعي وآخرون : المغرب العربي جغرافياً ص ٧٣ ،

ط ١ سنة ١٩٤٩ .

هذا الإقليم بتربته الخصبة حيث تخترقه عدة أنهار تصب في البحر المتوسط .
وبجانب هذا الإقليم كان هناك الإقليم الساحلى على المحيط الأطلسى .
(ب) منطقة الوديان : وهى تلى الإقليم الساحلى وتجرى فيها أهم أنهار
المغرب التى يصب بعضها فى البحر المتوسط والبعض الآخر فى المحيط الأطلسى
وقد كوَّنت هذه الأنهار ودياناً وسهولاً خصبة تعدمن أغنى السهول المغربية (١)
وأهم هذه الأنهار :

١ — نهر ملوية : وهو فيما بين تلمسان ورباط تازا ويصب فى البحر
المتوسط (٢) ويتجه من الجنوب إلى الشمال وينبع من ملتقى الأطلس الكبير
والأطلس المتوسط فى شرق البلاد من وراء الأطلس المتوسط (٣) .

٢ — نهر سبو : وهو محيط بمدينة فاس من شرقها وغربها (٤) وينبع
نهر سبو من الأطلس المتوسط ويجرى فى سهول تكثُر فيها الرواسب ويشترك
مع وادى فاس فى جعل هذه المنطقة خصبة صالحة للزراعة (٥) ويجاور نهر
سبو هذا نهر آخر يسمى ورغة وهذان النهران يصبان فى البحر المحيط بعد أن
يلتقيا بموضع يسمى المعمورة (٦) .

٣ — نهر أبو رقراق وأم الربيع : وينحدران من الأطلس المتوسط
وهما غزيرا المياه ويعتبر نهر أم الربيع من أهم أنهار المغرب الأقصى وذلك
لوفرة مائه وانتظام جريانه النسبى (٧) ويصب فى البحر المحيط .

٤ — نهر تانسيفت ونهر السوس الأقصى : وهما يصبان فى البحر
المحيط (٨) .

-
- (١) عبد العزيز بنعبد الله : جغرافية المغرب ص ١٢ ط ٢ سنة
٥٦ الدار البيضاء .
(٢) المراكشى : المعجب ص ٣٦٤ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥
ص ١٧٥ .
(٣) محمد الفاسى : التعريف بالمغرب ص ١٥ .
(٤) المراكشى : المعجب ص ٣٦٤ .
(٥) عبد العزيز بنعبد الله : جغرافية المغرب ص ١٩ .
(٦) المراكشى : المعجب ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .
(٧) عبد العزيز بنعبد الله : جغرافية المغرب ص ١٩ .
(٨) المراكشى : المعجب ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

وبجانب هذه الأنهار التي ساعدت على قيام زراعة ناجحة في المنطقة كانت هناك عدة نهيرات تتخلل كثيراً من مدن وقرى المغرب الأقصى والتي أسهمت بدورها في ازدهار الزراعة بالمنطقة ، كذلك النهر الذي يجري بمدينة فاس والذي قسمها إلى قسمين وهو ينبع من عيون تسمى عيون صنهاجة (١) وأيضاً النهر الذي يجري في شرق مدينة مكناسة (٢) وكذلك النهر الذي يمر بشرق مدينة تلمسان (٣) ، ومدينة تاورق حيث كان الماء يأتيها من جوانبها من نهر كبير ينقسم في أعاليها (٤) ، وأيضاً مدينة مغيلة حيث كانت المياه تحترق كل جانب منها (٥) ومدينة نفيس وما بها من نهيرات (٦)

هذه الكثرة في عدد الأنهار واختراقها لمعظم أراضي المغرب الأقصى مع جريانها الدائم نتيجة لسقوط الأمطار منحت أرض المغرب الأقصى كميات وفيرة من المياه التي تستخدم في زراعة مساحات واسعة من الأراضي .

(ج) جبال درن : وتقع جنوب منطقة الوديان وهي تمثل حاجزاً طبيعياً وقد وصفها ابن خلدون بقوله « بقاصية المغرب من أعظم جبال المعمور بما أعرق في الثرى أصلها وذهبت في السماء فروعها ، ومدت في الجوهيا كلها ومثلت سياجاً على ريف المغرب سطورها ، تبتدىء من ساحل البحر المحيط عند آسنى وما يليها وتذهب في المشرق إلى غير نهاية (٧) » وفي سفوح هذه الجبال كانت المناطق الرعوية أو شبه الصحراوية والتي تكسو هضابها المرتفعة الأعشاب حيث ترعاها الماشية والأغنام كما أن به طائفة من الواحات الغنية وهو إقليم فقير في موارده حيث اعتماد أهله على الرعى (٨) .

-
- (١) ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١٦ ، مجهول : الاستبصار ص ١٨٠ ت. د. سعد زغلول ، المراكشي : المعجب ص ٣٥٨ .
 (٢) الإدريسي : وصف المغرب ص ٧٧ ت. دوزي .
 (٣) نفس المرجع السابق ص ٨٠ .
 (٤) ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١٧ .
 (٥) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٧ .
 (٦) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٨ ت. د. سعد زغلول .
 (٧) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٣ .
 (٨) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٣ .

(د) إقليم الصحراء ويقع جنوب جبال درن .

وبجانب هذا السطح المتنوع وأثره في اختلاف حاصلات المنطقة كان هناك المناخ والذي أثر بدوره في الزراعة بالمنطقة ، وقد تنوع المناخ تبعاً للأقاليم المغرب المختلفة من سهول ساحلية وسلسلة جبال درن ثم إقليم الصحراء ، حتى السهول الساحلية التي تهطل عليها الأمطار بغزارة وخاصة على سهول الشاطئ الأطلسي ازدهرت الزراعة وأصبحت هذه الناحية غنية بأنواع الزراعات المختلفة من قمح وشعير وخضر وفواكه وغيرها^(١) وفي نفس الوقت تحول سلسلة جبال درن دون وصول الرياح الحارقة إلى هذه السهول ، أما النواحي الصحراوية فإن المطر بها قليل ولذا تعتمد زراعتها على السقي عن طريق السواقي من الأنهار ، كما أن الزراع يحصلون على الماء اللازم من الآبار مما يساعد في سقي حقول الزراعة المختلفة^(٢) .

ثانياً : قوى بشرية : وهم طبقة الفلاحين الذين نشأوا على أرض المغرب الأقصى واتخذوا الفلاحة مهنة يتوارثونها عن آبائهم وأجدادهم ، وهذه الطبقة أخذت على عاتقها مهمة فلاحة الأرض واستغلال الظروف الطبيعية في استثمار المحاصيل الزراعية المختلفة فقبائل دكالة اشتهت الزراعة وقامت بزراعة البساتين والحدائق المختلفة^(٣) وكذلك كثير من قبائل تامسنا اشتغلت بالزراعة وقد وصفهم الإدريسي بقوله « وقبائل تامسنا شتى متفرقة فمنهم مبرغواطة ومطماطة وبنو تسلت وبنو يغمران وزقارة وبعض من زناته وبنو مختش من زناته وكل هذه القبائل أصحاب حرث ومواش وجمال^(٤) » وقد أشار إلى ذلك أيضاً ابن سعيد^(٥) وقبائل المصامدة وهي تشكل مجموعة كبيرة من سكان المنطقة اهتموا منذ القديم بالزراعة وغرس الأشجار وبفضلهم ازدهرت الفلاحة في البلاد^(٦) وبجانب الأيدي العاملة من أهل البلاد فإن

(١) محمد الفاسي : التعريف بالمغرب ص ١٢ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٧ .

(٣) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٩ .

(٤) الإدريسي : وصف المغرب والاندلس ص ٧٠ ، ٧١ .

(٥) ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٤ .

(٦) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٥٧ .

الهجرات المختلفة التي جاءت من افريقية واستوطنت بعض أقاليم المغرب كإقليم سلا ساهمت في تزويد سكان البلاد بالخبرات الفلاحية مما أسهم في تنشيط الزراعة (١) كذلك اقتبس المغاربة كثيراً من العادات الفلاحية من أهل الأندلس وخاصة بعد أن أصبح لإقليم الأندلس تابعا للدولة منذ عهد يوسف ابن تاشفين ، إذ اشترك الأندلسيون مع إخوانهم المغاربة في تبادل الخبرات بشأن تنمية الزراعة والعمل على نهضتها (٢) .

ثالثاً : اهتمام ولاية الأمر بالزراعة : ساهم ولاية الأمر بالمغرب الأقصى بجهودهم في دفع عجلة الإنتاج بالبلاد ، ومن ذلك اهتمامهم بالزراعة وما يتعلق بها إذ أن المرابطين أخذوا على عاتقهم مهمة توفير الأمن والطمأنينة للسكان والقضاء على الفتن والحروب وبذلك استطاع السكان استثمار الأرض (٣) كما أن أمير المسلمين على بن يوسف بنى قنطرة على نهر تانسيفت لتسهم بدورها في توزيع المياه اللازمة للزراعة وفي ذلك يقول الإدريسي « وعلى ثلاثة أميال من مراکش نهر يسمى تانسيفت وليس بالكبير لكنه دائم الجرى وزمن الشتاء يحمل بسيل كبير لا يبقى ولا يدر ، وبني على بن يوسف عليه قنطرة عجيبة متقنة الصنع فجلب إلى عملها صناع الأندلس وجلا من أهل المعرفة بالبناء فشيدها وأتقنوا بنائها حتى كملت » (٤) وقد وصف المراكشي هذه القنطرة بأنها قنطرة عظيمة (٥) ألا أن هذه القنطرة هدمت فأمر ببنائها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م (٦) .

وكذلك اهتم خلفاء الموحدين بالزراعة وشجعوا المزارعين على استغلال الأرض (٧) وحرصوا على توفير مياه الري اللازمة للزراعة ، اذ اهتم المنصور

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٥٣ .

(٢) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ١ ص ٤٠ ، نفس المؤلف : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١٠ .

(٣) نفس المؤلف : تاريخ المغرب ج ١ ص ٣٠ ، د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٢٦ .

(٤) الإدريسي : وصف المغرب ص ٦٩ ت دوزي .

(٥) المراكشي : المعجب ص ٣٦٤ .

(٦) ابن أبي زرع : الأنييس المطرب ص ٢١٥ طبع حجر .

(٧) Julien ; Histoire de L'Afrique P ; 122.

الموحدى اهتماماً كبيراً بتوفير مياه الري (١) .

وقد شهدت المنطقة الكثير من الحملات العسكرية التي خرجت للغزو والجهاد نتيجة للظروف السياسية والعسكرية التي مرت بها البلاد ، وقد حرص قادة الجيوش خلال هذه الحملات على حماية المزارعات والحفاظ عليها وقد تجلّى ذلك حين حذّر ابن تومرت أتباعه من التعرض بالاتلاف للمزارعات وفي ذلك يقول ابن القطان « وأوصاهم — أى ابن تومرت — فى سفرهم إذا مروا على طريق متصل بها زرع نكبوا عنه ودارأوا أهل الفساد عنه (٢) » كذلك فعل الخليفة عبد المؤمن بن على حين عزم على التوجه إلى أفريقيا سنة ٥٥٤هـ / ١١٤٩م فإنه أمر جنوده بالرغم من كثرة عددهم بعدم المساس بالمزارعات يقول النويرى « فلما كان فى صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة سار — أى عبد المؤمن بن على — يريد إفريقيا ومعه من العساكر مائة ألف مقاتل ومن السوقة والأتباع أمثالهم وبالع في حفظ العساكر حتى كانوا يسرون بين الزروع فلا تتأذى لهم سنبلة واحدة (٣) » وإن كان فى هذه الرواية شيء من المبالغة ألا أنها تعطينا إشارة لمدى حرص ولالة الأمر على الحفاظ على المزارعات وحمايتها من التلّف ، وأيضاً فى خلال الحملات العسكرية لم ينس ولالة الأمر واجبه فى الإهتمام بشئون الزراعة فالناصر الموحدى بعد أن قضى على الثورات فى إفريقيا سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م وجه اهتمامه للزراعة وشؤونها يقول ابن عذارى « وبعد إياب هذا البعث واستقراره ، وقضاء المرغوب من أوطاره ، أضمر الناصر الحركة إلى المغرب فى نفسه — وذلك بعد أن مهد إفريقيا واسترجع المهديّة سنة ٦٠٣هـ — ولم يخل النظر لها فى الباطن من فكره وحسه وأمر بإشاعة الاستقرار بتونس والنظر فى اتخاذ المحارث والاتساع فى المزارع (٤) .

ولم يكن هذا الإهتمام قاصراً على خلفاء الموحدين وحدهم بل كان السادة من بنى عبد المؤمن ولالة بجاية وتلمسان وغيرها يعنون بالغراسة (٥) .

Brelvi ; Islam in Africa, P ; 137.

(١)

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٨ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٤ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢١٣ تطوان .

(٥) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٥٢ .

وبجانب اهتمام ولاية الأمر بالمزروعات وحمايتها فقد لجأ بعضهم إلى منح بعض الأراضي الزراعية إلى الجنود وغيرهم لزراعتها واستثمارها وذلك على شكل إقطاعات وهؤلاء عملوا على استغلالها مما ساعد على ازدهار الزراعة ونموها وقد أشار الماوردي إلى الإقطاع وأحكامه بقوله « وإقطاع السلطان مختص بما جاز فيه تصرفه ونفذت فيه أوامره ولا يصح فيما تعين فيه مالكة وتميز مستحقه وهو ضربان : إقطاع تمليك وإقطاع استغلال . . » (١) وكان نظام الإقطاع من أسباب ازدهار الزراعة بالأندلس وذلك حين كانت الأرض بأيدي الأجناد يستثمرونها ويستغلونها ويرفقون بالفلاحين وبذلك كانت الأراضي عامرة (٢) إلى أن كان الأمر في آخر أيام بني عامر فرد عطايا الجند بقبض الأموال وقدم على الأرض جباة يجبرونها فأكلوا الرعايا حتى إذا استولى المرابطون على الأندلس ردوا الإقطاعات كما كانت في الزمان القديم (٣) ويبدو أنهم اتبعوا هذا النظام بالمغرب أيضاً من منح قطع من الأرض لجنودهم لاستثمارها وخاصة جنود لمتونه (٤) .

وجرى على نفس السياسة خلفاء الموحدين حين منحوا كثيراً من الأراضي لمن تقرب إليهم أو دخل في طاعتهم فالخليفة عبد المؤمن حين مدحه أحد الشعراء وهو أبو القاسم بن مسعدة الأوسى أجزل صلته وأمر له بضيعة يحرث له بها (٥) واتبع نفس السياسة بالأندلس يقول ابن خلدون « وكتبوا بالفتح — أي جنود الموحدين الموجودين بالأندلس — إلى عبد المؤمن وقدم عليه وفودهم بمراكش يقدمهم القاضي أبو بكر فتقبل طاعتهم وانصرفوا بالجوائز والإقطاعات لجميع الوفد سنة ثنتين وأربعين وخمسةائة » (٦) كذلك حين دخل ابن همشك في طاعة الموحدين وقدم من الأندلس إلى المغرب في سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٩٠ .

(٢) الطرطوشي : سراج الملوك ص ١٠٠ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٠٠ .

(٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٠ .

(٥) المقرئ : نفح الطيب ج ٤ ص ٣٨٦ .

J.F.P. Hopkins: Medieval Muslim P ; ٤٣.

(٦) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ .

فان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أقطعه عدة إقطاعات بمدينة مكناسة ليستثمرها (١) وكذلك صاحب قفصة حين دخل في طاعة الموحدين سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م فان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أقطعه ولاية كبيرة (٢) وقد أشار المراكشي إلى تمتع الموحدين بالمرتبات بجانب امتلاكهم الاقطاعات (٣) ولم يكن الموحدون وحدهم هم الذين تمتعوا بهذه الاقطاعات بل وغيرهم ممن دخل في خدمة الدولة كالغز حيث منح المنصور الموحدي بعض الاقطاعات لهؤلاء الغز إذ أعطى أعيانهم اقطاعات كإقطاع الموحدين ، يقول المراكشي « أقطع رجلا منهم فيما اعرف من أهل إربل يعرف بأحمد الحاجب ، مواضع ليس لأحد من قرابته مثلها واقطع شعبان المذكور بالأندلس قرى كثيرة تغل في كل سنة نحو من تسعة آلاف دينار (٤) » .

وهكذا أسهم ولاية الأمر حين منحوا بعض الأراضي لأتباعهم على تنشيط عملية الزراعة ، إذ حرص هؤلاء المقتطعين على استثمار الأرض حتى تغل عليهم أرباحاً وفيرة .

المحاصيل الزراعية :

كانت الأراضي الزراعية بالمغرب الأقصى مصدراً خصباً لكثير من المحاصيل الزراعية ، وشهدت البلاد وفرة في المزروعات حيث قامت كثير من المدن المغربية بزراعة النباتات المختلفة وقد أشارت المراجع إلى تمتع كثير من المدن والقرى المغربية بوفرة في المزروعات ومن ذلك ما تميزت به مدينة مكناسة من كثرة المزروعات والحدائق (٥) ومدينة تلمسان وما فيها من الغلات الكثيرة والمزارع الخصبة (٦) وجبال درن حيث جادت فيها الزراعة وكثرت المحاصيل الزراعية (٧) ومدينة نفيس وما تتمتع به من كثرة في الأشجار والثمار (٨)

-
- (١) حنان : مصر المرابطين والموحدين : القسم الثاني ص ٥٧ .
 (٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٩ .
 (٣) المراكشي : المعجب ص ٢٨٩ .
 (٤) نفس المرجع السابق ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
 (٥) الإدريسي : وصف المغرب ص ٧٧ ابن سعيد : نزهة الانظار ج ١ ص ١٧ .
 (٦) الإدريسي : وصف المغرب ص ٨٠ .
 (٧) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣ .
 (٨) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٨ .

وأيضاً مدينة مراكش حيث كثر فيها الزرع والضرع^(١) ومن المزروعات التي زرعت بالمنطقة وأنتجت محاصيل وفيرة :

(١) القمح : وقد زرع بمناطق متفرقة من أرض المغرب الأقصى في المناطق الشمالية من البلاد جادت زراعة القمح حيث كانت أكثر مزروعات أهل طنجة من القمح^(٢) ومدينة أزيلى كان حظها من القمح وافرا^(٣) كذلك مدينة البصرة ومدينة كرت وما سينه كان أهلها يقومون بزراعة القمح^(٤) أما في المناطق الشرقية من البلاد فقد قام الفلاحون بزراعة القمح في الطريق المتجه من فاس إلى تلمسان كانت هناك قرى كثيرة ، ومزارع على الصفيين زرع بها نبات القمح^(٥) فإذا ما اتجهنا إلى جنوب البلاد وجدنا كثيراً من المدن والقرى اهتمت بزراعة القمح فبلاد السوس وهي قرى كثيرة كانت تجود فيها زراعة الحنطة^(٦) ومن بلاد السوس هذه مدينة نفيس الجبل وهي مدينة صغيرة وبها الحنطة كثيرة^(٧) وكذلك مدينة مجلماسة حيث ازدهرت فيها زراعة القمح^(٨) وقد وصف صاحب كتاب الاستبصار القمح في مدينة مجلماسة بقوله « وقمحهم رقيق الحب يسع مد النبي صلى الله عليه وسلم من قمحهم ٧٥ ألف حبة »^(٩).

ويصور لنا مدى وفرة محصول القمح في عهد الموحدين ما شاهده ابن صاحب الصلاة ورواه عن الكميات الضخمة من القمح والشعير التي أعدها عبد المؤمن لجنوده حين عزم على العبور إلى الأندلس ، يقول ابن صاحب الصلاة « وأعد — أي عبد المؤمن — من القمح والشعير للعلوفات والمواشاة للعساكر على وادى سبو بالمعسورة المذكورة ما عاينته مكدياً كأمثال الجبال ،

-
- (١) نفس المرجع السابق ص ٢٠٩ .
 - (٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٨٠ بيروت .
 - (٣) نفس المرجع السابق ص ٨٠ بيروت .
 - (٤) نفس المرجع السابق ص ٨٠ .
 - (٥) ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١٨ .
 - (٦) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١١ .
 - (٧) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١١ .
 - (٨) مجهول : الاستبصار ص ٢٠١ ، ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١١ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦٤ .
 - (٩) مجهول : الاستبصار ص ٢٠١ .

بما لم يتقدم الملك قبله ولا سمعنا به في جيل من الأجيال ، بقي في ذلك الموضع معداً من عام سبعة وخمسين إلى عام اثنين وستين وخمسمائة حتى فني في أكداسة وعاد تراباً ورماداً باحتراقة بعضه في بعض وإفساد الزمان له لإفساداً^(١).

٢ — الشعير : وقد ازدهرت زراعته بالبلاد فكان في أكثر من مدينة وقرية فقد كثرت زراعته بمدينة طنجة وأزيلي والبصرة وكرت^(٢) وكذلك بلاد السوس في الجنوب حيث أطلق ابن سعيد عليها بلاد حنطة وشعير^(٣) وكذلك زرع الشعير بقلعة مزوار وهي قلعة صغيرة في الطريق بين فاس وتلمسان^(٤) وقد سبق أن أشرت إلى أن الخليفة عبد المؤمن جمع أكداساً من القمح والشعير ليجهز جيشه في غزو الأندلس^(٥) وهذا يبين مدى توفر محصول الشعير بالبلاد .

٣ — الذرة وأنواع أخرى من الحبوب : وقد زرعت الذرة بمنطقة سجلماسة^(٦) كذلك زرع السمسم وغيره من البقول بمنطقة أغمات^(٧) وأيضاً زرعت الحبوب بمنطقة طنجة^(٨) وكذلك الأرز وإن كانت زراعته قليلة يقول القلقشندي « أما الأرز فانه عندهم قليل بعضه يزرع في بعض الأماكن من بر العدة »^(٨) وقد زرع بمنطقة السوس^(٩) .

٤ — القطن : وكان يزرع بالمناطق الوطنية المنخفضة من سطح المغرب^(١٠) وقد اهتم العرب اهتماماً خاصاً بإدخال زراعة القطن إلى المغرب ومن هناك

-
- (١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢١٤ .
 (٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٨٠ ، ٨١ .
 (٣) ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١١ .
 (٤) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٨ .
 (٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢١٤ ، ٢١٥ .
 (٦) ابن رسته : الأملق النفيسة ص ٣٥٩ ، المقدسي : احسن التقاسيم ص ٢٣١ ط ٢ سنة ١٩٠٦ م .
 (٧) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٠ .
 (٨) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٨٠ .
 (٩) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٧٥ .
 (١٠) ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١١ .
 (م ١٦ — الحضارة)

انتقلت زراعته إلى أسبانيا^(١) وقد أشار الأديسي إلى وجود القطن بمدينة داي وتادله بكثرة بقوله «ويزرع بها— أي بمدينة داي — وبأرضها كثير من القطن ولكنه بمدينة تادلة يزرع أكثر مما يزرع بمدينة داي ومن مدينة تادلة يخرج القطن كثيراً ويسافر به إلى كل الجهات»^(٢) كذلك زرع القطن بمدينة البصرة وكان من الكثرة بحيث كانت تصدر منه كميات كبيرة إلى إفريقيا^(٣) كذلك زرع القطن بمدينة كرت وماسيتة^(٤) وأيضاً زرع القطن بقرية أم ريعة^(٥).

٥ — قصب السكر : وقد كثرت زراعته بمدن متفرقة من المغرب الأقصى ، فقد زرع بسبتة ولكثرته كان يحمل إلى ما جاورها من المدن والقرى^(٦) ، كذلك اشتهرت مدينة أغمات بزراعتها لقصب السكر^(٧) وأيضاً بقرية تارودنت من بلاد السوس حيث وصفها صاحب كتاب الاستبصار بقوله « وهي أكثر بلاد الله قصب سكر وفيها معاصر السكر كثيرة»^(٨) وكذلك مدينة أيجلى وهي قاعدة بلاد السوس كثرت بها زراعة قصب السكر وبها معاصر كثيرة وأكثر شرب أهلها إنما هو ماء قصب السكر^(٩) وجادت زراعة قصب السكر بمدينة تغرا قاعدة دكالة وذلك لكثرة الأنهار التي تجري بها^(١٠).

٦ — الزيتون : وهو من المحاصيل الوفيرة بالمغرب ، وقد اهتم الموحدون بغرسه في أكثر من مدينة حتى سميت مدينة مكناسة بمكناسة الزيتون وقد أشار ابن غازي إلى ذلك بقوله « وإنما عرف هذا البلد بهذه الإضافة ليمتاز عن مكناسة تازا وذلك أن من قبائل زناته قبيلة يقال لها مكناسة منهم فخذ بتازا شرقاً من مدينة فاس بينهما سبعة برد ومنهم فخذان بهذا الموضع المزارع غرباً

-
- (١) عثمان الكمال : الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط ص ٧٤ .
 (٢) الأديسي : وصف المغرب والاندلس ص ٧٥ .
 (٣) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٨١ .
 (٤) نفس المرجع السابق ص ٨١ .
 (٥) ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٤ .
 (٦) نفس المرجع السابق ج ١ ص ٢٧ .
 (٧) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٠ .
 (٨) مجهول : الاستبصار ص ٢١١ ، ٢١٢ .
 (٩) نفس المرجع السابق ص ٢١٢ .
 (١٠) ابن سعيد المغربي : بسط الأرض ص ٤٦ .

من مدينة فاس وبينهما ثلاثة برد ونصف وبهذا تميزت إحداهما عن الأخرى بما أضيفت إليه»^(١) وقد كثر محصول الزيتون بمدن مكناسة وفاس ورباط تازا وكان هذا راجعاً إلى تشجيع الموحدين على زراعته والاعتناء به^(٢) وقد أشار ابن غازي إلى اهتمام أحد ولاية الموحدين بغرس الزيتون ومقدار الأموال التي كانت تجمع من وراء زراعته «وأما الزيتون فهو فيها — أى في مدينة مكناسة — كثير جداً ولذلك أضيفت إليه واشتهرت به ولما ولي محمد بن عبد الله بن واجاج في أول أيام الموحدين بلاد المغرب سيفاً وعملاً غرس بها وبفاس ورباط تازا بحيرات أكثر غراساتها الزيتون فكان حب زيتون بحيرة مكناسة يباع عام الخمس — ربما كان المقصود بها سنة ٥٥٥ أى سنة الـأخماس — بخمسة وثلاثين ألف دينار ونحوها ، وحب زيتون بحيرة فاس بخمسين ألف دينار ونحوها ، وحب زيتون بحيرة تازة بخمسة وعشرين ألف دينار ونحوها وذلك قبل أن يستولى على المغرب تخريب بنى مرين»^(٣) والبحيرة معناها البستان في لغة المغاربة^(٤) كذلك ما رواه عباس المراكشي نقلاً عن ابن اليسع عن كميات الزيتون وأثمانها في سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م «قال ابن اليسع وما خرجت أنا من مراكش في سنة ثلاث وأربعين وخمسة إلا وهذا البستان الذي غرسه يبلغ مبيع زيتونة وفواكهة ثلاثين ألف دينار مؤمنية بحسب رخص الفاكهة بمراكش»^(٥) وقد أشار المقدسي إلى كثرة الزيتون في مدينة فاس بقوله «وهو بلد كثير الخيرات والتين والزيتون»^(٦) كذلك كثرت زراعته بمدينة درعة^(٧).

٧ — الكتان : ولم يكن محصوله بوفرة بقية المحاصيل وقد زرع بقرية

-
- (١) ابن غازي : الروض الـهـتون ص ٢ .
 (٢) ابن زيدان : اتحاف أعلام الناس ج ١ ص ٢٣ ط ١ سنة ٢٩٠ ،
 إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٥٧ ، عباس المراكشي : الأعلام
 ج ١ ص ٦٤ ، ٦٥ .
 (٣) ابن غازي : الروض الـهـتون ص ٣ .
 (٤) العيني : معقد الجمال ج ٢٠ قسم ٤ ص ٧٨٢ ، ابن الأثير :
 الكامل ج ٨ ص ٢٩٨ .
 (٥) عباس المراكشي : الأعلام ج ١ ص ٨٦ ، ٨٧ .
 (٦) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٢٩ .
 (٧) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٦ .

أم ربيعة^(١) وكذلك زرع بمدينة كُثرت وقد أشار صاحب الاستبصار بأنها كانت تعرف ببصرة الكتان « وتعرف أيضا ببصرة الكتان لأن أهلها كانوا يتبايعون بالكتان^(٢) » .

٨ — الحناء والكمون والكرامية : وقد كُثرت زراعته بمناطق درعة وبجلماسة ، ففي منطقة درعة تكثر زراعته ومنها تجلب إلى جميع البلاد لطيبها وله مزية في البيع على سواها^(٣) وقد أشار ابن سعيد إلى شجر الحناء بدرعة بقوله « والحناء يكبر بها حتى يكون في قوام الشجر يصعدون إليه ومنها يأخذون بلوره ويتجهز به إلى كل الجهات لعدم وجوده غيرها عندهم^(٤) » كما أن شجر الحناء ينبت على جانبي نهر درعة^(٥) وبجانب الحناء بدرعة كانت هناك زراعات الكمون والكرامية والنيلج وهو النيلة^(٦) كذلك تكثر زراعة الحناء والكمون والكرامية بمدينة بجلماسة ويصدر إلى جهات المغرب المتفرقة^(٧) .

ومن العرض السابق يمكننا أن نلاحظ مدى انتشار المناطق الخصبية بالمغرب الأقصى ، والتي جادت فيها أنواع كثيرة من المزروعات ، وأنتجت لنا محاصيل وفيرة من القمح والشعير والقطن وقصب السكر والزيتون والكتان والحناء والكمون والذرة وغير ذلك من الحبوب .

الفواكه : شهدت منطقة المغرب الأقصى فترة من الازدهار في زراعة الفاكهة بأنواعها المختلفة ولم تشر المراجع التي اطلعت عليها إلى اهتمام ولاية الأمر من المرابطين بزراعة الفواكه وعلى العكس من ذلك اهتم خلفاء الموحدين بغرس البساتين وزراعة الفواكه بها حيث اهتم الخليفة عبد المؤمن ومن جاء بعده بغرس البساتين المختلفة التي كانت تنتج مختلف الثمار ، فعبد المؤمن غرس بستاناً كبيراً خارج مدينة مراكش يقول البيهقي « وفي عام خمسين زار — أي

(١) ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٠٦ .

(٣) مجهول : الاستبصار ص ١٨٩ .

(٤) ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١١ .

(٥) ابن سعيد المغربي : بسط الأرض ص ٥٨ .

(٦) ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١١ .

(٧) ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١١ .

عبد المؤمن بن علي — قبر الامام المهدي وهبط إلى سلا وبقي فيها عامين اثنى ثم رجع إلى مراكش وغرس البحيرة التي بشتلولية ثم رجع إلى سلا^(١) وقد صور لنا ابن الخطيب مساحة هذا البستان ومقدار الفواكه التي ينتجها بقوله « وإن الخليفة عبد المؤمن غرس خارج مراكش بستاناً طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منه فيه كل فاكهة تشبه الأنفوس وجلب إليه الماء من أغمات واستنبط عيوناً كثيرة^(٢) » وبجانب هذا البستان كان هناك بستان الصالحة الذي أنشأه الخليفة عبد المؤمن وهو بستان كبير من جملة بستانين أجدال بمراكش ولا زال مشهوراً بهذا الاسم إلى الآن^(٣) .

فلما تولى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إهتم بغراسة البساتين كوالده يقول صاحب كتاب الاستبصار « وأحدث الخليفة بعده ابنه أبو يعقوب بحائر مثلها في الغرس بل أجمل ، وجلب لها المياه وأخذها في صهاريج أعظم من المتقدمة^(٤) » .

حتى إذا تولى المنصور الموحدى غرس بستاناً كبيراً طوله اثنا عشر ميلاً وعلى إحدى جانبيه مجموعة كبيرة من أشجار النارجيل يبلغ عددها أربعائة شجرة بين كل اثنين إما ليمونة وإما ريحانة^(٥) ولم يكن اهتمام ولادة الأمر بالغراسة قاصراً على العاصمة وما حولها ، وإنما تعداه إلى المدن المغربية الأخرى فقد كثرت البساتين في مدينة فاس^(٦) كذلك مدينة مكناسة يقول صاحب كتاب الاستبصار « وأحدث فيها الأمر العالي — أيد الله دوامه — بحائر عظيمة في نهاية من الاتساع وجلب لها ماء نهرها وأمر بغرسها زيتوناً وكروماً^(٧) » وامتألت بساتين فاس ومكناسة بأنواع كثيرة من الفواكه الصيفية والخريفية^(٨)

-
- (١) البيهقي : أخبار المهدي بن تومرت ص ١٢٠ .
 (٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠٩ ، ١١٠ .
 (٣) محمد المنوني : العلوم والآداب ص ٢٤٠ .
 (٤) مجهول : الاستبصار ص ٢١٠ .
 (٥) مستند المنونى : العلوم والآداب ص ٢٤١ .
 (٦) دجيزيل : الاستبصار ص ١٨١ ، ابن غازي : الروض الهتون ص ٣ ، ابن سعد : تاريخ الأنظار ج ١ ص ١٦ .
 (٧) مجهول : الاستبصار ص ١٨٧ .
 (٨) ابن غازي : الروض الهتون ص ٣ .

هذه البساتين المتعددة أنتجت كميات وفيرة من الفواكه المختلفة من الثمر والعنب والتين والرمان والسفرجل والتفاح على أصناف وكذلك الكمثرى والمشمش والبرقوق والخوخ وغالب ذلك على عدة أنواع والتوت على قلة والجوز واللوز والليمون وال نارنج والبطيخ واسمه عندهم الدلاع (١) .

فاذا ما حاولنا التعرف على مدن المنطقة وأنواع الفاكهة التي تشتهر بها لوجدنا أن العاصمة مراكش كانت أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعناب وفواكه وجميع الثمرات (٢)

كما أن مدينة فاس أنتجت مختلف الفواكه والثمار وكان بها تفاح حلو يعرف بالأطرابلس جليل حسن الطعم والرائحة (٣) كذلك كان بها التين (٤) . أما مدينة مكناسة فقد كثرت فيها زراعة الكروم (٥) وقد أشار ابن غازي إلى تنوع الفواكه في مكناسة بقوله « وهي كثيرة الفواكه والمزارع . . فيها أنواع كثيرة من الهلالج المسمى بقرب الأندلس العبقري ويسمونه البرقوق لا يكاد يوجد مثله في غيرها من البلاد كثرة وطيباً . . وفيها المشمش المسمى بالأندلس البرقوق، وفيها أنواع من التماح طيبة من جملتها نوع يسمى الطرابلس حلو عطر . . وفيها أنواع كثيرة من الأجاص — الكمثرى أو البرقوق على اختلاف — وفيها سفرجل كبير حلو وحامض . . وفيها أنواع من الرمان كثيرة طيبة . . ورماتها القديم منه يقال له القابس وهو جليل شديد الحلاوة وفيها الجوز والخوخ وفيها من أنواع العنب الأبيض والأسود كثير يطبخ ولا يربب وفيها من التين أنواع » (٦)

فاذا ما اتجهنا إلى المناطق الشمالية لوجدنا كثرة الفواكه والثمار . فجبل

-
- (١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٧٥ ، ١٧٦ ، عبد العزيز بن عبد الله : المعجم التاريخي ص ١٠ ، ١١ .
(٢) مجهول : الاستبصار ص ٢١٠ ، عباس المراكشي : الاعلام ج ١ ص ٦٤ .
(٣) مجهول : الاستبصار ص ١٨١ .
(٤) المقدسي : احسن التقاسيم ص ٢٢٩ .
(٥) مجهول : الاستبصار ص ١٨٧ .
(٦) ابن غازي : الروض الهتون ص ٢ ، ٣ .

نعمارة كان كثير الأعناب والفواكه (١) أما مدينة سبتة فكانت تصدر الفواكه إلى ما حولها لكثرة ما يغرّس بها من أصناف الفواكه المختلفة (٢) أما مدينة نكر وهي تجاور جبل نعمارة فلأنها كانت كثيرة البساتين طيبة الفواكه لا سيما الكمثرى والرمان (٣) كذلك مدينة تطوان كانت كثيرة الفواكه والثمار (٤).

فاذا ما اتجهنا جنوب العاصمة مراكش لوجدنا مدينة أنعمات وما بها من كثرة البساتين والفواكه ومنها الحوز واللوز والبلح (٥) أما جبل درن فقد تنوّعت فيه الفاكهة وقد أشار الإدريسي إلى ذلك بقوله « وفي هذا الجبل — أى درن — من الفواكه التين الكثير الكبير الطيب المتناهي في الطيب البالغ الحلاوة وفيه العنب المستطيل العسلي الذي لا يوجد في أكثره نوى ومنه يتخذ الزبيب الذي عليه يتنقل ملوك المغرب لرقّة قشرته وعذوبة طعمه واعتدال غذائه وفيه الحوز واللوز وأما السفرجل والرمان فيكون به منهما ما يباع الحمل منه بقرط واحد وبه من الآجاص والكمثرى والمشمش كل غريبة وكذلك الإترج والقصب الحلو حتى أن أهل هذا الجبل لا يبيعونه بينهم ولا يشترونه لكثرة وعندهم شجر الزيتون والخرنوب المشهى وسائر الفواكه (٦) وكان العنب بجبل درن كثيراً حتى أن قبائل المصامدة المقيمة أكثر عيشهم إنما هو من العنب والزبيب (٧) وكذلك مدينة بلماسة امتلأت بمختلف الفواكه من نخل وعنب ورمان (٨) وقد أشار ياقوت إلى أصناف البلح بمدينة بلماسة فذكر أن فيها ستة عشر صنفاً من التمر ما بين عجوة وغير ذلك (٩) وقد تميزت هذه

-
- (١) مجهول : الاستبصار ص ١٩٠ .
 (٢) الإدريسي : وصف المغرب والأندلس ص ١٦٧ ، ابن سعيد :
 نزهة الأنظار ج ١ ص ٢٧ .
 (٣) مجهول : الاستبصار ص ١٣٦ .
 (٤) مجهول : الاستبصار ص ١٣٧ .
 (٥) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٠ ، مجهول : الاستبصار
 ص ٢٠٧ .
 (٦) الإدريسي : وصف المغرب والأندلس ص ٦٤ ، ٦٥ .
 (٧) مجهول : الاستبصار ص ٢١١ .
 (٨) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية ص ١٤٨ ط ٢ ت دى
 سلان ، ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٠ ، المقدسي : أحسن التقاسيم
 ص ٢٣١ .
 (٩) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٣ ص ٤٥ .

الأصناف واشتهرت بحلاوتها يقول ابن سعيد « وبها نخل كثير وأنواع من التمر لا يشبه بعضها بعضاً ، وفيها الرطب المسمى بالبرني أخضر اللون شديد الحلاوة صغير النوا » (١) .

أما منطقة السوس وقاعدتها مدينة أيجلي فكانت كثيرة البساتين والتمر وجميع الفواكه (٢) وقد أشار الادريسي إلى تنوع الفاكهة في منطقة السوس بقوله « وبلاد السوس قرى كثيرة وعماراتها متصلة بعضها ببعض وبها من الفواكه الحليلة أجناس مختلفة وأنواع كثيرة كالحوز والتين والعنب العذاري والسفرجل والرمان الأمليس والأترج الكبير المقدار الكثير العدد وكذلك المشمش والتفاح المنهد وقصب السكر الذي ليس على قرار الأرض مثله طولا وعرضاً وحلاوة وكثرة ماء » (٣) .

ومن هذا العرض لمدن المغرب الأقصى وما تشتهر به من فواكه نلاحظ تنوع الفواكه وكثرتها ، تلك الفواكه التي غطت احتياجات السكان وزاد عن حاجتهم وصارت رخيصة الثمن حتى أن حمل التمر في مدينة أيجلي ببلاد السوس ربما يبع بما دون كراء الدابة من الجنان إلى السوق (٤) .

وبجانب هذه الزراعات المختلفة كانت هناك أنواع مختلفة من الخضضر التي قام الفلاحون بزراعتها ومن هذه الخضضر الخيار والقتاء واللفت والباذنجان والقرع والجزر واللوبيا والكرنب وغير ذلك من أنواع الخضضروات (٥) .

الغابات :

يضاف إلى هذه الثروة الزراعية من المحاصيل والفواكه تلك الغابات التي نبتت في أجزاء متفرقة من البلاد نتيجة لتنوع السطح والمناخ ، وهذه الغابات أمدت البلاد بكميات وفيرة من الأخشاب التي استخدموها في كثير من

(١) ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١١ .

(٢) مجهول : الاستبصار ص ٢١٢ .

(٣) الادريسي : وصف المغرب والاندلس ص ٦١ ، ٦٢ .

(٤) مجهول : الاستبصار ص ٢١٢ .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٧٦ .

الصناعات ومنها صناعة السفن ، وقد تناثرت هذه الغابات في مناطق متفرقة ، فالعاصمة مراكش قبل بنائها كانت قرية صغيرة في غابة من الشجر^(١) وكذلك قرية أم ربيعة وهي تقع في جنوبي أحد أودية المغرب الأقصى وكان بجوارها غابة كبيرة ملتفة^(٢) كذلك جبل درن وما به من أشجار كثيرة^(٣) وأيضاً مدينة نفيس وما بها من أشجار كثيرة^(٤) ،

هذه الغابات احتوت على أنواع كثيرة من الأشجار أهمها : أشجار الأرز وهو ينبت بالأطلس المتوسط والريف^(٥) والعرعر وهو شجر عظيم خشبه جيد وله رائحة طيبة ويستعمل في الصنائع الخشبية^(٦) والزان الأخضر وهو أكثر أنواع شجر الغابات كذلك شجر البلوط والصنوبر والأركان^(٧).

الثروة الحيوانية :

وقد صاحب كثرة الغرس والزراعات المختلفة ، أن حظت البلاد بثروة حيوانية كبيرة نتيجة لاختلاف السطح والمناخ مما نتج عنه أقاليم رعوية كثيرة وخاصة في منطقة الأطلس الأوسط حيث أنه أقل ارتفاعاً من الأطلس الكبير مع وفرة في الأمطار مما نتج عنه انتشار المراعى^(٨) وقد أشار ياقوت الحموي إلى المراعى بمدينة البصرة إحدى مدن الشمال بقوله « والبصرة مدينة كبيرة وهي أوسع تلك البلاد مرعى وأكثرها ضرعاً ولكثرة ألبانها تعرف ببصرة الدبان »^(٩) كما أشار صاحب كتاب الاستبصار إلى أهل جبل فازاز واشتغالهم بالرعى بقوله « ومن الجبال المشهورة ببلاد المغرب فازاز ، وهو جبل كبير تسكنه أمم كثيرة من البربر ويطردهم الثلج عنه فينزلون إلى ريف البحر الغربي وهم أهل كسب من الغنم والبقر والحيل »^(١٠) كذلك قرية آنفال حيث كثرت

-
- (١) ابن سعيد : نزهة الانظار ج ١ ص ١٧٥ .
 - (٢) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٤ .
 - (٣) مجهول : الاستبصار ص ٢١١ .
 - (٤) نفس المرجع السابق ص ٢٠٨ .
 - (٥) محد الفاسي : التعريف بالمغرب ص ١٨ .
 - (٦) نفس المرجع السابق ص ١٩ .
 - (٧) نفس المرجع السابق ص ١٩ .
 - (٨) عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٢ .
 - (٩) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ١ ص ٦٥٣ .
 - (١٠) مجهول : الاستبصار ص ١٨٧ .

فيها المواشي والإبل والبقر نتيجة لخصوبة المرعى بها^(١) كما أن المرعى غطت مناطق واسعة في الجنوب في منطقة أعوام انتشرت المراعى^(٢) ، وأيضاً مواطن المثلثين في جنوب تلك الصحراء التي تمتد بين بلاد المغرب الأقصى والسودان فإن سكانها من المثلثين لم يكونوا يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا فاكهة وإنما امواهم الانعام نتيجة لانتشار المرعى^(٣) وهذه المراعى التي انتشرت في أنحاء البلاد ضمت بين جنباتها كثيراً من الحيوانات المستأنسة من الخيل والبغال والحمير والابل والبقر والغنم^(٤) وقد أشار البيهقي إلى بعض هذه الحيوانات في إحدى حصون المرابطين والتي استولى عليها الموحدون «وحصن تافر ككوت في كيك غيفره غزاه البشير مع أصحابه ومات عمر بن يندوك فأخذنا له مائة وخمسين فرساً ومات فيهم خمسمائة رجل وغنمنا في غنيمتهم خمسمائة حمار دون البقر والغنم»^(٥) .

وقد اشتهرت المراعى بتلمسان بجودة خيولها حيث كانت تسمى الخيل الراشدية ولها فضل على سائر الخيول^(٦) كما أن جبل فازاز اشتهر بكثرة التتاج في الخيل^(٧) وقد وصف صاحب كتاب الاستبصار هذه الخيول بقوله «وخيول هذا الجبل من أعتق الخيول لصبرها وخدمتها وهي مدورة القدور حسنة الخلق والخلق^(٨)» وما يدل على كثرة التتاج في الخيل أن الخليفة عبد المؤمن استطاع أن يبعث إلى الأندلس في إحدى الحملات العسكرية اثني عشر ألف حصان وذلك لنجدة قرطبة التي حوصرت في سنة ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م بواسطة الفونسو ملك طليطلة^(٩) .

لذلك زخرت المراعى بالجمال التي استخدمها السكان في أغراض متنوعة

-
- (١) ابن سعيد : نزهة الانظار ج ١ ص ١٤ .
 - (٢) ابن رسته : الأعلام النفيسة ص ٣٦٠ .
 - (٣) السلوى : الاستقصا ج ٢ ص ٣ .
 - (٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٧٦ .
 - (٥) البيهقي : أخبار المهدي ص ١٢٩ .
 - (٦) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٧١ .
 - (٧) ابن سعيد المغربي : بسط الأرض ص ٧٥ .
 - (٨) مجهول : الاستبصار ص ١٨٧ .

(٩) Murphy : The History of the Mahometan, P ; 131

كالزراعة والتجارة (١) كما أن المرابطين استخدموا الجمال وبأعداد وفيرة في معاركهم يقول ابن الخطيب « وأنهم — أى المرابطين — خرجوا من الصحراء في ثلاثين ألف رجل مسرج ففتحوا سجلماسة سنة ٤٦٠ هـ (٢)، كما أن الأعداد الوفيرة من الجمال التي استخدمها يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة كان لها دور مؤثر في نتيجة المعركة لصالح المرابطين (٣) يقول ابن سعيد « فلما عبرت جيوش يوسف بن تاشفين عبر في آخرها وأمر بعبور الجمال فعبر منها بما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جمالا قط ولا كانت خيلهم رأت صورها ولا سمعت اصواتها فكانت تدعر منها وتقلق » (٤).

وقد عاش في جنوب البلاد حيوان اللمط ومن جلده كانت تصنع الدرق اللمطية المستخدمة في المعارك (٥) وقد وصف البكري هذا الحيوان بقوله « ومما في هذه الصحراء من الحيوان اللمط وهو دابة دون البقر لها قرون دقاق حادة لذكرائها وإنائها وكلما كبر الواحد طال قرنه حتى يكون أكثر من أربعة أشبار وأجود الدرق وأغلاها ثمناً ما صنع من جلود العواتق منها وهي التي طال قرناها لكبر سنّها » (٦).

وبجانب حيوان اللمط الموجود بالصحراء كانت هناك دواب الفنك والكباش الدمانية وقد وصفهما البكري بقوله « ودواب الفنك أكثر شيء في هذه الصحراء ومنها يحمل إلى جميع البلاد وعندهم الكباش الدمانية خلفها خلف الضأن إلا أنها أجمل وشعرها شعر الماعز لا أصواف لها وهي أحسن

(١) G.A. Jackson : Algiers ; being a complete, P ; 67.

(٢) ابن الخطيب : رقم الحلل ص ٥١ ، ٥٢ .

(٣) د. على محمد حموده : تاريخ الأندلس السياسي والعمراني

ص ٢٧٥ ،

De Gayanos The History of Mohametan Dynasties P; 279

(٤) ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١٧٠ .

(٥) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية ص ١٧١ ، ابن سعيد :

بسط الأرض ص ٤٦ .

(٦) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية ص ١٧١ .

الغنم خلقاً وألواناً^(١) .

وهكذا عاشت في المنطقة أنواع من الحيوانات المستأنسة كالخيل والبغال والحمير والأغنام والجمال واللمط والقتك .

أما بالنسبة للطيور الداجنة فقد ربي السكان أنواعاً كثيرة منها الأوز والحمائم والدجاج^(٢) ، وقد اهتم سكان المدن وخاصة مدينة فاس بتربية الدجاج وحمايته في أقفاص كبيرة^(٣) .

وبالنسبة للحيوانات غير المستأنسة فكانت تعيش في الغابات والمناطق الصحراوية والتي كان يقوم السكان باصطيادها واستغلالها ، فمنها الأسود التي سكنت كثيراً من مناطق المغرب الأقصى في غابات قرية ايكسيس الكثير من الأسود^(٤) يقول الادريسي « والأسود فيها — أى قرية ايكسيس — ظاهرة للناس عادية عليهم بالليل والنهار لا تستر في غياضها وبهذه القرية المسماة ايكسيس بيت متخذ لصيد الأسود حتى أنه ربما صيد منها في الجمعة الثلاثة والأربعة والأكثر من ذلك والأقل^(٥) » كذلك كان بجوار وادي أم الربيع غيضة كبيرة ويصف الادريسي ما بها من أسود « وهى غابة كبيرة ملتفة والأسود بها كثيرة وربما أضر بالمار والحلىء غير أن أهل تلك النواحي لا يهابونها وقد تمهروا في مقاتلتها بأنفسهم من غير سلاح^(٦) وكانت المناطق الجبلية بين فاس وتامسنا ممتلئة بالأسود والتي تعود الناس على اصطيادها^(٧) .

وبجانب الأسود كانت هناك أسراب النعام التي انتشرت في أماكن متفرقة ، وقد عاش النعام ومعه الغزلان في المنطقة الصحراوية التي بنيت عليها مدينة مراكش^(٨) وكذلك بقرية أنفال حيث اجتمعت أسراب كبيرة

(١) نفس المرجع السابق ص ١٧١ .

(٢) القلقشندي : صبيح الأعشى ج ٥ ص ١٧٧ .

(٣) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٤ ص ٦٣٩ .

(٤) ابن سعيد : نزهة الأقطار ج ١ ص ١٤ .

(٥) الادريسي : وصف المغرب والأندلس ص ٧٢ .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٧١ .

(٧) Budgett Meakin ; The Land of the Moors, P : 53

(٨) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ١٩ ت د. احسان .

من النعام يقول الادريسي « وقبالها — أى قبالة قرية أنفال — فحص طويل وقد انحشرت إليه طيور النعام فهي فى أكنافه سارحة وعلى مراقبه دارجة وهى آلاف لا تحد ولا تعد وأهل تلك النواحي يصيدونها طردا بالخليل فيقبضون منها جملا كبارا وصغاراً ، وأما بيضها الموجود فى هذا الفحص فلا يحاط به كثرة ولا يحصل ومنه يحمل إلى كل البلاد »^(١).

الثروة السمكية .

كان لموقع المغرب الأقصى وامتلاكه لشاطئين احدهما يطل على البحر المتوسط والآخر يطل على المحيط الاطلسى مع كثرة الأنهار التى تتفرق وديان المغرب الأقصى ومرتفعاته أثر كبير فى تزويد البلاد بثروة سمكية حيث مارست طائفة من سكان البلاد مهنة الاصطياد من شواطئ البحار وعلى ضفاف الأنهار فى الأنهار القريبة من مراكش كان الصيادون يصطادون كميات كثيرة من الأسماك ، يقول ابن المؤقت « وأما الأنهار القريبة منها — أى من مدينة مراكش فتعددها منها النهر المعروف بوادى أسيل بباب الربع وعليه قنطرة وماؤه يخرج من عيون كثيرة من رؤوس الجبال القريبة من المدينة ، ويوجد فى هذا النهر من أنواع الحوت شئ كثير وفى كل يوم يحملون منه أحمالاً إلى المدينة »^(٢) كذلك النهر الذى يمر بمدينة فاس والمسمى بنهر الجواهر به أنواع كثيرة من الأسماك ذكرها الجزنائى بقوله « ويخرج منها أنواع الحوت مثل اللين والبورى والسلباح والبوفة ذلك كله حوت لذيد الطعم كثير المنفعة »^(٣) أما وادى سبو فقد تميز بأسمائه ذات الأوزان الكبيرة حتى أن بعض هذه الأسماك تزن الواحدة قنطاراً وأزيد^(٤) وقد أشار صاحب كتاب الاستبصار إلى الأنواع المختلفة من الأسماك الموجودة بوادى سبو بقوله « ويتصيد فى هذا الوادى الشابل الكثير ويطلع إلى رأس العين أو قريب منه ، ويدخل فى هذا الوادى الحوت الكثير ، ويتصيد فى بعض الأحيان البورى الكبير ، وذكر التتقاء أنه بيع واحد بثلاثة عشر درهماً ورطل كبير منه بدرهم ونصف ويصل إلى المدينة

(١) الادريسي : وصف المغرب والاندلس ص ٧١ ، ٧٢ .

(٢) ابن المؤقت : السعادة الابدية ج ١ ص ٢٢ .

(٣) الجزنائى : زهرة الآس ص ٢٥ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٥ .

الحوت الكبير المسمى عندهم بالقرب يحمله الحمار . . وأخبرني الثقات أنه كان بمدينة فاس ومكناسة الحوت الذى يسمى بالشوله وهو الذى ما يوجد من أنواع السمك» (١) أما مدينة سلا وما يجرى بجوارها من نهر المعمورة فإنه يتميز بالحوت الطيب المعروف بالشابل (٢) وقد أشار الادريسي إلى كثرة الأسماك بهذا الوادى وكيف أنها لا تباع ولا تشتري لكثرتها يقول الادريسي « وفي هذا الوادى أنواع من السمك وضروب من الحيتان والحوت بها لا يكاد يباع ولا يشتري لكثرتة وجودته» (٣) ، أما مدينة سبتة وهى مدينة ساحلية فقد كثرت بها أنواع الأسماك وقد أعطانا الادريسي وصفاً للطريقة المستخدمة فى اصطياد هذه الأسماك يقول الادريسي «ومدينة سبتة مصايد للحوت ولا يعد لها بلد فى إصابة الحوت وجلبه ويصايد بها من السمك نحو مائة نوع ، ويصاد بها السمك المسمى التّن الكبير وصيدهم له يكون زرقاً بالرماح وهذه الرماح لها فى أسننها أجنحة بارزة تنشب فى الحوت ولا تخرج وفى أطراف عصيها شرائط القنب الطوال ولهم فى ذلك درية وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك» (٤) كما أنه يصاد بشواطئ سبتة أحجار المرجان الذى يصنع كعقود من الخرز ويصدر إلى الخارج (٥) .

أزمات اقتصادية :

شهد المغرب الأقصى منذ أن تأسست على أرضه دولة المرابطين حتى نهاية حكم الناصر الموحدى فترة من الرخاء الاقتصادى والانتعاش المادى نتيجة لما تنتجه الأرض من المزروعات والثمار وما صحب ذلك من وفرة فى الثروة الحيوانية والسمكية ، ألا أن هذا لم يمنع من وجود بعض فترات القحط وارتفاع فى الاسعار وقلة فى أنواع الطعام .

وبتتبع العوامل التى أدت إلى حدوث هذه الأزمات لوجدنا أنها ترجع إلى : كوارث طبيعية كالزلازل والفيضانات ، أو نتيجة لاشتعال المعارك

-
- (١) مجهول : الاستبصار ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
 (٢) نفس المصدر السابق ص ١٤١ ، ابن سنييد : بسط الأرض ص ٧٢ .
 (٣) الادريسي : وصف المغرب والاندلس ص ٧٣ .
 (٤) الادريسي : وصف المغرب والاندلس ص ١٦٨ .
 (٥) نفس المرجع السابق ص ١٦٨ .

والحروب في البلاد وما يصحب ذلك من تدمير وهلاك، أو نتيجة للاستعدادات الضخمة للقيام بحملة عسكرية والتي تستلزم تجنيد ثروات البلاد من أجل هذا الهدف مما يؤدي إلى قلة المواد وارتفاع في الاسعار وأخيراً إهمال بعض الولاة مما يترتب عليه قلة في المواد الغذائية .

أما بالنسبة للعامل الأول : وهى الكوارث الطبيعية فذلك كالزلازل الذى أصاب المغرب سنة ٤٧٢ بأضرار بالغة يقول ابن أبي زرع « وفي ربيع الآخر منها — أى سنة ٤٧٢ هـ — كانت الزلزلة العظيمة التى لم ير الناس بالمغرب مثلاً هدت البنيان ومات فيها خلق كثير تحت الردم ، ووقعت الصوامع والمنارات ولم تزل الزلزلة تتعاقب وتتكرر فى كل يوم وليلة من أول يوم ربيع الآخر إلى آخر يوم من جمادى الآخر من السنة المذكورة » (١) أو تصاب منطقة بسيل جارف يكتسح كل ما يلقاه فى طريقه كما حدث بطنجة سنة ٥٣٢ / ١١٣٧ م حيث كان السيل العظيم الذى حمل الديار والجندومات فيه خلق عظيم من الناس والدواب (٢) كما أن الفيضانات لعبت دورها فى إتلاف كثير من الاراضى الزراعية وما يصحب ذلك من قلة فى المحصول وارتفاع فى الاسعار كما حدث ذلك فى سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م يقول ابن عذارى « وفى هذه السنة — أى سنة ٥٣٦ هـ - أكل وادى فاس باب السلسلة وفتقت جزيرة مليلة وأكل البحر طنجة إلى الجامع الكبير ، وأكل وادى سبو أخية لمتونة وكان عبد المؤمن إذ ذاك فى غيائه وبلغ الشعر فى ذلك الوقت ثلاثة دنائير للسطل » (٣).

كما أن الجراد كان يشكل فى بعض الأحيان خطراً على المزروعات ، وذلك كما حدث بمدينة أنعمات وإبادة الجراد لكثير من المحصولات وشكوى أهل أنعمات لأحد الصالحين الذى دعا لهم فصرف الله عنهم ذلك الوباء (٤) ، كما أن الأوبئة أحدثت قحطاً بمدينة فاس سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م (٥) .

(١) ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ٩٦ ت الفيلىلى .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٩٦ ت د. احسان .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٩٩ ت د. احسان .
عباس .
(٤) ابن المؤقت : السعادة الابدية ج ١ ص ٦٦ .
(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٨٣ .

والعامل الثانى : الحروب والثورات وما تحدثه من عدم استقرار بالبلاد وانتهاب للأموال وشيوع للخوف والدمار كل هذا أدى إلى سوء الأحوال الاقتصادية ففى حصار عبد المؤمن بن على لمدينة مراکش قبيل فتحها سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م عانى أهلها كثيراً من الشدائد يصورها ابن الخطيب بقوله « وطال الحصار عليهم واشتد الجهد بهم ولكثرة خيلهم ورجلهم نفد طعامهم وفنيت مخازنهم حتى أكلوا دوابهم ومات منهم بالجوع ما ينيف على مائة وعشرين ألفاً ، ولما طال عليهم الحصار واشتدت أحوالهم وهلكوا جوعاً حتى أكلوا الجيف وأكل أهل السجن بعضهم بعضاً وعمدت الحيوانات كلها والحنة بأسرهما ، واختبرت المخازن فلم يوجد بها شيء وعجزت عساكر اللاتونيين حينئذ عن الدفاع والامتناع» (١).

كما أن الغزوة الهلالية لإفريقية واتجاههم إلى أراضي المغرب وما صاحب ذلك من غزو وتخريب كانت له آثاره الاقتصادية السيئة على المغربين الأدنى والأوسط وانعكست هذه الآثار على المغرب الأقصى ، وقد أشار ابن خلدون إلى آثار هذه الغزوة على اقتصاديات المغرب بقوله « وإفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومى كله عمراناً تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدن» (٢) .

أما العامل الثالث : فكان الاستعداد العسكرى لبعض الحملات وما يصحب ذلك من اعداد الأقوات والمؤن للجيش المحارب مما يؤدى إلى ارتفاع فى الأسعار وقلة فى الطعام فقد غلت الاسعار بمراكش سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م (٣) وهى نفس السنة التى تجهز فيها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لغزوته الكبرى بالاندلس والى انتهت بهزيمته عند أسوار شنترين وإصابته إصابة قاتلة سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م .

(١) ابن الخطيب : الحلال الموشية ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ١٥٠ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٤٩ تطوان .

كذلك حدثت مجاعة بمراكش سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م^(١) وهي نفس السنة التي حدثت فيها معركة الأرك وانتصار الموحدين فيها على جنود الروم بالأندلس وقد سبق الغزو حشد للجنود واعداد المؤن والطعام وكل ما يلزم المعركة .

والعامل الرابع تمثل : في تقصير الولاة واهمالهم مما تسبب عنه قلة الأقوات وارتفاع الأسعار وهذا ما عاناه الناصر الموحدي هو وجنوده سنة ٦٠٧ هـ . ١٢١٠م أثناء توجهه إلى الأندلس للغزو فقد قاسى الجنود والناس قلة في الطعام والأقوات نتيجة لإهمال الولاة يقول ابن عذارى : «سبب سطوته بجماله في هذه السنة سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠م أن لقي الناس في هذه الحركة من تنوع المسغبة وانتشار المجاعة وتعذر الأوطار وعدم الأقوات ما لم يعهده الناس وعلموه في أسفارهم القاضيات ولا عارضهم مثلها فيما ترددوا فيه من زمن الفتن المبيرات»^(٢) وقد أغضب كل ذلك الخليفة الناصر وعاقب كل من تسبب في قلة الأقوات^(٣) .

وهكذا أحدثت العوامل السابقة بعض الأزمات الاقتصادية والتي تمثلت في قلة الأقوات وارتفاع في الاسعار .

ب — الصناعة

لعبت الصناعة دورها في ازدهار الحياة الاقتصادية بالمغرب الأقصى منذ تأسست على أرضه دولة المرابطين وحتى نهاية حكم الناصر الموحدي ، وازدهرت كثير من الصناعات المختلفة في ظل حكام المغرب الأقصى ، نتيجة لاستقرار الأوضاع في البلاد وتوفير المواد الخام التي تقوم عليها الصناعة مع وجود الخبرة الصناعية المتمثلة في الأيدي العاملة والتي دفعت حركة التصنيع في البلاد إلى الامام ، وهذه الصناعات وإن كانت بسيطة ومتماشية مع ظروف العصر الذي وجدت فيه إلا أن أول ما كانت تهدف إليه هو سد احتياجات المواطنين من المواد الاستهلاكية وغيرها . وقد ظهرت عدة صناعات منها صناعة السفن وصناعة الزجاج والنسيج وصناعة أدوات النحاس والحديد^(٤)

(١) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٢٣٣ تطوان .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣٣ تطوان .

(٣) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٢٣٤ تطوان .

(٤) Julien ; Histoire de L'Afrique du Nord, P ; 122.

(م ١٧ — الحضارة)

وقد أشار عبد الرحمن بن أبي بكر إلى كثرة المصانع في عهد الناصر الموحدى حتى بلغ عدد مصانع الصابون سبعة وأربعين مصنعا ، ومصانع سبك النحاس مائة واثنى عشر مصنعا ومصانع الفزل مائة وواحد وأربعين مصنعا وغير ذلك من المصانع (١) . وقد قامت الصناعة في المنطقة على دعامتين أساسيتين الدعامة الأولى : توفر المواد الخام في البلاد وهذه المواد إما معدنية أو نباتية أو حيوانية :

(١) أما المواد المعدنية فقد تنوعت مادتها وأماكنها ومن هذه المواد معدن الحديد وكانت أماكنه بين سلا ومراكش في موضع يدعى لبستار (٢) وكذلك قرب مدينة فاس (٣) أما معدن النحاس فقد وجد بمنطقة السوس (٤) وبالقرب من مدينة سجلماسة (٥) وبمدينة داي (٦) وقد أشار الإدريسي إلى قيمة هذا النحاس بقوله « ومدينة داي في أسفل جبل خارج من جبل درن وهي مدينة بها معدن النحاس الخالص الذى لا يعدله غيره من النحاس بمشارك الأرض ومغارها وهو نحاس حلو لونه إلى البياض يتحمل الترويح ويدخل في لحام الفضة وهو إذا طرق جاد ولم يتشرخ كما يتشرخ غيره من أنواع النحاس » (٧) أما معدن الفضة فكانت مناجمه في مناطق متفرقة منها مدينة زجندر المشهورة بمعدن الفضة وقد اشتغل أهلها باستخراج هذا المعدن من مناجمها (٨) كذلك حصن وركناس وجد به معدن الفضة (٩) وفي تادلا أيضاً وجد معدن الفضة (١٠)

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر : البستان في اخبار الزمان مخطوط بورقمه ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٣٦٢ .

(٣) عبد العزيز بن عبد الله : المعجم التاريخي ص ٤٢ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٣٦٢ .

(٥) البكرى : المغرب في ذكر بلاد افريقية ص ١٥٢ .

(٦) الإدريسي : وصف المغرب ص ٧٤ ، ابن سعيد : نزهة الاقطار

ج ١ ص ١٦ .

(٧) الإدريسي : وصف المغرب والاندلس ص ٧٤ .

(٨) المراكشى : المعجب ص ٣٦١ .

(٩) نفس المرجع السابق ص ٣٦٢ .

(١٠) ابن سعيد : بسط الارض ص ٧٥ .

كما أنه وجد أيضاً بمدينة تامدلت (١) أما معدن التوتيا والمستخدم في صنع النحاس الأحمر وتحويله إلى أصفر فقد كان موجوداً بمنطقة السوس (٢) . وبالنسبة لمعدن الذهب فقد أشار المراكشي إلى أنه مستورد من بلاد السودان (٣) غير أنه وجد ببعض مناطق الجنوب وخاصة في سبلماسة (٤) ويبدو أنه لم يكن بوفرة المعادن الأخرى الموجودة بالبلاد مع سهولة استيراده من أقاليم السودان مما دفع المراكشي إلى القول بعدم وجوده بأرض المغرب الأقصى . وبجانب الذهب كانت هناك بعض أنواع المعادن النفيسة الأخرى والتي قامت عليها صناعة الحلى وغيرها من أدوات الزينة كالصدف الثمين والمستخرج من نهر فاس (٥) والياقوت وقد أشار البكري إليه بقوله « وهماك جبل يقابل جبل هزرجة فيه أجناس من الياقوت المتناهي في الجودة وحسن اللون » (٦) وهناك بعض المواد الخام والتي دخلت في صناعة مواد البناء وغيرها وهي الحصص والصلصال والرمال المختلفة الأنواع وكانت قريبة من مدينة فاس (٧) ويبدو أن ولاية الأمر كانوا يشرفون على هذه المناجم واستغلالها فيما يعود بالنفع على المواطنين ، فحين بلغ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أن السكان المقيمين بهرغة قد استولوا على المعدن المكتشف بأرضهم واشتصوا به أنفسهم توجه إلى المكان بنفسه وأقام عليه حصناً وحرساً يقول ابن عذارى « وذلك أنه لما صبح عند أمير المؤمنين أن المعدن الذي يجبل السوس على مقربة من بلاد درغة قد أخرج منه شيء لم يعهد في قديم الزمان ولا سلمه قط أهل هذا المكان وظهر أهل هذا الجبل بما تحصل في أيديهم منه واغتصبوه لأنفسهم دون حق منه للخليفة فعسكر في أول صفر من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وخرج من حضرة

-
- (١) البكري : المغرب ص ١٦٣ .
 (٢) المراكشي : المعجب ص ٣٦٢ .
 (٣) نفس المرجع السابق ص ٣٦٣ .
 (٤) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٣١ ، البكري : المغرب ص ١٥١ .
 (٥) الجيلاني : رسالة في ذكر كرمين أسس مدينة فاس ص ٤٥ ،
 الجزنائي : زهرة الآس ص ٢٥ .
 (٦) البكري : المغرب ص ١٥٣ .
 (٧) الجيلاني : رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس ص ٤٦ ،
 الجزنائي : زهرة الآس ص ٢٥ .

مراكش لتحصينه فوصل إلى المعدن المذكور فنظر الخليفة في بناء حصن عليه وأسكنه بالأجناد واستعد لتحصينه غاية الاستعداد فلما كمل غرضه أقلع بمحلاته عنه (١) .

(ب) وأما المواد النباتية والتي قامت عليها بعض الصناعات فيأتي في مقدمتها تلك الغابات التي غطت أجزاء من أرض المغرب الأقصى ومنها كانت تؤخذ الأخشاب وخاصة خشب الأرز لصناعة السفن (٢) وبجانب ذلك فقد أقام السكان أنواعا من الصناعات على بعض المحاصيل الزراعية كاستخراج الزيوت من الزيتون وكصناعة الملابس القطنية من محاصيل القطن ، وصناعة السكر من قصب السكر ، وقد سبق أن أشرت إلى وفرة هذه المحاصيل وأماكن زراعتها .

(ج) أما الصناعات التي اعتمدت على الحيوانات فيأتي في مقدمتها صناعة دباغ الجلود والتي حصلت على خامه الجلد من الحيوانات المختلفة التي كانت تملأ المراعي المنتشرة في البلاد واستخدام أوبار الأغنام في صناعة الملابس الصوفية ، كذلك كانوا يأخذون جلود حيوان اللمط ويصنعون منه الدرق اللمطية وهي خفيفة لينة لا ينفذ فيها النشاب ولا يؤثر فيها السيف وهي من أحسن الترس (٣)

أما الدعامة الثانية : في ازدهار الصناعة فهو توفر الأيدي العاملة المدربة على الصناعات المختلفة والتي انتشرت في أنحاء البلاد ، وقد اكتسب الصناع خبرتهم نتيجة للمهارات والخبرات التي تجمعت لديهم عبر السنين والتي توارثها الأبناء عن الأجداد بالإضافة إلى أهمية موقع المغرب الأقصى كهمزة وصل بين المشرق والاندلس فهو في طريق القادم من المشرق قاصداً الأندلس وبالعكس ، ومنهم من كان يفضل الإقامة في البلاد ، كذلك تلك الهجرات المبكرة من إفريقية والتي قصدت المغرب الأقصى في عهد دولة الاداراسة واختلاطهم بالسكان مما نتج عنه تنوع الخبرات .

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٤٢ تطوان .

(٢) ابن سعيد : بسط الأرض ص ٧٣ .

(٣) أبو حامد الاندلسي : تحفة الالباء ص ٤٤ باريس سنة ١٩٢٥ .

حتى إذا قامت دولة المرابطين وصار إقليم الأندلس خاضعاً لسلطانهم استفاد ولاية الأمر من خبرات أهل الأندلس في الصناعة ، فيوسف بن تاشفين حين عمد إلى التوسع في البناء والتعمير استقدم كثيراً من صناع الأندلس (١).

وجرى على نفس السياسة خلفاء الموحيدين من استقدام الصناع المهرة إلى العاصمة وغيرها من المدن المغربية ، وذلك للاستفادة بخبراتهم ، ومن أمثلة ذلك استقدام الخليفة عبد المؤمن الحاج يعيش الملقب والذي أمره بصناعة مقصورة هندسية ميكانيكية بالمسجد الجامع . وقد وضعت المقصورة على حركات هندسية ترفع بها عند خروج الخليفة وتخفض لدخوله (٢) كذلك حين عزم الخليفة عبد المؤمن على كسوة مصحف سيدنا عثمان فإنه حشد عدداً كبيراً من الصناع من العاصمة وسائر بلاد المغرب والأندلس فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين والزواقيين والمجلدين وغيرهم (٣) ولا شك أن تشجيع ولاية الأمر للصناع الأندلسيين على الهجرة إلى البلاد (٤) قد أثمر تقدماً صناعياً نتيجة الاحتكاك المباشر بين الصناع من البلاد والخبرة الصناعية الوافدة من الأندلس ، وحتى في أوقات الحروب وما يصحبها من سفك الدماء فإن الخليفة عبد المؤمن كان حريصاً على حياة الصناع حتى لا تصاب الصناعات باضمحلال وقد ظهر ذلك جلياً حين استولى عبد المؤمن بن علي ، على العاصمة مراکش وقضائه على المرابطين ، فإنه أبقى على أرواح الصناع وفي ذلك يقول ابن الأثير « لما فتح عبد المؤمن مراکش أقام بها واستوطنها واستقر ملكه ولما قتل عبد المؤمن من أهل مراکش فأكثر فيهم القتل ، اختفى كثير من أهلها فلما كان بعد سبعة أيام أمر فنودي بأمان من بقي من أهلها فخرجوا فأراد أصحابه المصامدة قتلهم فقتلهم وقال هؤلاء صناع وأهل الاسواق من ننتفع به ، فتركوا وأمر

(١) الجزنائي : زهرة الاس ص ٣٢ ، ابن القاضى : جنوة الابتباس ص ٢٧ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ١٣٩ حاشية .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١٤١ ، السلاوى : الاستقصا

ج ٢ ص ١٢٨ .

(٤) Nevill : A Survey of North West, P ; 135. (٤)

بإخراج القتلى من البلد فأخرجوهم» (١) .

المراكز الصناعية :

نهضت الحركة الصناعية في عدة مدن مغربية ، وصارت مراكز صناعية منذ قيام دولة المرابطين .

ويأتى في مقدمة هذه المدن : مدينة فاس التى شهدت تقدماً صناعياً في عهد المرابطين ومن جاء بعدهم من الموحدين وقد وصفها ابن سعيد المغربي بقوله « وهى — أى مدينة فاس — من خواص المغرب الملاء بالخيرات والصنائع الغربية » (٢) وقد أشارت المراجع إلى كثرة المصانع والدور التى تشغل بالصناعات المختلفة في مدينة فاس (٣) وفي ذلك يقول الجزنائي « والأطرزة — أى دور الأطرزة — ثلاثة آلاف وأربعة وتسعين ، ودور عمل الصابون سبعة وأربعين ودور الدباغين ستا وثمانين ، ودور الصباغ مائة وستة عشر ودور تسبيك الحديد والنحاس اثني عشر ، ودور عمل الزجاج إحدى عشرة . . واحجار عمل الكاغيد اربعمائة ، كل ذلك بداخل المدينة ، ودور الفخارة مائة وثمانين بخارج المدينة ، نقل عن المشرف على بى عمر الأوسى ، قال نقلته من خط الغريغمر مشرف المدينة أيام الناصر بن المنصور » (٤) ، وهذه الاحصائية تعطيا أنواع الصناعات المختلفة الموجودة بالمدينة ومنها الصناعات النحاسية التى برع فيها أهل فاس (٥) ومن هذه الصناعات الأنبارية، والصوانى والطسوت والأدوات المنزلية وغيرها (٦) كما أن بها دارين لسلك النقود احدهما فى عدوة القرويين والأخرى بعدوة الاندلسيين وكانت تسبك بهما النقود الذهبية (٧)

-
- (١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٠١ .
(٢) ابن سعيد : بسط الأرض فى الطول والعرض ص ٧٤ .
(٣) الجيلاني : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس مخطوط ص ٥٧
ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٨ ، الجيلاني : تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٣١٧ ، عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٢٦ ،
أبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٥٧ .
(٤) الجزنائي : زهرة الآس ص ٣٣ .
(٥) مجهول : الاستبصار ص ١٨١ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٥٧ .
(٦) احسان حقى : المغرب العربى ص ٢٠٧ .
(٧) المنونى : العلوم والفنون ص ٢٥٧ .

وقد أورد أبو الحسن على وهو من فقهاء القرن السابع الهجرى فى كتابه الدوحة المشبكة الطرق المختلفة التى كان يتبعها الصاع فى تنقية الذهب والفضة من الشوائب المختلفة حتى يصبح جاهزا لسكه كعملة نقدية (١) وروايته تعطينا صورة لمدى معرفتهم بالمعادن وطريقة تنقيتها وصوغها ، كذلك برع أهل فاس فى صناعة المنسوجات والملابس وصبغها بالألوان المختلفة (٢) أما صناعة الورق فقد ازدهرت وبلغت شأوا عظيما (٣) ونظرا لموقع فاس قريبا من الأراضى المزروعة بالزيتون ، فإن أحمال الزيتون كانت تنجه إليها يوميا وذلك حتى يقوم الصناع باستخراج زيت الزيتون وتصديره إلى المناطق المتفرقة من البلاد ، كذلك كان لموقع المدينة قريبا من وادى سبو سببا فى إنشاء دار لصناعة القوارب والسفن الصغيرة (٤) وأيضاً دبغ الخلود وصناعتها مما اشتهرت به مدينة فاس (٥) .

أما العاصمة مراكش فتأتى فى المركز الثانى من حيث أهميتها الصناعية إذ أنها كانت حديثة البناء حيث بنيت فى سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م ، ولم تكن لها قدم مدينة فاس التى بنيت فى سنة ١٩٣هـ / ٨٠٧م فى عهد إدريس بن إدريس والتى اكتسبت مكانة دينية وثقافية وتجارية عبر السنين ، وقد اشتهرت مراكش بصناعة الصابون والمنسوجات (٦) كذلك اشتهرت بصناعة الزرابى (٧) أما المدن الساحلية مثل سبتة وطنجة فقد اشتهرتا بصناعة السفن ، وقد نالت صناعة السفن عناية ولادة الأمر لاحتياجهم لها فى نقل جنودهم إلى

-
- (١) أبو الحسن : الدوحة المشبكة ص ٣٤ ، ٣٥ ت د . حسين مؤنس مدريد سنة ١٩٦٠ .
 (٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٣ ص ٨٤٢ ، عبد العزيز بنعبد الله : جغرافية المغرب ص ٤٥ ط ٢ سنة ٥٦ ، روجيه : فاس فى عصر بنى مرين ص ٣٢ ، ترجمة د . نقولا زيادة .
 (٣) محمد المنونى : العلوم والفنون ص ٢٥٦ .
 (٤) الجزائى : زهرة الآس ص ٢٧ .
 (٥) روجيه : فاس فى عصر بنى مرين ص ١٣٣ ، ص ١٣٤ ترجمة د . نقولا زيادة .
 (٦) د . حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٠٦ إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٨ .
 (٧) احسان حقى : المغرب العربى ص ٢٠٨ ، د . زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٤٣٨ ط ١ سنة ٤٨ .

الأندلس وحماية شواطئ البلاد من غارات الأعداء ، وقد أعطانا المؤرخون صورة لدى استعداد المصانع بكل من سبتة وطنجة في بناء السفن ذلك أن الخليفة عبد المؤمن حين أمر بإنشاء الأساطيل في جميع سواحل بلاده فإن سبتة وطنجة أنشأتا مائة قطعة من السفن المختلفة الأشكال والأنواع^(١) ومن أنواع هذه السفن : المراكب والحراقات والمسطحات والطرائد والشلنديات وغيرها^(٢) وبجانب صناعة السفن التي اشتهرت بها سبتة ، فإن أهلها كانوا يستخرجون المرجان من البحر ويصنعونه خرزاً وعقوداً ويصدرونه إلى غانة وجميع بلاد السودان^(٣) كذلك ازدهرت صناعة الورق بمدينة سبتة^(٤) ، كما أن قصر مصمودة وهو يبعد اثني عشر ميلاً غرب مدينة سبتة كانت تصنع به المراكب والحرايق التي يسافر فيها إلى بلاد الأندلس^(٥) .

أما منطقة السوس : فقد اشتهرت بصناعة الخبز^(٦) وصناعة السكر الذي كان يصدّر إلى بقاع كثيرة من الأرض^(٧) كذلك كانت تلمسان ومدينة داي وبلاد ركرامه مراكز لصناعة المنسوجات القطنية والصوفية^(٨) أما مدينة نول لمطة فقد اشتهرت بصناعة الدرق اللمطية التي تستخدم في الحرب وكذلك السروج والعجم والأقتاب المعدة لخدمة الابل^(٩) .

-
- (١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢١٤ ، ابن أبي زرع : الانيس المطرب ج ٢ ص ١٦٤ ت الفيلالي ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٤٣ ، محمد ياسين الحموي : تاريخ الاسطول العربى ص ١٣٣ ، محمد الرشيد ملين : عصر المنصور ص ٨٤ .
(٢) محمد المنونى : العلوم والفنون ص ٢٥٥ ، ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ .
(٣) الادريسي : وصف المغرب والأندلس ص ١٦٨ ، بوفيل : الممالك الاسلامية في غرب افريقيا ص ١٠٩ ، ١١٠ ترجمة د. زاهر رياض .
(٤) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٢٦ ، ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٥٨ .
(٥) الادريسي : وصف المغرب والأندلس ص ١٦٨ .
(٦) ابي حامد الأندلسي : تحفة الالباء ص ٢١١ .
(٧) الادريسي : وصف المغرب والأندلس ص ٦٢ .
(٨) أنس سعيد المغربي : بسط الأرض ص ٥٩ ، ابي زكرياء : بغية الرواد ج ١ ص ٢٢ ، ابن سعيد : نزهة الايتظار ج ١ ص ١٦ .
(٩) الادريسي : وصف المغرب ص ٥٩ ، العمري : مسالك الابصار ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٩ ، ابن سعيد : نزهة الايتظار ج ١ ص ١٠ ، د. شعيرة : الرابطون تاريخهم السياسى ص ١٨ .

أما مدينة أيجلى فقد اشتهرت بسبك النحاس وصناعته وتصديره إلى السودان^(١) وبالنسبة لصناعة السلاح فقد قامت صناعته في معظم المدن المغربية وذلك لتفي بحاجات الحملات الحربية المتكررة سواء أكانت هذه الحملات متجهة إلى الشرق أم متجهة إلى الأندلس ، ومن هنا كان ولادة الأمر في حاجة دائمة لأنواع السلاح المختلفة وبكميات وفيرة كما حدث حين أمر الخليفة عبد المؤمن بالاستعداد في سنة ٥٥٧هـ / ١٠٦١م لغزو الأندلس فلإن مصانع السلاح كانت تنتج له يومياً عشرة قناطير من السهام^(٢) بخلاف الأسلحة الأخرى من سيوف وقسي ورماح وخوذات ، وغيرها من أدوات القتال . وبالنظر إلى الصناعات السابقة بمدن المغرب الأقصى نجد مدى تنوعها وقيامها بحاجات المواطنين نتيجة لكثرتها وما زاد عن حاجتهم كان يصدر إلى الخارج كصناعة النحاس والسكر وبعض المنسوجات .

(١) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية ص ١٦٢ ، مجهول : الاستبصار ص ٢١٢ .
(٢) ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ١٦٥ ت الفيلاي ، عبد الله كئون : مدخل إلى تاريخ المغرب ص ٤٧ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٤٣ .

الفصل الثالث

التجارة الداخلية والخارجية

١ - التجارة الداخلية

شاركت التجارة الداخلية والخارجية في دفع عجلة الاقتصاد بالبلاد منذ أن تأسست دولة المرابطين وحتى نهاية حكم الناصر الموحدى ، في هذه الفترة الزمنية شهدت الأسواق التجارية المتبنة في مختلف المدن المغربية حركة تجارية ونشاطاً في البيع والشراء ، وذلك نتيجة للاستقرار السياسي الذي أظّل البلاد إذ أصبحت السلطة السياسية في يد أمراء المرابطين ومن جاء بعدهم من خلفاء الموحدين ، وقد حرص ولادة الأمر على استتباب الأمن وإشاعة الهدوء مما سهل الاتصال التجاري بين المدن المختلفة ، كما إن امتداد السلطة السياسية لولاية الأمر حتى حدود طرابلس شرقاً وصحراء المرابطين جنوباً والأندلس شمالاً ، هذا الاتساع المكاني أعطى امتداداً للحركة التجارية بين مدن المغرب وغيرها من مدن المغرب الأوسط والأدنى ، وأيضاً مدن الأندلس وشجع التجار الذين كانوا يخضعون في هذه المناطق لحكومة واحدة ، على التنقل بحرية تامة مما ساعد على تنشيط البيع والشراء وتبادل المنتجات .

وقد سبق أن أشرت في الفصل السابق إلى مدى التقدم الزراعي الذي شهدته البلاد مع تنوع في المحاصيل والمزروعات والفواكه ، وكيف أن الأرض كانت تنتج هذه المحاصيل بوفرة ، وأحدث ذلك رخصاً في الأسعار وأن هذه المحاصيل كانت تباع في الأسواق . كذلك تناولت من قبل الحركة الصناعية وكيف أن المواد الخام والأيدى العاملة أنتجت كثيراً من الصناعات المختلفة ، والتي كانت تباع في الأسواق ، ولا شك أن ازدهار التجارة يقوم على ما تنتجه البلاد من أنواع البضائع المختلفة ، مع ما يرد إلى أسواقها من المنتجات الخارجية .

وقد وجه ولادة الأمر اهتمامهم للتجارة والعمل على تنشيطها وذلك بتشجيع

التجار على الحجىء إلى البلاد^(١) كما أن بعضهم كان ينتهز فرصة توليته الحكم ويقوم بحركة تنشيط للتجارة وذلك عن طريق إسقاط الضرائب السابقة وتوزيع الأموال مما ينشط حركة البيع والشراء بالبلاد وذلك ما فعله الخليفة يوسف بن عبد المؤمن في سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٣م ، يقول ابن صاحب الصلاة « وأمنهم من المخاوف فيما تقيّد عليهم في الدواوين — وذلك حين أفرج عن المسجونين بمناسبة تجديد البيعة سنة ٥٦٣هـ — فزاد الانبساط والنشاط عند الناس بفضلهم وصفحهم وعدله ، وزادت المخازن أثر ذلك وفوراً ، ونمت الأرزاق ، وعمرت الأسواق بالبيع والتجارة الراجحة ودرّت على الناس بالخيرات دروراً واغتنبط العالم به وببيعته ، وكثر المال في الأيدي من توالى سمحه وبركته »^(٢).

كما أن ولاية الأمر وفروا سبل الإقامة للتجار وذلك بإنشاء الفنادق فيوسف ابن تاشفين حين دخل مدينة فاس سنة ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م بنى الحمامات والفنادق وغيرها^(٣) كما أن الموحدون بنو الفنادق في مدن مغربية كثيرة في مدينة قصر صنهاجة بنى الموحدون فندقين يقول صاحب كتاب الاستبصار « وأحدث الأمر العالى في موضعه — أى في مدينة قصر صنهاجة — في هذه المدة فندقين عجيبين وتمدّن هذا الموضع وشرف وقصده التجار واستوطنوه »^(٤) كذلك المنصور الموحدى أنشأ عدة فنادق بمراكش^(٥) وهذه الفنادق كانت تقوم بمهمة مزدوجة فوظيفتها الأولى خزن المتاجر والسلع لتوزيعها بعد ذلك بالحملة والثانية لإيواء الزلاء من التجار الوافدين وكلما كانت المدينة عامرة بالمتاجر كلما ازداد عدد فنادقها .^(٦)

(١) Budgett ; The Moorish Empire. P ; 54,

Mahmoud Brelvi ; Islam In Affrica, p ; 187

(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٣٤٧ .

(٣) ابن أبى زرع : الاتيس ج ٢ ص ٤٤ ت الفيلى .

Nevill Barbour ; Morocco, ٢ ; 52

(٤) مجهول : الاستبصار ص ١٨٩ .

(٥) عباس المراكشى : الاعلام ج ١ ص ٦٤ .

(٦) د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية

ص ١٦٩ ط ١ سنة ٦٩ دار النهضة .

الطرق التجارية :

ومما ساعد على ازدهار الحركة التجارية تلك الطرق التي كانت تربط معظم المدن المغربية بعضها ببعض وبجانب ذلك تلك المجموعة من الأنهار التي كانت تشق وديان المغرب والتي كانت تزخر بالقوارب والمراكب محملة بالبضائع المختلفة فوادي سبو كانت تسير فيه القوارب والسفن الصغار إلى البحر الأعظم^(١) كما أن وادي أم الربيع كانت تسير فيه المراكب أيضاً^(٢) وغير ذلك من الأنهار التي كانت تربط المناطق الداخلية بالسواحل المطلّة على البحر المتوسط والمطلّة على المحيط الأطلسي .

وبجانب هذه الأنهار كانت هناك طرق القوافل والتي حرص ولاية الأمر على حراستها وبناء الأحواض على جانبيها لحزن المياه اللازمة للقوافل العابرة^(٣) وكانت هناك طرق للقوافل ممتدة من الشمال حيث المدن الساحلية سبتة وطنجة وتتصل بالمدن الداخلية^(٤) كما أنه كانت هناك طرق متوازية تمتد من الشرق إلى الغرب^(٥) وقد أعطانا الإدريسي وصفاً لإحدى الطرق التي كانت تقطعها القوافل من شرق البلاد حتى جنوبها يقول « وأما من أراد الطريق من تلمسان إلى مدينة سجلماسة بالقوافل تسير من تلمسان إلى فاس ، ومن فاس إلى صفروى إلى تادلة إلى أنعمات ، إلى درعة إلى سجلماسة »^(٦) كما أن ليفي بروفنسال أعطانا رسماً توضيحياً لشبكة الطرق التي كانت تربط بين مدن المغرب الأقصى خلال حكم الموحدين والتي توضح مدى الارتباط الوثيق بين المدن المغربية .

المراكز التجارية :

نشطت الحركة التجارية الداخلية بمدن المغرب الأقصى وذلك نتيجة

-
- (١) الجيلاني : رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس ص ٤٨ مخطوط .
(٢) ابن سعيد : نزهة الأناظر ج ١ ص ١٤ .
(٣) أشباح : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٧٧ .
S.P. Scott : History of Moorish Empire, V.2 P ; 206.
(٤) أحمد بن عبد السلام : الريف بعد الفتح الإسلامي ص ٥١ تطوان .
سنة ١٩٥٤ .
(٥) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢١ .
(٦) الإدريسي : وصف المغرب ص ٨١ .

للإزدهار الزراعى والصناعى الذى عاشته المنطقة خلال حكم المرابطين والموحدين حتى حكم الناصر الموحدى ، وصارت الأسواق التجارية تموج بحركة دائبة فى البيع والشراء ، وفى نقل المتاجر من مدينة إلى أخرى فى ظل الأمن والاستقرار الذى ساد المنطقة .

وفى مقدمة المراكز التجارية العاصمة مراکش والتى حظت باهتمام التجار باعتبارها عاصمة امبراطورية مترامية الأطراف وأتتها التجارات من كل مكان (١) وصارت مراکش مركزاً للتجارة الداخلية بين مدن الشمال ومدن الجنوب (٢) ، وقد ساعد على ازدهارها تجارياً اهتمام ولادة الأمر بعمارتها والبناء فيها وخاصة فى عهد الموحدين ، فالمنصور الموحدى بنى فيها عدة أسواق وفنادق (٣) ومن هذه الأسواق سوق كبير قصدها التجار من كل مكان ذلك فى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م (٤) وكانت السلعة الرئيسية فى أسواق مراکش هى الزيتون وزيته الذى كان يكفى حاجة أهل المدينة ويصدر إلى غيرها من المدن الأخرى (٥) .

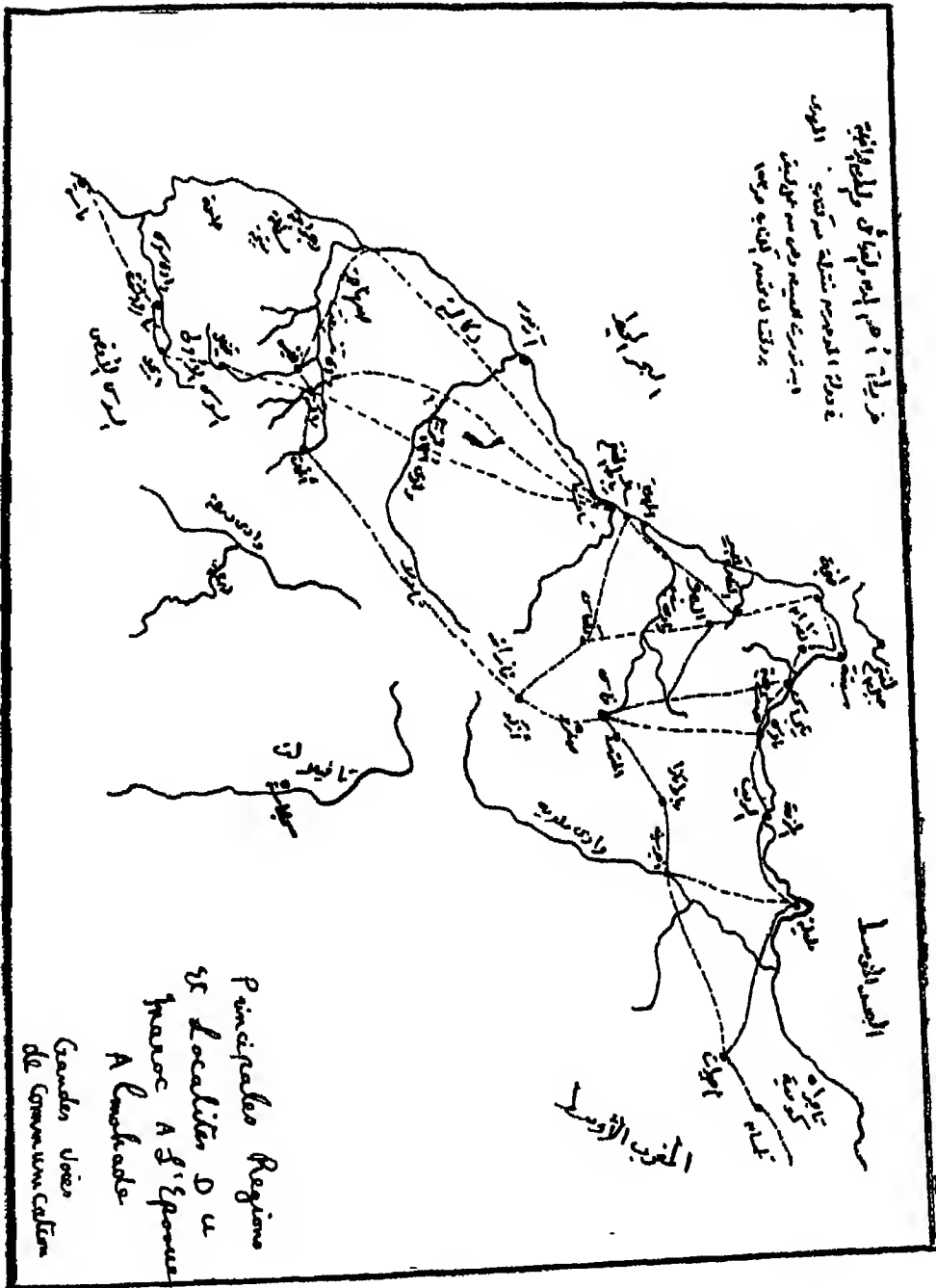
S. P. Scott ; History of Moorish Empire, V.2 P ; 257 (١)

(٢) عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١٠ .

(٣) مجهول : الاستبصار ص ٢١٠ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ٢١٠ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٢١٠ .



أما مدينة فاس فكانت مركزاً تجارياً هاماً أو كما يقول الإدريسي «قطب ومدار لمدن المغرب الأقصى»^(١) وهذا يرجع إلى موقعها الممتاز في قلب البلاد مع توفر المحاصيل الزراعية والصناعات المختلفة بها مما جعل أسواقها حافلة بأنواع البضائع المختلفة التي كانت تسد حاجة سكان المدينة وقد صور ذلك المراكشي بقوله «ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها إلا ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس فإنها لا تحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعوا إليه الضرورة بل هي توسع البلاد مرافق وتملؤها خيراً»^(٢) ومع اكتفاء سكان المدينة من السلع الأساسية المتوفرة بمدينتهم ، فإن الأسواق كانت تمتلئ بأنواع المتاجر التي كانت تأتيا مع القوافل القادمة من مدن المغرب المختلفة وفي ذلك يقول الإدريسي «ومدينة فاس هي حضرتها الكبرى ومقصدها الأشهر وعليها تشد الركائب وإليها تقصد القوافل ويجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والأمتعة الحسنة»^(٣) وصارت المدينة تعج بالتجار من مدن المغرب المختلفة الذين اتخذوا في أسواقها متاجر يصرفون فيها بضاعتهم وسلعهم وقد عبر عن ذلك الجيلالي بقوله «وانتقل إليها من جميع البلاد القاصية والدانية فليس من أهل بلد ولا إقليم إلا ولهم بها منزل ومتجر وصناعة ومتصرف واجتمع فيها ما ليس في مدينة من مدن الدنيا وأتت التجارات وأهل الصناعات من كل صقع»^(٤) ومن ناحية أخرى فإن القوافل التجارية كانت تخرج من مدينة فاس متجهة إلى المدن المغربية الأخرى كمدينة تازا ومكناسة وسلا ومراكش^(٥) حيث كان تجار فاس يحملون معهم الأقمشة والأحذية وأغطية الرأس^(٦).

-
- (١) الإدريسي : وصف المغرب والأندلس ص ٧٩ .
(٢) المراكشي : المعجب ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .
(٣) الإدريسي : وصف المغرب والأندلس ص ٧٩ .
(٤) الجيلالي : رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس ص ٥١ .
مخطوط .
(٥) روجيه : فاس في عصر بني مرين ص ١٢٨ ترجمة د. نقولا .
زيادة .
(٦) نفس المرجع السابق ص ١٢٨ .

أما مدينة صفروفا أنها كانت تصدر اللوز إلى مدينة فاس (١) كذلك حصن مغيلة ألقاط وكان حصناً كبيراً به سوق حافلة ويحمل منه التين إلى مدينة فاس وغيرها (٢)

وأيضاً كانت مدينة داي بها سوق حافلة ومحطة لتجار القوافل القادمين من فاس والبصرة وسجلماسة (٣) .

أما مدينة مكناسة فقد امتلأت بالأسواق العامة والتجارات المختلفة (٤) وقد تقدمت المدينة تجارياً في عهد الموحيدين حيث أصبحت محطة للمسافرين يبيعون ويشتررون بها وقد أشار إلى ذلك ابن غازي بقوله « وعمرت المدينة — أى مدينة مكناسة — والحوائر والبسائط ونفقت الأسواق وقويت التجارات وصار المسافرون ينزلون بالمدينة ويبيعون ويشتررون وكانت المدينة بدواة ثم تمدنت واكتسبت حضارة » (٥) .

أما مدينة تادلا فقد ازدهرت تجارياً وصارت بها الأسواق نتيجة اهتمام الموحيدين بها (٦) .

فاذا ما اتجهنا إلى جنوب البلاد لوجدنا عدة مراكز تجارية وفي مقدمتها مدينة أنعمات وكانت مركزاً لتجمع التجار المتجهين بتجاراتهم للصحراء وقد أشار إلى ذلك صاحب كتاب الاستبصار بقوله « وأنعمات هما مدينتان أحدهما تسمى أنعمات وريكة والأخرى أنعمات هيلانة وبينهما نحو ٨ أميال وبأنعمات وريكة يسكن الأعيان وبها ينزل التجار على القديم لأنها كانت دار التجهيز للصحراء » (٧) وبعبارة أخرى كانت مدينة أنعمات مركزاً لتسويق منتجات المغرب وتصديره إلى السودان . ومن ناحية أخرى مركزاً لتلقي تجارات

(١) مجهول : الاستبصار ص ١٩٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٩٣ .

(٣) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية ص ١٥٤ . الإدريسي : وصف المغرب والأندلس ص ٧٥ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٦ (٤) الإدريسي : وصف المغرب ص ٧٧ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار

ج ١ ص ١٧ .

(٥) ابن غازي : الروض الهمتون ص ٢ .

(٦) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٠ .

(٧) نفس المرجع السابق ص ٢٠٧ .

السودان وتصديره إلى المدن المغربية وغيرها . وقد أشار ابن سعيد إلى أنواع السلع التي يحملها تجار أنعمات إلى السودان بقوله « وأهل هذه المدينة — أي أنعمات وريكة — تجار مياسر يدخلون بلاد السودان بأعداد الجبال الحاملة لقناطر الأموال من أنواع النحاس والأكسية والثياب ، العجايم ، والمآزروصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار والعطر وآلات الحديد المصنوع »^(١) .

وقد لعبت سحلماسة نفس الدور حيث كانت مقصد الوارد والصادر^(٢) وكانت تصدر إلى المدن المغربية الأخرى بعض المحاصيل الزراعية كالقطن والكمون والكرأويا والحناء^(٣) كذلك كانت مدينة درعة مركزاً لتصدير بعض الحاصلات الزراعية كالحناء والكمون والكرأويا والنبيلج إلى مدن المغرب المختلفة^(٤) .

الأسواق :

انتظمت الأسواق بالمدين المغربية بطريقة تبدو متشابهة حيث انفردت كل صناعة بناحية معينة من السوق كسوق النحاسين وسوق الفاكهة وسوق الزياتين وسوق الأسماك وغير ذلك من الأسواق التي تضم عدة متاجر تتاجر في سلعة واحدة^(٥) وقد أشار إلى وجود الأسواق بمدينة فاس ابن القطان حين أشار إلى الحريق الذي حدث بها في سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م بقوله « وفيها — أي سنة ٥٣٣هـ — وقع الحريق في سوق مدينة فاس واحترق من رأس عقبة الخرازين إلى باب . . (بياض) واحترق سوق الثياب والقرايين — القراقون هم باعة الاقراق جمع قرق وهو ضرب من الانخفاف أو الصنادل — وغير ذلك من الأسواق إلا البقالون »^(٦) كما أن هذه الاسواق كانت مسقفة بتقنية

-
- (١) ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٢ .
(٢) الإدريسي : وصف المغرب ص ٦٠ ، العمري : مسالك الأبصار ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٠ .
(٣) نفس المصدرين السابقين ونفس الصفحات .
(٤) العمري : مسالك الأبصار ج ١ قسم ٢ ص ٣٥١ .
(٥) عثمان الكماك : الحضارة العربية في البحر المتوسط ص ٦٦ ، عبد العزيز بن عبد الله : جغرافية المغرب ص ٤٥ .
(٦) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٤٦ .
(م ١٨ — الحضارة)

الآجر أو بمعروشات العنب^(١) وقد أشار إلى هذه السقف ابن عذارى حين تحدث عن الحريق الذى أصاب أسواق مدينة مراکش فى سنة ٦٠٧ هـ - ١٢١٠م بقوله « وفى هذه السنة - أى سنة ٦٠٧ هـ - كان الحريق الشائع الضرر الحارى بقيسارية مراکش - أى سوق مراکش - وما اتصل بها وذلك ليلة الخميس الثالث عشر لجمادى الأولى والناس كما أووا إلى مضاجعهم وسكنوا إلى هدوهم وهجوعهم فتمكنت النار بيابس العياد وشقوق الثياب وأسرعت كالشهاب فى سقف الأسواق^(٢). ونظام الأسواق بهذا الشكل كانت له نظائر فى أسواق المدن الإسلامية الأخرى كالقاهرة وبغداد والموصل وتونس والجزائر^(٣).

وكانت الأسواق فى المدن المغربية لها أيام معلومة للسكان يتجهون إليها بسلعهم لبيعها ولشراء ما يلزمهم من الحاجيات ، فبعض الأسواق كان يقام يوم الجمعة من كل أسبوع كالسرق المعقودة على وادى درعة^(٤) كذلك السوق المعقودة فى قرية نصر بن جرو وهى قرية من مدينة سبتة كانت تعقد يوم الجمعة^(٥) وأيضاً مدينة أصيلة كانت سوقها تعقد يوم الجمعة^(٦) أما قصر ألى موسى وهى قرية من مدينة مكناسة فكانت سوقها تعقد يوم الخميس^(٧)، أما سوق بنى مغروات وهو آخر بلد مجكسة بمنطقة غمارة فكانت سوقهم يوم الثلاثاء^(٨) وأما سوق أنعمات وريكة فكان يوم الأحد^(٩). وكانت بعض الأسواق ترتفع فيها حركة البيع والشراء كما كان يحدث فى سوق أنعمات وريكة حيث كان يبلغ ما يذبح فى يوم السوق أكثر من مائة ثور وألف

-
- (١) عثمان الكعاك : الحضارة العربية ص ٦٦ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣٠ تطوان .
(٣) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ١٨٩ .
(٤) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقيا ص ١٥٢ ، مجهول : الاستبصار ص ٢٠٦ .
(٥) البكرى : المغرب ص ١٠٨ .
(٦) الادريسي : وصف المغرب والاندلس ص ٧٨ ، ابن سعيد : نزهة الاثظار ج ١ ص ١٧ .
(٧) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقيا ص ١٠٧ .
(٨) نفس المرجع السابق ص ١٥٣ .
(٩) نفس المرجع السابق ص ١٥٣ .

شاة وينفذ في ذلك اليوم جميع ذلك .

وكان التعامل بين المواطنين في الأسواق بالعملة التي كان يصدرها ولاية الأمر وفي بعض الأحيان يكون التعامل بين بعضهم بالأجل وقد أشار ابن أبي زرع إلى أن أحد الصالحين باع شحنة كبيرة من القمح إلى أهل فاس بالأجل « وفيها — أي سنة ٥٩٥ هـ — توفي الشيخ الصالح الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهدوي صاحب كتاب الهداية . . . وأصاب أهل فاس مجاعة كان عنده فيها ألف وسق من قمح فباعه كله من أهل الضعف بوثائق وأخبرهم بالثمن » (١) .

كما أن الأسواق كانت تحت مراقبة أمناء الاسواق وهؤلاء بدورهم كانوا تحت إشراف ولاية الأمر ، ومحاسبتهم المستمرة وذلك ما كان يفعله المنصور الموحدي « وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم » (٢) .

ب — التجارة الخارجية

كان لازدهار التجارة الداخلية في أسواق المغرب الأقصى ، وامتلاء الأسواق بالبضائع والمنتجات أثر في تنشيط حركة التجارة الخارجية ، إذ أصبحت الأسواق مقصد التجار والقوافل من كل مكان ، يقدمون إليها محملين بالبضائع المختلفة ويصدرون عنها وقد امتلأت قوافلهم بمنتجات البلاد وقد ساعد على تنشيط حركة التجارة الخارجية تلك المساحات الواسعة التي كانت تخضع سياسياً للمغرب الأقصى مع وجود حكومة مركزية قوية ساهرة على حماية الطرق وتوفير كل ما تحتاجه القوافل ، مما جعل المغرب الأقصى ممراً آمناً للقوافل القادمة من السودان والمتجهة إلى الأندلس وأوروبا ، كما أن الأسطول المرابطي الذي تكوّن في عهد المرابطين ، وزادت قوته في عهد الموحدين لعب دوره في تأمين الموانئ المغربية وحماية طرق التجارة البحرية في البحر المتوسط وبذلك نشطت الحركة التجارية بين المغرب والأندلس

(١) ابن أبي زرع : الانيس المطرب ص ٢١٨ طبع حجر .

(٢) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٨٥ .

وغيرها من الأسواق العالمية^(١) ومن ناحية أخرى فإن التخريب والدمار الذى أصاب افريقية على يد عرب بنى هلال كانت له آثاره التجارية السيئة على افريقية^(٢) ، اذ صرف التجار عن المرور فى الطرق المعتادة ، ومن ثم أصبح المغرب الأقصى الطريق المأمون فى نقل المتاجر من السودان إلى البحر المتوسط ومنه إلى الشرق وبالعكس .

الطرق التجارية :

ارتبط المغرب الأقصى بمراكز التجارة الخارجية بعدة طرق برية ، كذلك كانت تأتية البضائع عن طريق السفن التى ترسو فى موانئه حاملة شتى البضائع المختلفة وكان أهم هذه الطرق البرية والتى كانت تقطعها القوافل محملة بالبضائع ذلك الطريق الذى كان يربط البلاد بمنطقة السنغال والنيجر حيث يمر الطريق بمدن المغرب الأقصى الجنوبية كسجلماسة ودرعة متجهاً إلى أودغشت ثم منحى النيجر وحتى المناطق الممتدة للغرب^(٣) والفترة الزمنية التى يتقطعها المسافرون بين سجلماسة وغانة تبلغ نحو الخمسين يوماً^(٤) وكان طريق القوافل محفوفاً بالصعاب والشدائد حيث قلة المياه مع هبوب الرياح الساخنة غير أن التجار وأصحاب القوافل تغلبوا على هذه الصعاب باستخدام الجمال كمستودعات للمياه يقول ابن سعيد « وأول ما تلقاك من هذا الجزء شجر اليسر التى يقطعها المسافرون ما بين سجلماسة وغانة وهى طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش ووهج الحرور بما هبت فيها ريح جنوبية ، وتنشف المياه التى فى الغرب فهم يعدون لها المياه التى فى بطون الإبل ويجعلون على أفواهها لثلاً تأكل شيئاً ، فاذا ينشف الريح مياههم نحروا جملاً وشربوا ما فى بطنه^(٥) . وفى بعض الأحيان كانت القوافل المارة بهذا الطريق تتعرض

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٠١ .

(٢) لويس ارشيبالد : القوى البحرية ص ٣٨٥ ترجمة أحمد عيسى .

(٣) د. شعيرة : المرابطون : ص ٢٠ .

J.D. Fage ; An Introduction to the History of West Africa P ; ١٥.

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٨٤ .

(٥) ابن سعيد المغربى : بسط الارض ص ٤٧ .

لهجمات اللصوص ، غير أن حزم ولاية الأمر ويقظتهم وقمعهم بشدة كل من حاول التعرض للتجار ، جعل القوافل تزاوّل نشاطها في نقل المتاجر ، وقد أشار المقرئ إلى ما فعله السيد أبو الربيع وإلى بحلماسة في عهد الموحدين ببعض اللصوص الذين اعترضوا طريق القوافل يقول المقرئ « قال — أي السرخسي في رحلته — لى الفقيه أبو عبد الله محمد القسطلاني : دخلت إلى السيد أبي الربيع بقصر بحلماسة ، وبين يديه أنطاخ عليها رؤوس الخوارج الذين قطعوا الطريق على السفار بين بحلماسة وغانة وهو ينكت الأرض بقضيب من الأبنوس ويقول :

ولا غرو أن كانت رؤوس عداته جواباً إذا كان السيف رسائله
ومات بعد السمتة (١) .

أما الطريق الذي كان يربط المغرب الأقصى بالشرق فكان هناك طريقان : أحدهما يسير بحذاء الساحل حتى يصل إلى مصر (٢) والطريق الثاني من أودغشت وغانة وبحلماسة ومنها تسير القوافل في الصحراء حتى الواحات الداخلة في مصر (٣) وقد اتجهت القوافل إلى هذا الطريق وأصبح هو الطريق الرئيسي بين المغرب الأقصى والشرق بعد أن أصاب الطرق الأخرى العواصف الرملية ، وكثرة الفتن وهجمات اللصوص ، وقد أشار إلى ذلك ابن حوقل بقوله « وفيها الطريق من مصر إلى غانة فتواترت الرياح على قوافلهم ومفردتهم فأهلكتهم غير قافلة وأنت على غير مفردة ، وقصدهم أيضاً العدو فأهلكهم غير دفعة ، فانتقوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى بحلماسة (٤) وأصبحت بحلماسة مركزاً لتجمع تجار المشرق ومنه يتجهون بتجاراتهم إلى منطقة السودان يحملون بضائعهم ، ويعودون بالمال والربح الوفير ، يقول ابن حوقل « وكانت القوافل تبتاز بالمغرب إلى بحلماسة وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة

(١) المقرئ : نفح الطيب ج ٤ ص ١٠٤ (أورد المقرئ البيت هكذا وصحته :
ولا غرو أن كانت رؤوس عداته جواباً إذا السيوف كانت رسائله)
(٢) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٩٥ .
(٣) آدم مقل : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ٢ ص ٤١٣
ترجمة د. أبو زيد هـ ٣ سنة ٥٧ .
(٤) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٦٥ .

والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق ، فهم وأولادهم رتجاراتهم دائرة ومفردتهم دائمة وقوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة . ونعم سابغة ، قلماً يداينها التجار في بلاد الاسلام سعة حال » (١) .

وقد لعب الطريقان : طريق الجنوب وطريق الشرق وارتباطهما ببعض مراكز التجارة في المغرب الأقصى كدرعة وبجلماسة دورهما في تنشيط الحركة التجارية بالبلاد ، اذ أن هذه القوافل القادمة من الخارج كانت تشق طريقها عبر الطرق الداخلية للبلاد مارة بالمراكز التجارية لتبيع منتجاتها ولتحمل صادرات البلاد إلى المناطق الخارجية مما نتج عنه انتعاشاً ورواجاً في الحركة التجارية .

الموانئ التجارية :

كان الموقع الممتاز الذي تمتع به المغرب الأقصى ، في الطرف الشمالي الغربي من القارة الافريقية ، وامتلاكه لساحلين أحدهما يطل على البحر المتوسط والآخر يطل على المحيط الاطلسي ، واشتغال هذين الساحلين على عدة موانئ يستر الاتصال بالعالم الخارجي ، وربطت المغرب الأقصى بالأسواق الخارجية حيث قامت هذه الموانئ بشحن البضائع المستوردة إلى داخل البلاد ، ومن ناحية أخرى في استقبال البضائع القادمة من السودان ومن مدن المغرب الأقصى وتصديرها إلى الأندلس وأوروبا وغيرها من البلاد الخارجية .

وقد تمكنت هذه الموانئ من تأدية دورها في ظل حماية الأسطول المغربي سواء أكان مرابطاً أم موحدياً ، ذلك الأسطول الذي لم يكن نشاطه قاصراً على عمليات الجهاد وإنما أضاف إلى ذلك حماية الثغور من هجمات القراصنة (٢) ومن هنا فإن الموانئ المغربية أدت دورها في تنشيط حركة التبادل التجاري ، ومن هذه الموانئ المطلة على البحر المتوسط ميناء سبتة الذي كان يزخر بالحركة التجارية ، وكان يشبه في ذلك ميناء الاسكندرية يقول ابن سعيد « وهذه

(١) نفس المرجع لسابق ص ٦٥ .

(٢) د. أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب ص ٣٤٧ ، نفس المؤلف ، والدكتور السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢٦٣ بيروت سنة ١٩٦٩ ، عبد العزيز بتعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ٢ ص ٩٣ .

المدينة — أى سبتة — بين بحرين وهى ركاب البرين تشبه الاسكندرية فى كثرة الحط والإقلاع وفيها التجار الأغنياء الذين يتعاون المركب الكبير بما فيه من بضائع الهند وغيرها فى صفقة واحدة ولا يخرجون صاحبه إلى نقاص^(١) كما أن ميناء طنجة انتعشت به الحركة التجارية فكان يصدر منه الصوف والجلود والفواكه والشمع والعسل وكان يرد إليه الثياب والأسلحة وغير ذلك^(٢).

أما المحيط الأطلسى فقد زخر بعدة موانئ كانت تستقبل البضائع الأجنبية وفى نفس الوقت تصدر البضائع المحلية ، وفى مقدمة هذه الموانئ ميناء سلا الذى كان يستقبل السفن المختلفة ، فى مقدمتها السفن الأندلسية وفى ذلك يقول الإدريسي « ومراكب أهل اشبيلية وسائر المدن الساحلية من الأندلس يقلعون عنها — أى عن مدينة سلا — ويحطون بها بضروب من البضائع وأهل اشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير وهو بضاعتهم ويتجهزون منها بالطعام إلى سائر بلاد الأندلس الساحلية »^(٣) كذلك كان مرسى فضالة حيث كانت ترد إليه المراكب من بلاد الأندلس فتحمل منه أوساقاً من الشعير والحنطة والفول والحمص وتحمل منه الغنم والمعز والبقر^(٤) ومن مرسى فضالة إلى مرسى آنفأ أربعون ميلاً وهو مرسى مقصود تأتية المراكب وتحمل منه الحنطة والشعير^(٥) أما مرسى آسني فان المراكب كانت تحمل منه بضائعها المختلفة^(٦) وهذه الكثرة فى عدد الموانئ شجعت العديد من السفن المحملة بالمتاجر على الرسو بها مما نتج عنه نشاط فى الحركة التجارية .

الصادرات والواردات :

تنوّعت صادرات المغرب الأقصى وتعددت وذلك خلال فترة البحث ، إذ صارت البلاد تصدر بعض حاصلاتها الزراعية وما يصنع منها ، وبعضها

(١) ابن سعيد : بسط الأرض فى الطول والعرض ص ٧٣ .

(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٥٧ .

(٣) الإدريسي : وصف المغرب والأندلس ص ٧٣ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٧٣ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١

ص ١٥ .

(٥) ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٥ .

(٦) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٥ .

من ثروتها الحيوانية، وأخيراً بعض المعادن المصنّعة وغير المصنّعة وفي نفس الوقت استوردت البلاد بعض ما كان يلزمها من المواد الخام والمواد المصنّعة.

أما ما كانت تصدره البلاد من حاصلاتها الزراعية :

١ — القطن وما يصنع منه من المنسوجات القطنية^(١).

٢ — القمح^(٢).

٣ — السكر المستخرج من قصب السكر والمشهور باسم الطبرزد^(٣).

٤ — الزيتون والزيت المستخرج منه^(٤).

٥ — الحنّاء^(٥).

أما صادرات البلاد من الثروة الحيوانية والسمكية فهي :

١ — دواب الفنك وجلوده^(٦).

٢ — الحوت المعروف عندهم بالشابل^(٧).

٣ — الأصداف المستخرجة من شواطئ سبتة والتي يصنع منها الخرز والمسابيح^(٨).

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٨١ ، ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٧ .

(٣) الإدريسي : وصف المغرب والأندلس ص ٦٢ ، مجهول : الاستبصار ص ٢١٢ .

(٤) عباس المراكشي : الأعلام ج ١ ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٥) الإدريسي : وصف المغرب ص ٦١ ، ابن سعيد المغربي :

بسط الأرض ص ٥٨ ، العمري : مسالك الأبصار ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٠ ، ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١١ .

(٦) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية ص ١٧١ ، مجهول : الاستبصار ص ٢١٤ .

(٧) ابن سعيد المغربي : بسط الأرض ص ٧٢ .

(٨) الإدريسي : وصف المغرب والأندلس ص ١٦٨ ، د. إبراهيم طرخان : إمبراطورية غانة الإسلامية ص ٦٥ التأليف والترجمة سنة ١٩٧٠ .

أما المعادن المصدرة :

- ١ — الملح الذى يصدر إلى غانة (١).
- ٢ — النحاس المسبوك أى المصنع على شكل أدوات وآلات (٢).
- ٣ — النحاس الأصفر الخام كان يصدر فى بعض الأحيان (٣).
- أما أهم ما كانت تستورده البلاد :
- ١ — الذهب (٤) ٢ — الرقيق (٥) .
- ٣ — بعض أنواع الأقطان الخارجية والمنسوجات القطنية (٦) .
- ٤ — بعض أنواع النسيج البلنسى (٧)
- ٥ — العطر الهندى (٨) .
- ٦ — بعض أدوات المأكل المصنوعة من الخشب (٩) .

العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى وجنوب الصحراء :

شكلت التجارة المتبادلة بين المغرب الأقصى وجنوب الصحراء والذى يشمل منطقة غانة واقليم السودان خلال فترة البحث ركناً هاماً ومصدراً أساسياً فى التجارة الخارجية للبلاد ، ونشطت الحركة التجارية نتيجة لإخضاع المرابطين لأقاليم المغرب الأقصى المختلفة فى ظل حكومة واحدة تحرص على استتباب الأمن والنظام مما ساعد على انتظام القوافل التجارية المتجهة إلى جنوب الصحراء والقادمة منه ، كما أن المغرب الأقصى صار معبراً لتجارة

-
- (١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية ص ١٧١ ، إبراهيم طرخان : امبراطورية غانة الإسلامية ص ٦٥ .
 - (٢) مجهول : الاستبصار ص ٢١٢ ، البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية ص ١٦٢ .
 - (٣) مجهول : الاستبصار ص ١٨١ .
 - (٤) المراكشى : المعجب ص ٣٦٣ .
 - (٥) الادريسي : وصف المغرب ص ٨ ، المراكشى : المعجب : ص ٣٦٣ ، د. أحمد زكى : تاريخ الدول الإسلامية السودانية ص ٨٤ الالف كتاب سنة ١٩٦١ .
 - (٦) الادريسي : وصف المغرب ص ٧٥ ، الحميرى : صفة الجزيرة الأندلس ص ٢١ .
 - (٧) المقرئ : نفع الطيب ج ٤ ص ٢٠٧ .
 - (٨) المراكشى : المعجب ص ٣٥٩ .
 - (٩) الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ص ١٦٥ .

الجنوب والمتجهة إلى الأندلس وأوروبا والمشرق ، ومن هنا اكتسبت التجارة بين المغرب الأقصى وغانة وأقاليم السودان في الجنوب أهمية خاصة . وفي مقدمة السلع التي كان يستوردها المغرب الأقصى من الجنوب الذهب حيث كان الذهب السلعة التي اشتهرت بها امبراطورية غانه ، وكان الذهب يوجد في المناطق الجنوبية منها في منطقة ونقارة^(١) وفي مقابل ذلك كانت تنقل إليهم أحمال الملح التي كان السكان في حاجة إليها ، وكان الذهب المستورد من غانة وجنوبها يستخدم في صناعة العملة حيث يعود تجار المغرب الأقصى بالذهب إلى دور السكة وهناك يضرب دنانيراً ويتصرفون بها في التجارات والبضائع^(٢)

ولم تكن صادرات المغرب الاقصى إلى مناطق الجنوب الملح فقط بل كان هناك النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب الأفاوية والعطر وآلات الحديد المصنوع^(٣) .

كما أن الذهب لم يكن السلعة الوحيدة التي استوردها تجار المغرب الأقصى من الجنوب بل كان هناك الرقيق وقد أطلق عليهم الادريسي والقلقشندي : الخدم^(٤) يضاف إلى ذلك الخلود والعاج والكولا والصمغ والعسل والقطن والقمح وجوز الهند^(٥) .

ويبدو أن هذه السلع المتبادلة كانت بكميات وفيرة مما دعا الإدريسي إلى وصف القوافل الخارجة من أنعمات والمتجهة إلى غانة وبلاد السودان بأنها

-
- (١) ده أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٦ ص ١١١ .
(٢) الادريسي : وصف المغرب ص ٨ ، العمرى : مسالك الابصار ج ١٤ قسم ٢ ص ٢٢٢ القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٨٦ .
(٣) الادريسي : وصف المغرب ص ٦٦ .
(٤) الادريسي : وصف المغرب والاندلس ص ٣ ، القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٨٦ .
(٥) د. ابراهيم طرخان : امبراطورية غانة الاسلامية ص ٦٥ ،
J.D. Fage ; An Introduction of the History of West Africa P ; 9.
J. Spencer ; A History of Islam in West Africa, P ; 26.

« بأعداد الجبال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس .. » (١) كما أن هذا النشاط التجارى عاد بالربح الوفير على تجار أغمات الذين بعثوا بقوافلهم وعبيدهم إلى غانة وإقليم السودان ، يقول الادريسي « وما منهم رجل — أى من أغمات — يسفر عبيده ورجاله إلا وله فى قوافلهم المائة حمل والسبعون والثمانون حملاً كلها موقرة ، ولم يكن فى دولة المثلث أحد أكثر منهم أموالاً ولا أوسع منهم أحوالاً وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم » (٢) ونفس الرواج حظى به تجار سحلماسة فى تعاملهم مع السودان حتى أن أحدهم كان له صك على آخر مبلغه أربعون ألف دينار (٣) .

وكانت القوافل التجارية تسترشد بالأدلاء وذلك لخطورة الطريق وبعد المسافة وقد أشار إلى ذلك أبو حامد الأندلسى بقوله « فيخرجون من بلدة يقال لها سحلماسة آخر بلاد المغرب فيمشون فى رمال كالبحار ويكون معهم الأدلاء يهتدون بالنجوم والجبال فى القفار ويحملون معهم الزاد لسته شهور » (٤) وكان الملاح يبادلون بوزنه ذهباً وربما باعوه وزناً بوزنين أو أكثر على قدر كثرة التجار وقتهم (٥) .

وقد أشار بعض الباحثين إلى الطريقة التى كان يتم بها التبادل بين التجار المغاربة وبين تجار الذهب فى حوض السنغال حيث أطلق على طريقة التعامل « بالتجارة الصامتة » وذلك بأن يذهب تجار المغرب الأقصى إلى غانة ويصبحون معهم التجار الغانيين ويتجهون إلى أعلى السنغال وفى أماكن معلومة يضرب التجار بطبولهم إعلاناً عن وصولهم بالبضائع ثم يضعون سلعهم فى أكوام أو مقادير معينة على شاطئ النهر ويختفون ، وحينئذ يخرج الزنوج ويضعون بجوار كل كومة أو مقدار من السلع ما يروونه نظيراً لها من الذهب ثم يختنون ويظهر التجار فان اقتنعوا بالقيمة دقوا الطبول إيداناً

(١) الادريسي : وصف المغرب والأندلس ص ٦٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٦ .

(٣) الأعرشى : صبح الأعرشى ج ٥ ص ١٦٤ .

(٤) أبو حامد الأندلسى : تحفة الألبا ص ٤٢ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٤٢ ، د. أحمد شلبى : موسوعة

التاريخ الإسلامى ج ٦ ص ١١٣ ط ١ سنة ٧٢ .

بانصرافهم وإلا اختفوا مرة أخرى فيأتى الزنوج ويزيدون كميات الذهب وهكذا حتى يتم الاتفاق بين الطرفين (١) وكان ولاية الأمر بالمغرب الأقصى يحرسون على استمرار العلاقة الحسنة بمناطق الجنوب حتى تظل التجارة مزدهرة بينهما ، ومن هنا أسرع والى بمجلس السيد أبو الربيع سليمان بن عبد الله ابن عبد المؤمن إلى الكتابة للملك السودان ينكر عليه تعويق التجار ومما جاء فيها « نحن نتجاوز بالاحسان وان تحالفنا في الأديان ، ونتفق على السيرة المرضية ونتألف على الرفق بالرعية . . وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدد ، وتردد الحلاية إلى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكين من استيطانها ، ولو شئنا لأحتبسنا من في جهاتنا من أهل تلك الناحية لكننا لا نستصوب فعله ولا ينبغي أن نهى عن خلق ونأق مثله والسلام » (٢).

العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى والأندلس :

ارتبط المغرب الأقصى بالأندلس ارتباطاً وثيقاً ، حيث لعب الموقع والظروف الجغرافية للمنطقتين دورهما في التقريب بينهما إذ أنهما يكونان معاً وحدة جغرافية متماسكة الأطراف ويعتقد الجغرافيون أن جبال اليرانس هي الحد الفاصل بين بلاد المغرب وأوروبا وبذلك اعتبروا شبه جزيرة ايبيريا امتداداً لأفريقيا (٣) والمسافة التي تفصل بين القطرين لا تتجاوز خمسة عشر كيلو متراً في بعض نواحيها وبذلك كان المضيق الذي يفصل بينهما له أهمية كبيرة ، حتى أصبح تاريخ المغرب الأقصى والأندلس يكاد يتم بعضه بعضاً وأطلق المؤرخون عليهما بحق اسم العدوتين (٤) .

كما أن الأحداث السياسية أكدت هذه الصلة بين الاقليمين فتارة يبسط

-
- (١) د. ابراهيم طرخان : امبراطورية غانة الاسلامية ص ٧٠ ، ٧١
د. حسن ابراهيم : انتشار الاسلام ص ٩٨ ط ٢ سنة ٦٤ .
(٢) المقرئ : نفح الطيب ج ٤ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٣) د. ابراهيم العدوي : المسلمون والجرمان ص ١١١ ط أولى سنة ١٩٦٠ .
(٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٩ .

الأندلس سلطانه على المغرب الأقصى حين تشتد شوكة أهل الأندلس كما حدث في عهد الدولة الأموية في أيام الناصر والمستنصر^(١) وتارة ينخضع الأندلس للسلطة السياسية بالمغرب الأقصى كما حدث في عهد المرابطين والموحدين إذ أصبح الأندلس اقليماً تابعاً للحكومة المركزية بمراكش . ومن هنا توثقت العلاقات التجارية واتسع نشاطها بين الإقليمين ، وكانت السفن تسير في قوافل منتظمة تحمل البضائع المختلفة بين المغرب والأندلس^(٢).

وكان المغرب الأقصى بمدّ الأندلس بالغلات وأنواع الطعام المختلفة^(٣) ومن ناحية أخرى فإن الأندلس كان يصدر إلى المغرب الأقصى كثيراً من البضائع المختلفة ومنها الفواكه كالتين والعنب والزيتون^(٤) وهذا يخالف ما ذكره المؤرخون من وفرة الفواكه بأرض المغرب الأقصى وقد ذكرت ذلك من قبل ، إلا أنه يبدو أن أنواع التين والعنب والزيتون والتي كانت تزرع بأشبيلية كانت من نوع ممتاز مما دعا التجار إلى استيراد هذه الأصناف الممتازة وبيعها بأسواق المغرب كذلك الزيت المستخرج من زيتون الأندلس كانت تحمله السفن من أشبيلية إلى ميناء سلا^(٥) وكان القطن الجيد والمزروع بأرض أشبيلية من الحاصلات التي كانت تصدر إلى المغرب الأقصى ، يقول الحميري « وكل ما استودع أرض اشبيلية نوى وزكى وجل ، والقطن يجود بارضها فيعم بلاد الأندلس ويتجهز به التجار إلى إفريقية وسجلماسة وما والاها^(٦) » وكان معدن الزئبق مما يصدره الأندلس إلى المغرب يقول المراكشي « وعلى أربع مراحل من مدينة قرطبة موضع يسمى شلون فيه معدن زيبق ، منه يفترق على جميع المغرب^(٧) » أما الحصا الملون فإن الأمراء والرؤساء بمراكش

(١) نفس المرجع السابق ص ٣٠ ، د. العدوى : المسلمون والجرمان

ص ١١٢ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١١٨ .

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٨٢ ، ابن سعيد : نزهة الانظار

ج ١ ص ١٤ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١١٨ ، ابن سعيد :

نزهة الانظار ج ١ ص ١٧٢ .

(٥) ابن سعيد : نزهة الانظار ج ١ ص ١٤ .

(٦) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ٢١ .

(٧) المراكشي : المعجب ص ٣٦٣ .

كانوا يستوردونه من المرية ليرينوا به بعض أدوات الطعام^(١) بالإضافة إلى آلات الحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس^(٢) كذلك كان حصن قيشاط بالأندلس يصدّر الأدوات الخشبية إلى المغرب الأقصى يقول الحميري « قيشاط حصن بالأندلس كالمدينة بينه وبين شوذر اثنا عشر ميلاً . . . وعليها جبل يقطع به من الخشب الذي تحرط منه القصاع والأطباق وغير ذلك مما يعم بلاد الأندلس وأكثر بلاد المغرب^(٣) » وأما مدينة بلنسية فإنها اشتهرت بمنسوجاتها والتي كانت تصدرها إلى المغرب^(٤) .

وأصبح المغرب الأقصى همزة الوصل بين إقليم السودان في الجنوب حيث تجارة الذهب والصبغ وغيرها وبين الأندلس وما بها من الصنائع ومنها إلى أسواق أوروبا وقد أشار البكري إلى أن الصبغ كان يحمل من أودغشت إلى الأندلس عبر المغرب الأقصى^(٥) .

وكانت الظروف السياسية تلعب دورها في منع التبادل التجاري بين المغرب الأقصى وبين أحد أقاليم الأندلس ، وذلك ما حدث لمدينة مالقة التي امتنعت عن الدخول في طاعة الموحدين ومن هنا اتخذ الخليفة عبد المؤمن قراره بقطع العلاقات الاقتصادية معها وذلك في رسالة أرسلها إلى الطلبة — وهم الهيئة الإدارية — بمدينة سبتة يأمرهم فيها بمنع التجار من التعامل مع سكان أهل مالقة وينذرهم بأشدّ ألوان العقاب وقد صور ذلك أبو جعفر بن عطية كاتب الخليفة عبد المؤمن في رسالة رسمية صادرة من مراکش إلى الطلبة بمدينة سبتة يقول فيها « وأما ما ذكرتموه — أكرمكم الله — من أولئك التجار الذين يحملون المرافق إلى ما لقه وأمثالها فليتنظروا نظراً أكيداً في قطعهم وردعهم ولا سبيل لأحد من خلق الله أن يمدّ أحداً من تلك الأصناف بمادة حتى يتضح وجه ما ادعوه وتعرفوا بذلك ليرسم لكم ما تعتمدون عليه ، وكل

(١) المقرئ : نفح الطيب ج ٤ ص ٢٠٦ .

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ص ١٧١ .

(٣) الحميري : صفة جزيرة الأنندلس ص ١٦٥ .

(٤) المقرئ : نفح الطيب ج ٤ ص ٢٠٧ .

(٥) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

من أخذ حاملا لإلهم مادة فالسيف جزاؤه ، والقتل من تلك العادة دواؤه (١) ولم يذكر في الرسالة تاريخ إصدارها ولكن من المرجح أنها كانت قبل سنة ١١٥٢/٥٥٤٧م حيث أن مالقة خضعت لجيش الموحيدين في هذا التاريخ (٢) الملاقة التجارية بين المغرب الأقصى وأوروبا :

انتظمت التجارة بين المغرب الأقصى وأوروبا منذ أن استقرت الأوضاع السياسية بالمغرب الأقصى بقيام دولة المرابطين وضمها لإقليم الأندلس ثم زادت العلاقات التجارية ازدهاراً وقوة في عهد الموحيدين حيث امتد سلطانها السياسي على الشاطئ الشمالى لإفريقية حتى طرابلس ، وصار لها أسطول قوى في البحر المتوسط يحمى طرق القوافل البحرية . ويدافع عن الموانئ البحرية التي كانت تستقبل السفن الأجنبية المحملة بالبضائع المختلفة ، وتعود محملة ببضائع المغرب المتنوعة .

وقد قامت هذه العلاقات بين المغرب الأقصى وجنوة وبرزة وصقلية وفلورنسة وإنجلترا وفرنسا (٣) وكان في مقدمة السلع التي صدرها المغرب الغنم والشمع وكان يستورد من أوروبا الثياب والمنتجات الشرقية (٤) وكانت هذه التجارة مزدهرة بين سواحل أوروبا والمغرب مما دعا حكومة جنوة إلى إنشاء مدرسة لتعليم اللغة العربية فأنشئت في سنة ١٢٠٧م / ٦٠٤هـ (٥) وذلك حتى يتمكن تجار جنوة من التعامل والتخاطب مع تجار المغرب . وانتظمت العلاقة التجارية عن طريق التسهيلات التي أعطاها ولاة الأمر من المرابطين والموحيدين للتجار بحرية المرور وإقامة الفنادق لراحتهم مما شجعهم على التعامل التجاري (٦) .

كما أنه عقدت معاهدات تجارية بين ولاة الأمر بالمغرب الأقصى

(١) مجموع رسائل موحدية ص ١٠ ، ١١ تحقيق ليفى بروفنسال .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحيدين : القسم الأول ص ٣٣٦ .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣١٦ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٣٥٨ .

(٥) لويجي رينالدى : المدنية العربية في المغرب ص ١٧ ترجمة

طه فوزى .

(٦) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣١٦، ٣١٧ .

والموائى الإيطالية ، فقد وقع آل ماندويل بمرسيليا فيما بين أعوام سنة ١٢١٢ سنة ١٢٤٦ عشرين عقداً يبيعون بمقتضاها لبجاية وسبتة ووهران وتلمسان قطعاً من النقد العربى ضربت فى مونيبلية^(١) كذلك أبرمت معاهدة تجارية بين مدينة جنوة ودولة الموحدىن فى سنة ١١٥٣ / ١١٥٤ م ولم تشر المراجع التى اطلعت عليها الى نصوص المعاهدة ثم أوفدت جنوة سنة ١١٦٠ / ١١٦١ م قنصلها فقابله عمال عبد المؤمن بالاجلال أينما حل حتى قابل الخليفة عبد المؤمن وأمضى معه معاهدة تضمن حرية التجارة لرعايا جنوة برأ وبجراً^(٢) وتحددت الرسوم الجمركية على البضائع الواردة من جنوة وصارت عشرة فى المائة بالنسبة لواردات بجاية وثمانية بالنسبة لغيرها^(٣).

علاقات المغرب الأقصى بالشرق :

امتد النشاط التجارى للمغرب الأقصى تجاه الشرق إذ استقبلت الموائى المغربية السفن القادمة من إفريقيا ومصر وبلاد الشام محملة بالبضائع حيث قام التجار المغاربة فى الموائى المغربية بشراء ما تحتاجه الأسواق المحلية وتصدير منتجات البلاد وقد أشار ابن سعيد إلى التجار الاغنياء بمدينة سبتة وشراهم للسفن الكبيرة بما فيها من بضائع هندية يقول ابن سعيد « وفيها — أى مدينة سبتة — التجار الأغنياء الذين يتعاون المراكب بما فيها من بضائع الهند وغيرها فى صفقة واحدة »^(٤).

ومن ناحية أخرى تقوم السفن بشحن المحاصيل والمنتجات التى تحتاجها بلدان الشرق ، حيث كانت السفن تشحن بالحنطة من ميناء ماسة قاصدة ميناء الأبله ومنها إلى الصين^(٥) ، وقد شجع عملية التبادل التجارى بين مصر والمغرب أن مصر كانت فى طريق قوافل الحجاج المسافرة لتأدية فريضة الحج

(١) Julien ; Histoire de L'Afrique du Nord, P; 123-124.

(٢) الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ج ٢ ص ٢٥٠ ،
الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٣٢٠ .

(٣) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٥٠ ، د. راشد البراوى :
حالة مصر الاقتصادية ص ٢٥٠ .

(٤) ابن سعيد المغربى : بسط الأرض ص ٧٣ .

(٥) ابن رسته : الأملق النفسية ص ٣٦٠ .

في كل عام والتي كانت في كثير من الأحيان تضم بعض أنواع المتاجر التي تحتاجها المدن المشرقية^(١) وقد أشار ابن القاضى في جذوة الاقتباس إلى احدى هذه القوافل والتي خرجت من وادى سبو ومتجهة إلى المشرق قبل سنة ٥٠٣هـ ١١٠٩م^(٢).

كما أن المدن المغربية وخاصة ما يقع منها في جنوب البلاد كسجلماسة وأنعمات كانت مراكز تجارية لتجار المشرق ، حيث قصدوا التجار من الكوفة وبغداد والبصرة وأقاموا بها وذلك للإشراف على قوافلهم المتجهة إلى غانة وبلاد السودان لتحمل الذهب وغيره من منتجات الجنوب وتعود متجهة إلى المشرق ، يقول ابن حوقل « وكانت القوافل تجتاز بالمغرب إلى سجلماسة وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق ، فهم وأولادهم وتجاراتهم دائمة ومفردة دائمة وقوافلهم غير منقطعة إلى أرياح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابعة ، قلما يداينها التجار في بلاد الاسلام سعة حال »^(٣).

كما أن وفرة المحاصيل والمنتجات بالمغرب الأقصى ساهم في تصدير هذه المنتجات إلى افريقية وغيرها من البلدان جهة الشرق فالقطن كان يصدر من مدينة البصرة بالمغرب الأقصى إلى افريقية^(٤) كذلك السكر والمعروف بالطبرزد كان يصدر إلى إفريقيا^(٥) وكانت مصر تستورد من المغرب الحرير^(٦) كما كانت تستورد أيضاً زيت الزيتون^(٧) وأيضاً كان المغرب يقوم بتصدير المرجان والذي كان يكثر صيده بسواحل سبتة وطنجة إلى

رنا

(١) روجيه : فاس في عصر بنى مرين ص ٥٠ ترجمة د. نقولا زيادة .

(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٦٥ .

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٨١ .

(٥) مجهول : الاستبصار ص ٢١٢ .

(٦) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ١٢٥ ، ٢٦١ .

(٧) نفس المرجع السابق ص ١٨٠ ، ٢٦١ .

(م ١٩ — الحضارة)

مصر (١) كما أن البلّور والحديد أيضاً كانت تستورده مصر من المغرب (٢) ،
وكان المغرب الأقصى يستورد بعض منتجات المشرق وفي مقدمتها العطر
الهندي (٣) .

ونتيجة لهذا التعامل التجاري صار للتجار المصريين أصدقاءهم من التجار
المغاربة وصارت بينهم علاقات مودة ومراسلات ومن ذلك أن أحد تجار
الاسكندرية كتب رسالة إلى صديقه التاجر بالقاهرة يخبره فيها أن صديقه
التاجر بمدينة فاس قد أرسل إليه قضيباً من الذهب بهدف بيعه وشراء حرير
أندلسي لحسابه (٤) .

(١) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٥٣ د. حسن
ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١٥ ط ٢ سنة ١٩٥٨ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ١٧٢ ، ٢٥٥ .
(٣) المراكشي : المعجب ص ٣٥٩ ،
(٤) S.D. Goiten : Studies In Islam History P ; 298 .

الباب الثالث

الحياة الاجتماعية

الفصل الأول

عناصر تكوين المجتمع

شهد المسرح الجفجاف للمغرب الأقصى في القرنين الخامس والسادس من الهجرة عناصر متعددة من السكان ، وجنسيات مختلفة ، وفي مقدمة هذه العناصر قبائل البربر وهم السواد الأعظم من السكان ، وأصحاب البلاد الأصليين وعاش معهم العرب الذين لعبوا دوراً واضحاً في الأحداث وصار لهم دور مؤثر في عهد الموحدين وبجانب البربر والعرب كانت هناك أقليات من السودانيين والروم والأتراك .

أ - البربر :

فاذا ما تناولنا عنصر البربر باعتبارهم الغالبية العظمى من السكان ، ومنهم تأسست أكبر دولتين شهدتهما المغرب الأقصى في العصور الوسطى وهما دولتنا المرابطين والموحدين لوجدنا اختلاف المؤرخين في أصل نسبهم فابن حزم الأندلسي يذكر أقوالاً مختلفة في نسبهم « قال قوم أنهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام ، وادّعت طوائف منهم إلى اليمن إلى حمير ، وبعضهم إلى بر بن قيس عيلان »^(١) وقد أشار العمري إلى هذا الاختلاف بقوله « وأما البربر فقد اختلف فيهم اختلافاً كثيراً فقليل منهم من ولد فارق لبنين بيصر بن حازم ، والبربر يزعمون أنهم من ولد قيس عيلان وصنهاجة من البربر يزعمون أنهم من ولد إفريقش بن صيفي الحميري »^(٢) وقد رجح ابن زيدان أنهم من ولد كنعان وأنه لما قتل ملكهم جالوت الفلسطينيين وتفرقت بنو كنعان قصدت منهم طائفة بلاد المغرب وسكنوا تلك البلاد وهم البربر^(٣) وقد برّر بعض المؤرخين سبب نزوحهم من الشام بأن بني حام تنازعوا مع بني سام فأنهزم بنو سام أمامهم إلى المغرب وتناسلوا به واتصلت شعوبهم

(١) ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب ص ٤٦١ ت ليفي برونفيلس ط . دار المعارف بمصر .

(٢) العمري : مسالك الأبصار ج ١٤ قسم ٢ ص ٢٢٣ .

(٣) ابن زيدان : اتحاف أعلام الناس ج ١ ص ٦٢ ط ١ سنة ٢٩ .

من أرض مصر إلى آخر المغرب إلى تخوم السودان ، وكان بسواحل المغرب الأفارقة والافرنج . فكانت ذرية حام في المداشر والخيام والأعاجم الأول في البلدان^(١) وقد تناول ابن خلدون هذا الموضوع بالتفصيل في كتابه العبر وأشار إلى زعم بعض المؤرخين في إرجاع نسب البربر إلى العرب قائلا « نسبة البربر يزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب مثل لواته يزعمون أنهم من حمير ، ومثل هواره يزعمون أنهم من كندة من السكاسك ، ومثل زناتة تزعم نسبهم أنهم من العالقة فروا أمام بني إسرائيل ، وربما يزعمون في هؤلاء كلهم نسبهم أنهم من حمير »^(٢) .

ومع تضارب هذه الروايات ، يمكننا أن نستخلص أن جيل البربر كغيره من الأجيال التي عمرت الأرض والتي انساحت في أرجائه طلباً للرزق وأنها اتخذت لها موطناً في أرض المغرب عامة حيث تناسلت وتكاثرت وتكونت تلك المحاميع الهائلة من السكان والتي اتخذت شكل قبائل نتيجة لتنوع البيئة بالإضافة إلى الأحداث التي مرت بها المنطقة ، أما ادعاء النسابين أنهم ينتسبون لقيس عيلان فلم يكن له ابن يسمى بر^(٣) كذلك لم يكن هناك لحمير طريق إلى بلاد البربر^(٤) .

البتر والبرانس : ثم وجدنا النسابين يقسمون البربر إلى شعبين عظيمين هما البتر والبرانس فيقول ابن خلدون وغيره «وأما شعوب هذا الحيل وبطونهم فان علماء النسب متفقون أنهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس ومادغيس ويلقب مادغيس بالأبتر فكذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانس وهما معاً ابنا بر»^(٥) على أن هذا التقسيم حدث أيضاً بعد مجئ العرب إلى المنطقة إذ أن الرومان والبيزنطيين لم يهتموا بهذا النظام القبلي الذي كان سائداً بلاد المغرب . وبعد أن قسم النسابون البربر إلى شعبين عظيمين وجدناهم

(١) محمد الشطيبي: كتاب المجان ورقة ١١٩، السلاوى : الاستقصا

ج ١ ص ٥٣ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٩٧ .

(٣) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤١٦ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٤١٦ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٨٩ ، مؤلف مجهول : نبذة تاريخية

في أخبار البربر ص ٦٩ تحقيق ليفى بروفنسال . رباط الفتح سنة ١٩٣٤

يختلفون في أنساب كل منهما والراجح أنهما من أصل واحد وأن الجميع من ولد مازيغ ومازيغ من ولد كنعان بن حام (١).

وكلا الفريقين : البر والبرانس عاش على أرض المغرب الأقصى متأثرين بالأحداث التي مرت بها المنطقة ومؤثراً فيها فقد قامت قبائل البرانس ومنها صنهاجة ومصمودة بدور مهم في توجيه سير الأحداث في القرنين الخامس والسادس من الهجرة ، إذ على أكتاف صنهاجة قامت دولة المرابطين ، وعلى أكتاف المصامدة قامت دولة الموحدين ومن هنا يتبين مدى أهمية اللقاء الأضواء على صفات تلك القبائل التي شاركت في صنع الأحداث التي مرت بالمنطقة .

قبائل صنهاجة : ويأتي في مقدمة القبائل قبيلة صنهاجة وأما يندرج تحتهما من القبائل ، ولم تكن صنهاجة مجرد قبيلة بل كانت شعباً عظيماً (٢) حتى أنه لا يكاد يخلو قطر من أقطار المغرب من بطونه وأفراده يقول ابن خلدون « هذا القبيل من أوفى قبائل البربر وهو أكثر أهل الغرب لهذا العهد وما بعده لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بساط حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أول البربر (٣) » وقد أشار بعض المؤرخين إلى انتساب صنهاجة للعرب (٤) وفي ذلك يقول ابن زرع « وصنهاجة فخذ من ولد عبد شمس بن وائل بن حنبل (٥) » وقد رجح ابن خلدون هذه النسبة حين قال ، « لا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر الذي قدمنا ذكرهم كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة فان بين نسابة العرب خلافاً والمشهور أنهم من اليمنية وأن إفريقش لما غزا إفريقية أنزلهم بها » (٦).

(١) السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ٥٧ .

(٢) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٦ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٥٢ .

(٤) ابن سعيد : بساط الأرض ص ٥٨ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧ ، ٨ ، ابن الخطيب : أعيال الأعلام : القسم الثالث ص ٢٢٥ ت العبادي ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٢٨ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٣ .

(٥) ابن زرع : الإنيس ج ٢ ص ٣ ، ٤ ، ٥ ت اقبلالى .

(٦) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٩٧ .

وربما يرجع السبب في محاولة النسائيين جعل أنساباً عربية لصنهاجة وغيرها من القبائل ، هو التشابه في حياة العرب والبربر في كثير من أوجه الحياة مع حرصهم على الانتساب إلى الشعب العربي مهد النبوة وصانع الفتوحات العظيمة التي عمت المشرق والمغرب ، يضاف إلى ذلك رغبتهم في المساواة بالعرب الذين جاءوا البلاد فاتحين .

وقد احتلت قبائل صنهاجة مساحات شاسعة من المغرب إذ امتدت من نول لمطة في جنوب المغرب الأقصى إلى القيروان في إفريقية حيث أقاموا في المناطق الصحراوية (١) وخاصة صنهاجة المغرب الأقصى والذين أطلق عليهم الملبثون وذلك لاتخاذهم اللثام على وجوههم . وقد علل ابن خلدون سبب هجرتهم للمدن وميلهم إلى سكنى الصحراء بأن ذلك راجع إلى طبعهم . ابتعاداً عن الاختلاط بالناس وفراراً من الغلبة والقهر (٢) .

وقد ضمت صنهاجة مجموعة كبيرة من القبائل بلغت السبعين قبيلة (٣) ومن هذه القبائل لمتونة وكدالة ومسوفة ولمطة ومسرارة ، وتكلاته ومنداسة وغيرها من القبائل (٤) ولا يتسع المجال لتناول كل هذه القبائل بالشرح والتفصيل ولكن يهنا تلك القبائل التي انتقلت بمجموعها من جنوب الصحراء متجهة إلى المغرب الأقصى حيث شاركت في بناء الدولة المرابطية ، وصارت

(١) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٦ ، ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ٦ ص ١٢٨ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٢٥ . ابن العبادي ، ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٠١ ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٤ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٦٩٠ .

J. spencer ; A History of Islam in West Africa, P ; 20

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨١ .

(٣) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٦ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٣ ، عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٠٠ ، د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٩ .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٦ ، مجهول : تواريخ مدينة فاس ص ٢٧ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام : القسم الثالث ص ٢٢٥ . ابن العبادي ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٥٢ ، ابن خلدون : صورة الأرض ص ١٠١ ، الميلى : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج ٢ ص ١٤٧ .

لها مكانة متميزة في مجتمع المغرب الأقصى بسبب انتماء الطبقة الحاكمة لها وهي أسرة بني تاشفين الذين أقاموا ملكهم في المغرب الأقصى والأندلس على أكتاف هذه القبائل ومن هنا حرص بنو تاشفين على استدعائهم من مواطنهم والاعتماد عليهم في توجيه الأمور وقد أشار إلى هذه الحقيقة ابن الخطيب حين ذكر استدعاء يوسف بن تاشفين لهذه القبائل وما نالته من مكانة وثروة يقول « وبعث - أي يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٠هـ - إلى الصحراء للمتونة ومسوفة وجدالة وغيرهم يعلمهم بما فتح الله عليه من ملك المغرب وطاعة أهله ويؤكد عليهم في القدوم فوفد إليه منهم جموع كثيرة ولا هم الأعمال وصرف أعيانهم في مهمات الأشغال فاكثسوا الأموال وملكوا رقاب الرجال وكثروا بكل مكان وساعدتهم الوقت والزمان وكثرت جموعهم وتوفرت عساكرهم » (١) وقد سبق هذا الاستدعاء تلك الأعداد الكبيرة من نفس هذه القبائل والتي صحبت يوسف بن تاشفين كجند أثناء إخضاعه للمغرب الأقصى والتي اتخذت المغرب الأقصى لها مستقراً ، وهذه القبائل هي لمتونة وكدالة ومسوفة ولمطة .

قبيلة لمتونة : وهي إحدى قبائل صنهاجة (٢) وكانت تتمتع بمكانة مرموقة بين القبائل الأخرى ، اذ كانت لها الزعامة والسيطرة على غيرها من القبائل (٣) حتى إذا جاء عبد الله بن ياسين إلى المنطقة ، ودخلت لمتونة في طاعته اكتسبت الدعوة الحديدية قوة مكنتها من مواصلة كفاحها. وقد سبق أن أشرت إلى أن عبد الله بن ياسين نقل زعامة المرابطين من جدالة إلى لمتونة حتى تتمكن الدعوة الناشئة من تثبيت أقدامها ، وظلت هذه الزعامة موجودة في لمتونة ممثلة في أسرة يوسف بن تاشفين حتى انتهت دولة المرابطين .

وأبناء لمتونة ظوا عن رحالة في الصحراء ما بين السودان وبلاد الاسلام (٤)

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٢٠ .

(٢) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقيا ص ١٦٤ ، الإدريسي : وصف المغرب ص ٥٧ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦ ، مجهول : الاستبصار ص ٢١٣ .

(٣) ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٠١ .

(٤) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦ ، ٧ .

وقد جدّد أماكنهم الدكتور حسن محمود بقوله « تمتد من منطقة تلي منطقة لمطة وجزولة وتمتد من وادي نون على المحيط الأطلسي حتى رأس بوجادور الحالية وإلى الشرق من وادي نون تقع مدينة أزكى على مسيرة سبعة أيام من وادي نون ، وهي حصن لمتونة ومقلها ، ويبدو أن هذه القبيلة توغل في الصحراء شرقاً حتى تدرك الطريق الموصل بين غانة وبجلماسة (١) » وكان أبناء القبيلة يشتغلون بالرعي ورأس مالهم الأغنام ويعيشون على لحوم وألبان الأغنام التي يرعونها (٢) يقول صاحب كتاب الاستبصار « ومن هذا الجبل يدخل إلى بلاد لمتونة وهم من صنهاجة وأكثر لمتونة إنمأ هم رحالة ، ولا يستقر بهم موضع ولا يعرفون الحرث ولا الزرع ولا الخبز وإنما لهم الأغنام الكثيرة فيعيشون من لبنها ولحمها » (٣) .

فلما انتقلت القبيلة من مواطنها الأولى إلى المغرب الأقصى أقاموا بالمدين واحتلوا أرفع المناصب إذ حرص أمراء المسلمين من بني تاشفين على أن يولوا مناصب الدولة من أبناء القبائل المؤسسة وعلى رأسها قبيلة لمتونة ، وشاركوا في الحياة الاجتماعية بالبلاد ، وصاروا يزاولون أنواعاً مختلفة من النشاط سواء أكان زراعياً أم صناعياً وتجارياً (٤) يضاف إلى ذلك انخراطهم في الحياة العسكرية وقيامهم بعبء كبير في النشاط العسكري الذي قام به المرابطون سواء أكان بالمغرب أو الأندلس .

قبيلة جدالة : وهي إحدى قبائل صنهاجة (٥) وقد شاركت قبيلة لمتونة في أن أبناءها رحل ينتجعون المراعي وقيمون بالصحراء (٦) وكانت مضارب القبيلة تمتد حتى مصب نهر السنغال متخلدة مدينة أوليل مركزاً لها حيث يكثر

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٥ .
(٢) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقيا ص ١٦٤ ، ابن أبي دينار :
المؤنس ص ١٠١ .

S.P. Scott ; History of Moorish Empire, V,2 P ; 189-190

(٣) مجهول : الاستبصار ص ٢١٣ .

(٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤١٣ .
(٥) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦ ، ابن الخطيب : أعمال
الأعلام القسم الثالث ص ٢٢٥ ت العبادي .
(٦) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦ .

الملح الذى تحمله القوافل إلى الشمال والجنوب (١)، وقد تحمّلت قبيلة جدالة عبء الدعوة المرابطية فى مراحلها الأولى حين قام يحيى بن إبراهيم الحدادى باصطحاب عبد الله بن ياسين إلى قبائل الصحراء لتعليمهم شئون دينهم ثم انتقلت الزعامة منها إلى قبيلة لتونة بعد ذلك ، وصارت قبيلة جدالة تتمتع بمركز ممتاز بين القبائل المؤسسة لدولة المرابطين وصار أبنائها يحتلون الوظائف والمراكز الهامة فى الدولة (٢) كما أنها تحمّلت عبئاً كبيراً فى الكفاح المسلح الذى قام به المرابطون (٣) .

قبيلة مسّوفة : وهى إحدى قبائل صنهاجة (٤) وكانت مضاربها بالصحراء تمتد فى منطقة قاحلة مجربة تقع بين سجلماسة فى الشمال وأودغشت فى الجنوب وكانت بعض بطونها توغل شرقاً حتى تصل إلى تاد مكنة وكوكو (٥) وكانوا يعملون بالرعى واعتمادهم فى معيشتهم على لحوم الأغنام وألبانها (٦) وبجانب ذلك كانت تسيطر على التجارة المارة بين أودغشت فى الجنوب وسجلماسة فى الشمال (٧) حتى إذا انضمت إلى دعوة عبد الله بن ياسين ، وشاركت فى عملية الجهاد ، صارت لها مكانة ممتازة فى المجتمع الجديد ، إذ شغل أبنائها بعض المراكز القيادية فى دولة المرابطين (٨) .

قبيلة لمطة : وهى إحدى القبائل الصنهاجية (٩) وقد احتلت المنطقة الممتدة من جبال درر حتى وادى نول القريب من المحيط الأطلسي (١٠) وقد سميت

-
- (١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٦ .
 (٢) أشباح : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
 (٣) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٧٧ .
 (٤) مجهول : الاستبصار ص ١٧٩ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٢٥ ت العبادى .
 (٥) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٦ .
 (٦) مجهول : الاستبصار ص ١٧٩ .
 (٧) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٦ .
 (٨) د. شعيرة : المرابطون تاريخهم السياسى ص ٣٠ .
 (٩) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠١ ، ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ٦ ، السلاوى : الاستبصار ج ٢ ص ٣ ، ابن خلدون : العبر ج ١ ص ١٥٢ .
 (١٠) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٤ .

مدينة نول باسم القبيلة « ومن مدينة نول إلى وادي درعة نحو ثلاث مراحل ، وإنما سميت نول لمطة لأن قبيلة لمطة يسكنوها وما وراءها وهي آخر بلاد السوس »^(١) وهذه القبائل الأربع كانت عماد قوة المرابطين في زحفهم من الجنوب في الصحراء وانطلاقهم إلى الشمال في المغرب الأقصى حيث استطاع ولادة الأمر ، صهر القبائل الوافدة مع غيرها من القبائل المقيمة بالمغرب الأقصى ومن أهمها قبائل مكناسة ومغراوة وبنو يفرن في ظل مجتمع المرابطين المصامدة : حتى إذا انهارت الدولة المرابطية على يد الموحيدين ، وجدنا قبائل أخرى تحتل مركز الصدارة بالمغرب الأقصى باعتبارها القبائل المؤسسة للعهد الجديد ، والقسم الكبير من هذه القبائل كان يطلق عليه المصامدة سكان البلاد الأصليين . واعتبر ابن خلدون ديارهم وأماكنهم هي حدود المغرب الأقصى وذلك لكثرتهم وافتراشهم لمنطقة المغرب الأقصى ، يقول ابن خلدون « فأما المغرب الأقصى منه وهو ما بين وادي ملوية من جهة الشرق إلى آسفي حاضرة البحر المحيط وجبال درن من جهة الغرب فهي في الأغلب ديار المصامدة من أهل درن وبرغواطة »^(٢) وأشار إلى مواطنهم المراكشي بقوله « فحد بلادهم — أي المصامدة — النهر الأعظم الذي يصب من جبال صنهاجة وينتهي إلى البحر الأعظم بحر أقيانس ، يدعى هذا النهر أم ربيع . وآخر بلادهم الصحراء التي تسكنها لمتونة ومسوفة . . فهذا حد بلاد المصامدة عرضاً ، وحدها طولاً من الجبل المعروف بدرن — جبال أطلس — إلى البحر الأعظم المسمى أقيانس »^(٣).

والمصامدة يشكلون أعداداً كبيرة من السكان « وقبائل المصامدة أم لا يحصيهم إلا خالقهم »^(٤) وهم ينتسبون لايلان بن مصمود بن يازيغ^(٥) وقد أقاموا بالمنطقة احتجاباً طويلة حيث شاركوا غيرهم في صنع تاريخ المنطقة يقول ابن خلدون « ولم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الاحتجاب

(١) مجهول : الاستبصار ص ٢١٣ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠١ .

(٣) المراكشي : المعجب ص ٣٤٠ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٣ .

(٥) محمد الشطبي : كتاب الجمان ورقه ٢٢٠ .

المتطاوله وكان المتقدم فيهم قبيل الإسلام وصدره برغواطة ، ثم صار التقدم بعد ذلك لمصامدة جبال درن إلى هذا العهد ، وكان لبرغواطة في عصرهم دولة ولأهل درن منهم دولة أخرى^(١).

وقد حرص المرابطون منذ اللحظة الأولى لبدء دعوتهم على كسب ود المصامدة باعتبارهم يشكلون الغالبية الكبيرة لسكان المغرب الأقصى ، فعبد الله بن ياسين داعية المرابطين حين اجتمع لديه المال من الزكاة والأعشار بعث مقداراً كبيراً منه إلى طلبة بلاد المصامدة وقضاتها^(٢) اكتساباً لودهم واستألتهم للدعوة الجديدة ، وقد أثمرت هذه السياسة نتائجها إذ أن هذا التودد مع كراهية المصامدة للزنايتين جعلت المصامدة لا يقاومون جيوش المرابطين القادمة من الجنوب بل أيدهم وحالفوهم ضد حكام المنطقة من الزنايتين^(٣).

وسار على نفس السياسة يوسف بن تاشفين إذ ضم مجموعة كبيرة منهم لجيشه^(٤) وبذلك مكّن لهم من الاشتراك الفعلي في تأسيس صرح الدولة . وعند بناء العاصمة مراكش كان مكان البناء بجوار مواطنهم كسباً لودهم وفي نفس الوقت مراقبة لتحركاتهم خوفاً من انقلابهم على الدولة . وقد أشار ابن خلدون إلى مدى تأثير قوة المصامدة في المنطقة بقوله « لم يزل أمر هؤلاء المصامدة بجبال درن عظيماً وجماعتهم موفورة وبأسهم قوياً وفي أخبار الفتح من حروبهم مع عقبه بن نافع وموسى بن نصير حتى استقاموا على الإسلام ما هو معروف مذكور إلى أن أظلمت دولة لمتونة فكان أمرهم فيها مستفحلاً وشأنهم على أهل السلطان والدولة مهما حتى لما اختطوا مدينة مراكش أنزلهم جوار مواطنهم من درن ليتميزوا عن سواهم ويلالوا من صعبهم »^(٥) وظل هذا الاهتمام من ولاية المرابطين تجاه المصامدة خشية قوتهم وبأسهم ولذا حين أوصى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ولي عهده على ، ذكره بالآيسىء إلى المصامدة ، يقول ابن الخطيب « فلما قربت وفاته — أى وفاة يوسف

-
- (١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢١٦ .
(٢) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٥ ت الفيلالى ، د . حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٥٨ .
(٣) د . حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٩٥ ، ١٩٦ .
(٤) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٢٠ .
(٥) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٥ .

ابن تاشفين - أوصى ابنه ولى العهد بعده أبا الحسن على بثلاث وصايا أحدهما ألا يهيج أهل جبل درر - وصحتها درن - ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة» (١) وهذا كله يؤكد حقيقة القوة والنفوذ الذى كانت تتمتع به قبائل المصامدة .

والمصامدة على عكس قبائل اللثام من حيث أسلوب الحياة فيها كان أهل اللثام يعتمدون فى حياتهم على الرعى وانتجاع الكلاّ وعماد حياتهم الأنعام كان المصامدة على العكس من ذلك ، قد استقروا بالمنطقة واتخذوا المعازل والحصون وشيدوا المباني والقصور (٢) وامتحنوا الزراعة وفلاحة الأرض (٣) ولم يحاولوا الهجرة من أرضهم بل ودافعوا عنها ضد محاولات الاستيلاء عليها (٤) وقد سبق أن أشرت فى فصل الزراعة إلى قيام المصامدة بدور واضح فى النشاط الفلاحي بالبلاد .

وأما القبائل التى اندرجت تحت اسم المصامدة فكثيرة منها هرغة وهنتاة وتينملل وكيدموية وكنفيسة ووريكة وهزميرة ودكالة وحاحة وغيرها من القبائل (٥) وقد عدّ المراكشي قبائل صنهاجة ولمطة من المصامدة (٦) وقد سبق أن أشرت إلى أن صنهاجة ومنها قبيلة لمطة تكون شعباً كبيراً من البربر له خصائصه ومميزات وأن صنهاجة المغرب الأقصى كانت مواطنها بالصحراء فى الجنوب وليست فى مواطن المصامدة ، وأن قبائل صنهاجة انتقلت للشمال نتيجة لتغير الأوضاع السياسية بقيام دولة المرابطين بالمغرب الأقصى .

وقد نالت بعض قبائل المصامدة مكانة ممتازة نتيجة انضمامها وتأييدها لدعوة ابن تومرت وأطلق عليهم أهل السابقة وهم الذين انضموا للدعوة قبل الاستيلاء على مراكش ، وصار ابنائوها يكونون طبقة ممتازة فى الإدارة

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٣ .

(٣) د. حسن حمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٤ .

Terrasse ; Histoire du Maroc ١ ; 22,

(٤) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٣ ، عباس المراكشي : الاعلام

ج ١ ص ١٥٣ .

(٦) المراكشي : المعجب ص ٣٤٠ .

ووظائف الدولة ، يقول ابن خلدون « وخصّ — أى ابن تومرت — بالمزية من دخل في دعوته قبل تمكنها وجعل علامة تمكنها فتح مراکش فكان إنما ائتمن بهذا اللقب أهل السابقة قبل ذلك الفتح ، وكان أهل تلك السابقة قبل فتح مراکش ثمانى قبائل سبعة من المصامدة هرغة وهم قبيلة الامام المهدي وھنتاتة وتينملل وهم الذين بايعوه مع هرغة على الحراية والحماية وكنفيسة واهرزجة وكدميوه ووريكة وثامنة قبائل الموحدین كومية قبيلة عبد المؤمن كبير صحابته . . فاخصّ . . هؤلاء القبائل بمزية هذه السابقة واسمها وأقاموا الأئمة وحملوا سريره ^(١) ومن النص السابق نتبين أن سبع قبائل من المصامدة ائتمنت مكان الصدارة في مجتمع المغرب الأقصى نتيجة انضمامها للدعوة الموحدية يضاف إليها قبيلة كومية والتي ينتسب إليها عبد المؤمن بن علي ومن هذه القبائل :

هرغة : وهي قبيلة الإمام المهدي ^(٢) وهي قليلة العدد بالنسبة لغيرها من قبائل الموحدین ^(٣) إلا أنها احتلت مكانة مرموقة في مجتمع الموحدین وذلك لانتساب المهدي بن تومرت داعية الموحدین إليها. وقد دخل بعض أفرادها في مجلس الخمسين ذلك المجلس الذي كوّن ابن تومرت لبحث شئون الدولة وحوالي هيئة العشرة أهمية ، ومن هؤلاء المنضمين لمجلس الخمسين : أبو زكريا يحيى بن يومور ، وأبو مروان عبد الملك بن يحيى وأبو زيد عبد الرحمن بن سيان وغيرهم ^(٤) .

ھنتاتة : وهي قبيلة ضخمة وفي بعضها رئاسة وشرف في الدهر القديم ^(٥) وقد وصفها ابن خلدون بأنها من أعظم قبائل المصامدة وأكثرها جمعاً وأشدّها قوة ^(٦) وما إن جاء ابن تومرت بدعوته إلى أرض المغرب الأقصى حتى سارعت قبيلة ھنتاتة في الانضمام إليه وقد أعطانا ابن القبطان وصفاً لطريقة انضمام ھنتاتة للدعوة الموحدية بقوله « ثم أن ھنتاتة لما سمعوا بالإمام المهدي

-
- (١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
 (٢) نفس المرجع السابق ج ٦ ص ٢٦٧ .
 (٣) المراكشي : المعجب ص ٣٣٩ .
 (٤) ابن القبطان : نظم الجمان ص ٣٠ .
 (٥) المراكشي : المعجب ص ٣٤٠ .
 (٦) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٧٥ .

رضي الله تعالى عنه وبأخباره اجتمعوا على أبي حفص عمر بن يحيى . . .
وسائر أشياخ هتاتة ، فتذاكروا خبر الإمام المهدي وما جاء به وما هو عليه
من الخير والوعظ ، فأرادوا تحقيق ذلك فوجهوا أيا يعقوب إسحاق بن عمر
ليسبر أمره ويخبر رجاله وتواصلوا هم وطالب لهم يقال له سكاتوا بوصايا في
كيفية لقائه له رأوا أنها تنفعهم فتوجه إسحاق بن عمر والموحدون أعزهم الله
تعالى في ثلاثة آلاف راجل وثلاثمائة فارس يقدمهم البشير وتطلع ورأى وعمل
جميع ما أوصوه به ، واجتمع بالأمام المهدي ثم انصرف إلى تيفنوت فاجتمع
بالذين أرسلوه وعرفهم بما هو عليه الإمام المهدي من رفع المظالم وإزالة
المغارم وقال لهم باللسان الغربي : النور النور في بلاد هرغة وأنتم في الظلمة
يا هتاتة ، فصنعوا طعاماً واجمعوا عليه وتعاهدوا وتوجهوا بأجمعهم (١) .

ومنذ انضمامهم للدعوة الموحدية صارت لهم مكانة مرموقة ، وأصبح
زعيم هتاتة الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى من العشرة (٢) وهم المقربون للمهدي
والذين يبحثون الأمور الهامة المتعلقة بالدعوة ، وبجانب ذلك كان لهم أعضاء
في مجلس الخمسين ومنهم أبو يعقوب يوسف بن وانودين وداود بن عاصم
وغيرهم (٣) حتى إذا توفي المهدي لم يستطع الخليفة عبد المؤمن بن علي بالرغم
من ترشيح المهدي له ، أن يستقر في الحكم يأخذ بيعة الموحدون إلا بموافقة
ومساندة الشيخ أبي حفص زعيم هتاتة (٤) وصار ابنائه من بعده يتولون
العظيم من الأمور حتى انتهى بهم المطاف إلى الاستقلال بأفريقية وتأسيس
الدولة الحفصية .

أهل تينملل : وهم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع (٥) وترجع أهميتها
لانضمامها للدعوة الجديدة وإقامة المهدي بين ظهرانيهم واتخاذهم مسكنه ومسجده
في منطقتهم ، ومن هنا اكتسبوا منزلة بين قبائل المصامدة يقول ابن خلدون

-
- (١) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٧٥ .
(٣) البيهقي : أخبار المهدي ص ٣٤٠ ، ابن القطان : نظم الجمان
ص ٣١ .
(٤) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٧٥ .
(٥) المراكشي : المعجب ص ٣٤٠ .

« وكذا تينمل أخوتهم — أى أخوة قبيلة هرغة — فى التعصب على دعوة المهدي والاشتمال عليه والقيام بأمره حتى تحيز إليهم وبني داره ومسجده بينهم فكان يعطيهم من الفىء بقدر عظمهم من الابتلاء » (١) وقد انضم بعض أهل تينمل لمجلس الخمسين ومنهم أبو عمران موسى سليمان القاضي وأبو عبيد الرحمن وسوجات بن يحيى وأبو بكر بن يزمان وغيرهم (٢) .

جنفيسة : وهى قبيلة عزيزة منيرة (٣) وقد اشترك بعض أفرادها فى مجلس الخمسين ومنهم أبو اسماعيل وأبو زيد عبد الرحمن بن رجو وعبد الله بن الخلاج وأبو سعيد يخلف بن الحسين (٤) .

كدميوه : وفى رواية أخرى جدميوه (٥) وكانت تبعاً لهتاتة إذ أن مواطنهم كانت قرية من مواطن هتاتة (٦) وكان لها أعضاء فى مجلس الخمسين ومنهم أبو محمد العيش بن تمارى ، وأبو على كنون بن تمارى وغيرهم (٧) .

وأما وريكة : فهم مجاورون لهتاتة وبينهم فن قديمة وحره ب متصلة حتى انتصرت عليهم هتاتة (٨) .

وبجانب هذه القبائل ، كانت هناك قبائل مصمودية أيضاً إلا أنها لم تكن فى جملة القبائل التى سارعت بمبايعة المهدي والتى عاشت على صفحة المغرب الأقصى ، وكانت لها قوة ومنعة ومنها قبيلة هسكورة وقد وصفهم ابن خلدون بقوله « وأما هسكورة وهم لهذا العهد فى عداد المصامدة وينسبون إلى دعوة الموحدين وهم أمم كثيرة وبطون واسعة ومواطنهم بجبالهم متصلة من درن إلى تادلا من جانب الشرق إلى درعة من جانب القبلة (٩) » .

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ٣٠ ، البيهقي : أخبار المهدي

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٦٧ .

ص ٣٤ .

(٣) المراكشي : المعجب ص ٣٤٠ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ٣١ ، البيهقي : أخبار المهدي

ص ٣٤ .

(٥) المراكشي : المعجب ص ٣٤ .

(٦) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٧٠ .

(٧) البيهقي : أخبار المهدي ص ٣٤ .

(٨) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٧١ .

(٩) نفس المرحع المساق ج ٦ ص ٢٠٣ .

يضاف إلى هذه القبائل المصمودية قبيلة كومية والتي لعبت الظروف السياسية دورها في انتقال كثير من أبنائها من مواطنهم بالمغرب الأوسط والهجرة إلى المغرب الأقصى في عهد عبد المؤمن بن علي^(١) وكومية تنسب إلى قبائل البتر وهم يعرفون قديماً بصطفورة بطن من بني فاتن بن تامصيت بن ضري بن زجيك بن مادغيس الأتر وهم أبناء عم زناتة^(٢) وأما مواطنهم فكانت بالمغرب الأوسط^(٣) بين تلمسان والبحر المتوسط حيث المنطقة الحبلية الغنية بغاباتها^(٤).

وكانوا أصحاب فلاحه ورعاة غنم وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن وسوى ذلك من سقط المتاع^(٥) ثم تبدلت أحوالهم حين هاجروا إلى المغرب الأقصى وصاروا في خدمة خلفاء الموحدين .

وأما سبب استدعائهم من مواطنهم فإن الخليفة عبد المؤمن بن علي الذي ينتمي إليهم شعر بخرج مركزه بين قبائل المصامدة ، وخاصة بعد محاولة اغتياله من جانب بعض الموحدين ، ومن هنا أحس بضرورة إحضارهم حتى يكونوا له عوناً وسنداً في مواجهة عصبيات القبائل الأخرى. وفي ذلك يقول ابن أبي زرع « وفي خلال ذلك - أي في خلال استعداد عبد المؤمن لغزو الأندلس سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م - ورد على أمير المؤمنين قبيلة كومية في جيش عظيم من أربعين ألف فارس ، والسبب في قدومهم أنه لما همت الطائفة من الموحدين بقتله وقتلوا الشيخ الذي بات بمكانه ، وتحقق ذلك منهم جاء بهم لأخذ ثأره منهم بحيلة لكونه غريباً بين قبائلهم ليس له عشيرة يستند إليها ولا قبيلة يثق بها ويعتمد عليها »^(٦) ولذا أرسل إليهم خفية الأموال

(١) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، الميلي : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ١٥٤ ، عبد العزيز بن عبد الله : وحدة المغرب العربي ص ٥٤ مجلة تطوان عدد ١ سنة ٥٦ .

J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim, P ; 91.

(٢) السلوى : الاستقصا ج ٢ ص ٩٩ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٢٦ .

(٤) ليفي بروغنسال : الإسلام في المغرب ص ٢٧٤ .

(٥) المراكشي : المعجب ص ٣٣٩ .

(٦) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٦٥ ت الفيلاي .

(م ٢٠ - الحضارة)

والكساء وأمرهم بالقدوم عليه حتى إذا جاءوا تظاهر الخليفة بعدم معرفته سبب قدومهم وأرسل الشيخ أبا حفص لاستقبالهم ومعرفة سبب قدومهم «فأمر الشيخ أبا حفص أن يخرج إليهم في جماعة من الموحدين وأشياخهم ليتعرفوا خبرهم فسار حتى تلقاهم بوادي أم الربيع فقال لهم : أسلم أنتم أم حرب ، فقالوا : بل نحن سلم ، نحن قبيل أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ، نحن كومية الزناتيون ، قصدنا زيارته والتسليم عليه فرجع أبو حفص وأصحابه فعرف أمير المؤمنين بخبرهم فأمر عبد المؤمن جميع الموحدين أن يخرجوا إلى لقاءهم . . وكان بمراكش يوم دخولهم عيد من الأعياد» (١).

وقد أحلهم الخليفة منزلة طيبة إذ جعلهم بطانته وحرسه الذي يلتف حوله ويمشون بين يديه إذا خرج (٢) وهكذا شكل البربر بقبايلهم المتعددة الغالبية العظمى من سكان المنطقة .

واختلفت أوضاع القبائل تبعاً للسلطة الحاكمة ، فحين صارت مقاليد الأوربيد المرابطين ، فإن قبائل صنهاجة وعلى رأسها قبيلة لتونة التي انتقلت من مضاربها في الجنوب ، واستقر بها المقام في المغرب الأقصى - احتلت قبائلها مكانة ممتازة بين سواها من القبائل الأخرى .

فلما سقطت دولة المرابطين ، وقامت دولة الموحدين على أكتاف المصامدة أصبحت هذه القبائل لها الصدارة في احتلال المناصب والمراكز القيادية بالبلاد .

ب - العرب

هم الجنصر الثاني من سكان المغرب الأقصى والذي شارك البربر في الإقامة بالمنطقة ، ولم تكن صلة المغرب الأقصى بالعرب كموطن لهم قاصراً على القرنين الخامس والسادس من الهجرة ، وإنما كانت ذلك منذ اللحظات الأولى التي وطأت فيها أقدام موسى بن نصير أرض المغرب الأقصى غازیاً في أواخر سنة ٨٦ هـ وأخضع المنطقة للسلطة المركزية في دمشق ، وفي سبيل

(١) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ١٦٦ ت الفيلالي .

نشر الإسلام فإن موسى بن نصير ترك مجموعة من العرب تعرف سكان البلاد قواعد الدين الإسلامى وتنشر تعاليمه بينهم^(١) ، ومن هنا بدأ مجتمع المغرب الأقصى يتطعم بعناصر جديدة من العرب التى أقامت فى ربوع البلاد تؤدى وظيفتها التى أقبلت من أجلها ، وصار المغرب الأقصى موطناً لمن يفضلون الإقامة فى ربوعه من العرب وملجأ وملاداً لأصحاب الدعوات الخارجية والفارين من وجه الخلافة ، أولئك الذين وجدوا فى أرضه تربة صالحة لنشر أفكارهم ومبادئهم بعيداً عن بطش الخلافة وسلطان ولائها . حتى إذا قامت دولة الأدارسة سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨م شجع أئمتها العرب على الإقامة بالمنطقة واتخذوا منهم الوزراء والكتاب فضلاً عن انشاء عاصمتهم فاس لتضم المهاجرين العرب الذين وفدوا على المنطقة ، ومن ثم زاد العصر العربى فى المنطقة واختلطوا بسكان المنطقة مكونين معهم شعب المغرب الأقصى .

حتى إذا أطل القرن الخامس الهجرى على الشمال الافريقى شهد هجرة عربية كبرى تغزو المغرب عامة ، وتظهر آثارها واضحة فى عهد الواحدين وهى الغزوة الماللية ، وهذه الغزوة أو الموجة تختلف فى دوافعها وأهدافها عن المجموعات العربية الأولى التى واكبت الفتح الإسلامى .

وهؤلاء العرب يطلق عليهم لفظ الماللية من باب إطلاق اسم الجزء على الكل حيث أن بنى هلال والذين أطلق اسمهم على باقى القبائل العربية إنما يكونون إحدى القبائل العربية التى غزت المغرب وهذه القبائل هى بنو سليم وبنو هلال وأحلافهم من جشم والخلط والمقل^(٢) وهذه القبائل تجتمع ما عدا المقل فى منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر ، وأما المقل فينسبون أنفسهم إلى جعفر بن أبى طالب أما نسابة بنى هلال فيعدونهم فى بطونهم^(٣) وأما مواطنهم فكانت بأرض الحجاز حيث كان بنو سليم مما يلي المدينة المنورة ، وبنو هلال فى جبل غزوان عند الطائف^(٤) ثم بعد ظروف سياسية مروا بها استقر بنو سليم وبنو هلال بصعيد مصر^(٥) ، حتى

-
- (١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٠ .
 - (٢) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ١١٤ .
 - (٣) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ١١٤ .
 - (٤) السالوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٣ .
 - (٥) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ١٦٤ .

إذا انتقل العبيديون إلى مصر بدأت الخطوات الأولى في تهجير القبائل العربية إلى الشمال الأفريقي وذلك إثر خلاف سياسى حدث بين المعز بن باديس وبين العبيدين في مصر ، وذلك حين خالف المعز الدعوة الفاطمية ودعا للخلافة العباسية ومن هنا لم تر الخلافة الفاطمية من عقاب سوى تسليط القبائل العربية على افريقية والمغرب وذلك للقضاء على دولة بنى زيرى (١) ويبدو أن أعدادهم كانت ضخمة بلغت مائتي ألف نفس (٢) وأنها اتخذت شكل موجات متتابة بدأت بالدفعة الأولى التى شجعها الفاطميون على غزو افريقية ثم تلتها هجرات عربية أخرى حتى يشاركوا فيما ناله من سبقهم من مغنم وأموال (٣) وقد أحدثوا آثاراً مدمرة وبعبارة ابن خلدون فإنهم أضرموا افريقية ناراً (٤) وامتدت أيدي الأعراب إلى المدن بالتخريب والتدمير . وفسدوا المزارع واقتلعوا أشجار الزيتون وأفسدوا الحقول وأقاموا على هذه الأنقاض إمارات عربية صغرى يقاتل بعضها بعضاً (٥) .

العرب الهلالية في عهد المرابطين : أغفلت المراجع التى تيسرلى الاطلاع عليها الإشارة إلى أى نشاط للعرب الهلالية في المغرب الأقصى ، إذ أن جموعهم لم تكن وصلت بعد إلى أراضي المغرب الأقصى ، وربما يرجع هذا لأنشغالها بنشاطها الحربى في افريقية من ناحية ومن ناحية أخرى فإن القوة الفتية المتمثلة في المرابطين حفظت المغرب الأقصى من تطلع العرب الهلالية لغزو المنطقة بالإضافة إلى ذلك فإنهم وضعوا حامية قوية بتلمسان وقاموا

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ١ ص ٦٢ مخطوط ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٦٢ ، د. عبد الحميد يونس : الهلالية في التاريخ ص ٦٨ جامعة القاهرة سنة ١٥٦ ، د. أحمد شلبى : التاريخ الاسلامى ج ٤ ص ١٦٤ ط ٣ سنة ٦٩ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٥٤ ط ٢ سنة ٥٨ كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٨٤ ط ١ سنة ٤٩ .

(٢) دونالدودندر : تاريخ افريقيا جنوب الصحراء ص ٤٤ ترجمة د. راشد البراوى .

(٣) د. عبد الحميد يونس : الهلالية في التاريخ ص ٦٨ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٦٢ .

(٥) د. حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقيا ج ١ ص ١٧٥ ط ٢ سنة ٦٣ .

بتحصين المنطقة^(١) كل ذلك قضى على كل تطلعات العرب الهلالية في مواصلة عملية الغزو بالنسبة للمغرب الأقصى .

إلا أنه وردت إشارة في نظم الجمان تفيد اشتراك العرب في عملية الجهاد التي كان يقوم بها المرابطون في الأندلس ، ففي وقعة إقليش بالأندلس سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م والتي انتصر فيها المرابطون على الفرنج ، ذكر ابن القطان استشهاد بعض العربان في المعركة « واستشهد في هذه الوقعة الإمام الجزولي وكان رجل صدق وجماعة من الأعيان والعربان رحمهم الله تعالى »^(٢) وهذه الرواية تفيد اشتراك العرب في معركة الجهاد ، وربما كان هؤلاء العرب من المقيمين أصلاً بالمغرب الأقصى أو المتطوعين من أفريقية والذين توجهوا إلى الأندلس للمشاركة في عملية الجهاد ، ويؤكد عملية تطوع العرب في جيش المرابطين ما أورده ابن أبي زرع والسلوى من اشتراك المتطوعة العرب في جيش المرابطين في سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩ م « جاز — أي على بن يوسف بن تاشفين سنة ٥١٣ هـ حين شمع بأفعال ابن رذير — إلى الأندلس برسم الجهاد وإصلاح أحوال بلادها وضبط ثغورها وهو جوازه الثاني ، فجاز معه خلق كثير من المرابطين والتطوعين والعرب وزناته والمصامدة وسائر قبائل البربر »^(٣) .

العرب الهلالية في عهد الموحيدين : اختلف وضع العرب بالمغرب الأقصى في عهد الموحيدين عنه في عهد المرابطين ، فبينما لم يظهر لهم نشاط بارز في عهد المرابطين اللهم إلا الاشتراك في بعض الحملات العسكرية المتجهة إلى الأندلس بهدف الجهاد ، إذ نراهم في عهد الموحيدين يظهر على مسرح الأحداث إما صراعاً ضد الموحيدين أو جنوداً لهم في معاركهم الحربية ، وما تخلل ذلك من محاولات نقلهم إلى المغرب الأقصى إما بحد السيف وإما بالترغيب والعطايا .

(١) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٩ ، ١٠ .

(٣) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ٨٩ ت الفيلاي ، السلوى :

الاستقصا ج ٢ ص ٦٧ .

. وقد بدأت صلة الموحدين بالعرب منذ عهد عبد المؤمن حين أذاع بين الناس نسبه العربي^(١) وقد ذكر نسبه المراكشي « وعبد المؤمن هذا هو عبد المؤمن بن علي بن تملوى الكومي ، أمه حرة كومية أيضاً ، من قوم يقال لهم بنو مجبر ، مولده بضيعة من أعمال تلمسان تعرف بتاجراً ، وقيل أنه كان يقول إذا ذكر كومية : لست منهم وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان ، ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم وهم الأنحوال »^(٢) واتخذ عبد المؤمن ومن جاء بعده من هذا النسب وسيلة لاستمالة العرب الموجودين في افريقية للاشتراك معهم في عمليات الجهاد بالأندلس ، وكانت سياسة الموحدين تقوم على دعامتين :

الأولى : تهجيرهم من افريقية إلى المغرب الأقصى ، وبذلك يتخلص الموحدون من ثوراتهم .

والثانية : استخدامهم في عمليات الجهاد بالأندلس يوضح ذلك مانصح به الخليفة عبد المؤمن أبناءه « وينقل من وصاة عبد المؤمن على الرحلة إلى افريقية لبنيه . . وأخل افريقية من العرب وأجلهم إلى بلاد المغرب وادّخرهم لحرب ابن مردنيش ان احتجت لذلك »^(٣).

وقد جاء العرب الهلالية إلى المغرب الأقصى نتيجة لعاملين :

العامل الأول : فهو انهزامهم في المعارك التي خاضوها ضد الموحدين وما ترتب على ذلك من ترحيلهم إلى المغرب الأقصى ، وكانت أولى هزائمهم أمام الخليفة عبد المؤمن حين توجه إلى المغرب الأوسط وبعد استيلائه على بجاية سنة ٥٥٤٧ / ١١٥٢ م ، دخل في معركة مع العرب انتهت بهزيمتهم ونقل نسائهم وأبنائهم إلى مراكش^(٤) وكان الصدام الثاني حين توجه إلى افريقية وبعد استيلائه على المهديّة دخل في معركة مع العرب انتهت بهزيمتهم

(١) البيهقي : أخبار المهدي ص ٢١ ، ٢٢ ، ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ١٢٦ ، ١٢٧ ت الفيلاي .

(٢) المراكشي : المعجب ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٧٦ .

(٤) الملي : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٤ .

سنة ٥٥٥ هـ ومن ثم نقل مجموعة كبيرة من النساء والأولاد إلى العاصمة وعاملهم معاملة حسنة مما دفعت كثيراً من العرب الفارين للحاق بأسرهم بالعاصمة (١) يقول النويري « والتقى الجمعان / أى العرب والموحدين - واقتتلوا أشد قتال وأعظمه فانجلت المعركة عن هزيمة العرب وذلك في يوم الخميس عشر من صفر وتركوا أموالهم وأهاليهم وأولادهم ونعمهم فأخذ الموحدون جميع ذلك وعادوا به إلى عبد المؤمن فقسّم الأموال في عسكره ، وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط ووكّل بهم الخصيان يخدمونهم وأمر بصياتهم ونقلهم معه إلى مراکش فأنزلهم المساكن الفسيحة وأجرى عليهم النفقات الواسعة » (٢) ويبدو أن أعداد العرب التي رجع بها الخليفة عبد المؤمن كانت كبيرة حتى أن ابن صاحب الصلاة عبّر عن ذلك بقوله « وقد استاق - أى الخليفة عبد المؤمن - في اتباعه من العرب من رياح وبنى جشم وبنى عدى من بنى هلال وقبائلهم ما يضيق بهم الفضاء ، على عدد الذباب وعدد الحصى » (٣) وفي رواية أخرى أنه نقل من كل قبيلة ألفاً بعباً لا تهم وأبنائهم (٤)

وفي سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م تم ترحيل جماعة من عرب رياح إلى مراکش وذلك بعد انهزامهم أمام الموحدين في قفصة (٥) حتى إذا أقبلت سنة ٥٨٢ هـ - ١١٨٦ م اندلعت الثورة بافريقية وخاصة في مدينة قفصة ، وتزعّم الثورة بنو غانية ، وانضمت إليهم القبائل من جشم ورياح الاثنيج مما اضطر معه الخليفة المنصور إلى تجريد حملة كبيرة وخرج على رأسها وأخضع القبائل

(١) البيهقي : أخبار المهدي ص ١٢٠ ، ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٤٤ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٤٢ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٩٤ .

Nevill Barbour: Morocco P ; 78.

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ مخطوط .
(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ١٤ .
(٤) ابن أبي زرع : الاثنيص ج ٢ ص ١٦١ ت الفيلالى ، ابن أبي دينار : المؤنس ص ١١٢ .
(٥) عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٢٠ .

الثائرة ، ونقل الكثير من العرب إلى المغرب الأقصى سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م^(١) فلما تولى الناصر الموحدي ، صرف جزءاً كبيراً من طاقته وجهده في فترة زمنية استغرقت ست سنوات منذ سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩ إلى سنة ٦٠٢هـ - ١٢٠٥م في سبيل محاولة القضاء على بني غانية في إفريقية ومن انضم إليهم من قبائل بني هلال وقد نجح في ذلك^(٢) وهكذا شغل الموحدون بالمعارك ضد العرب منذ أن تولى عبد المؤمن الخلافة حتى الناصر ، وترجع أهمية تلك المعارك في أن جوعاً غفيرة من العرب انتقلوا من إفريقية والمغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى وأقاموا بالمنطقة .

العامل الثاني : في سبب مجيء القبائل العربية إلى المغرب الأقصى فهو استدعاء خلفاء الموحدين لهم للاشتراك في عملية الجهاد ، ومن ذلك ما فعله الخليفة عبد المؤمن حين عزم على العبور إلى الأندلس فإنه استنفرهم للمشاركة في الجهاد ، يقول المراكشي « وقد كان - أي عبد المؤمن - حين أراد العبور إلى جزيرة الأندلس استنفر أهل المغرب عامة فكان فيمن استنفره العرب الذين كانوا ببلاد يحيى بن العزيز - أي مملكة بني حماد بإفريقية . . . فكتب إليهم رسالة يستنفرهم إلى الغزو بجزيرة الأندلس وأمر أن تكتب في آخرها أبيات منها :

بني العم من عليا هلال بن عامر وما جمعت من باسل وابن باسل
تعالوا فقد شدت إلى الغزو نية عواقبها منصور بالأوائل^(٣)

ومن النص نرى حرص الخليفة عبد المؤمن على تذكيرهم بصلة القرى التي تربطه بهم مع مدحهم بالشجاعة والبسالة حتى يستجيبيوا لندائه .

وسار على نفس السياسة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن في استدعاء

(١) ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ١٥٧ ت الفيلاي ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢١٤٢ ، ابن أبي دينار : المؤنس ص ١١٤ ، عبد العزيز ينعبد الله : تاريخ المغرب ، ج ١ ص ١٢٢ ، الميلي : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٩٤ إلى ص ٢١٢ تطوان .

(٣) المراكشي : المعجب ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

القبائل العربية وقد تم ذلك في سنة ٥٦٦ هـ حين استدعى قبائلهم للمشاركة في عملية الجهاد^(١) يقول ابن خلدون « وخاطب — أى يوسف بن عبد المؤمن — العرب بأفريقية يستدعيهم إلى الغزو ويخترضهم وكتب إليهم في ذلك قصيدة ورسالة مشهورة بين الناس وكان من أحافلهم ووقورهم عليه ما هو معروف^(٢) »

وأحياناً كانوا يقبلون من أنفسهم طمعاً في العطاء والأموال التي يحصلون عليها من الاشتراك في المعارك ففي سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م وفد على الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن أبو سرحان مسعود بن سلطان الرياحي في جيش عظيم من وجوه رياح برسم الخدمة^(٣) كذلك اشترط العرب على أنفسهم في سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ، الاشتراك في الحملة الكبرى التي أعدها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بمائة وثلاثين ألف فارس بين فارس وراجل^(٤) وحضر وفد كبير منهم في سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م من عرب سليم ورياح ووجوه أنجادهم للانضمام إلى جنود الخليفة المنصور الموحدى^(٥) .

وهكذا اشترك عامل الهزيمة وعامل الاستدعاء ورغبتهم في الأموال والعطاء في إقبال أعداد كبيرة من العرب إلى المغرب الأقصى وأقامتهم في أماكن متفرقة من البلاد حيث قام الخليفة عبد المؤمن بتوزيع العرب على مناطق متفرقة من البلاد يقول البيهقي « وأقبل إلى المغرب — أى الخليفة عبد المؤمن — مع سادة العرب بأجمعهم وأولادهم وعبائهم فوصل أمير المؤمنين إلى سلا وقسم العرب على البلاد ومشى إلى مراکش^(٦) بل وقام الخليفة بترك جماعات منهم بالأندلس وذلك حين دعاهم إلى الجهاد فعبروا معه إلى الأندلس في سنة ٥٥٥ هـ / ١١٥٩ م ، وأقام الخليفة بجبل الفتح يرتب شئون الأندلس ومن ذلك ترك جماعات من العرب بمدن الأندلس^(٧) .

-
- (١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٦٨ ، ٤١١ ، ٤١٧ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٣٩ .
 (٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٣٩ .
 (٣) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ج ٢ ص ١٨٩ ت الفيلى .
 (٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٦٠ تطوان .
 (٥) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ١٥١ ، ١٥٢ تطوان .
 (٦) البيهقي : أخبار المهدي ص ١٢٠ .
 (٧) المراكشي : المعجب ص ٢٢٦ .

وتابع نفس السياسة أبو يعقوب وأبو يوسف في تهجير جماعات منهم إلى الأندلس « فبالجزيرة اليوم سنة ٦٢١ هـ — من العرب من زغبة ورياح وجشم ابن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرجال » (١) وهذا يتفق مع سياسة الموحدين في محاولة نقلهم من مواطنهم في إفريقية والمغرب الأوسط مع شغلهم بالحرب والجهاد حتى لا يتفرغوا لإحداث فتن بالبلاد .

وفي عام سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م قام المنصور الموحدى بتحديد أماكن معينة لإقامة بعض القبائل العربية كقبائل جشم وبنو رياح من بني هلال حيث أنزلهم بسهول المغرب المحاذية للمحيط الأطلسي : بنو جشم ببلاد تامسنا ما بين سلا ومراكش وهو أوسط بلاد المغرب الأقصى ، وأنزل بني رياح من بني هلال بناحية الغرب فيما بين القصر الكبير وساحل المتوسط (٢) وبذلك يكونون تحت رقابته المستمرة يقول ابن خلدون « فنفاهم — أى المنصور الموحدى — إلى المغرب الأقصى وأنزل جشم بلاد تامسنا ورياحاً ببلاد الهبط وأزغار مما يلي سواحل طنجة إلى سلا » (٣) .

وقد أقام هؤلاء العرب بهذه المناطق واستقروا بها ومن ثم كانت عليهم التزامات تجاه الدولة ، ومن هذه الالتزامات دفع الضرائب باعتبارهم كغيرهم من المواطنين مع المساهمة بعدد من أبنائهم في الحملات العسكرية التى يقوم بها ولاة الأمر (٤) يقول ابن خلدون « وكان — أى بعض القبائل العربية — موطنهم بسيط تامسنا وكانت للسلطان عليهم عسكرة وجباية » (٥) .

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٢٦ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢١ ، ابن زيدان : اتحاف أعلام الناس ج ٢ ص ٧١ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ابن عيود : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٥٢ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٨٣ .

Nevill ; A Survey of North West Africa, P ; 84.

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢ .

(٤) نفس المرجع السابق ج ٦ ص ٣١ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٧٠ .

Julien ; Histoire de L'Afrique du Nord P ; 112.

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٣١ .

ومن ناحية أخرى فإنهم كانوا يتمتعون بما يتمتع به غيرهم من جند الموحدين فقد أقطعهم ولاية الأمر بعض الأراضى (١) وذلك حتى يهيئوا لهم فرصة للاستقرار وعدم التحرك بالفتنة ، كما كان الخلفاء ينفقون عليهم النفقات الواسعة (٢) ، بالإضافة إلى ذلك كانت توزع عليهم الأموال في الحملات العسكرية المختلفة فحين أمر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بتدمير الجند سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م أمر للعرب ورؤسائهم بالأموال والكساء والعلاج يقول ابن صاحب الصلاة « وأمر — أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — للعرب ببركتهم فخرج للفارس الكامل منهم خمسة وعشرون ديناراً ، ولغير الكامل خمسة عشر ديناراً ، والراجل سبعة دنانير ، وخرج لأشياخ العرب لكل شيخ منهم خمسون ديناراً ، ولكل رئيس منهم على قبيلة مائتا دينار وكسا جميعهم بالقباطى والقمص والغفاير والعمائم وأعطاهم السيوف الخلاة والدروع السابغات والبيض والقنا من الرماح الطوال وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس قسموها على قبائلهم وأتباعهم ورجالهم » (٣) ويلاحظ من أقوال ابن صاحب الصلاة في هذه المناسبة أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قد فضل جند العرب على جند الموحدين في العطاء فبينما أعطى للفارس الكامل من الموحدين عشرة دنانير ، أعطى نظيره من العرب خمسة وعشرين ديناراً ، ولغير الكامل من الموحدين ثمانية دنانير أعطى نظيره من العرب خمسة عشر ديناراً وللراجل من الموحدين خمسة دنانير أعطى نظيره سبعة دنانير (٤) وهذا يشير إلى حرص الموحدين على استمالة العرب وكسب ودهم .

آثار العرب الهلاليين في المجتمع المغربي :

كان يحى قبائل العرب الهلالية إلى المغرب الأقصى ، وإقامتهم بالمنطقة واختلاطهم بالسكان ذا آثار متعددة ، إذ قاموا بنشاط ملحوظ في مجالات المجتمع المختلفة إدارية كانت أم عسكرية أم اقتصادية أم اجتماعية .

(١) نفس المرجع السابق ج ٦ ص ٤١ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٩٤ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٥٢ تطوان .
(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٧ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٤٣٧ .

ففي المجال الإداري استعان بهم الخليفة عبد المؤمن بن سبي في التأثير على غيرهم من الموحدون في اختيار ابنه محمداً ولياً للعهد ، وقد سبق ذلك محاولات الخليفة عقد صلة مودة بين ابنه محمد المرشح لولاية العهد وبين زعماء القبائل العربية ، حين قام محمد بإرسال الخطابات إليهم يخبرهم فيها أن من أسر من أبنائهم ونسائهم تحت الرعاية والصون ، حتى إذا تثبت زعماء العرب من ذلك شعروا بالموددة والتقدير لابن الخليفة^(١) ، يقول النويري « وأمر عبد المؤمن ابنه محمد بمكاتبة العرب ويعلمهم أن نسائهم وأولادهم تحت الاحتياط والحفظ والصيانة وأمرهم أن يحشروا لتسليمهم إليهم فلما وصل كتابه إليهم سارعوا إلى المسير إلى مراکش فأعطاهم عبد المؤمن نسائهم وأولادهم وأحسن إليهم ووصلهم بالأموال الجزيلة فأسر قلوبهم بذلك »^(٢) ثم أتبع ذلك بأن دس لزعماء العرب من يأمرهم بمطالبة الخليفة بتولية ابنه محمداً ولياً للعهد ، ومحاولة الخليفة الامتناع إكراماً لأبي حفص عمر ولكنه رضى في النهاية وخاصة بعد أن خلع أبو حفص نفسه من ولاية العهد^(٣) حتى إذا تم تولية ابنه محمداً وذلك بفضل مطالبة العرب ومساندتهم ، أرسل الخليفة رسائله إلى أنحاء دولته يعلن فيها الخطوات التي تمت ومبايعة ابنه بولاية العهد وقد جاء فيها « وكانت هذه العشائر العربية المالكية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها من حاضرة وبادية من أهل اقليمها وذوى ألبابها وحلومها يشيرون إلى ذلك على انتراحهم ، ويعلمون بأنه غاية اقتراحهم ومادة نفوسهم وأرواحهم ولم تزل مخاطباتهم في ذلك تتردد حيناً بعد حين ورغباتهم تتأكد بما كان عندهم فيه من ثلج ويقين ، فلما اتفق بحمد الله وصولهم في هذه الوفادة . . . صرحوا لأول لقاءهم بما أضمره وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه وأعلموا أن محمداً وفقه الله هو الذي ارتضوه لحمل عبثهم وتخيروه ورغبوا في تقديمه على بلادهم وإنفاذه معهم على قصده في توليتهم ومرادهم »^(٤) وقد ترتب على ذلك الإجراء

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٤١ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ابن الأثير :

الكامل ج ٩ ص ٥٠ ، الملي : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٤) مجموع رسائل موحديّة ص ٥٧ ، ٥٨ .

أن صارت خلافة الموحدين محصورة في أبناء عبد المؤمن يتوارثونها فيما بينهم وكان ذلك بمساندة العرب وتعصيدهم .

حتى إذا كثرت القبائل العربية بالمغرب الأقصى وأصاب الضعف والتخاذل ولالة الأمر من الموحدين ، تدخل العرب في شئون الدولة وذلك منذ وفاة المستنصر سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٢ م وقاموا بعزل وتولية بعض ملوك الموحدين وكان بنو جابر والخلط أكثرهم كيداً للملوك (١) .

أما النواحي العسكرية فقد سبق أن أشرت إلى اشتراكهم في جند المرابطين برغبة الجهاد في الأندلس ، فلما قامت دولة الموحدين صاروا يشكلون عنصراً هاماً من عناصر الجيش الموحدى ، وذلك نتيجة حرص الخليفة عبد المؤمن ومن جاء بعده على ضمهم إلى الجيش (٢) يقول البيدق « وجاز الخليفة إلى سلا وقال ليوسف بن سليمان ركب لي العرب ، ركب لي منهم أربعة عشر ألفاً وأعطيك البشارة ، فركبها حتى تخاطفت العرب على الخليل ودخل عليه يوسف بن سليمان بالبشارة » (٣) وأصبح لكل قبيلة قائدها الخاص وذلك لأن الموحدين تركوا القبائل تحارب كل منها كمجموعة ضمن المجموعة الكبرى للجيش فكانت قيادة القبائل العربية يتولاها رؤساء البيوتات الكبرى فيهم كبنى جرمون في قبيلة سفيان وهلال بن حميدان في قبيلة الخلط (٤) .

فإذا ما تناولنا النواحي الاقتصادية لوجدنا الآثار المدمرة التي أحدثتها القبائل العربية في إفريقية نتيجة لتخريب المدن وحرق المزارع في هجمات متلاحقة اتلنت التقدم العمرانى الذى كانت تنعم به إفريقية (٥) يقول ابن خلدون « واضطرب أمر إفريقية وخرب عمرانها وفسدت سابلتها » (٦) ، حتى

-
- (١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٦ .
 (٢) المراكشى : المعجب ص ٢٢٤ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٠ .
 ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٧٢ ، ص ١٧٣ .
 (٣) البيدق : أخبار المهدي ص ١٢١ .
 (٤) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٤٣ .
 (٥) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ١٢٠ ، ريمون فيزون : الصحراء الكبرى ص ٧٣ ترجمة د. جمال الدين الديناصورى سنة ٦٣ ، لويس أرشيبالد : القوى البحرية ص ٣٦٤ ترجمة أحمد عيسى .
 (٦) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٦ .

إذا انتقلوا إلى المغرب الأقصى مارسوا مهنة الرعى التي نشأوا عليها والتي تتفق مع طبيعتهم البدوية حيث أنهم بداءة ظواعن يسكنون بيوتاً يستخفونها يوم ظعنهم ويكسبون الخيل لركوبهم والأنعام لحمل أثقالهم والتغذى بالبانها واتخاذ الملابس والأثاث من أوبارها وأصوافها وأشعارها ينتجعون بها الصحراء شتاءً والتل صيفاً^(١) فلما نقلهم المنصور الموحدى إلى السهول الأطلسية واستقروا بها ، انصرفوا مع الزمن إلى الفلاحة حتى أن أخصب أراضي البادية على المحيط الأطلسي حتى الآن بأيدي أعقابهم^(٢) .

وقد نتج عن إقامتهم بالمنطقة واختلاطهم بسكان البلاد أن تعرب قسم من سكان البلاد نتيجة للتزاوج وصلات القرابة التي تمت على مر الأيام وامتزاج السلالتين بالدماء العربية^(٣) فإذا ما أخذنا بالرواية التي تقدر عدد العرب الداخلين إلى الشمال الأفريقي بما يقرب من ربع مليون عربي^(٤) وأن هذا العدد أقام بالبلاد لتبين لنا مدى الأثر الجنسي على السكان الأصليين للبلاد ، وحتى أن سواحل المحيط الأطلسي التي كانت تزدهم بالمصادمة شمالاً وصنهاجة جنوباً تعربت بعض قبائلها كلية كدكالة^(٥) وقد ساعد على هذا الاختلاط والامتزاج التشابه بين حياة العرب الهلالية وبعض قبائل البربر وخاصة التي تتمتع الرعى منها بالإضافة إلى اتفاقهم في الصفات الخلقية كالشجاعة وعزة النفس وإباء الضيم وحفظ العهد وحسن الحوار وغير ذلك من الصفات^(٦) .

يضاف إلى التعريب الجنسي أيضاً التعريب اللغوي نتيجة للاختلاط

(١) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ١٢٣ .

(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٨٣ .

(٣) عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ٣١ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٧ ، د. عبد الحميد يونس : الهلالية في التاريخ ص ٧٤ ، ٧٥ ، المنونى : العلوم والآداب ص ١٦ ، ١٧ .

J. Spencer ; A History of Islam in West Africa P ; 19.

J. Di Fage ; An Introduction to the History of West Africa, P ; 13.

(٥) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٧ .

(٦) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ١٢٥ .

والمعايشة اليومية ومن ثم تعلم البربر سكان البلاد الاصليين لغة الوافدين وهى اللغة العربية وانتشرت فى أجزاء كثيرة من البلاد . وبذلك ساعد العرب على نشر الثقافة العربية بالمنطقة بعد أن تعلم كثير من أهل البلاد العربية على يد هؤلاء الأعراب (١) .

وعلى الرغم من محاولات خلفاء الموحدين التقرب والتودد إلى العرب تارة بالعطاء والأموال وتارة بالتهديد والحرب والعقاب إلا أن هؤلاء قد أحدثوا بعض القلاقل وهم فى ذلك يصدرن عن طبيعة تعشق الحرية المؤدية إلى الفوضى وترفض الانقياد والطاعة مع ميل إلى الشغب وسرعة الإثارة ، ولذا حين استسلموا للخليفة عبد المؤمن ووافقوا على النهوض معه للجهاد بالأندلس نكثوا عهودهم ، يقول الزركشى « وأحضر — أى عبد المؤمن ابن على — أمراء العرب وأحلفهم فى مصحف عثمان بن عفان على السمع والطاعة والسير معه إلى الأندلس لقتال العدو فلما ساروا نكثوا أيمانهم » (٢) . كذلك كانوا يميلون إلى الشغب وإثارة الفتن أما فيما بينهم كما حدث فى سنة ١١٧٠هـ / ١١٧٠م حين خرجوا فى جيش الخليفة يوسف بن عبد المؤمن للجهاد بالأندلس فانهم اقتتلوا فى الطريق يقول ابن صاحب الصلاة « فزل — أى يوسف بن عبد المؤمن — فى داره المكرمة أيضاً على قرب من القنطرة المذكورة وأمر لكل من الموحدين بيوم من الأيام ، يجوزون فيه حذراً من الزحام ، فتغرق القنطرة المذكورة فأجازوا عليها وتراحم العرب فى الإجازة حتى تقاتلوا وقتل واحد منهم الآخر ، فعزموا على الفتنة بينهم فارتفع الخبر إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين فوداه من ماله وسكنت فتنهم » (٣) أو يقتتلون مع غيرهم من الموحدين وذلك ما حدث فى نفس العام سنة ١١٧٠هـ / ١١٧٠م حين وفدوا على الخليفة يوسف بن عبد المؤمن للاشتراك فى الجهاد يصور ذلك ابن صاحب الصلاة « ولما كان فى أحد الأيام — وهى تلك الأيام

(١) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ١ ص ٦٥ ،
حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٤٩ ، رابح بونار : المغرب العربى :
تاريخه وثقافته ص ٢٨٣ الجزائر سنة ٦٨ .
(٢) الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٩ .
(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٤٣ .

التي خصصها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لإطعام العرب الوافدين من إفريقيا لمساعدته سنة ٥٥٦ هـ - حدث بين صبيان الموحدين الذين يمسون دوابهم خارج البحيرة وبين أتباع العرب كلام ونزاع ودفاع بهوشة وقعت بين الفريقين أدت إلى اختطاف الثياب واستلاب الجلباب وتحزب الجهال من الأعراب بالأحزاب . . واتصل الخبر لسيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله فأقلقه التعدي في باب سدته ولصق حضرته فأمر برفع الطعام ثلاثة أيام عتياً على العرب بسبب جرأتهم على سوء الأدب»^(١) وقد انتهى هذا النزاع باعتذار العرب للخليفة يوسف وقبوله ذلك الاعتذار .

ثم تطور الأمر بالعرب إلى أن صار بعضهم يقطع الطريق على المارة يسلبونهم أموالهم وثيابهم وقد ورد في ترجمة أبو يلبخت المتصوف والمتوفي بجبل هسكوره سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م على لسانه « قال لي أبو محمد عبد الحق : أتيت مرة من الفحص إلى أهلي فلقيت العرب في طريقي وهم يعيشون في الناس يمينا وشمالا ، وأنا راكب على دابتي فحفظني الله منهم ولم يتعرضوا لي حتى وصلت أهلي ولم أحدث بذلك أحداً ، ثم إنى زرت أبا يلبخت ، فجلست معه نتحدث إلى أن وصلته جماعة من المريدين من أهل تامسنا فقالوا : أردنا أن نستقي فخرجنا إلى المسجد الفلاني فجردنا العرب فقال لهم أبو يلبخت : أعرف رجلا من أبناء هسكورة اجتاز بالعرب فلم يتعرضوا له . . »^(٢) ومن هذا النص يتضح محاولات الأعراب سلب المارة ومهيمهم ، وقد زاد هذا التصرف حين دخلت الدولة في مرحلة الضعف ، وأصبح ولاية الأمر لا يستطيعون كبح جماحهم حيث كانوا يغيرون على المزارع والقرى الآمنة^(٣) وقد أدرك ولاية الأمر طبيعة القبائل العربية وحبا للمغامرة والسلب وما يحدثه وجودها بالبلاد من قلاقل وفتن ، ومن ثم صرح المنصور الموحدي - وقد دخل في عهده أعداد كبيرة منهم - بالندم على إدخال العرب إلى بلاده يقول ابن أبي زرع والسلوى « دخل المنصور إلى قصره - وذلك بعد إتمام بيعة الناصر - فلزمه وبدأ به المرض الذي توفي منه ولما اشتد به المرض قال ما ندمت على شيء

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٣ ، ص ٤٣٤ .

(٢) التادلي : التشوف ص ٣٨٩ .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٥٥ .

(م ٢١ - الحضارة)

فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها : أولها ادخال العرب من افريقية إلى المغرب لأنني أعلم أنهم أهل فساد . . . » (١) .

ج - أجناس أخرى

وجدت أقليات صغيرة من السودانيين والروم والصقالية والغز بالمغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين بجانب سكان البلاد الأصليين من البربر ، وما انضاف إليهم من جوع العرب ، وكان موقع المغرب الأقصى وتوسطه بين السودان في الجنوب والأندلس وأوروبا في الشمال أثر في تسهيل عملية انتقال هذه الاقليات إلى المغرب الأقصى ، إما بقصد الاتجار والاستقرار ، وخاصة بعد أن نعمت البلاد بالاستقرار في عهد المرابطين والموحدين ، وأما بالشراء حيث كان ولادة الأمر يشترطونهم للاستعانة بهم .

السودانيون :

استخدمهم المرابطون في جيوشهم وتنظيماتهم العسكرية وصاروا يكونون فرقة من فرق الجيش (٢) وقد بدأ هذا الإجراء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حين عزم على توطيد سلطانه ودعم نفوذه فاشترى مجموعة من السودانيين بلغوا ألفين ليكونوا حرسه الخاص (٣) ويبدو أن أعدادهم تزايدت وتكاثرت بالمدن المغربية ، حتى أن أمير المسلمين على بن يوسف حين عزم على تجهيز حملة كبيرة لمواجهة ابن رذمير بالأندلس فرض على المدن المغربية المختلفة أن يجهزوا عدداً من أبناء السودان بسلاحهم للاشتراك في الحرب يقول ابن القطان « وفي هذه السنة — سنة ٥٢٣ هـ — وصل إلى على بن يوسف خبر من مدينة بلنسية أن ابن رذمير عازم على الخروج إلى بلاد المسلمين فخشى أن تكون حركته التي كانت في سنة عشرين ، ففسط على الرعية

(١) ابن أبي زرع : الأتيس ص ١٦٧ طبع حجر ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٥ .
(٢) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢١٢ ، الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ج ١ ص ٤٠٧ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٢٢ ، د. حسن محمود قيام دولة المرابطين ص ٣٧٨ .

J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 73.

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٣ .

سوداناً يغزون في العساكر ، وكان قسط أهل فاس منها ثلاثمائة غلام من سودانهم بزرقيهم وسلاحهم ونفقاتهم ، يخرجون ذلك من أموالهم ففعلوا^(١) . ومن هذا نستنتج أن عدداً لا بأس به من السودانيين قد تحملته مدينة فاس فضلاً عن المدن المغربية الأخرى ، وذلك للمشاركة في أعمال الجهاد وهذا يؤكد كثرة عددهم وانتشارهم بمدن المغرب الأقصى . كذلك استخدم الموحدون السودانيين في جيوشهم^(٢) .

وبجانب اشتراك السودانيين في الجيش ، فقد كانت نساؤهم ماهرات في طبخ الطعام ، ولذا كان سكان المغرب الأقصى يقومون بشرائهن للاستفادة من مهارتهن يقول صاحب كتاب الاستبصار في وصف مدينة أودغشت : « ويجلب منها سودانيات طبابخات محسنات تباع الواحدة بمائة دينار كبار وأزيد ، يحسن عمل الأطعمة ولا سيما أصناف الحلوات مثل الحوزنيقات والوزينجات والقاهريات والكنافات والقطائف والمشهيات وأصناف الحلوات فلا يوجد أحلى بصنعها منهن^(٣) » يضاف إلى ذلك استخدامهن كجواروذلك للجهن واعتدال أجسامهن^(٤) .

الروم والصقالبة :

عاشت طائفة منهم بأرض المغرب الأقصى ، نتيجة للمعارك التي خاضها المرابطون والموحدون بالأندلس والتي أسفرت عن كثير من الأسرى استخدمهم ولادة الأمر في خدمتهم بالمغرب الأقصى وخاصة بالجيش حتى يستفيدوا من خبرتهم العسكرية في مقاتلة فرنج الأندلس^(٥) .

وقد بدأت صلة الروم والصقالبة بالمغرب الأقصى كجماعة في أوائل عهد المرابطين حين عمد يوسف بن تاشفين إلى شراء جماعة منهم بلغت مائتين

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٠٩ .

(٢) J.F.P. Hodkins ; Medieval Muslim P ; 73.

(٣) مجهول الاستبصار ص ٢١٦ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٢١٥ .

(٥) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٢٣ ، الجيلالي : تاريخ الجزائر ج ١ ص ٤٠٧ ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص

J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim. P ; 73. • ٣٨٠ ، ٣٧٩

وخمسين فارساً ليكونوا حرساً خاصاً له (١) ثم زادت أعدادهم بعد ذلك نتيجة للمعارك ، ويبدو أن يوسف بن تاشفين اتخذ منهم الجوارى والإماء حتى أن إحداهن صارت أم ولده وولى عهده على بن يوسف بن تاشفين يقول ابن أبي زرع في التعريف بأمير المسلمين على بن يوسف ابن تاشفين « كنيته : أبو الحسن ، أمه أم ولد رومية ، اختها قمر وتكنى أم الحسن » (٢) .

حتى إذا تولى على بن يوسف بن تاشفين توسع في استخدام الروم مما دفع ابن عذارى إلى القول بأن على بن يوسف هو أول من استعملهم يقول ابن عذارى « وهو — أى على بن يوسف بن تاشفين — أول من استعمل الروم وأركبهم في المغرب وجعلهم يحقدون على المسلمين في معامرتهم ، يأخذون منهم في نفقاتهم وأكثر ما يجب عليهم » (٣) وقد سبق أن أشرت إلى استخدام يوسف بن تاشفين للروم كحرس خاص له ، وربما كان ابن عذارى يقصد التوسع في استخدامهم وليس هو البادئ في ذلك .

ولم يصبح استخدامهم قاصراً على الحراسة والعمل بالجيش وإنما تعدى ذلك إلى الوظائف المدنية حين استخدمهم أمير المسلمين على بن يوسف في جباية الأموال يقول ابن الأثير « وكان لأمير المسلمين — أى على بن يوسف ابن تاشفين — عدة كثيرة من الممالك الفرنج والروم ، يغلب على ألوانهم الشقرة وكانوا يصعدون الجبل في كل عام مرة يأخذون ما لهم فيه من الأموال المقررة من جهة السلطان » (٤) .

وقد دخل الصقلية في خدمة خلفاء الموحدين وقد أشار ابن القاضي في تربيته لأبي محمد يشكر بن موسى الجراوى خطيب مسجد فاس والمتوفى سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م « أن أحد عمال الموحدين كتب لمراكش أن أبا محمد يشكر لا يدعو للخليفة فوصله ذلك . . فبعث من حينه بأن يشخص إليه وكان من الواقفين بين يديه أحد الصقلية وييده آلة من الحديد فأخذها من يده

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٣ .

(٢) ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ٧٨ ت الفيلالى .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٢ ، ١٠٣ ت د. احسان

عباس .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٩٦

وقال لمن حضر بهذا أقتله . . « (١) كما أن المنصور الموحدى قام في سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠ م بتغريب أهل قصر أبي دانس من غرب الأندلس إلى مراكش وهم ينتمون إلى الروم والصقالبة وغير ذلك من سكان البلاد ، يقول الحميري « ثم تحرك — أي المنصور الموحدى حين بلغه سقوط شلب سنة ٥٨٥هـ في يد الروم فجهز الجيوش وعبر إلى الأندلس سنة ٥٨٦هـ — من أشبيلية إلى قصر أبي دانس من غرب الأندلس فزاولوا على حكمه فاحتملهم إلى مراكش » (٢).

الغز :

وهم جنس من الترك بلادهم في أقصى المشرق على تخوم الصين (٣) وقد استعان بهم المرابطون في جيوشهم (٤) حتى إذا قامت دولة الموحدين أقلت طائفة منهم إلى المغرب الأقصى (٥) يقول المراكشي « وفي أيام أبي يعقوب ورد علينا المغرب أول من وردها من الغزو ذلك في آخر سنة ٧٤ — أي سنة ٥٧٤هـ وما زالوا يكثرون عندنا إلى آخر أيام أبي يوسف » (٦) .

حتى إذا تولى المنصور الموحدى زادت طائفتهم وخاصة بعد المعارك التي دارت بين الموحدين وبين الثوار بافريقية وانضمام الغز للثوار ووقوعهم في الأسر نتيجة هزيمتهم ونقلهم إلى العاصمة مراكش (٧) وقد كان هناك ما يميزهم عن سكان البلاد إذ كانوا يصفرون شعورهم كالنساء (٨) .

-
- (١) ابن القاضي : جذوة الانتباس ص ٣٣ .
 (٢) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ١٠٧ .
 (٣) المراكشي : المعجب ص ٢٢٨ حاشية .
 (٤) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٤٠ ت الفيلاي ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٢٣ ،

J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 73.
 (٥) المراكشي : المعجب ص ٢٥٦ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٤٩ ،

- Budgett Meakins ; The Moorish Empire, P ; 76.
 (٦) المراكشي : المعجب ص ٢٥٦ .
 (٧) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٧١ ، ١٧٢ ، ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٦ .
 (٨) التادلي : التشوف ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .
 (٩) المراكشي : المعجب ص ٢٨٩ .

وقد انضم هؤلاء الغز إلى جيش الموحدين وصارت لهم الأ-
 والمرتببات الشهرية ، وقد تميزوا عن غيرهم من جنود الموحدين
 المراكشي « فأحسن نزلهم — أى أحسن المنصور الموحدى نزل المالك ال-
 وبالغ في تكريمهم وجعل لهم مزية ظاهرة على الموحدين وذلك أن المو-
 يأخذون الحامكية ثلاث مرات في كل سنة ، في كل أربعة أشهر م-
 وجامكية الغز مستمرة في كل شهر لا تختل »^(١) وقد علل المنصور المو-
 ذلك « بأن هؤلاء غرباء لا شيء لهم في البلاد يرجعون إليه سوى هذه الح-
 والموحدون لهم الأقطاع المتأصلة »^(٢) ولم يكتف المنصور بإعطائهم المر-
 بل وأقطع بعضهم بعض الإقطاعات « أقطع رجلا منهم فيما أعرف من
 أربل يعرف بأحمد الحاجب ، مواضع ليس لأحد من قرابته مثلها ، و
 شعبان المذكور بالأندلس قرى كثيرة تغل في كل سنة نحو من تسعة آ-
 دينار »^(٣) .

وهكذا تمتع الغز في عهد المنصور الموحدى بعدة مزايا مالية
 انضمامهم للجيش الموحدى ، ولم ينس المنصور الموحدى أن يوصي
 وفاته بالاستمرار في معاملة الغز معاملة طيبة ، يقول ابن عذارى « ثم
 أى المنصور الموحدى في مرض وفاته — رضى الله عنه وهؤلاء الأ-
 أمرنا لهم بهذه البركة يأخذونها فاتركوها على ما رتبنا وربطنا »^(٤) .
 عدد السكان :

لم تهتم المراجع بذكر عدد السكان بالمغرب الأقصى وإن كانت تش-
 أن عدد السكان كان كبيراً^(٥) وقد أشارت بعض المراجع إلى أن عدد ال-
 بالعاصمة مراكش في عهد على بن يوسف كان قريباً من المليون^(٦) .

-
- (١) المراكشي : المعجب ص ٢٨٩ .
 (٢) نفس المرجع السابق ص ٢٨٩ .
 (٣) نفس المرجع السابق ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
 (٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٨٧ تطوان .
 (٥) الجزنائي : زهرة الاس ص ٢٩ ، عبد العزيز بنعبد الله :
 الحضارة المغربية ج ١ ص ١٠٤ ، عبد العزيز بنعبد الله : وحدة الم-
 العربى ص ٥٩ مجلة تطوان عدد ١ سنة ٥٦ .
 ١. Jackson ; Algiers, P ; 81.
 (٦) د. شعيرة : المرابطون ص ٦٨

طابع المبالغة على هذا الرقم ، وهناك رواية أخرى تقول أن عددهم في نفس العهد بالعاصمة بلغ مائة ألف نسمة (١).

ولا شك أن الاستقرار والازدهار الاقتصادي ساعدا على نمو العدد السكاني بالبلاد وحتى أن العاصمة مراکش في عهد الخليفة عبد المؤمن احتوت مائة قبيلة (٢) وقد استطاع الخليفة عبد المؤمن أن يجمع في سهول سلا ثلاثمائة ألف من المقاتلين بهدف الجهاد (٣).

إلا أن هذه الضخامة في عدد السكان واجهت تناقصاً ملحوظاً نتيجة للمعارك والمذابح التي شهدتها البلاد وخاصة في فترة الانتقال بين دولة المرابطين ودولة الموحدين حيث أسرف الموحدون في سفك الدماء رغبة في دعم سلطتهم وهيبتهم في النفوس . وقد أظهر الخليفة عبد المؤمن بن علي قسوة بالغة في اقتحامه لمدن المغرب الأقصى ، فحين حاصر مدينة فاس ودخلها عنوة أعمل السيف في رقاب أهلها وقتل منهم عدداً كبيراً (٤) « ونفس المصير واجهته مدينة مراکش عند حصار الموحدين لها ، إذ قاسى أهلها خراوة الحصار ومات منهم عدد كبير جوعاً (٥) . حتى إذا استسلمت المدينة أعمل عبد المؤمن سيفه فيمن بقي من أهلها (٦) وبذلك مات كثير من سكان العاصمة نتيجة للمعارك الدموية التي حدثت عند استيلاء عبد المؤمن عليها . وكما اتخذ ابن تومرت عملية التمييز في القضاء على كل معارض ومتشكك في دعوته فإن الخليفة عبد المؤمن عمد إلى طريقة مشابهة ، واستغل غدر أهل مكناسة ببعض الموحدين وكتب صحفاً بأسماء القبائل المختلفة ومن فيها من المنافقين وأمر كل قبيلة أن تتخلص من المنافقين بنفسها يقول البيهقي بعد أن ذكر حادثة غدر

(١) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ١ ص ١٠٤ .

(٢) S.P. Scott: History of Moorish Empire, A.2 P ; 279

(٣) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ١ ص ١٠٤ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٩ .

(٥) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠٣ .

(٦) ابن دحصة : المطرب ص ٣١ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢

مجلد ٢ ص ٩٠ ، عباس المراكشي : الاعلام ، ج ١ ص ٢٣٠ ، ابن الخطيب : الأحاطة المجلد الاول ص ١٩٢ ت عنان ،

S.P. Scott ; History of Moorish Empire, V.2. P ; 279.

أهل مكناسة » فخرج الخليفة للموحددين وعمل لهم المجلس ووعظهم وقال لهم الشارب إذا منع اللبن والماء ما جزاؤه فقالوا له يقصص قال أحسنتم فيما قلتم ثم دخل الخليفة وكتب الجرائد لهم بالوعظ والاعتراف وقسمها لأشياخ الموحددين وأمرهم بالسيف ، فبدأ بهم من باب مراکش وأعطى جريدة لأيوب أكدم ، ويحيى بن كروط وضما هزيمة إلى رباطهم وقتلا منهم خمسمائة من أهل التخليط . . (١) وقد قمت بحصر عدد من قتل من القبائل تنفيذاً لهذه الخطة فوجدت عددهم يقرب من ٢٣,٠٠٠ ثلاث وعشرين ألف نسمة (٢) وهذا رقم مبالغ فيه وذلك بالرغم من أن راوى الخبر هو البيدق التلميذ المخلص لابن تومرت وأحد أنصار الدعوة الموحدية المقربين من الخليفة عبد المؤمن ، إذ من الصعب أن تتخلص القبائل من مثل هذه الأعداد الغفيرة وخاصة أن الدولة في مرحلة التمكن والدعم .

وهكذا أحدثت المعارك بالمغرب الأقصى ، ومعاقبة الخليفة عبد المؤمن لبعض القبائل فضلاً عن الجنود الذين اشتركوا في معارك الأندلس وإفريقية وقتلوا ؛ أثرها في نقص عدد السكان .

(١) البيهقي : أخبار المهدي ص ١١٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١١٠ .

الفصل الثاني

طبقات المجتمع وطوائفه

شهد مجتمع المغرب الأقصى منذ منتصف القرن الخامس وحتى نهاية القرن السادس من الهجرة تنوعاً في طبقاته وطوائفه نتيجة للظروف السياسية والاتجاهات الدينية والثقافية التي مرت بها المنطقة ، يضاف إلى ذلك تنوع نشاط السكان مما أسفر عنه تعدداً في أصحاب المهن والحرف التي قامت بهذا النشاط ، وكانت طبقات المجتمع تتكون من طبقة حاكمة لها السيادة والسيطرة على البلاد ، وطبقة الفقهاء والعلماء والقضاة والتي احتلت مكانة ظاهرة في المجتمع المغربي ، ثم طائفة التجار والصناع وأصحاب المهن ، وبجانب ذلك كانت هناك المرأة المغربية ونشاطها الملحوظ في المجتمع وأخيراً أهل الذمة .

١ — الطبقة الحاكمة

تناولت في الفصول السابقة كيف أن السلطة في دولة المرابطين انحصرت في يوسف بن تاشفين وبنيه من بعده وأن السلطة في دولة الموحيدين انحصرت في عبد المؤمن وأبنائه من بعده ، ومن هنا أصبحت الأسرتان تتمتعان بمكان السيادة والرئاسة في المجتمع المغربي ، وكان بعض الوزراء وهم أعضاء في السلطة الحاكمة ينتمون إلى ولاية الأمر ، وذلك ما فعله يوسف بن تاشفين حين اتخذ سير بن أبي بكر وزيراً له^(١) يضاف إليهم وزراء من قبيلة لمتونة ، وأصبحت قبيلة لمتونة تتمتع بمكانه مرموقة حيث أن الطبقة الحاكمة في البلاد تنتمي إليها ، وصارت لها الزعامة على غيرها من القبائل^(٢) وقد شارك قبيلة لمتونة هذه المكانة بقية قبائل صنهاجة والتي على أكتافها قامت دولة المرابطين وأهمها جدالة ومسوفة ولمطة ، وقد أشار إلى الامتياز الطبقى الذي تتمتع به القبائل الحاكمة ابن الخطيب بقوله « وبعث — أي يوسف بن تاشفين سنة ٧٠٤هـ — إلى الصحراء للمتونة ومسوفة وجدالة وغيرهم يعلمهم بما فتح الله عليه من ملك المغرب وطاعة أهله ويؤكد عليهم في التقدم فوفد إليه منهم

(١) ابن الخطيب : الحلال الموشية ص ١٢ .

(٢) ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٠١ .

جموع كثيرة ولا هم الأعمال . وصرف أعيانهم في مهمات الأشغال فاكتسبوا الأموال وملكوا رقاب الرجال وكثروا بكل مكان وساعدتهم الوقت والزمان وكثرت جموعهم وتوفرت عساكرهم (١) .

ولم يكن هذا الوضع الطبقى المتميز قاصراً على العاصمة وإنما تعداه إلى بقية مدن المغرب الأقصى وذلك حين عمد ولاة الأمر بالعاصمة إلى تعيين أبنائهم بأقاليم الدولة المختلفة ، وبذلك تمتع أبناء الأسرة بوضع السيادة في المدن المغربية ، وقد تأكد ذلك حين عمد يوسف بن تاشفين إلى توزيع أقاليم المغرب على بنيهِ وأمراء قومه ، يقول ابن خلدون « ثم اقتسم — أى يوسف ابن تاشفين — المغرب عمالات على بنيهِ وأمراء قومه وذويه » (٢) .

واتبع الموحدون نفس السياسة حيث أسأثر بنو عبد المؤمن بالخلافة وشغل بعض أفراد الأسرة منصب الوزارة . فقد اتخذ عبد المؤمن ابنه عمر وزيراً له (٣) وسار على نهجه أبنائه الخلفاء في اتخاذ وزراء من أسرة الخلافة وقد سبق أن أشرت إلى ذلك .

كما أن قبيلة كومية — وهى القبيلة التى ينتسب إليها الخليفة عبد المؤمن بعد انتقالها من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى صارت بطانة للخليفة يعتر بأبنائها ويقومون على حراسته والمشى بين يديه (٤) وأصبحت من أعظم قبائل الموحدين واحتلت مكان الصدارة وذلك لانتماء ولاة الأمر لها (٥) وقد أشار المراكشى إلى ماضى القبيلة ثم حاضرها في ظل خلافة عبد المؤمن بقوله « ثم قبيلة عبد المؤمن تسمى كومية وهى قبيلة كثيرة العدد حمة الشعوب لم يكن لها في قديم الدهر ولا في حديثه ذكر في رئاسة ولا حظ من نباهة ، إنما كانوا أصحاب فلاحه ورعاة غنم وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن والخطب وسوى ذلك من سقط المتاع فتبارك المعز المذل المعطى المانع ، فأصبح القوم وليس

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٢٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٥ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٢٤ ، المراكشى : المعجب

ص ١٩٨ .

(٤) ابن أبى زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٦٦ ت الفيلالى .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٢٦ .

فوقهم أحد ببلاد المغرب ولا تطاول أيديهم يدبكون عبد المؤمن منهم^(١) وقد اتخذ عبد المؤمن منهم وزيراً له هو عبد السلام بن محمد الكومي^(٢) وكذلك الخليفة يوسف بن عبد المؤمن اتخذ له وزيراً من كومية هو أبو بكر ابن يوسف الكومي^(٣). وهكذا كانت قبيلة الخلافة لها مكانتها في مجتمع المغرب الأقصى .

طبقة الطلبة : وهي طبقة مستحدثة في دولة الموحدين ولم تكن موجودة من قبل في الدولة المرابطية ، وقد اختلف مدلول كلمة الطلبة في عهد ابن تومرت ففي بدء الدعوة كان يسمى أصحابه : الطلبة وباقي الداخلين في دعوته بالموحدين^(٤) يقول ابن خلدون « ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدى وكان لقبه قبلها الإمام وكان يسمى أصحابه الطلبة وأهل دعوته الموحدين »^(٥) ومن هذا النص نستخلص أن لفظ الطلبة قد أطلق على أصحابه الذين سارعوا بمبايعته والالتفاف حوله ومؤازرته ، ومن هنا صاروا يتميزون عن غيرهم ، كما أن لفظ الطلبة يوحى بأنهم في مرحلة التلقى من أستاذهم ابن تومرت حيث قام بتعليمهم وتلقينهم مبادئ الدعوة الجديدة .

حتى إذا انتشرت الدعوة وكثر أفرادها وبايعوه على أنه المهدي عمده ابن تومرت إلى تقسيم أصحابه وأتباعه إلى طبقات متميزة وصار في مقدمة الطبقات : العشرة ويعني بهم أهل الجماعة ، ثم أهل خمسين ثم أهل سبعين ثم الطلبة ثم الحفاظ وهم صغار الطلبة^(٦) ثم تأتي بعد ذلك بقية الطبقات وقد سبق الإشارة إليها ومن هذا التقسيم نستخلص أن جماعة العشرة وهم أصحاب ابن تومرت وأقرب الناس إليه كانوا بالأمس يطلق عليهم لفظ طلبة أما في

(١) المراكشي : المعجب ص ٣٢٩ .

(٢) البيهقي : أخبار المهدي ص ١٢٠ ، ابن القطان : نظم الجبان ص ١٧٣ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٣ تطوان .

(٤) عباس المراكشي : الاعلام ج ٢ ص ٣٦٧ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٨٦ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٦) ابن القطان : نظم الجبان ص ٢٨ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٩ .

التقسيم الطبقي الحديد فصاروا أهل الجماعة ، وصار لفظ الطلبة يطلق على الطبقة الرابعة والخامسة أى بعد المجلسين الاستشاريين وهما مجلساً الخمسين والسبعين. وقد حدد ابن تومرت اختصاصات كل طبقة وصار الطلبة والحفاظ يكونون هيئة الدعاة بالنسبة للدعوة الموحدية حيث اهتم ابن تومرت بتعليمهم وتربيتهم وإعدادهم لحمل مسئولية نشر الدعوة بين القبائل المختلفة ومن هنا كان دور الطلبة هو تلقى العلم والمبادئ التى ينادى بها ابن تومرت (١) وبث هذه التعاليم بين سكان المغرب الأقصى .

حتى إذا تولى الخليفة عبد المؤمن بن على صار الطلبة يشكلون طبقة متميزة تحظى باهتمام خلفاء الموحدين ورعايتهم وصارت كلمة طلبة تطلق على ثلاث فئات لكل فئة وظيفتها ودورها .

الطلبة الحفاظ : وهم الذين جمعهم الخليفة عبد المؤمن بن على من مختلف القبائل وأنشأ لهم مدرسة خاصة بمراكش لتعليمهم وتثقيفهم بالعلوم الدينية وأسس الدعوة الموحدية مع تدريبهم على فنون القتال ، والشئون الإدارية وكان عددهم ثلاثة آلاف طالب (٢) ، حتى إذا أتم هؤلاء الحفاظ دراساتهم وتدريباتهم وزعهم على الوظائف الإدارية بالدولة ، وكان الهدف من ذلك هو القضاء على نفوذ أشياخ الموحدين الذى استفحل فى عهده ، وولى عبد المؤمن بعضهم أقاليم الدولة فقد ولّى أحد الحفاظ وهو عبد الحق بن علناس الكومى مدينة سوسة (٣) كما عين على مدينة صفاقس أحد الحفاظ من الموحدين (٤) وهم بهذه الصفة يتصلون بالطبقة الحاكمة حيث أنهم شغلوا بعض الوظائف الإدارية فى الدولة .

-
- (١) ابن الخطيب : رقم الحل ص ٥٧ ، ابن عبود : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٢٨ حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٢٩ .
(٢) الفويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ابن الخطيب : الحل الموشية ص ١١٤ ، الجيلالى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٩٥ .
J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim, P; ١٥٧.
(٣) أبو عبد الله محمد بن محمد : الحل السندسية فى الاخبار التونسية ص ١١٧ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٩٧ .
(٤) ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٩٦ .

طلبة الموحدين وهم طلبة المصامدة^(١) : والمشتغلون بالدعوة دراسة وفهما وحفظاً ثم قيامهم بعد ذلك بالدعوة في مختلف أقاليم الدولة ويمكننا أن نسميهم رجال الدعوة وقد أوضحت وظيفتهم تلك الرسالة التي أرسلها الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة بجاية سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م وجاء فيها « ولتقدموا طلبة أمناء من قبلكم يعلمون الناس قراءة توحيدهم وحفظه وحفظ أم القرآن وما تيسر معها من السور ويأخذونهم بمداومة ذلك ومعاهدته وحفظه . . . وليكن جميع ما تأتونه وتدرونه وتقدمونه في هذا المقصد وتؤخرونه جارياً على حكم الإمام المعصوم والمهدي المعلوم رضى الله عنه مستنداً إليه ، ففعله هو الذى نفتدى به ونستمسك بسببه ونمضيه على وجهه ونجريه على رسمه » (٢).

وكانت الرسائل الصادرة من السلطة الحاكمة إلى مدن المغرب والأندلس تضع الطلبة في مقدمة من تخاطبهم ومن ذلك الرسالة الأولى وهى موجهة إلى طلبة سبتة ومن فيها من الموحدين^(٣) . والرسالة الثالثة موجهة إلى الطلبة الذين بصنهاجة تاسغرت والمشيخة والأعيان^(٤) والرسالة الخامسة موجهة إلى طلبة سبتة ومن معهم^(٥) وهكذا معظم الرسائل التى صدرت عن الخلافة كانت أول ما تخاطب فئة الطلبة وهنا يقصد بهم الطلبة الحفاظ الذين يشغلون وظائف إدارية ومعهم طلبة الموحدين الذين يشرفون على شئون الدعوة ونشرها .

طلبة الحضر : وهم المشتغلون بالعلم والذين يحضرون إلى العاصمة باستدعائه من ولاية الأمر وقد أشار إلى ذلك المراكشى بقوله « وقد جرت عادتهم — أى عادة الموحدين — بالكتب إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرهم من أهل كل فن وخاصة أهل علم النظر وممهم طلبة الحضر فهم يكثرون في بعض الأوقات ويقولون »^(٦) وهؤلاء الطلبة سواء طلبة الموحدين أو طلبة الحضر

-
- (١) المراكشى : المعجب ص ٢٠١ .
 - (٢) مجموع رسائل موحديه ص ١٣٧ ، ١٣٨ .
 - (٣) نفس المرجع السابق ص ١ .
 - (٤) نفس المرجع السابق ص ٥ .
 - (٥) نفس المرجع السابق ص ١٠ .
 - (٦) المراكشى : المعجب ص ٣٤٢ .

كانوا يحضرون المجالس العامة أو الخاصة التي يحضرها الخليفة (١).

وصارت طبقة الطلبة تتمتع بامتيازات مالية إذا كانت تصرف لهم المرتبات والأعطيات من خزانة الدولة (٢) ، وحين أحس الخليفة عبد المؤمن بانخفاض المستوى المادى لفئة الطلبة أمر بإقراضهم الأموال حتى يظلوا فى مستوى مادى لائق بهم يقول ابن القطان « ومنها أنه — أى عبد المؤمن بن على — أحس بضعف طبقة أهل مجلسه المكرم من طلبة الحضرة منهم أبو محمد المالى وغيره ، فقال لأشياخ الموحدين أعزهم الله تعالى : هؤلاء طلبة غرباء ضيعفاء والإقلال عليهم ظاهر فترى أن ندفع إليهم ما لا نقارضهم فيه ، ويتجرون به ويردون السلف لنا ، فقالوا نعم فأسلفهم من مال المخزن ألف دينار لكل واحد منهم ، فاكتسبوا منها وكانت أصل غناهم ولم يأخذها منهم أبداً » (٣) وهكذا أصبح الطلبة ينعمون بمستوى مالى طيب نتيجة اهتمام ورعاية ولادة الأمر بهم .

وهذا المستوى المادى والرعاية التى نالها الطلبة ، قد احتفظت كثيراً من الموحدين عليهم ، وجعلتهم يتقنون عليهم هذه المنزلة مما جعل المنصور الموحدى يدافع عنهم ، وموجهاً حديثه إلى الموحدين ، يصور ذلك المراكشى بقوله « ونال عنده أى عند المنصور الموحدى — طلبة العلم ما لم ينالوا فى أيام أبيه وجده وانتهى أمره معهم إلى أن قال يوماً بحضرة كافة الموحدين يسمعهم وقد بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم وخلوته بهم دونهم — يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته وهؤلاء ينحى الطلبة لا قيل لهم إلا أنا فهما بابهم أرفأنا ملجؤهم ولأتى فزعهم وإلى ينتهون معظم منذ ذلك اليوم أمرهم وبالعالم الموحدون فى برهم وإكرامهم » (٤) . ولم ينس الخليفة المنصور أن يوصى بهم قبيل وفاته حين قال فى مرض وفاته

(١) نفس المرجع السابق ص ٣٤٢ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٨٦ ، البيهقى : أخبار المهدي ص ٤٨ عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الاول ص ٤٠٣ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٧ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

«وهؤلاء الطلبة يعنى السادات إن أمكنكم ألا تصرفوا أحداً منهم فهو الأخق لهم ولكم» (١).

ويتصل بهذه الطبقة منصب شيخ الطلبة الذى احتل مكاناً بارزاً فى عهد خلفاء الموحدين وهو المتحدث فى مجالس الخلفاء ، والمتحدث بلسان الطلبة أمام الخلفاء المدافع عن حقوقهم وقد أشار ابن صاحب الصلاة فى ترجمته لأبى الحسن الأشبيلي شيخ طلبة الحضر إلى هذه المهام حين قال «الفقيه الخطيب أبو الحسن بن الأشبيلي شيخ طلبة الحضر ، هو الخطيب المصقع بن يدي الخليفة . . . عند حضور الوفود . . . فصار عند الخليفة فى العلوم والمذاكرة أول داخل وآخر خارج . . . فإذا خرج منه تذاكر مع طلبة الحضر بما وعى من الخليفة من علم المهدي وبتين لهم ما ناله من العلم النبوى . . . ووصل لجميع غرباء الناس بخيراتهم ، يوصل عنهم كل خير ، ويدفع عنهم كل ضير يشفع فيهم عند الأمر العالى فيشفع ويتكلم فيصغى لكلامه ويستمع» (٢).

وصار شيخ الطلبة فى مستوى الوزراء لعلو شأنه ومكانته فى مرضى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م لم يكن يدخل على الخليفة سوى الأطباء ووزيره أبو العلاء أدريس والفقيه أبو محمد عبد الله المالى شيخ طلبة الحضر وقد عُلل ذلك ابن صاحب الصلاة بأنه كان فى مرتبة وزير « وكذلك يدخل معهم أى مع الأطباء والوزير — أبو محمد عبد الله المالى إذ كان عنده فى مسلاخ — يعنى فى رتبة — وزير وأمين بتشيخه على طلبة الحضر » (٣).

ونتيجة لهذه المنزلة لدى ولاة الأمر فإنه نال دنيا عريضة وأصبح ذأموال كثيرة (٤) فلما حضرته الوفاة أسرع الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى حضور جنازته يقول ابن أبى زرع « وفى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة توفى الفقيه العالم أبو محمد عبد الله بن المالى شيخ طلبة الحضر فى وقته وكانت فى ذى

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٨٥ ، ١٨٦ تطوان .

(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٤١٠ .

(٤) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، بلييا

التنكي : نيل الابتهاج ص ١٣٤ ط ١ سنة ١٣٥١ مصر .

الحجة منها وشهد جنازته أمير المؤمنين يوسف^(١) وأيضاً أبو جعفر أحمد ابن عتيق المعروف بابن الذهبي صار ذا منزلة ومكانة بعد توليته رئاسة الطلبة^(٢) .

وهكذا كان الطلبة طبقة متميزة في مجتمع الموحيدين وذلك لصلتها بالطبقة الحاكمة ، إما لاشتغال بعض أفرادها بالوظائف المختلفة في الدولة ، وأما بقيام بعضهم بنشر الدعوة والإشراف على شئونها والاشتغال بالعلم المتصل أيضاً بالدعوة في عاصمة الخلافة .

٢ — طبقة الفقهاء والعلماء

احتلت طبقة الفقهاء والعلماء منزلة رفيعة في مجتمع المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين ، وظهر للفقهاء والعلماء نفوذ في مجريات الأمور وخاصة في دولة المرابطين ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الدولتين المرابطين والموحدية قامتا على أساس ديني ودعوة إصلاحية نادتا بها كل من الدولتين .
الفقهاء والعلماء في الدولة المرابطية :

فالدولة المرابطية قامت على دعوة عبد الله بن ياسين الإصلاحية في صحراء المرابطين ، والقادة الأوائل للدولة تربوا في رباط عبد الله بن ياسين حيث درسوا أسس الدين الصحيحة ومبادئه القويمة ، ومن هنا كان المبدأ الديني هو القاعدة الأساسية التي تركز عليها الدولة في سياستها ، وبالتالي فإن القائمين على شئون الدين والمشتغلين بعلومه احتلوا مكانة مرموقة في المجتمع المغربي ، وبجانب ذلك فإن التكريم والتمتدح من جانب أمراء المسلمين في دولة المرابطين راد من مكانتهم ونفوذهم فأمر المسلمين يوسف بن تاشفين كان محباً للعلماء معظماً لمكانتهم^(٣) يقول ابن أبي زرع « وكان — أي يوسف

(١) ابن أبي زرع : الانيس ص ٢١٧ طبع حجر .

(٢) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ٣٢١ .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٩ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٣٤ ت العبادي ١٩ ابن المؤقت : السعادة الابدية ج ٢ ، ص ٨٩ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٤٦ ت د احسان ابن القاضي : جذوة الاقياس ص ٣٤٣ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٤٥ .

ابن تاشفين — محباً للفقهاء والعلماء الصالحاء مقرباً لهم صادراً عن رأيهم متكرماً لهم « (١) ».

ولم يكن التكريم والترحيب قاصراً على علماء المغرب الأقصى وفقهائهم بل رحب بكل العلماء وخاصة علماء الأندلس الذين سارعوا إلى عاصمة المرابطين ليكونوا في ظل ورعاية أمير المسلمين يقول المراكشي « فانقطع إلى أمير المسلمين — يوسف بن تاشفين — من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس في صدر دولتهم » (٢) .

واتبع نفس السياسة أمير المسلمين على بن يوسف إذ كان محباً للعلماء والفقهاء مكرماً لهم (٣) يقول المراكشي « واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين » (٤) وكان يخرج بنفسه لزيارة العلماء وتكريمهم وذلك حين خرج لزيارة ابن يلازج أحد علماء المالكية وكان عبداً صالحاً ومات بهسكورة سنة ٥٤٠ هـ ١١٤٥ م (٥) .

وهذا التكريم والتقدير زاد الفقهاء والعلماء نفوذاً وسيطرة ، وأصبحوا يؤثرون في مجريات الأمور بالدولة ، وقد ظهر ذلك في عدة مجالات .

ففي المجال السياسي لعبوا دوراً هاماً في استيلاء المرابطين على الأندلس ففقهاء الأندلس هم الذين شرحوا أحوالهم لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين وضرورة الاستيلاء على الأندلس يقول الأمير عبد الله « وجعلوا — أي سكان الأندلس — في شكوايهم فقهاءهم وسائط يقصدون نحوهم منهم الفقيه ابن القليعي قد صار خباؤه بتلك المحلة مغنطيساً لكل صادر ووارد ، يجد بهم السبيل إلى الطلب للقدر الذي قدره الله » (٦) ولم يشرع يوسف بن تاشفين في تنفيذ خطة القضاء على ملوك الطوائف إلا بعد استفتائه للفقهاء ، والعلماء في

(١) ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ٣٨ ت الفيلاي .

(٢) المراكشي : المعجب ص ١٦٣ .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦٢ ، التادلي : التشوف ص ١٣١

(٤) المراكشي : المعجب ص ١٧١ .

(٥) التادلي : التشوف ص ١٣١ .

(٦) الأمير عبد الله : مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٩ تحقيق ليفي

بروفنسال .

ذلك (١) حتى إذا اطمأن إلى موافقتهم شرع في القضاء عليهم ، وبعد أن أخضع يوسف بن تاشفين الأندلس عسكرياً ، أخبره علماء الأندلس وفقهاؤها أن طاعته غير واجبة حتى يأتيه التقليد من الخليفة العباسي ببغداد (٢) . يقول النويري « كان الفقهاء بالأندلس قالوا لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين أنه لا تجب طاعتك على المسلمين حتى يكون لك عهد من الخليفة » (٣) وهكذا لعب فقهاء المغرب والأندلس دوراً بارزاً في أهم الأعمال التي قام بها المرابطون وهو استيلاؤهم على الأندلس وما ترتب عليه من نتائج بالنسبة للمغرب والأندلس .

وصار للفقهاء تدخل في كل شئون الدولة ، يقول المراكشي « واشتد إيثار — أى على بن يوسف — لأهل الفقه والدين وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء » (٤) وكان القضاء لا يصدر عن أحكامهم إلا بمشورة أربعة من الفقهاء (٥) ومن ثم صارت لهم مكانة ونفوذ في المجتمع ، وحين أحس الفقهاء بالنيل من مكانتهم ومنزلتهم في كتاب الأحياء للإمام الغزالي أشاروا عليه بحرقه فأمر بحرقه في جميع أنحاء مملكته .

وهكذا أصبح الفقهاء طبقة مرهوبة الجانب مسموعة الكلمة ، وكانت منزلتهم وما وصلوا إليه من سيطرة على مقاليد الأمور عاملاً من العوامل التي دعت ابن تومرت لمهاجمتهم ومحاربة الحمود الفكري الذي كان يحجيم عليهم ومن ثم رماهم بكل النقائص وظل يحاربهم حتى سقطت دولتهم على أيدي الموحدين .

الفقهاء والعلماء في دولة الموحدين :

لم يبلغ الفقهاء والعلماء في الدولة الموحدية نفس المستوى من النفوذ الذي كانوا يتمتعون به في الدولة المرابطية . وذلك لأن الدولة الموحدية قامت على

-
- (١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٥٠ ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٨٥ .
 (٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٤٣ .
 (٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٢ .
 (٤) المراكشي : المعجب ص ١٧١ .
 (٥) نفس المرجع السابق ص ١٧١ .

أساس محاربة تسلط الفقهاء وجمودهم العقلي ، كما أن ابن تومرت عمد منذ المرحلة الأولى في حياة الدعوة إلى توزيع السلطات والمسئوليات على هيئة الطبقات التي ابتكرها ومن ثم لم يدع فرصة للعلماء وغيرهم من فرض نفوذهم وسيطرتهم على شئون الدعوة .

وهذا لم يمنع العلماء والفقهاء من التمتع بمنزلة كريمة في ظل الموحدين باعتبار أن الدولة قامت على أكتاف داعية ديني وهو المهدي بن تومرت ، وأن البرامج الدينية والمبادئ الموحدية احتلت ركناً هاماً وبارزاً من حياة الموحدين ، ومن ثم فإن القائمين على شئون الدعوة والمشتغلين بمذهب الدولة كانت لهم مكانتهم ومنزلتهم ، وقد سبق أن أشرت إلى ما كان يتمتع به علماء المصامدة وعلماء الحضر وهم الطلبة من منزلة ومكانة فضلاً عن المنح المالية التي كان العلماء يحظون بها مما دفع الموحدين للنقمة عليهم . وكان الخلفاء الموحدين يسبغون رعايتهم على العلماء فالخليفة عبد المؤمن كان يقدر العلماء وينزلهم منازلهم اللائقة بهم^(١) وكان يؤرثهم على غيرهم يقول المراكشي « وكان عبد المؤمن مؤثراً لأهل العلم محباً لهم ، محسناً إليهم ، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والحوار بحضرته »^(٢) .

وسار على نفس السياسة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن في تكريم العلماء والعناية بهم فقد كان حريصاً على مجالسة الفقهاء ومحدثهم^(٣) وكان مهتماً بجلب العلماء إلى عاصمته والاستفادة من علمهم يقول المراكشي « ويبحث — أي يوسف بن عبد المؤمن — عن العلماء وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك قبله من ملك — ربما يقصد ملوك — المغرب »^(٤) ومن مظاهر تقديره واحترامه للعلماء أنه حين قصد إلى الأندلس سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م وقصد أشبيلية ، وخرج الناس لاستقباله ورويته فما أن أبصر الخليفة : العالم ابن الجلد حتى ترجل عن فرسه وأقبل عليه وتعانقا^(٥) .

-
- (١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٣ ، عنان : عصر المرابطين القسم الأول ص ٤٠٢ .
(٢) المراكشي : المعجب ص ٢٠٠ .
(٣) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ١٨١ ، ١٨٢ ت الفيلاي .
(٤) المراكشي : المعجب ص ٢٣٩ .
(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٦٠ تطوان .

ونفس المنزلة تمتع بها العلماء والفقهاء في عهد المنصور الموحدى حيث كان يكرمهم ويشهد جوائزهم^(١) يقول ابن أبى زرع « محباً — أى المنصور — في العلماء وقضاتهم صادراً عن رأيهم . . . يشهد جوائز الفقهاء والعلماء ويزورهم ويتبرك بهم . . . وأكرم الفقهاء وراعى العلماء والفضلاء »^(٢) وكان يستدعى العلماء إلى حاضرتة فقد استقدم أحد علماء تلمسان وهو محمد ابن أحمد بن محمد اللخمى حيث نال منزلة كريمة لديه وعند أبنائه من بعده^(٣) وهكذا نال العلماء والفقهاء منزلة مرموقة في مجتمع الموحدين .

المستوى المادى للفقهاء والعلماء :

احتل الفقهاء والعلماء منزلة مرموقة في المغرب الأقصى خلال حكم المرابطين والموحدين ، ومما وطّد هذه المكانة ودعمها تلك الأموال التى حصلوا عليها ، والتي كان يغدقها عليهم ولادة الأمر من المرابطين والموحدين ، فأُمير المسلمين يوسف بن تاشفين أغدق عليهم الأموال والأرزاق من بيت المال^(٤) يضاف إلى ذلك تلك الهبات والأعطيات التى كان يمنحها ولادة الأمر كما فعل أمير المسلمين على بن يوسف حين بعث حملة من المال إلى أحد العلماء وهو أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير والمتوفى بمراكش سنة ٥٢٠هـ ١١٢٥م وذلك حين وفد إلى العاصمة مراكش^(٥).

واتّبع هذه السياسة خلفاء الموحدين في الإنفاق على العلماء والفقهاء . وقد سبق أن أشرت إلى أن الخليفة عبد المؤمن كان يجرى المرتبات والأرزاق على طلبة الحضر شهرياً من بيت المال وبجانب ذلك كان يمنح الأموال والهبات للعلماء ، فالعالم أحمد بن عبد الرحمن المعروف بابن أبى الصقر ، كان إذا وفد على الخليفة عبد المؤمن وصله في المرة الواحدة خمسمائة دينار^(٦) ونفس هذا

-
- (١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٦٥ ، الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٣٠ ، أشياخ : تاريخ الانتدلس ج ٢ ص ٧٧ .
(٢) ابن أبى زرع : الأنيس ص ١٥٦ ، ١٥٧ طبع حجر .
(٣) أبو زكرياء : بغية الرواد ج ١ ص ٢٧ .
(٤) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٤٣ ، ابن أبى زرع : الأنيس ج ٢ ص ٣٨ ت الفيلى .
(٥) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢٢ .
(٦) عباس المراكشى : الاعلام ج ١ ص ٢٣٢ .

العالم عرض عليه أحد سراة لتونة من قبل أن يصبحه إلى مقر عمله بدكالة وذلك لتبوغه وغزارة علمه وأن يعطيه ألف دينار ذهباً مرابطة فامتنع رغبة في الاستمرار في مصاحبة أهل العلم ومتابعة دراساته بمراكش^(١). وقد أشار ابن صاحب الصلاة إلى الهبات والعطايا التي نالها هو وغيره من العلماء حين التقى بالخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٦هـ / سنة ١١٧٠م^(٢) وأجرى المنتصور الموحدى الأرزاق والأموال من بيت المال على العلماء والفقهاء^(٣).

وتحولت حال الكثير منهم من الفقر والضعف إلى اليسر والرخاء نتيجة اتصا بهم بالخلفاء والأمراء فالعالم أبو القاسم السبيلي والمتوفى بمراكش سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م نال دنيا عريضة يعد اتصاله بالخلفاء^(٤) والعالم أحمد بن عتيق ابن الحسن المتوفى سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م نال بخدمة السلطان دنيا عريضة^(٥) وكذلك العالم أبو بكر بن خلف الأنصاري الفقيه والمتوفى بمدينة فاس سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م جمع أموالاً جلية نتيجة اتصاله بولاية الأمر بمراكش^(٦) وغير هؤلاء نالوا الجاه والثراء بعملهم واتصا بهم بولاية الأمر.

هذا المستوى المادى الذى حققه الفقهاء والعلماء وخاصة من اتخذ علمه وسيلة للتكسب وجمع المال ، كان موضع نقد وهجوم من الشعراء ، وذلك ما فعله الشاعر ابن البنى حين هاجم أحد قضاة قرطبة^(٧) يقول المراكشى « وفى ذلك — أى مهاجمة الفقهاء نتيجة لمكاسبهم المادية — يقول أبو جعفر أحمد ابن محمد المعروف بابن البنى من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس . أهل الرياء لبستمو ناموسكم كالذئب أدلج فى الظلام العام

-
- (١) نفس المرجع السابق ج ١ ص ٢٣١ ، ابن المؤقت : السعادة الابدية ج ٢ ص ١٢٣ ، ١٢٤ .
 (٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ .
 (٣) ابن أبى زرع : الأتييس ص ١٥٧ طبع حجر .
 (٤) ابن ححية : المطر ببص ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢١٢ .
 (٥) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ص ١١٧ .
 (٦) نفس المرجع السابق ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .
 (٧) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٩٤ ، د. يحيى هويدي : تاريخ فلسفة الاسلام فى القارة الافريقية ج ١ ص ٢٠٢ ، ص ٢٠٣ النهضة سنة ١٩٦٥ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الاول ص ٤١١ ، ٤١٢ .

فملكتمو الدنيا بمذهب مالك وقسمتمو الأموال يابن القاسم
وركبتمو شهب السدواب بأشهب وبأصبع صبغت لكم في العالم
— وابن القاسم من مشاهير علماء المالكية —

ولنما عرّض أبو جعفر هذا في هذه الأبيات بالقاضي أبي عبد الله محمد
ابن حمدين قاضي قرطبة وقد كان المقصود بهذه الأبيات « (١) وهذه الأبيات
تعتبر عن مدى ضيق الشاعر برياء العلماء ونفاقهم .

طبقة القضاة : ويتصل بطبقة الفقهاء والعلماء فئة القضاة إذ كانوا
يختارون من العلماء ورجال الدين ، وكانوا يشكلون طبقة متميزة لاختصاصهم
بتنفيذ أحكام الدين على سائر الرعية ، وقد سبق أن أشرت في فصل القضاء
تعدد اختصاصات القضاة ، وأشرت إلى مدى السلطة التي كان يتمتع بها
القضاة إذ أن يوسف بن تاشفين ومن جاء بعده جعل أحكام البلاد بيد القضاة (٢)
ومن هنا اكتسب القضاة نفوذاً وسيادة في المجتمع المغربي ، وصارت كلمتهم
مسموعة لدى ولاية الأمر فحين أشار القاضي ابن رشد على أمير المسلمين على
ابن يوسف بتسوير مدينة مراکش أسرع أمير المسلمين بتنفيذ نصيحته (٣) بل
إن قاضي المرية وقف سداً منيعاً ضد رغبة يوسف بن تاشفين في فرض أموال
على مدينة المرية كمعونة ومساعدة ، وبعد مراسلة بينهما خضع أمير المسلمين
لرأي القاضي ولم يستطع أخذ المعونة التي طلبها (٤) .

وهناك موقف آخر لأحد القضاة وهو موقف القاضي عياض ؛ قاضي
سبتة حين أعلن العصيان والتمرد ، وقاد مدينة سبتة ضد الخضوع للموحدين
ومعلنًا طاعته للمرابطين ، حتى إذا سقطت المدينة في يد الموحدين ، عفا

-
- (١) المراكشي : المعجب ص ١٧١ ، ١٧٢ .
(٢) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ٣٨ ت الفيلالي ، ابن المؤقت :
السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٣ ت د . احسان عباس ،
حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٥ ، ٢١٦ .
(٤) ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٧٢ ، السلاوي : الاستقصا
ج ٢ ص ٥٩ محمد عثمان المراكشي : الجامعة اليوسيفية ص ٨٠ ، ٨١ .

الحليفة عبد المؤمن عن القاضي عياض وأسكنه مدينة مراكش (١) وهذا يشير إلى مدى النفوذ الذي كان يتمتع به القضاة في نفوس سكان البلاد .

ومما دعم هذه المكانة تلك الأموال الكثيرة التي كانوا يحصلون عليها من ولاية الأمر مما حفظ مكانتهم وهيبتهم في المجتمع المغربي فبالإضافة إلى المرتبات التي كانوا يحصلون عليها ، كانت هناك المنح والعطايا مما هيأت لهم حياة كريمة فالقاضي أبو بكر بن خلف الأنصاري قاضي فاس والمتوفى بها سنة ٥٩٩ هـ نال دنيا عريضة لاتصاله بالخلافة بمراكش (٢) كذلك القاضي محمد بن عبد الله ابن طاهر وهو من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب ولي قضاء الجماعة بمراكش سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م نال أموالاً ضخمة نتيجة اتصاله بالخلافة الموحدية (٣) يقول المراكشي « اتصل — أي محمد بن عبد الله بن طاهر — بأمر المؤمنين أبي يوسف شهور سنة ٥٨٧ هـ فحظي عنده وكانت له منه منزلة ، سمعت أبا عبد الله الحسيني هذا يقول وأنا عنده في بيته : جملة ما وصل إلتي من أمير المؤمنين أبي يوسف منذ عرفته إلى أن مات تسعة عشر ألف دينار خارجاً عن الخلع والمراكب والاقطاع » (٤) وهذا يشير إلى المركز المالي الطيب الذي كان يتمتع به القضاة .

٣. — أصحاب المهن

١ — التجار :

قامت طائفة التجار بالمغرب الأقصى خلال فترة البحث بدورها الملحوظ في دفع الحركة الاقتصادية بالبلاد ، كما أن أفرادها كونوا طبقة اجتماعية ، حيث كانوا همزة الوصل بين الإنتاج والإستهلاك ، فمن طريقهم يتم البيع والشراء ، ويمجد السكان عندهم حاجياتهم ، وقد زخرت المدن المغربية كمراكش وفاس وطنجة وسبتة وتلمسان وأنعمات وسجلماسة وغيرها من المدن المغربية بالمشتغلين بالتجارة .

(١) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، أحمد بن عبد السلام : الريف بعد الفتح الإسلامي ص ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ .
(٢) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٣) مجهول : الذخيرة السنية ص ٥٠ عباس المراكشي : الاعلام ج ٣ ص ٧٨ ، ٧٩ .
(٤) المراكشي : المعجب ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

وهؤلاء التجار لم يكونوا بمعزل عن الأحداث التي تمر بها البلاد ، فهم من سكان البلاد يتأثرون كما يتأثر غيرهم من طبقات الشعب بما يمرّ بالبلاد من أحداث ومن هنا وجدناهم يشاركون في الدفاع عن مدينتهم أنعمت سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م ضد الموحدين يقول ابن القطان تحت عنوان الهزيمة على أنعمت : « وخرج يوم الأربعاء جميع أهل أنعمت حتى التجار فتناوب الموحدون أعزهم الله على القتال »^(١). وهكذا اشترك التجار في الدفاع عن مدينتهم ويمكننا أن نقسم التجار إلى فئتين رئيسيتين : تجار الحملة وهم أولئك الذين يقومون بشراء ما تنتجه البلاد من مواد وتصديرها إلى الخارج ، وفي نفس الوقت استيراد ما تحتاجه البلاد من بضائع وبيعها إلى تجار التجزئة .

وقد سبق أن أشرت إلى العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى وغيرها من البلدان وفي مقدمتها منطقة جنوب الصحراء ، وكان هناك التجار الذين يستوردون الذهب والجلود والعاج وغيرها من بضائع غائبة ، ويصدرون إليها الملح والنحاس المسبوك والأصداف وآلات الحديد المصنوع^(٢) وكانت البضائع بكميات وفيرة مما عاد بالأموال الطائلة على هؤلاء التجار ، وقد وصف الإدريسي مدى ثراء أهل أنعمت في ظل المرابطين بقوله « وما منهم رجل — أى من أنعمت — يسفر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسعون والثمانون حملا كلها موقرة ، ولم يكن في دولة الملثم أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم »^(٣) وشاركهم تجار سحلماسة هذا الثراء والغنى حتى أن أحدهم كان له صلك على آخر مبلغة أربعون ألف دينار^(٤) وقد أطلق على هؤلاء التجار الذين يقومون بالتصدير والاستيراد من مناطق الجنوب بتجار الصحراء يقول ابن القاضي في ترجمته لمحمد بن الحسن البصلوقي « من أهل سحلماسة نزل مدينة فاس وكان من أولياء الله تعالى ، كان في ابتداء أمره من تجار الصحراء . . .

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١١٦ ، ١١٧ ت د . مكى .

(٢) الإدريسي : وصف المغرب ص ٦٦ ، العبري : مسالك الابصار

ج ١٤ مسم ٢ ص ٢٢٢ .

(٣) الإدريسي : وصف المغرب والاندلس ص ٦٦ .

(٤) القلقشدي : صبح الاعشى ج ٥ ص ١٦٤ .

وتوفي سنة ٥٩٥ هـ^(١) كذلك اشتهر تجار مدينة سبتة بأغنى والثراء يقول ابن سعيد المغربي « وفيها — أى مدينة سبتة — التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب الكبير بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة »^(٢).

وبجانب تجار الصحراء كان هناك التجار الذين يتعاملون مع الأندلس وأوروبا والمشرق في التصدير والاستيراد ، وقد عقد تجار الحملة صلات مع تجار الحملة الغرباء في مدن المغرب الأقصى ، وأيضاً مع غيرهم في البلاد الأخرى ، فتجار المشرق من أهل البصرة والكوفة وبغداد والذين أقاموا بالمراكز التجارية بجنوب البلاد كأغمات وبجلماسة^(٣) قامت بينهم وبين تجار البلاد الأصليين صلات حين اشترك الفريقان في تجارة الصحراء وقد سبق أن أشرت إلى الصلات التي كانت بين أحد تجار فاس وتاجر القاهرة^(٤) هذه الصلات المتنوعة مع ازدهار حركة التجارة الخارجية أكسبت تجار الحملة مركزاً مالياً مرموقاً في مجتمع المغرب الأقصى .

وبجانب تجار الحملة كان هناك تجار التجزئة هؤلاء الذين يبيعون بضائعهم في متاجرهم أو عن طريق التجول ، وبذلك يستدون حاجة السكان من مطالبهم اليومية وقد سبق أن أشرت إلى نظام الأسواق في مدن المغرب ، وكيف أن عدة متاجر تتجمع في مكان واحد للتجار في سلعة واحدة كسوق الحزازين وسوق الثياب وسوق الأقراق وسوق العطارين وغير ذلك مما يحتاجه السكان ، وهم بذلك يكونون طوائف صغيرة تندرّح تحت تجار التجزئة .

وكان هناك باعة الطعام الذين يبيعون الطعام في متاجرهم للسكان كبائع السمك وكان يعرف بالحوّات في ترجمة أبي إبراهيم اسحاق بن محمد الهزرجي أحد المتصوفين بمراكش والمتوفى سنة ٥٨١ هـ أنه قال لأحد تلاميذه « اذهب إلى أحمد الحوات وقل له أن يبعث لنا الليلة حوتاً طيباً مثل الحوت الذي كان يبعث لنا ، يأكله الليلة أبو حسون »^(٥) وكان هناك بائع السمن ويقال له

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٧٠ .

(٢) ابن سعيد المغربي : بسط الأرض ص ٧٣ .

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٦٥ .

(٤) S.D. Goiten : Studies In Islam Hitsory, P; 298

(٥) التادلى : التشوف ص ٢٣٠ .

السَّمان^(١) . وكان هناك الخزار والدقاق اللذان يبيعان ما يحتاجه الناس من اللحوم والقمح وغير ذلك وقد ورد في ترجمة أبي محمد يشكر بن موسى الجراوى والمقيم بفاس وبها مات سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م أنه كان لا يأكل مما يبيعه الخزارون والدقاقون خشية الوقوع فيما حرمه الله ومن هنا عاب عليه أحد أصحابه بقوله « لم يفعل هذا والحلال بفاس ممكن ؟ هذا فلان الخزار لا يشتري الغنم إلا من قوم عرف طيب مكسبهم وفلان الدقاق لا يشتري القمح إلا من قوم عرف طيب مكسبهم »^(٢) وكان غيرهم من التجار يبيعون الهريسة والاسفنج^(٣) .

وكان بعضهم يبيع بضاعته متجولا في الطرقات كأبي محمد عبد الواحد ابن تومرت المسكورى من أهل مراكش والذي استشهد بغزوة الأرك سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م كان يبيع الباقلاء ويحمله على رأسه متجولا^(٤) وغير هؤلاء من طبقة التجار الذين يقومون ببيع ما يحتاجه الأسر والأفراد من ضروريات الحياة ومستلزماتها .

وكان هؤلاء التجار يصابون في بعض الأحيان بكوارث تقضى على تجارتهم وتبطل أحوالهم من الرخاء واليسر إلى الفقر والاحتياج ومن ذلك ما حدث سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م بمدينة فاس حيث وقع حريق كبير بسوق المدينة دمرت فيه النيران كثيراً من أقسام السوق كسوق الثياب والقراطين وغير ذلك من الأسواق^(٥) ونتج عن ذلك افتقار أصحاب المتاجر التي احترقت يقول ابن القطان « فتلفت فيه أموال جليلة وافتقر فيه خلق كثير »^(٦) كذلك الحريق الضخم الذى حدث بسوق مراكش سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م وأنت فيه النيران على كثير من المتاجر مما أصاب أصحابها بالفقر والاحتياج يقول

(١) ابن القاضى : جذوة الانتباس ص ٢٣٥ .

(٢) التادلى : التشوف ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٢٨ ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية

ج ١ ص ١٢٤ .

(٤) التادلى : التشوف ص ٣٦٢ .

(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٤٦ .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٢٤٦ .

ابن عذارى « وذهب في هذه الكائنة — أى الحريق — للتجار الواردين والقاطنين والقاصيين والدانين من الأموال الحسيسة مالا يحص وافترق فيها أمة من ذوى اليسار وأصبحوا يتكفون الناس حيارى على الأقطار » (١).

٢ — الصناع :

سبق أن أشرت إلى الإزدهار الصناعى الذى شهدته البلاد خلال فترة البحث ، وأن هذا الازدهار قام على أكتاف طبقة الصناع الذين انتشروا في أرجاء البلاد وكونوا طائفة لها أهميتها ووزنها بين طبقات المجتمع الأخرى.

وقد أحس ولاية الأمر بأهميتهم ومدى احتياج البلاد لهم ، ومن هنا وفى خلال المذابح الدموية التى حلت سكان مراكش عند استيلاء الموحدى عليها ، حرص الخليفة عبد المؤمن على الابقاء على حياة الصناع وذلك لاحتياج الدواة لهم يقول ابن الاثير « ولما قتل عبد المؤمن من أهل مراكش فأكثر فيهم القتل اختفى كثير من أهلها ، فلما كان بعد سبعة أيام ، أمر فنودى بأمان من بقى من أهلها ، فخرجوا فأراد أصحابه المصامدة قتلهم فنعمهم وقال هؤلاء صناع وأهل الأسواق من ننتفع به فتركوا » (٢) وقد شملت طبقة الصناع عدة طوائف وفى مقدمتها :

(١) طائفة الفلاحين أو طبقة الفلاحين وهم الذين عاشوا فى الأراضى الزراعية واشتغلوا بزراعة الأرض واستخراج ما فى بطنها من مختلف المزروعات والثمار ، وقد انتشروا فى كثير من مناطق المغرب فالمصامدة كانوا زراعاً وكذلك قبائل تامسنا وغيرها من القبائل التى امتهنت الزراعة وهؤلاء عماد حياتهم زراعة الأرض وبيع محاصيلهم وفى بعض الأحيان كان الزراع يعانون من ظلم جباة المحاصيل وجامعى الضرائب كما حدث بالنسبة لزراع مكناسة ومن هنا لجأ ولاية الأمر معهم إلى نظام المقاطعة تخفيفاً عليهم (٣).

(ب) طائفة صانعى الثياب ، وتضم عدة حرف تقوم على تحويل المواد الخام إلى ملابس قطنية وصوفية وغيرها من أنواع الملابس ، ومن هذه

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣١ تطوان .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٠١ .

(٣) ابن غازى : الروض الهتون ص ١ ، ٢ .

الطوائف الحلاجون وهم الذين يقومون على حلج القطن وكان منهم أبو عمران موسى بن يدراس الحلاج وكان يعيش بفاس ويمتهن صنعة الحلاجة (١) ومن الصناع من يشتغل بنسج المادة الخام ومن هؤلاء أبي الربيع سليمان بن عبدالرحمن ابن المغز الصنهاجي المعروف بالتمساني وكان زاهداً ورعاً سكن سلا يحترف النسج ولا يقبل فيه سوى قيمة الغزل (٢) ثم يأتي بعد ذلك صانعوا الثياب وهم الحاكة ومنهم أبو العباس الحباب الذي كان يعمل خياطاً بمدينة مراكش وتوفي سنة ٥٩٢هـ - ١١٩٦م (٣)

(ح) طائفة البنائين : وقد اشتغل في البناء جماعة كبيرة من الصناع نتيجة للحركة العمرانية التي شهدتها البلاد من كثرة في بناء المساجد والمدارس والمنازل والمنازل والقصور مما استلزم معه جماعات متنوعة تقوم بعمليات البناء ومن هؤلاء صانعوا الآجر ، ومنهم صانعوا الفخار المتعدد الأنواع لاستخدامه في جلب المياه ، وكذلك الزليج لتبليط العرصات ومنهم الكلاسون لصناعة الكلس وغيرهم ممن يسهم في عملية البناء (٤) ،

(د) صانعوا الأدوات المنزلية : وهم الذين يقومون بسد احتياجات السكان مما يلزمهم من أدوات ، ومن هؤلاء الصناع صانعوا القدور كأبي زكرياء ويحيى بن ميمون الصنهاجي والمتوفي بمراكش سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م كان يصنع القدر ويبيعه للناس (٥) وصانعوا الأطباق كأبي الحسن علي بن زكريا الأسود من تاد لا كان يعمل الأطباق ويبيعها (٦) ، وأيضاً صانعوا الارحاء كأبي سعيد عثمان من دكالة كان يصنع الأحجار ومات في سنة ٥٩٠هـ ١١٩٤م (٧) ويدخل مع هؤلاء التجارون الذين كانوا يقومون بصناعة ما يحتاجه السكان من المصنوعات الخشبية وكان بعضهم يصحب الحيوش المحاربة للقيام

(١) التادلي : التشوف ص ٣٣٠ .

(٢) أبي زكرياء : بغية الرواد ج ١ ص ٣٨ .

(٣) التادلي : التشوف ص ٢٨٩ .

(٤) روجيه لوتورنو : فاس في عصر بني مرين ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٥) التادلي : التشوف ص ٤٢٩ .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٢٥٩ .

(٧) نفس المرجع السابق ص ٣١٦ .

بما تحتاجه من أشغال التجارة فعند حصار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لأسوار شنترين سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م أمر التجارين بعمل السلام (١).

(هـ) صانعو الخبز : ويدخل ضمن هؤلاء من يطحن الحب ويتموم على إعداده للخبز ثم يقوم الخبازون في الأفران المختلفة بخبزه ، وكانت النساء يقمن بخبز الدقيق في بيوتهن ثم يأتي من يحمله إلى الأفران ليقوم الخبازون بخبزه (٢).

(و) صانعو السلاح ، هؤلاء كانت لهم أهمية خاصة فهم الذين يقومون بإعداد السلاح لولاة الأمر والجيش ، وقد سبق أن أشرت إلى كثرة المعارك التي خاضها ولاة الأمر من المرابطين والموحدين واحتياجهم المستمر للسلاح وبكميات وفيرة حتى أن الخليفة عبد المؤمن حين جهز جيشه سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م لغزو الأندلس فلن مصانع السلاح كانت تنتج له يومياً عشرة قناطير من السهام (٣) بخلاف الأسلحة الأخرى من سيوف وقسي ورماح وخوذات وغيرها وهذا يشير إلى كثرة العمال الذين قاموا بهذا العمل الكبير ويشترك مع هؤلاء صانعو السفن سواء أكانت حربية أم تجارية .

(ز) صانعو الورق والصابون والخلود وغيرهم من الصناعات الذين انتشروا في أنحاء متفرقة من البلاد ، ولا شك أن هؤلاء الصناعات كانوا عصب الحياة ، وكونوا جماعات كبيرة بين سكان البلاد .

٣ — أصحاب مهن متنوعة :

هؤلاء يشكلون جماعات صغيرة بمدن المغرب الأقصى ، ويسهمون مع طبقة التجار والصناع في تيسير متطلبات الحياة اليومية للسكان ولا يتسع مجال البحث لاستقصاء كل أصحاب المهن التي وجدت نتيجة لحاجيات السكان ولكن يمكننا الإشارة إلى بعضهم ومن هؤلاء :

(١) المنادى : ويقوم بمهمة الإعلان عن الأوامر والأحكام التي يصدرها ولاة الأمر وإذاعتها بين الناس (٤) وحين دخل ابن تومرت مدينة أكرسيف

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٦٣ ثطوان .

(٢) التادلي : التشوف ص ١٨١ .

(٣) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٦٥ ت الفيلالي ، السلاوي :

الاستقصا ج ٢ ص ١٤٣ : Ren - Millet; A Imohades P ; 93

(٤) روجيه : فاس في عصر بنى مرين ص ٨٠ ت نقولا زيادة .

عند عودته من رحلته ، لحأ الناس إليه ليشكونه ظلم الوزير ومن هنا ذهب ابن تومرت لأمر المؤمنين وكان يدعى يحيى بن فانو فأرسل المنادى يعلن من كانت عنده مظلمة عند الوزير فليقبل على دار الأمير (١) ، وبجانب ذلك كان المادى يقوم بالاعلان عن المتوفين من أهل المدينة (٢).

(ب) الحمال : وهو ذلك الشخص الذى يقوم بنقل البضائع من مكان إلى آخر إما فوق أكتافه أو على دابة تحمل المنقولات ، وكانوا يستخدمون الأكياس لحماية ثيابهم ، والحبال لربط المنقولات (٣) وفى نفس الوقت فكانوا تحت رقابة المحتسب ، وقد أشار ابن عبدون إلى الطريقة التى يجب أن يسير بها العمال فى الطرقات « لا يمشى حمال إلا أمام دابته ويده فى رسنها لينذر الناس ، ويحذر العميان وذوى الغفلة والأعدار ، ويجب أن يكون للحمالين فى كل صنعة موقف معروف لا يتعداه » (٤).

(ج) السقاء : وهو الذى يقوم بتوصيل المياه إلى المنازل والدور وكان عليه حمل الماء لسد متطلبات الأسر والأفراد ، وكذلك كان يقدم الماء للمارة فى الأماكن العامة والتجمعات وذلك لإرواء عطشهم . وكانوا يحملون الماء فى قرب مصنوعة من الجلد ، ويصبون الماء فى أكواب يقدمونها للمارة ، أما فى المنازل فكانت هناك (براميل) ضخمة تمتلئ بالماء ويحملونها على ظهور الحميز لتوصيلها إلى المنازل (٥) وقد اشتغل بمهنة السقاية أبو الحسن على بن عبد الرحمن المعروف بابن الدلال والمقيم بمراكش (٦) . وقد أشار ابن عبدون إلى ضرورة نظافة الماء الذى يجلبه السقاء يقول « يجب أن يحد لهم موضع لأنفسهم يصنعون فيه قنطرة من ألواح آخر ما يحصر إليه النهر ، ولا يترك أحد من المعدين يشاركتهم . . . ويحد لهم المحتسب أن لا يستقى من بين أرجل الدواب على الحمأ والماء المكدر . . . يجب أن يمنع النساء أن يغسلن بالقرب

(١) البيهقي : أخبار المهدي ص ٦٢ .

(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٧٦ ، ٧٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٢ تطوان .

(٣) روجيه : فاس فى عصر بنى مرين ص ٨١ ، ٨٢ .

(٤) ابن عبدون : رسالة فى الحسية ص ٤١ .

(٥) روجيه : فاس فى عصر بنى مرين ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٦) التادلى : التشوف ص ٣٤٢ .

من موضع السقاية . . . يجب أن يمنع هرق الزبول والأقذار على ضفة الوادى لكن خارج الأبواب . . . » (١) .

(د) السدلال : وهو الواسطة بين البائع والمشتري حيث يقوم بعمل المزاد لبعض السلع وعرض أسعارها على المشتريين ، وكان عدد الدلالين يتوقف على نوع السلعة المباعة ، فقد كان الدلالون عن الأقمشة والبضاعة الجلدية فى مدينة فاس أكثر من غيرهم فى البضائع الأخرى (٢) وقد أشار التادلى إلى أحد تجار فاس وافلاس واشتغاله دلالا بسوق مراکش (٣) .

(هـ) البوابون : وهم القائمون على أبواب المدن ، حيث كان النظام المتبع فى بناء المدن وجود عدة أبواب لها ، وهذا ما سوف أتناوله بإذن الله فى فصل البناء والتعمير ، وكان لهذه الأبواب قائمون على فتحها صباحاً وغلقتها مساء فالمرأكى أشار إلى وجود بواب لأحد أبواب مدينة تلمسان وكيف أن ابن تومرت دق على بابه ليلاً ليفتحه ففتحته رهبة منه (٤) ، كذلك أبواب فاس كان لها بوابون يشرفون على غلقها وفتحها (٥) وكذلك أبواب مراکش (٦) وقد حدد ابن عبدون بعض واجباته بقوله « يجب أن يكرر بفتحها ، ويوقف البواب من يخرج عليه فى ذلك الوقت لئلا يخرج عليه سرقة أو شيء من الأعمال السوء إلى أن ينكشف النهار فيعرفه ، ويجب أن يؤخر بغلقتها لمن عسى أن يجرى من مسافر يريد الدخول والمبيت فى المدينة » (٧) .

(و) الصيادون : وهؤلاء عاشوا قريباً من شواطئ البحار والأنهار حيث مصادر الأسماك ، وقد سبق أن أشرت إلى وفرة الأسماك بالمغرب الأقصى نتيجة للموقع الذى يطل على البحر المتوسط فى الشمال والمحيط الأطلسى فى الغرب ، بالإضافة إلى الأنهار المتعددة التى كانت تشق سهول ووديان المغرب

-
- (١) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٣٢ .
 - (٢) روجيه : فاس عصر بنى مرين ص ١٥٦ .
 - (٣) التادلى : التشوف ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .
 - (٤) المرأكى : المعجب ص ١٨٣ .
 - (٥) التادلى : التشوف ص ٣٠٦ .
 - (٦) نفس المرجع السابق ص ٢٩٨ ، ٣٠٠ .
 - (٧) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٣٣ .

الأقصى ، ومن هنا اشتغلت طائفة من السكان بصيد الأسماك وبيعه في الأسواق وقد اشتغل أبو جعفر محمد بن يوسف الصنهاجي الأسود والساكن بتاغزرت على وادي وانسيفن من تادلا والمتوفى سنة ٦٠٨ هـ بصيد الأسماك (١) .

(ز) الغاسل : وهو الذى يقوم على تجهيز الميت وقد أشار التادلى إلى أبا على سالم بن سلامة المتصوف والمتوفى بأغلمات سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م حبر مات أرسل أهله إلى الغاسل لكي يقوم بتجهيزه للدفن (٢) .

(ح) الحلاق : وهو الذى يقوم بتجميل السكان وقص شعورهم وقد أشار التادلى بوجود حلاق بمدينة سبتة (٣) هذه الحرف المتعددة شاركت بطوائفها بجانب غيرهم في دفع عجلة الحياة بالمغرب الأقصى .

٤ - المرأة

احتلت المرأة مكانة مرموقة في المجتمع المغربي منذ قيام دولة المرابطين وصارت لها مشاركة واضحة في كثير من المجالات ، وذلك بجانب وظيفتها الأولى وهي تربية النشء والإشراف على إدارة المنزل .

المرأة في الدولة المرابطية :

وقد ظهر دورها بارزاً في عهد المرابطين ، حيث كانت المرأة تتمتع بوضع كريم في القبيلة الصنهاجية إذ كانت تشترك في مجلس القبيلة وتشارك في الأمور الهامة (٤) وكانت للمرأة سيطرتها ونفوذها على الرجل ، وقد بلغ من احترامهم لها أن كثيراً من قادة المرابطين وأمراء الدولة كانوا يلتقبون بأسماء امهاتهم تقديرًا لدور المرأة في مجتمع المرابطين يقول النويري « واستقامت له الأمور — أى ليوسف بن تاشفين — وتزوج زينب بنت ابراهيم زوجة أبو بكر بن عمر ، وكانت حظية عنده وأميرة عليه ، وكذلك جميع الملمثين ينقادون لأمر نسايم ولا يسمون الرجل إلا بأمه فيقولون ابن فلانة ولا يقولون ابن فلان » (٥) ومن هنا وجدنا أبا عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين وهو أ-

(١) التادلى : التشوف ص ٤١٥ .

(٢) التادلى : التشوف ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٣) التادلى : التشوف ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٤) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٥٢ .

(٥) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٠ .

لأمير المسلمين على وكان من أعظم قادة المرابطين يعرف بابن عائشة^(١) وكذلك عبد الله بن فاطمة من أبرز قادة المرابطين ودخل في كثير من المعارك بالأندلس وأحرز فيها عدة انتصارات كان معروفاً بابن فاطمة^(٢) وأيضاً محمد ويحيى ابنا علي بن يوسف المسوفي ، وقد تزوج والدهما علي بامرأة تسمى غانية فنسبا إلى أمهما^(٣) وعرفا ببني غانية وقد كانت لهما مكانتهما في الدولة المرابطية ثم تزعمهما لثورة مسلحة ضد الموحدين استغرقت وقتاً كبيراً وجهداً عظيماً من خلفاء الموحدين ، وداعية الموحدين محمد بن تومرت اشتهر بنسبته : ابن تومرت وهو اسم امرأة ، وربما كان هذا اسم إحدى جداته أطلق عليه ومن ثم اشتهر به^(٤) وهذا كله يشير إلى مكانة المرأة واعتزاز الرجال بانتحال أسماء أمهاتهم .

وكانت المرأة تتمتع بقسط وافر من الحرية حتى أنها كانت تختلط بالرجال في الأماكن العامة والمناسبات المختلفة ، مما جعل ابن تومرت عند عودته من رحلته يستنكر هذا الوضع في أكثر من مكان ، فعند نزوله ببجاية في عيد الفطر وجد اختلاط الرجال بالنساء مما دفعه للتفريق بينهم بعصاه^(٥) يقول ابن القطان « ثم حضر — أى ابن تومرت — عيداً فرأى فيه من اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المترين المتكحلين ما لا يحل فزجرهم وغير ذلك عليهم ، ف وقعت لأجل ذلك نفرة استطال فيها الشر وسلبت النساء حليهن وقام المهرج فسأل العزيز عن سبب ذلك فعرف بأنه لا سبب له إلا الفقيه السوسى^(٦) وبذلك دافع المجتمعون من الرجال والنساء عن عادة متأصلة بينهم حتى أنهم قاوموا فعل ابن تومرت . كذلك حين نزل ابن تومرت بتلمسان وجد النساء

(١) ابن القطان : نظام الجمان ص ٨ حاشية .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨ حاشية .

(٣) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ٢ ص ٢٠٥ حاشية د. حسين مؤنس .

(٤) ليفى بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ص ٢٦٥ ت د. محمود السيد سالم .

(٥) البيهقي : أخبار المهدي ص ٥٢ ، مجهول : نخب تاريخية ص ٣٦ ، ٣٧ ت ليفى بروفنسال .

(٦) ابن القطان : نظم الجمان ص ٤١ ت د. مكى .

(م ٢٣ — الحضارة)

يستقن الماء وبالقرب منهم الرجال يتوضئون فقال « أليس هذا منكر النساء مع الرجال مخلوطين » (١) وحين نزل بناحية قللال وهي إحدى الأماكن التي عبرها في طريقه سمع صراخ الرجال والنساء نتيجة اللهو واللعب فلما نهام عن ذلك كان جوابهم « هكذا السيرة عندنا » (٢) ولما وصل إلى مكناسة شهد اجتماع الرجال والنساء تحت شجرة لوز فقام المهدي بتفريقهم (٣) وهذا كله يشير إلى تمتع المرأة في مجتمع المرابطين بحرية الاختلاط ومشاركة الرجال في المناسبات .

ويتصل بهذا موضوع سفور المرأة وحجابها ، ويبدو أن المرأة المرابطية بجانب تمتعها بحريتها كانت أيضاً سافرة إذ اتخذ الرجال اللثام بينما النساء ظلان سفارات (٤) ويبدو أن عادة سفور المرأة المرابطية نشأت معهن في مواطنهن الأولى في الصحراء وما زالت إلى الآن في مجتمع الطوارق (٥) ومن هنا حين عاد ابن تومرت اعترض على سفور أخت أمير المسلمين علي بن يوسف حين قابلها في إحدى طرقات مراکش ومعها جواربها ، وكلهن سافرت فزجرهن ووجهن على هذا الصنيع (٦) يقول النويري « ولم يزل المهدي يلزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن وصل إلى مراکش وهي دار مملكة علي بن يوسف بن تاشفين فرأى فيها من المنكرات أكثر مما عاينه في طريقة إذ رأى أخت أمير المسلمين في موكبها ومعها عدة من الخواري الحسان ، وهن سفارات ، وكانت هذه من عاداتهن فحين رأى النساء كذلك أنكر عليهن وأمرهن بستر وجوههن وضرب هو وأصحابه دوابهن فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها فرفع أمره إلى أمير المسلمين علي بن يوسف (٧) » وفي رواية العمري أن التي قابلها ابن تومرت هي زينب ابنة أمير المسلمين علي بن يوسف

(١) البيهقي : أخبار المهدي ص ٦١ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٦٥ .

(٤) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٣ .

(٥) د. يحيى هويدي : تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية ج ١

ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٦) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ قسم ٤ ص ٧٧٣ ، ابن خلدون :

العبر ج ٦ ص ٢٢٧ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٨٢ .

(٧) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٤ .

ابن تاشفين^(١) واعتراض ابن تومرت يشير إلى أن موضوع السفور لم يكن عاماً بالنسبة لنساء المجتمع وإلا ما كان هناك وجه للاعتراض عليه . وربما كان هذا خاصاً بالمرأة المرابطية إذ أن هذا شيء مألوف لديها ومن هنا كان نقده ابن تومرت وهجومه على نساء المرابطين دون غيرهن من نساء المجتمع .

المرأة في عهد الموحيدين :

لم تتمتع المرأة بمثل النفوذ والحرية التي كانت تتمتع بها أختها في الدولة المرابطية ، وقد سبق أن أشرت إلى تشدد ابن تومرت داعية الموحيدين في منع اختلاط الرجال والنساء والحد من حريتهم ومنع سفورهن في الطرقات العامة مما يدل على اتباع الموحيدين لأحكام الدين بشأن صيانة المرأة وحمايتها ، إلا أن هذا الحد من الحرية لم يمنع الموحيدين في مناسبات مختلفة من إظهار تقديرهم واحترامهم للمرأة ففي إحدى معارك الموحيدين ضد المرابطين سقط كثير من الأسرى في يد الموحيدين ومنهم عدد كبير من النساء وقد قامت إحداهن وهي تاماكونت ابنة يثيان بن عمر بالتحدث مع عبد المؤمن بن علي وتذكيره بصنيع أبيها مع المهدي حين تشفع فيه عند أمير المسلمين على بن يوسف فأطلق سراحه ، وهنا أمر عبد المؤمن بإطلاق سراحها ، فرفضت حتى يطلق معها كل النساء وكان عددهن أربعائة ، فامثل عبد المؤمن لها وأمر باطلاقهن معززات حتى معسكر المرابطين^(٢) وكذلك حين استشفع أبو شعيب المتصوف عند الخليفة عبد المؤمن في إطلاق سراح نساء على بن يوسف ونساء أولاده فاستجاب^(٣) وفي بعض الأحيان اتخذ الموحدون من السبايا زوجات لهم يقول البيهقي « وقسم الخليفة الغنائم — بعد انتصار الموحيدين على المرابطين في إحدى المعارك — وأخذنا فيها مائة بكر وكن عندنا مؤمنات فقسمهن الخليفة على الموحيدين وتزوجوهن ، وبقيت فاطمة بنت يوسف الزناية وبنت ماكسن ابن اعمر صاحب مليلة فرمى الخليفة القرعة مع أبي إبراهيم على فاطمة فأخذها أبو إبراهيم وأخذ الخليفة بنت ماكسن بن اعمر أم الأمير إبراهيم والأمير

(١) العمري : مسائل الابصار ج ١٥ ص ٣٩ .

(٢) البيهقي : أخبار المهدي ص ٨٨ .

(٣) أحمد بن القاسم : المعزى في أخبار أبي يعزى ص ١١ مخطوط .

اسماعيل (١) « كذلك أكرم الناصر الموحدى سبائا ميورقة حين أمر باطلاق سراحهن ومساعدتهن بالأموال على الزواج (٢) ونفس التكريم وجده نساء العزب الهلالية حين وقعن في الأسر من الخليفة عبد المؤمن فقد وكتل بهن الخدم لخدمتهن حتى وصلن إلى مراکش فأنزلهن المساكن الفسيحة وأجرى عليهن النفقات الواسعة (٣).

إلا أن هذا لم يكن دأب الموحيدين في تكريم السبايا فقد يحدث أن يعن كما تباع السلع والأمتعة وهذا ما حدث لنساء كزولة ولطة اللاتي وقعن في أسر الموحيدين حيث باعهن الموحدون على أحد أبواب مراکش (٤).

ويبدو أن بعض تجار الرقيق لا يلتزمون بأحكام الشرع ويسرعون في بيع النساء ، ومن هنا صدرت رسالة من الخليفة عبد المؤمن سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م تشير إلى هذا الخطأ حين قال « وأنه أعلمنا بأن من يرضى تلك الفواحش بما يرضاه ويستبيحه ولا يبالي أحسن الفعل فعله أم قبيحه يبتاع المرأة ويبيعهها دون استبراء ويعبث في ذلك بكل إقدام على الله تعالى واجترأ ولا يتحفظ من موقعة الزنا المحض ومخالفة الواجب مع الفرض (٥) » وقد بين الخليفة علاج ذلك بقوله « فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئاً ممنهن أو يبيع حتى يستأذن الحاكم لأمره منكم والشيخ لئلا يذهب الحق في ذلك ويضيع . وكذلك فليتوقفوا عن بيع النساء في جميع ما تغنونهن منهن في تلك الأرجاء حتى تخاطبون بأصل أمرهن وكيفية . وتعلمونا من ذلك بحليته لرسم لكم فيه ما يكون عايه اعتمادكم ويجرى إليه اقتصادكم » (٦).

وقد اشتهر المنصور الموحدى بإنصافه للمرأة يقول ابن خلكان في صفات المنصور « ويقف للمرأة والضعيف يأخذ لهم بالحق » (٧) ومن هذا يتضح

-
- (١) البيهقي : أخبار المهدي ص ٩٤ .
 - (٢) المراكشي : المعجب ص ٣١٥ .
 - (٣) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٤١ .
 - (٤) البيهقي : أخبار المهدي ص ١١٨ .
 - (٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٦٠ .
 - (٦) نفس المرجع السابق ص ١٦٠ .
 - (٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٦ ص ١٠ .

أن المرأة تتمتع بمكانة طيبة ونالت التقدير والاحترام من ولاة الأمر بالمغرب الأقصى .

ثقافة المرأة : لم تشر المراجع التي تيسر لي الاطلاع عليها إلى موقف عامة النساء من الثقافة المحيطة بهن ، والمستوى العلمي الذي وصلن إليه ، وإنما أشارت فقط إلى بعضهن من بيت الحكم والسلطة في الدولة المرابطية وحصولهن على قسط وافر من الثقافة ، ففي الدولة المرابطية كانت هناك تيممة بنت يوسف بن تاشفين أخت علي بن يوسف بن تاشفين وتكتي أم طلحة وكانت راجحة العقل مشهورة بالأدب والكرم^(١) وأيضا حواء بنت تاشفين — وكان تاشفين أخا ليوسف بن تاشفين لأمه — كانت أديبة شاعرة جلييلة ماهرة ، وكانت تحضر المجالس الأدبية وتجمع الشعراء والكتاب وتحادثهم^(٢) .

وبجانب الثقافة والمعرفة فإن بعض الأميرات قد تدربن على الضرب والطعن حتى أن إحداهن وهي فانو بنت عمر بن ينتيان ظلت تقاتل الموحدين على أسوار مراکش حتى قتلت ، وقد أعجب الموحدون بشجاعته وصمودها يقول البيهقي « فاستفتحت ودخلت بالسيف وكان القتال على القصر حتى الظهر ، ولم يدخل حتى ماتت فانو بنت عمر بن ينتيان وكانت ذلك اليوم تقاتل الموحدين في هيئة رجل ، وكان الموحدون يتعجبون من قتالها ومن شدة ما أعطاها الله من الشجاعة وهي بكر فلما ماتت حينئذ دخل القصر ولم يعرف الموحدون هل هي امرأة أم لا حتى ماتت »^(٣) .

فلذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا اشتغال كثير من النساء بالعلوم المختلفة ، وفي فترة نشر الدعوة شاركت المرأة في الاستماع إلى كلام ابن تومرت ونصائحه فحين أحس ابن تومرت بدنو أجله ، جمع الرجال والنساء للاستماع إلى نصائحه ووعظه يقول ابن القطان « وذلك أنه لما تهادى مرضه — أي مرض ابن تومرت — خرج راكبا على بغلته وجمع الناس ليسمعهم كلامه

(١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٧ تحقيق د. احسان عباس .

(٣) البيهقي : أخبار المهدي ص ١٠٣ .

ووداعه وأمر أن يكون الرجال أمامه والنساء خلفه ليسمع كلهم كلامه . . . (١)
ومن بنات الخلفاء المثقفات التي أشارت إليهن المراجع الأميرة زينب
بنت الخليفة يوسف بن عبد المؤمن درست علم الأصول على أبي عبد الله بن
إبراهيم وكانت عالمة صائبة الرأي فاضلة (٢) ومن الشهيرات حفصة بنت الحاج
الركونية وهي من شاعرات الأندلس وقد مدحت الخليفة عبد المؤمن بن علي (٣)
ثم قامت بالتدريس في قصر الخليفة المنصور الموحدى لنساء القصر ، وأم
خبرونه الفاسية التي كانت تحضر مجلس عثمان السلاجي إمام أهل فاس في
الأصول وقد اقترحت عليه تأليف كتاب في مذهب الأشاعرة فألف العقيدة
البرهانية (٤) وكذلك فاطمة بنت عبد الرحمن فقد درست أصنافاً مختلفة من
الكتب إذ حفظت القرآن بقراءة نافع وكتاب شهاب الأخبار في الحكم والأمثال
والآداب للقاضي محمد بن سلامة وعدة كتب في اللغة وصحيح مسلم في الحديث
وفي التاريخ سيرة ابن اسحق وفي الأدب الكامل للمبرد (٥) وغير هؤلاء من
النساء اللاتي حرصن على التزوّد من العلوم الاسلامية والدراسات الأدبية
المنتشرة في ذلك العصر .

نفوذ المرأة : أسهمت المرأة المرابطية بذكائها ونصائحها في تأسيس الدولة
المرابطية والسيطرة على ولاية الأمر بها . وقد سبق أن أشرت في الفصل الثاني
إلى الطريقة التي توصل بها يوسف بن تاشفين إلى الحكم ومنها نصائح زوجته
زينب النفزاوية ومشورتها ، وذلك لأنها كانت تتمتع بعدة صفات طيبة إذ
كانت امرأة حازمة لبيبة ذات رأي وعقل ومعرفة بالأمور (٦) ولفرط ذكائها

٣٥٨

-
- (١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٦ .
 - (٢) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ٢ ص ١٠٩ .
 - (٣) المنوني : العلوم والآداب ص ٣٣ ، كتون : النبوغ المغربي ج ١ ص ١٤٤ .
 - (٤) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ١٣٨ ، المقرئ :
نفع الطيب ج ٥ ص ٣٠٣ .
 - (٥) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ٢ ص ١٠٩ .
 - (٦) المنوني : العلوم والآداب ص ٣٥ .
 - (٧) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٦٩ .
 - (٨) ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ٣٢ ت الفيلاي ، السلوى :
الاستقصا ج ٢ ص ٢١ .

أطلقوا عليها اقب الساحرة^(١) وقد أشارت المراجع إلى النصائح التي أسدتها زينب إلى زوجها يوسف بن تاشفين مع المعونات المادية التي قدمتها له حتى استطاع أن يثبت أقدامه في مقعد الحكم واستطاعت زينب بهذه الوسيلة أن تتمكن من قلب زوجها وتصير لها الكلمة في البلاد^(٢) وكان يوسف بن تاشفين يعتز بها ويصرح في مجالسه بمكانتها وفضلها يقول ابن عذارى « وفي هذه السنة — سنة ٥٤٦٩ هـ — ولد للأمير يوسف بن تاشفين ولده الفضل من زوجته زينب النفاوية وكانت أحب ما لديه ، امرأة غالبة عليه ، ليس . . . (٣) ولا كان أمر إلا أمرها ، وكان يقول لبني عمه إذا خلا بهم وورد ذكرها : إنما فتح البلاد برأيها »^(٤).

وقد برز مدى سلطة زينب أنها أمرت بعزل أحد القضاة لأنه مدح حواء زوجة سير بن أبي بكر بالجمال وفضلها على سائر النساء ، فجاءها الرجل مستعظفاً وظل على بابها أياماً ، باع كل ما يملك لينفق منه ، إلى أن سمحت له بالمثل بين يديها يقول النويري « قالت — أي زينب لخادمها — فأنتي به الساعة فأحضره إليها فقالت له تمدح زوجة سير وتفضلها على سائر النساء وخرجت في وصفك لها عن الحد ، وزعمت أن ليس في الأرض أحمل منها ، وما هذه منزلة القضاء ، ولا يليق بك أن تترك نفسك في هذه المنزلة فقال ارتجالاً :

أنت بالشمس لاحقه وهى بالأرض لاصقة
فنتى ما مدحتها فهى من سير طالقة

فقالت له يا قاضى طلفتها منه قال نعم ثلاثة وثلاثة وثلاثة ، فضحكت

(١) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات ، مجهول : تواريخ مدينة فاس ص ٢٤ .

(٢) ابن أبي زرع : الأقبس ج ٢ ص ٣٣ ، ٣٤ ت الفيلالى ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢ ت د . احسان عباس ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام : القسم الثالث ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ ت العبادى ، ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٤٦ .

(٣) بياض الأصل .

(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٠ ، ابن الاثير : الكامل

ج ٨ ص ٢٣٧ .

حتى افتضحت وقالت والله لا شئ لها قفا أبداً وكتبت إلى يوسف برده إلى القضاء فردّه» (١) وهكذا لعبت الغيرة دورها في عزل القاضي ثم رده بعد ذلك حتى إذا تولى أمير المسلمين على بن يوسف ، ازداد نفوذ النساء وصارت لهن السيطرة على الحياة العامة في البلاد يصبور ذلك المراكشي بقوله « واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل ، وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين في ذلك كله يريد تغافله ويقوى ضعفه» (٢) وصارت زوجة أمير المسلمين تتدخل في عزل الولاة ، وذلك ما فعلته والددة سير في عزل تاشفين عن تولي إمارة الأندلس يقول ابن عذارى « وذكروا أن والددة سير هي التي غارت بأخيه تاشفين لثلا يكبر على ابنها ويتملك في بلاد الأندلس فكانت سبب عزلته ووصوله — أي إلى مراكش» (٣) فلما جاء تاشفين إلى مراكش صار في ركاب أخيه سير يقف على بابه كأحد حجابيه (٤) وكان هذا من تأثير قهر والددة سير ، فلما مات ابنها سير وكان ولياً للعهد حاولت نقل ولاية العهد إلى اسحق دون تاشفين ولم يتحقق لها ذلك بسبب صغر سن اسحق (٥) مع اختيار الناس لتاشفين .

وكان هذا التدخل في شئون الدولة مع ضعف أمير المسلمين على بن يوسف أمام سيطرتهم عاملاً من عوامل ضعف الدولة المرابطية مما أدى بها إلى الانهيار والسقوط (٦) وقد أشار المراكشي إلى أن من عوامل اختلال أحوال الأندلس في أواخر أيامهم سيطرة النساء على مقاليد الأمور « فأما أحوال جزيرة الأندلس فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن على ابن يوسف ، اختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً ، أوجب ذلك تخاذل المرابطين

-
- (١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٠ .
 (٢) المراكشي : المعجب ص ١٧٧ .
 (٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٩٧ ت د . احسان عباس .
 (٤) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٩٧ .
 (٥) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٩٧ .
 (٦) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٥ ، د . أحمد شلبي : التاريخ الاسلامي ج ٤ ص ١٨٣ ، كنون : النبوغ المغربي ج ١ ص ١٠٣ .

وتواكلهم ، وميلهم إلى الدعة وإيثارهم الراحة وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة وقتلوا في أعينهم ، واجترأ عليهم العدو « (١) .

حتى إذا قامت الدولة الموحدية لم يكن للمرأة في المجتمع الموحدى نفوذ مثلتها في الدولة المرابطية ، وتدخلها في الشئون السياسية بذلك الشكل الواضح وقد وجدنا منها مشاركة في الشئون السياسية حين حضرت مبايعة القبائل لعبد المؤمن بن علي يقول البيذق : « وصاح بالقبائل — أى عبد المؤمن بن علي بعد رجوعه من غزو كزولة — وضم الموحدين وجعل المجلس فاستعمل ركائز وحال بين الرجال والنساء ثم وعظ الناس وقال لهم في آخر كلامه بقى عندكم عهد بيعة المهدي . . . (٢) » ولم توضح الرواية هل قام النساء بالمبايعة أيضاً ؟ وإنما اكتفت الرواية « فقد يده وباعوه — أى أصحابه — ثم تبعه سائر الناس حتى الليل وكانت البيعة ثلاثة أيام متوالية . . . » (٣) ويرجح أن النساء اشتركن في البيعة لحضورهن هذا الاجتماع يضاف إلى ذلك أن كلمة الناس التي وردت في النص عامة تشمل الرجال والنساء .

واحتلت زوجة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن من نفسه مكانة طيبة ، وهي ابنة عدوه محمد بن سعد أحد المتغلبين على شرق الأندلس وذلك بعد دخوله في طاعة الموحدين ، فأكرمه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وتزوج من ابنته ، واستطاعت هذه الزوجة أن تتغلب عليه حتى كان الناس يضربون المثل بحب الخليفة بالزرقاء المردنيشية (٤) واستطاعت بهذه المنزلة أن تشير على زوجها بتعيين بعض قرابتها في بعض المناصب يقول لسان الدين بن الخطيب « واتفق لقومها من البخت بسببها ما لم يتفق لثائر ولا مخالف ملك من إعادته إلى ملكه فأنفذ تقديم الأمير أبى الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش على بلنسية وجهاتها وقدم خانم بن محمد على أساطيل العدو بسببة

(١) المراكشي : المعجب ص ٢٠٨ .

(٢) البيذق : أخبار المهدي ص ٨٥ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٨٥ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثاني ص ٣١١ ، ٣١٢ ت

ليفني بروفنسال .

وأمسك هلالا بحضرته أثير الرتبة لديه « (١) غير أن هذا النفوذ للمرأة الموحدية لم يبلغ الدرجة التي وصلت إليها المرأة في العهد المرابطي .

بعض الأعمال التي اشتغلت بها المرأة : قامت المرأة في مجتمع المغرب الأقصى خلال فترة البحث بدورها الأساسي وهو رعاية الأسرة والإشراف على شئون البيت وتربية الأبناء ، إلا أنه بجانب ذلك اشتغل بعضهم ببعض الأعمال رغبة في الكسب ، وفي بعض الأحيان يكون هذا ناتجاً عن عادة متأصلة في بعض القبائل وهي دفع النساء للعمل كنساء أهل السوس وأنعمات ، يقول البكري « وأهل السوس وأنعمات أكثر الناس تكسباً وأطلبهم للرزق يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب » (٢) .

وقد اشتغل بعضهم بغزل الصوف يقول ياقوت « ونساؤهم أى نساء سحلماسة — يد صناع في غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن بديع من الأزر يفوق القصب الذي بمصر ، يبلغ ثمن الإزار خمسة وثلاثين ديناراً أو أكثر » (٣) كذلك نساء فاس كن يشتغلن بالتطريز وحياكة الملابس (٤) . كذلك قامت بعض النساء ببيع اللبن فعند مرور ابن تومرت في طريق عودته بإحدى القرى وجد النساء متزينات يبعن اللبن (٥)

ونتيجة لحصول بعضهم على ثقافة عالية ، كالعالمة حفصة بنت الحاج الركوني ، وكانت أستاذة وقتها فلما قامت بالتدريس لنساء المنصور الموحدي في قصره وتوفيت بحصرة مراکش سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م أو سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م (٦) ، وكذلك اشتغلت بعض النساء بالطب ومنهن أخت الطيب أبو بكر بن زهر وابنتها إذ كانتا بارعتين في الطب وكانتا تداويان نساء

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثاني ص ٣١٢ ت ليعي بروفنسال .

(٢) البكري : المغرب في ذكر إفريقيا ص ١٦٣ .

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٣ ص ٤٩ .

(٤) روجيه : فاس في عصر بني مرين ص ١٣٤ ترجمة د . نتولا زيادة .

(٥) البيهقي : أخبار المهدي ص ٦١ .

(٦) ابن الخطيب : الاحاطة المجلد الاول ص ٤٩٩ ، ٥٠١ ت هنان .

المنصور الموحدي^(١) يقول ابن أبي أصيبعة « وكانت أخته — أى أخت أبي بكر ابن زهر — وابنتها عالمتين بصناعة الطب والمداواة ولهما خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء وكانتا تدخلان إلى نساء المنصور ولا يقبل — تتولى قبالة نساء أهله أى توليد هن — للمنصور وأهله ولداً إلا أخت الحفيد أو بنتها لما توفيت أمها^(٢) وهكذا لم يكن نشاط المرأة محصوراً في أعمال البيت وإنما تعداه إلى الحياة العامة حيث شاركت المرأة في بعض الأعمال .

هـ — أهل الذمة

عاشت جاليات من اليهود والنصارى على أرض المغرب الأقصى متخذة من أرضه وطناً لها ، فقد اعتنق بعض سكان المنطقة الديانة اليهودية وقد علّل ابن خلدون ذلك بقوله « ربما كان بعض هؤلاء البربر دانو بدين اليهودية أخذوه عن بني اسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه كما كان جراوة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة . . . وكما كانت نفوسه من برابر أفريقية وفندلاوة ومديونة وهاولة وغيانة وبنو فازاز من برابر المغرب الأقصى »^(٣).

كذلك اعتنق فريق من السكان الديانة المسيحية بعد أن دخلت المسيحية إلى المغرب عن طريق رهبان مصر في القرن الثاني الميلادي^(٤) وكانت تتركز جموعهم في المدن الساحلية والسهل الساحلى حتى إذا دخل الإسلام المنطقة واعتنق أهل البلاد الإسلام، كفل ولاية المسلمين الحرية الدينية لهذه الطوائف ، ومن ثم عاشوا ينعمون بعدالة الإسلام بين سكان البلاد ، ووجدت منهم جماعات متفرقة في القرنين الخامس والسادس من الهجرة ففي تلمسان وجدت

-
- (١) عبد العزيز بن عبد الله : الطب والاطباء بالمغرب ص ٣٠ الرباط سنة ١٩٦٠ ، د. أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ١٦ دمشق سنة ١٩٣٩ ملين : عصر المنصور الموحدي ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، المنونى : العلوم والآداب ص ١٢٨ .
- (٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الانبياء وطبقات الاطباء ص ٥٢٤ بيروت سنة ١٩٦٥ .
- (٣) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠٧ .
- (٤) د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٨ مطبعة مصر سنة ١٩٤٧ .

جالية مسيحية يقول البكرى « وفيها — أى تلمسان — للاول آثار قديمة وبها بقية من النصرى إلى وقتنا هذا ولهم بها كنيسة معمورة » (١).

كذلك اليهود عاشوا فى أكثر من مكان فى مدينة فاس كانت توجد جالية كبيرة من اليهود (٢) كذلك عاش اليهود بأعداد كبيرة بإحدى قلاع جبل فازاز يقول صاحب كتاب الاستبصار « وفى هذا الجبل — أى جبل فازاز — قلعة كبيرة تنسب للمهدى ابن توالى الحيفشى . . . وكان اليهود فى ذلك التاريخ أكثر سكانه لأنهم سوقة فيلجئون للحصن حيطة على سلعهم » (٣) واتخذ اليهود مدينة أعامت ايلان مقرأ لهم (٤).

أهل الذمة فى عهد المرابطين :

سبق أن أشرت إلى وجود جاليات من أهل الذمة فى نواحي متفرقة من البلاد فلما قامت دولة المرابطين استظل أهل الذمة كغيرهم من طبقات وطوائف المجتمع بنظام الحكم الجديد . وقد اختلفت أوضاعهم نتيجة للأحداث التى مرت بها المنطقة ويبدو أن طائفة اليهود كانت على قدر كبير من الثراء مما دفع ابن تاشفين إلى فرض أموال كثيرة عليهم ليستعين بها فى دعم مركزه (٥) يقول ابن عذارى « وفيها — أى سنة — ٥٤٦٤ — افترض على اليهود فريضة ثقيلة فى جميع طاعته اجتمع له فيها مائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار » (٦) وهو مبلغ كبير يدل على ما كان يتمتع به اليهود من الثراء ، حتى إذا صارت الأندلس إقليماً تابعاً للمغرب الأقصى زاد سكان المنطقتين : المغرب الأقصى والأندلس إتصالاً ، وخاصة بعد المعارك المتصلة ومجئ كثير من الأسرى من أهل الأندلس مسيحيين أو يهود إلى المغرب الأقصى ، إلا أن بعض الأحداث السياسية دفعت أمير المسلمين على بن يوسف

(١) البكرى : المغرب ص ٧٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١١٥ .

(٣) مجهول : الاستبصار ص ١٨٧ .

(٤) ابن سعيد : نزهة الأنتظار ج ١ ص ١٣ .

(٥) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٣ .

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣ تحقيق د. احسان عباس .

إلى تغريب عدد كبير من النصارى إلى المغرب الأقصى ، وكان السبب في ذلك أن نصارى مدينة غرناطة تعاونوا سرّاً مع ابن رزمير عدو المسلمين وزينوا له اقتحام مدينة غرناطة مما نتج عنه كثير من الأضرار التي لحقت بسكان المدينة ومن هنا عبر ابن رشد إلى أمير المسلمين على بن يوسف وأحاطه علماً بما حدث وأفتاه بتغريب هؤلاء النصارى وغيرهم ممن يتآلئون مع العدو^(١) يقول ابن الخطيب « وفي سنة تسع عشرة وخمسمائة جاز القاضي أبو الوليد بن رشد إلى مراكش فتلقاه أمير المسلمين على بن يوسف بالمبرة والكرامة وبّين له القاضي أمر الأندلس وما أصيبت به من النصارى المعاهدين بها وما جروءة إليها وجنوه عليها من استدعاء ابن رزمير وتقويته على المسلمين وإمداده وما في ذلك من نقض العهد والخروج عن الذمة ، فلقى نظره بالقبول وأفتاه بتغريبهم وإجلائهم عن أوطانهم وهو أخف ما يؤخذ به في عقابهم ، ونفذ عهده إلى جميع بلاد الأندلس بإزعاج المعاهدين إلى ناحية مكناسه وسلا وغيرها من بلاد العدو^(٢) وهكذا كانت خيانتهم ونقضهم للعهد سبباً في نقلهم من أوطانهم إلى المغرب الأقصى .

وبجانب هذا الإجراء ، كان هناك إجراء وقائي من أمير المسلمين على بن يوسف بالنسبة لليهود ، إذ حرم عليهم المبيت بمدينة مراكش وسمح لهم فقط بالعمل فيها نهاراً والانصراف منها ليلاً^(٣) يقول الإدريسي « وأنعمت إبلان مدينة صغيرة في أسفل جبل درن المذكور . . وبهذه المدينة يسكن يهود تلك البلاد وهي مدينة حسنة كثيرة الخصب كاملة النعم ، وكانت اليهود لا تسكن مدينة مراكش عن أمر أميرها على بن يوسف ولا تدخلها إلا نهاراً وتنصرف عنها عشية ، وليس دخولهم في النهار إليها إلا لأمر له وخدم تختص به ومضى

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٢ تحقيق د. أحسبيل عباس ، النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص ٩٩ ، ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة المجلد الأول ص ١١٩ ، ١٢٠ ، عباس المراكشي : الأعلام ج ٢ ص ٣٥٨ ارنست ريفان : ابن رشد والرشدية ص ٣٢ ، ٣٣ ترجمة عادل زعيتو سنة ٥٧ ، اشباح : تاريخ الأندلس ج ١ ص ١٥٧ ،

De Gayaugos ; History of Mohamedan. V.2 P; 306.

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) ابن سعيد : نزهة الانظار ج ١ ص ١٣ .

عثر على واحد منهم بات فيها استبيح ماله ودمه ، فكانوا ينافرون المبيت فيها
حيطة على أموالهم وأنفسهم» (١).

وهذا الإجراء مع دفعهم أموالاً ضخمة ليوسف بن تاشفين من قبل
يضايف إلى ذلك تغريب النصارى من الأندلس ، دفع بعض الكتّاب إلى
القول بأن أهل الذمة عاشوا في اضطهاد في دولة المرابطين وأنهم لم يتمتعوا
بحريتهم الدينية ، يقول فيليب حتى « لآزداد الحماس الدينى — أى في دولة
المرابطين — حتى أخذت الاضطهادات في أوائل القرن الثانى عشر تنصب
على المسيحيين واليهود » (٢) ويقول بروكلمان « فلما تم السلطان للمرابطين
انتهى اليهود إلى حال من العسيرة » (٣) وتبعهم في هذا الاتجاه بعض الكتّاب (٤)
وقد أسرف هؤلاء الكتّاب في لوم المرابطين واتهامهم بمناقشة ما فعله
المرابطون يمكننا أن نستخلص ما يلي :

أولاً : أن أخذ يوسف بن تاشفين أموالاً من اليهود لم يكن لإجراء قاصراً
على طائفة اليهود بل إن ولاية المرابطين فرضوا بعض المعونات على جميع
طبقات المجتمع في حالة احتياجهم للمال ، وقد سبق أن أشرت إلى أن على
ابن يوسف فرض معونات على أهل المدن المغربية لتساعده في حملاته العسكرية
ومن ذلك ما فرضه على أهل فاس سنة ٥٣٠ هـ من معونة تقدر بعشرين ألف
دينار كمعونة للجيش (٥) .

ثانياً : مسألة تحريم المبيت على اليهود بالعاصمة مراکش ، كان لإجراء
وقائياً ضد احتمالات التجسس التى يمكن أن يقوم بها اليهود ، أو عمليات
التخريب وخاصة أن عهد على بن يوسف شهد معارك متعددة في أكثر من

(١) الإدريسي : وصف المغرب والاندلس ص ٦٩ ت دوزى .

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب ص ٧٠٤ ترجمة مبروك نافع ط ٣
سنة ٥٢ .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٨٠ ترجمة
فقيه فارس ومنير البعلبكي .

(٤) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الاول ص ٤٢٠ ، د. لطفى
عبد البديع : الاسلام في اسبانيا ص ٣٤ ، ط ٢ سنة ٦٩ ،

S.P. Scott History of Moorish Empire P: 247.

(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٢٦ .

جبهة في الأندلس ضد النصارى ، وفي المغرب الأقصى ضد ثورة ابن تومرت ومن هنا كان لا بد له من الاحتياط في عاصمته مقر لإدارة الدولة وتجمعات الجند وما يتصل بذلك من خطط وتحركات عسكرية .

ثالثاً : أن تغريب النصارى من الأندلس كان إجراء عادلاً نتيجة لتقصيهم العهد وخيانتهم للمواثيق باتصالحهم بالعدو وإطلاعهم على عورات المسلمين ومن هنا كان القرار الحاسم ، وهو شل حركتهم وإبعادهم عن مواطن الإتصال بالعدو ونقلهم إلى المغرب ليكونوا تحت سماع وبصر أمير المسلمين .
رابعاً : أن الفترة الزمنية التي وقعت بها هذه الأحداث كانت تشهد حرباً طاحنة في المشرق أعلنها الصليبيون للاستيلاء على ثروات المشرق مستترين تحت شعار الصليب ، ومن هنا كان من حق أمراء المرابطين اتخاذ كل ما يروونه من احتياطات بشأن معاملة أهل الذمة .

خامساً : أظهر ولادة الأمر تسامحاً حين استخدموا النصارى واليهود في عدة وظائف بالدولة وفي مقدمة ذلك إشراكهم في جيش البلاد^(١) يقول ابن عذارى « وفي سنة أربع وثلاثين وخمسة خرج تاشفين بعسكر كبير من لتونة والحشم وزناته لقتال الموحدين ومعه جمع من النصارى مع قائدهم الربرير فبقى يحاربهم نحو شهرين ثم رجع إلى مراکش »^(٢) بجانب ذلك كانوا يكوّنون الحرس الخاص لأمير المسلمين على بن يوسف^(٣) ، يضاف إلى ذلك اشتراكهم في جباية الأموال للدولة^(٤) ، وقد شارك اليهود النصارى في وظيفة جباية الأموال^(٥) .

(١) أشبناخ : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٢٣٩ ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٨٠ ، ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ت د. السيد محمود سالم ، الصديق بن العربي : طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب ص ١٥٤ مجلة تطوان عدد ١ سنة ٥٦ ،

J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 69.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٩٨ ت د. احسان عباس ،

(٣) أشبناخ : تاريخ الأندلس ج ١ ص ١٢٢ .

(٤) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٢٩ ، د. حسن محمود ،

قيام دولة المرابطين ص ٤١١ ، ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ص ٢٤٧ ت د. السيد محمود سالم .

(٥) أشبناخ : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٢٣٨ .

سادساً : اشتغال كثير من اليهود في بعض الحرف في المدن المغربية كاشتغالهم بصناعة القناديل وزخرفة المعادن وصناعة الحلي وغيرها بمدينة فاس (١) كما أن بعضهم اشتغل بحرفة البناء في مدينة سجلماسة (٢) ولا يتسنى لهم إحتراف هذه الأعمال إلا إذا كانوا يعيشون في ظل من الأمن والطمأنينة.

سابعاً : تمتع علماء اليهود بالمغرب والأندلس بحرية الكتابة والبحث ، يقول اشباخ « فنذ القرن الحادى عشر وضع يهود شويج الفاسى قاموساً عبرياً ومباحث قيمه عن الإنشاء والترقيم فى اللغة العبرية ولم يطبع منها شىء حتى وقتنا . وفى القرن الثانى عشر ازدهرت المباحث العلمية اليهودية فى أسبانيا بنوع خاص (٣) » ولو كان اليهود يعيشون فى اضطهاد لما تسنى لهم التفكير فضلاً عن الكتابة والبحث فى ديانتهم .

ومن هذا كله يمكن أن نستخلص أن أهل الذمة كغيرهم من طبقات المجتمع عاشوا يتمتعون بعدالة ولالة الأمر .

٢. أهل الذمة فى عهد الموحدين :

واجه أهل الذمة موقفاً صعباً فى عهد الخليفة عبد المؤمن ، إذ تشير بعض الروايات إلى أن الخليفة عبد المؤمن خير أهل الذمة بين الإسلام أو ترك البلاد أو القتل ومن ذلك ما رواه النويرى « وكان عبد المؤمن لا يداهن فى دولته ويأخذ الحق من ولده إذا وجب عليه قال ولا مشرك فى بلاده ولا كنية فى نفعه منها ، لأنه كان إذا ملك بلداً إسلامياً لم يترك فيه ذمياً إلا عرض عليه الإسلام فمن أسلم سلم ومن طلب المضى إلى بلاد النصرى أذن له فى ذلك ومن أبى قتل فجميع أهل مملكته مسلمون لا يخالطهم سواهم » (٤) وتطبيقاً لهذه القاعدة فإن كثيراً من اليهود والنصارى غادروا البلاد فراراً بحياتهم (٥) وفى ذلك يقول القفطى « ولما نادى عبد المؤمن بن على الكومى البربرى المستولى

(١) روجية : فاس فى عصر بنى مرين ص ١٣٩ .

(٢) البكرى : المغرب ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٣) اشباخ : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٨ .

(٥) د. د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ص ٨٨ . المكتبة الثقافية

عدد ٢٣٧ سنة ١٩٧٠ .

على المغرب في البلاد التي ملكها بإخراج اليهود والنصارى منها وقدر لهم مدة وشرط لمن أسلم منهم بموضعه على أسباب ارتزاقه ما للمسلمين وعليه ما عليهم ومن بقي على رأي أهل ملته فلما أن يخرج قبل الأجل الذي أجله وإما أن يكون بعد الأجل في حكم السلطان مستهلك النفس والمال ، ولما استقر هذا الأمر خرج المخفون وبقي من ثقل ظهره وشح بأهله وماله وأظهر الإسلام وأسر الكفر» (١) ومن تظاهر بالإسلام ثم فرّ بعد ذلك موسى بن ميمون حيث لحأ إلى مصر واستقر بالفسطاط (٢).

وقد أشارت المراجع إلى اتخاذ الخليفة عبد المؤمن موقفاً صريحاً في فرض الإسلام على أهل الذمة في تونس حين تم فتحها (٣) يقول ابن الأثير « وتسلم البلد — أي تونس — وأرسل إليه من يمنح العسكر من الدخول وأرسل أمناء ليقاسموا الناس على أموالهم وأقام عليها ثلاثة أيام ، وعرض الإسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن امتنع قتل » (٤).

وقد أحاطت عدة ظروف بالخليفة عبد المؤمن دفعته لمثل هذا الإجراء : فالتشدد الديني الذي صاحب قيام الدولة ، وإتهام كل من يخالف مذهبه بالكفر ، مع استمرار الصراع المسلح في الأندلس ومساندة النصارى لأبناء دينهم ، واستمرار الحملات الصليبية وشروطها في المشرق مع خوف عبد المؤمن من دسائس وخيانات أهل الذمة وقد عايش ذلك بنفسه طبقاً للرواية التي تشير إلى أن جنود النصارى في جيش المرابطين هم الذين خانوا سادتهم وفتحوا أحد أبواب مراکش وبذلك مكّنوا الموحدين من احتلال المدينة (٥) وأنه حين فرض الإسلام بحمد السيف على أهل الذمة في تونس ، إنما كان في طريقه لتخليص المهديّة من يد الفرنج ومن يساعدهم من أهل الذمة ، ومن

(١) القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٠٩ ط ١ سنة ١٣٢٦ هـ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٠٩ ، د . محمد بحر عبدالمجيد : اليهود في الأندلس ص ٨٨ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٤٠٤ .
(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٥ ، الباجي : الخلاصة النقية ص ٥٥ ، ابن سعيد : نزهة الانتظار ، ج ١ ص ١٩٥ ، أبو عبد الله محمد : الحلل السندسية ص ٢٥١ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٦٣ .
(٥) أشباح : تاريخ الأندلس ج ١ ص ٢١٢ .

ثم أراد أن يؤمن خطوطه الخلفية ، كل هذه الظروف هي التي أدت في النهاية إلى هذا التصرف من جانب الخليفة عبد المؤمن ومع ذلك فهذا الموقف لا يقره الإسلام ، إذ أن القرآن يذكر صراحة الآية الكريمة التي تقرر « لا إكراه في الدين » ومن ثم فإن ولاية الأمر من المسلمين لا يسمح لهم بفرض الإسلام بالقوة .

ويبدو أن تصرفات الخليفة عبد المؤمن دفعت المراكشي إلى أن يصرح بخلو المغرب الأقصى من أهل الدمة في عهد الموحدين يقول « ولم تنعقد عندنا ذمة لليهودى ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة ، ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة إنما اليهود عندنا يظهرن الإسلام ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن جادين على ملتنا وسنتنا والله أعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم » (١) ومن هذا النص نفهم إسلام أهل الكتاب أو تظاهرهم بالإسلام ومن ثم فلم يكن هناك أهل ذمة في دولة الموحدين ، غير أن الأحداث والنصوص تشير إلى عكس ذلك ومنها :

أولاً : أن فرض الإسلام على أهل الدمة بتونس كان مرتبطاً بافتتاح المهدية وما فيها من الفرنج ، ولم تشر المراجع التي اطلعت عليها أن الخليفة عبد المؤمن أرغم أحداً من أهل الدمة في المدن المغربية الأخرى على إعتناق الإسلام .

ثانياً : استخدام الموحدين للنصارى في جيوشهم كما فعل المرابطون (٢) وقد استتبع ذلك وجود أحياء في مراكش لإقامتهم (٣) .

ثالثاً : ومما يؤكد وجودهم بالعاصمة مراكش أنه حين حدث قحط في عهد المنصور الموحدى خرجت طوائف المدينة كلها ومنها اليهود والنصارى للاستسقاء والدعاء يقول عباس المراكشي في ترجمته لأبي العباس السبتي المتوفى سنة ٦٠١ هـ « ومن بركاته رضى الله عنه ، أن أهل مراكش قحطوا

(١) المراكشي : المعجب ص ٣٠٥ .

(٢) الصديق بن العربي : طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب ص ١٥٤
مجلة تطوان عدد ١ سنة ٥٦ ،

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٦٦ .

في زمان يعقوب المنصور رحمه الله تعالى فأمر الناس بالخروج حتى لم يبق في المدينة أحد وخرج إليها اليهود والنصارى والبهائم والنساء وأولادهم . . . (١).

رابعاً : لم يكن وجودهم قاصراً على العاصمة ، بل كانوا في أماكن متفرقة من البلاد فقد كانت هناك جالية يهودية تعيش في إحدى قلاع جبل فازاز (٢) .

خامساً : وجود طائفة منهم تشتغل بالبناء في مدينة سجلماسة (٣) وكانوا يشكلون طبقة غنية في مدينة فاس سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م يقول صاحب كتاب الاستبصار « وأما الآن — سنة ٥٨٢ هـ — فهم تجار أهل هذه البلاد كلها وأغنياؤها وخاصة بمدينة فاس فلأن عاينت منهم من يقال أن عنده المال الممدود ورجالا كثيرين » (٤).

سادساً : أن المنصور الموحدى أصدر أوامره بتغيير زى اليهود المقيمين في البلاد (٥) يقول المراكشي « وفي آخر أيام أبي يوسف أمر أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك بثياب كحلية ، وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قرب من أقدامهم ، وبدلاً من العمام كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم فشاع هذا الزى في جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدرأ من أيام ابنه أبي عبد الله (٦) وبطبيعة الحال لا يمكن أن ينفذ هذا القانون ويطبق هذا الزى إلا في إناس يعيشون في البلاد ويراد تمييزهم عن غيرهم من بقية طوائف الشعب .

وهكذا مما سبق نستخلص أن أهل الذمة من المسيحيين واليهود عاشوا في البلاد في ظل الموحدين وأنهم واجهوا في عهد الخليفة عبد المؤمن تشدداً نتيجة للظروف والأحداث التي كانت تمر بها البلاد .

(١) عباس المراكشي : الأعلام ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢) مجهول : الاستبصار ص ١٨٧ .

(٣) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٢ .

(٤) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٢ .

(٥) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ١٨٠ ، ١٨١ تطوان .

(٦) المراكشي : المعجب ص ٣٠٤ .

الفصل الثالث

البناء والتعمير

شهد المغرب الأقصى حركة كبيرة في ميدان البناء والتعمير منذ قيام دولة المرابطين حتى عهد الناصر الموحدي ، وقد شملت حركة البناء والتعمير تنوعاً وكثرة فن بناء مدن — ويأتي في مقدمتها مدينة مراكش عاصمة المرابطين والموحدين — إلى منشآت عسكرية من حصون وقلاع وأسوار ، وبجانب ذلك تلك المنشآت العامة التي انتشرت في أنحاء البلاد كالمساجد والمدارس والمستشفيات والحمامات والفنادق والقناطر وغير ذلك من المنشآت .

وقد حظت بعض المدن المغربية بكثرة المباني العامة التي أنشئت فيها ومن هذه المدن مدينة فاس التي امتلأت بكثير من المنشآت العامة (١) حيث بلغ عدد المساجد بها سبعمائة وخمسة وثلاثين ، ودور الوضوء اثنين وأربعين والسقايا ثمانين والحمامات ثلاثة وتسعين (٢) كذلك الطريق الموصل بين تلمسان وفاس ومقداره عشرة أيام ، هذه المسافة كانت كلها عمائر متصلة (٣) وهذا يشير إلى الازدهار العمراني الذي شهدته البلاد ، ويعلل ذلك باهتمام ولادة الأمر من المرابطين والموحدين بحركة البناء والتعمير . مع توفر الأموال والخبرة المعمارية ، كل هذا أسهم فيما حققته المنطقة من تقدم عمراني .

وكان لولادة الأمر دور هام في تشجيع البناء والتعمير ، فأمر المسلمون يوسف بن تاشفين بدأ نشاطه في التعمير والبناء ببناء عاصمته مراكش ، ثم واصل بعد ذلك نشاطه في تنمية حركة البناء بالبلاد (٤) وواصل أمير المسلمين

(١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٢٨ ، عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٠٣ د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٥٨ .

(٢) الجيلالي : رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس ص ٥٧ ، الجزنائي : زهرة الآس ص ٣٣ .

(٣) مجهول : الاستبصار ص ١٨٦ .

(٤) مانويل جوميث : الفن الإسلامي في إسبانيا ص ٣٣٧ ترجمة د. لطفي عبد البديع — الترجمة والنشر ، عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٠٣ ، أشباح : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٢٣٩ ،

على بن يوسف اهتمامه بالبناء كانشائه لمسجد تلمسان والتوسعة في جامع القرويين (١).

حتى إذا قامت الدولة الموحدية ، شهدت البلاد اهتماماً بالغاً من خلفاء الموحدين في الإنشاء والتعمير سواء في المغرب أو الأندلس ، وحظيت مراكش والرباط وغيرها من المدن المغربية بكثير من المنشآت الموحدية (٢) وقد أولى الخليفة عبد المؤمن إهتمامه بالبناء والتعمير ومن ذلك إنشائه لمدينة الفتح وبجانب ذلك إنشائه لكثير من المساجد والقصور في أنحاء مختلفة من البلاد (٣) .

واقتردى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بوالده في الاهتمام بالبناء والتعمير وخاصة بالأندلس (٤) فلما تولى المنصور الموحدي كان مولعاً بالبناء والتعمير وشهدت البلاد في عهده حركة كبيرة في البناء استمرت طيلة عهده ، وفي ذلك يشير المراكشي بقوله « كان مهتماً بالبناء وفي طول أيامه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يعمرها (٥) » ونالت العاصمة مراكش نصيباً كبيراً من الإنشاء والتعمير في عهده بجانب المدن الأخرى (٦) وقد أشار ابن أبي زرع إلى بعض هذه المنشآت بقوله « وكان — أي أبو يعقوب المنصور — لما جاز

Budgett meakins ; The moorish Empire, P ; 53-54

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٩ .

(٢) المنوني : العلوم والفنون ص ٢٤٣ .

(٣) ابن عيود : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٣٣ ، عبد العزيز بنعبد الله :

المعجم التاريخي ص ٧٤ ، احسان حقي : المغرب العربي ص ٦٢ ، د. السيد

عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٨٣٥ ،

Budgett Meakins ; The moorish Empire, P ; 73.

(٤) الميلي : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٢٩ ، اشباح : تاريخ الأندلس

ج ٢ ص ٢٥٤ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٨٣٦ .

(٥) المراكشي : المعجب ص ٢٩٢ .

(٦) العمري : مسالك الأبصار ج ٣ ، ق ١ ص ١٣٢ ، ابن المؤقت :

السعادة الأبدية ج ١ ص ١٤ .

إلى الأندلس لغزاة الأرك المذكورة أمر ببناء قصبة مراکش وبناء الجامع المكرم الذي يلزأ القصبة وصومعته ، وبناء منار الكتبيين ، وبناء مدينة رباط الفتاح من أرض سلا وبناء جامع حسان ومنارته . . . » (١) وهكذا كان اهتمام ولادة الأمر من المرابطين والموحدين دافعا قويا في دفع عجلة البناء والتعمير في أرجاء البلاد .

طابع البناء : كان لموقع المغرب الأقصى والظروف التي مر بها ، دور واضح في تأثيره بالطرق المختلفة في التشييد والبناء ، فنجد أن صار لإقليميا إسلاميا وتأسست على أرضه دولة الأدارسة ، حتى أصبح مقصدا للأسرات العربية الواحدة من القيروان بالإضافة إلى الوافدين من مدن المشرق ، وقد حمل الوافدون معهم خبراتهم في طريقة البناء ، ومن ثم ظهرت المؤثرات الشرقية في عمليات البناء في هذه الفترة في بناء المساجد والحمامات وغيرها من المنشآت العامة .

حتى إذا قامت دولة المرابطين وأصبح الأندلس إقليما تابعا للمغرب الأقصى ، شاهد أمراء المرابطين تلك المهارة الفائقة التي تميز بها عمال البناء بالأندلس ، والتي تجلت في تلك المنشآت من قصور ومساجد وحمامات وغيرها ، ومدى ما وصلت إليه تلك المباني من إحكام في الصنعة ، ودقة في التشييد ، ومن ثم قرر ولادة الأمر الاستعانة بخبراء البناء في الأندلس ليسهموا في حركة التعمير بالمغرب الأقصى (٢) .

وقد قام يوسف بن تاشفين بإحضار المهندسين وعمال البناء من الأندلس

(١) ابن أبي زرع : الانيس المطرب ص ١٦٦ طبع حجر .

(٢) م.س ديماند : الفنون الإسلامية ص ١١٣ ، ١١٤ ، ترجمة أحمد عيسى ، السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٤٧ ، محمد الشابي : أضواء على الآثار الإسلامية ص ٢٠ تونس سنة ١٩٦٦ ، د. زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ١٧ ، ١٨ ، ط ١ سنة ٤٨ ،

ليستعين بهم في حركة البناء التي قام بها بمدينة فاس^(١) ، كذلك أمير المسلمين على بن يوسف الذي استعان بخبراء الأندلس في بناء قنطرة على وادي تنسيفت^(٢) .

وجرى خلفاء الموحدين على نفس هذه السياسة وهي الاستعانة بخبرة أهل الأندلس وبرزت بعض الأسماء الأندلسية المشهورة كأحمد بن باسة الذي استعان به الموحدون في كثير من أعمال البناء^(٣) والحاج يعيش المالقي الذي اشترك في بناء حصن جبل طارق^(٤) وكان المنصور الموحدى يستخلم أسرى الأندلس في أعمال البناء بعاصمته^(٥) يقول الحميرى « ثم رجع المنصور بعد انتصاره في الأرك — إلى أشبيلية ظافراً وأقام مدة ثم غزا بلاد الجوف فحاصر ترجالة ونزل على بلنسية ففتحها عنوة ، وقبض على قائدها يومئذ مع مائة وخمسين من أعيان كفارها ، ووجههم إلى خدمة بنساء الجامع الكبير مع أسارى الأرك »^(٥).

وأثمرت الخبرة الأندلسية ثمرتها بأرض المغرب الأقصى ، وظهرت في تلك المنشآت والأبنية كجامع القرويين بفاس وجامع تلمسان^(٦) ثم في جامع

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٤٠ ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١١ ، مانويل جوميث : الفن الاسلامى ص ٣٣٧ ترجمة د. لطفى عبد البديع .

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٤٨ ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١١ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٣٩ حاشية ، عنان : مصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٧١ .

(٤) د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٨٣٥ ،

De Gayangos ; The History of mohamedan, V.2 P; 315

(٦) ابن المؤقت : الانبساط بتلخيص الاغتباط ص ٦ ، ٧ مطبعة الحلبي سنة ١٣٤٧ هـ ،

Budgett meakins ; The moorish Empire, P ; 80

(٥) الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ص ١٣ .

(٦) م.س ديماند : الفنون الاسلامية ص ١١٤ ، مانويل جوميث : الفن الاسلامى ص ٣٤٢ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٩ ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٥٢ .

الكتيبة وجامع القصبية بمراكش وجامع حسان برباط الفتح وقصبتها (١).

وبمرور الزمن لم يعد المغرب الأقصى مقتصرأ على استقبال عمال البناء من الأندلس ، بل صار أبناؤه بعد الاحتكاك والممارسة لأعمال البناء يشاركون في أعمال البناء في الأندلس فضلا عن أعمال البناء بمدن المغرب نفسها ، أى صار المغرب الأقصى مؤثراً بعد أن كان متأثراً فقط ، وقد ظهر ذلك حين عزم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على بناء الجامع الكبير بأشبيلية إذ استعان بخبراء البناء في مراكش وفاس وأهل العدو بالإضافة إلى الأندلسيين في بناء هذا الجامع الكبير (٢) يقول ابن صاحب الصلاة « وفي هذه السنة — سنة ٥٦٧ هـ — في شهر رمضان ابتدأ أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن باحتطاط موضع هذا الجامع العتيق للأنيق ، فهدمت الديار داخل القصبية ، وحضر على ذلك شيخ العرفاء أحمد بن باسة وأصحابه العرفاء البنائون من أهل أشبيلية وجميع عرفاء أهل الأندلس ومعهم عرفاء النائيين من أهل حضرة مراكش ومدينة فاس وأهل العدو ، فاجتمع بأشبيلية منهم ومن أصناف النجارين والشارين والفعلة لأصناف البناء أعداد من كل صنف صناع مهرة في كل فن من الأعمال (٣) » .

وقد امتازت مباني المرابطين بالضخامة والقوة والانتساع مع الإقلال من الزخرفة (٤) وهذا يتمشى مع المبدأ الدينى الذى نشأوا عليه مع ميلهم إلى البساطة وقد حظيت المساجد باهتمامهم ، حيث حرص أمراء المسلمين على بنائها في أنحاء البلاد ، نشرأ للدعوة الإصلاحية التى ينادون بها وقد تميزت هذه المساجد بأنها « فسيحة ضخمة الأبنية ذات رحبات فسيحة مكشوفة تحيط بها أروقة ذات عقود مستديرة بسيطة الانتساع ، كل رواق منها بلاطة واحدة

(١) د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٨٣٢ ،

Nevill ; a Surver of North africa, P; 25.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ص ٥٨ سلسلة اقرا ٩٠ سنة ٥٨ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٧٢ .
(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٧٤ ، ٤٧٥ .
(٤) د. حسين مؤنس : تطور العمارة الاسلامية في الأندلس ص ٢١٦
جامعة فؤاد سنة ١٩٥١ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٩ .

تقوم على دعامات ضخمة قصيرة الجذوع والقواعد ولا تيجان لها ، وتمتاز كذلك بصحون فسيحة تقوم على عمد من نفس الطراز السالف ، ومآذنها منفصلة عنها تقوم إلى جانبها أشبه ما تكون بالمئذنة العالية^(١) .

ومع عدم ميل المرابطين إلى الزخرفة ، إلا أنهم أباحوا ذلك في بعض مساجدهم وذلك ما حدث في جامع القرويين بفاس أثناء توسعته سنة ٥٣٣ هـ - ١٣٨١ م حيث زين محرابه وقبته بأنواع مختلفة من الزخرفة والنقش^(٢) وقد وصف الجزنائي ألوان النقش والزخرفة التي صنعت بالمسجد بقوله « وأخذ في عمل القبة التي بأعلى المحراب وما يحاذيها من وسط اللاطين المتصل بهما فعل ذلك بالحص القربس الفاخر الصنعة والنقش فيه على المحراب ، ودائرة القبلة التي عليه ، وزقش ذلك كله بورقة الذهب واللازورد وأصناف الالصغة وركب في الشمامات التي بجواب القبة أشكال متقنة من أنواع الزجاج وألوانه على أحسن ما أريد ثم أخذ في تغشية بعض أبواب الجامع بصفائح النحاس الأصفر بالعمل المحكم والشكل المتقن^(٣) » .

غير أن هذه الزخرفة وجدت إغراضاً من الخليفة عبد المؤمن في بدء عهده اقتداء بتعاليم ابن تومرت الدينية في البعد عن النقش والزخرفة ، ومن هنا حين دخل عبد المؤمن مدينة فاس حرص أهلها على تغطية النقوش من الزخرفة التي يجامعها خوفاً من بطش عبد المؤمن^(٤) يقول الجزنائي « ويذكر أن النقش والتذهيب الذي كان بأعلى المحراب ودائر القبة التي عليها غطي ذلك بالكاغيد وعمل عليه الحص حين عزم الخليفة عبد المؤمن بن علي الدخول لفاس والصلاة في الجامع المذكور لأن ذلك كان مشغلاً للمصلين^(٥) » إلا أنه بعد أن استتب الأمر للخليفة عبد المؤمن أخذ بأسباب الزخرفة في المباني ،

(١) الجزنائي : زهرة الآس ص ٥٨ .

(٢) المنوني : العلوم والفنون ص ٢٦٧ ، د. حستن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي ج ٤ ص ٦٢١ .

Nevill Barbour ; morocco P ; 76.

Julien ; Histoire de L'afrique, P ; 120.

(٣) الجزنائي : زهرة الآس ص ٥٨ .

(٤) المنوني : العلوم والفنون ص ٢٦٧ .

(٥) د. حسين مؤنس : تطور العبارة الاسلامية ص ٢١٧ .

واتبعه ابناءؤه من الخلفاء وخاصة بعد اتصالهم بالأندلس واستعانهم بخبراء الأندلس في البناء وصارت مبانيهم ناطقة بذوقهم في الزخرفة التي تجمع بين رقة الأندلس مع الفخامة والقوة^(١) وقد تجلى ذلك في مسجد الكتبية بمراكش بمنارته العالية ذات الطلقات الهرمية والشرفات المتوالية^(٢)

المسكن :

تأسست عدة مدن على أرض المغرب الأقصى خلال حكم المرابطين والموحدين وقامت هذه المدن بدورها الحضارى في تقدم المنطقة ، حيث قام ولاية الأمر بإنشاء العديد من المنشآت في هذه المدن ، وقصدها الكثير من سكان البلاد ، وأقاموا بين جنباتها يمارسون نشاطهم ، مما ساهم في دفع عجلة التقدم بالبلاد ويأتى في مقدمة هذه المدن مدينة مراكش عاصمة المرابطين والموحدين والتي ما زالت تحتل مركزاً ممتازاً بين مدن المغرب الأقصى .

مراكش : اتخذ المرابطون ومن جاء بعدهم من الموحدين مدينة مراكش عاصمة لهم تلك المدينة التي أنشئت في عهد المرابطين ، وقبل لإنشائها اتخذ المرابطون مدينة أغمات عاصمة لهم^(٣) واختلفت الدوافع في بناء العاصمة الجديدة :

١ - فبعض المراجع تشير إلى ازدحام مدينة أغمات بقبائل المرابطين القادمين من الجنوب مما جعل أهلها يشكون لأبي بكر بن عمر الذي أخذ يبحث عن مدينة جديدة تضم الوافدين الجدد^(٤) وقد نجحت تلك المساعي في اختيار المكان الحالي بمدينة مراكش ووضع أساس المدينة^(٥) .

٢ - وبعض المراجع يشير إلى أن الهدف من بنائها كان هدفاً استراتيجياً

-
- (١) ابن القاضي : جفوة الاقتباس ص ٤٢ .
(٢) د. حسين مؤنس : تطور العمارة الإسلامية ص ٢١٧ .
(٣) ابن سعيد : بسط الأرض ص ٥٩ ، العمري : مسالك الإبحار ج ٣ قسم أول ص ١٤١ ، رابع بونار : المغرب العربي ص ٢٣٨ .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٩ ، أشباح : تاريخ الأندلس ج ١ ص ٧٠ ، لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ٥ ، ٦ ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٩ بيروت .

عسكرياً إذ أن موقعها كان في مفترق طرق الأطلس والصحراء فهي قريبة من مواطن المصامدة الذين يشكلون غالبية السكان وفي نفس الوقت أكثرهم قوة ومن هنا كان اختيار العاصمة بجوار ديارهم لمراقبة تحركاتهم وقمعها قبل استفحالها ، وبجانب ذلك فهي قريبة من صحراء المرابطين ومواطن لمتونة حيث الامدادات العسكرية تصلها في سهولة ويسر وفي وقت قصير^(١) يشير إلى ذلك المراكشي بقوله « ولم تتخذ لمتونة المصامدة — أي المرابطين والموحدين مدينة مراکش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الأشياء ، ولكن لقرب مراکش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة ، فلهذا السبب كانت مراکش كرسى المملكة »^(٢) .

٣ — وبعض المراجع يشير إلى أ. الدوافع وراء اختيار العاصمة الجديدة هو ازدياد نفوذ يوسف بن تاشفين وذبوع صيته وكثرة جنده وحاشيته مما استلزم معه اتخاذ عاصمة جديدة تناسب مع قوة الدولة النامية^(٣) .

وهذه الأهداف المختلفة يمكن أن تتجمع وتصب في وعاء واحد هو حاجة المرابطين لمدينة جديدة ، فازدحام مدينة أنجماط بالسكان مع حرصهم على مراقبة قبائل المصامدة يضاف إلى ذلك ازدياد نفوذ يوسف بن تاشفين مما جعلهم يبحثون عن عاصمة جديدة لهم .

وتختلف المراجع في تحديد السنة التي بدأ المرابطون فيها تأسيس عاصمتهم فلسان الدين بن الخطيب يحدد تاريخ بنائها بسنة ٤٠٢هـ^(٤) بينما ابن عذاري يحدد تاريخ البناء بسنة ٤٦١هـ / ١٠٦٩م^(٥) أما صاحب كتاب الاستبصار

(١) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٩ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٧٩ ابن خلدون ، العبر ج ٦ ص ٢٢٥ ، عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٠٢ ، الجزائلي : زهرة الآس ص ٣٠ ، عباس المراكشي : الاعلام ج ١ ص ٦٣ . P 51 ; morocco , Nevill Barbour

(٢) المراكشي : المعجب ص ٣٥٨ .

(٣) ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ٣٩ ت الفيلالي ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ١ ص ١٣ ، ابن سعيد : نزهة الانتظار ، ج ١ ص ١٧٥ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٢٤ .

(٤) لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦ .

(٥) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ١٩ بيروت .

فيشير إلى أن تاريخ تأسيسها كان في سنة ٥٩٤هـ / ١٠٦٧م^(١) بينما ابن أبي زرع وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين يشيرون إلى أن بناءها تم في سنة ٥٥٤هـ / ١٠٦٢م^(٢) وبمناقشة التواريخ المختلفة نجد أن سنة ٤٠٢هـ لم تكن قد تأسست بعد قوة المرابطين في صحراء لمتونة فضلا عن تولى أبي بكر بن عمر إمارة المرابطين فقد تولاها سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م ، أما تاريخ سنة ٤٦١هـ - ١٠٦٩م والذي أشار إليه بن عذارى حيث ذكر أن أشياخ وريكة وهيلانة اشتكوا لأبي بكر بن عمر ازدحام المدينة^(٣) ففي هذه الفترة كان أبو بكر قد ترك المغرب الأقصى متجهاً إلى الجنوب للإصلاح بين القبائل المتنازعة ، وفي رواية أخرى أنه توجه لجهاد الكفار في إقليم السودان ، وقد سبق الإشارة إلى ذلك ، وتبقى بعد ذلك رواية صاحب كتاب الاستبصار وهي سنة ٤٥٩هـ - ١٠٦٧م والتي انفرد بها^(٤) ومعها رواية مجموعة من المؤرخين وهي سنة ٥٥٤هـ .

وأعتقد أن تاريخ سنة ٥٥٤هـ / ١٠٦٢م هو الأرجح لاتفاقه مع سير الأحداث ، فأبو بكر بن عمر حين اتجه إلى الصحراء كان ذلك في سنة ٤٥٢هـ - ١٠٦٠م^(٥) ، ويبدو أن شكوى أغمت بدأت قبيل هذا التاريخ مما استلزم معه البحث عن مكان ، وما إن شرع في التخطيط له حتى جاء للأمير أبي بكر شكوى أهل الصحراء ، ومن هنا ترك يوسف بن تاشفين مكانه وطلب منه مواصلة المشروع يؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى بقوله « لما توجه الأمير أبو بكر بن عمر إلى الصحراء ولاء مكانه ، وترك معه الثلث من لمتونة اخوانه فاشتغل ببناء مراکش وتحصينها . . . وكان يكاتب الأمير أبا بكر بكل ما يصنع

(١) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٨ .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٣٩ ت الفيلاي ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٤ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ ت العبادي ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٢٤ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٩ بيروت .

(٤) د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٠٢ .

(٥) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٣١ ت

العبادي .

فيشكر»^(١) إذن محاولات البحث والتخطيط كانت سنة ٨٤٥٢ / ١٠٦٠ م سنة انتقال أبي بكر إلى الصحراء ، ثم بدأ تنفيذ المشروع سنة ٤٥٤ / ١٠٦٢ م ، وهي السنة التي أشار إليها ابن أبي زرع وابن خلدون وغيرهما إلى أن تأسيس المدينة كان سنة ٨٤٥٤ / ١٠٦٢ م .

— أما اسم المدينة وهو لفظة مراکش فقد عللها السلاوي وابن عبود بأن معناها في لغة المصامدة : امش مسرعاً حيث أن المكان الذي أنشئت فيه كان مكنماً للصوص فكان المارة يقولون لرفقائهم تلك العبارة فعرف الموضع بها^(٢) أما المراكشي فقد أشار إلى أن مراکش هي اسم لعبد أسود كان يقيم في المنطقة ويقطع الطريق على المارة^(٣) .

وقد بدأ البناء بالمدينة متواضعاً وشارك في أعمال البناء يوسف بن تاشفين يقول ابن أبي زرع والسلاوي « فسكن — أي يوسف بن تاشفين — الموضع بنحيايم الشعر وبني فيه مسجداً للصلاة ، وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه ولم يكن على ذلك سوراً ، وكان رحمه الله لما شرع في بناء المسجد يحترم ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعاً منه »^(٤) وربما كانت مشاركة يوسف في أعمال البناء تشجيعاً لمن حوله على المساهمة في ذلك وبذلك تناسس المدينة في وقت قصير ، فلما تولى أمير المسلمين علي بن يوسف بني فيها قصره المعروف بدار الحجر وأدار عليه الأسوار^(٥) .

حتى إذا قامت دولة الموحدين ، شهدت العاصمة ازدهاراً وتقدماً في ظل خلفاء الموحدين الذين اهتموا بها اهتماماً كبيراً ، وذلك ببناء الكثير من المنشآت بها ، وقصدها الناس من كل مكان ، وذلك ليعيشوا في العاصمة ينعمون بما

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٢١ ، ٢٢ بيروت .

(٢) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٢٤ ، ابن عبود : تاريخ المغرب

ج ١ ص ١١٤ .

(٣) المراكشي : المعجب ص ١٠٠ .

(٤) ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ٤٠ ت الفيلالي ، السلاوي :

الاستقصا ج ٢ ص ٢٥ .

(٥) الإدريسي : وصف المغرب ص ٦٧ ، ابن سعيد : نزهة الانظار

ج ١ ص ١٧٥ ، مجهول : الاستبصار ص ٢٠٩ ، ابن خلدون : العبر ج ٦

ص ١٨٤ ، د. أحمد شلبي : التاريخ الاسلامي ج ٤ ص ١٨٢ .

تنعم به العاصمة من ازدهار وتقدم حتى اكتظت العاصمة بسكانها مما دفع الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى إنشاء مدينة أخرى تكون امتداداً للعاصمة مراکش^(١) وفي ذلك يقول ابن عذارى « وفي سنة تسع وسبعين وخمسمائة أمر الخليفة أبو يعقوب رحمه الله بتوسعة مدينة مراکش وهدم سورها الأول وأقاموا سوراً آخر ، وذلك لما دانت لأمير المؤمنين المغرب والأندلس وإفريقية انجلى الناس إلى مراکش من كل مكان وتفاخروا في سكنائها بحسب القدرة منهم والإمكان . . فضاقت بالناس فلم يجدوا موضعاً للبناء ولا محلاً للسكنى ، وكان الأمير أبو يعقوب أمر القبائل مسكورة وصنهاجة أن يرتحلوا من بلادهم إلى سكنائها بأهلهم وبنهم فامتلأ ذلك ووصلوا ولم يجدوا حيث ينزلون فشكوا ضيقهم وحيرتهم^(٢) ومن هنا اضطر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى تكليف ابنه المنصور بالإشراف على هذا المشروع^(٣) فلما توفي الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وتولى خلفاً له المنصور الموحدى سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م واصل مشروعه في البناء وحشد له الخبراء والصناع والآلات وأمرهم ببذل كل جهد وفن في سبيل اتقان بنائها وسماها الصالحة^(٤) وضمت العديد من القصور والأسواق والفنادق^(٥) .

وهكذا شهدت عاصمة المرابطين والتي بناها يوسف بن تاشفين تطوراً ضخماً منذ إنشائها حتى عهد الناصر الموحدى ، إذ صارت كعبة للناس من كل مكان تزخر بالمنشآت والمباني المختلفة حافلة بمختلف أنواع النشاط مما دفع صاحب كتاب الاستبصار إلى وصفها بقوله « ومدينة مراکش اليوم من أعظم مدن الدنيا بهجة وجمالاً بما زاد فيها الخليفة الامام وخليفته أمير المؤمنين أبو يعقوب وخليفتهما أبو يوسف رضى الله عنهم^(٦) .

(١) Terrasse ; Histore du maroc, p : 333-334.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٠ ، ٥١ تطوان .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥١ تطوان .

(٤) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٨٢ .

(٥) مجهول : الاستبصار ص ٢١٠ .

(٦) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٩ .

مدينة تاقورت أو تلمسان الحديثة : وقد أنشأها المثلثون ، لتكون مقراً للإدارة العسكرية للمنطقة وليشرفوا منها على ما حولها من المناطق (١) وقد وصفها ياقوت بقوله « تلمسان بكسرتين وسكون الميم وسين مهجلة وبعضهم يقول تنمسان بالنون عوض اللام وهما مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر إحداهما قديمة والأخرى حديثة والحديثة اختطها المثلثون ملوك المغرب واسمها تاقورت فيها يسكن الحند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس واسم القدمة أقادير يسكنها الرعية فهما كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر » (٢).

مدينة تاودا : وقد أنشأها المثلثون لتكون قاعدة يراقبون منها قبائل غمارة وكان يقيم فيها الحاكم العسكري للمنطقة ومعه جنوده ، وقد حفلت بالمباني والقصور (٣) وقد وصفها الإدريسي بقوله : « والطريق من مدينة فاس إلى بني تاودا مرحلتان وهذه المدينة بناها أمير من قبل المثلث ، وكانت مدينة قائمة بلداتها لكثرة زرعها ومفيد غلاتها وغزر ألبانها وسمها وعسلها وأسواقها عامرة وخيراتنا وافرة ، وكانت على مقربة من جبل غمارة ، وكانت بمكانها شبه الثغر سداً مانعاً من طغاة غمارة العابثين بتلك النواحي المغيرين على جوانبها » (٤)

مدينة القصر : وقد بناها أحد أمراء المثلثين لتكون مقراً له وبني فيها قصراً لسكناه وأسرته ولم تكن مزدهرة كغيرها من المدن (٥) وقد وصفها الإدريسي بقوله « وهذه المدينة — أي مدينة القصر — بناها أمير من أمراء المثلثين وجعل لها سوراً حصيناً وبني بها قصراً حسناً ، ولم تكن بها أسواق كثيرة ولا طائل تجارات وإنما كان ذلك الأمير يسكنها مع جلة بني عمه . . » (٦)

(١) عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٠٤ ،

Terrasse ; Histoire du maroc, p ; 256

Murphy ; The History of the mahometan, p : 125

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٧٠ .

(٣) مجهول : الاستبصار ص ١٩٠ .

(٤) الإدريسي : وصف المغرب والاندلس ص ٨١ .

(٥) ابن سعيد : نزهة الانظار ج ١ ص ١٧ .

(٦) الإدريسي : وصف المغرب ص ٧٧ ، ٧٨ .

رباط الفتح : اهتم خلفاء الموحدين بالبناء والتعمير ، وكما نجح المرابطون في تخليد ذكراهم ببناء العاصمة ، راكمش التي ما زالت تؤدي دورها الحضاري بالمغرب الأقصى ، فإن الموحدين بنوا مدينة رباط الفتح ، والتي أصبحت الآن عاصمة المغرب الأقصى .

وتقع مدينة رباط الفتح بالقرب من مدينة سلا ، وقد شُيّت في بادية الأمر بالمهدية تيمنا باسم المهدي ابن تومرت ، واتخذها عبد المؤمن في بادية الأمر كقاعدة عسكرية لتجهيز جنوده (١) ، ثم شيد بها بعض المنشآت وسكنها الناس سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م (٢) .

وهكذا بدأت المدينة كمعسكر لاستقبال جند الخليفة عبد المؤمن ، ثم أمر الخليفة بتطويرها ومدّها بالمياه ، وإقامة الأسوار ، ومن ثم بدأت القصبة تستقبل أفواجا من الناس ، وتصبح نواة لمدينة كبيرة ، حتى إذا تولى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، اهتم بتوسيعها وزيادة فيها ، حيث بدأ ببناء أسوارها من جهة الشمال والغرب (٣) غير أن المنية عاجلته وتولى خلفاؤه المنصور الموحدي الذي أقام فيها عدة منشآت ، وشهدت المدينة على يديه تقدما وازدهارا (٤) يقول المراكشي « وأما المدينة - أي رباط الفتح - فتمت في حياة أبي يوسف ، وكملت أسوارها وأبوابها وعمر كثير منها ، وهي مدينة كبيرة جداً تجيء في طولها نحواً من فرسخ وهي قليلة العرض ، ثم خرج بعد أن رتب أشغال هذه المدينة ، وجعل عليها من أمناء المصامدة من ينظر في أمر نفقاتها وما يصلحها فلم يزل العمل فيها وفي مسجدتها المذكور مدة ولايته إلى سنة ٥٩٤هـ (٥) .

-
- (١) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٠٩ .
 (٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ .
 (٣) نفس المرجع السابق ص ٤٤٩ .
 (٤) مجهول : الاستبصار ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، المراكشي : المعجب ص ٣٥٩ ، ابن المؤقت : الانبساط بتلخيص الاغتياب ص ٦ ، ابن القنفذ : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ص ١٠٣ ، مجهول : تواريخ مدينة فاس ص ٤٤ ، ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص ٢٤٥ .

Terrasse : Histoire du Maroc, P; 333-334.

Budgett : The Land of the Moors, P; 167.

(٥) المراكشي : المعجب ص ٢٢٦ .

وقد جاء بناء المدينة مشابهاً لمدينة الاسكندرية من حيث اتساع الشوارع وحسن التقسيم ، واتساع البناء وتحسينه وتخصيصه وبناها على البحر المحيط (١).

وقد احتلت مدينة رباط الفتح مكانة طيبة من نفس المنصور الموحدى ، حتى أنه عزم على الانتقال إليها وجعلها عاصمة البلاد إلا أن المنية عاجلته (٧) يقول ابن عذارى « ثم تمكنت صحته — أى صحة المنصور الموحدى — واستقامت راحته فروح إلى رباط الفتح فاغتبط بسكناه وعزم على الانتقال الكلى إليه » (٣) وقد أنفق المنصور الموحدى أموالاً طائلة في توسيع مدينة رباط الفتح وإقامة منشآتها (٤).

نظام المدن :

وجه ولاية الأمر من المرابطين والموحدين عنايتهم واهتمامهم تجاه المدن المغربية حتى تيسر سبل الحياة ومتطلباتها لسكان هذه المدن ، وفي مقدمة ما اهتم به ولاية الأمر ، توفير المياه اللازمة ليشرب منها الناس والدواب واستخدامها في مصالحهم الأخرى ، وفي مقدمة هذه المدن العاصمة مراکش حيث حفرت فيها الآبار ليشرب منها الناس ، وذلك في بدء بنائها ، يقول ابن أبي زرع « ولم يكن بها ماء فحفر الناس بها آباراً فخرج لهم الماء على قرب فاستوطنها الناس » (٥). ثم وفد على المدينة عبد الله بن يونس — ولم تشر المراجع إلى جنسيته — والذي استطاع بمهارته أن يوفر الماء لسقي البساتين التي انتشرت بسبب الطريقة التي ابتكرها (٦) وقد أشار الادريسي إلى هذه الطريقة بقوله « وماؤها — أى ماء مدينة مراکش — الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة

التي

- (١) ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١٨٤ . ابن سعيد المغربي : بسط الأرض ص ٧٢ .
- (٢) ابن سعيد : بسط الأرض ص ٧٢ .
- (٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٥٢ تطوان .
- (٤) ابن أبي زرع : الأنيس ص ١٦٧ طبع حجر ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٦ .
- (٥) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٤٠ ت الفيلاى ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٢٥ .
- (٦) ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١٢ .

Neiviell Barbour : Morocco, P: 51.

(م ٢٥ — الحضارة)

هندسية حسنة استخرج ذلك عبد الله بن يونس . . وذلك أن هذا الرجل المذكور وهو عبيد الله بن يونس جاء إلى مراکش في صدر بنائها وليس بها إلا بستان واحد لأبي الفضل مولى أمير المسلمين . . فقصده إلى أعلى الأرض فلما إلى البستان فاحتفر فيه بئراً مربعة كبيرة الترييع . ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الأرض ومر يحفر بتدرج من أرفع إلى أخفض متدرجاً إلى أسفله بميزان حتى وصل الماء إلى البستان وهو منسكب مع وجه الأرض يصب فيه فهو جار مع الأيام لا يتغير . . « (١) ثم قام السكان وصنعوا مثله في استخراج المياه حتى كثرت البساتين والحنات (٢) .

وقد بدأ في عهد أمير المسلمين على بن يوسف جلب الماء إليها من عين خارج المدينة تبعد عنها عدة أميال ولكن المشروع لم يتم إلا في عهد الموحدين (٣) حتى إذا تولى الموحدون اهتموا بتوفير الماء بالعاصمة حيث بنى الخليفة عبد المؤمن صهريجين كبيرين لتجميع المياه ومنهما توزع المياه على المدينة (٤) فلما تولى الخليفة المنصور الموحدي أنشأ ساقية كبيرة وذلك في سنة ٥٨٥ هـ - ١١٨٩م (٥) يصفها صاحب كتاب الاستبصار بقوله « وما شرفاً به سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبو يوسف حضرته المكرمة أن أرسل في وسط المدينة ساقية ظاهرة مأوها ، ماء قصره المكرم ، تشق المدينة من القبلة إلى الخوف وعليها السقايات لسقى الخيل والدواب واستقاء الناس » (٦) . وهكذا شهدت العاصمة اهتماماً كبيراً من حيث توفير المياه ، وذلك مما ساعد على استقرار الحياة بها وازدهارها .

(١) الادريسي : وصف المغرب والأندلس ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٨ .

(٣) الادريسي : وصف المغرب ص ٦٨ ، ٦٩ ، ابن سعيد : نزهة الأبنظر ج ١ ص ١٣ ، عباس المراكشي : الأعلام ج ١ ص ٦٨ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٤١ .

(٤) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٥) ابن أبي زرع : الانيس ص ٢١٨ طبع حجر ، السلاوي : الاستبصار ج ٢ ص ١٨١ .

(٦) مجهول : الاستبصار ص ٢١٠ .

وتمتعت بأقى المدن المغربية بوفرة الماء بها فمدينة فاس كانت تتمتع بموقع ممتاز حيث كان يشقها نهر فاس إلى مدينتين صغيرتين : عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين ، وكان الماء بكثرة فى عدوة القرويين مما جعل انشاء متوفرة فى منازل عدوة القرويين (١) وقد حظيت فاس باهتمام الناصر الموحدى حيث أمر سنة ٥٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م بعمل ستاية بعدوة الأندلس وجلب إليها الماء من عين خارج المدينة (٢) .

وأما مدينة سلا فقد اهتم الخليفة عبد المؤمن بادخال الماء إليها عن طريق القنوات المتصلة بإحدى العيون المائية وذلك سنة ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م حتى يوفر مياه الشرب للناس والحيوانات وسقى الأرض (٣) إلا أن الاهمال أصاب مشروع المياه وقد ظهر ذلك واضحاً حين زار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن مدينة سلا سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م إذ رأى الماء فسد جريه ، وأسئ ماؤه وانتشر فى البطاح ومن هنا أمر بتجديد المشروع وأضاف إليه صهريجاً يتجمع فيه الماء ومنه يأخذ الناس مياه الشرب لهم ولدوابهم (٤) .

أما مدينة مكناسة فان الموحدين قد جلبوا لها الماء من عين خارجها يقول ابن غازى « وجلب إليها — أى إلى مدينة مكناسة — الماء على ستة أميال من عين طيبة الماء عجيبة القدر بموضع يقال لها تاحما وأجرى الماء إلى الباب الجوفى من أبواب الخادم وسمى باب الحمارة » (٥) وهكذا بذل ولاة الأمر جهدهم فى سبيل توفير المياه فى العديد من المدن المغربية .

ومما يتصل بنظام المدن ، تلك الطرق التى كانت تشق أحياءها وقصد أقيمت على جوانبها المنازل والخوانيت ، وكانت هذه الطرق ملتوية ومتعرجة

(١) ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٦ ، حركات : المغرب
مير التاريخ ص ٢٣٢ الادريسى : وصف المغرب ص ٧٥ .
(٢) الجزائى : زهرة الأس ص ٨٢ ، حركات : المغرب مير التاريخ
ص ٣٧٢ ، ابن أبى زرع : الأتيس ص ١٦٩ طبع حجر .
(٣) البيهقى : أخبار المهدي ص ١١٣ ، ابن صاحب الصلاة : تاريخ
المن ص ٤٨٨ السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١١٩ .
(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٤٩ .
(٥) ابن غازى : الروض الهتون ص ٢ .

بفاس (١) ، أما مدينة مراكش فقد حرص ولادة الأمر على جعل طرقها واسعة يقول الإدريسي « وكان بها — أى مدينة مراكش — أعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة وأرقبها واسعة ورحابها فسيحة » (٢) وهذا الاتساع فى الطرقات كى يتناسب مع مركز مراكش كعاصمة للبلاد حيث الاستقبالات والمواكب وغير ذلك مما يقتضى معه اتساع الطرقات . كذلك مدينة رباط الفتح والتي حاول المنصور جعل تنظيمها على نمط مدينة الاسكندرية إذ حرص على جعل طرقها واسعة مستقيمة (٣) .

وكذلك مما يتصل بنظام المدن تلك الأبواب التي أنشئت فى الأسواق المحيطة بالمدن ، إذ تعددت هذه الأبواب ، وقد ذكر القلقشندي أن عدد أبواب فاس القديمة أى فى عهد المرابطين والموحدين ؛ والجديدة فى عهد بنى مرين بلغت ثلاثة عشر باباً (٤) وقد أنشئت بعض الأبواب فى عهد المرابطين والموحدين ومن ذلك باب الشمايين بمدينة فاس سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م (٥) وأيضاً الباب الذى أنشأه المنصور الموحدي باب اكناور بمدينة مراكش (٦) وكانت هذه الأبواب تغلق ليلاً ومن هذه الأبواب أبواب مدينة مراكش (٧) وأبواب تلمسان (٨) وأبواب بجلماسة (٩) وغير ذلك من أبواب المدن .

المنازل والقصور :

شهدت المدن المغربية توسعاً فى بناء المنازل والقصور . وذلك منذ أن تأسست دولة المرابطين ، وكان ذلك نتيجة طبيعية للاستقرار السياسى الذى شهدته البلاد وما صحبه من ازدهار اقتصادى مما دفع الكثير إلى استيطان المدن ،

(١) روجيه : فاس فى عصر بنى مرين ص ٤٧ .

(٢) الإدريسي : وصف المغرب ص ٦٨ .

(٣) Budgett makins : The moorish, P; 81.

(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ١٥٦ .

(٥) الجيلانى : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس ص ٩٥ .

(٦) السلوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٤ .

(٧) التادلى : التشوف ص ٣٠٠ .

(٨) المراكشى : المعجب ص ١٨٣ .

(٩) التادلى : التشوف ص ١٦١ : ١٦٢ .

وهذا أدى بدوره إلى كثرة المنازل ، يضاف إلى ذلك تشجيع ولاية الأمر من المرابطين والموحدين على بناء القصور التي زخرت بها المدن المغربية . فالعاصمة مراكش زخرت بقصور الأمراء والقادة وكبار رجال الدولة (١) يقول الإدريسي « ومدينة مراكش في هذا الوقت من أكبر مدن المغرب الأقصى لأنها كانت دار إمارة لمنونة ومدار ملكهم وسلك جمعهم . وكان بها أعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة » (٢) ومن هذه القصور ، قصر الحجر الذي بناه أمير المسلمين علي بن يوسف (٣) .

حتى إذا سقطت دولة المرابطين ، وقامت على أنقاضها دولة الموحدين ، حظيت العاصمة مراكش باهتمام خلفاء الموحدين في بناء القصور ، فالخليفة عبد المؤمن شيد الكثير من القصور (٤) يقول المراكشي « وأقام عبد المؤمن رحمه الله بمراكش مرتباً للأمور المختصة بالملكة من بناء دور واتخاذ قصور واعداد سلاح . . » (٥) .

فلما تولى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، وازدهرت البلاد اقتصادياً وكثر المال بأيدي الناس ، أقبل الناس على بناء المنازل والقصور يقول ابن صاحب الصلاة « واغبط العالم به - أي بتجديد مبايعة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن - وبيعته ، وكثر المال في الأيدي من توالى سمحه وبركته وابتنوا بمراكش الديار العتيقة واغترسوا خارجها ، أينع حديقة . . » (٦) وقد ابتنى

(١) ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٣ ، عباس المراكشي :
الأعلام ج ١ ص ٩٨ .

S P Scott : History of moorish Empire, V.2. p;195

(٢) الإدريسي : وصف المغرب والأندلس ص ٦٨ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٦٧ ، عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ

المغرب ج ١ ص ١١١ .

(٤) العمري : مسالك الأبصار ج ١٦ قسم ٢ ص ٢٦٩ ، حركات:

المغرب عبر التاريخ ص ٣٧١ .

S.p.Scott History of moorish p;298.

(٥) المراكشي : المعجب ص ٢٠٧ .

(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٤٧ .

الخليفة يوسف بن عبد المؤمن القصور على الطريق من مراكش العاصمة حتى مدينة سلا قاعدة الجيوش الموحدية المتجهة إلى الأندلس (١).

ثم تابع الخليفة الموحدى سياسة والده في الإنشاء والتعمير ، وقد سبق أن أشرت إلى أن الخليفة المنصور بنى ضاحية امتداداً لمدينة مراكش وبها عدة قصور ومنشآت أخرى وذلك لتتناسب مع عظمة الدولة واتساعها مع حبه للبناء ذلك الحب الذى وصفه المراكشى بقوله « فإنه - أى المنصور الموحدى - كان مهتماً بالبناء وفى طول أيامه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يعمرها ، زاد فى مدينة مراكش فى أيامه زيادة كثيرة يطول تفصيلها » (٢).

وشاركت مدينة فاس أختها مراكش فى كثرة بناء المنازل والقصور (٣) يقول الادريسي « بمدينة فاس ضياع ومعايش ومبان سامية ودور وقصور ولأهلها اهتمام بجوانحهم ومبانيهم وجميع آلاتهم » (٤) .

وقد اختلفت طرق البناء من مدينة إلى أخرى وذلك بحسب الامكانيات والظروف الطبيعية المحيطة بالمدن ، فمدينة مراكش كانت منازلها فى بادئ الأمر مبنية من الطين والطوب المصنوع من التراب (٥) فلما أراد أمير المسلمين على بن يوسف بناء قصره استخدم الحجر المجلوب من جبل الجبلير القريب من مراكش (٦) أما مدينة فاس فقد استخدم أهلها الحجر والآجر والكلس فى أبنيتهم مع أسقف خشبية لمنازلهم (٧) ، .

وكان الطابع العام فى تنظيم البيت : باب يؤدى إلى دهليز يتناسب مع حجم البيت ومن الدهليز إلى صحن البيت حوله الغرف ، وقد تكون الدار أرضية أو ذات طابقين ، وإذا كانت دار كبيرة فقد يكون لها أمام الغرف أروقة

(١) نفس المرجع السابق ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٩٢ .

(٣) ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١٦ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٢ .

(٤) الادريسي : وصف المغرب والأندلس ص ٧٦ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٦٧ .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٦٧ .

(٧) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٥٥ .

تدفع عنها حر الشمس ومطر الشتاء ، وإذا توفرت المياه بالمدينة وذلك مثل مدينة فاس ، فإن الناس يصنعون فوارة في صحن الدار (١) .

وقد تكون طريقة البناء مشابهة لمباني إحدى المدن الشرقية كتشابه أبنية سجلماسة بمساكن الكوفة ، يقول ابن حوقل « وأبنيتها - أى سجلماسة - كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية » (٢) وهذا يرجع إلى وجود كثير من التجار الوافدين من الكوفة وغيرها من مدن المشرق وإقامتهم بسجلماسة للاشراف على تجارتهم مع غانة وغيرها ومن ها نقلوا معهم نظامهم في البناء .

وكانت بعض المنازل تؤجر لمن لا يملك منزلاً خاصاً به ، فأبو عبد الله محمد بن اسماعيل الهواري من أهل أنعمات وريكة وقد توفي سنة ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م بمراكش كان يؤجر منزلاً بأنعمات (٣) .

أما القصور فقد امتازت بالسعة والضحامة واشتهلتها على كل ما يحتاجه صاحب القصر يقول المنونى « ويكفى أن كل قصر من قصورها - أى قصور مراكش - مستقل بالديار والبساتين والحمام والاصطبلات والمياه وغير ذلك ، حتى يغلق الرئيس منهم بابه على جميع خوله وأقاربه وما يحتاج له أمر إلى خارج داره ولا يشتري شيئاً من السوق للمأكول ولا يقرىء أولاده في مكتب خارج » (٤) أما القصور التي بناها المنصور الموحدى ، فكانت مزودة بكل ما يلزمها « ذات أسوار عالية وبها مقر الخلافة بالإضافة إلى عدة ديار منها دار البلور ودار الريحان فكل دار محاطة باليساتين ، وأمام الخلافة والديار رحبة عظيمة تحمل طراد الخليل ، وفي رحبة القصر دار الكرمة والأضياف ، وفي هذه الرحبة المدرسة وهي مكان جليل به خزائن الكتب ، ومنها دار مخصصة لاورارة

(١) عد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٣ ، احسان حقى : المغرب العربى ص ٢٦٣ ، روجيه : فاس في عصر بنى مرين ص ٩٤ .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٠ .

(٣) التادلى : التشوف ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

(٤) المنونى : العلوم والآداب ص ٢٤٩ .

وفي ناحية من الضاحية المنشأة مقابر أكابر رجال الدولة ، كذلك كانت الرحبة بها أبواب تؤدي إلى عدة قاعات لرجال الدولة من أصحاب المهدي بن تومرت وأهل خمسين والطلبة ، وكذلك قاعات لاجتماعات القبائل على اختلافها ^(١).

وهكذا شهدت العاصمة وغيرها من مدن المغرب توسعاً في بناء الدور والقصور نتيجة للازدهار الاقتصادي وتشجيع ولاية الأمر للبناء .

منشآت عسكرية :

الحصون والقلاع :

أقام المرابطون والموحدون على أرض المغرب الأقصى سلسلة من القلاع والحصون وذلك لاحكام سيطرتهم على مناطق المغرب الأقصى ، ومراقبة القبائل خشية عصيانها وتمرد لها ، وانتشرت هذه القلاع والحصون من مراكش في الجنوب حتى مدينة فاس في الشمال ومن تلمسان في الشرق إلى طنجة في الغرب ^(٢) .

وقد حرص المرابطون منذ أن سيطروا على المغرب الأقصى على إقامة هذه الحصون في أماكن متفرقة من البلاد وخاصة فوق جبل درن وذلك لمراقبة المصامدة الكثرة الغالبة من سكانه ^(٣) ولذا بلغ عدد الحصون والقلاع فوقه ما يزيد على سبعين حصناً ^(٤) يضاف إلى ذلك مراقبة بقية القبائل التي كانت تعيش على أرض المغرب الأقصى كقبائل زناتة وقبائل برغواطة ، وبجانب ذلك فلم انشغال المرابطين بمعارك الأندلس ، استلزم معه تأمين ظهورهم بسلسلة من الحصون تأخذ على عاتقها مهمة مراقبة السكان في غياب

(١) نفس المرجع السابق ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٧١ .

(٢) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٢٨ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، عباس المراكشي ، الاعلام ج ١ ص ١٥٣ .

(٤) ابن سعيد : نزهة الانظار ج ١ ص ١١ ، الادريسي : وصف المغرب ص ٦٤ .

الجيش المرابطية المحاربة في ميدان الأندلس^(١).

وقد زادت حاجة المرابطين لهذه الحصون والقلاع حين اندلعت ثورة المهدي بن تومرت وتحركت قوات الموحدين للاستيلاء على مناطق المغرب الأقصى ، ومن هنا زاد أمير المسلمين علي بن يوسف هذه الحصون والقلاع وشحنها بالمقاتلين لمراقبة تحركات الموحدين يقول البيهقي « أخذ المجسمون — أي المرابطين — الحصون وبنوها في مواضع دارت بها الجبال من جميع الجهات لكي يقتصروا بها على الموحدين أعزهم الله . . »^(٢).

وكانت هذه الحصون تشيد من الحجارة والطوب ذات جدران سمكية وتتخللها أبراج نصف دائرية للمراقبة^(٣) وكان يقيم بهذه الحصون قوة عسكرية ومعها المؤن والعتاد ، ومن أشهر هذه الحصون : حصن امرجوا وهو على جبل مرتفع يشرف على وادي ورغة وهو مبني بالحجارة والخير^(٤) وقلعة تاسغيموت التي بناها ميمون بن ياسين وكانت بها قوة تقدر بمائتي فارس وخمسمائة من المشاة وهي على ثلاث كيلو مترات جنوب شرقي مراكش^(٥) وغير ذلك من القلاع والحصون .

فلما نادى ابن تومرت بدعوته لم يجد مكاناً آمناً سوى إحدى الحصون الطبيعية وهو تينمل الذي وجد فيه ابن تومرت موطناً حصيناً ، وموقعاً ممتازاً لينشر منه دعوته وتنطلق منه قواته دون أن يتمكن المرابطون من الوصول إليه وقد وصف ابن الخطيب مدى حصانته بقوله « ولا يعلم مدينة أحصن من تينمال لا يدخلها الفارس إلا من شرقها أو من غربها ، فأما غربها وهو

(١) . حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٩٨ .

(٢) البيهقي : أخبار المهدي ص ١٢٨ .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٤٤ ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٥٣ .

(٤) مجهول : الاستبصار ص ١٩٠ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٦٤ ، عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١ .

(٥) البيهقي : أخبار المهدي ص ١٢٨ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٦٥ .

الطريق إليها من مراکش بطريق أوسع ما فيه أن يمشى عليه الفارس وحده موسعاً ، وأضيقه أن ينزل من على فرسه خوفاً من سقوطه وذلك شرقها إلا أن الطريق مصنوعة في نفس الجبل ، تحت راكبها حافات وفوقه حافات وفيها مواضع مصنوعة بالخشب إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد ومسافتها على هذه الصفة نحو مسيرة يوم^(١) ثم زاد ابن تومرت في تحصينه^(٢) .

واتخذ الحصن عاصمة للدولة حتى سقوط مراکش ، وصار مكاناً مقدساً حيث دفن فيه المهدي والخليفة عبد المؤمن وابناؤه وهكذا لعب حصن تينملل دوراً بارزاً في استمرار دعوة الموحدين وبقائها .

وبنى الموحلون عدة حصون ولكنها لم تكن بالكثرة التي شيدها المرابطون وذلك لانضمام المصامدة وكانوا يشكلون غالبية السكان في المنطقة إلى الدعوة الموحدية في بدء عهدها ، ومن الحصون التي شيدها الموحدون ، قصبة المهدي التي بناها عبد المؤمن سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠ م عند مصب وادي أبي الرقراق^(٣) .

كذلك الحصن الذي بناه الموحدون قريباً من تلمسان^(٤) وأيضاً بني الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حصناً بالسوس الأقصى للإشراف على معدن الفضة الذي ظهر بالمنطقة وحمايته من استيلاء السكان عليه^(٥) وهكذا بنيت عدة حصون وقلاع وذلك تأكيداً لسلطة ولاية الأمر من المرابطين والموحدين .^(٥) الأسوار : لعبت الأسوار دورها في حماية المدن المغربية وخاصة في فترة الانتقال بين المرابطين والموحدين حيث حرص المرابطون على بناء الأسوار

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٨٣ .

(٢) الإدريسي : وصف المغرب ص ٦٤ ، ابن سعيد : نزهة الأئظار

ج ١ ص ١٢ .

(٣) أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب ص ٣٣٩ ،

د. العبادي : البحرية الإسلامية في المغرب ص ٢٥٦ .

(٤) الإدريسي : وصف المغرب ص ٨٠ ، ابن سعيد : نزهة الأئظار

ج ١ ص ١٩ .

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٨٩ ت الفيلاي ، السلاوي :

الاستقصاء ج ٢ ص ١٥٣ .

حول المدن الهامة كمدينة مراكش وفاس وغيرها من المدن خوفاً من سقوطها في يد الموحدين ، وقد تميزت أسوار المرابطين ، بأنها كثرة الزوايا الداخلية والخارجية حيث يتخذ السور شكلاً متعرجاً مما يساعد المدافعين على الفتك بأعدائهم^(١) ومن الأسوار الهامة ذلك السور الذي أنشأه أمير المسلمين علي بن يوسف حول مدينة مراكش^(٢) وكان بناء السور نتيجة نصيحة الوليد بن رشد لأمر المسلمين على بن يوسف وذلك حين اندلعت ثورة الموحدين بالبلاد يقول ابن الخطيب « وكان الذي أشار عليه بتسوير مراكش القاضي أبو الوليد بن رشد حين ظهور المهدي عليه ببلاد المغرب »^(٣) وكان ذلك في سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م^(٤) وقد انفق على بنائه ستين ألف دينار^(٥) وفي رواية أخرى أنه أنفق عليه سبعين ألف دينار^(٦).

وحظيت مدينة فاس باهتمام المرابطين ، حيث هدم أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين السور الفاصل بين عدوة القرويين والأندلسيين وجعلها مدينة واحدة ، ثم بنى على بن يوسف سور القوارجة بين باب الحيسة وباب أصليتين^(٧) . فلما استولى الموحدون عليها هدم أسوارها الخليفة عبد المؤمن

- (١) د. السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ص ١٣٥
(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٠ ، محمد الشطبي : كتاب الجمان ورقة ٢١٠ ، ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٤٠ ت الفيلاي ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٢٥ ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ١ ص ١٤ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٠٧ .
(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٠ .

Budgett ; The Land of the moors, p; 289.

Julin ; Histoire de L'Afrique, p; 89.

- (٤) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٤٠ ت الفيلاي ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٢٥ .
(٥) أحمد الشطبي : كتاب الجمان ورقة ٢١٠ .
(٦) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٠٧ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧١ ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٨٥ ، عباس المراكشي : الأعلام ج ١ ص ٩٧ .
(٧) الجيلاني : رسالة في ذكر من أسس مدينة ماس ص ٥٥ مخطوط الجزنائي زهرة الآس ص ٣٢ ، ابن القاضي : حذوة الاقتباس ص ٢٧ (القوارجة عبارة في الأصل من ركن في الجدار يبرز عن الحصن لحماية منطقة في حالة حصار يوجد فيها بئر يستمد ماءه من وادي مجاور لاغثة الذين قد يهددهم التطويق ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٩٢ حاشية) .

قائلا « انما اسوارنا أسيافنا » (١) حتى إذا تولى المنصور الموحدى بدأ في بناء أسوارها وأكملها ابنه الناصر (٢) وفي رواية أخرى أن الناصر هو الذى بنى أسوارها (٣) .

كذلك شيد الموحدون الأسوار على بعض المدن . ومن ذلك ما أمر به الناصر سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م من تسوير بعض المدن « وفي سنة لإحدى وستمائة بنى يعيش عامل أمير المؤمنين الناصر الموحد على بلاد الريف سور مدينة بادس وسور الزمة وسور مليلة خوفاً عليهم من فجأة العدو النصراني » (٤) ، وهكذا تأسست عدة منشآت من قلاع وحصون وأسوار نتيجة للظروف السياسية والعسكرية التى مرت بها المنطقة في ظل المرابطين والموحدين .

منشآت عامة :

المساجد :

قامت دولتا المرابطين والموحدين على أساس دعوتين دينيتين : دعوة ابن ياسين ودعوة ابن تومرت . وكان الطابع الديني يسود الحياة العامة في البلاد ومن هنا كان اهتمام ولاية الأمر من المرابطين والموحدين ببناء المساجد وتعميرها باعتبارها مركز الاشعاع الفكري للدعوة المرابطية والموحدية ، فضلا عن تأدية المروض وتنفيذ تعاليم الدين .

وقد شهدت العاصمة مراكش اهتماماً بالغاً بإنشاء المساجد فيها والعناية بها . وعندما شرع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في بناء العاصمة بدأ في بنا ، مسجدها الكبير (٥) فلما تولى ابنه أمير المسلمين على بن يوسف اهتم

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٧ .

(٢) الجيلانى : رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس ص ٥٥ ،
الجزائى : زهرة الآس ص ٢١٤ .

(٣) ابن أبى زرع : الاتيس ص ١٦٨ طبع حجر ، السلوى :
الاستقصا ج ٢ ص ٢١٤ .

(٤) مجهول : الذخيرة السنية ص ٣٩ ت محمد بن أبى شنبه
سنة ١٩٢٠ .

(٥) الادريسي : وصف المغرب ص ٦٨ ، ابن سعيد : نزهة الاطفال
ج ١ ص ١٣ .

بالزيادة في البناء فني مثذنته وقد كلفه ذلك سبعين ألف دينار (١) .

حتى إذا استولى الموحدون على العاصمة مراکش ، استشار الموحدون الفقهاء في موقفهم من مساجد المرابطين فأفتوهم بهدمها لأنها في رأيهم منحرفة عن القبلة (٢) يقول البيذق « وبقيت مراکش ، وذلك بعد أن فتحتها الموحدون لم يدخلها داخل ولم يخرج منها خارج ثلاثة أيام وكانوا يتشاورون على سكنها فامتنع الموحدون أن يسكنوها فقام إليهم الفقهاء فقالوا لهم لأي شيء لا تسكنوها فقال لهم الموحدون ، امتنع المهدي من ذلك ولا سيما تشريق مساجدها عن القبلة المستقيمة التي لا عوج فيها ولا تحريف لأمة محمد صلى الله عليه وسلم والتشريق لغيرها من اليهود وغيرهم ، فقال الفقهاء تطهر وتسكنوها فقالوا لهم وما تطهيرها فقال الفقهاء تهدم جوامعها وتبنى جوامع أخرى ، فهدمت جوامعها لأجل تشريقها وتحريفها عن القبلة وامالتها إلى المشرق ، وهديم فيها جامع على بن يوسف ولم يهدموه كله بل هدموا بعضه » (٣) وكانت نصيحة الفقهاء تحقيقاً لرغبة الموحدين في هدم آثار المرابطين وطمس معالمهم ، وفي رواية أخرى أن مسجد علي بن يوسف ظل مغلقاً ومعطلا لا تقام فيه الشعائر واستعيض عنه ببناء جامع آخر بناه الموحدون (٤) .

ثم شرع الخليفة عبد المؤمن في بناء جامع كبير هو جامع الكتبيين وذلك في سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٧م وحشد له مجموعة كبيرة من الصناع وتم بناؤه في فترة قصيرة (٥) وقد وصفه المقرئ بقوله « أمروا أي الموحدون — ببناء المسجد

(١) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ١ ص ١٤ .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠٨ ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٨٤ ، مائويل جوميث : الفن الاسلامي ص ٣٥٣ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٠٦ .

S.P. Scott ; History of moorish Empire. V.2, P; 279

(٣) البيذق : اخبار المهدي ص ١٠٥ .

(٤) الادريسي : وصف المغرب ص ٦٨ ، ابن سعيد : نزهة الانظار

ج ١ ص ١٣ .

(٥) الفلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ١٦٢ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٦٥ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٨٤٣ ، ٨٤٤ .

الجامع بحضرة مراکش فبدى ببنائه وتأسيس قبلته فى العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسة ، وكل منتصف شعبان المكرم من العام المذكور ، وعلى أكمل الوجوه ، وأغرب الصنائع ، وافصح المساحة ، وأبعد الباء والنجارة ، وفيه من شمسيات الزجاج ودرجات المنبر والمقصورة ما لو عمل فى السنين العديدة لاستغرب تمامه فكيف فى هذا الأمد اليسير الذى لم يتخيل أحد من الصناع أن يتم فيه فضلا عن بنائه ؟ وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور^(١). وقد سمي بجامع الكتبيين نسبة إلى باعة الكتب الذين كانوا يروجون بضاعتهم بجانب المسجد^(٢) ثم أمر المنصور الموحدى فى سنة ٥٩١هـ ببناء مئذنة كبيرة له وجعل طولها مائة ذراع وعشرة أذرع بالصنع الأنيق^(٣) وبجانب بناء منارة ضخمة لمسجد الكتبيين فإنه أمر ببناء مسجد كبير بالضاحية الجديدة التى جعلها امتداداً لمدينة مراکش وكان ذلك سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م^(٤).

أما مدينة فاس فقد شهدت اهتماماً بالغاً من ولاية الأمر ببناء المساجد وازيادة فيها والعناية بها ، وقد بلغ من اهتمام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ببناء المساجد بها أن أمر سكان كل شارع ببناء مسجد حتى لا يتعرضوا للعقاب وكان ذلك سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧١م^(٥) وحين هُلك جامع القرويين بالمصليين ، التجأ الفقهاء إلى أمير المسلمين على بن يوسف مطالبين بتوسعة المسجد فأمر بالزيادة فيه^(٦) وقد بلغت الزيادة فى مساحته خمسين وثمانمائة

(١) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١٤٥ .
(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٦٦ .
(٣) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٨٤ السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٤ .
(٤) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٨٤ ، عباس المراكشى : الإسلام ج ١ ص ٩٢ .

Terrasse : Histoire du Maroc, P : 333-334

(٥) ابن أبى زرع : الأنيس ج ٢ ص ٤٤ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٢٩ .
(٦) الحيلاني : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس ص ٩٨ ، الحزنائى : زهرة الاس ص ٥٧ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٤١ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٤٩ .

وَألف متر مربع (١) .

وتوالى اهتمام ولاية الأمر بمسجد القرويين فصنع له منبر جديد تكلف ثلاثة آلاف دينار وثمانمائة دينار وسبعة أعشار دينار فضة وكان ذلك في سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ (٢) أما جامع الاندلسيين فإنه لقي اهتماماً خاصاً من الناصر الموحدى حيث أمر بادخال عدة تحسينات عليه ومنها بناء باب جديد له كما أمر ببناء سقاية للوضوء وببيت لصلاة النساء وكان ذلك سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م (٣) وامتد اهتمام ولاية الأمر إلى المدن المغربية الأخرى وبناء المساجد فيها وقد ظهر ذلك واضحاً حين أمر الخليفة عبد المؤمن ببناء المساجد في جميع أرجاء البلاد « ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة فيها أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن باصلاح المساجد وبنائها في جميع بلاده » (٤) ، ومن ثم رأينا مسجداً ضخماً في مدينة رباط الفتح (٥) يصفه المراكشي بقوله « وبني — أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — فيها مسجداً عظيماً كبير المساحة واسع الفناء جداً لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه وعمل له مأذنة في نهاية العلو على هيئة منار الاسكندرية يصعد فيه بغير درج » (٦) كذلك بنى الخليفة عبد المؤمن مسجد مدينة تينمليل (٧) أما المسجد الكبير بمدينة سبتة فقد بناه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين (٨) .

(١) عبد الهادي التازي : أحد عشر قرناً في جامعة القرويين ص ٨

(٢) الجزنائي : زهرة الأس ص ٤٢ .

(٣) عبد الرحمن بن أبي بكر : البستان في أخبار الزمان ورقة ٢٩٩ ،

ابن القاضي جفوة الاقتباس ص ٤٠ ، مجهول : الفخيرة السنية ص ٤٠ ،

الجزنائي : زهرة الأس ص ٨٢ ، ابن أبي زرع : الأنيس ص ١٦٩ طبع

حجر .

(٤) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٥٤ ت الفيلالي ، السلاوي :

الاستقصا ج ٢ ص ١٢٦ .

Terrasse : Histoire du Maroc. P: 333-334.

(٥) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٦٦ ، ملين : عصر المنصور

الموحدى ص ٩٧ .

(٦) المراكشي : المعجب ص ٢٦٦ .

(٧) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٥١ ، السلاوي : الاستقصا

ج ٢ ص ١٢٢ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٦٤ ، د. السعيد

عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٨٤٠ .

(٨) ابن الخطيب : الحلال الموشية ص ٥٢ .

وقد أدخلت عدة تجديدات على بعض هذه المساجد ، ومن ذلك اتخاذهم المقصورة المتحركة في مسجد مراکش ، وقد أشار ابن خلدون إلى أن الموحدين لم يتخذوا المقصورة إلا في عهد المنصور الموحدي^(١) إلا أن بعض المراجع أشارت إلى إنشاء عبد المؤمن للمقصورة أثناء بنائه لمسجد الكتبيين ، وكانت مقصورة متحركة لم تعرفها المساجد من قبل^(٢) وقد وصفها ابن الخطيب بقوله « وصنع — أى عبد المؤمن — مقصورة من الخشب لها ست أضلاع تسع أكثر من ألف رجل وكان المتولى لصنعها رجل من أهل مالقة يقال له الحاج يعيش . . . وكيفية هذه المقصورة أنها وضعت على حركة بعد رفع البساط عن موضع المقصورة فتطلع الأضلاع في زمان واحد لا يفوت بعضها بعضاً بدقة ، وكان باب المنبر مسدوداً ، فإذا قام الخطيب ليطلع عليه اقتتح الباب وخرج المنبر في دفعة واحدة ولا يسمع له حس ولا يرى تدبيرها^(٣) » .

كذلك تميزت مآذن الموحدين بالشكل المربع ومنه انتقلت إلى باقي مآذن المغرب^(٤) وكانت بعض المساجد تنار ليلاً وخاصة في ليالي رمضان وذلك كما حدث في مساجد فاس^(٥).

وهكذا شهد المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين اهتماماً بالغاً من ولاية الأمر ببناء المساجد والاعتناء بها وإدخال التحسينات عليها .
المسند ارس :

وجه ولاية الأمر بالمغرب الأقصى اهتمامهم إلى التعظيم ونشأ عن ذلك أن بنوا

-
- (١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٩ .
(٢) أشباح : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٢٥٣ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٨٤٤ ، غسان : عصر المرابطين القسم الأول ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ .
(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠٩ .
(٤) عثمان الكعاك : الحضارة العربية ص ٥٨ ، د. زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ١٤٤ .

René miller ; Les A'mohades, P ; 120

- (٥) الحيلاني : رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس ص ٩٠٩ .

عدة مدارس في أجزاء متفرقة من البلاد ، وذلك لتخريج المتعلمين .

وكانت أولى المدارس التي انشئت في عهد يوسف بن تاشفين تسمى مدرسة الصابرين ولم تذكر المراجع مكان بنائها^(١) كذلك اهتم الموحدون ببناء المدارس وأول من فعل ذلك الخليفة عبد المؤمن بن علي حين بنى مدرسة ملحقة بقصره لتخريج الحفاظ وكندسة الأوداية لتخريج ضباط البحرية^(٢) أما المنصور الموحدى فإنه بنى عدة مدارس في أنحاء متفرقة من البلاد^(٣) . يقول ابن أبي زرع ، « وبني — أي المنصور الموحدى — المساجد والمدارس في بلاد إفريقية والمغرب والأندلس »^(٤) ومن هذه المدارس مدرسة المهدي بمدينة المهدي يقول العيني « توفي السلطان يعقوب بن يوسف صاحب بلاد المغرب والأندلس بمدينة سلا وكان قد ابنتى عندها مدرسة مليحة سماها المهدي »^(٥) أما الناصر الموحدى فقد بنى عشرين مدرسة^(٦) .

وبالنسبة لنظام بناء المدارس فكانت من طابقين وفي وسطه صحن مكشوف فيه فسقية أو حوض ماء ، وكانت بعض المدارس متصلة بالمساجد المجاورة لها بينما كان البعض الآخر مستقلا يضاف إلى ذلك أنها كانت تشتمل غالباً على عدة غرف وعلى قاعة كبيرة للدرس^(٧) .

المستشفيات :

لم تشر المراجع التي اطلعت عليها إلى إنشاء المرابطين لمستشفيات عامة يتوجه إليها المرضى للعلاج .

(١) عبد الله كنون : النبوغ المغربي ج ١ ص ٧٥ ، محمد عبد الرحيم غنيمه : تاريخ الجامعات الإسلامية ص ٤٣ .

(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٦٨ .

S.P, Scott : History of Moorish Empire, V 2, p; 297.

(٣) السلوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨ ، الزركلى : الاعلام ج ٣

ص ١١٧١ .

(٤) ابن أبي زرع : الانيس ص ١٥٧ طبع حجر .

(٥) العيني : عقد الجمان ج ١ قسم ٢ ص ٢٣٥ .

(٦) عبد الرحمن بن أبي بكر : البستان في أخبار الزمان ورقه ٢٠ .

(٧) د. زكي محمد حسن : فنون الاسلام ص ١١٣ ، محمد

عبد الرحيم غنيمه : تاريخ الجامعات ص ٢٩٩ .

(م ٢٦ — الحضارة)

فلما قامت دولة الموحدين ، اهتم المنصور الموحدي بإنشاء مستشفى كبير وجهزه بكل أنواع العلاج وحشد له مجموعة من الأطباء وذلك للسهر على راحة المرضى (١) وقد وصفه المراكشي بقوله « وبني — أى المنتصور الموحدي — بمدينة مراكش ببيمارستانا ما أظن أن في الدنيا مثله ، وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد ، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت ، زيادة على أربع برك في وسطه ، أحداها رخام أبيض ، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصدف والكتان والحرير والأديم وغيره ما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت (٢) » .

الحمامات :

انتشرت الحمامات في أجزاء متفرقة من البلاد ، ووجه ولاية الأمر اهتمامهم لبناء الحمامات وقد ظهر ذلك حين دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس فإنه أمر ببناء الحمامات (٣) . وقد بلغت الحمامات في مدينة فاس نحو عشرين حماماً (٤) .

فلما قامت دولة الموحدين ، اهتم الموحدون ببناء الحمامات وقد أنشئ منها الكثير في عهد الناصر الموحدي يقول عبد الرحمن بن أبي بكر ، « وبني

(١) ابن أبي زرع : الأتيس ص ١٥٧ طبع حجر ، عباس المراكشي : الأعلام ج ١ ص ٦٥ ، د. أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

S.P.Scott ; History of moorish Empire, V.2,
Budgett meakins ; The moorish Empire, P: 81.

(٢) المراكشي : المعجب ص ٢٨٧ .

(٣) الجيلاني : رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس ص ٥٥ ،
القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٥٣ ، السلاوي : الاستقصاء ج ٢ ص ٢٩ ، ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ٤٤ ت الفيلاي .
(٤) البكري : المغرب ص ١١٥ .

أى الناصر الموحدى — من الحمامات ثلاثاً وتسعين وثلاثمائة . . (١) وهو رقم يبدو عليه طابع المبالغة ، أما مدينة مكناسة فكان عدد الحمامات بها فى عهد الموحدىن ثلاث حمامات يقول ابن غازى « وكان بهذه المدينة فى أيام الموحدىن ثلاث حمامات البالى والحديد والصغير وهى باقية لهذا العهد » (٢).

أما النظام المتبع فى بناء الحمامات ، فكان قوام الحمام قاعة رئيسية للخلع الملابس ، وفيها قبة تقوم على أعمدة ، وهناك قاعتان أخريان إحداهما للماء المتوسط الحرارة ، والأخرى للماء الحار أما سقف كل منهما فكان على هيئة قبة نصف إسطوانى وفيها فتحات صغيرة ينفذ منها الضوء (٣) .

الفنادق :

ارتبط بناء الفنادق بالحركة التجارية بالبلاد ، حيث قامت الفنادق بدور كبير فى الحياة الاقتصادية بالمغرب (٤) إذ بجانب وظيفتها الأساسية فى إيواء الغرباء والتجار الوافدين على البلاد كانت مخزناً ومكاناً لبيع السلع والمواد التجارية المختلفة (٥) .

وقد اهتم ولاة الأمر بالمغرب الأقصى بإنشاء العديد من الفنادق فى أنحاء متفرقة من البلاد ومن ذلك ما أمر به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ببناء الفنادق بمدينة فاس سنة ٥٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م يقول ابن أبى زرع والسلوى « وبنى الحمامات والفنادق والأرحاء وأصلح أسواقها وهذب بنائها . . (٦) » . كذلك تأسست عدة فنادق بمدينة مراكش وذلك حين أمر الخليفة

(١) عبد الرحمن بن أبى بكر : البستان فى أخبار الزمان ورقة ٢٩

(٢) ابن غازى : الروض الهمتون ص ٢ .

(٣) د. زكى محمد : فنون الإسلام ص ١٢٠ .

(٤) عثمان الكعاك : الحضارة العربية فى البحر المتوسط ص ٦٤ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٦٤ ، ليوبولد تريش : ' الأبنية الأسبانية الإسلامية ' ص ١١٨ ترجمة عليا إبراهيم . مجلة المعهد المصرى للدراسات عدد ١ سنة أولى سنة ٥٣ ، د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ص ١٦٩ .

(٦) ابن أبى زرع : الأنيس ج ٢ ص ٤٤ ت الفيلالى ، السلوى :

الاستقصا ج ٢ ص ٢٩ .

المنصور الموحدى بإنشاء العديد من الفنادق والأسواق والتي قصدها التجار من كل ناحية (١) أما مدينة رباط الفتح والتي وضع نواتها الخليفة عبد المؤمن وأكملها ابنه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فقد أنشئت بها الفنادق (٢) . أما مدينة قصر صنهاجة والتي تعرف بقصر عبد الكريم وموقعها في شمال البلاد فقد أنشئ فيها فندقان وقصدها التجار ومن ثم ازدهرت فيها الحركة التجارية (٣) .

أما في عهد الناصر فقد بلغ عدد الفنادق والتي أنشئت للتجار سبعة وستين وأربعمائة (٤) وهذا يشير إلى ارتباط حركة بناء الفنادق بالنشاط التجاري بالبلاد ومدى الازدهار الذي شهدته البلاد .

وكان الفندق يقسم إلى عدة أمكنة ، فهناك مكان للنوم والراحة وآخر لعقد الصلات التجارية من عقود ويبيع وغيرها (٥) .

وفي بعض الأحيان كان يطلق على الفندق اسم السلعة التي تباع فيه (٦) ومن ذلك ما ورد في ترجمة أبي موسى الدكالي أحد المتصوفين في مدينة سلا أنه كان يقيم بفندق الزيت (٧) وكان بعضهم يتخذ الفندق مكاناً لإقامته الدائمة كأبي العباس السبتي والمتوفى بمراكش سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م فإنه كان يسكن أحد فنادق مراكش (٨) .

القناطر :

أقام ولاية المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين عدة قناطر على أنهار المغرب الأقصى ، وذلك لربط المناطق بعضها ببعض مع استغلال مياه الأنهار

(١) مجهول : الاستبصار ص ٢١٠ ، عباس المراكشي : الاعلام

ج ١ ص ٦٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٩ .

(٣) مجهول : الاستبصار ص ١٤٠ .

(٤) عبد الرحمن بن أبي بكر : البستان في أخبار الزمان ورقة ٢٩ .

(٥) عثمان الكعاك : الحضارة العربية ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٦) ليوبولد توريس : الأبنية الإسبانية ص ١١٨ ترجمة عليا إبراهيم

(٧) التادلي : التشوف ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٨) بابا التنبكتي : نيل الابتهاج ص ٦١ ط ١ سنة ١٣٥١ .

فى رى الأراضى الزراعية وقد أشار ابن أبى زرع إلى أن هدف المنصور الموحدى من بناء القناطر هو جلب الماء فى البرية (١).

وقد بنى المرابطون عدة قناطر بالمغرب ومنها قنطرة تانسيفت نسبة إلى نهر تانسيفت وقد بناها أمير المسلمين على بن يوسف (٢) أما طولها فقد بلغ أربعمائة متر وبنيت بالأجر والحير (٣).

وقد استعان أمير المسلمين على بن يوسف فى بنائها ببنايين من الأندلس ومن المغرب (٤). إلا أن هذه القنطرة لم تلبث إلا أعواماً يسيرة حتى هدمت بتأثير السيول (٥). وكذلك اهتم الموحدون ببناء القناطر ، وشيد الخليفة عبد المؤمن قنطرة بين سلا والمهدية إلا أنها تهدمت بتأثير قوة التيار فى الشهر المقامة عليه القنطرة (٦) لذا حين زار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن المنطقة أمر بإقامة جسر آخر إلى جانبه (٧). أما قنطرة تانسيفت التى هدمت بفعل السيول فقد أمر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بتجديد بنائها (٨) كذلك وجه المنصور الموحدى اهتمامه لبناء القناطر « وبنى الصوامع والقناطر لجلب الماء فى البرية واتخذ عليها المنازل (٩) ». وهكذا وجه ولادة الأمر اهتمامهم إلى بناء القناطر بجانب اهتمامهم بإقامة المنشآت الأخرى.

(١) ابن أبى زرع : الأنييس ص ٢١٥ طبع حجر .
(٢) المراكشى : المعجب ص ٣٦٤ ، ابن سميع : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٣ ، عباس المراكشى : الأعلام ج ١ ص ٦٩ ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطيين ص ٤٥٣

Julin ; Histoire de L'Afrique du Nord P ; 89.

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٤٤ .
(٤) الإدريسي : وصف المغرب والأندلس ص ٦٩ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ٦٩ .
(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ .
(٧) نفس المرجع السابق ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ .
(٨) ابن أبى زرع : الأنييس ص ١٥٧ طبع حجر .
(٩) نفس المرجع السابق ص ١٥٧ طبع حجر .

الفصل الرابع

العادات والتقاليد

عاش سكان المغرب الأقصى منذ أن تأسست على أرضه دولة المرابطين في ظل عادات وتقاليد موروثة ، بعضها ورثه عن الأجيال السابقة ، وبعضها استحدثت خلال هذه الفترة نتيجة لظروف سياسية ودينية مرت بها المنطقة ومن ثم فإننا سنتناول في هذا الفصل ، الأسرة وما تتضمنه من زواج وعادات متعلقة بذلك ، والصحة ومدى اهتمام ولاية الأمر بالشئون الصحية بالبلاد ومظاهر ذلك ثم التعرض بعد ذلك للمجالس وأنواعها ، والاحتفالات وألوانها ، والمواكب وأنظمتها ثم وسائل التسلية المتنوعة ، ويلى ذلك المأكولات والمشروبات وأنواعها وأخيراً الملابس وتنوعها .

أولاً : الأسرة

كانت الأسرة نواة المجتمع المغربي ، وهي تتكون عادة من الزوج والزوجة وأبنائهما ، وكان للزوج أن يتزوج بأكثر من واحدة طبقاً للشريعة الإسلامية ، على ألا يتجاوز العدد أربع زوجات ، إلا أن بعض رؤساء جندالة ولمتونة كانوا يتزوجون بأكثر من العدد الشرعى وذلك قبل مجيء عبد الله بن ياسين إليهم ، ومن هنا أمر داعية المرابطين الاقتصار على أربعة طبقاً لأحكام الدين ، يقول ابن أبي زرع « وكان يحيى قد أنزله معه - أى أنزل معه ابن ياسين - فوجد عنده تسع نسوة فسأله عنهن ، فقال هن زوجاتى ، فقال له الفقيه ، هذا شيء لا يجوز في دين الإسلام وإنما يجوز في ذلك أربع ، ففارق خمساً ، فأجابه بالسمع والطاعة وفارقهن ثم قال إن جميع الرؤساء من كدالة ولمتونة على مثل حالى فأندرهم وعرفهم حكم الله »^(١) ويبدو من النص أن هذا العرف كان متبعاً بين الرؤساء دون العامة ، وقد غير ابن ياسين هذا الوضع

(١) ابن أبي زرع : الأئيس ج ٢ ص ١١ ت الفيلىلى .

وأرشدهم إلى أحكام الدين في ذلك^(١) .

وكان بعض الرجال يتزوجون نساء من جنسيات أخرى تخالف جنس البربر كزواج الوزير ابن جامع من تركية^(٢) كما أن المصامدة كانوا يعتبرون الزواج من الحبشيات عاراً ففي الحوار الذي دار بين أبي مدين أحد المتصوفين بالمغرب وبين أبي محمد عبد الرازق الجزولي تلميذه ما يفيد استنكار المصامدة للزواج من الحبشيات حيث قال أبو مدين لتلميذه « أو تفعل ذلك — أى الزواج من حبشية - ونكاح الحبشية عند المصامدة عاراً؟ »^(٣) ، ولعل هذا يرجع إلى نظرة المصامدة للحبشيات واعتبارهن أقل منهم منزلة .

وكان بعض الرجال لا يتزوجون إلا ممن تيسرت أحوالهن المالية ، ولذا اشتكت امرأة لابي العباس السبتي المتصوف والمتوفى بمراكش سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م بأن لديها أربع بنات لا يتزوجن وقالت له « عندى أربع بنات بالغات قادرات على الزواج وليس لهن أب ولا مال والناس لا يتزوجون إلا من كان له مال وأنا فقيرة »^(٤) ولذا أخذ أبو العباس على عاتقه تزويجهن ومشاركة غيره من الصالحين في جمع المال وإنفاقه على تزوج الفقيرات ، ومن هؤلاء محمد بن أحمد بن محمد اللخمي — أحد الصالحين بتلمسان والمولود بها سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م والمتوفى سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م وكان ذا حظوة عند خلفاء الموحدين — كان يتصدق بما يحسنون به إليه ويجهز منه ضعيفات البنات^(٥) .

وكان الرجال يدفعون مهوراً لزوجاتهم ومن ذلك ما دفعه أبو عبد الله ابن أبي إبراهيم وإلى غرناطة من مهر للسيد أبي حفص للزواج من ابنته أثناء

(١) نفس المرجع السابق ص ٦٩ ، ابن سعيد : نزهة الانظار

(٢) عباس المراكشي : الاعلام ج ١ ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٣) أحمد بن القاسم : المعزى في أخبار أبي يعزى ص ٦٣ مخطوط

القادلي : القشوف ص ٣٢٦ .

(٤) عباس المراكشي : الاعلام ج ١ ص ٢٧٦ .

(٥) أبي زكرياء : بغية الرواد ج ١ ص ٢٧ .

مقامه بمراكش سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م^(١) كذلك حين عقد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قرانه على ابنة ابن مردنيش سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ دفع لها مهرا خمسين دينارا وأرسل لها هدية الف دينار^(٢).

وكان عقد الزواج يتم عادة في المسجد^(٣) ومن ذلك ما ذكره التادلي في ترجمته لابن النحوى المتصوف والمتوفى سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩ م بسجل ماسة « وكانت عامة أهل البلدان يعقدوا أنكحتهم بالمسجد^(٤) » .

فلذا تم عقد القران أقيمت الأفراح ابتهاجا بهذه المناسبة السعيدة فالخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين تزوج ابنة محمد بن سعيد بن مردنيش صنع مهرجانا عظيما يقصر اللسان عن وصفه^(٥) وكان المغنون يشتركون في إحياء حفلات الزواج وقد أشار التادلي إلى كثير من هؤلاء المغنين الذين أقبلوا عن الغناء في الأفراح وانصرفوا إلى العبادة ، ومن هؤلاء أبو اسحاق إبراهيم ابن عبد الصمد الصنهاجى من أهل فضالة من عدوة وادى آزمور وأقام بمراكش « وكان في حدائته محبا في اللهو يغنى في الأعراس ويضرب الدف »^(٦) وأبو عبدالله محمد بن موسى الأزكانى وكان مقبلا بصفرو ومات بعد سنة ٥٩٠ هـ « كان مبدأ أمره أنه كان في شببته يلعب ويغنى في الأعراس »^(٧) وأبو ولحوط تونانت بن وجرام الهزميرى من أهل بلدة نفيس من عمل مراكش ومات سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م كان في حدائته يغنى في الأعراس^(٨).

ومن هذا نلمس اشتغال الرجال بالغناء في الأفراح وبجانب الغناء ربما قام بعض المهرة ببعض الألعاب لإدخال السرور على الحاضرين ومن ذلك ما تعودته أهل قرية تاورا إحدى قرى مدينة مكناسة في أفراحهم حيث كان

-
- (١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٩٧ .
 - (٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢ ، ٢٣ تطوان .
 - (٣) هفمان الكماك : محاضرات في مراكز الثقافة ص ٥٣ .
 - (٤) التادلي : التشوف ص ٧٥ .
 - (٥) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ١٨٨ ت الفيلاى .
 - (٦) التادلي : التشوف ص ٣٠٧ .
 - (٧) نفس المرجع السابق ص ٣٦٩ .
 - (٨) نفس المرجع السابق ص ٤١٢ .

السودانيون يلعبون الثقاف بالحديد ويرقصون ونسأؤهم يضربون آلة اللعب ويغنين والزامر يزمر لهم^(١) وأحياناً تزف العروس وهى راكبة على سرج ويحيط بها المغنون ووسائل اللهو المختلفة فى موكب كما فى أفراح تلمسان^(٢).

ومما يتصل بالأسرة ، عادة استنها الخليفة المنصور الموحدى وهو جمع الأطفال فى العاصمة مراکش كل عام وتختينهم وصرف دينار من الذهب ودرهم من الفضة لكل واحد منهم وذلك لتفقات العلاج وثمره ليأكلها أثناء عملية التختين لتخفيف آلامه يقول ابن عذارى « وفى سنة خمس وتسعين وخمس مائة أمر المنصور بإعذار الأطفال بمراكش وأن يجعل فى يد كل واحد منهم دينار من الذهب ودرهم من الفضة وحنة من الفاكهة الخضراء ليشغل بها الطفل عن ألمه ويصرف الدينار فى مداواته فكان يذهب فى ذلك كله فوق الألف ألف ما بين ذهب وفضة فكان هذا من مكارمه الذى لم يسبقه أحد إليها من ملوك المتدينين^(٣) وقد حدد المراكشى نوعية هؤلاء الأطفال بأنهم الأيتام المنقطعون حيث كان يجمعهم فى موضع قريب من قصره وتجربى لهم عملية التختين^(٤) ويبدو أن بعض الأسر كانت تحتفل بإعذار أبنائها وذلك بذيبح الذبائح ودعوة الأصدقاء من الحمران لحضور هذه الوليمة^(٥).

ثانياً : الصحة

لقى سكان المغرب الأقصى رعاية واهتماماً فى النواحي الصحية من ولاية الأمر منذ قيام دولة المرابطين ، وقد تجلّى ذلك فى إقامة مستشفى المنصور الموحدى وتشجيع الأطباء على القدوم إلى المغرب والأندلس غيرها من

(١) ابن غازى : الروض الهتون ص ٤ ، البيئى : أخبار المهدى ص ٦٠
(٢) عبد العزيز بن عبد الله : المعجم التاريخى ص ٩ ، ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٢٥٩ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٢٣٤ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٨٠ تطوان .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٢٨٧ .

(٥) التادلى : التشوف ص ٣٨٩ .

البلدان ، وتبعاً لذلك ازدهرت العلوم الطبية مما عاد على السكان بعظيم الفائدة وقد حفلت كتب الطبقات بكثير من الأطباء الذين خدموا في بلاط ولاية الأمر من المرابطين والموحدين وعلى رأسهم أسرة بنى زهر .

وقد تعرضت البلاد في بعض الأحيان للابوثة والتي شكلت خطراً كبيراً على حياة السكان حيث راح ضحيتها الكثير من الناس ففي سنة ٥٦٤ هـ - ١١٦٨ م تلوث هواء مراکش بميكروب سبب المرض لكثير من سكان مراکش (١) . كذلك الطاعون الذي أصاب مراکش سنة ٥٧١ / ١١٧٥ م أودى بحياة كثير من الناس حتى بلغ الموتى في كل يوم مائة وتسعين شخصاً واستمر ذلك سنة كاملة (٢) وطبقاً لهذه الرواية يكون ضحايا هذا الطاعون ٦٩,٣٥٠ شخصاً ، أما ابن أبي زرع فقد جعل الضحايا بمراكش ألفاً وسبعائة رجل (٣) وربما كان العدد الأول هو مجموع الضحايا في المغرب الأقصى كله ، وقد مات في هذا الطاعون عدد من أسرة الخلافة (٤) ، « ومات فيه - في الطاعون - من أولاد الخليفة عبد المؤمن السيد أبو عمران ثم أخوه السيد أبو سعيد ، ثم أخوهما السيد أبو زكريا وصاحب بجاية والشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاقي جد الملوك الحفصيين . » (٥) يضاف إلى ذلك عدد ممن كانوا يخدمون في قصور الأمراء بلغ ثلاثين شخصاً يومياً (٦) .

ونتيجة لانتشار الوباء لحق الناس إلى حمل بطاقات فيها بيانات عنهم حتى إذا فاجأ الموت أحدهم تعرفوا على أسرته « وكان الناس يموتون فيه من غير مرض فكان الرجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه ونسبه وموضعه في براعة يجعلها في جيبه فإن مات حمل إلى موضعه وأهله » (٧) .

-
- (١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٩٥ .
 - (٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٤ ، ٢٥ تطوان .
 - (٣) ابن أبي زرع : الانيس ص ٢١٦ طبع حجر .
 - (٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٥ تطوان ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٤٠ ، السلوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٥١ .
 - (٥) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٢٠ .
 - (٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٥ تطوان .
 - (٧) ابن أبي زرع : الانيس ص ٢١٦ طبع حجر .

وسائل العلاج :

عرف الشعب المغربي كثيراً من ألوان العلاج ومن ذلك أنهم اتخذوا وسيلة العزل كوقاية من العدوى والإصابة بالأمراض الخطيرة كالجلد ، فقد أفردوا مكاناً خاصاً خارج العاصمة يعيش فيه الجلدةاء لا يختلطون بغيرهم ومن هؤلاء المرضى « أبو عصفور يعلى بن وين يوفن الأجدم تلميذ أبي يعزى وأصله من مكناسة نزل حارة الجلدةاء خارج حضرة مراکش وبها مات عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة^(١) وأبو يعقوب يوسف بن على وكان بحارة الجلدةاء ومات في شهر رجب عام ثلاثة وتسعين وخمسمائة^(٢) .

وهكذا عرف سكان المغرب نظام العزل وتخصيص أماكن بعيدة لإيواء ذوى الأمراض الخطيرة .

كما أن السكان حاولوا الاستفادة من البيئة وما ينمو فيها في مداواة أمراضهم وعن طريق تجاربهم صارت لهذه الخدمات الطبيعية مفعولها في علاج كثير من الأمراض ومن ذلك مياه أحد أنهار فاس حيث كانت تفتت الحصى الذى يتكون في المثانة كما أنه يقضى على حشرات الرأس^(٣) وكذلك العيون الساخنة كعين خولان ونخمة وشتاته كلها عيون ساخنة يستحم فيها الناس للتداوى^(٤) وقد نبتت بجبل فازاز بعض النباتات التى تستخدم كنواء لعلاج الأمراض^(٥) وبمدينة أيجلى شجرة تشبه شجرة الكمثرى وثمرته تشبه الاجاص ، يجمعونه ويتركونه حتى يذبل ثم يضعونه في مقلاة فخار على النار فيستخرج دهنه وهو جيد في علاج الكلى وإدرار البول^(٦) .

وهكذا استغل السكان البيئة المحيطة بهم في علاج أمراضهم .

(١) التاللى : التشوف ص ٢٥٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٠٨ ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية

ج ١ ص ٢٤ .

(٣) الجيلانى : رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس ص ٤٥ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٤٧ مخطوط ، عبد العزيز بن عبد الله

المعجم التاريخي ص ٨ .

(٥) مجهول : الاستبصار ص ١٨٧ .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٢١٢ .

وبجانب العلاج الطبيعى ، كانت هناك المستشفيات وأهمها تلك المستشفى التى بناها المنصور الموحدى وقد سبق الإشارة إليها ، وقد جعل المنصور العلاج بها حتماً لكل مواطن سواء أكان غنياً أم فقيراً^(١) وجهزه بكل ما يلزمه من وسائل العلاج وأجرى الإنفاق عليه من بيت المال^(٢) وقد أشار المراكشى إلى تجهيزات المستشفى بقوله « وأجرى له ثلاثين ديناراً فى كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة ، خارجاً عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء »^(٣) ومن التحق بالخدمة فى هذه المستشفى أبو اسحق ابراهيم الدانى وأصله من بجاية وكانت له عناية بالغة فى صناعة الطب وقد عينه المنصور أميناً للمستشفى وكذلك ولده^(٤) وكان المنصور يتعهد المستشفى بزيارته الأسبوعية حيث يطمئن على صحة المرضى وسير العمل بالمستشفى^(٥) .

ولم يكن الإشراف على المرضى قاصراً على المستشفى بل تعداه إلى معاونتهم فى حياتهم بعد مغادرتهم المستشفى وهو ما يعرف بنظام التأهيل فى عصرنا الحاضر فكان يصرف لكل مريض فقير مقدار من المال يعيش منه ريثما يتمكن من العمل والكسب « فإذا نقه المريض فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل وإن كان غنياً دفع إليه ماله وترك سببه »^(٦) وبجانب المؤسسات العلاجية كان هناك الأطباء ، ومنهم من كان يعالج العامة حيث يقصدونه بمرضاهم ويلتفون أجمع العلاج ومن هؤلاء الطبيب ابن افلاطون بمدينة فاس ويبدو أنه نال مكانة طيبة وسمعة عريضة

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٨٨ .

(٢) ابن أبى زرع : الانيس ص ١٥٧ طبع حجر ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨ ، ملين : عصر المنصور ص ٢٢٥ .

S.P. Scott ; History of Moorish Empire, V.2, P ; 306.

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٨٧ .

(٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ص ٥٣٤ وأحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات ص ٢٨٢ .

(٥) المراكشى : المعجب ص ٢٨٨ .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٢٨٧ .

ومن ثم أصبح أجره مرتفعاً ، فقد مرضت أخت لعل بن عبد الكريم وهو من سكان مكناسة فجهز مبلغ مائة دينار وتوجه بها إلى ابن افلاطون في فاس لعلاجها (١) ، كذلك الطبيب ابراهيم بن أبي الفضل بن صواب المجري من أهل شاطبة ، أقام بطنجة لعلاج المرضى ثم استقر بمدينة فاس وتوفي سنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م (٢) .

وبجانب أطباء الشعب ، كان البلاط المرابطي والموحدي يزخر بنخبة من الأطباء وفي مقدمة هؤلاء أسرة بني زهر التي خدم بعض أفرادها في البلاط المرابطي ثم الموحدي ومن هؤلاء أبي العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك وكان مشهوراً بالحدق والمهارة وله علاجات مختارة وله عدة مؤلفات طبية وقد خدم في بلاط المرابطين ونال منزلة رفيعة (٣) واشتغل ابنه أبو مروان عبد الملك في خدمة الخليفة عبد المؤمن وألف للخليفة الترياق السبعيني مع عدة مؤلفات أخرى ونال مكانة رفيعة لدى الخليفة (٤) فلما توفي الخليفة عبد المؤمن التحق أبو مروان بخدمة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ثم ابنه المنصور من بعده (٥) .

وبجانب أسرة بني زهر كانت هناك مجموعة من الأطباء المشهورين أمثال أبي بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة والذي اشتغل بالطب في دولة المرابطين (٦) وابن طفيل طبيب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن والمتوفى سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م (٧) وابن رشد وهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن

-
- (١) التادلي : التشوف ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .
 (٢) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ص ١٧٢ .
 (٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص ٥١٧ بيروت سنة ١٩٦٥ ،
 آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٧١ ، عبد العزيز بن عبد الله : الطب
 والأطباء في المغرب ص ٣٠ .
 (٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص ٥٢٠ ، ٥٢١ .
 (٥) نفس المرجع السابق ص ٥٢١ .
 (٦) القفطي : أخبار العلماء ص ٢٦٥ ، عبد العزيز بن عبد الله : الطب
 والأطباء بالمغرب ص ١٠ .
 (٧) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ١٧٦ ت الفيلاي ، عباس المراكشي
 الاعلام ج ٣ ص ٣٤ ، ٣٥ ، أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٣ ص ٢٤٢
 ط ٢ سنة ٥٩

رشد والذي نال حظوة ومكانة لدى الخليفة المنصور الموحدى^(١) وغير هؤلاء ممن حفلت المرجع بتراجهم ويضيق المجال عن ذكرهم ، وهذا يشير إلى ارتقاء شأن الطب والأطباء في هذه الفترة ، وما صاحبه من كثرة المؤلفات الطبية مما ارتفع بالمستوى الصحى للسكان .

ثالثا : المجالس

شهد المجتمع المغربى كثيرا من المجالس المتنوعة والمتعددة التى كان يعقدها الخلفاء فى قصورهم ، وبجانب ذلك مجالس الوعظ التى انتشرت فى الأماكن العامة يضاف إلى ذلك تلك المجالس العامة التى كان يعقدها عليه القوم من الأمراء وغيرهم وقد أثمرت هذه المجالس وما فيها من مناقشات علمية وأدبية ، ازدهوا فى الحركة الفكرية بالبلا . وارتقاء للنواحي الثقافية وفى مقدمة هذه المجالس :

مجالس الخلفاء :

حرص أمراء المسلمين من المرابطين وخلفاء الموحدى على حث الجلسات التى كانوا يشهدونها بأنفسهم ، ويشاركون فيها بالحوار والمناقشة ، فأمر المسلمين تاشفين بن على بن يوسف كان يجالس الأعيان ويذاكرهم^(٢) وكان هذا أثناء ولايته للأندلس ، ومن كان يحضر مجلسه القاضي أبو القاسم اخيل بن ادريس الرندى وكان أديبا^(٣) .

أما فى الدولة الموحدية فقد كثرت هذه المجالس التى كان يحضرها الخلفاء وقد أشار ابن صاحب الصلاة ، وكان يعيش فى 'عصر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى عادته فى التوجه إلى مجلس الخليفة فى داره حيث قال « كنت — أى ابن صاحب الصلاة — صبيحة يوم الأحد الذى وصات فيه هذه البشرى الفاتحة — وهى انتصار الموحدى على ابن مردنيش فى الأندلس — فقد بكرت على العادة إلى متقيمي دار الخليفة رضى الله عنه

(١) ابن أبى اصبيعه : عيون الانباء ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، أرست رينان : ابن رشد والرشدية ص ٣٧ ، ٣٨ ، أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٣ ص ٢٤٦ .
(٢) ابن الخطيب : الاحاطة ج ١ ص ٥٧ ت عنان .
(٣) ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٣٣٦ .

جالسا مع طلبة الحضرة أشياخ أهل الأندلس نتطلع الأخبار وقد بعد زمانها وتوقف الواصلين بها... (١) وهذا الخبر يفيد تعود الخليفة على الجلوس في داره مع طلبة الحضرة هم طائفة العلماء وأشياخ الأندلس.

وكانت هذه المجالس تضم العلماء والأدباء ورجالات الدولة ، ومن هؤلاء الذين ضمتهم مجالس الموحدين في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الحافظ أبو بكر بن الحد ، والفقيه القاضي أبو عبد الله بن الصقر ، وغير هؤلاء من العلماء (٢) أما في عصر المنصور الموحدي فكان منهم أبو الحجاج المفسر وعبد الله بن سليمان بن حوط وابن زهر الأديب الطيب وابن رشد (٣) والقاضي الشقندي وكان عالما متبحرا في العلوم (٤) وبجانب هؤلاء كان هناك طلبة المصامدة هؤلاء كانوا يشهدون كل مجالس الخلفاء ، يقول المراكشي « وصنف آخر ممن عني بالعلم من المصامدة يسمون طلبة الموحدين ولا بد في كل مجلس عام أو خاص يجلسه الخليفة منهم من حضور هؤلاء الطلبة الأشياء منهم (٥) ».

وكان لهذه المجالس في عهد الموحدين نظام خاص تتبعه ، فكان الخليفة يتصدر المجلس ، فخطيب الجماعة ، ثم قاضي الجماعة بمراكش فرئيس الأطباء فأكبر علماء الحضرة فباقي الأعلام الحاضرين على اختلاف مراتبهم (٦) ثم تدار المناقشة حول مسألة علمية يلقيها الخليفة بنفسه أو أحد العلماء الحاضرين بعد استئذان الخليفة ، ويناقش الحاضرون المسألة ، ثم تختتم الجلسة بالدعاء للخليفة (٧).

ومن الموضوعات العلمية التي كانت تعرض في المجالس العلمية الموطأ الذي أثنى ابن تومرت - حيث عرضه أبو يعقوب يوسف بن وانودين في أحد

-
- (١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٧٥ .
 (٢) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ١٨١ ت الفيلالي ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٢ .
 (٣) ملين : عصر المنصور الموحدي ص ١٦٤ .
 (٤) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ٢١٣ .
 (٥) المراكشي : المعجب ص ٣٤٢ .
 (٦) ابن اصيبعة : عيون الانباء ص ٥٢٩ ، المنوني : العلوم والفنون ص ٣٩ ، ٤٠ .
 (٧) المراكشي : المعجب ص ٣٤٢ .

مجالس الخليفة عبد المؤمن في جمع من أشياخ الموحدين (١).

وبجانب هذه المجالس العلمية التي كان يشهدها الخلفاء ، كانت هناك المجالس التي يتبادلون فيها الحديث عن مشكلة تهم الدولة ، وكانت الأندلس تحتل مكان الصدارة في المشكلات التي واجهت ولاية الأمر من المرابطين والموحدين حيث أن الخطر كان قائما في كل لحظة من هجوم الأعداء على أرض الأندلس ومحاولة الاستيلاء عليها ، ومن هنا كانت بعض المجالس تدور فيها المناقشات حول الأندلس ومن ذلك ما كان يتحدث به يوسف بن تاشفين في مجالسه يقول المراكشي « ويوسف بن تاشفين في ذلك كله يمدحهم — أي بمد أهل الأندلس — في كل ساعة بالجيش بعد الجيوش ، والتحليل أثر الخيل ، ويقول في كل مجلس من مجالسه : إنما غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها (٢) » . وكذلك الخليفة عبد المؤمن ومناقشته لأحداث الأندلس في مجالسه « ومنها أنه — أي عبد المؤمن بن علي — تذاكر يوما حال الأندلس مع الروم الفاتنين فجري ذكر وقعة أقليش التي هزم فيها الطاغية وقتل ولد أذفونش ، فقال لوزيره أبي جعفر بن عطية اخرج إلى أشياخ الجند وسلهم هل بقي أحد ممن حضر وقعة أقليش ففعل ... فسر بأن بقي من يحدثه بصفة تلك الحروب وأمر بادخالهما إلى مجلسه العالي ، وأمر بأن يحضر معهما أشياخ الجند فكان ذلك ، وسألهما عما شاهداه من تلك الحروب فحكياها من أولها إلى آخرها ، وعند تمام حكايتها أعطى لابن ريدون خمسمائة دينار ولابن تورزجين مثل ذلك .. (٣) » وهكذا احتل موضوع الأندلس وأخبارها مكانا في المناقشات الدائرة في مجالس ولاية الأمر .

وفي بعض الأحيان كانت المشاكل اليومية التي يواجهها الناس تثار في مجلس الخليفة ومن ذلك أن يحيى بن العزيز — وكان ملكا لبجاية قبل استيلاء عبد المزمع عليها ثم أحضره معه إلى مراكش — كان في مجلس عبد المؤمن

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٣٠ ت د . احسان عباس .

(٢) المراكشي : المعجب ص ١٦٢ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٩ .

يوما فذكر الحاضرون تعذر الصرف وشاركهم القول في ذلك يحيى من أنه يعانى من ذلك أيضا لأن خدمه لا يجدون العملات الصغيرة متوفرة ، فلما سمع الخليفة ذلك أمر بتحقيق مطلبهم وتوفير العملات الصغيرة للتداول (١) مجالس وعظ :

ونوع آخر من المجالس شهده المجتمع المغربي ، وهو مجالس الوعظ التي يتولى الحديث فيها العلماء والصلحاء حيث يعظون الناس ويرشدونهم ، وقد تجلى ذلك في طريقة ابن تومرت وجمعه الأتباع حيث كان يجلس إلى الناس يعظهم ويعلمهم أمور دينهم (٢) .

وبعضهم كان يتخذ من الأسواق والطرقات مكانا ليعظ فيه كآبي العباس السبتي المراكشي والمتوفى سنة ٦٠١ هـ ، كان يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق والطرقات فيحض الناس على الخير (٣) .

وبعضهم كان يحدد أياما في الأسبوع لمجالس وعظه كالعالم محمد بن أحمد بن محمد اللخمي وكان يقيم بمراكش وله مجالس وعظ في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع (٤) ومن اشتهر بالحديث في مجالس الوعظ أبو مدين المتصوف والمتوفى سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م حيث كان الناس يقصدونه من كل مكان (٥) .

مجالس عامة :

وهي تلك المجالس التي كان يعقدها الأمراء وأكابر رجال الدولة في قصورهم ومنتدياتهم ويحضرها الأدباء والشعراء ، وكان ذلك نتيجة الاحتكاك المباشر بين المغرب الأقصى والأندلس في عهد المرابطين ، وإقبال العلماء والشعراء الأندلسيين على المغرب والالتفاف حرك الأمراء في المدن المغربية كمراكش وفاس وتلمسان وسائر المدن الأخرى ، وخاصة أن الولاة كانوا

(١) المراكشي : المعجب ص ٢٠٧ .

(٢) ابن القطان : نظم الجهان ص ٩٤ .

(٣) عباس المراكشي : الاعلام ج ١ ص ٢٤٦ .

(٤) نفس المرجع السابق ج ٣ ص ٨٧ .

(٥) أحمد بن القاسم : المعزى في أخبار أبي يعزى ص ٧٢ مخطوط .
(م ٢٧ — الحضارة)

يتنقلون بين مدن المغرب ومدن الأندلس وما يصحب التنقل من انتقال حاشية الإمبر معه (١).

وبجانب هذه المجالس ، كانت هناك المجالس الفقهية التي كان يعقدها العلماء في المدن المغربية كسبتة وفاس وغيرها للمناظرة والبحث والدراسة (٢) ومن المجالس الأدبية التي كانت تعقد في العاصمة مراكش ، مجلس حواء بنت تاشفين — وكان تاشفين أخا ليوسف بن تاشفين لأمه — حيث كان يحضره الكتاب والشعراء وكانت تحضرهم فيه ومن كان يحضر هذه المجالس ابن المرخي وابن القصيرة وغيرهم من الأدباء والشعراء (٣).

واشترك أمراء الموحدين في المجالس في ولاياتهم حيث كانت تعقد تحت إشرافهم ويشاركون فيها بالمناقشة والحوار ، ومن ذلك المجلس الذي كان يعقده أبو يحيى بن أبي زكرياء الموحدي أمير سبتة ويحضره العلماء ومنهم أبو الوليد إسماعيل بن محمد المعروف بالشقندي وأبو يحيى بن المعلم الطنجي (٤).

رابعا : الاحتفالات

شهد سكان المغرب الأقصى العديد من الاحتفالات والتي كانت تقام في المدن المغربية نتيجة لمناسبات مختلفة ، وقد اشترك أبناء الشعب في هذه الاحتفالات معبرين عن شعورهم وعاطفتهم ازاء هذه الاحتفالات . ويمكننا أن نقسم هذه الاحتفالات باعتبار بواعثها ودوافعها إلى أنواع ثلاثة فهناك الاحتفالات الدينية وأخرى عسكرية ، وأخيرا الاحتفالات المتنوعة نظرا لأسبابها المتعددة .

الاحتفالات الدينية :

١ - وهذه ارتبطت بالمناسبات الدينية المتكررة كصلاة الجمع والأعياد

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٢٣ .

(٢) رابح بونار : المغرب العربي ص ٣٣٥ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٧ بيروت .

(٤) المنوني : العلوم والفنون ص ٤١ ، أنخل جنثالث : تاريخ الفكر الاندلسي ص ٢٩٩ .

والليالى الدينية ، وقد كان لخلفاء الموحدين احتفال خاص بصلاة الجمعة ، حيث يخرجون في موكب من كبار رجال الدولة ، قاصدين المسجد الكبير بالعاصمة ، وهناك يجلس الخليفة ثم تبدأ الشعائر الدينية من قراءة القرآن وآذان المؤذنين ثم خطبة الجمعة وبعد الفراغ من الصلاة يعود الخليفة في موكبه راجعاً إلى قصره^(١) ولا شك أن ذلك يصحبه خروج الناس لمشاهدة الموكب ومشاركتهم في الصلاة مع الخليفة وما يصحب ذلك من مظاهر الفرح والسرور بروية موكب الخليفة .

وكان لشهر رمضان مكانة خاصة . حيث يحتفل به الشعب في كل مكان بإقامة الأذكار وقراءة القرآن وتأدية الصلوات بالمساجد ، وكان الخلفاء يحتفلون بذلك الشهر وذلك بالقراءة في مصحف سيدنا عثمان رضي الله عنه^(٢) وكان الخليفة عبد المؤمن قد أحضره من الأندلس ونقله إلى قصره بمراكش وجعل له أغطية من الجلد المرصع بالأحجار الكريمة^(٣) .

أما أفراد الشعب فكانوا يحتفلون بهذا الشهر في المساجد والحلقات الدينية^(٤) وقد اختص المغاربة ليلة السابع والعشرين بالتعظيم والتكريم^(٥) . وفي رواية أخرى أنها ليلة التاسع والعشرين^(٦) حيث كانوا يقيمون الاحتفالات اعتقاداً بأنها ليلة القدر وهي ليلة معظمة عند سائر المسلمين ، كذلك ليلة عاشوراء حيث كان بعض الصالحين يعدون الطعام ويدعون الناس لتناوله احتفالاً بهذه الليلة^(٧) .

أما الأعياد فكان الخليفة يخرج لتأدية صلاة العيد في موكب من كبار رجال الدولة ، وبعد انقضاء الصلاة يتقدم كبار رجال الدولة لتحية الخليفة وتهنئته ويدعو لهم ثم يذبح كبش بين يديه في عيد الأضحى ، وفي اليوم

(١) المراكشي : المعجب ص ٣٤٣ .

(٢) التنسي : الدر والعقيان ورقة ٤٥ مخطوط .

(٣) نفس المرجع السابق ورقة ٤٥ مخطوط .

(٤) أحمد بن القاسم : المعزى في أخبار أبي يعزى ص ٧ مخطوط .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٩٩ .

(٦) العمري : مسالك الأبصار ج ١٦ قسم ٢ ص ٢٦٨ .

(٧) التادلي : التشوف ص ٢٨٢ .

التالى يجلس الخليفة فى قصره وتأتية الوفود وفى مقدمتها أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة وطلبة الحضر والفقهاء والقضاة والكتاب على ترتيبهم ثم بقية الوفود وذلك للتهنئة بالعيد (١).

وفى بعض الأعياد كان الخليفة يفرق الأغنام على من حوله وذلك ما فعله الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى عيد الأضحى لسنة ٥٦٧ هـ ١١٧١ م حين وزع كباشا على اخوته وأشياخ الموحدين ووجوه دولته (٢) وقد بلغ عدد الأغنام التى فرقها المنصور الموحدى فى عيد سنة ٥٩٤ هـ ١١٩٧ م ثلاثا وسبعين الف شاه من ضأن وماعز وزعها على الأمراء والخدم والفقراء (٣).

وكان القادرون من أفراد الشعب يشترون الكباش كى يضحوا بها فى عيد الأضحى (٤) وكمظهر من مظاهر الاحتفال بالعيد ، كان الناس يلبسون الملابس الجديدة مع التجميل والترزين فى أيام العيد (٥).

ومما يلحق بالاحتفالات الدينية تلك الاحتفالات التى يمتزج فيها الحزن بالمبشاعر الدينية ، حيث كان الناس يخرجون فى شبه مظاهرة دينية للمشاركة فى جنازة أحد الصالحين من العباد والمتصوفين والذين امتلأت بهم المدن المغربية فى القرنين الخامس والسادس من الهجرة ، فابن العريف المتصوف والمتوفى بمراكش سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م حين مات احتفل الناس بجنازته (٦) ويعقوب يوسف بن عبد الله بن مصباح التادلى المعلم من داي من بلاد تادلة ونزل مراكش وبها مات سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م ، فحين مات لم يعلم بموته سوى نفر قليل من حوله ، فلما خرجوا بجنازته من باب الدباغين أتى

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٥٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٥١١ .

(٣) القرى : نفح الطيب ج ٤ ص ١٠١ .

(٤) التادلى : التشوف ص ٢٦٦ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس

ص ١٣٧ .

(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ٤١ ، لى بروفنسال : نخب تاريخية

ص ٣٦ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ١٥٢ .

الناس إليها من كل جهة واحتفلوا بجنائزته وحضرها خلق كثير^(١) وكذلك أبو إبراهيم إسحق محمد الهزرجي والمتوفى بمراكش سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م^(٢)، وأيضا حين مات المتصوف أبو واجاج عفان بن إسماعيل المظماطي بمراكش سنة ٦٠٤ هـ ، احتفل بجنائزته ودفن خارج باب أغمات^(٣) وهكذا كانت وفاة العباد والصالحين فرصة ينتهزها أبناء الشعب للاحتفال بجنائزهم وذلك للتعبير عن تقديرهم واحترامهم للصالحين من أبناء الأمة .

احتفالات عسكرية :

شهدت المدن المغربية منذ قيام دولة المرابطين كثيرا من الاحتفالات العسكرية والتي كان يخرج فيها الناس لمشاهدة عرض عسكري استعدادا لحملة أو خروج ولى الأمر على رأس جنوده إلى معركة من المعارك ، وما يصحب ذلك من مظاهر الفرح والابتهاج التي كانت تعم السكان .

وقد تعود ولاية الأمر استعراض جنودهم قبل الخروج إلى المعارك وذلك باستعراض كتائب الجيش وألويته والسلاح والعتاد أمام مرأى من الناس ، وقد استعرض تاشفين بن علي جنوده في تلمسان سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م^(٤).

واتبع الموحدون عادة العرض العسكري ، وكانت من الأشياء المحببة إلى نفس الخليفة عبد المؤمن أن يجلس ويستعرض جنوده وكتائبه^(٥) ، وكان الناس يخرجون لمشاهدة مواكب الجند وحشودهم وقد استمر العرض العسكري بمراكش سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م شهرا وذلك حين جهز الخليفة يوسف بن عبد المؤمن جنوده للعبور إلى الأندلس والناس يشهدون هذا العرض يقول ابن عذارى « وفيه - أي سنة ٥٧٩ - أمر أمير المؤمنين أبو يعقوب بتسيير الموحدين والعرب والقبائل للغزو .. وذلك التبريز بخارج

(١) ابن المؤقت : السعادة الابدية ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) التافلى : التشوف ص ١٥٢ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٤٢٠ ، ٤٢١ .

(٤) عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١٠ .

(٥) المراكشي : المعجب ص ٢٠١ .

مراكش والناس ينظرون في ذلك كل يوم ، دام هذا الحال شهر جمادى كله ^(١).

ولم يكن الاحتفال بالعرض العسكري قاصرا على العاصمة ، ولكنه كان يشمل كل المدن التي يمر بها الجيش في طريقه إلى المعركة ، ويأتي في مقدمة هذه المدن مدينة تينملل العاصمة الأولى للموحدين ، حيث تعود خلفاء الموحدين زيارة قبر المهدي ومن دفن فيها من خلفاء الموحدين ثم التوجه بعد ذلك إلى المعركة ^(٢) وما يصحب هذه الزيارة من دخول مواكب الخليفة مدينة تينملل وخروج الناس لاستقبالهم والترحيب بهم يقول ابن عذارى ، «وفي هذه الحركة — أي خروج المنصور الموحدي سنة ٥٨٢ هـ إلى قفصة — اخترع آفراك المعد لزيارته في غاية الحسن والجمال وقدم الارتقاء إلى تينملل لزيارة قبر المهدي على جرى عوائد سلفه في تينملل بتقديمه وقضاء حقه وتعظيمه ^(٣)».

ثم تستمر الاحتفالات في سائر المدن التي يحل بها جيش الخليفة ، ففي مدينة فاس خرج الناس للاحتفال بجيش المنصور الموحدي سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م ، ونصبوا الموائد لإطعام الجند ^(٤).

وكانت مواكب الموحدين ونظمها وما يصحبها من دق للطبول ، ونشر للألوية سببا قويا في احتشاد الناس لرؤية هذه المواكب والاحتفال بها وتوديعها أو استقبالها عند عودتها .

ولم تشر المراجع التي اطلعت عليها إلى النظام الذي اتخذته المرابطون في مواكبهم ، وربما يرجع هذا إلى ميل المرابطين للبساطة وبعدهم عن كل مظاهر الفخامة ، مع طمس الموحدين لأخبارهم .

أما مواكب الموحدين فقد وضع نظامها وطريقة سيرها داعية الموحدين

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٤ ، ٥٥ تطوان .

(٢) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٤٢ تطوان ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثاني ص ١٥٩ .

(٣) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ١٠١ ، ١٠٢ تطوان .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٣ تطوان .

ابن تومرت وقد أشار إليها ابن القطان بقوله « وعلم — أى ابن تومرت — الناس الحركة كيف تكون ، فأمرهم إذا عزموا على الركوب أن ينادى منادى : الاستخارة بالله والتوكل عليه ، وإذا تحركوا أن يقدموا أمامهم لواء أبيض مع عدد من الرجال يكون بينه وبين الأمير مقدار ربع ميل ، ويكون الأمير متقدما على الناس خلف اللواء المذكور في جملة من يختص به يحفون به ، ثم تتبعهم الرايات الكبار ، والطبول والعسكر المعروفون بالساقة ، ثم كل قبيل على ترتيب وحسن هيئة معه علامات » (١).

وقد التزم الموحدون بهذا النظام وأضافوا إليه وضع مصحف سيدنا عثمان رضى الله عنه — وذلك بعد احضاره بواسطة الخليفة عبد المؤمن من الأندلس — مع مؤلفات المهدي محمولة على دابة مزينة بالأكمشة الفاخرة (٢).

وقد أعطانا ابن صاحب الصلاة وصفا تفصيليا لأحد مواكب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين عزم على العبور إلى الأندلس سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م وذلك بعد إعداد جنده ، خرج الموكب في صباح يوم السبت الرابع من شهر رجب الموافق الثالث عشر من شهر مارس سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م ، من باب دكالة ، وقد اجتمع الناس واحتشدوا لتوديع الخليفة الذى ملأت جنوده ساحة العرض ، فسارت كوكبة من الخند بأعلامها البيضاء ، ثم الخليفة ووراءه الأعلام والطبول ، وأمام الخليفة مصحف سيدنا عثمان محمولا على جمل مرتفع وقد غطى بكلة حمراء تصونه ، وقد وضع في حفاظ مرصعة بالجوهر النفيس والياقوت الأحمر والأصفر والأخضر والزمرد ، وأمام هذا المصحف مصحف المهدي بن تومرت ، وسار خلف الخليفة كبار رجال الدولة من أمثال الوزير أبي العلاء ادريس بن أبي إسحاق بن جامع والشيخ أبي محمد عبد الواحد بن عمر صاحب المهدي ومن أولاد الجماعة أبي عبد الله محمد بن أبي حفص بن علي أزناق وأبي محمد عبد الله المالتى شيخ

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٧ .

(٢) التنسي : الدر والعقيان ورقة ٤٥ مخطوط ، المراكشي : المعجب ص ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٥ ، ١١٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٦ تطوان .

طلبة الحضر وقاضي الجماعة ، ثم بعد ذلك سائر الجند على ترتيب قبائلها ومنزلتها^(١) وكانت أغلب هذه المواكب تخرج في شهر صفر حيث كان الموحدون يفضلون السفر في هذا الشهر^(٢) إلا إذا دعت الظروف للخروج في غير هذا الوقت فلأنهم كانوا يخرجون .

ومما زاد في جمال هذه المواكب ، تلك الرايات والاعلام مع الطبول الضخمة التي كانت تصحب هذه المواكب ، فأما الرايات فلم يختص المرابطون بلون معين حيث استخدموا الرايات البيضاء والحمراء وغيرها من الألوان^(٣) أما رايات الموحدين فكانت الراية الأساسية بيضاء وقد كتب عليها في عهد ابن تومرت « الواحد الله محمد رسول الله ، المهدي خليفة الله ، على جانب منها ، والجانب الآخر : وما من إله إلا الله ، وما توفيق إلا بالله ، وأفوض أمري إلى الله »^(٤) ، واستمر اللون الأبيض مع بقية الخلفاء ، مع اتخاذهم لأعلام ملونة أخرى حمراء وصفراء وغير ذلك من الألوان^(٥) ولاشك أن هذه الأعلام بألوانها المختلفة كانت تبهج الناس وتسهرهم .

وبجانب ذلك كانت هناك دقات الطبول ذات الأصوات الضخمة وقد استخدمها المرابطون في جيوشهم^(٦) واتبعها الموحدون وجعلوا عدد الطباليين سبعة^(٧) ولهم رئيس ينظم ضرباتهم وكان رئيسهم في عهد المنصور الموحدي يسمى حمادا^(٨) وكان من اختصاص الخليفة وحده أن يأمر بدق الطبل وليس

-
- (١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٨ الى ص ٤٤١ .
 (٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٦ ص ٨ ، ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص ٦٣ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٨٩ .
 (٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٩١ ، ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٩ .
 (٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٧ ، ١٢٨ .
 (٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٤٦ ، التنسي : الدر والعقيان ورقة ٤٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٦ تطوان ، الجيلالي : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٩٢ .
 (٦) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٨٣ .
 (٧) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٩ .
 (٨) العيني : عقد الجمان ج ١ قسم ٢ ص ٢٣٣ .

لسواه ذلك^(١) وهذا يرجع إلى أن دقات الطبل بمثابة الأوامر حيث أن دقاتها تشير إلى بدء حركة الجيش أو توقفه وبدء المعركة وكلها من الأمور الخطيرة . وكانت علامة المسير في مواكب الموحدين ثلاث دقات تسمع على مسيرة نصف يوم^(٢).

ومما يلحق بهذه المواكب العسكرية احتفالات النصر بمعركة من المعارك ، حيث كانت الفرحة تعم البلاد ويخرج الناس الأموال تصدقا على الفقراء وشكرا لله كما حدث في نصر الزلاقة^(٣). وتدفق الطبول ابتهاجا بالنصر ، ومجلس الخلفاء في مجالس التهئة ، وما يصحب ذلك من توزيع الأموال وإقامة الحفلات حيث يقوم الفرسان بتقديم بعض الألعاب العسكرية ومن ذلك ما حدث بأشبيلية يوم أن دخلها المنصور منتصرا سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م « وفي يوم هذا الوصول نزل — أي المنصور الموحدى — على أشبيلية في غاية الحفل ، وركب السودان على النجب البيض وبأيديهم الدرق وعلى رؤوسهم طرايطر الطيلسان الشديدة الحمرة ، وصدور النجب منظومة بجلاجل على شكل السفرجل والأغزاز بضروب الحلل ، فظهر مرأى تحار فيه الأبصار وتذهل الخواطر والأفكار »^(٤). وهكذا كان الاحتفال بالخروج للغزو أو فرحا بالنصر مناسبة يشارك فيها السكان بالفرح والسرور .

احتفالات متنوعة :

وهي الاحتفالات التي كانت تقام في العاصمة وغيرها من المدن المغربية بسبب حدث هام أو مجيء وفد أو تشييد إحدى المنشآت ، ويأتى في مقدمة الأحداث الهامة التي كانت تمر بها البلاد ، تولى أحد خلفاء الموحدين منصب رئاسة الدولة فهذا يعنى مجيء كثير من الوفود المايعة إلى العاصمة والاحتفال

(١) نفس المرجع السابق ج ١ قسم ٢ ص ٢٣٣ .

(٢) اشباخ : تاريخ الاندلس ج ٢ ص ٥٤ ، الميلى : تاريخ الجزائر

ج ٢ ص ٢٢٧ .

(٣) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ٦١ ، ٦٢ ت الفيلالى ، السلاوى :

الاستقصا ج ٢ ص ٤٩ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٣٨ تطوان .

بمبايعة الخليفة الجديد ، وبجانب ذلك كانت توزع الأموال ويُصدر العفو عن المسجونين وما يصحب ذلك من فرحة وسرور تعم أرجاء البلاد^(١) يقول ابن أبي زرع « ولما تمت له — أى للخليفة المنصور الموحدى — البيعة وأطاعته الأمة ، كان أول شيء فعله أنه أخرج مائة ألف دينار ذهباً من بيت المال ففرقها في الضعفاء من بيوتات بلاد المغرب ، وكتب إلى جميع ولايته في تسريح السجون ورد المظالم التي فعلها العمال في أيام أبيه^(٢) وإلا شك أن الإفراج عن المسجونين وتفريق الأموال يحدث موجة من البشر والفرح في نفوس المواطنين .

ومن الأحداث الهامة التي تقام فيها الاحتفالات ، استقبال الخليفة لوفد من الوفود حيث كانت تقام الاحتفالات ويجلس الخليفة لاستقبال الوفود القادمة ، وما يصحب ذلك من لقاء القصائد والخطب في الحشود المهيمة^(٣) وقد أعطانا ابن صاحب الصلاة وصفا شائقا للاحتفالات التي أقيمت في العاصمة مراكش بمناسبة استقبال الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وفود العرب القادمة لمبايعته سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م فما أن وصلت الأنباء باقتراب وفود العرب من العاصمة حتى صدرت الأوامر لجميع الموحيدين أن يستعدوا ووزعت عليهم الدروع والبيضات والرماح والدرق والأسلحة والكسوات والرايات ، فلما كان يوم السبت وهو موعد اقتراب العرب من العاصمة ، بكر جميع الناس من الحفاظ والطلبة من الموحيدين وجميع القبائل من العسكر وتوجهوا إلى باب قصر الخلافة ، وأحضرت معهم الطبول المربعة الأشكال وكان عددها مائة طبل ، فلما علم الخليفة باستكمال أسباب الاحتفال ، ركب الخليفة على فرسه الأشقر ، والوزير سائر على قدميه لصق ركابه ،

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٤٧ ، ٣٥٣ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ١ تطوان ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ابن عبود : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٣٦ ، ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٩٦ .

S.p. Scott : History of Moorish Empire. V.2, p; 77.

(٢) ابن أبي زرع : الانيس ص ١٥٦ ، ١٥٧ طبع حجر .

(٣) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٥ ت. الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١١٩ .

وقريب من الخليفة أبناء الخليفة وسائر كبار رجال الدولة ، وخلف هؤلاء ست عشرة راية من البنود المصنوعة المعدة لهذا الغرض ، ويبد كل رجل من أعيان الموحدين راية ، وعليه درع سابغة تلمع لمعان اللجين الخالص في شعاع الشمس ومن معه يلبس درعا سابغة ، وكذلك سائر الأجناد من الحشم والروم والعييد والجميع من الناس .

وخرج هذا الموكب والطبول تدق من باب الشريعة أحد أبواب مراکش إلى ساحة واسعة خارج العاصمة ، وأقيم للخليفة خباء نزل فيه هو وكبار رجال الدولة ثم أمر الخليفة بأن يقام عرض تبرز فيه ألوان المهارة في الطعن والضرب بين جند الموحدين وجند العرب .

وأقيم العرض ، وقد أعجب الحاضرون من تنوع الألعاب والمهارة في تأديتها ثم سمح الخليفة للقادمين بالاقتراب والسلام ، فجاءوا على ترتيب ، وقد تولى الوزير ترتيب دخولهم على الخليفة ، ثم أمرهم الخليفة بدخول العاصمة والنزول في الأماكن المخصصة لهم ، وعاد الخليفة في موكبه إلى العاصمة (١) .

أما في اليوم الثاني فقد أذن لهم في الدخول على الخليفة في قصره لمبايعته وأخذ العهد عليهم (٢) ثم أمر الخليفة بعد ذلك بإقامة الموائد لاطعام العرب والناس الوافدين إلى البحيرة (٣) خارج مراکش مدة خمسة عشر يوما ، يدخل البحيرة في كل يوم أزيد من ثلاثة آلاف رجل (٤) .

وهكذا شهد سكان العاصمة موكب الخليفة ، والعرض الذى قدمه فرسان الموحدين والعرب وموائد الطعام التى مدت لاطعام القادمين ، وما تخلل ذلك من مظاهر الفرح والسرور .

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٠ الى ص ٤٣٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٣٣ .

(٣) البحيرة : عرفت البحيرة في مراکش منذ اواخر أيام المرابطين فكانت ملتقى لمعركة بين عبد المؤمن والمرابطين ، لكن الموحدين عنوا بها كامل العناية واتخذوا منها مكانا لتجمعهم ، وهى تعنى نسيحا يحتوى على بركة مائية واسعة تحيط بها الخضرة بالإضافة الى أروقتاوى اليها رجال الحكم : ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٣ حاشية () .

(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٣ .

كذلك الاحتفال الكبير الذى أقامه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن عند استقبال أخيه السيد أبى حفص فى العاصمة مراکش حيث خرج فى موكب ضخم ، وأقيمت فى الساحة المعدة لاستقباله أنواع الألعاب المختلفة مع دق الطبول واحتشاد الناس لرؤية هذا الاستقبال الكبير (١).

ومن الاحتفالات التى شهدتها العاصمة مراکش مناسبة شفاء الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وجلوسه للناس الذين أقبلوا من كل مكان لرؤية الخليفة والاطمئنان عليه وما صاحب ذلك من احتفالات وتفريق الأموال (٢).

يضاف إلى الاحتفالات السابقة تلك الاحتفالات التى كانت تقام ابتهاجا باتمام بعض المنشآت ، ويأتى فى مقدمة تلك الاحتفالات ، الاحتفال الكبير الذى أقيم بجبل الفتح بعد إنشاء مدينة عليه بأمر الخليفة عبد المؤمن ، وكان الاحتفال سنة ٥٥٥ هـ / ١١٥٩ م حيث جلس الخليفة ، وأتته الوفود من جميع أرجاء البلاد ومعهم الشعراء والأدباء حيث ألقى الخطب والقصاصد ابتهاجا بهذا العمل العظيم والخليفة يوزع الأموال بهذه المناسبة السعيدة (٣) وهكذا شهد الشعب المغربى العديد من الاحتفالات التى شارك فيها معبرا عن فرحته وسعاده .

خامسا : وسائل التسلية

استمتع أفراد الشعب فى المغرب الأقصى بأوقات فراغهم بوسائل التسلية المختلفة ، وذلك ترويحاً عن أنفسهم من عناء العمل ومجديداً للنشاط وبعثاً للحياة والقوة ، ومن هذه الوسائل ارتياد الحدائق والمنتزهات ، وسماع الموسيقى والغناء وغير ذلك من ألوان التسلية وشغل الفراغ .

١ - المنتزهات :

انتشرت فى كثير من المدن المغربية الحدائق والبساتين ، التى اتخذها ولاة الأمر والناس مكانا للترويح والترويح ، ويأتى فى مقدمة هذه الحدائق تلك

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٨٩ الى ص ٢٩١ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤١٩ الى ص ٤٢١ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٤٨ الى ١٥٩ ، ابن الخطيب : الاحاطة : القسم الاول ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ت عنان .

الحديقة الكبيرة التي أنشأها الخليفة عبد المؤمن وتعهدها الخلفاء من بعده وغرس فيها أنواعا كثيرة من الثمار^(١) وكذلك المنزهات التي أنشأها الموحدون بمدينة سلا^(٢) وحداثق سبتة والتي وصفها العمري بقوله « وفي بر العدو أماكن للفرجة متعددة آخذ هكذا بمجامع القلوب ، وأزمة الأبصار ببلونش منزهه بظاهر سبتة على البحر في نهاية من حسن الوضع والتخدير المياه التي لها على الصخور دوى والتفاف الأشجار .. »^(٣) واشتهر جبل غمارة بكثرة المنزهات^(٤).

وكانت هذه المنزهات مقصدا لخلفاء الموحدين وعامة الناس منهم فالمنصور الموحدى كثيرا ما تريض في البستان الكبير بمراكش^(٥) وقد ألحقت بهذه المنزهات البرك المائية الكبيرة التي كان يتعلم فيها الطلبة الحفاظ^(٦) السباحة ، بجانب أبناء الشعب وقد أشار صاحب كتاب الاستبصار إلى أنه كان يسبح في هذه البركة « وبني فيها — أى عبد المؤمن على — وخارجها صهريجين عظيمين كنا في تلك المدة نعوم فيهما فلا يكاد القوي منا يقطع الصهريج إلا عن مشقة وكنا نتفاخر بذلك »^(٧).

وهكذا كان أبناء الشعب يجدون وسيلة للتسلية وذلك بالسباحة في بركة البستان ، يضاف إلى ذلك أن الناس كانوا يستخدمون فيها الزوارق للترفيه والتسلية^(٨) وفي منزهات سلا أعدت أماكن خاصة للخليفة وحاشيته ، حيث كانوا يجلسون لمشاهدة الزوارق وهي ممثلة بركابها وقد أحاطت بهم مختلف الأشجار والثمار وقد وصف ذلك المكان صاحب كتاب الاستبصار بقوله « وناهيك من ساحل طوله نحو الميلى وعرضه نحو الميل مملؤ بالبشر والزوارق »

-
- (١) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٩ ، ابن المؤقت : السعادة الإبدية ج ٢ ص ١٩٠ .
 (٢) مجهول : الاستبصار ص ١٤١ .
 (٣) العمري : مسالك الأبصار ج ٣ قسم أول ص ١١٧ .
 (٤) مجهول : الاستبصار ص ١٩٠ .
 (٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٨٨ تطوان ، ابن المؤقت : السعادة الإبدية ج ٢ ص ١٩٠ .
 (٦) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .
 (٧) اكتسوس : الجيش العرمم الخماسى لوحة ٢٠٢ ، عيسى المراكشى : الاعلام ج ١ ص ١٠٣ .

في الوادي بركابها ، والمئارة المظلة ، وعلاقات الثمار وعقد الزيتون ، وجدر الكرمات وقبب الجلوس للسادات أيدهم الله ظاهرة» (١) وهذا النص يشير إلى تطلب الناس إلى الشواطئ للاستجمام .

كما كان يلجأ بعض الأفراد إلى إنشاء حديقة صغيرة ، فوق سطح منزله وذلك ليقضى فيها وقته مع أصحابه « فرفع إلى المنصور — أثناء وجوده بفاس سنة ٥٨٢ هـ أن أبا القاسم بن الملجوم بنى غرفة في داره يشرف منها على بعض جيرانه وجعلها منزلاً له ولاخوانه » (٢).

٢ — الموسيقى والغناء :

حين أقبل المرابطون إلى المغرب الأقصى ، حرص داعية المرابطين على القضاء على وسائل اللهو وحرقت متاجر الخمر وذلك ما فعله بمدينة سجلماسة (٣) متبعين في ذلك التعاليم الدينية التي يدعو إليها ، إلا أن هذه الشدة في بدء قيام الدولة ، أخذت تخف حدتها بعد ذلك ، وصارت هناك بعض الحوارى اللائى بحسن الغناء مما مكن يوسف بن تاشفين من إهداء المعتمد بن عباد جارية مغنية (٤).

ثم مال المرابطون إلى ألوان الترف وذلك بعد احتكاكهم بالأندلسيين وإطلاعهم على أساليب الحياة في المدن الأندلسية مما جعلهم يتأثرون بحياة الرفاهية والمتعة التي كان يحياها أبناء الأندلس ، وصارت هناك المجالس التي يحضرها المغنون والشعراء (٥) ، وأصبحت أدوات اللهو والغناء متوفرة في الملوك المغربية مما جعل ابن تومرت ينقم على المرابطين تهاونهم في محاربتها ، وأخذ على عاتقه تكسيرها ، فحين دخل مدينة فاس وجد زقاقاً به حوانيت امتلأت بالأنواع المختلفة من أدوات الموسيقى والغناء فكسرها هو وأصحابه (٦).

(١) مجهول : الاستبصار ص ١٤١ .

Nevill Barbour ; morocco p 5٥

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٣ تطوان .

(٣) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ٢٠ .

(٤) المقرئ : نفع الطيب ج ٦ ص ١٢ .

(٥) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

(٦) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٠٨ ت الفيلالي ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٧٦ ، د. يحيى هويدي : أعز ما يطلب ص ٣٧٦ مجلد ٤ عدد ٥ تراث الانسانية سنة ١٩٦٦ .

يقول البيهقي « فقال لنا — أى ابن تومرت لأصحابه — خضوا مقارعكم وسرنا معه ولا علمنا أين يتوجه حتى وصلنا زقاق بزقالة ، قال لنا تفرقوا على الحوانيت ، وكانت الحوانيت مملوءة رفوفا وقرقر ومزامير وعيداناً وروطا وأربية وكتيارات وجميع اللهو فقال لنا المعصوم اكسروا ما وجدتم من اللهو ... » (١).

واقضى الخليفة عبد المؤمن سياسة المهدي في محاربة وسائل اللهو والغلبة ومحاربة المغنين وأخذ أصحابه بأحكام الدين يقول النويري « ولا هو ولا هم ولا تحت أمره — أى أمر عبد المؤمن بن علي ، بل تلاوة كتاب الله العزيز ، ومدارسة الأحاديث الصحيحة النبوية ، والاشتغال بالعلوم الشرعية وإتمام الصلوات فهذا كان دأب أصحابه » (٢).

إلا أن هذا التشدد من جانب الخليفة وأصحابه لم يجد استجابة كاملة من الشعب ، حيث وجدت أنواع الملاحى المختلفة في المدن المغربية مما دفع الخليفة عبد المؤمن إلى إصدار منشور عام إلى أهل بجاية وغيرهم من سكان المدن المغربية سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ م يتضمن عدة أوامر ومنها محاربة أصحاب الملاحى ومصادرة آلاتهم ، ومما جاء فيها « وأمر بالكشف عن التلصص والحراية ، والتولج في مكان الريب والغواية ، والاجتماع على السير الجاهلية والملاحى على فنونها وأنواعها وضروبها واختلاف آلاتها ، وما يتبعها من المتأكر الناشئة عن أصل الجهالة .. فاكشفوا عن هذه الأصناف وأثروهم عن مكائهم .. » (٣).

وقد كرر المنصور الموحدى نفس أسلوب جده في محاربة المغنين حيث انتشروا في كل مكان ومن ثم أمر بالقبض عليهم ومصادرة آلاتهم في سنة ٥٧٠ هـ / ١١٨٤ م « ثم أمر — أى المنصور الموحدى — بقطع المهين والقبض على من شهر من المغنين فتقف من وجد منهم بكل مكان ، فغيروا هيئاتهم

Julien : History de L'Afrique, p; 120, S.p. Scott; History of Moorish Empire P: 293.

(١) البيهقي : أخبار المهدي ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٨ .

(٣) مجموع رسائل موحيديه ص ١٣٣ ، ١٣٤ ت ليفي بروفنسال .

وتفبرقوا على الأوطان وبارت سوق القيان وزهد كل الزهد في هذا الشأن» (١)
وتفكرنا لعبت المبادئ الدينية التي قامت عليها الدولة دورها في محاربة
المغنين .

٣٠ - وسائل تسلية أخرى :

كانت بركة الماء التي انشأها الخليفة عبد المؤمن في بستانه ، مكانا يسبح
فيه أبناء العاصمة ، وقد سبق أن أشرت إلى ذلك ، وبجانب ذلك كانت هناك
رجال الصيد التي يخرج فيها الناس لصيد الحيوانات المختلفة من الغابات
المتنشرة في أرجاء البلاد ، فابن حماد صاحب بجاية ، حين استقر بمراكش
بعد أن تراخى ملكه كان يشغل نفسه بالصيد مستخدما في ذلك شبك الحديد ،
وفي بعض الأحيان كان يهدي ما يصطاده للخليفة عبد المؤمن (٢).

وقد يفد على البلاد صاحب ألعاب ، ليعرض فنونه على الناس ، ومن
ذلك ما رواه العيني من أنه في عصر المنصور الموحدي قدم إلى مراكش رجل
يوقص الدب ومعه امرأته ليعرض ألعابه (٣).

سادسا : الطعام والشراب

تفنن سكان المغرب الأقصى في صنع كثير من ألوان الطعام ، وصارت
موادهم حافلة بأنواع المختلفة من الأطعمة والحلوى والأشربة وذلك خلال
فترة البحث وقد ذكر مؤلف كتاب الطبخ في المغرب والأندلس وهو
معاصر لدولة الموحدين أكثر من خمسمائة لون من ألوان الطعام ، وقد اختلفت
طريقة صنعها ، كما أن بعضها يعطينا صورة لمدى الثراء والرفاهية التي كان
يعيش فيها بعض أفراد المجتمع .

وإذا تتبعنا ألوان الطعام بالمغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين
لوجدنا أن القبائل القادمة من جنوب الصحراء وهي لمتونة ومسوفة وغيرها
من القبائل الصنهاجية ، والتي كانت تتمتع الرعي ، اتخذت من لحوم الأغنام

(١) ابن حذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٨١ تطوان .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٣ ، حركات : المغرب عبر
التاريخ ص ٣٥٥ .

(٣) العيني : عقد الجمان ج ١ قسم ٢ ص ٢٣٤ .

وألبانها طعاما لها (١)، وقد يأكلون الخبز في بعض الأحيان وذلك عن طريق القوافل التي تمر بهم وتهديهم الخبز والدقيق (٢).

فلما انتقلت هذه القبائل إلى المغرب الأقصى واختلط أبناؤها بسكان البلاد بدءوا يأكلون مما يأكل منه بقية الناس غير أن أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين ظل متمسكا بعاداته الأولى التي تربى عليها في الصحراء وذلك أبرغم اتساع ملكه وسلطانه فقد ظل طعامه الشعير ولحوم الإبل وألبانها (٣) « وأكله — أي يوسف بن تاشفين — الشعير ولحوم الإبل وألبانها مقتصرًا على ذلك لم ينتقل عنه مدة عمره » (٤).

وقد اشتهرت بعض المدن بألوان معينة من الطعام كطعام حصحصت المعروف بمراكش وهو لحم مخلوط ببعض التوابل (٥) وكاشتهار سكان مراكش وسكان تارودنت بأكل الجراد (٦).

وكان هناك طعام وطني يأكلونه في المناسبات الهامة ، هو طعام آسماس ولم تشر المراجع إلى مكوناته سوى ما ذكره البيهقي من أن ابن تومرت حين صنع لأصحابه طعام آسماس وضع الملح بيده ، وأنه أكل من ذراع كبش كان في الطعام مما يفيد أنه يتكون من كبش أضيف إليه الملح . وقد أكله جنود الموحدين بعد إحدى معاركهم مع المرابطين (٧) وحين انضم أحد زعماء

(١) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية ص ١٦٤ ، ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٨٧ ، مجهول : تواريخ مدينة فاس ص ٢٧ .
Nevill Barbour ; morocco, p; 50,

S.p. Scott ; History of moorish Empire, V.2, p; 189.

(٢) مجهول الاستبصار ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ٦ ت الفيلاي .
مجهول الاستبصار ص ٢١٢ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٣٤ ت العبادي ، ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٠٤ ، ابن المؤقت : السعادة الابنية ج ٢ ص ٨٩
Budgett ; The moorish empire, p; 53.

(٤) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ٣٦ ت الفيلاي .
(٥) مجهول : كتاب الطبيخ في المغرب والاندلس ص ٨٧ ، ت ميراندا مدريد سنة ٦٥ .

(٦) الادريسي : وصف المغرب ص ٦٩ ، ٧٠ ، د. شعيرة : المرابطون ص ١٨ .

(٧) البيهقي : اخبار المهدي ص ٧٣ .

(م ٢٨ — الحضارة)

المرابطين إلى الدعوة الموحدية وهو يحيى الصحراوي ، فرح الخليفة عبد المؤمن بانضمامه وصنع لهم طعام آسماس^(١) وعندما تولى الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن الحكم صنع للناس طعام آسماس وأكلوه^(٢) وهكذا كان طعام آسماس هو الطعام المفضل في مثل هذه المناسبات السعيدة .

وهناك بعض ألوان الطعام المنسوبة إلى بعض الفئات والأشخاص ، ومن ذلك طعام الخاصة والمسمى بالصنهاجي الملوكي وهو مكون من لحوم البقر والغنم والدواجن ويستعمله الخاصة^(٣) وطعام الأمازيغ وهو خاص بالملوك والرؤساء ويتكون من أمازيغ ما يذبح من الحيوانات والطيور^(٤) .

وبعض الأطعمة تطلق عليها اليهودية ومنها الفروج اليهودي^(٥) والحجلة اليهودية^(٦) وطعام الأحرش ، وكان يصنع للسيد أبي الحسن حفيد الخليفة عبد المؤمن والوالى على إقليم مراکش سنة ٥٨٢هـ^(٧) وكان يصنع له أيضا طعام الثومية^(٨) أما الوزير سعيد بن جامع فكان يصنع له مجبنة البيض وهى من اختراع موسى بن الحاج يعيش المحتسب بمراكش^(٩) وأبو العلاء ادريس أحد إخوة الخليفة يوسف بن المؤمن وكان واليا على سبتة فكان يصنع له بطريقة خاصة عجل مشوى^(١٠) وطريقة صنعه تدل على مدى الرفاهية التى كان يتمتع بها الولاة وكبار رجال الدولة أما فى قصر المنصور الموحدى فكان يصنع له سنبوسك خاص بالقصر^(١١) .

وهناك أطعمة منسوبة فى طريقة صنعها إلى بعض البلدان الأخرى فمنها

-
- (١) نفس المرجع السابق ص ٩٤ .
 - (٢) نفس المرجع السابق ص ١٢٠ .
 - (٣) نفس المرجع السابق ص ١٢١ .
 - (٤) مجهول : كتاب الطبخ ص ٢٤ .
 - (٥) نفس المرجع السابق ص ٣٥ ، ٣٦ .
 - (٦) نفس المرجع السابق ص ٦٨ .
 - (٧) نفس المرجع السابق ص ٦٧ ، ٧٠ .
 - (٨) نفس المرجع السابق ص ٢٢ .
 - (٩) نفس المرجع السابق ص ٤٦ .
 - (١٠) نفس المرجع السابق ص ٢٠٠ .
 - (١١) نفس المرجع السابق ص ٣٢ ، ٣٣ .

أطعمة مصرية كاللون المصري^(١) والمرزونة المصرية^(٢) والفروج المصري^(٣).
ومنها ما ينسب إلى الدولة العباسية كاللجاجة العباسية^(٤) والبرمكية^(٥)
والبورانية منسوبة إلى بوران بنت الحسن بن سهل^(٦).
ومنها ما ينسب إلى الأندلس ومنها الخوت المروج^(٧) وطعام المحبنة^(٨)
ومنها ما ينسب إلى أهل إفريقية ومنها القرصة التونسية^(٩) والمعلل
المستخدم في الولايم^(١٠).

وهناك أطعمة تصنع بحسب فصول السنة ، ففي الصيف كان طعام
الفروج بالقرع وطعام السكبا^(١١) أما في الخريف فكانت أنواع اللحوم
المصنعة في برمة^(١٢)، أما في الشتاء فاللحم السمين مضافا إليه بعض المواد^(١٣).
وهكذا حفلت المائدة المغربية بأصناف الطعام والتي اختلفت بحسب
المكان والزمان والطوائف والأشخاص وتنوع الأطعمة يشير إلى الرخاء
الاقتصادي مع الرفاهية التي كان يحياها الشعب في هذه الفترة ، مع الاستقرار
الذي أتاح لهم التفتن في اختراع واقتباس كل هذه الطرق في صنع الطعام .
وكان أكثر من صنف ولون يقدم على موائد كبار رجال الدولة ، في نظام
وترتيب^(١٤) وهذا يدل على مدى التمدن الذي وصل إليه أبناء المغرب .

-
- (١) مجهول : كتاب الطبخ ص ٢١٣ .
 - (٢) نفس المرجع السابق ص ٢٥ .
 - (٣) مجهول : كتاب الطبخ ص ٤١ .
 - (٤) نفس المرجع السابق ص ٧٢ .
 - (٥) نفس المرجع السابق ص ٤٥ .
 - (٦) نفس المرجع السابق ص ٤٨ .
 - (٧) نفس المرجع السابق ص ١٦٤ .
 - (٨) نفس المرجع السابق ص ١٧٦ .
 - (٩) نفس المرجع السابق ص ١٩٩ .
 - (١٠) نفس المرجع السابق ص ٢٠٦ .
 - (١١) نفس المرجع السابق ص ٢١٥ .
 - (١٢) نفس المرجع السابق ص ١١٠ ، ١١٢ .
 - (١٣) نفس المرجع السابق ص ١١٢ .
 - (١٤) نفس المرجع السابق ص ١١٢ .

أما الأشربة المشهورة والتي كان يقبل عليها أبناء الشعب فمنها شراب الرب وكان أكثر شراب المصامدة^(١) وحين نصب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموائد لإطعام العرب سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م صنع لهم نهرا من رب ممزوجا بالماء لشربهم^(٢) أى صنع لهم كميات ضخمة من شراب الرب تكفى هذه الجموع الكثيرة والرب هو الطيبخ الخائر من عصير العنب^(٣) وكانوا يشربونه لأنه يهث الحرارة في أجسامهم وبذلك يتحملون شدة برد جبل درن^(٤).

ويبدو أن الناس أسرفوا في تخميره حتى صار مفعوله مفعول الخمر مما دفع الخليفة عبد المؤمن إلى إصدار رسالة سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ م يأمر فيها بالكشف عن شراب الرب وصانعيه ومدى مطابقتها للشرع وقد جاء فيها « وأمر بالنظر في الربوب وتمييزها والهجوم على بائعيها ومدمني شربها ومستعمليها فإراق مسكرها ، ويقطع منكرها ، وليعمد إلى من عمل المسكر الحرام عامدا ، وشربه مدمنا عليه ومعاهدا ولم تردعه الحدود .. فيمحي أثره ، ويحذف خبره »^(٥).

إلا أن بعض أفراد الشعب استمر في اتخاذ الرب كمادة مسكرة وذلك بزيادة تخميره مما دفع المنصور الموحدي سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م إلى تحريمه نهائيا وذلك عن طريق رسالة أصدرها من العاصمة تحمل هذا الأمر « فان تجوزوا في أمر الرب تجوزا أغفلوا فيه الاجتهاد ، ورتعوا حول حماه أوقعهم فيه .. ولم يزل الاشتداد في هذا الأمر القائم بالحق ... يتناولهم بأبلغ الزجر والقمع والاحتساب ... والحال الدميمة يزداد بهم تماديها ... والذي أطلقه هذا الأمر العزيز منه وأجاز فيه مباح البيع والشراء ما أنهى طبعه غاية

(١) مجهول : الاستبصار ص ٢١١ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٧٤ حاشية .

(٤) مجهول : الاستبصار ص ٢١٢ .

(٥) مجموع رسائل موحديه ص ١٣٣ .

الإنهاء ، وصير جرمه في قوام الطلاء كما فعل عمر رضى الله عنه ... ولما تقرر عندنا من الالتباس في ذلك ما تقرر .. رأينا والله المستعان .. أن قطعه بالكلية أخلق بالاحتياط لديهم وأجدر ... فلماذا وا فاكم كتابنا هذا بحول الله عز وجل فاقطعوه جملة وتفصيلا ولا يوجد أحد إلى بيعه سيلا واشتدوا في ذلك اشتدادا ... وعاقبوا من تجددونه عنده أشد عقوبة» (١).

وهكذا حرم مشروب الرب حين تغالى الناس في طبخه فصار مسكرا كالخمر ومن هنا صار محرما .

وكان المصامدة يشربون أيضا شراب أنزير وهو حلو وله تأثير شديد كالخمر (٢) أما طريقة صنعه فانهم يأخذون عصير العنب الحلو فيطبخونه بالنار إلى أن يذهب منه الثلث ويزال عن النار ويرفع ويخلطونه بما يماثله من الماء ثم يشربونه (٣) ، أما قبائل صنهاجة فكانوا ينقعون الزبيب في الماء ويشربون صفوه نقيعا حلوا (٤) وهكذا تعددت الأشربة وتنوعت .

سابعاً : الملابس

انتشر استخدام الملابس الصوفية بين السكان في عهد المرابطين وأصبح أكثر الناس يلبسون الأكسية الصوفية والعمائم على رؤوسهم ، وهذا يرجع إلى وفرة الأغنام التي كانت ترعى في سهول المغرب وهضابه ومن جلودها تؤخذ الأصواف اللازمة لصنع الملابس ، بالإضافة إلى أن كثيرا من القبائل التي انتقلت من الجنوب وأقامت بالمغرب الأقصى كانت ملابساها مصنوعة من الصوف ، فملابس لتونة ولمطة كانت أكسية الصوف وعلى رؤوسهم عمائم الصوف المسماة بالكرازى (٥) وقد ظل أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين مستمسكا بملابسه الصوفية ، بالرغم من اتساع سلطانه وعظم

(١) مجموع رسائل موحديه ص ١٦٤ الى ص ١٦٧ .

(٢) الادريسي : وصف المغرب والاندلس ص ٦٢ .

(٣) الادريسي : وصف المغرب ص ٦٣ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٥٩ ، ابن سعيد : نزهة الانظار

ج ١ ص ١٠ .

(٥) الادريسي : وصف المغرب ص ٥٨ .

نفوذ^(١)، « لباسه — أى يوسف بن تاشفين — الصوف لم يلبس قط غيره »^(٢) وكانت ألوان ملابسهم متنوعة ، وقد غلب عليها اللون الأسود وخاصة بعد اتصالهم بالخلافة العباسية مستمدين منها الصفة الشرعية لحكم البلاد ، ومن هنا كانت أعلامهم وملابسهم سوداء^(٣) وبجانب ذلك كانت الألوان الأخرى من ملابس كحلية اللون^(٤) أو الملابس الصفراء والبيضاء^(٥).
أما الخندى المرابطى فكان يترى باللثام والغفارة القرمزية وهى نوع من الكساء والعمامة ذات الذؤابة^(٦).

ومما يتصل بملابس المرابطين اتخاذهم اللثام على وجوههم ، وصار هذا اللثام علامة مميزة لهم حتى نسبوا إليه وأطلق عليهم المثلثون وقد وصف البكرى طريقته في اتخاذ اللثام « وجميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه ولا يفارقون ذلك في حالة من الأحوال ولا يميز رجل منهم وليه ولا حميمه إلا إذا انتقب ، وكذلك في المعارك إذا قتل منهم القليل وزال قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم »^(٧).

وقد اختلفت الآراء في سبب اتخاذهم اللثام :

فهناك رأى يشير إلى أن مرد ذلك إلى ظروف الطقس التي كانوا

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٣٤ ت العبادى ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠٤.

Budgett Meakins ; The Moorish Empire, P ; 53

Nevill : A Survey of North West Africa, P : 24

(٢) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ٣٦ ت الغيلالى .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٦ ، د. السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ص ٧١٧ ، د. أحمد مختار العبادى : دراسات في المغرب ص ١٠٠ .

S.P Scott : History of Moorish Empire, Vol, 2 P: 180

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٨٩

(٥) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٤٥ .

(٦) ابن غازى : الروض الهتون ص ٦ .

(٧) البكرى : المغرب في ذكر بلاد أفريقيا ص ١٧٠ .

يعيشون فيها من شدة الحر والبرد ومن هنا لجأوا إلى اللثام لحماية وجوههم (١)
وهناك رأى يشير إلى حادثة وقعت لنساء المرابطين أثناء هجوم العدو على
مضاربهم في غيبة رجالهم فنلثموا وقاتلوا ، وقد استحسن الرجال اللثام
ليخضعوا به العدو ، ومن ثم أصبح اللثام لهم عادة (٢).

ورأى آخر يشير إلى اعتقاد قبائل صنهاجة بأن الفم عورة يستحق السر
ومن هنا اتخذوا اللثام (٣).

ويبدو أن الرأي الأول هو أرجح الآراء حيث أن مواطن قبائل
المرابطين كانت الصحراء بمناخها المتطرف ، ومن ثم اتخذوا اللثام وقاية
لوجوههم من شدة الحر في الصيف وشدة البرد في الشتاء ، وقد أصبح لهم
عادة نشأوا عليها ، وقد خدمتهم هذه العادة في بعض أعمالهم العسكرية ، ومن
هنا أبقوا عليها حتى بعد نزوحهم إلى المغرب الأقصى .

وأصبح اللثام يشير إلى وضع اجتماعي متميز إذ أنه علامة لولاية الأمر
وكبار رجال الدولة وأبناء القبائل المرابطية ، وهو بهذا يشير إلى معنى الزعامة
والسيادة ، ومن هنا حين عزم أبو إسحاق باران بن يحيى المسوفي وهو من
زعماء المرابطين اتخاذ التصوف طريقا له في الحياة ، أمره الشيوخ بأن ينزع
اللثام وأن يذهب إلى السوق ، ويأتي حاملا طبقا على رأسه علامة على الإنكسار
والخضوع وقد نفذ ذلك وصار من المتصوفين (٤).

وقد اتخذ بعض العامة اللثام زيا لهم تطاولا على الناس وترفعوا ومن هنا حتم
ابن عبدون بأن اللثام لا بد أن يكون خاصا بالصنهاجي أو اللمتوني أو اللمطي

(١) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ قسم ٣ ص ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، النويري :
نهاية الارب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٧٩ . ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٦
ص ١٢٨ ، د. يحيى هويدي : تاريخ فلسفة الاسلام ج ١ ص ١٩٥ ،

S.P. Scott : History of Moorish Empire, V.2 P ; 170.

(٢) النويري : نهاية الارب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٧٩ ، ابن الخطيب :
الحلل الموشية ص ٨ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٦ ص ١٢٩ ، د. حسن
محمود : قيام دولة المرابطين ص ٥٠ .

(٣) ابن حوقل : صورة الارض ص ٩٩ .

(٤) التادلي : التشوف ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

بالأندلس^(١) وهو يريد بذلك أن يسد الباب على العبيد والحشم وغيرهم ممن يسترون وراء اللثام طلباً للرفعة والمكانة بين الناس^(٢).

وقد عاب ابن تومرت اتخاذ المرابطين هذا اللثام وهاجم أمير المسلمين على بن يوسف حين التقى به في صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ورد على من طالبه بتحية أمير المسلمين قائلاً ، « وأين الأمير إنما أرى جوارى منقبات فلما سمع ذلك على بن يوسف حط النقاب عن وجهه وقال لهم صدق^(٣) » وهى رواية مشكوك فى صحتها وخاصة من حيث الاستجابة السريعة لأمر المسلمين وخلعه للنقاب ، إذ أن هذه عادة متوارثة كما أن الذى أورد هذا الخبر هو اليبذق تلميذ ابن تومرت .

وقد أورد ابن تومرت فى كتابه أعز ما يطلب باباً فى وجوب مخالفة المرابطين فى زيهم وتحريم الاقتداء بهم ومن ذلك قوله « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمخالفة أهل الباطل فى زيهم وأفعالهم ... وكذلك المحسبون — أى المرابطون — الكفار وهم يتشبهون بالنساء فى تغطية الوجه بالثلم والتنقيب ويتشبه نساؤهم بالرجال فى الكشف عن الوجوه بلا ثلم ولا تنقيب والتشبه بهم حرام^(٤) » وهكذا اتخذ ابن تومرت من اللثام مادة لمهاجمة المرابطين والتقليل من شأنهم .

فإذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا المصامدة وهم القبائل المؤسسة للدولة وغالبية سكان المنطقة ملابسهم من الصوف ويحترمون فى أوساطهم بمازى صوف ويسمونهم أسفاقس مع ترك رؤوسهم عارية^(٥) وقد حث ابن تومرت أتباعه على التقشف فى إرتداء الملابس والاقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن^(٦) ، وضرب لهم المثل فى ذلك حين ارتدى عباءة مرقعة

(١) ابن عبدون : رسالة فى الحسية ص ٢٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٨ .

(٣) البيهقى : أخبار المهدي ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٤) ابن تومرت : أعز ما يطلب ص ٢٦٣ .

(٥) الإدريسي : وصف المغرب ص ٦٢ ، ابن سعيد : نزهة الانظار

ج ١ ص ١١ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٩٦ .

زهدا في الغالى من الثياب (١).

وقد اقتدى به خليفته عبد المؤمن ، فكان يلبس ثياب الصوف المكونة من قميص وسروال وجبة (٢) وذلك برغم اتساع سلطانه والأموال الكثيرة التى تدفقت على خزانة الدولة ، غير أن هذا التقشف والزهد في ارتداء الملابس الغالية لم يستمر عقب الخليفة عبد المؤمن ، إذ أقبل أفراد الشعب ورجال الدولة على ارتداء الملابس الحريرية المطرزة ، وقد غالوا في ذلك مما دفع الخليفة المنصور الموحدى إلى إصدار أمر ببيع مافى خزائن الدولة منها ، وطالب الرعية بالتخفيف من إرتداء هذه الملابس مع التقليل من تطريزها ، يقول ابن عذارى « ثم أمر — أى المنصور الموحدى سنة ٥٨٠ هـ — بقطع لباس الغالى من الحرير والاجترأ منه بالرسم الرقيق الصغير ، ومنع النساء من الطرز الحفيل وأمر بالاكْتفاء منه بالساج القليل ، وأمر باخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباح المذهب فبيعت منه ذخائر لا تحصى بأثمان لم تعرف ولم تستقص » (٣) أما هو فقد ارتدى الملابس الصوفية (٤) وكانت له ملابس خاصة في مواكبه وأثناء جلوسه للناس وهى عبارة عن غفارة زيبية وهى نوع من الكساء مع برنس مسكى أى رداء متصل بغطاء للرأس في لون المسك (٥).

أما جنود الموحدین فقد أشار ابن صاحب الصلاة إلى نوع الثياب التى كانت توزع عليهم من قبل الخلافة فى سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م وزع الخليفة عبد المؤمن على جنوده الثياب والكساء والعمائم والبرانس (٦) وفى سنة ٥٦١ هـ وزع عليهم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن كسوة تامة لكل جندي وهى

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٩ ، الزركشى : تاريخ الدولتين

ص ٥٠ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٢ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٨١ تطوان .

(٤) العينى : عقد الجمان ج ١ قسم ٢ ص ٢٣٢ .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٣ ، ١٠٤ تطوان .

(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢١٥ .

مكونة من غفارة وعمامة وكساء وقبطية وشقة^(١) وفي سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م وزع على الموحدين نفس الثياب وزاد عليها مقطعين مهدوين^(٢).

وكان اللون الغالب على ملابسهم اللون الأبيض وهم في ذلك مقتدين بداعية الموحدين ابن تومرت الذي كان يقتدى بسنة النبي صلى الله عليه وسلم في أفعاله وأقواله ، ومن ناحية أخرى فإن اللون الأبيض مخالف للملابس أعدائهم المرابطين التي كان يغلب عليها اللون الأسود .

وقد حدد المنصور الموحدي لليهود زيا خاصا يتميزون به بين طوائف المجتمع وذلك حتى يمكن التمييز بينهم وبين غيرهم من المسلمين وخاصة بعد ادعائهم الإسلام ظاهريا^(٣) وقد وصف ابن عذارى هذا الزي « فجعل — أى المنصور — لهم صفة كحداد ثكلى المسلمين أردان قمصهم طول ذراع في عرض ذراع زرق وبرائيس زرق وقلانس زرق وذلك في خمس وتسعين المؤرخة سنة ٥٩٥ هـ ^(٤) ويبدو أن اليهود قد عانوا من هذا الزي معاناة شديدة ومن ثم توسلوا للخليفة الناصر في تغيير هذا الزي حتى سمح لهم بارتداء ثياب صفر وعمائم صفر^(٥).

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٦١ (الغفارة : كساء يلبس فوق آخر ، والقبطية هي ثوب أبيض رقيق من الكتان ، والشقة وهي ما شق من الثياب على شكل مستطيل حاشية ص ٢٩١ تاريخ المن) .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٥٠ (المقطع المهدوي يغلب أن يكون قميصا يلبس تحت الملابس حاشية تاريخ المن ص ٤٥٠) .

(٣) المراكشي : المعجب ص ٣٠٤ ، الزركشي : تاريخ الدولتين ص ١١ ،

ملين : عصر المنصور الموحدي ص ٢٥٦ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٨١ تطوان .

(٥) المراكشي : المعجب ص ٣٠٤ .

الفصل الخامس

الحياة الفكرية

عاش المغرب الأقصى في ظل نهضة فكرية أظلمت منذ قيام دولة المرابطين وهذا يرجع إلى ازدهار الحياة الدينية بما تضمنته من دعوتين دينيتين : دعوة المرابطين ودعوة الموحدين وما دار حولهما من صراع فكري واتجاهات دينية ، ونتج عن ذلك تنوع في الدراسات الدينية .

وبجانب الحياة الدينية الحافلة ، كانت هناك الحياة الأدبية من أدب ولغة والحياة العلمية من فلسفة وطب وعالوم اجتماعية وغيرها ، وصارت المدن المغربية تزخر بطلاب العلم في العلوم المختلفة ، ونشطت حركة التأليف ، وصار للمغرب الأقصى دوره الواضح في تغذية شريان الثقافة الإسلامية ، بما قدم من علم وعلماء .

وقد تضافرت عدة عوامل على دفع الحركة الفكرية بالبلاد ، ويمكننا أن نجعلها فيما يأتي :

أولا : استقرار الأوضاع بالبلاد : استقرت أوضاع المغرب الأقصى منذ أن استولى عليها المرابطون ، حيث استطاعوا توحيد مناطقه المختلفة في ظل حكومة مركزية واحدة ، وكذلك فعل الموحدون وأحسن السكان بحزم ولاية الأمر وسيطرتهم على انحاء البلاد ، وتمخض هذا عن استقرار وطمأنينة عمت السكان .

وفي مناخ الاستقرار نمت الحركة الفكرية وترعرعت فروعها حتى صارت وارفة الظلال تعطي أطيب الثمار ، وقد صاحب هذا الاستقرار امتداد سلطة أبناء المغرب الأقصى إلى خارج حدودهم ، فصارت في عهد علي بن يوسف من سجل ماسة في الجنوب إلى شمال بلاد الأندلس (١) أما في دولة الموحدين فقد امتدت حدودهم شرقا إلى إفريقية وهي تشمل على

(١) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ٧٨ ، ٧٩ ت الفيلالى .

معظم الشمال الإفريقي بالإضافة للاندلس وقد صاحب ذلك تدفق الأموال على عاصمة الخلافة وازدهار في الحياة الاقتصادية مما ساعد على استقرار أوضاع البلاد ، وهذا بدوره يهيئ المناخ العلمي الذي يدرس فيه الطلبة ويجعلهم يقبلون على البحث والتحصيل يضاف إلى ذلك اضطراب الأوضاع في إفريقية خلال حكم المرابطين نتيجة للغزوة الهلالية المدمرة مما دفع الكثير من علماء إفريقية إلى الهجرة إلى المغرب الأقصى والاندلس (١).

ثانياً : تشجيع ولاة الأمر للعلم والعلماء : فالدولتان المرابطية والموحدية قامتتا على مبدأ ديني وقد نشأ يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين وعبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين في مهاد دعوتين دينيتين ، وتتلماًذا على عالين : ابن ياسين وابن تومرت ، ومن جاء بعدهما من ولاة الأمر نهوا من العلوم الدينية (٢) فكان من الطبيعي أن يشجعوا العلماء ويقربوا إليهم رجال الدين والأدب .

وقد سبق أن تناولت كيف أن ولاة الأمر في الدولة المرابطية ، كانوا يخضعون لسلطة الفقهاء ، وأوضحت مدى تغلغل نفوذهم في الدولة المرابطية وخاصة في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، ومنذ الفترة الأولى للدولة المرابطين وجدنا يوسف بن تاشفين محبا للعلماء والفقهاء ، مقربا لهم صادرا عن رأيهم (٣) وكيف أن العلماء في كل فن توجهوا إلى العاصمة ليحفظوا بمنزلة التكريم التي كان يسبغها يوسف بن تاشفين عليهم (٤) وكذلك أمير المسلمين علي بن يوسف في تكريمه للعلماء والفقهاء حتى صارت أحكام البلاد راجعة إليهم صادرة عنهم (٥).

وكذلك الشأن في الدولة الموحدية حيث كرم الخليفة عبد المؤمن العلماء

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٤٣١ ، د. حسن محمود : الاسلام والثقافة في إفريقية ج ١ ص ١٧٩ ط ٢ سنة ٦٣ ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٨ ، ١٩ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٧٢
(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠٥ .
(٣) ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ٣٨ ت الفيلاي ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٩ ، ابن المؤقت : السعادة الإبدية ج ٢ ص ٨٩ .
(٤) المراكشي : المعجب ص ١٦٣ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ١٧١ .

عارفا بأقدارهم^(١) مما دفع الكثير من العلماء إلى التوجه إليه والانضواء تحت لوائه^(٢) وكذلك الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وابنه المنصور الموحدى الذى قرب العلماء إليه وأحبهم وشاورهم وجعلهم أهل خدمته وخاصته^(٣).

ومن هذا نرى أن حب ولاية الأمر للعلماء ، جعلت العلماء ينصرفون إلى البحث والتحصيل وخاصة أن ذلك سيعود عليهم بالمنزلة السامية فى الدولة فضلا عن الغنى والثراء .

وقد سبق أن أشرت إلى مدى ما كان يتمتع به الفقهاء والعلماء من ثراء وغنى فى عهد المرابطين والموحدين ، يضاف إلى ذلك الحماس الذى أبداه ولاية الأمر فى بناء المؤسسات التعليمية من مساجد ومدارس وغير ذلك ، مما كان له أثر بالغ فى دفع الحركة التعليمية بالبلاد ، وقد تميز العهد الموحدى بالحرية الفكرية إذ سمحوا بدراسة بعض العلوم والتى لم يكن مسموحا بها من قبل فى عهد المرابطين كعلم الكلام والفلسفة .

ثالثا : الصلة الوثيقة بين المغرب والأندلس : وقد تحققت هذه الصلة الوثيقة منذ أن أصبح الأندلس إقليما تابعا للمغرب الأقصى فى عهد يوسف بن تاشفين وأطلع أمراء المرابطين وقادتهم على الحركة الفكرية المزدهرة فى مدن الأندلس المختلفة مما دفعهم للاستفادة منها فى المغرب ، وقد رأينا كما سبق أن أوضحنا كيف أن ولاية الأمر من المرابطين ومن جاء بعدهم من الموحدين كانوا يرحبون بالعلماء والأدباء الأندلسيين ، ويغدقون عليهم الصلات ، ويتخذون منهم الوزراء والكتاب والقضاة وغير ذلك فى مناصب الدولة المختلفة .

يضاف إلى ذلك هجرة الكثير من العلماء فرارا من المعارك الطاحنة

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٠٠ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ٩ ص ١٦٥ .

التي شهدتها منطقة الأندلس خلال حكم المرابطين والموحدين ضد الفرنج مما دفعهم إلى الانتقال إلى المدن المغربية لينعموا بالاستقرار والطمأنينة فضلا عن التكريم والترحيب من ولاية الأمر والشعب المغربي ، وإن من أعظم الآثار التي نتجت عن إخضاع الأندلس للمرابطين والموحدين ، ذلك الانفتاح الفكري الأندلسي على المغرب حيث تدفقت الثقافات الأندلسية المتنوعة على المغرب الأقصى ، وانتقل أبناء المغرب الأقصى من قادة ورعية لينهلوا من علوم الأندلس دون قيد على حركتهم ، وأثمر كل هذا ثورة ثقافية بالمغرب الأقصى أحدثتها تلك الصلة الوثيقة بالأندلس .

وابعا : رغبة الكثير من أبناء المغرب في طلب العلم : في ظل الاستقرار الذي ساد البلاد ، مع تشجيع ولاية الأمر للعلم والعلماء وبناءهم للمؤسسات التعليمية المختلفة ، وما صاحب ذلك من مجيء الكثير من علماء الأندلس وإفريقية إلى المغرب الأقصى ، كل هذه العوامل أذكت رغبة التعلم لدى أبناء المغرب الأقصى ودفعتهم إلى الاستزادة منه والحرص عليه ، وخاصة أن مناصب الدولة ووظائفها كانت قاصرة على المتعلمين والمتقنين . وقد سبق أن أشرت كيف أن الخليفة عبد المؤمن أسس مدرسة خاصة لتخريج طائفة من الإداريين جمع فيها ثلاثة آلاف من أبناء القبائل المختلفة ووضع لهم برنامجا تعليميا خاصا ،

هذه الحركة العلمية دفعت الكثير من أبناء المغرب للارتحال لطلب العلم من منابحه المختلفة سواء أكانت في المشرق أو الأندلس ، ويأتي في مقدمة هؤلاء ابن ياسين داعية المرابطين حيث أمضى سبع سنوات في الأندلس ينهل من العلوم المختلفة وجمع منها الكثير (١) كذلك داعية الموحدين ابن تومرت ، وقد سبق أن أشرت إلى رحلته في المشرق والتي التقى فيها بكثير من العلماء ثم عاد إلى المغرب الأقصى وأحدث ثورته الفكرية والعسكرية ، وأيضا أبو موسى الجزولي عيسى بن عبد العزيز من مراكش وتوفي بها في سنة ٦١٠ هـ وقد قام برحلة إلى مصر لتلقي العلم ثم عاد ليدرس بمدن المغرب المختلفة (٢)

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ١٠ بيروت .

(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٩٢ .

وكذلك القاضي عياض إمام وقته في الحديث وعلوم النحو واللغة وكلام العرب ، رحل إلى الأندلس طلبا للعلم^(١).

ومن ناحية أخرى كان المغرب الأقصى مقصدا لطلاب العلم ، حيث أقبل الطلبة من أماكن متفرقة يطلبون العلم على يد علمائه وأساتذته ومن هؤلاء ابن دحية والمولود في بالأندلس سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م حيث رحل إلى مراکش طلبا للعلم ومكث فترة في مدن المغرب المختلفة لتلقى العلم^(٢) وقد حفلت كتب الطبقات بأسماء هؤلاء الذين تلقوا العلم في الخارج وهؤلاء الذين قصدوا المغرب الأقصى لتلقى العلم .

وهكذا تضافرت العوامل السابقة على دفع الحركة الفكرية في البلاد ، وساعدت على نموها وازدهارها .

المراكز الفكرية :

نشطت الحركة الفكرية بالبلاد ، وأصبحت المدن المغربية تعج بطلاب العلم والعلماء ، وصارت المساجد والمحالس وغيرها تشهد المناقشات الفقهية واللغوية والأدبية وغير ذلك مما حفلت به الحياة الفكرية في البلاد ، وصارت المدن المغربية نجوما تتلألأ بما فيها من معارف وعلوم .

ويأتى في مقدمة هذه المدن عاصمة البلاد مراکش حيث كان العلماء يشدون إليها الرحال من الأندلس وغيرها ، ليعيشوا في كنف ولاية الأمر الذين شجّعوا العلماء على البقاء بجوارهم لترزنان بهم عاصمتهم وليستزيدوا من علومهم ومعارفهم ومن هنا صارت العاصمة مهبطا لرواد الثقافة من أعلام الفكر بالأندلس^(٣) وحتى أصبحت مراکش تضاهى بغداد في ازدهار العلوم وكثرة العلماء ، يقول ابن المؤقت « وبني يوسف بن تاشفين مدينة مراکش ... ولما ملكها عبد المؤمن صارت مدينة الخلفاء من أهل بيته ، وصارت تضاهى بغداد في العظم بكثرة الرؤساء والعلماء والأدباء »^(٤).

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٥٢ .

(٢) ابن دحية : المطرب ص ه مقدمة المحقق .

(٣) عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١٠ .

(٤) ابن المؤقت : السعادة الإبدية ج ١ ص ١٥ .

وشاركتها مدينة فاس ، تلك المدينة التي أسسها ادريس بن عبد الله لتكون عاصمة لدولته والتي صارت لها مكانتها الدينية في تاريخ البلاد ، حتى جاء المرابطون والموحدون فأولوها اهتمامهم وعنايتهم بالبناء والتعمير ، وأصبحت فاس كعبة للعلماء من كل مكان ، حيث ازدهرت فيها العلوم الدينية في مساجدها المتعددة وخاصة في مسجدها الكبير جامع القرويين الذي ظل مركزا اشعاع علمي يقصده الكثير من طلاب العلم^(١) وأبو مدين شعيب المتصوف والمتوفي سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م حين أراد أن ينهل من العلوم الدينية ويتزود منها نصحه الكثير بالتوجه إلى مدينة فاس ، وهناك وجد أبو مدين بغيته حيث مجالس العلم المتعددة^(٢) وصارت مدينة فاس نجما يتألق بما فيها من تيارات ثقافية وبما يروج بداخلها من حركة علمية مما دفع المراكشي إلى وصف مدينة فاس بقوله « ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا — يقصد حاضرتة العلمية — وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما اضطرب أمر القيروان بعث العرب فيها واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه ، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة ، فرارا من الفتنة ، فزحل أكثرهم مدينة فاس فهي اليوم على غاية الحضارة »^(٣).

وكذلك مدينة سبتة ، حيث أدى موقعها إلى أن تكون ملتقى لكثير من المؤثرات الأندلسية والمغربية^(٤) ومن اشتهر بالتدريس فيها القاضي عياض وعمر ابن عبد المجيد الرندي والعالم أبو علي بن عاشر قريعات وغيرهم من كبار العلماء^(٥).

وبجانب مراكش وفاس وسبتة كانت هناك مدن مغربية أخرى كتملمسان ومكناسة وسجلماسة حفلت بالنشاط العلمي .

-
- (١) عبد الهادي التازي : أحد عشر قرنا في جامعة القرويين ص ١٤
 د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٦ ص ١٧٤ .
 (٢) القادلي : التصوف ص ٣١٦ ، ٣١٧ .
 (٣) المراكشي : المعجب ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ .
 (٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٣٢ .
 (٥) ملين : عصر المنصور الموحد ص ١٦٦ .

وقد استمدت الحركة الفكرية بالبلاد علومها ومباحثها من مصدرين أساسيين : أولا : الحياة الدينية ، وثانيا الحياة الأدبية والعلمية .

أولا : الحياة الدينية

لعبت الدعوتان المرابطية والموحدية دورا هاما في تغيير وجه الحياة بالمغرب الأقصى خلال فترة البحث ، إذ ترتب على نشر الدعوتين بين سكان المغرب الأقصى ، أن تغيرت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمنطقة ، وقد سبق أن تناولت في فصول الكتاب استناد الدولة المرابطية إلى دعوة ابن ياسين والدولة الموحدية إلى دعوة ابن تومرت ، لذا وجب التعرض لهاتين الدعوتين وتطورهما خلال فترة البحث ، مع دراسة المذهب المالكي والذي استمدت الدعوة المرابطية أصولها منه ثم الإشارة إلى منهج المرابطين والموحدين في التطبيق العملي لاحكام الدين مع ذكر جهود المرابطين في نشر الإسلام ، وبجانب ذلك سوف أتناول دور المتصوفين في المغرب الأقصى وأثر ذلك في حياة السكان ، ومن هذه النقطة يكون المنطلق لدراسة مدى تأثير المغاربة بالغيبيات والتبرك في التفكير المغربي ، وأخيرا التعرض للعلوم الدينية والمؤلفات فيها .

الدعوة المرابطية :

وهي دعوة لإصلاحية استمدت تعاليمها وأحكامها من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نادى بها عبد الله بن ياسين بين قبائل المشيخين حين وفد مع يحيى بن إبراهيم الكدالي إلى قبائل الصحراء جنوب المغرب الأقصى ، وذلك ليخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان والمعرفة ، وحين وفد إليهم وجد أكثرهم لا يصلون ولا يدفعون الزكاة ولا يعرفون الإسلام سوى الشهادة مع انتشار الجهل بينهم^(١) وما إن شرع في تبديد ظلام الجهل ونشر مبادئ الدين الصحيحة حتى وجد مقاومة من بعض قبائل المرابطين مما اضطر معه إلى اتخاذ رباط في جزيرة منعزلة ليعلم فيها أصحابه المبادئ الدينية الصحيحة فصار يعلمهم كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه

(١) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ١٢ ت الفيلاي .

(م ٢٩ — الحضارة)

وسلم والوضوء والصلاة والزكاة وما فرض الله عليهم من ذلك^(١) حتى إذا اجتمع الأنصار والاتباع أطلق عليهم لقب المرابطين لملازمتهم الرباط الذى أنشأه^(٢) أو لشدة صبرهم وحسن بلائهم فى قتال المشركين^(٣).

وانتقل بالدعوة من دور التلقى والتعليم إلى دور نشرها بالسيف عن طريق الجهاد وذلك فى خطاب وجهه إليهم قائلا « يامعشر المرابطين ، لأنكم جمع كثير وأنتم قبائلكم ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراط مستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ، وتجاهدوا فى سبيل الله حق جهاد »^(٤).

وهكذا أصبحت الدعوة قائمة على كتاب الله وسنة رسوله ، متخذة مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غاية والجهاد المسلح وسيلة ، وكان إنطلاقهم إلى المغرب الأقصى تحقيقا لهذه الغاية وهى القضاء على المنكر الذى انتشر فى المدن المغربية فحين استدعى فقهاء سجلماسة ودرعة المرابطين لبوا انداء وذلك ليظهروا بلادهم مما هى فيه من المنكرات وشدة العسف والجور^(٥).

ثم انطلق المرابطون تجاه المغرب الأقصى واستولوا على مناطقه ، وفى خلال ذلك كانوا يطبقون مبادئ الدعوة وصار دستورهم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستمدين أحكامهم من مذهب الإمام مالك ، وقد سبق أن أشرت إلى مدى نفوذ الفقهاء والعلماء والمطبقين لأحكام الدين من منزلة ونفوذ فى الدولة المرابطية ، وكيف أن أحكام البلاد وأمورها كانت بيد هذه الطبقة مما يشير إلى آثار هذه الدعوة فى حياة السكان .

لإحراق كتب الإمام الغزالي : ومما يتصل بالحياة الدينية فى هذه الفترة لإحراق المرابطين لمؤلفات الإمام الغزالي . وكان الإحراق من الأحداث الهامة التى شغلت ولادة الأمر والرعية فى هذه الفترة فى سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م

(١) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ١٣ ت الفيلالى .
(٢) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ١٣ ت الفيلالى ، ابن أبى دينسار :
المؤنس ص ١٠٢ .
(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠ .
(٤) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ١٤ ت الفيلالى .
(٥) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ت الفيلالى .

صدرت أوامر أمير المسلمين على بن يوسف بحرق كتاب الاحياء للإمام الغزالي في كافة مدن المغرب والأندلس^(١) وفي رواية المراكشي أن الإحراق كان بالنسبة لكتب الغزالي^(٢) أي جميع مؤلفاته ، وتم حرقه في أفنية المساجد الكبيرة بكل من قرطبة ومراكش وغيرها من مدن المغرب^(٣) يقول ابن القطان « في أول عام ثلاثة وخمسة عزم على بن يوسف عن إجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي إحقاق كتاب أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى المسمى بالاحياء فأحرق في رحبة مسجدها على الباب الغربي على هيئته بجلوده بعد إشباعه زيتا وحضر لذلك جماعة من أعيان الناس ، ونفذت كتبه إلى جميع بلاده آمرا بإحراقه وأخذت منه نسخ من أيدي أصحابها »^(٤).

واستمرت الدولة في سياستها بالنسبة لمؤلفات الغزالي ، ومتابعتها بالمصادرة والحرق طيلة عهدها ، وقد أكد هذه السياسة تلك الرسالة الصادرة من تاشفين بن علي بن يوسف في سنة ١١٤٣/٥٣٨ م أثناء مقامه بكرنطة وهو جبل صغير في سلسلة المرتفعات بين تلمسان وسبته وموجهة إلى أهل بلنسية بالأندلس ويحدد لهم فيها مناطق الفتيا ومصدر الأحكام هو مذهب الإمام مالك ، ومحاربة البدع وكتبها وأصحابها وخاصة كتب الإمام الغزالي ومما جاء فيها « ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة وخاصة وفقكم الله ، كتب أبي حامد الغزالي فليتبّع أثرها وليقطع بالحرق المتتابع جزها ويبعث عليها ، وتغلظ الايمان على من يتهم بكتابتها »^(٥) ومن هذا النص وتاريخه نستنتج مدى حرص الدولة حتى في أواخر أيامها على محاربة مؤلفات الغزالي واعتبارها من الكتب الضالة .

-
- (١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٤ ، ١٥ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٧٥ ، ابن أبي دینار : المؤنس ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس ج ١ ص ٨٨ .
(٢) المراكشي : المعجب ص ١٧٣ .
(٣) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٧٥ ، الكتاني : الغزالي والمغرب ص ٧٠٧ ، ابن عيود : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١٨ .
(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٤ ، ١٥ .
(٥) د. حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال بين المرابطين والموحدين ص ١١٣ مجلة المعهد المصري بمطبعة مصر ج ١ عدد ٣ سنة ٥٥ .

وقد استند الفقهاء في تبرير ذلك إلى احتوائه على علم الكلام والفلسفة (١) وكراهية المالكية لهذه العلوم ومن ثم طالبوا ولي الأمر بمصادرة كتبه ، وقد استجاب لهم وأمر بحرقها .

غير أنه بجانب هذا السبب الظاهري للإحراق كانت هناك أسباب خفية تتعلق بهؤلاء العلماء الذين طالبوا بإحراق كتب الغزالي ، ومن ذلك ما وجدوه في كتاب الأحياء من هجوم على طبقة العلماء والفقهاء الذين يتخذون من العلم والدين مطية لتحقيق أطماع دنيوية من ثراء وجاه وأموال وقد أورد صفاتهم الإمام الغزالي في كتابه الأحياء حين وصفهم بأنهم علماء السوء يقول الإمام الغزالي « الباب السادس في آفات العلم وعلامات الآخرة والعلماء السوء ، وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذابا يوم القيامة .. ونعني بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدتهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها ... » (٢) ثم تعرض للصفات المحمودة في العلماء وهي عدم الميل إلى الترف والاقتصاد في المأكل والمشرب ومتطلبات الحياة والتشبه بالسلف الصالح (٣) فإذا ما طبقنا هذه الأحكام على بعض علماء وفقهاء المغرب والأندلس وجدنا أن كثيرا منهم كونوا طبقة لها نفوذها وسلطانها و ثراءها في المغرب والأندلس مما دعا أحد الشعراء لمهاجمتهم وقد سبق أن أوضحنا ذلك ، ومن هنا كان كتاب الأحياء وما تضمنه من مهاجمة لعلماء السوء ، خطرا على حياتهم ووضعهم الاجتماعي ، يضاف إلى هذا السبب ، أن كتاب الأحياء إنما هو مناصر للتصوف وأهله . وقد صار للمتصوفين مكانة متميزة في مجتمع المغرب الأقصى ، وكانت هناك مداوة من بعض الفقهاء للمتصوفين فإذا ما انتشر كتاب الأحياء بين الناس كان ذلك سندا وقوة لأهل التصوف بالبلاد وهذا مالا يرغبه الفقهاء ومن ثم استغل بعض الفقهاء نفوذهم وخضوع أمير المسلمين على بن يوسف لبرأيهم وأشاروا عليه بإحراق كتب الإمام الغزالي .

(١) ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس ج ١ ص ٨٨ ، الكتاني : الغزالي والمنشرب ص ٧١٠ ، بكتون : النبوغ المغربي ج ١ ص ٦٩ .
(٢) الامام الغزالي : احياء علوم الدين ج ١ ص ٥٨ ، ٥٩ المطبعة التجارية .
(٣) الامام الغزالي : احياء علوم الدين ج ١ ص ٦٦ .

إلا أن عملية الإحراق وجدت معارضة من بعض العلماء والمتصرفين ومنهم أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بالنحوى وقد أقام بسجلماسة وفاس ومات سنة ١١١٩/٥١٣ م فقد أعلن رأيه بيطلان فتوى لإحراق كتب الغزالي^(١) يقول التادلى « ولما وصل إلى فاس كتاب على بن يوسف بالتجريح على كتاب الاحياء وأن يحلف الناس بالآيمان المغلظة أن الاحياء ليس عندهم ، ذهبت إلى أبي الفضل أستفتيه في تلك الايمان فأفتى بأنها لا تلزم ، وكانت في محمله أسفار فقال لى ، هذه الأسفار من كتاب الاحياء ، وودت أنى لم أنظر في عمرى سواها ، وكان أبو الفضل قد انتسخ الاحياء في ثلاثين جزءا ، فاذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم جزءا^(٢) كذلك العالم أبو محمد عبد الله المليجي من أغمات وريكة ومات بها قبل سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م فحين سئل عن الذين أفتوا بإحراق كتب الغزالي ، فكل ما سمى له واحد دعا عليه ثم قال ؛ : لا يصلح هؤلاء الأشقياء ابدا فما انقضى شهر حتى مات جميع أولئك الفقهاء^(٣) وهكذا انقسم موقف العلماء من موضوع حرق مؤلفات الإمام الغزالي ما بين مؤيد ومعارض .

الدعوة الموحدية :

خلال حكم أمير المسلمين على بن يوسف ، شهد المغرب الأقصى هزة فكرية جديدة متمثلة في الدعوة الدينية التي نادى بها ابن تومرت ، وبها بين أتباعه ومريديه ، ومحاربا بها الدعوة المرابطية ، وهذه الدعوة هي خلاصة دراساته التي قام بها في المغرب والأندلس ثم في المشرق حيث التقى بكثير من أئمة الفكر والدين^(٤) فلما عاد إلى المغرب أخذ ينشر مذهبه ودعوته . وقد استمدت الدعوة مكوناتها من مذاهب متعددة ، فقد نادى بالإمامة

(١) ابن مريم : البستان في ذكر الاولياء ص ٣٠١ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(٢) التادلى : التفشوف ص ٧٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٢٤ ، ابن المؤقت : السعادة الاندية ج ١ ص ٦٣ .

(٤) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ١٠٤ ، ١٠٥ ت الفيلاى ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٩٠ ، القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ١٩١ .

وبعصمة الإمام على مذهب الشيعة ، ويقول بالظاهرية ويكره التأويل على رأى داود وابن حزم ، ويتشدد فى العقيدة تشدد الحنابلة ، ويفهم التوحيد فهم المعتزلة ويذهب فى كثير من المسائل على مذهب الأشاعرة^(١) وأطلق على دعوته دعوة التوحيد وسمى أتباعه الموحدين ، وفى ذلك نفي للتجسيم وتعريض للمرابطين الذين وصفهم بالحسنيين^(٢).

فاذا ما حاولنا التعرف على الملامح البارزة لدعوته وجدنا أنه أعجب بأئمة الأشعرية بالمشرق ، ومن هنا أخذ عنهم واستحسن طريقتهم فى الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية^(٣) وهو بذلك كان مخالفا لما تعود عليه أهل المغرب من ابتعاد عن التأويل وإقرار المتشابهات والافتداء بالسلف فى ذلك^(٤) إلا أنه لم يأخذ بالمذهب الأشعرى كله بل خالفه فى إثبات الصفات^(٥) يقول المراكشى : « وكان — أى ابن تومرت — على مذهب أبى الحسن الأشعرى فى أكثر المسائل إلا فى الصفات »^(٦) وفى نفي الصفات عن الله وتنزيهه تنزيها مطلقا عن أى شائبة ومناذاته بالعدل والتوحيد إنما كان متأثرا بأفكار المعتزلة^(٧) يقول المراكشى « وافق — أى ابن تومرت — المعتزلة فى نفيها أى نفي الصفات وفى مسائل قليلة غيرها »^(٨) ، وقد أفرد بابا فى كتابه أعز ما يطلب وهو يتضمن آراء ابن تومرت المذهبية — عن التوحيد « باب فى أن التوحيد هو أساس الدين الذى بنى عليه وأن فروعه إنما تثبت بعد العلم

(١) د. حسين مؤنس : عقد بولاية العهد من ١٤٨ ، د. عبد الله علام : الدعوة الموحدية من ١٥٩ ، د. أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب من ١١٠ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ٤٦٧

Terrasse : Histoire du Maroc, P : 268-269.

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٦٦ .

(٣) نفس المرجع السابق ج ٦ ص ٢٢٦ .

(٤) نفس المرجع السابق ج ٦ ص ٢٢٦ .

(٥) المراكشى : المعجب من ١٨٤ . ملين : عصر المنصور من ٢٤١ .

(٦) المراكشى : المعجب من ١٨٨ .

(٧) د. عبد الله علام : الدعوة الموحدية من ١٥٩ ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين من ١٨٤ ، د. أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب من ١٠٧ .

(٨) المراكشى : المعجب من ١٨٨ .

بثبوتة .. «^(١) وتأثر بالشيعة حين تعرض لموضوع الإمامة والعصمة والمهدية ، وهذا يرجع إلى أنه كان يبطن شيئاً من التشيع كما يقول المراكشي^(٢) وقد بين ابن تومرت ضرورة وجود الإمام وأن وظيفته ركن من أركان الدين يقول في كتابه « هذا باب في العلم وهو وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة وهي ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الشريعة ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان ومكان من الأزمنة إلى أن تقوم الساعة ، ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق في أرضه من آدم إلى نوح ومن بعده إلى إبراهيم^(٣) » واشترط في الإمام العصمة « ولا يكون الإمام إلا معصوماً من الباطل ... وأن يكون معصوماً من الضلال .. وأن يكون معصوماً من الخور .. وأن يكون معصوماً من البدع وأن يكون معصوماً من الكذب .. وأن يكون معصوماً من العمل بالجهل .. »^(٤) ثم أخذ يبشر بالمهدي المنتظر ويعدد صفاته وهي متوفرة فيه ومن ثم بايعه أصحابه على أنه المهدي^(٥) وصار يخطب له على المنابر بالإمام المعصوم والمهدي المعلوم^(٦) واستند إلى مذهب ابن حزم حين التزم بنص القرآن والسنة وإجماع المسلمين وجعل أسماء الله الحسنى التي أوردها القرآن الكريم هي الأسماء التي يجب على المسلمين إلزامها^(٧) .

وهكذا مزج ابن تومرت دعوته بكثير من الآراء والأفكار واستطاع بما أوتي من ذكاء وحيلة أن ينشر أفكاره وآراءه وأن يجمع حوله الكثير من

-
- (١) ابن تومرت : أعز ما يطلب ص ٢٧١ .
 - (٢) المراكشي : المعجب ص ١٨٨ .
 - (٣) ابن تومرت : أعز ما يطلب ص ٢٤٥ .
 - (٤) نفس المرجع السابق ص ٢٤٥ .
 - (٥) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٤ ، ٨٥ ، ابن حذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٦٨ بيروت .
 - (٦) في سؤال وجهته إلى الاستاذ عبد الله كنون عن فكرة المهدية في دولة الموحدين أجاب سيادته : أدخل ابن تومرت فكرة المهدية والعصمة متأثراً في ذلك بالشيعة في هذه الآراء وذلك ليعضد من مركزه السياسي والديني .
 - (٦) العمري : مسالك الإيضاح ج ١٥ ص ٣٧ .
 - (٧) د. عبد الله علام : الدعوة الموحديه ص ١٥٩ ، أدخل جنثالث : تاريخ الفكر الاندلسي ص ٢٣٨ .

سكان المغرب الأقصى في فترة وجيزة لم تتجاوز التسع سنوات ، وهنا يجدر بنا أن نتناول تلك الأساليب المختلفة في سبيل تثبيت أفكاره في مجتمع كان لا يستسيغ كل هذه الآراء بل وكان يحاربها تمسكا بمذهب الإمام مالك وابتعادا عن المذاهب الكلامية ، ويمكننا أن نلخص وسائله في الخطوات التالية :

أولا : استخدامه لسلاح الجدل والمناقشة ببراعة ودهاء ، ساعدته في ذلك رحلته المشرقية وتزوده بالعلوم الكلامية ، وفي الجهة المقابلة ، ناظر مجموعة من العلماء جمدت معارفهم وعلومهم على الفروع نتيجة لإهمالهم لعلم الأصول ، ومن هنا كان من السهل الانتصار عليهم ، وكان ذلك دأبه في المدن التي مر بها حيث حرص على فضح العلماء وبيان مدى جهلهم وقلة بضاعتهم في العلوم الدينية ومن ذلك ما حدث بمراكش^(١) وقد صور ذلك البيهقي بقوله « ثم خرج منها — أي ابن تومرت — لمسجد عرفة فمكث فيها أياما عديدة وذلك أن علي بن يوسف بعث إلى العلماء حتى وصلوا من كل جانب ومكان فذاكرهم المعصوم فأفحمهم ... »^(٢).

ثانيا : انتسابه لبيت النبوة : وقد ذكر كثير من المؤرخين انتسابه إلى بيت النبوة^(٣) وأشار إلى هذا النسب البيهقي بقوله « ينقل من يوثق من قرابته وغيرهم محمد بن عبد الله بن وكليد بن يامصل بن حمزة بن عيسى بن عبد الله ابن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا نسبه الصحيح »^(٤) غير أن بعض المؤرخين تشكك في هذه النسبة مما دفع ابن خلدون للدفاع عن نسبته لبيت النبوة في مقدمته^(٥) وسواء أكانت هذه النسبة صحيحة أم غير صحيحة فإنه

(١) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ١٠٩ الى ١١١ ت الفيلاي ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٩١ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٧ ، عباس المراكشي : الاعلام ج ٢ ص ٣٦٥ .
(٢) البيهقي : أخبار المهدي ص ٦٨ .
(٣) المراكشي : المعجب ص ١٧٨ ، العيني : عقد الجمان ج ٢٠ قسم ٤ ص ٧٦٩ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٦ .
(٤) البيهقي : أخبار المهدي ص ٢١ .
(٥) ابن خلدون : مقدمته ص ٢٦ ، ٢٧ .

استغلها أحسن استغلال في ادعائه بأنه المهدي المنتظر إذ أخذ يذكر لأصحابه صفات المهدي ويشوق إليه ويذكر الأحاديث الدالة عليه^(١) حتى إذا استقر ذلك بنفوسهم وقف فيهم خطيباً ومما قاله « الحمد لله الفعال لما يريد القاضي بما يشاء ... وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً .. مكانه المغرب الأقصى ، وزمنه آخر الزمان واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه السلام ، وقد ظهر جور الأمراء وامتألت الأرض بالفساد وهذا آخر الزمان والاسم الاسم والنسب النسب والفعل الفعل »^(٢) ومن ثم أسرع الموحدون بمبايعته على أنه المهدي ، وبذلك استطاع بدعائه استدراجهم لتحقيق ما يريد من ادعاء أنه المهدي المنتظر وأخذ يدعم هذه الفكرة في أذهان أصحابه بضرورة وجود المهدي وأن طاعته واجبة ومطالبة أصحابه ينشرها بين الناس^(٣).

ثالثاً : استمالته للأحداث وذوى الغرة من قومه وبذلك يسهل التأثير فيهم والسيطرة عليهم يقول ابن خلكان « وكان — أى ابن تومرت — يستميل الأحداث وذوى الغرة ، وكان ذوو الحكم والعقل والحلم من أهاليهم يهنونهم ويخدرونهم من إتباعه ويخوفونهم من سطوة الملك .. »^(٤).

رابعاً : البرنامج الديني الذي وضعه لأتباعه ، حيث استخدم لغة البربر بجانب اللغة العربية وذلك لاستمالة أكبر عدد ممكن من سكان البلاد^(٥). ثم ألف لهم عقيدة تسمى المرشدة وجعل فيها الأعشار والأحزاب والصور ، وأمرهم بحفظها ومن لم يحفظها عد كافراً لا تجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته^(٦).

(١) المراكشي : المعجب ص ١٨٧ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٧٥ .

(٣) ابن تومرت : اعز ما يطلب ص ٢٥٢ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٤ ص ١٤٢ .

(٥) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ١١٥ ت الفيلالي ، السلاوي :

الاستقصا ج ٣ ص ٩٢ .

(٦) نفس المصدرين السابقين ونفس الصفحات ، ابن القنفذ : الفارسية

في مبادئ الدولة الحفصية ص ١٠١ ، ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٩٦

(٧) كتاب المرشدة مثبت بقسم الملاحق .

وصار هذا الكتاب معظما لديهم ويضاف إلى ذلك تلك التعاليم التي تلزمهم بطاعة الإمام والانقياد له مما نتج عنه تعظيمهم لابن تومرت وقد بلغوا في ذلك درجة لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء (١).

خامسا : إدعائه لبعض الكرامات ، واستغلاله لسداجة من حوله في إقناعهم ، وقد سبق أن أشرت كيف استغل ابن تومرت خدعة أبي محمد البشير في قتل الكثير من معارضيه في عملية التمييز والتي راح ضحيتها الكثير من الأنفس البريئة سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٤ م وغير ذلك من الحيل التي زادت من مكانته في قلوب أتباعه (٢).

معارك كلامية :

في هذه الفترة التي كان ابن تومرت ييث فيها دعوته ، شهد سكان المغرب الأقصى نوعين من الحروب : الحرب المسلحة والتي تهدف إلى القضاء على سلطة المرابطين في البلاد ودفاع المرابطين عن بلادهم ، والحرب الدعائية التي أعلنها ابن تومرت ضد المرابطين محاولا هدم دعوتهم ، وبث الوهن والضعف في نفوس أتباعهم ، ورد المرابطين على هذه الحملات الكلامية التي شنّها ابن تومرت ، وقد استغل ابن تومرت بعض صفات المرابطين وأطلق عليهم عدة تسميات ، فهم المحسّمون لأنهم عدلوا عن التأويل وقبلوا النصوص على علاقاتها وأقروا الصفات لله تعالى (٣) ، ولقبهم بالزراجنة ، والزرجان طائر أسود البطن أبيض الريش والمرابطون يشبهون طائر الزرجان في أن قلوبهم سوداء وملابسهم بيضاء (٤) وأخيرا لقبهم بالحشم

(١) المراكشي : المعجب ص ١٩١ .

(٢) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ١٢٤ ت الفيلاي ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٩٦ .

(٣) البيهقي : أخبار المهدي ص ٧٧ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ٨٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٩ ، د. يحيى هويدي : تاريخ فلسفة الاسلام ج ١ ص ٢٠٨ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨٥ ، ابن الأبار : الحلة السراء ج ٢ ص ٢٢٦ ، د. حسين مؤنس حاشية .

لارتدائهم اللثام كما تفعل النساء المتحشمت (١).

وبجانب هذه التسميات ، كانت هناك المحاضرات والمناظرات التي كان ينظمها ويهاجم فيها المرابطين وذلك ما حدث في بجاية حين أخذ يهاجم التلثم عند المرابطين وأن ذلك من فعل النساء ولا يجوز للرجال التشبه بهم مستندا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في لعن المتشبهين من الرجال بالنساء (٢) وأنه لا تجوز طاعتهم لأنهم كفار ومنافقون ومتبعون الهوى ومعتدون ومفسدون وجاهلون واستشهد بالآيات القرآنية في محاربة أصحاب الصفات السابقة (٣) وحفل كتابه الذي كان يدرس منه لتلاميذه وأتباعه على هيئة محاضرات بالهجوم والتنديد بصفات المرابطين حيث وصفهم بعدة علامات بلغت عشرين علامة (٤).

وأخذ يعدد هذه العلامات والصفات ، وهو في كل حربه الدعائية يتلمس أى صفة ويلصقها بهم ثم يدعمها بالآيات والأحاديث ، حتى يستسيغ الناس قبولها والإيمان بها ، وحتى تؤثى هذه الدعاية ثمرتها حفلت دروسه بالتبشير بظهور جماعة الحق التي تظهر الأرض من الفساد ويبان صفاتها ، ويعنى بذلك جماعة الموحدين وكيف أن النصر سيكون دائما في ركبائها (٥).

وقد واجه المرابطون هذه الحرب الدعائية من جانب الموحدين بالرد عليهم وقد استندت دعاية المرابطين إلى أن الموحدين خوارج (٦) منشقين على طاعة الإمام بقصد إحداث فتنة في البلاد ونسبوا لابن تومرت داعية الموحدين عدة آراء تخرجه من دائرة الإسلام ومنها : أن ابن تومرت يكفر الناس بالذنوب ويمنع من الصلاة على أهل القبلة ، ويقول أنه من تاب

-
- (١) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٨ .
 (٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٤٦ .
 (٣) نفس المرجع السابق ص ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ .
 (٤) ابن تومرت : أعز ما يطلب ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .
 (٥) نفس المرجع السابق ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .
 (٦) البيهقي : أخبار المهدي ص ٧٧ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٨١ .

لا يلزمه قضاء الصلاة والصيام وغير ذلك من العبادات ، ويرد المطلقة ثلاثاً إلى زوجها ، واطرح مذاهب العلماء وكتبهم وخرج على الاجماع وكفر المسلمين ، واستحل الحرام المجمع على تحريمه واستحل دماء المسلمين واستحل أموالهم ، واستحل حريمهم ، وجعل أموال الناس غنيمة ، تخمس كما تخمس أموال النصارى ، وقام على الأمراء ونزع يده من طاعتهم^(١) وهكذا عاش سكان المغرب الأقصى في ظل تلك الحرب الكلامية بين مؤيد للموحدين ومعارض لهم .

تطور الدعوة الموحدية :

مرت الدعوة الموحدية بعد وفاة ابن تومرت بعدة مراحل يمكننا أن نحددتها في ثلاث مراحل : —

المرحلة الأولى :

وهي مرحلة التقليد والدعم للدعوة حيث تابع الخليفة عبد المؤمن بن علي نهج ابن تومرت في نشر الدعوة الموحدية وتنفيذ تعاليمها ومبادئها ، اقتداء بالإمام وحفظاً للدعوة والتي على أساسها قامت الدولة ، وكان البرنامج التعليمي الذي وضعه الخليفة عبد المؤمن للطلبة الحفاظ هؤلاء الذين تولوا المهام الإدارية بالبلاد مستمداً من تعاليم ابن تومرت ، وبجانب ذلك فقد صدرت أوامره إلى كافة الموحدين بمتابعة نشر تعاليم المهدي بلسان البربر واللغة العربية ، وإلزام كل السكان بحفظ مبادئه ومن لم يمثل لذلك كان دمه مباحاً وقد جاء ذلك في رسالته المعروفة برسالة الفصول سنة ٥٥٦ هـ ١١٦٠ م والموجهة إلى أهل بجاية وقد جاء فيها « ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربي ويتكلمون به أن يقرءوا التوحيد بذلك اللسان من أوله إلى آخر القول في المعجزات ، ويحفظوه ويفهموه ويلتزموا قراءته ويتعهدوه ويؤمر طلبة الحضر ومن في معانهم بقراءة العقائد وحفظها وتعاهدوها على سبيل التفهم والتبين والتنبه والتبصر ، ويلتزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها : أعلم أرشدنا الله وإياك .. وهي المرشدة التي ألفها ابن تومرت —

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٠ .

وحفظها وتفهمها ، واشمل في هذا الإلزام الرجال والنساء والأحرار والعبيد ، وكل من توجه عليه التكليف إذ لا يصح لهم عمل ولا يقبل منهم قول دون معرفة التوحيد فمن لم يعرف المرسل لم يصدق بالمرسل والرسالة ، ومن حصل على مثل هذه الحالة فقد تعثر في أذيال الضلالة ، فان لم يبادر إلى التخلص منها والانفصال بالعلم عنها ، فقد وجب عليه حكم الكتاب ولا عنت في إراقة دمه لا محالة » (١).

وهكذا حافظ عبد المؤمن بن علي ، على تراث المهدي وتابع نشر مبادئه ملوحاً بأقصى العقوبة لمن يتغافل عن حفظها ودراستها ، فلما تولى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن تابعت الدعوة مسيرتها ، في صفوف الموحدين ، وظل ابن تومرت محتفظاً بمكانته والدعاء له في الخطابات الرسمية وغيرها من أنه الإمام المعصوم والمهدي المعلوم (٢) وفي إحدى رسائل أهل غرناطة وإلى يعلنون فيها مبايعتهم للخليفة يوسف بن عبد المؤمن في سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م ، مدح لأهل التوحيد وأهله « أما بعد فإنه لما اختص الله تبارك وتعالى طائفة التوحيد ، بما هم عليه من العمل السديد والسبيل الحميد والسعي السعيد الرشيد اجتمعت نفوسهم ... أن يحددوا البيعة المباركة لسيدنا ومولانا الإمام الخليفة أمير المؤمنين ... » (٣).

والمرحلة الثانية :

مرحلة الضيق والتبرم بدعوى العصمة والاستنكار الخفي لها وقد تمثل ذلك حين تولى المنصور الموحدي ، الذي أبدى عدم اقتناعه بتلك الآراء وتبرمه بها وإنكاره لها ، وقد تجلى ذلك في عدة مناسبات ، ومن ذلك حين زار قبر ابن تومرت في تينملل ومعه جماعة من الغز وذلك على عادة خلفاء الموحدين في زيارة قبره ، إذ حدثت مظاهرة فرح من التهليل والتكبير وذلك لتحقيق إحدى نبؤات المهدي ، وقابل المنصور ذلك بالاستخفاف ، يقول

(١) مجموع رسائل موحدية ص ١٣٢ (رسالة : الفصول ميثقة بقسم الملاحق) .
(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٧٦ ، ص ٣٠٣ ، ص ٣١٠ ، ص ٣٢٢ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٤٣ .

المراكشي « فلما جلس الغز على الصفة المتقدمة تحته » ، كان ذلك اليوم في تينملل يوما عظيما ، اتصل التكبير من كل جهة ، وجاء النساء يولولن ويضربون بالدفوف ويقفن ما معناه بلسانهن : صدق مولانا المهدي نشهد أنه الإمام حقا — وكان المهدي قد ثبأ بجلوس الغز تحت هذه الشجرة — فأخبرني من رأى أمير المؤمنين أبا يوسف حين رأى ذلك يبتسم استخفافا لعقولهم ، لأنه لا يرى شيئا من هذا كله ، وكان لا يرى رأيهم في ابن تومرت « (١) ثم لإعلانه التبرؤ من دعوى العصمة أمام أحد العلماء ، يقول المراكشي « أخبرني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري ونحن بحجر الكعبة قال : قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف : يا أبا العباس ، اشهد لي بين يدي الله عز وجل أنني لا أقول بالعصمة يعني عصمة ابن تومرت « (٢) وفي مناسبة أخرى حين سأل أبو العباس عن الإمام فأجابه مستنكرا : أين الإمام ؟ وأين الإمام ؟ (٣) » .

وهكذا أنكر المنصور بعض دعاوى ابن تومرت ، إلا أن هذا الإنكار لم يكن أمام الرعية ولا جماهير الأمة ، وربما كان السبب في ذلك خشيتهم من تصدع بنيان الدولة وتمزقها نتيجة الطعن في الدعوة التي قامت على أسسها وتعهده جده وأبيه برعايتها وصيانتها .

والمرحلة الثالثة :

مرحلة الهجوم وهدم آراء ابن تومرت في عهد المأمون الموحدى : وإذا كان المنصور لم يملك الشجاعة الكافية في التصريح بآرائه فإن المأمون الموحدى الذى تولى الخلافة سنة ٦٢٤/١٢٢٧ م قد أعلنها صريحة من فوق المنابر مطالبا بهدم هذه الدعوى ، وموجها أشنع الصفات لابن تومرت ، فجين دخل العاصمة أوائل سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م وبايعه الموحدون ، دخل المسجد الجامع وصعد المنبر وخطبهم قائلا : « لا تدعو — أى ابن تومرت — بالمهدي المعصوم ، وادعوه بالغوى المذموم ، ألا لا مهدي إلا عيسى وأنه قد نبذنا

(١) المراكشي : المعجب ص ٢٩١ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٩١ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٩١ .

أمّره النحس ... »^(١) وأتبع ذلك بإزالة إسمه من السكة ومن الخطبة ، وأزال كل الشعائر التي كان يقيمها الموحدون تبعا لتعاليم المهدي ومن ذلك زيادتهم في آذان الصبح ولله الحمد^(٢) وفي نفس الوقت أعلن الرجوع إلى مذهب الإمام مالك والأخذ بأحكامه^(٣) وهذا الإجراء من جانب المأمون كان يهدف به القضاء على سلطة كبار رجال الدولة من أشياخ الموحدين حيث أمر بقتل مائة منهم^(٤) وفي نفس الوقت التودد إلى طبقات الشعب المؤمنين بمذهب مالك والكارهين لسواه ولا يمنعههم المجاهرة برأيهم سوى خوفهم من البطش والقتل من جانب ولاية الأمر .

مذهب الإمام مالك :

كانت منطقة المغرب هدفا لكثير من المذاهب والأفكار ، ومن هذه المذاهب المذهب المالكي الذي اعتنقه المغاربة وآمنوا به وتعصبوا له وصارت المالكية لها دورها المؤثر في تاريخ المنطقة في العصور الوسطى ، وقد دخل المذهب المالكي إلى المغرب عن طريق الحجاج وطالبي العلم من الأفريقيين الذين توجهوا إلى مراكز العلم في مصر والحجاز ، ووجدوا بغيتهم في الحجاز حين تتلمذوا على الإمام مالك المستمسك بالكتاب والسنة والذي لا يميل إلى التخريج والتأويل كفقهاء الحنفية في العراق ، وكان هؤلاء العلماء قد عانوا من كثرة التأويلات والآراء المذهبية المختلفة التي حملها إليهم الخوارج من صفرية وإباضية ، وما صاحب ذلك من فتن وثورات نشبت على المسرح الجغرافي للمغرب ، ومن هنا صادف مذهب مالك هوى في نفوسهم لإقامته في المدينة المنورة مهد النبوة وشدة تمسكه بالكتاب والسنة يضاف إلى ذلك ما اتسم به مذهب مالك من ميل إلى الشدة والصلابة والبعد عن أسباب الترف ، وقد وجدت تلك السمات هوى في نفوس المغاربة الذين يميلون عادة إلى

(١) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٨ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٢٤ ، ابن الخطيب : الاحاطة — القسم الأول ص ٤١٩ ، ٤٢٠ ت عنان .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠١ .

(٤) ابن الخطيب : الاحاطة ج ١ ص ٤١٩ ت عنان .

التشدد والتمسك بما يؤمنون ، بل أجمعن المغاربة في تعصبهم لمذهبهم المحبب فمن كان مالكيًا قبلوه وأحبوه ، ومالوا إليه ومن كان غير ذلك حاربوه دون هوادة (١).

حتى إذا قامت دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى دعمت ووطدت المذهب المالكي بالبلاد ، وخلال الفترة التي أعقبت سقوط دولة الأدارسة وحتى قيام دولة المرابطين دخل المذهب المالكي في صراع مع المذاهب الأخرى من شيعة وخوارج وغير ذلك إلا أنه انتصر في النهاية .

المذهب المالكي في الدولة المرابطية :

كان قيام دولة المرابطين نصرا للمالكية في المغرب وتأكيذا لدور علماء المالكية فالدولة أساسا هي دعوة إصلاحية استمدت تعاليمها من مذهب الإمام مالك ، ثم تطورت الحركة الإصلاحية من مجرد دعوة إلى حركة مسلحة خلصت المغرب الأقصى من البدع الضالة كبداعة برغواطة ، ووحدت المغرب الأقصى في ظل تعاليم الإمام مالك ، وقد سبق أن أشرت إلى مدى النفوذ الذي كان يتمتع به علماء وفقهاء المرابطين في الدولة ، وذلك بفضل حواسنهم للمذهب وتطبيقهم لأحكامه في شتى مجالات الحياة في المغرب الأقصى وذلك بفضل ولاية الأمر المالكيين وعلماء الدولة المالكية يقول المراكشي « ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع أعني فروع مذهب مالك ، فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعنى بهما كل الاعتناء » (٢).

وصارت الفتيا والأحكام مستمدة من مذهب الإمام مالك حتى نهاية الدولة ولا يلتفت إلى غيرها من الأحكام ، وقد أكد ذلك تلك الرسالة الصادرة من تاشفين بن علي بن يوسف سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م إلى أهل بلنسية

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٩٩ .

(٢) المراكشي : المعجب ص ١٧٢ .

يحدد لهم فيها أن مناط الأحكام هو مذهب الإمام مالك يقول فيها « واعلموا رحمكم الله أن مدار الفتيا ومجرى الأحكام والشورى في الحضر والبدا ، على ما اتفق عليه السلف الصالح — رحمهم الله من الاختصار على مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه فلا عدول لقاض ولا مفت عن مذهبه ، ولا يأخذ في تحليل ولا تحريم به ومن حاد عن رأيه بفتواه ومال عن الأئمة إلى سواه فقد ركب رأسه واتبع هواه » (١).

وصارت المدن المغربية مراكز لدراسة المذهب المالكي وتخرج العلماء المالكيين ومن هذه المراكز مدينة تلمسان التي كانت دار للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب الإمام مالك (٢) وأنجبت البلاد الكثير من علماء المالكية الذين حفلت بهم المجالس والندوات ودور العلم ، وفي مقدمتهم القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي المالكي ، كان إمام المالكية وقنوتهم وجامع مذهب الإمام مالك وشارح أقواله والمدافع عنه (٣) وقد برز دوره واضحا حين رفع لواء الثورة ضد عبد المؤمن بن علي والموحدين ومنتصرا للمرابطين وهو في الواقع مدافع عن المذهب المالكي ضد الدعوة الموحدية ، حتى إذا اندلعت ثورة ابن تومرت ، كان من أسبابها جمود العلماء والفقهاء على علم الفروع وتركهم للأصول مع معارضتهم لعلوم الكلام ، ومن هنا شن ابن تومرت حربا شعواء على العلماء ولكنه لم يستطع مهاجمة المذهب المالكي الذي أصبح عقيدة ومذهبا لعامة الشعب ، وقد تحايل ابن تومرت على تعلق الناس بمذهب الإمام مالك بأن ألف لهم موطأ جمع فيه الأحاديث النبوية التي وردت في موطأ الإمام مالك بعد حذف معظم الاسناد منها للاختصار (٤) وهي محاولة منه في صرف الناس عن المؤلفات المالكية .

المذهب المالكي في الدولة الموحدية :

حين تولى الخليفة عبد المؤمن ، اتخذ خطوة أبعد من ذلك ، وهي أمره

-
- (١) د. حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال ص ١١٢
 (٢) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية ص ٧٧ .
 (٣) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ١ ص ٧٧ .
 (٤) د. عبد الله علام : الدعوة الموحدية ص ٣٠٤ ، د. أحمد مختار المبادي : دراسات في تاريخ المغرب ص ١٠٩ .
 (م ٣٠ — للحضارة)

بجرق كتب الفروع والاقتصار على الأحاديث النبوية ^(١) يقول ابن أبي زرع « ثم دخلت سنة خمسين وخمسة فيها أمر عبد المؤمن ... تغيير المنكر وتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث وكتب بذلك إلى جميع طلبة المغرب والعدوة ^(٢). إلا أن علماء المالكية استمروا يمارسون نشاطهم في عهد الخليفة عبد المؤمن ^(٣) وابنه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ^(٤) .

حتى إذا تولى المنصور الموحدى ، صنع ما كان جده ووالده يتمنيان فعله وهو محاولة محو مذهب الإمام مالك من البلاد ، يقول المراكشي « وهذا المقصد — أى محو مذهب الإمام مالك — بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهره وأظهره يعقوب هذا ^(٥) وفي سبيل تحقيق هذا الغرض أمر بجرق كتب الفروع وأن الفتاوى تعتمد على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدين ^(٦) يقول المراكشي « وفي أيامه — أى أيام المنصور الموحدى — انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وأمر باحراق كتب المذهب بعد أن مجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ، ففعل ذلك ^(٧) وصارت كتب المذهب المالكي تجمع وتطلق فيها النار ومن هذه الكتب مدونة سحنون وكتاب ابن يونس ، ونوادر أبي زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعي ، وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحنا نحوها ^(٨) وقد برر هذا العمل أمام من حوله من العلماء بكراهيته للخلافات التي امتلأت بها كتب الفروع ، وميله إلى

(١) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٥٧ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٢٦ .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٥٤ ت الفيلالى .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٧

Barbor: A survey of North West p,84.

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٩٢ .

(٥) المراكشي : المعجب ص ٢٧٩ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١١ ، العمري : مسالك الأبصار ج ١٦ قسم ٢ ص ٤٢٢ ، المقرئ : نفع الطيب ج ٤ ص ١٠٢

(٧) المراكشي : المعجب ص ٢٧٨ .

(٨) نفس المرجع السابق ص ٢٧٨ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٧٤ .

الرجوع إلى الكتاب والسنة والأخذ بظاهرهما وقد عبر المراكشي عن ذلك بالحوار الذى دار بين المنصور وأحد العلماء حين دخل عليه فوجد بين يديه كتاب ابن يونس فقال المنصور : يا أبا بكر أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أحدثت فى دين الله ، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ، فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيهما يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فلما حاول العالم تفسير ذلك قاطعه بالرد الحاسم : ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبى داود أو هذا وكان يشير إلى السيف (١).

وهكذا استغل المنصور كثرة الخلافات فى كتب المذهب كذريعة لمحاولة القضاء على المذهب . وبالتالي القضاء على نفوذ علماء المالكية الذين يجلبهم عامة الشعب .

وحتى لا يترك الناس فى فراغ أمر جماعة من العلماء بجمع الأحاديث من كتب الأحاديث كالبخارى ومسلم وغيرهما فى الصلاة وما يتعلق بها وغير ذلك من أنواع العبادات وجمعها والزعم الناس بدراستها وحفظها (٢) وحتى يؤكد أهمية هذا العمل ، كان يملئ هذه الأحاديث بنفسه ، بالإضافة إلى رصده المكافآت والأموال لمن أقبل على حفظ هذا المجموع وأتقنه (٣).

وبجانب هذا الاجراء فانه أظهر تعظيلا للمذهب الظاهري كبديل للمذهب المالكي (٤) يقول ابن الأثير « وكان — أى المنصور الموحدي — يتظاهر بمذهب الظاهرية وأعرض عن مذهب مالك ، فعظم أمر الظاهرية فى أيامه وكان بالمغرب منهم خلق كثير يقال لهم الحزمية ، منسوبون إلى محمد بن حزم رئيس الظاهرية إلا أنهم مغمورون بالمالكية فى أيامه ظهوروا وانتشروا » (٥) الا ان إجراءات المنصور ضد المذهب المالكي وميله للمذهب الظاهري ،

(١) المراكشي : المعجب ص ٢٧٩ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٧٩ .

(٤) ملين : عصر المنصور الموحدي ص ٢٥٥ ، عنان : عصر

المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٢٤٠ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٤٥ .

لم تفت في عضد علماء المالكية وظل علماء المذهب يكافحون في سبيل بقاء المذهب الذي ارتبط بالشعب إرتباطاً وثيقاً ، متغلغلاً في نفوسهم ممتزجاً بأرواحهم ، وقد عارض علماء المالكية خطوات المنصور المحدث ومن هؤلاء محمد بن محمد بن سعيد الانصاري الذي تابع تدريس كتب المالكية حتى أمر المنصور بسجنه في سبته (١) ، ومحمد بن محمد بن خلف التجيبي المتوفى سنة ٥٩٣ هـ وأبو الحسين بن زرقون (٢) وقد توفى أبو بكر الجياني المالكي نتيجة التعذيب وذلك لإصراره على التدريس بمذهب الامام مالك (٣) وكان أبو مدين المتصوف ومن حفاظ الحديث والمتوفى سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م تأتبه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها (٤) وهكذا وقف علماء المالكية لصمد هذا التيار ونجحوا فيه واستمرت المالكية راسخة البنيان في تربة المغرب الأقصى .

التطبيق العملي لأحكام الدين :

في ظل الدعوتين المرابطية والموحدية ، حرص ولادة الأمر على تطبيق أحكام الدين ، وتنفيذ تعاليمه بين أفراد المجتمع ، والتشدد في إقامة شعائر الدين من صلاة وزكاة وغير ذلك ، وكان ذلك استجابة طبيعية لقيام الدولتين على أسس دينية ، ومن هنا وجدنا الطريق الذي التزمه الداعيان : ابن ياسين وابن تومرت ومن بعدهما من أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين ، هو متابعة تنفيذ أحكام الدين ومؤاخذه المتخلفين بالعقاب الذي يصل إلى حد القتل ، فابن ياسين اتخذ منهجاً متشدداً في قبول المنضمين لدعوته من أبناء القبائل المختلفة إذ لا بد من إسلام جديد للعضو المنضم (٥) وحتى يتم هذا الإسلام الجديد لا بد أن يطهر من ذنوبه السابقة ، وذلك بافتراس أنه ارتكبها فيقام عليه حد الزنا وحد الافتراء وحد شارب الخمر ، وإذا اعترف

(١) ملين : عصر المنصور الموحدي ص ٢٥٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٥٤ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٤) أحمد بن القاسم : المعزى في أخبار أبي يعزى ص ٧٢ .

(٥) ابن أبي زرع : الأتييس ج ٢ ص ١٥ ت الفيلاي ، السلاوي :

الاستقصا ج ٢ ص ٩ ، ١٠ .

بأنه قتل أحداً فإنه يقتل^(١) فإذا ما طهر من ذنوبه أصبح صالحاً للانضمام
للدعوة الجديدة ، وعلم قواعد الدين والإسلام الصحيح

ولا شك أن هذا مسلك فيه الكثير من التعنت من جانب ابن ياسين ،
إذ فيما اعتقد لم يسبقه أحد من الفقهاء في اتخاذ هذا المسلك بالنسبة لمن تاب
وسلك الطريق الصحيح ، وربما كان يهدف من وراء ذلك إلى سبر مدى
صلاحية أتباعه في تحمل مشقات الدعوة ، فإذا ما تحمل العضو التعذيب كان
أقدر على تحمل أعباء الجهاد والكفاح المسلح الذي كان ركناً من أركان
دعوة ابن ياسين .

فإذا ما انتقلنا إلى داعية الموحدين لوجدنا هذا التشدد ولكن بالنسبة
لمن انضم إلى الدعوة فعلاً وبإيعه ، إذ اشترط على أتباعه السمع والطاعة ،
وتنفيذ أوامره ، ومن يستجب عوقب فإن تمادى يقتل^(٢) ، وكان القصد من
هذا التشدد ضمان استقامة أمر الدعوة ، وجعل أتباعها قدوة لغيرهم
في تنفيذ أوامر الدين .

أما الخليفة الأول عبد المؤمن فكان معظماً للدين وسنداً قوياً في تنفيذ
أحكامه وتعاليمه^(٣) وكان يلزم أتباعه بترك اللهو والهزل والاهتمام بعلوم
الدين وتطبيق أحكامه^(٤) كذلك الخليفة يوسف بن عبد المؤمن كان يولي
الدين اهتمامه ، ويحرص على إقامة الشعائر الدينية^(٥) وهكذا كان الموقف
ولادة الأمر من تنفيذ أحكام الدين أثره البالغ في إلترام الرعية بأوامر الدين .

فإذا ما حاولنا أن نفصل مدى اهتمامهم بمختلف الشعائر والعبادات
لوجدنا أن إقامة الصلاة وتأديتها تحتل ركناً أساسياً في اهتمامهم وذلك باعتبارها
الركن الأول من أركان العبادة بعد الشهادتين فابن ياسين كان يلزم أتباعه

(١) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات ، البكري : المغرب
ص ١٦٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٦ بيروت .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٩ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٧ ، العمري : مسالك
الإبصار ج ١٦ قسم ٢ ص ٣٣٣ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٨ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٨٢ .

بالمواظبة على الصلاة وتأديتها مع الجماعة ومن تخلف عنها ضرب عشرون سوطاً ، ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط (١) وكان جهلهم بأركان الصلاة سبباً في جمع ابن ياسين أتباعه في كل صلاة حتى تصح صلاتهم (٢) وقد أدى العقاب الصارم الذي فرضه ابن ياسين إلى أن كثيراً منهم كان يدخل الصلاة بغير وضوء ، وذلك إذا حان وقتها خشية العقوبة (٣) أما ابن تومرت فلأنه ألزم أتباعه بتأدية الصلوات الخمس في أوقاتها ونهاهم عن تأخيرها (٤) .

وقد سلك ابن تومرت أسلوباً فريداً في تعليم من لا يعرف من أصحابه فاتحة الكتاب حتى يمكنهم من تأدية الصلاة وقد أشار السلاوي إلى هذه الطريقة بقوله « إن طائفة من المصامدة عسر عليهم حفظ الفاتحة لشدة عجز عجمتهم ، فعدد كلمات أم القرآن ، ولقب بكل كلمة منها رجلاً ، فصنفهم صفاً وقال لأولهم : اسمك الحمد لله ، وللثاني : رب العالمين ، وهكذا حتى تمت كلمات الفاتحة ثم قال لهم : لا يقبل الله منكم صلاة ، حتى تجمعوا هذه الأسماء على نسقها في كل ركعة فسهل عليهم الأمر وحفظوا أم القرآن » (٥) وبهذه الطريقة العملية استطاع فريق من أصحابه حفظ الفاتحة وتأدية الصلاة .

وتابع الخليفة عبد المؤمن سياسة التشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلاة ، بحيث إذا عثر على أحد في وقت الصلاة غير مصلي قتل (٦) وكان هذا الحرص من الخليفة في السلم والحرب ، فأثناء توجه جنوده إلى إفريقية سنة ٥٥٤ هـ كانوا يصلون الصلوات الخمس خلف إمام واحد بتكبيره واحدة (٧) وذلك بالرغم من كثرة الجنود وصارت تأدية الصلاة وإتمامها من الأمور التي تشغل فكر الخليفة عبد المؤمن ، مما دفعه إلى إرسال منشور إلى أهل بجاية

-
- (١) البكري : المغرب ص ١٦٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٦ بيروت .
 (٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك ج ٢ مجلد ٢ ص ٥٣٤ .
 (٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٦ بيروت .
 (٤) ابن القطان : الجمان ص ١٢٦ ، ١٢٧ .
 (٥) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٩١ .
 (٦) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٧ ، العمري : مسالك الأبصار ج ١٦ قسم ٢ ص ٣٣٣ .
 (٧) الباجي : الخلاصة النقية ص ٥٥ .

وسائر المدن المغربية سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م مطالباً دعاة الموحدين ببيان أهمية الصلاة ومتابعة الناس في تأديتها ومن تكاسل عرقب بالقتل وقد جاء فيها « وآخذوا بإقامة الصلاة التي هي الكتاب الموقوت على المؤمنين ، والحكم المثبوت على كل من آمن بهذا الدين ، والناهية عن الفحشاء والمنكر على ماورد في الكتاب المبين ، ولاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة ، فهو محمور من ديوان المؤمنين ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع من الوظائف والقوانين . فخذوا من قبلكم بإقامة الصلاة على ما شرعت وادائها بحسب ما فرضت واخلدوا العوام ومن في الديار لحفظ أم القرآن ، وسورة معها وما تيسر من القرآن لتتم صلاتهم ويكمل عملهم ، ومن أضاع الصلاة وأهملها ولم يبادر إلى أداء ما فرض عليه فأجله للحين متاح ، وقتله بحكم الكتاب والسنة واجب » (١) وهكذا كان حكم القتل نصيب تارك الصلاة ، واستمر هذا الحكم في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن (٢) وقد حكى خادم الشيخ أبي يعزى المتصوف ، ما شاهده ، في الطريق إلى سلا وكيف أن جند الموحدين قبضوا على جماعة لم يصلوا الصلاة في وقتها ونفذوا فيهم حكم الاعداء ، وأنهم أوشكوا تنفيذ الحكم فيه لو لا أن أحد الحاضرين شهد بأنه غريب عن هذه الجماعة (٣) .

أما المنصور الموحدي فإنه بجانب تشدده في إقامة الصلاة ، فإنه كان يتولى إمامة الصلوات الخمس بنفسه ، واستمر على ذلك عدة أشهر (٤) وما يتصل بالصلاة الزيادة في آذان الفجر وهي بدعة استنها لهم ابن تومرت ، حيث أمر المؤذنين بأنه إذا طلع الفجر أن ينادوا « أصبح والحمد لله » إشعاراً بأن الفجر قد طلع (٥) وأصبحت سنة متبعة في دولة الموحدين .

وبجانب الصلاة فقد كانت هناك قراءة القرآن وقد خصص ابن تومرت لا صحابه حزباً يقرءونه في كل يوم بعد صلاة الصبح ، وبعد الفراغ من

(١) مجموع رسائل موحدية ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٨٢ .

(٣) أحمد بن القاسم : المعزى في اخبار أبي يعزى ص ٥٣ .

(٤) المراكشي : المعجب ص ٢٨٥ ، ابن خلكان : وميات الأعيان ج ٦ ص ١٠ ، العيني : عقد الجمان ج ١ قسم ٢ ص ٢٣٢ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٨٥ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٩ .

(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٧ .

القرآن يقرءون حزباً من كتابه أعز ما يطلب ويحفظون ما فيه من تعاليم^(١) أما في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فإنه أمر بقراءة حزب القرآن بعد صلاة الصبح والمغرب ويسرى ذلك في كل أنحاء الدولة^(٢).

أما الزكاة : وهى ركن من أركان الدين ، فقد بينها ابن ياسين لأتباعه وحدد مقاديرها وفقاً لأحكام الشرع ، وقضى على كل المغارم والأموال التى كانت تخالف أحكام الدين^(٣) . وكذلك فعل ابن تومرت حين فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم^(٤) وقد اقتنى خلفاء الموحدين سياسة ابن تومرت فى الاهتمام بركن الزكاة والحض عليها ، وقد سبق أن تناولت فى مصادر الدخل وأوضحته كيف أن الزكاة كانت تشكل مصدراً من مصادر الدخل المالى ، وقد حرص الخليفة عبد المؤمن على جمع الزكاة وتبج مانعها بالقتل ، اتضح ذلك فى رسالته الموجهة إلى طلبة بجاية سنة ٥٥٦هـ ١١٦٠م وغيرها من المدن المغربية ، ومما جاء فيها بصدد الزكاة « وخلوا ايتاء الزكاة ، وبالكشف عن مانعها وتشخيص ممسكها أو النزر اليسير منها ، فالزكاة حق المالى ، والجهاد واجب على من منع منها قدر العقال فمن ثبت منعه للزكاة فهو لا حق بمن ثبت تركه للصلاة ، فمن منع غريضة كمن منع الفرائض كلها ، ومن منع عقالا فما فوقه كمن منع الشرع كله^(٥) » .

وإذا كان ولاية الأمر بذلوا جهودهم فى دفع الشعب الالتزام بأحكام الدين وتأدية فرائضه ، فإنهم لم يدخروا جهداً فى محاربة أى منكر تظهر بوادره فى المجتمع ، ومن ذلك محاربتهم للخمر ، وإقامة الحد على شاربها ، وكان مما نغمه ابن تومرت على المرابطين أن الخمر تباع جهاراً فى دولتهم^(٦) وأعتقد أن هذه الدعوى من ابن تومرت مبالغ فيها ، فدولة المرابطين دولة دينية ، وكان يحكمها فى هذه الفترة أمير المسلمين على بن يوسف وقد اشتهر

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) الجيلانى : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس ص ١٢٣ .

(٣) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ١٥ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٠ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٧ .

(٥) مجموع رسائل موحدية ص ١٣٣ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٤٠ .

بالورع والتقوى فضلاً عن أن شئون الدولة المختلفة كانت خاضعة لسلطة الفقهاء والعلماء ، ومن المستبعد كما أدعى ابن تومرت أن ينتشر بيع الخمر في البلاد ، وإنما كان دافع ابن تومرت هو طعن ولاية الأمر في دينهم والخط من شأنهم . وقد حرص ابن تومرت في دروسه التي ألقاها على تلاميذه أن يخصص أجزاء في تحريم شرب الخمر وصفات الخمر المحرم وغير ذلك مما يتعلق بالخمر^(١) وفي رسالة عبد المؤمن سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م تصريح بمهاجمة أماكن الخمر وتدميرها وقتل شاربيها وبيعها^(٢) وقد سبق الإشارة إلى ذلك . كذلك المنصور الموحدي ، فإنه في بعض الأحيان كان ينفذ حكم الإعدام في شارب الخمر^(٣) وهكذا عاش الشعب المغربي محافظاً على تأدية الفروض الدينية وملتزماً بأحكام الشرع ، ومن تهاون أو تكاسل في تأديتها فإن في حزم ولاية الأمر ما يردعه ويعود به إلى الطريق السليم .

المرابطون ونشر الإسلام :

تمثل جهاد المرابطين في سبيل نشر الإسلام ودعمه ، والقضاء على البدع والضلالات في حركتين : إحداهما في الشمال بأرض المغرب الأقصى حيث استطاع المرابطون القضاء على إمارة برغواطة ، والأخرى في الجنوب حيث انطلق فريق من المرابطين لنشر الإسلام في إقليم السودان .

أما الحركة الأولى فقد نجح المرابطون في القضاء على الضلالات المنتشرة في إمارة برغواطة تلك الإمارة التي أسسها صالح بن طريف والتي اتسمت تعاليم من أنشأها بالكفر والخروج على الإسلام وقد حدد ابن خلدون مواطنهم « وكانت مواطنهم خصوصاً بين المصامدة في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط وسلا وآزمور وآتني وآسفي »^(٤) وقد اختلف المؤرخون في أصل إمامهم فقد ذكر بعضهم أنه صالح بن طريف من وادي برباط من الأندلس فقيل لكل

(١) ابن تومرت : أعز ما يطلب ص ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ .

(٢) مجموع رسائل موحدية ص ١٣٣ .

(٣) ابن خلكان : وفیات الاعیان ج ٦ ص ١١ ، السلاوي : الاستقصا

ج ٢ ص ٢٠٠ ، ابن سفيان : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٠٧ .

من دخل في ديانتته برباطى فأحالتة البربر بالسنتها فقالت برغواطى (١) ويشير ابن خلدون أنه من قادة ميسرة (٢) أحد الثائرين بالمغرب الأقصى في القرن الثاني الهجرى ضد سلطة الخلافة الأموية ، أما الأسباب التى دفعت طريف لإقامة إمارة برغواطية فهو الضعف السياسى الذى كانت تعاني منه منطقة المغرب الأقصى عقب ثورة ميسرة سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م ، ومن ثم استغل طريف ومن بعده ابنه صالح — الذى اشتغل بالسحر وجمع فنوناً (٣) — جهل السكان وعدم معرفتهم بشرائع الإسلام وأعلن دينه الجديد في خلافة هشام ابن عبد الملك في سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٥ م (٤) تحت ستار من الصلاح والزهد مع طلاقه لسان وقوة بيان ، وبذلك استطاع أن يستحوذ على عقول البربر وقلوبهم فادعى النبوة وشرع لهم تعاليم جديدة (٥) بل وألف لهم قرآناً يصوره ابن خلدون بقوله « وادعى أنه نزل عليه قرآن كان يتلو عليهم سوراً منه ، يسمى منها سورة الديك وسورة الحمر وسورة الفيل وسورة آدم . . . وسورة آدم . . . وسورة غرائب الدنيا وفيها العلم العظيم بزعمهم حرم فيها وحلل وشرع » (٦) وحتى أنه سمي نفسه بصالح المؤمنين ويعلى البكرى هذه التسمية بقوله « وهو صالح المؤمنين الذى ذكره الله عز وجل في قرآن محمد عليه السلام في صورة التحريم » (٧).

وهكذا صحب الضعف السياسى للمغرب الأقصى قيام مناطق تسودها الانحرافات الدينية والفضلالات ، وقد أخذ الأدارسة على عاتقهم محاربة إمارة برغواطية ، وذلك في شكل حملات عسكرية متتابة ، ولكنها لم تنجح تماماً في القضاء على هذه البدعة حتى انطلق المرابطون من الصحراء صوب تامسنا وإمارة برغواطية ودارت معارك طاحنة استشهد في إحداها داعية المرابطين عبد الله بن ياسين وانتهت بالقضاء على البرغواطيين (٨) يقول ابن

(١) مجهول : نبذ تاريخية في أخبار البربر ص ٤٧ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٠٧ .

(٣) نفس المرجع السابق ج ٦ ص ٢٠٩ .

(٤) نفس المرجع السابق ج ٦ ص ٢٠٧ .

(٥) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٤ .

(٦) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٠٧ .

(٧) البكرى : المغرب ص ١٣٥ .

(٨) ابن أبى دینار : كتاب المؤنس ص ١٠٣ .

خلدون : « ثم بدأ — أى للمرابطين — لهم جهاد برغواطة بتامسنا وما إليها من الريف الغربى ، فزحف إليهم أبو بكر بن عمر أمير ملتونة فى المرابطين من قومه ، وكانت له فيهم وقائع واستشهد فى بعضها صاحب الدعوة عبد الله بن ياسين الجزولى سنة خمسين وأربعمائة ، واستمر أبو بكر وقومه من بعده على جهادهم حتى استأصلوا شأفتهم ومحووا من الأرض آثارهم . . . وعليه كان انقراض أمرهم وقطع دابرهم على يد هؤلاء المرابطين » (١) وهكذا حقق المرابطون نجاحاً بالنسبة للقضاء على الضلالات بالمغرب الأقصى ، وإقرار الإسلام ومبادئه الصحيحة فى المنطقة .

أما حركة الجهاد الأخرى التى كانت وجهتها إلى الجنوب ، فقد تزعمها الأمير أبو بكر بن عمر حين اتجه بمجموعة من جند المرابطين إلى الجنوب سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦١ م للقضاء على فتنة نشبت بين قبائل الصحراء (٢) وفى رواية أخرى لجهاد كفار السودان (٣) وواصل كفاحه فى هذه المنطقة وخاصة بعد أن يئس من استرداد السلطة من ابن عمه يوسف بن تاشفين الذى قبض على زمام الأمور بالمغرب الأقصى ، ومن هنا وجه نشاطه العسكرى إلى نشر الإسلام فى إقليم غانة والقضاء على طقوس الوثنية التى كان يمارسها سكان المنطقة ، وكانت هناك قبل ذلك محاولات لنشر الإسلام فى إقليم غانة وذلك عن طريق التجار الذين كانوا يتنقلون بين مناطق الشمال والجنوب إلا أنه لم تكن فى شكل حركة عامة حتى استولى المرابطون على الإقليم وفتحوا عاصمته (٤) ومنذ ذلك التاريخ أى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى أصبحت

-
- (١) ابن خلدون : المعراج ج ٦ ص ٢٠٩
(٢) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٣١
ت العبادى .
(٣) ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠٣ .
(٤) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٦ ص ٢٢١ ،
حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٨٤ ، د. إبراهيم طرخان : إمبراطورية
غانة الإسلامية ص ٤٧ ، د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية
السودانية ص ٣٣ .

J. Spencer : A history of islam in west Africa, p. 18

J. D. Fog : An Introduction to the History of west
Africa p. 21

Siddipi : DevelopemPnt of Islamic, p. 16.

حكومة غانة حكومة إسلامية ويقال أن الملك تنكامين السوننكي قبل الدخول في الإسلام والخضوع لسلطة المرابطين ، وبإسلامه دخل عدد كبير من السكان في الإسلام^(١) وهكذا وضع المرابطون نواة دولة إسلامية في غرب إفريقيا نتيجة لكفاحهم في سبيل نشر الإسلام .

المتصوفون بالمغرب :

عاش في مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الخامس والسادس من الهجرة الكثير من الصالحين ، هؤلاء الذين اتخذوا التصوف منهجاً لحياتهم ، وتجمع حولهم الأتباع والمريدون ينهلون من علمهم ومعرفتهم ، وكانت الملامح البارزة لهذا التصوف : الزهد ومجاهدة النفس والإكثار من العبادة والأذكار ولم يكن تصوفاً فلسفياً^(٢) يغترف من علوم الفلسفة والكلام كما حدث بالمشرق ، وامتازت هذه الفترة بوجود بعض أقطاب التصوف في المغرب كأبي يعزى وابن العريف وعلي بن حرزهم وأبي مد ين وغيرهم من المتصوفين ، والذين أصبحوا أعلاماً يقتلدى بهم الأتباع ، والمريدون ويتخذون من تعاليمهم المبادئ ، وعلى هذه المبادئ تأسست تلك الطرق الصوفية التي صارت لها فيما بعد تأثير في الحياة السياسية بالمغرب فضلاً عن الحياة الروحية^(٣) .

وشهد المغرب الأقصى مدنه وسهوله الكثير من هؤلاء الصوفية ، وقد جفل كتاب التشوف للتادلي بأخبارهم ، ومع أنهم لم يكونوا طرقاً وجماعات متميزة كما حدث فيما بعد ، إلا أن أصابعهم تركت بصماتها على صفحة الحياة المغربية حيث التقى الكثير من أبناء المجتمع حولهم يعظمونهم وينزلونهم منزلة التقديس والتكريم . وأصبحوا هم الملجأ والملاذ حين تنزل بالناس أزمة أو شدة ، فحين أجذبت الأرض بفاس ، وامتنع سقوط المطر ، لحأ الناس بالشكوى إلى الشيخ أبي يعزى المتصوف الذي تضرع بالدعاء إلى الله فاستجاب الله له وأمطرت السماء^(٤) وحين أساء أحد العمال إلى الناس بالظلم

(١) د. إبراهيم طرخان : امبراطورية غانة الإسلامية ص ٤٧ .

(٢) رابح بونار : المغرب العربي ص ٣٣٥ .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٩٨ .

(٤) أحمد بن القاسم : المعزى في أخبار أبي يعزى ص ٦٠ مخطوط

والطغيان لجأوا إلى الشيخ أبي يعزى يشتكون له ، فما كان منه إلا أن كتب له رسالة يهدده فيها بعذاب الله ويأمره بالإقلاع عن الظلم^(١) وهكذا صار المتصوفون رمزاً للعدالة ، يلوذ بهم الناس من ظلم حكامهم .

ولشدة تعلق الناس بهم ، رسخت في نفوسهم قدرة المتصوفين على شفاء المرضى ومن ثم كانوا يقصدونهم لمداداة مرضاهم ومن ذلك ما رواه عبد الله ابن عيسى والمتوفى سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م أنه كان مصاباً بالصرع في صغره وحرار الأطباء في علاجهم ، حتى صحبته والدته إلى أبي لقمان يرزجان ابن يعقوب الأسود وهو أحد المتصوفين الذي مسح يده على رأسه فما أصابه الصرع بعد ذلك^(٢) ولا شك أن الناحية النفسية لها تأثير كبير في شفائه ، وكذلك حين مرضت إحدى الحواري بعينها ، فلم يشفها سوى لمس أبي يعزى لعينها^(٣) وغير ذلك من الروايات والأخبار التي وردت عنهم والتي جعلت منهم أولياء يزدحم الناس على أبوابهم ويقبلون أيديهم تبركاً بهم^(٤)

وبجانب مكانتهم في نفوس طبقات الشعب المختلفة ، فإنهم حظوا بالمنزلة الرفيعة لدى ولاية الأمر حيث تقربوا إليهم كسباً لودهم وفي نفس الوقت تقرب للشعب الملتف حولهم ، فالأمير مزدلى بن تالكان المرابطى والى تلمسان توجه إلى دار أبي محمد عبد السلام المتصوف ليتبرك به وتناول الطعام معه^(٥) كما أن الخليفة عبد المؤمن طلب من أبي يعزى الدعاء له^(٦) وأما المنصور الموحدى فإنه أمر أن يجمع له الصالحون والمتصوفون من جميع البلاد حتى يصحبوه في حملته الكبرى في الأندلس سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٦ م متبركاً بهم ناسباً إليهم النصر في معاركه^(٧) وقد بلغ من تكريمه لأحد المتصوفين وهو أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجى المعروف بالسبتى ، أن توجه إليه بنفسه

(١) نفس المرجع السابق ص ٦٥ .

(٢) التادلى : التشوف ص ٢١٦ .

(٣) أحمد بن القاسم : المعزى في أخبار أبي يعزى ص ٦٥ .

(٤) التادلى : التشوف ص ٢٢٣ .

(٥) التادلى : التشوف ص ٨٨ .

(٦) أحمد بن القاسم : المعزى في أخبار أبي يعزى ص ٥٨ .

(٧) المراكشى : المعجب ص ٢٨٦ ، ملين : عصر المنصور الموحدى

ص ١٤٩ .

وصعد إليه في الجبل مع جمع من الفقهاء والصالحين للتبرك به وما زال به حتى نزل معه وحبس عليه مدرسة للعلم والتدريس وزاوية للفقراء وداراً لسكنائه بأحواز جامع الكتبيين^(١) وحين مرض المنصور استدعى أبا العباس السبتي المتصوف لعلاج^(٢) وهكذا حظى المتصوفون بالتكريم والرعاية من ولاية الأمر وخاصة في عهد المنصور مما دعا المراكشي إلى وصف حالهم بقوله « وانتشر في أيامه — أي المنصور — للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت ، وقامت لهم سوق ، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس ، ولم يزل يستدعى الصالحين من البلاد ، ويكتب إليهم يسألهم الدعاء ، ويصل من يقبل صلته منهم بالصلوات الجزيلة »^(٣).

ألا أن هذه المكانة التي تمتع بها المتصوفون والتفاف الناس حولهم ، وتكريمهم لهم . أثارت حفيظة بعض الفقهاء ، ومن ثم حاولوا النيل منهم والإيقاع بهم عند ولاية الأمر ، فقد سعى قاضي المرية ابن الأسود بابن العريف المتصوف عند أمير المسلمين على بن يوسف حسداً له وغيظاً منه ، فأحضر إلى العاصمة مراكش للقاء أمير المسلمين الذي علم ببراءته فأطلق سراحه ، فما كان من القاضي إلا أن وضع له سماً في الطعام أفضى به إلى الموت وكان ذلك في سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م^(٤) أما أبو عبد الله محمد بن عمر الأصم وهو من متصوفي سحلماسة وتوفي سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م فقد ألصقت به عدة تهم ، فأمر أمير المسلمين تاشفين بن علي بسجنه في فاس ثم ظهر لأمر المسلمين براءته فأفرج عنه^(٥) كذلك سعى بعض الناقمين بالمتصوف أبي يعزى فاستدعاه الخليفة عبد المؤمن وحبسه فترة ثم أخلى سبيله حين تأكد من براءته^(٦) كذلك

(١) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٧ ، ٨ أحمد بن القاسم : المعزى في أخبار أبي يعزى ص ٩٠ .

(٣) المراكشي : المعجب ص ٢٧٨ .

(٤) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ١ ص ١١٠ ، التنبكي : نيل الابتهاج ص ٥٨ ، ص ٥٩ ، د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ص ١٨٤ ، عبد العزيز بن عبد الله : معطيات الحضارة المغربية ج ١ ص ١٤٥ .

(٥) التادلي : التشوف ص ١٣٤ .

(٦) أحمد بن القاسم : المعزى ص ٦ .

حين سعى بعض العلماء الحاسدين بأبي مدين شعيب المتوفى سنة ٥٩٤ هـ - ١١٩٧م المنصور الموحدى فأمر بإحضاره إلى العاصمة إلا أن المنية عاجلته (١). وقد اتخذ هؤلاء الناقمون حججاً قوية ومن ذلك تخويفهم لولاة الأمر بنفوذ هؤلاء المتصوفين وإلتفاف الناس حولهم وتعلقهم بهم مما يخشى منه على أمن الدولة ومن ذلك ما قاله العلماء للمنصور بشأن أبي مدين للإيقاع به « إنه يخاف منه على دولتكم فإن له شياً بالإمام المهدي وأتباعه كثيرون في كل بلد ، فوقع في قلبه وأهمه شأنه » (٢).

كذلك اعترض الفقهاء على اشتغال بعض المتصوفين بمداواة المرضى من النساء وعدوا ذلك خروجاً على أحكام الدين ، وأنكروا ما يصنعه أبو يعزى بالنسبة لمرضى النساء « قيل للشيخ أبي يعزى إن فقهاء فاس أنكروا عليه لمس صدور النساء والنظر إليهن ، فقال : أليس يجوز عندهم أن يلمس الطبيب تلك المواضع ويراهما للضرورة فهلا عدوني واحداً من أطباءهم وقال إنما أمس ذوات العاهات للتداوى بذلك » (٣) .

وهكذا أصبح كبار المتصوفين هدفاً لحملات بعض الفقهاء والعلماء محاولين التشكيك في إخلاصهم وإدعاء أنهم يشكلون خطراً على البلاد ، إلا أن قافلة المتصوفين ظلت تلعب دورها في حياة الشعب المغربي بفضل حب وتكريم الناس لهم .

الغنيات والتبرك في التفكير المغربي :

وهذه النقطة إمتداد لمدى تأثير الصوفية في حياة سكان المغرب وما يصحب ذلك من إيمان بالكرامات واعتقاد في المعجزات ، حيث ساد التفكير المغربي وخاصة عند قيام دولة الموحدين الكثير من القصص التي تنسب لخوارق ومعجزات لأصحابها والتي آمن بها الكثير من الناس ، مما كان

(١) ابن مريم : البستان في ذكر الاولياء والعلماء ص ١١٣ ، التنبكى : نيل الابتهاج ص ١٢٩ ، عباس المراكشي : الاعلام ج ١ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦
(٢) ابن مريم : البستان ص ١١٣ ، التنبكى : نيل الابتهاج ص ١٢٩ .
(٣) أحمد بن القاسم : المعزى ص ٥٤ ، التادلى : التشوف ص ١٩٦ .

له أثر كبير في حياة السكان وهذا يرجع إلى البساطة والسداجة التي كان يتصف بها عامة السكان^(١) مع جهل بروح الإسلام وأحكام القرآن التي تقرر صراحة أنه لا يعلم الغيب إلا الله .

وظاهرة الإيمان بالحوارق والمعجزات لم تكن في الدولة المرابطية بالكثرة التي صاحبت قيام دولة الموحدين ، وهذا يرجع إلى بساطة الدعوة التي نادى بها ابن ياسين مع التزامه بأحكام الكتاب والسنة ، تضاف إلى ذلك كراهة يوسف بن تاشفين للتنجيم ومحاولة معرفة الغيب عن طريق النجوم^(٢) . إلا أنه بالرغم من ذلك فقد ذكرت المراجع بعض الكرامات لعبد الله بن ياسين ومنها عثور أصحابه على الماء في سفرهم الشاق بعد انقطاع الأمل في ذلك^(٣) يصور ذلك البكري بقوله « ومما يذكرونه ولا يشكون فيه من براهين صلاح عبد الله ، أنه ذهب في بعض أسفاره فعطشوا فشكوا ذلك إليه فقال عسى الله أن يجعل لنا من أمرنا فرجاً ثم سار بهم ساعة وقال لهم احفروا بين يدي فوجدوا الماء بأدنى حفر فشربوا وسقوا واستقوا أعذب ماء وأطيبه »^(٤) وكذلك حين سكنت الضفادع لاقترب عبد الله بن ياسين من بركة الماء التي تعيش فيها وكانت لا تسكت أبداً فلما انصرف عادت إلى نقيقها^(٥) وهذه الكرامات التي نسبوها إلى عبد الله بن ياسين ترجع إلى تلك المنزلة السامية التي باغها ابن ياسين في نفوس أصحابه حتى صار بالنسبة لهم في مرتبة الأولياء الذين يأتون بالكرامات والمعجزات .

فإذا ما عاد ابن تومرت إلى أرض المغرب استغل ما يعرفه عن سكان المنطقة من تهيئة للإيمان بالحوارق والمعجزات ، وساعده في ذلك ذكاؤه

(١) استغلقى لين بول : طبقات سلاطين الاسلام ص ٣٨ ، ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب ص ٢٥٦ .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠ .

(٣) ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ٣٠ ، ٣١ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٦ بيروت ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام : القسم الثالث ص ٢٣١ ت العيادي .

(٤) البكري : كتاب المغرب ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ١٦٩ ، ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ٣١ ت الفيلاي .

وسعة حيلته مما جعله يصل في النهاية إلى تحقيق أهدافه . وقد بدأ ذلك بإشاعة أنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام ، وله القدرة على معرفة أخبار المستقبل وبث ذلك في نفوس تلاميذه وأعوانه^(١) وحتى يؤكد هذه الصفة أخبر أصحابه بأنه أطلع على كتاب الجفر وهو كتاب منسوب إلى جعفر الصادق ومن علوم أهل البيت وفيه إشارات بصفة ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن علي وأنهما أصحاب دولة بالمغرب الأقصى وقد حان وقتها^(٢) وقد تسلم الخليفة عبد المؤمن كتاب الجفر من ابن تومرت قبيل وفاته^(٣) وبعد أن نجح في نسج هالة من القدسية حول شخصه ، بدأ بنسج الأساطير حول لقائه بعبد المؤمن ، فقبيل تعرفه على عبد المؤمن كان يجلس تحت شجرة قرب ملالة يحرك شفتيه بالذكر ، وقبيل اللقاء يوم واحد صاح فيتن حوله قائلاً : الحمد لله الذي أنجز وعده ونصر عبده وأنفذ أمره وأقبل نحو المسجد وركع ركعتين ثم قال الحمد لله على كل حال قد بلغ وقت النصر وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم يصلحكم غداً طالب طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره فلما سمع الناس غداً يصلحكم طالب حاروا في أمره^(٤) وهكذا هيا الأذهان والنفوس للتعرف على خليفته . فلما كان الغد التقى ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي في مسجد ملالة وتبعاً لرواية البيهقي فإن ابن تومرت أظهر مقدراته ومعرفته باسم عبد المؤمن ونسبه وموطنه والهدف الذي جاء من أجله^(٥) أما المراكشي فإنه يذكر أن ابن تومرت خلا بعبد المؤمن وعرف أخباره ثم طلب منه البقاء معه^(٦) ورواية المراكشي أقرب إلى التصديق من رواية البيهقي وخاصة إذا وضعنا في اعتبارنا أن البيهقي تلميذ ابن تومرت وصاحب الخليفة عبد المؤمن فليس من المستبعد أن ينسج حولهما كثيراً من القصص والخرافات .

-
- (١) ابن الخطيب : رقم الحل ص ٥٧ ، عباس المراكشي : الاعلام ج ٢ ص ٣٧٦ .
 (٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٤ ص ٣٩ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٨١ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٦١ .
 (٣) ابن أبي زرع : الاتيس ج ٢ ص ١٢١ ت الفيلاي .
 (٤) البيهقي : أخبار المهدي ص ٥٣ .
 (٥) نفس المرجع السابق ص ٥٥ ، ٥٦ .
 (٦) المراكشي : المعجب ص ١٨١ .

ثم أعقب ذلك حملة ذكية من القصص والإشاعات التي تشير إلى قيام الدولة على أكتاف عبد المؤمن بن علي وذلك بإذاعة أن العرافين تنبؤا بتأسيس عبد المؤمن للدولة^(١) مع إذاعة بعض الأحلام وتفسيرها بما يدعم هذه الفكرة يصاحب ذلك بعض الأحداث التي وقعت لعبد المؤمن في صغره والتي فسرت بما يناسب نفس الفكرة وهي تأسيسه للدولة^(٢) وفي خلال ذلك يسرع الناس بالانضمام إلى ابن تومرت ودعوته ، مؤمنين به ومصدين لما يقول ، وابن تومرت يعمق هذا التفكير في أذهانهم ، وحتى يحقق ذلك بسهولة فإنه يتجه بدعوته وأقواله إلى الجهال من الناس ، فيستميلهم ويستحوذ على عقولهم كما سبق أن أشرت .

وقد بلغ من تقديس أصحابه له أن حاول بعضهم نفي صفة البشرية عنه وأنه لا يأكل ولا يشرب مما دعا ابن تومرت إلى نفس ذلك يصور ذلك البيذق « وقال — أى ابن تومرت لأصحابه — هنا عهد الله وعهد الرسول بيننا وبينكم على الكتاب والسنة ، فلما صنع الطعام قال الناس الإمام لا يأكل ولا يشرب فتفرس فيهم فأوماً بيده نحو ذراع كبش وقرص منه وألقاه في فمه ثم قال لهم إنما أنا أكل كما يأكل الناس وأشرب كما يشرب الناس وأنا من بني آدم يلزمني ما يلزمهم ثم قال كلوا كما يأكل النبيون »^(٣) وهكذا ارتفع الناس به عن مرتبة البشرية ونفي ابن تومرت لذلك : إلا أنه أشار في حديثه إلى أنهم يأكلون كما يأكل الأنبياء وفي هذا تلميح بمكانته الدينية ، وهذه القصص التي نسجها حول شخصه ساعدته في إدعاء أنه المهدي المنتظر والتي سبق أن تناولتها فلماذا ما وجد معارضة من أصحابه فإنه يدعى بعض الكرامات لأصحابه كمعجزة أبي محمد البشير وتحوله من الجهل المطلق إلى العلم بالقرآن والأحاديث ، ثم استغلها في قتل كل معارض ومتشكك في دعوته .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٠٢ ، القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ١٣٦ .

(٢) البيذق : أخبار المهدي ص ٥٣ ، ٥٤ ، المراكشي : المعجب ص ١٨٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٠٢ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٩٩ .

(٣) البيذق : أخبار المهدي ص ٧٣ .

وهكذا استطاع ابن تومرت بذكائه ودهائه ، أن يحتل مرتبة الأولياء والقديسين في نفوس الكثير من السكان حتى كانت تفد إليه في حياته أفواج الناس للتبرك به وطلب الدعاء منه^(١) فلما مات صار قبره مزاراً يتوجه إليه الناس والخلفاء بقصد التبرك^(٢).

والخليفة عبد المؤمن بن علي استغل هذه القصص في تثبيت أقدامه عند مبايعة الناس ، وهو في ذلك يقتني خطوات أستاذه ومعلمه ابن تومرت وذلك حين عمد إلى تربية شبل وطائر ، حتى إذا اجتمع الناس لمبايعته ، أطلق أحد أصحابه الشبل والذي صار أسداً فمشى إلى عبد المؤمن وجلس بجواره ، وانطلق الطائر صائحاً بالدعاء للخليفة عبد المؤمن مما جعل الناس المحتمين تدهش لهذه الخوارق وتؤمن بالخليفة الجديد وتسرع بمبايعته . وهكذا كان لمعرفة ابن تومرت بسداجة الكثير من الناس وسرعة تقبلهم لما يقال الأثر الكبير في ظهور مثل هذه الأعمال التي جرت على يد ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن ، والتي ألهبت العاطفة الدينية لدى جماهير الشعب من إيمان بالاولياء والتبرك بهم ، والتحدث بالعديد من القصص حول معجزاتهم وكراماتهم .

العلوم الدينية والمؤلفات فيها :

كان للروح الدينية التي سادت بين سكان المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين ، مع اهتمام ولاة الأمر بالدين ورجاله أثر كبير في ازدهار العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وعلم الكلام إذ وفد على العاصمة وغيرها من مدن المغرب الأقصى الكثير من علماء الدين الأندلسيين ، حيث أسهموا في دفع حركة التأليف بالبلاد وشاركهم في ذلك أبناء المغرب الذين أقبلوا على الدراسة والبحث مما نتج عنه الكثير من المؤلفات الدينية .

ففي مجال التفسير : زاد الاقبال على دراسة القرآن الكريم باعتباره مصدر التشريع الأول في الدولة المرابطية والموحدية ، ومن هنا أقبل عليه العلماء

(١) البيهقي : أخبار المهدي ص ٤٠ .

(٢) ابن الفنفذ : الفارسية ص ١٠٠ ، ١٠١ ت محمد الشاذلي ،

ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٤٤ بيروت .

بالدراسة والبحث ومن العلماء أبو الحسن علي بن محمد الغرناطي المفسر نزيل
مراكش وكان عالماً زاهداً ، يجمع إليه الناس فيفسر لهم القرآن من أوله إلى
آخره (١) وأبو بكر محمد بن علي المعافري السبتي عرف بابن الجوزي (٢)
وعبد الجليل بن موسى الأنصاري الأوسى ت ٦٠٨ وله تفسير في القرآن (٣)
ومن المؤلفات في التفسير تفسير لأبي بكر بن الجوزي السبتي (٤) ومن التفسير
التي اعتنى بها المغاربة كتاب الوجيز لعبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي
المتوفى سنة ٥٤١ / ١١٤٦ م وفي كتابه لخص التفسير كلها ونحوى ما هو
أقرب إلى الصحة (٥).

ومما يتصل بعلوم القرآن علم القراءات الذي لاقى رعاية وعناية من ولادة
الأمر وقد سبق أن ذكرت كيف أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن كان
يلزم أفراد الشعب بقراءة القرآن عقب صلاة الصبح وصلاة المغرب ومن
اشتهر في علم القراءات وألف فيه أبو بكر يحيى بن محمد بن خلف الهوزني
الاشبيلي والمقيم بسبته توفي سنة ٦٠٢ / ١٢٠٥ م (٦) والعالم علي بن محمد بن
يوسف اليابري الضرير والمتوفى سنة ٦١٧ / ١٢٢٠ م كان أستاذاً لأبناء
الخلفاء في القراءة والتجويد (٧).

علم الحديث : نال علم الحديث عناية فائقة من ولادة الأمر ، وهو المصدر
الثاني الذي اعتمد عليه المرابطون والموحدون في أحكامهم ، وكان موطأ
الإمام مالك في الدولة المرابطية مدار الدراسات المتصلة بعلم الحديث ، فلما
قامت دولة الموحدين صار لعلم الحديث شأن كبير حيث اهتم الخلفاء به
اهتماماً كبيراً ، فالخليفة عبد المؤمن أمر بحرق كتب الفروع ورد الناس إلى

-
- (١) التادلي : التشوف ص ٢٢٦ .
 - (٢) كتون : النبوغ المغربي ج ١ ص ٧٧ .
 - (٣) المنوني : العلوم والآداب ص ٤٤٠ .
 - (٤) كتون : النبوغ المغربي ج ١ ص ٩٥ .
 - (٥) ملين : عصر المنصور الموحدي ص ٢٤٧ .
 - (٦) المنوني : العلوم والآداب ص ٤٦ ، ملين : عصر المنصور ص ٢٤٥ .
 - (٧) ملين : عصر المنصور الموحدي ص ٢٤٦ .

قراءة الحديث وكان ذلك في سنة ٥٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م^(١) أما الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن فإنه أمر بأن تجمع أحاديث الجهاد وجعلها مجموعة واحدة وأخذ يملأها بنفسه على كبار رجال الدولة^(٢).

وفي عهد المنصور الموحدى صار لعلماء الحديث منزلة وصيت كبير في الدولة^(٣) وقد أمر بجمع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم المتعلقة بالصلاة في مؤلف يوزع على الناس وكان يملئ ذلك المجموع بنفسه^(٤) ومن اشتهر في علم الحديث أبو الخطاب بن دحية السبتي^(٥) وعبد الرحمن بن محمد بن حيش المتوفى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م^(٦) والقاضي عياض السبتي وكان إمام وقته في الحديث وعلوم الدين^(٧) ومن مؤلفات الحديث لإكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض وله أيضاً مشارق الأنوار في غريب الحديث والآثار^(٨) والمدارك في وصل مقطوع حديث مالك لابن عبد الحليل القصري وشرح مقدمة صحيح مسلم وشرح الموطأ لأبن القطان^(٩) وغير ذلك من المؤلفات .

علم الفقه : نشطت الحركة الفقهية في الدولة المرابطية ، وكانت تدور حول المذهب المالكي حيث أن داعية المرابطين كان مالكي المذهب ، ومن جاء بعده من ولاية الأمر كانوا يتخذون من مذهب الإمام مالك وأحكامه مصدراً لتشريعاتهم ، ومن هنا كان الفقه المالكي هو مناط الدراسة والبحث . فلما جاءت الدولة الموحدية ، ألف ابن تومرت كتابه الموطأ على غرار موطأ الإمام مالك بعد حذف أسانيده^(١٠) وقد سبق أن أشرت إلى موقف خلفاء الموحدين من مذهب مالك وكيف أن الخليفة عبد المؤمن أمر بحرق كتب

-
- (١) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٥٤ ت الفيلالي ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٢٦ .
(٢) المراكشي : المعجب ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٧٨ .
(٤) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٢٥٦ .
(٥) المنوني : العلوم والفنون ص ٤٧ ، ٤٨ .
(٦) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٢٥٠ .
(٧) محمد بن تاويت : الأدب المغربي ص ١٣٠ .
(٨) كنون : النبوغ المغربي ج ١ ص ٩٥ .
(٩) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٥٩ .
(١٠) د. عبد الله علام : الدعوة الموحدية ص ٣١٤ .

الفروع سنة ٥٥٥ هـ وقد تناولت ذلك من قبل ، وأن هذا الموقف تكرر في عهد المنصور الموحدى حيث أمر بحرق كتب الفروع أى كتب الفقه المالكي والاكتفاء بالقرآن والحديث واستعاض عن كتب الفقه بجمع الأحاديث من كتب الأحاديث وجعلها في مجموعة يتدارسها الناس ويحفظونها ، وقد سبق أن أوضحت موقف بعض العلماء من هذه الحملة ضد المذهب المالكي ، ومن أعلام الفقه في هذا العصر عبد الملك المصمودي قاضي الجماعة بمراكش وإبراهيم بن جعفر اللواتي الفقيه المعروف بالفاسي وعبد الله بن أحمد خلوف الأزدي السبتي^(١) ومن المؤلفات في هذا العصر الأعلام بحدود قواعد الإسلام للقاضي عياض والتنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة له^(٢) وحاشية على المدونة لأبي محمد يشكر المتوفى سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م^(٣) وغير ذلك من المؤلفات .

علم الكلام : لم ينل علم الكلام عناية أو رعاية خلال الحكم المرابطي باعتبار أن المرابطين ، كانوا يتخذون طريق السلف منهجاً ومسلكاً وبالتالي فإنهم لم يميلوا إلى الخوض في علوم الكلام فضلاً عن تشجيع دراستها وكانوا يهتمون كل من يخوض في علم الكلام بالكفر ، وقرر الفقهاء عند ولادة الأمر من المرابطين تقييح علم الكلام وأنه بدعة في الدين ، وربما أدى أكثره إلى إختلال في العقائد ، ومن ثم أمروا الناس في كل مكان نبذ الخوض فيه وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه^(٤) إلا أنه بالرغم من ذلك ، وجد من درس هذا العلم وهو أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي وهو أول من أدخل علوم الاعتقادات بالمغرب الأقصى ومات سنة ٤٨٩ هـ - ١٠٩٦ م^(٥) وقد درس على يديه أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير أصله من سرقسطة وسكن مراكش وبها توفي سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٥ م^(٦) حتى إذا عاد ابن تومرت إلى المغرب الأقصى أعلن حربه على جود

-
- (١) كتون : النبوغ المغربي ج ١ ص ٧٦ .
 - (٢) نفس المرجع السابق ج ١ ص ٩٤ ، ٩٥ .
 - (٣) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٥٩ .
 - (٤) المراكشي : المعجب ص ١٧٢ .
 - (٥) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢١ .
 - (٦) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ١٢١ .

علماء المرابطين ودعوا إلى دراسة علم الكلام وسمى أتباعه الموحدين ودعاهم إلى تأويل المتشابه من الآيات ، ثم ألف لأتباعه كتاباً في التوحيد وكتاباً في العقيدة^(١) وقد ألزم ابن تومرت أصحابه بتقسيم كتاب التوحيد إلى أحزاب وأن يقرأ الموحدون حزباً منه كل يوم بعد قراءة حزب القرآن^(٢) وكان يشتمل على معرفة الله تعالى والعلم بحقيقة القضاء والقدر ، والایمان بما يجب لله تعالى ويستحيل عليه وغير ذلك من الموضوعات^(٣) وأصبح لعلم الكلام منزلة في الدولة نتيجة لاهتمام ولاية الأمر بذلك ، ومن اشهر في هذا العصر في هذا العلم أبو عمرو عثمان بن عبد الله السلاجي أمام أهل المغرب في علم الاعتقاد استوطن مدينة فاس ومات في سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م^(٤) وقد ألف العقيدة البرهانية في المذهب الأشعري^(٥) ومنهم أيضاً محمد بن عبد الكريم الفندلاوي القهاسي المعروف بابن الكتاني ، كان إماماً في علم الكلام وأصول الفقه ، وقد عكف على تدريسها طول حياته وتوفي بفاس سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٦م^(٦) وهكذا ازدهرت العلوم الدينية في المغرب الأقصى نتيجة لطبيعة الدولتين المرابطية والموحدية وقيامهما على أساس ديني .

ثانياً : الحياة الأدبية والعلمية .

كانت الحياة الأدبية والعلمية الدعامة الثانية التي أمدت الحركة الفكرية بالكثير من المعارف والعلوم ، وقد لعبت اللغة العربية دورها في سبيل نشر المعارف المتنوعة .

انتشار اللغة العربية : صاحب نمو الحركة الفكرية بالبلاد ، انتشار اللغة العربية إذ أنها لغة المكاتبات واللغة الرسمية للبلاد في معاملاتها وشؤونها ، وزاد

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢ مجلد ٢ ص ٨٥ .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٨٠ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٨٠ ، ابن القطان : نظم الجمان

ص ٢٧ .

(٤) التادلي : التشوف : ص ١٧٨ ، ابن القاضي : جذوة الاقتباس

ص ٢٨٩ .

(٥) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٢٩٠ ، كتون : النبوغ المغربي

ج ١ ص ١٢١ .

(٦) د. عبد الله علام : الدولة الموحدية ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

من انتشارها ، أفواج العلماء القادمين من خارج البلاد ، والذين أثروا الحياة الفكرية بدروسهم ومؤلفاتهم ، وكانت ثقافة ولاية الأمر تقوم على الثقافة الإسلامية ووسيلتهم في ذلك اللغة العربية ، كما أن المناهج الدراسية التي وضعها ولاية الأمر في المؤسسات التعليمية والتي كانت تتخذ من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قاعدة ومنهجاً كانت تدرس باللغة العربية ، مما وسع من انتشار اللغة العربية لغة القرآن والدين ، يضاف إلى ذلك عامل هام شهدته البلاد في عهد الموحدين وهو مجيء العرب الهلالية إلى المغرب الأقصى واستيطانهم بعض المناطق من البلاد ، تحقيقاً لرغبة خلفاء الموحدين واحتفاظ هؤلاء البدو باللسان العربي وما فيه من مفردات وتراكيب وبلاغة في الأساليب^(١) وإذا أضفنا إلى ذلك التشابه في حياة هؤلاء الأعراب وسكان البلاد من البربر ، لأدركنا مدى الاختلاط والتقارب الذي حدث بين هؤلاء الأعراب وسكان البلاد مما نتج عنه انتشار للغة العربية كلغة للتخاطب والتعامل فيما بينهم^(٢) وقد أشار ابن سعيد إلى وجود مجموعة من قبائل البربر التي تتحدث العربية حول مدينة فاس وهم بنو يوسف وقبالا وبهلول وزواوة وفحاصة وصناية^(٣) .

وهنا يجدر الإشارة إلى ظاهرة استخدام لغة البربر في بعض نواحي الحياة خلال الفترة الأولى لحكم الموحدين وكان لذلك عدة مظاهر وأسباب . أما المظاهر فهي معرفة ابن تومرت لهذه اللغة واستخدامها في حديثه الشخصي ، فإثناء عبوره وادي أم الربيع مع مجموعة من أصحابه ، طلب منه بعض المشرفين ضريبة العبور فأعلن استنكاره لذلك بلهجة البربر قائلا «أومورن ملولين أن سوس أواون ناك» ومعناها إنما السبيل للمسلمين ، وأنتم تقطعونها وهذا غير جائز في الشرع^(٤) . كما أنه كان يلقي أصحابه دعوته باللغة العربية .

-
- (١) الميلي : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ١٢٤ .
 (٢) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ٢ ص ٨٤ ، نفس المؤلف : وحدة المغرب العربي ص ٥٩ مجلة تطوان عدد أول سنة ٥٦ ، نفس المؤلف : مظاهر الحضارة المغربية ج ١ ص ٦٥ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٤٩ .
 (٣) ابن سعيد : نزهة الانتظار ج ١ ص ١٨ .
 (٤) البينقي : أخبار المهدي ص ٦٧ .

ولغة البربر وألف لهم في ذلك بعض المؤلفات بلسان البربر (١) يقول ابن خلدون « ثم ارتحل المهدي عنهم إلى أيكيلين من بلاد هرغة فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة وبني رابطة للعبادة ، اجتمعت إليه الطلبة والقبائل ، يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري وشاع أمره في مجتمعه » (٢).

وقد حرص الخليفة عبد المؤمن على إلزام من يعرف لغة البربر بحفظ عقيدة التوحيد لابن تومرت وفهمها ومداومة قراءتها (٣) كذلك كان يشترط خلفاء الموحدين في خطباء المساجد معرفتهم بلغة البربر ، ولذا حين دخل الموحدون مدينة فاس عزلوا خطيب جامع القرويين لعدم معرفته بلغة البربر وعينوا مكانه من يجيد اللغتين : اللغة العربية ولغة البربر (٤) يقول الجزنائي « والخطباء الذين خطبوا فيه — أى بجامع القرويين بفاس .. أولهم الخطيب أبو محمد المهدي بن عيسى وكان من أحسن الناس خلقاً وخلقاً . فأقام يخطب مدة خمسة أشهر ثم دخل الموحدون المدينة فصرفوه عن الخطبة وقدموا مكانه الفقيه الصالح أبا الحسن بن عطية ، لأجل حفظه اللسان البربري لأنهم كانوا لا يقدمون للخطبة والإمامة إلا من كان يحفظ التوحيد باللسان البربري فخطب به إلى أن توفي في ثامن من ذى القعدة سنة ٥٥٨ هـ » (٥).

هذه بعض مظاهر اهتمام داعية الموحدين ابن تومرت ومن جاء بعده في استخدام لغة البربر ويمكن تحليلها بما يأتي :

١ — ان استخدام ابن تومرت للغة المحلية وهي لغة البربر حتى يستطيع أن يؤثر في قطاع كبير من أبناء القبائل فإذا علمنا أن الدولة قامت على أكتاف قبائل البربر لأدركنا مدى أهمية استمالتهم وضمهم للدعوة الجديدة .

٢ — سبق أن أشرت إلى حرص ابن تومرت على نشر دعوته بين

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٨٠ ، ملين : عصر التصور الموحدي ص ١٣ ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ص ٢٥٨
(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
(٣) مجموع رسائل موحدية ص ١٣٢ .
(٤) الجيلاني : رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس ص ٧٨ ،
ابن التاضي : جذوة الاقتباس ص ٣٣ .
(٥) الجزنائي : زهرة الاس ص ٤٢ .

الجهال من أبناء القبائل ، حيث يمكن التأثير فيهم ، ولا يمكن التأثير فيهم بلغة الثقافة وهي اللغة العربية التي يجهاونها ، ومن ثم رأى ضرورة مخاطبتهم باللهجة التي يعرفونها .

٣ — أن ابن تومرت حين نادى بدعوته هاجم علماء المرابطين ، وهم حملة الثقافة العربية والمتحدثين باللغة العربية ، وبالتالي فقد وقف هؤلاء العلماء منه موقفاً عدائياً وخاصة بعد إذاعته أنه الامام المعلوم والمهدي المعصوم فلم يكن أمام ابن تومرت إلا التوجه بدعوته إلى عامة الناس وكثير منهم يجهل العربية .

٤ — في استمرار استخدام لغة البربر وخاصة في مجال المبادئ التي التي سنّها ابن تومرت ترسيخ للمبادئ في نفوس الشعب ، بحيث لا تقوم حجة لمن يتغافل عن دراستها أو حفظها ومن ثم توقع عليه العقوبة عند إهماله وبالرغم من هذا الاهتمام الذي أولاه ابن تومرت وعبد المؤمن للغة البربر إلا أنها لم تكن ذا خطر على تيار الثقافة العربية ولغتها ، إذ كانت محصورة في مجال الدعوة الموحدية وما يتعلق بها حتى إذا جاء المأمون الموحدى أنكر على ابن تومرت أشياء كثيرة ومنها استخدامه للهجة البربر في دعوته (١) الحركة الأدبية : ازدهر الأدب في هذه الفترة بنوعيه الشعر والنثر باعتباره مظهراً من مظاهر الحركة الفكرية بالبلاد ، تلك الحركة التي نمت وترعرعت خلال عهد المرابطين والموحدين ، وحظى الأدباء بالرعاية والعناية من ولاية الأمر كما سبق أن أوضحت ، وخاصة في عهد الموحدين حيث بلغ الشعر والنثر درجة كبيرة من الرقي ففي العهد المرابطي لم يحقق الأدب نمواً كبيراً ، بل سار في تقدمه بطيئاً وذلك لأن ولاية الأمر القادمين من الصحراء لم يكونوا يشجعون الحركة الأدبية التشجيع الكافي حتى تنهض وتتقدم سريعاً ، باعتبار النشأة الأولى مع توجيه اهتمامهم ناحية الدين وسيطرة الفقهاء على الأمور في البلاد ، إلا أن هذا لم يمنع وجود كبار الكتاب والأدباء الأندلسيين في البلاد المرابطي أمثال أبي القاسم بن الجحد وابن القبطرنة وأبي

(١) المنونى : العلوم والآداب ص ١٥٧ .

عبد الله محمد بن أبي الخصال وابن عبدون وغيرهم واشتغل بعضهم في ديوان الكتابة بالدولة المرابطية كابن عبدون وابن أبي الخصال (١) .

ولا شك أن وجودهم على أرض المغرب الأقصى قد مهد التربة لظهور حركة أدبية نشطة في عهد الموحيدين حيث ازدهر في عهدهم الأدب، وصارت المحافل المغربية تمتلئ بالشعراء والكتاب ، وكان هذا ثمرة للنهضة التعليمية التي بدأت في عهد المرابطين ونمت وتقدمت في عهد الموحيدين مع تشجيع خلفاء الموحيدين للأدب حتى أن بعضهم كان يقرض الشعر ويناقش الشعراء كالخليفة عبد المؤمن والمنصور الموحدى ، يضاف إلى ذلك رغبة المغاربة في الوقوف على قدم المساواة مع أدباء الأندلس الذين كانوا يفتخرون عليهم بمنزلتهم الأدبية . (٢) مع رغبة الكثير من أبناء الأمة في الوصول إلى المناصب العليا في الدولة وهذه لم يكن يشغلها إلا من كان على قدر من العلم والأدب حتى يكون أهلاً لتولى هذا المنصب أو ذاك (٣) وصاحب كل هذا تدفق أدباء الأندلس وغيرهم على البلاط الموحدى حيث العطايا الجزيلة والمنح التي كان يقدّمها الخلفاء والأمراء على الأدباء ، وقد أثمر هذا كله ازدهاراً ورقياً في الشعر والنثر .

أما الطابع العام والمميز لهذا الأدب في هذه الفترة ، فلا شك أن المذهب المالكي وهلمأؤه وفقهاؤه في الدولة المرابطية ، ودعوة ابن تومرت ودعاة الموحيدين كان لذلك أثر في توجيه الأدب وجهة جادة ، فأبعدته عن بعض الأغراض التي تناولها أدباء المشرق كالخمريات والغزل بالمذكر وغير ذلك مما يتنافى مع الجو الدينى الذى ساد البلاد في هذه الفترة (٤) وكان يتميز بشكل عام بالبساطة والوضوح والبعد عن الزخرف والصنعة اللفظية التي برع فيها أدباء المشرق (٥) .

-
- (١) آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٢٣ ت د. حسين مؤنس .
(٢) كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ١٦٤ .
(٣) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٦٥ .
(٤) حركات المغرب عبر التاريخ ص ٣٩٤ ، محمد بن تاويت : الادب المغربى ص ١٥٥ .
(٥) كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ١٦٦ ، المتونى : العلوم والفنون ص ١٣٩ .

الشعر :

حظى الشعر باهتمام ولادة الأمر وخاصة خلفاء الموحدين حيث أجزلوا العطاء للشعراء وقربوهم إليهم وهذا يرجع إلى تذوقهم للشعر ومعانيه الجيدة ومن ثم من أجاد منهم نال الحظوة والمكانة فضلا عن المنح والعطايا فالشاعر الذي بدأ قصيدته في مدح الخليفة عبد المؤمن بقوله :

ما هز عطفه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي أمره الخليفة بالتوقف قائلا له حسبك ووصله بألف دينار (١) ، وحين بدأ أحد الشعراء قصيدته في مدح عبد المؤمن بمناسبة بنائه لمدينة فوق جبل طارق قائلا : ما للعدا جنة أوقى من الهرب . . ، فقال الخليفة عبد المؤمن رافعا صوته : إلى أين ؟ فقال الشاعر : أين المفر وخيل الله في الطلب .

وأين يذهب من في رأس شاهقه وقد رمته سماء الله بالشهب فلما أتم القصيدة قال عبد المؤمن : بمثل هذا تمدح الخلفاء (٢) فهذا الحوار الذي دار بين الخليفة والشاعر يدل على ملكة شعرية دفعته إلى سؤال الشاعر عن بقية البيت ، وإذا كان الخليفة يكتفى هنا بالسؤال ، فإنه في موضع آخر يدخل في حوار شعري مع وزيره أبي جعفر بن عطية وذلك أثناء تجولهما في شوارع العاصمة إذ أبصر الخليفة وجه جارية جميلة من خلف نافذة وحرك المنظر مشاعره ومن ثم ارتجل :

قدت فؤادي من الشباك إذ نظرت

فقال أبو جعفر : حوراء ترنو إلى العشاق بالقل .

فقال عبد المؤمن : كأنما لحظها في قلب عاشقها .

فقال أبو جعفر : سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي

فطرب الخليفة وأجزل لوزيره العطاء (٣) .

وبجانب هذه الملكة في قول الشعر كانت هناك ملكة النقد التي تنفر من

الشعر الرديء فالشاعر الذي أنشده في احتفال جبل الفتح :

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢ مجلد ٢ ص ٩٥ .

(٢) المراكشي : المعجب ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٣) ابن أبي زرع : الأتيس ج ٢ ص ١٧٠ ، ١٧١ ت الفيلاي .

المعري : نفح الطيب ج ٧ ص ١١٣ ، كنون : أمراؤنا الشعراء ص ٢٠ .

نمض عن الشمس واستقصر مدى زحل
وانظر إلى الجبل، الراسى على الجبل
لنى استقر به ، أنى استقل به
أنى رأى شخصه العبالى فلم يبرز
فقبال له الخليفة عبد المؤمن : لقد ثقلتنا يارجل فأمر به فأجلس (١) فهذا
التدوق للشعر مع ترحيبه بالشعراء القادمين يعطينا صورة واضحة عن
مدى ازدهار الشعر فى عهد عبد المؤمن وقد بلغ من كثرة الشعراء الذين
وفدوا لتهنئة المنصور الموحدى بنصر الأرك ، أن اكتفى كل شاعر بإنشاد
البيتين أو الثلاثة ثم ترك قصيدته مكتوبة أمام الخليفة ، فأحدثت القصائد
جداراً وحائلاً بين الخليفة والناس من حوله لكثرتها (٢) .
ومن هذا نلمس كيف أن دولة الشعر فى عهد الموحدين ارتفعت أعلاها
وسمت مكانتها نتيجة لتشجيع ولادة الأمر .
أما أهم الأغراض التى تناولها الشعراء فالوصف والغزل والشكوى تأثراً
بحياة الزهد وخاصة فى عهد المرابطين (٣) والمدح الذى كان وسيلة للتكسب
مع الابتعاد عن الهجاء (٤) وقد بدأ فى عصر الموحدين ظهور قصائد فى المدح
النبوى التى انتشرت بعد ذلك فى الشعر المغربى (٥) .
أما بالنسبة للشعراء فقد عاش خلال فترة البحث الكثير من الشعراء
والذين خلفوا لنا ثروة شعرية ، ويمكننا أن نشير إلى من أقرض الشعر من
ولادة الأمر باعتبار أنه مظهر من مظاهر انتعاش الشعر فى هذه الفترة ، فى
الدولة المرابطية ، كان هناك الأمير أبو بكر بن ابراهيم المسوفى ، المعروف
بابن تافلويت صهر أمير المسلمين على بن يوسف وكان أديباً رقيقاً مقرباً
للأدباء ومكرماً لهم وله عدة أبيات (٦) .

-
- (١) المراكشي : المعجب ص ٢١٧ .
(٢) المقرئ : نفح الطيب ج ٥ ص ٣٠٤ .
(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٥١ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٣٩٦ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ٣٩٦ .
(٦) كتون : أمراؤنا الشعراء ص ١٧ ، كتون : النبوغ المغربى
ج ٣ ص ٩٩ .

أما في الدولة الموحدية ، فقد سبق الإشارة إلى تمتع الخليفة عبد المؤمن بموهبة شعرية في الحوار والنقد ، وقد رويت عنه بعض الأبيات وذلك حين استنفر قبائل العرب الهلالية لمشاركته في الجهاد بالأندلس ومنها :

أقيموا إلى العلياء دوج الرواحل وقودوا إلى الهيحاء جرد الصواهل (١)
والأمير أبو عمران بن عبد المؤمن ، كانت له مجموعة من الأبيات (٢)
والأمير أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الموحدى وله ديوان شعر
يضم العديد من القصائد (٣) وغيرهم من أسرة الخلافة ممن أنشد الشعر .

وبجانب هؤلاء فقد حفل بلاط ولاية الأمر بالكثير منهم وخاصة في
المناسبات الهامة من نصر على العدو أو ارتقاء مقعد الحكم أو تشييد وبناء وممن
اشتهر في العصر المرابطى ، أبو الفتوح بن عبد الله بن خفاجة الهوارى والشاعر
أحمد بن عبد الله القيسى أبى العباس الملقب بالأعمى التطيلي وغيرهم (٤) .
أما في العهد الموحدى فهناك أحمد بن عبد السلام الجراوى ويكنى أبو
العباس وأصله من تادلا (٥) والشاعر أبو عبد الله محمد بن جبوس من أهل
مدينة فاس الذى أنشد الشعر لأمرأى المرابطين وخلفاء الموحدين (٦) والشاعر
أبو بكر بن مجبر من شقورة وكان شاعر دولة بنى عبد المؤمن (٧) وغيرهم
الكثير من الشعراء مما يضيق المقام بحصرهم .

وبجانب هؤلاء الشعراء كانت هناك الشاعرات ، وممن اشتهر بالمشاركة
في الأدب وتذوق الشعر وإنشاده من بيت ولاية الأمر في الدولة المرابطية

(١) كنون : أمراؤنا الشعراء ص ١٨ ، المنونى : العلوم والفنون
ص ١٥٩ ، ١٦٠ كنون : النبوغ المغربى ج ٣ ص ١٣ .

(٢) ابن أبى زرع : الاتيس ج ٢ ص ١٦٩ ت الفيلالى ، كنون :
أمراؤنا الشعراء ص ٢٣ .

(٣) كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ١٦١ ، كنون : أمراؤنا الشعراء
ص ٢٧ ، ٣١ .

(٤) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ص ١٥٧ .

(٦) المراكشى : المعجب ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٧) الحميرى : صفة جزيرة الاندلس ص ١٠٥ ، ابن عذارى :
البيان المغرب ج ٤ ص ١١٣ بيروت .

الأميرة تميمية بنت يوسف بن تاشفين ، وزينب بنت إبراهيم بن تافلويت وأختها حواء^(١) أما في العصر الموحدى فقد اشتهرت الشاعرة حفصة بنت الحاج الركونية وهى من أهل غرناطة ، وكانت فريدة زمانها فى الحسن والظرف والأدب ولها مجموعة من الأبيات^(٢) وهكذا ازدهرت الحركة الشعرية فى البلاد .

النثر :

واكب النثر الشعر فى دفع الحركة الأدبية ، حيث استعان ولاية الأمر من المرابطين والموحدين بمختلف الكتاب ، لكتابة الرسائل الرسمية ، وقد استطاع لبنى بروفنسال أن يجمع مجموعة من هذه الرسائل ، ومن خلالها يمكننا أن نلمس الخصائص العامة لاسلوبها حيث تبدو فيها الصنعة واضحة مع التلاعب بالألفاظ لإظهار المقدرة والتمكن من اللغة ، أما الخطابة فقد استخدمها ابن ياسين داعية المرابطين ، وابن تومرت داعية الموحدين فى تثبيت دعوته . يضاف إلى ذلك أن المعارك التى خاضها المرابطون والموحدون ضد الفرنج استلزمت وجود الكثير من الخطباء الذين يبثون الحمية والحماس فى نفوس المقاتلين .

وبجانب ذلك كان هناك الخطباء الذين يحتلون صدور المحافل والمجالس فى عهد الموحدين ، فالمنصور الموحدى كان يجلب إليه الخطباء ، وكان هؤلاء يتنافسون بمحضر الخليفة فى إظهار براعتهم وتفوقهم وقدرتهم على ارتجال الكلام وإقناع السامعين^(٣) ومن هؤلاء الخطباء محمد بن عبد العزيز بن عياش ، وسهل بن مالك وغيرهما^(٤).

أما التوقيعات فقد برع فيها بعض ولاية الأمر حيث تركوا لنا عدة توقيعات ، تعبر عن الحاسة الأدبية التى كانوا يتمتعون بها فحين أرسل

(١) كتون : النبوغ المغربى ج ١ ص ٧٤ .

(٢) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ١٣٨ ت د . شوقى ضيف ، المقرئ نفع الطيب ج ٥ ص ٣٠٣ ، ابن الخطيب : الاحاطة المجلد الاول ص ٤٩٩ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ت عبد الله عنان .

(٣) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٨٥ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٨٥ .

أذفونش رسالة إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يهدده فيها ويغلق له التول ، كان رد أمير المسلمين على ظهر الخطاب « الجواب ما ترى لا ما تسمع »^(١) ومن توقيعات الخليفة عبد المؤمن على القصيدة التي أرسلها وزيره أبو جعفر بن عطيه يستطعفه : الآن قد عصيت من قبل وكنت من المفسدين^(٢) ، ومن توقيعات المنصور الموحدى حين طلب مؤدبين لأبنائه فأحضرا له وأخبر أن أحدهما بحر في علمه والآخر بر في دينه وبعد اختبارهما وجدتهما لا يصلحان فوقع بقوله : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ظهر النساد في البر والبحر^(٣).

وبجانب ذلك فقد شجع الخليفة عبد المؤمن على قراءة قصص البطولة والروسية المنتشرة في ذلك العصر ومنها قصة جازية والشريف وتناول قصة دخول العرب الهلالية لإفريقية^(٤) ومن أهم المؤلفات الأدبية خلال هذه الفترة : ديوان خطب لمروان بن سمجون وغنية الكاتب وبغية الطالب في الصدور والرسائل للقاضي عياض وله أيضا سر السراة في أدب القضاة^(٥) ومن المؤلفات الأدبية أيضا مختصر الأغاني للأمير سليمان الموحدى ، وديوان الأدب وديوان العرب وهي الحماسة المغربية لأبي العباس الجراوى ، وديوان عتيق الفصيح المتوفى سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م والمطرب من أشعار أهل المغرب لأبي الخطاب ابن دحية وغير ذلك من الدواوين والكتب الأدبية^(٦).

ثقافة الأمراء وأبناء الشعب :

إذا تتبعنا الدراسات المتنوعة التي حصل عليها ولاية الأمر من أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين ووزرائهم ثم أبناء الشعب يمكننا أن نلمس صورة

-
- (١) كنون : النبوغ المغربى ج ٢ ص ٨٩ .
(٢) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٩٩ ، المنونى : العلوم والفنون ص ٢٠٣ .
(٣) كنون : النبوغ المغربى ج ٢ ص ١٠٣ ، المنونى : العلوم والفنون ص ٢٠٣ ، ص ٢٠٤ .
(٤) د. أحمد مختار العبادى : دراسات في تاريخ المغرب ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ . د. أحمد مختار العبادى : البحرية الإسلامية في المغرب ص ٢٦٠ .
(٥) كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ٩٥ .
(٦) كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ١٦١ .

صداقة للطابع العام للحركة الفكرية التي سادت البلاد ، ومن ناحية أخرى يتضح لنا سبب إهتمامهم وتشجيعهم للعلم والعلماء في دولتهم فأمر المسلمين يوسف بن تاشفين الذي رحب بالعلماء في عاصمته كانت ثقافته دينية مستمدة من المذهب المالكي ، حيث درسه في رباط عبد الله بن ياسين داعية المرابطين ، ولأنه قضى شطرا كبيرا من حياته في الجهاد بالمغرب والأندلس مع ميل للزهد والتقشف وابتعاد عن مظاهر الترف التي كانت سائدة في الأندلس ، كل هذا جعله بمنأى عن التيارات الثقافية المختلفة بالأندلس ، اكتفاء بالدراسات الدينية التي تعلمها في الصحراء ولا شك أنه تأثر ثقافيا بتلك المجموعة من الأدباء والكتاب من علماء الأندلس ، والذين اتخذ منهم وزراء وكتابا .

وعلى العكس من ذلك ابنه أمير المسلمين علي بن يوسف الذي ولد بمدينة سبته من أم نصرانية ، وعاش فترة كبيرة من حياته بالأندلس (١) واليا عليها من قبل أبيه ، ومن ثم استموته الثقافة الأندلسية فهل منها ، يضاف إلى ذلك تكريمه للعلماء وترجييه بهم في عاصمته ، مما أسهم في تكوين شخصيته العلمية ، والتي استمدت أصولها من كتاب الله وسنة رسوله مع دراسة الأحكام الدينية وتفريعاتها على مذهب الدولة الرسمي وهو المذهب المالكي ، يضاف إلى ذلك علوم العربية المختلفة من نحو ولغة وأدب وغير ذلك.

فلذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا حرص خلفاء الموحدين على تزويد أنفسهم بمختلف الثقافات فالخليفة عبد المؤمن كان حريصا على تلقي العلم منذ نعومة أظفاره ، وفي رواية أن ابن تومرت هو الذي أثناه عن التوجه إلى المشرق لطلب العلم ، وأن ما ينشده سيجده عند ابن تومرت ، وصار عبد المؤمن من أحب التلاميذ لابن تومرت والخليفة من بعده ، ومن هنا تنوعت ثقافته فقد كان فقيها عالما بالحدل والأصول حافظا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم مشاركاً في علوم كثيرة دينية ودنيوية ، إماما في النحو واللغة والأدب والتاريخ وعلم القراءات ذاكرا للتاريخ وأيام الناس (٢) أما

(١) عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٠٨ .

(٢) ابن أبي زرع : الانيس ج ٢ ص ١٧٠ ، ابن أبي دينار : المؤنس

ص ١١٢ ، ١١٣ .

(م ٣٢ — الحضارة)

الحليفة يوسف بن عبد المؤمن ، فإن حياته بالأندلس واليا عليها من قبل أبيه قد أثرت في حياته العلمية وجعلته متنوع الثقافة حيث حظى بقسط وافر من العلوم المختلفة ، ففي مجال العلوم الدينية كان عالما بالقرآن والحديث والعلوم الشرعية (١) أو كما يقول ابن صاحب الصلاة « مستظهر للقرآن كتاب الله تعالى بشرحه في ناسخه ومنسوخه ، قارئا لنصه ، حافظا على وقفه ولإبتدائه عالما بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحيحه ومختلفه وحسنه وغريبه وبإسناده متقنا في العلوم الشرعية والأصولية متقدما في علم الإمام المهدي رضي الله عنه محكما لأفانين علمه الذي أملاه وأخذ منه » (٢) أما العلوم العربية من نحو ولغة وأدب فقد التقى بالأندلس بأئمة العلماء ومنهم الأستاذ اللغوي المتقن أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون (٣) وكان عالما بأيام العرب ومآثرهم ، وبجميع أخبارهم في الجاهلية والإسلام (٤) وأضاف إلى هذه الثقافات المتنوعة علم الفلسفة الذي مال إليه ورغب في دراسته وساعده في ذلك وجود أقطاب الفلسفة في عهده : ابن طفيل وابن رشد (٥) وقد عبر عن ذلك المراكشي بقوله « ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة فجمع كثيرا من أجرائها وبدأ من ذلك بعلم الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي » (٦) .

أما المنصور الموحدى فكان عالما بالحديث والفقه واللغة مشاركا في كثير أ من العلوم (٧) وقد بلغ درجة كبيرة من العلم حتى أن الفقهاء كانوا يرجعون

-
- (١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٠ تطوان .
 (٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٣٣ .
 (٣) المراكشي : المعجب ص ٢٣٧ .
 (٤) نفس المرجع السابق ص ٢٣٧ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٥٦ .
 (٥) عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٢٠ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .
 (٦) المراكشي : المعجب ص ٢٣٨ .
 (٧) ابن أبي دینار : المؤنس ص ١١٤ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٤٨ ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٦٢ .

إليه في الفتاوى والاسترشاد برأيه ، يقول المقرئ « كان — أى المنصور الموحدي — يجيد حفظ القرآن ، ويحفظ فنون الأحاديث ، ويتقنها ويتكلم في الفقه كلاما بليغا ، وكان فقهاء الوقت يرجعون إليه في الفتاوى ، وله فتاوى مجموعة حسبما أدى إليه اجتهاده^(١) » وما ساعد في تكوين الرغبة العلمية عندهم ، أنهم كانوا ينشئون تنشئة علمية ، حيث حرص خلفاء الموحدين على استدعاء العلماء المشهورين لتأديب أبنائهم وتثقيفهم ومن هؤلاء العلماء ، أحمد بن حسن بن سيد الجراوى المالقي من كبار النحاة والأدباء بالأندلس وكان شاعرا كاتبا بليغا استدعاه الخليفة عبد المؤمن ليؤدب أبنائه^(٢) والعالم أحمد بن عبد الحليل بن عبد الله والمعروف بالتدميري ، كان عالما بالعربية واللغة والأدب وقد استأدبه عبد المؤمن لابنيه^(٣) أما المنصور الموحدي فكان يختبر بنفسه أساتذة أبنائه ليتأكد من علمهم وسعة ثقافتهم ، فإذا ثبت عكس ذلك أبعدهم ومن ذلك أنه بعث لبعض عماله طالبا مؤدبا لأبنائه ، فأرسل إليه العامل عاملين ورسالة يخبره فيها بأنه قد بعث إليه رجلين أحدهما بحر في علمه والآخر بر في دينه ، فلما امتحنهما لم يرضياه فوقع على ظهر كتاب العامل : ظهر الفساد في البر والبحر^(٤) ، ومن اشتغل بالتدريس لأبناء المنصور عبد الله بن أحمد بن محمد اللخمي بن علوش أستاذ التجويد والقراءات والعربية والآداب^(٥) وعبد الله بن سليمان بن حوط وكان يلقيهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمرهم على إنشاء الخطب وتحرير الرسائل وقرض الشعر^(٦).

وبجانب هذه الدراسات الخاصة في قصر الخلافة كانوا يحضرون في المدرسة التي أنشأها الخليفة عبد المؤمن والتي وضع لها برنامجا دينيا وإداريا

-
- (١) المقرئ : نفح الطيب ج ٤ ص ١٠ .
 - (٢) عباس المراكشي : الاعلام ج ١ ص ٢٢٦ .
 - (٣) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ص ٨٠ ، ٨١ ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٦٩ ، عباس المراكشي : الاعلام ج ١ ص ٢٢٣ .
 - (٤) الزركشي : تاريخ الدولتين ص ١٠ ، ابن أبي دينار : كتاب المؤنس ص ١١٧ ، ملين : عصر المنصور الموحدي ص ١٧١ .
 - (٥) ملين : عصر المنصور الموحدي ص ١٧٠ .
 - (٦) ملين : عصر المنصور الموحدي ص ١٧٠ .

وعسكريا وكان الخليفة عبد المؤمن يأمر أبنائه بملازمة أشياخ البلاد من الفقهاء والطلبة والكتاب والشعراء ومذاكرتهم وقراءة القرآن وعقائد الإمام المهدي وحفظها وحفظ التوحيد العربي والغربي (١).

أما الوزراء فقد كان معظمهم من أبناء الأندلس المشهورين بالعلم والأدب كابن عبدون وابن عطية وابن أبي الحصان وهم من كبار الأدباء (٢) ومنهم أيضا الوزير مالك بن وهيب وزير أمير المسلمين علي بن يوسف ، وكان علي علم ودراية بفنون القول والعلوم المختلفة وله عدة مؤلفات (٣) وقد وصفه ابن يشكوال بقوله « أحد رجال الكمال والارتسام بمعرفة العلوم على تفاريعها وعلومها .. وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية وتوفى بمراكش سنة ٥٢٥ هـ » (٤) وهكذا كانت الطبقة الحاكمة في البلاد طبقة مثقفة بالعلوم الإسلامية .

فاذا ما انتقلنا إلى الدراسات والعلوم التي كان يتعلمها أبناء الشعب لوجدنا تنوعا في المناهج الدراسية وذلك تبعا للمعهد العلمي الذي تدرس فيه وإن كانت جميعها تتخذ العلوم الدينية من تفسير وحديث أساسا ومنهاجا فيما يدرسه الفرد ففي المكتب كان الطالب يحفظ القرآن مع الإمام بالقراءة والكتابة (٥) .

أما الدراسة في الرباط فكانت تفسير القرآن والحديث والفقه وشعر المواعظ والأناشيد الدينية وذلك كله بطريقة مبسطة (٦) .
أما في المساجد فكان المذهب المالكي وكتبه هو محور الدراسة في المساجد

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٠٥ .

(٣) محمد عثمان المراكشي : الجامعة اليوسيفية ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، د. أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب ص ١٥٤ .

J. F. p. Hopkins: Medieval Muslim, p.7

(٤) ابن يشكوال : الصلة ج ٢ ص ٥٨٧ .

(٥) المنوني : العلوم والآداب ص ٢٢ .

(٦) الكعك : محاضرات في مراكز الثقافة ص ٤٤ ، محمد بن تاويت

و د. محمد الصادق : الأدب المغربي ص ٩٥ .

في العهد المرابطي! بجانب العلوم الدينية الأخرى^(١). ففي التفسير كان تفسير الطبري لا شهرته بين المغاربة ، وفي الحديث موطأ الإمام مالك بن أنس وصحيح مسلم وشرح أبي الفضل عياض اليحصبي صاحب الشفاء والمدارس في تراجم أصحاب مالك ، أما في الفقه والأصول فكتب المذهب المالكي وكتب أبي الوليد الباجي أما في النحو واللغة فالمعول به على كتاب سيديويه والإيضاح للفارسي ، وفي اللغة فالمعتمد فيها اخصص والحكم لابن سيده وغير ذلك من الكتب^(٢) فلما جاء الموحدون ، اهتم دعائهم بنشر أفكار المهدي وكتبه وبجانب ذلك دراسة كتب الأحاديث ومنها الموطأ. والترمذي بجانب سائر العلوم الأخرى^(٣).

أما المدارس التي أنشأها خلفاء الموحدين فكان البرنامج الدراسي في مدرسة العاصمة وهي التي أسسها الخليفة عبد المؤمن بن علي تشمل على دراسة نظرية تقوم على حفظ القرآن وتفسيره من الكتب الدينية ، ودراسة وحفظ تعاليم المهدي وذلك بدراسة موطأ الإمام ابن تومرت وحفظه ، وحفظ صحيح مسلم وبجانب ذلك كانت هناك دراسة عملية وهي تدريبهم على ركوب الخيل والرمي بالسهم والقوس والعموم في بحيرة صنعها لهم^(٤).

ويرجح أن هذا المنهج كان متبعاً في بقية المدارس وخاصة ما يتصل بالمنهج النظري من حفظ وفهم لمبادئ ابن تومرت ومؤلفاته وقد أكد ذلك تلك الرسالة الصادرة من الخليفة عبد المؤمن في سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ م إلى أهل بجاية وفيها يكلف الدعاة بأخذ الدارسين بفهم وحفظ كتب ابن تومرت وقد جاء فيها « ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربي — أي لغة البربر — ويتكلمون به أن يقرؤوا التوحيد بذلك اللسان من أوله إلى آخر القول في المعجزات ،

(١) عبد الهادي التازي : أحد عشر قرناً في جامعة القرويين ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) الكعك : محاضرات في مراكز الثقافة ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) عبد الهادي التازي : أحد عشر قرناً ص ١٥ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٤ ، المنوني : العلوم والآداب ص ٢٣ .

ويحفظوه ويفهموه ويلتزموا قراءته ويتعهدوه ، ويؤمر طلبة الحضر ومن في معنائهم بقراءة العقائد وحفظها وتعاهدوها على سبيل التفهم والتبين والتنبه والتبصر ويلتزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها : اعلم أرشدنا الله وإياك .. وحفظها وتفهمها واشمل في هذا الإلزام الرجال والنساء والأحرار والعبيد وكل من توجه عليه التكليف إذ لا يصح لهم عمل ولا يقبل منهم قول دون معرفة التوحيد^(١).

المواد الثقافية :

لعبت العلوم الدينية والتي سبق أن تناولتها دورها في تزويد أفراد الشعب بالثقافة الدينية ، وبجانب هذه العلوم ، كانت هناك علوم أخرى شاركت في عملية التثقيف ، وأسهمت في تكوين التفكير المغربي بما أمدته من معارف ومن هذه العلوم اللغة والنحو والتاريخ والسير ، وعلم الجغرافية والفلك وعلم الرياضيات وأخيرا علم الفلسفة .

اللغة والنحو :

نال علم اللغة عناية خاصة من الدارسين بالمغرب باعتباره العلم الموصل لمعرفة أسرار اللغة العربية ومعانيها ، وقد دفعهم إلى ذلك أن اللسان الغالب عبر القرون السابقة هو لسان البربر واللهجات المحلية ، ومن ثم أقبلت الرعية منذ وقت مبكر على دراسة علم اللغة . وازدهرت هذه الحركة وآتت ثمارها في عهد المرابطين والموحدين^(٢) وظهر في هذا العصر الاغويون المعنيون بحفظ متن اللغة والباحثون في مسائلها^(٣) ونشطت المباحث اللغوية ، وكثرت المؤلفات فيها ، ومن أشهر من علماء اللغة في هذه الفترة ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمي السبتي المتوفى سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م وله عدة مؤلفات لغوية منها : رسالة في تقويم لحن العامة وشرح الفصيح لثعلب والفصول والجمل في شرح أبيات الجمل وغير ذلك من المؤلفات^(٤) وأبو القاسم

(١) مجموع رسائل موحدية ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٩١ .

(٣) كتون : النبوغ المغربي ج ١ ص ١٢٧ .

(٤) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٩٢ ، كتون : النبوغ

المغربي ج ١ ص ١٢٨ .

السبيل المالمالى الذى نزل بمراكش وأقام بها وله عدة تحقيقات لغوية^(١) وغير هؤلاء من العلماء .

أما النحو فقد نال عناية ورعاية باعتباره أداة تقويم اللسان ، وقد اهتم ولاية الأمر بإحضار المؤدين لأبنائهم وتربيتهم على النطق الصحيح وفهم قواعد اللغة وظهر فى هذه الفترة عدد من النحاة الذين كان لهم مقام كبير وألفوا مجموعة من الكتب التى تنبىء عن علو قدرهم ومهارتهم^(٢) وصاحب ذلك وجود عدة مدارس نحوية بالمغرب الأقصى على نمط ما حدث بالشرق ، وكانت كل مدرسة لها بعض الآراء الخاصة التى انفردت بها فكانت هناك مدرسة فاس ومدرسة تلمسان ومدرسة سبتة وغيرها من المدارس النحوية التى انتشرت فى طول البلاد وعرضها^(٣) ومن اشتهر فى علم النحو أبو موسى الجزولى عيسى بن عبد العزيز من مراكش التى توفى بها سنة ٦١٠ هـ - ١٢١٣ م وله عدة مؤلفات^(٤) وابن معط^(٥) وأبو بكر بن محمد بن عبد الله وكان متبحرا فى النحو وله عدة مؤلفات وقد عظمت منزلته عند الخليفة المنصور الموحدى^(٦) .

أما أشهر المؤلفات النحوية : المقدمة لأبى موسى الجزولى ، وله أيضا شرح أصول ابن السراج ومختصر الفسر لابن جنى والألفية لابن معط وغير ذلك من المؤلفات^(٧) .

التاريخ والسير :

حفلت هذه الفترة بالكثير من المؤرخين الذين أروخوا للدولة المرابطية والموحدية إلا أن كثيرا من هذه المؤلفات فقدت ، وقد تعرضت بعض هذه

-
- (١) كتون : النبوغ المغربى ج ١ ص ١٢٨ .
 - (٢) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٢٦ .
 - (٣) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٢٦ .
 - (٤) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٩٢ ، كتون : النبوغ المغربى ج ١ ص ١٢٦ .
 - (٥) كتون : النبوغ المغربى ج ١ ص ١٢٦ .
 - (٦) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ١١١ ، ١١٢ .
 - (٧) كتون : النبوغ المغربى ج ١ ص ١٦١ .

المؤلفات لتاريخ البلدان كأخبار البصرة وأخبار سجلماسة وأخبار نكور لمحمد بن يوسف الوراق^(١) وتناول بعضها التاريخ العام للدولة كتاريخ الدولة اللمتونية لابن الصيرفي وهو مفقود وكتاب المدارك في التعريف بأعلام مذهب مالك للقاضي عياض^(٢).

أما في العصر الموحدى فكانت هناك مجموعة من المؤلفات التاريخية الهامة والتي سأتناولها بإذن الله بالشرح والتحليل في قسم الملاحق ويأتى في مقدمتها المعجب في أخبار المغرب لعبد الواحد بن على التميمي المراكشى ، ونظم الجمان لابن القطان ، وتاريخ المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة الذى ألف كتابه في تاريخ المغرب بعامة ودولة الموحدين بخاصة اعترافا منه بفضل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، يقول ابن صاحب الصلاة بعد دخوله هو ومجموعة من العلماء إلى مجلس الخليفة يوسف بن عبد المؤمن « وأمر — أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — لكل واحد منا بما أمله من إنعام وخصنى منهم بظهير — بمعنى المرسوم الملكى — كريم ومواساة معها أعانتنى على الزمان الذميم ، وأغتننى عن اللثام .. فحق على العبد تدوين سعد أيامه وتعيين الزمان بنصر أعلامه وإمامته^(٣) وهكذا كان تكميم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن دافعا لابن صاحب الصلاة للتأريخ لدولتهم وكتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين لابی بكر بن على الصنهاجى الملقب بالبيذق وغير ذلك من المؤلفات والتي تناول فيها المؤرخون الكثير مما يتعلق بأخبار هذه الفترة .

علم الجغرافية والفلك :

لمع في هذه الفترة بعض الجغرافيين المغاربة الذى مزجوا بين علم الجغرافية والتاريخ ويأتى في مقدمة هؤلاء أير عبد الله محمد الادريسي والمولود بسببة سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م وقد ألف كتابه المشهور بنزهة المشتاق^(٤) وكان الإدريسي يجمع بين عدة ثقافات أهمها الجغرافية والأدب

(١) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٣١ .

(٢) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٣١ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

(٤) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٤٧ .

وقد قام برحلة جاب فيها الأندلس ومصر وإفريقية ومناطق المغرب المختلفة ، بالإضافة إلى بعض البلاد الأوربية والآسيوية ثم وضع كتابه نزهة المشتاق بعد بحث وسفر دام خمسة عشر عاما^(١). ويعد له في الأهمية كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول وكان معاصرا لدولة الموحدين وقد تحدث عن المنطقة كشاهد عيان لها وسوف أتناوله بإذن الله بالتفصيل في قسم الملاحق ، يضاف إلى ذلك كتاب المعجب للمراكشي والذي تضمن معلومات تاريخية هامة وأدبية وبجانب ذلك تضمن أيضا بعض المعلومات الجغرافية عن المغرب الأقصى والأندلس .

ومما يتصل بذلك اشتغال بعض المغاربة بعلم الفلك والنجوم ومن برع في ذلك الوزير مالك بن وهيب وقد أذاع ابن تومرت بين أصحابه إطلاعه على كتاب الجمر مع معرفته بعلم النجوم وما يتصل بها ، وقد بنى المنصور الموحدى سنة ٥٩٢ هـ في المسجد الجامع بأشبيلية برجاً عاليا ليكون مرصداً^(٢) علم الرياضيات :

دعت حاجة البناء والتعمير التي شهدتها المنطقة إلى تخصص بعض العلماء في دراسة علوم الهندسة والجبر والحساب حتى يسدوا النقص الموجود بالبلاد وقد استعان بهم ولادة الأمر في عمليات البناء الكثيرة التي تمت بجانب استعانتهم بالمهندسين والفنيين من الأندلس^(٣) ومما يدل على البراعة الهندسية التي وصل إليها العلماء في ذلك العهد تلك المقصورة الميكانيكية التي صممها العلماء في عهد الخليفة عبد المؤمن بالمسجد الجامع لتضم الخليفة وحاشيته أثناء الصلاة ثم ترفع بحركة هندسية بعد الانتهاء منها ، بالإضافة إلى أنواع المباني الأخرى كالمستشفيات والجسور وغيرها .

ومن اشتهر في علم الرياضيات أحمد بن الحسن بن أحمد بن حسان القضاعى أصله من بلنسية واستقر بفاس وتوفي بها سنة ٦١٠ هـ / ١٢٠٣ م ،

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٤٨ ، كنون : النبوغ المغربي ج ١ ص ١٤٣ .

(٢) أشباح : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٢٥٩ ، ٢٦٠

(٣) Julien : Histoire du I' Afrique du Nord, p.88

وكان عالما بالهندسة وسائر التعاليم من الحساب^(١) والعالم أبو محمد عبد الله بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين وهو من أهل مدينة فاس كان عالما في الحساب وقد خدم المنصور الموحدي وابنه الناصر وله أرجوزة في الخبر وتوفي سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م^(٢) وكذلك العالم عبد المنعم بن أحمد من أهل مراکش وكان عالما بالحساب وأخذ عنه^(٣) وغير هؤلاء ممن خدموا في بلاط الدولة ، أو قاموا بالتدريس للرعية ومن المؤلفات الرياضية في هذه الفترة . جامع المبادئ والغايات في علم الميقات للحسن المراكشي ، وله أيضا كتاب في القطوع المخروطية ، كذلك أرجوزة الخبر لابن الياسمين^(٤) وغير ذلك من المؤلفات .

علم الفلسفة :

لم تزدهر الفلسفة في دولة المرابطين باعتبار أن مجتمع المرابطين كان مجتمع الفقهاء والعلماء الذين يلتزمون بأحكام الدين ويتشددون في تنفيذ مبادئه وتعاليمه ، ومن هنا اتجهت الدراسات في معظمها وجهة دينية سواء من أمراء المرابطين أو الفقهاء والعلماء ، وقد سبق أن أشرت إلى قيام الفقهاء بالتأثير على أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين حتى أمر بإحراق كتاب الإمام الغزالي وذلك لاشتماله على علم الكلام المخالف لمبدأ الدولة ، ومن هنا لم يحظ الفلسفة ولا الفلاسفة بالرعاية والعناية ، وإن كان قد وجد في هذا العصر من درس الفلسفة إلا أنه لم يظهرها كالوزير مالك بن وهيب وزير أمير المسلمين علي بن يوسف حيث وصفه ابن بشكوال بقوله « أحد رجال الكمال والإرتسام بمعرفة العلوم على تفاريحها وأنواعها إلا أنه كان أضن الناس بها »^(٥) وأعتقد أن من العلوم التي أضن بها ولم يظهرها علم الفلسفة حيث موقف العلماء المتشدد يدعم ذلك ما ذكره المراكشي من أنه قد شارك في جميع العلوم إلا أنه كان

(١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٧١ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٣٧ ، مجهول : الذخيرة السنية

ص ٣٩ .

(٣) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٤) كتون : النبوغ المغربي ج ١ ص ١٦١ .

(٥) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٥٨٧ .

لا يظهر إلا ما يتفق في ذلك الزمان^(١) وقد خدم أيضا في البلاط المراتبي
الفيلسوف أبو بكر بن باجة وهو أندلسي الأصل ، وقد نشأ في البيئة الأندلسية
التي تسمح له ولغيره دراسة شتى العلوم والمعارف .

حتى إذا جاء ابن تومرت بدعوته التي تدعو إلى التحرر الفكري ومحاربة
الحمود العقلي ، انطلقت الفلسفة من عقائدها ، وازدان البلاط الموحدى بكبار
الفلاسفة وخاصة في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، وقد ارتبط ازدهار
الفلسفة في البلاد وانزواؤها بموقف خلفاء الموحدين منها ، ففي عهد الخليفة
يوسف بن عبد المؤمن ازدهرت الفلسفة بفضل تشجيع الخليفة يوسف بن
عبد المؤمن الذي سمى نفسه إلى دراسة الفلسفة وعلومها^(٢) يقول المراكشي
« ثم طمع به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة فجمع كثيرا من
أجزائها ، وبدأ من ذلك بعلم الطب فاستظهر من الكتاب المعروف بالمالكي
أكثره ، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف
منه من أنواع الفلسفة وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع
للحكم المستنصر بالله الأموي^(٣) وقرب إليه الفلاسفة ، وكان يجري عليهم
المرتبات من خزانة الدولة ، فالفيلسوف أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة
المسلمين كان من المقربين للخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، وكان ابن طفيل
يأخذ مرتبا مع غيره من موظفي الدولة^(٤) وكان الخليفة يحتجزه في قصره أياما
ليلا ونهارا وذلك لحبه له ورغبته في مناقشته^(٥) وفي الحوار الذي دار بين
الخليفة يوسف بن عبد المؤمن والفيلسوف ابن رشد بمحضر من ابن طفيل
ما يدل على سعة اطلاع الخليفة في العلوم الفلسفية حتى أن ابن رشد علق على
ذلك بقوله « فالتفت — أي الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — إلى ابن طفيل
وجعل يتكلم على المسألة التي سألتني عنها ويذكر ما قاله أرسطو طاليس

-
- (١) المراكشي : المعجب ص ١٨٥ .
(٢) العيني : عقد الجمان ج ١ قسم واحد ص ١٣ .
(٣) المراكشي : المعجب ص ٢٣٨ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ابن سعيد : المغرب
ج ٢ ص ٨٥ .
(٥) المراكشي : المعجب ص ٢٤٠ .

وأفلاطون وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم ، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له فلم يزل يبسطني حتى تكلمت فعرف ما عندي من ذلك ، فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنوية ومركب^(١) وهكذا أظهر الخليفة من علمه ما أدهش الفيلسوف ابن رشد ، ولم ينس الخليفة في نهاية اللقاء أن يمنح ابن رشد إعطايًا تكريمًا للفلسفة في شخصه .

حتى إذا تولى المنصور الموحدى الخلافة ظلت الفلسفة تحتل مكانها اللائق بين العلوم ، غير أن هذه المكانة أصابها الاضطراب وذلك بعد النكبة التي حلت بالفيلسوف ابن رشد ، وغيره ممن يشتغلون بعلوم الفلسفة ، وقد اختلفت الآراء في الأسباب الداعية لذلك فالمرآكشي يرجع ذلك إلى أن ابن رشد في إحدى مؤلفاته لم يلتزم جانب الأدب في الحديث عن الخليفة الموحدى حين تحدث عن الزرافة وكيف تتولد وبأى أرض تنشأ فقال : رأيتها عند ملك البربر ...^(٢) ورأى آخر يشير إلى أن ابن رشد في مؤلفاته ، ذكر أن الزهرة أحد الألهة وعرفوا المنصور بذلك^(٣) .

والواقع أن المكانة التي احتلها ابن رشد وغيره من الفلاسفة أحنقت كثيرا من الفقهاء وغيرهم مما دفعهم إلى الدس والوقيعة عند المنصور الموحدى ، يؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى أن محاولات الدس كانت قبل غزوة الأرك وأن هؤلاء الحاسدين انتقلوا إلى العاصمة ليدسوا عند الخليفة ضد ابن رشد ، غير أن إنهمالك الخليفة في التجهز لحملته العسكرية المتجهة للأندلس ، منعتهم من الإنصات إلى قولهم فلما استقر المنصور بقرطبة ، بعد تحقيق نصر مؤزر في معركة الأرك ، أعاد الحاسدون الكرة مرة أخرى ناسبين إليه بعض الأقوال^(٤) ومن هنا رضح المنصور هؤلاء العلماء واستجاب لمطالبهم ، حتى لا يظهر بمظهر من لا يدافع عن الدين والشريعة ، ومن ثم أمر بإبعاده هو

(١) المرآكشي : المعجب ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٠٥ ، ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ص ١٠٥ .

(٣) المرآكشي : المعجب ص ٣٠٦ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ تطوان .

ومجموعة العلماء على حال سيئة ونفى إلى الإلسانة على مقربة من قرطبة^(١).
ويبدو من سير الأحداث أن الخليفة لم يكن مقتنعا بهذا التصرف وأنه
كان يعلم ببراءة ابن رشد إلا أنه استجاب لضغط الجماهير المنتصرة بعد
الأرك ودليلنا على ذلك أولا، ما رواه ابن أبي أصيبعة عن حقيقة تصرف
المنصور بقوله « ونقم — أى المنصور الموحدى — أيضا على جماعة أخرى
من الفضلاء الأعيان وأمر أن يكونوا في موضع آخر وأظهر أنه فعل ذلك
بسبب ما يدعى فيهم أنهم مشغولون بالحكمة وعلوم الأوائل .. »^(٢) فذكره
لكلمة أظهر توحى بأن فعل المنصور لم يكن عن اقتناع ثانيا : أنه أسند أمر
تتبع الفلاسفة إلى أبي بكر بن زهر ولم يتبع هذا الأمر بنفسه وكان يرى من
وراء ذلك أن يستتر على ابن زهر إن كان عنده كتب فلسفية وألا يناله
العقاب « ولما شرع في ذلك — أى في تتبع الفلاسفة — جعل أمره مفوضا
إلى الخفيد أبي بكر بن زهر وأنه الذى ينظر إليه ، وأراد الخليفة أنه
كان عند ابن زهر شيء من كتب المنطق والحكمة لم يظهر ولا يقال عنه أنه
يشغل بها ولا يناله مكروه بسببها »^(٣) ثالثا : إن هذه الحملة لم تستغرق سوى
سنتين فما أن عاد الخليفة إلى العاصمة حتى أصدر أمره بالعفو عن ابن رشد
وغيره من العلماء ، وأمر باحضار ابن رشد إليه في العاصمة ليكرمه ويعوضه
عما لحق به إلا أن ابن رشد توفي قبيل وصوله سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م^(٤)
فهذا العفو السريع يدل على أن المحنة التي حلت بابن رشد إنما كانت استجابة
وقتية للعلماء والحاسدين ، حتى إذا تبين الخليفة الموقف على حقيقته أمر بأن
يعود كل شيء على ما كان عليه من قبل .

وهكذا ارتبط ازدهار الفلسفة في البلاد وانزواؤها بمدى تقدير الخلفاء
لها أو محاربتها ، إلا أن ذلك كله لا يقلل من المرتبة الكبيرة التي وصلت إليها

(١) أنخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٣٥٥ ، ارنست ريفان :
ابن رشد والرشدية ص ٤١ .
(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص ٥٣٢ .
(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص ٥٢٣ .
(٤) ابن مغازى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٧٦ تطوان ، أنخل
جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

الفلسفة في ظل الموحدين ، وظهور فلاسفة كبار أمثال ابن رشد وابن طفيل وغيرهم في سماء المغرب الأقصى خلال هذه الفترة .
المكتبات :

تدل كثرة المكتبات وما تزدهم به من مؤلفات على مدى ازدهار الحركة الفكرية بالبلاد ، وقد حظى المغرب الأقصى خلال فترة البحث وخصوصاً في عهد الموحدين بالكثير من المكتبات العامة والخاصة والتي تشير إلى ازدهار الحياة الفكرية بالمنطقة ، وقد ساعد على وجود هذه المكتبات امتلاء المدن المغربية بالكثير من العلماء والدارسين مع تشجيع ولادة الأمر لحركة التأليف وشراء الكتب ، فابن رشد حين طلب الاعفاء من منصبه حتى يتفرغ لإتمام مؤلفاته أذن له أمير المسلمين على بن يوسف بذلك^(١) والخليفة يوسف بن عبد المؤمن كان يجمع الكتب من كل مكان ويضمها إلى المكتبة الملكية أو الخزانة العلمية كما كانت تسمى بذلك^(٢).

ولم تكن الرغبة في جمع الكتب قاصرة على ولادة الأمر ، بل إن من أبناء الشعب من دفع المال الكثير في سبيل شراء مرجع من المراجع فالقاضي عيسى بن أبي حجاج بن الملجوم ابتاع من أبي على الغساني نسخة من سنن أبي داود ودفع فيها خمسة آلاف دينار^(٣) بالإضافة إلى ذلك فإن أمين مكتبة الخزانة العلية لا بد أن يكون من أكابر العلماء ، حيث أن هذه الوظيفة من الوظائف الهامة التي لا يشغلها إلا من كان أهلاً لها^(٤) يقول ابن المؤقت في ترجمته لأحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الصقر الأنصاري الخزرجي « ولما صار الأمر إلى أبي يعقوب بن عبد المؤمن ألزمه خدمة الخزانة العلية ، وكانت عندهم من الخطط الحليلة التي لا يعين لها إلا عليّة أهل العلم وأكابرهم »^(٥).

-
- (١) محمد عثمان المراكشي : الجامعة اليوسيفية ص ١١٢ .
(٢) المراكشي : المعجب ص ٢٣٩ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٧٤ ، المنوني : العلوم والآداب ص ٢٨٢ .
(٣) كنون : النبوغ المغربي ج ١ ص ١٦٢ .
(٤) عباس المراكشي : الأعلام ج ١ ص ٢٢٩ ، ابن الخطيب : الاحاطة : القسم الاول ص ١٩٠ ت عنان .
(٥) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢٤ .

وقد تحدت أما كن لبيع الكتب ، ففي مراکش كان هناك ما يقرب من مائتي متجر لبيع الكتب المخطوطة بجوار جامع الكتبيين^(١) وقد سبق أن أشرت أن الجامع الكبير بالعاصمة مراکش سمي بجامع الكتبيين نسبة إلى بائعي الكتب حوله . أما في مدينة تلمسان فكانت هناك سوق لبيع الكتب حيث أشار التنسي أن مصحف الخليفة عثمان بن عفان بيع في سوق الكتب بتلمسان ، وقد اشتراه أمير المسلمين يغمراسن وحفظه^(٢)

وبجانب الكتب التي كان الناس يجمعونها في المساجد والزوايا والمدارس وغيرها للاطلاع عليها والدراسة فيها ، كانت هناك المكتبات العامة والخاصة ، وفي مقدمة المكتبات الخزانة العلية التي أنشأها خلفاء الموحدين وجعلوا لها أمينا وزودوها بمختلف الكتب والمراجع . وهناك المكتبة الشارية بسبتة وهي منسوبة لمؤسسها أبي الحسن علي بن محمد الغافقي المعروف بالشاري وكان شغوفا بجمع الكتب فكان مكتبة عظيمة وقد جعلها وقفا على علماء المغرب^(٣)

ومن المكتبات الخاصة مكتبة ابن الصقرت سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م والتي نهبت عند دخول الموحدين مراکش^(٤) ومكتبة عبد الرحمن بن الملجوم من أعيان فاس يقول عنه صاحب كتاب الذخيرة السنية « نظر في في كثير من العلوم واعتنى بها وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من أهل المغرب وخزانة كتبه كانت المشهورة في المغرب بيعت حزمها بعد وفاته بستة آلاف دينار ، وتوفي سنة ٦٠٥ هـ »^(٥) ومكتبة عبد الرحمن بن موسى الازدي الفاسي المتوفي سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م وقد باعها ابنته بأربعة آلاف دينار^(٦) .

وهكذا ساهمت المكتبات وما احتوته من كتب في دفع تيار الثقافة في البلاد وتزويد الحياة الفكرية بما تحتاجه من مدد في مختلف فروع المعرفة .

-
- (١) المنوني : العلوم والفنون ص ٢٧٥ .
 - (٢) التنسي : الدر والعقيان ورقة ٤٥ .
 - (٣) المنوني : العلوم والفنون ص ٢٨١ .
 - (٤) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢٥ .
 - (٥) مجهول : الذخيرة السنية ص ٤٧ ت محمد بن أبي شنب .
 - (٦) ملين : عصر المنصور الموحدي ص ١٧٠ .

الخاتمة

يتضح من دراسة الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية بالمغرب الأقصى خلال القرنين الخامس والسادس من الهجرة مدى التقدم والازدهار الذى وصل إليه المجتمع المغربى فى هذه الفترة .

والواقع أن المغرب الأقصى صار خلال هذه الفترة متميز الشخصية ، يفرض سلطانه السياسى والعسكرى على مساحات كبيرة من الشمال الإفريقى بلغت إفريقية فى عهد الموحدين ، بالإضافة إلى الأندلس . وإن هذا التفوق العسكرى كان يستند إلى عدة دعائم قوية مكنته من الاستمرار لفترة طويلة من الزمن ؛ وأما الدعائم فهى حياة إدارية منظمة ، وحياة اقتصادية مزدهرة ، فضلا عن شعب آخذ بالكثير من أسباب التقدم والحضارة .

وقد سبق قيام دولة المرابطين فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، فترة من الضعف ، نتيجة انقسام المنطقة إلى عدة إمارات متناحرة فيما بينها ، وانعكس الصراع على نواحي الحياة المختلفة بالبلاد . حتى إذا أقبل المرابطون ووحّدوا المنطقة فى ظل حكومة مركزية ، انطلقوا إلى إقليم الأندلس لحماية له من الأخطار التى تهدده ومن ثم صار الأندلس لإقليميا تابعا للمغرب الأقصى . غير أن حكم المرابطين لم يستمر طويلا ، نتيجة لدعوة ابن تومرت وثورته ، تلك الثورة التى أنهت بالقضاء على المرابطين وقيام دولة الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن على .

وبلغ المغرب الأقصى درجة كبيرة من التقدم والازدهار خلال العصرين المرابطى والموحدى ، وشهدت المنطقة حياة إدارية مستقرة ، صاحبها حياة اقتصادية مزدهرة ، مع كثرة فى البناء والتعمير ، فضلا عن حياة فكرية زاخرة بالعلوم والثقافات المختلفة .

ومن خلال دراستنا للحياة الإدارية تبين لنا اعتراف المرابطين بالخلافة العباسية باعتبارها الخلافة الشرعية ، والتى استمدوا منها التأييد الروحى ، وعلى العكس من ذلك كان موقف الموحدين الذين اعتبروا أنفسهم خلفاء ، وهم أول من أنشؤا خلافة إسلامية بالمغرب الأقصى .

وقد انحصرت رئاسة الدولة في أسرة يوسف بن تاشفين في الدولة المرابطية وأسرة عبد المؤمن بن علي في الدولة الموحدية .

وكانت مباينة ولي الأمر تم عن طريق البيعة الخاصة من أفراد الأسرة الحاكمة والقبائل المؤسسة للدولة ، وقد تعددت وتنوعت اختصاصات ولي الأمر ، أما الألقاب فقد اتخذ ولاية الأمر في الدولة المرابطية لقب أمير المسلمين ، أما في الدولة الموحدية فقد اتخذوا لقب خلفاء . كذلك كان نائب ولي الأمر يختار من الأسرة الحاكمة .

اتبع ولاية الأمر نظام ولاية العهد إذ كان الحكم وراثيا . وكان ولي العهد يختار من أكفأ الأبناء مع موافقة الأسرة ورؤساء القبائل على اختياره ويعقب ذلك إعلان رسمي في أنحاء الدولة .

كان ولي العهد يمر بمرحلة من التدريب والتثقيف حتى يكون أهلا لتحمل أعباء الحكم ، فإذا ما أساء التصرف كان معييره العزل .

استعان ولاية الأمر في إدارة الدولة بمجموعة من الوزراء سواء من المغرب أو الأندلس . وقد أنشئ منصب أعلى من ذلك في الدولة الموحدية اعتبر بمثابة الرجل الثاني في الدولة .

تعددت وتنوعت اختصاصات الوزراء إلا أن أغلبهم كانوا وزراء منفذين لأوامر ولاية الأمر ولم ينفرد أحدهم بالسلطة إلا في ظروف خاصة . وقد عوقب بعضهم نتيجة لارتكابه بعض الأخطاء التي تمس سلامة الدولة .

استعان ولاية الأمر بالكتّاب في تيسير مهمة التخاطب والتراسل مع موظفي الدولة ، وكان كثير من الكتّاب ينتمي إلى الأندلس ، وبعضهم ينتمي إلى المغرب ، وقد تنوعت ثقافتهم واختصاصاتهم .

ظهر نوع من الكتّاب في الدولة الموحدية وهم كتاب الجيش المختصون بالشئون العسكرية ، وكانت العلامة الرسمية للدولة المرابطية العظيمة لله وحده ، أما في الدولة الموحدية فكانت الحمد لله وحده

لم يتخذ المرابطون حججاً على العكس من ذلك ، اتخذ الموحدون حججاً (م ٣٣ — الحضارة)

من أفراد الأسرة ومن الموظفين ، أما بالنسبة للنظام الإدارى ، فقد انقسم المغرب الأقصى إلى عدة أقاليم إدارية ، تولى إداراتها أفراد من أسرة ولى الأمر أو من أبناء القبائل ، كما حدث فى عهد الموحدين .

وقد تنوّعت خبرة وثقافة ولاية الأمر ، وكان الموحدون يحرصون على اختيار هيئة إستشارية وإدارية لمعاونة الوالى فى إدارة اقليمه ، ويسبق ذلك مكاتبات رسمية تعلن اسم الوالى وواجب الرعية فى السمع والطاعة ، كان الولاية يمارسون أعمالهم فى ظل سياسة مرسومة من ولاية الأمر . وقد حرص ولاية الأمر على إجراء تنقلات بين الولاية وعزلهم ومعاقتهم إذ أساء أحدهم التصرف .

تنوعت الدواوين فى الدولة ، وقد استحدث الموحدون ديوان الجيش . كذلك لعب البريد دوره فى دعم اتصال ولاية الأمر بأنحاء البلاد ، كما حدد الموحدون اختصاصات صاحب البريد . وأخيرا قام الشرطة بدورهم فى حماية وصيانة أرواح الناس وممتلكاتهم .

أما بالنسبة للنظام القضائى ، فقد قام القضاة بدورهم فى إقرار العدل بين الناس ، وكان القضاة ينسبون إلى الأندلس والمغرب .

كان هناك نوعان من القضاة : قاضى الجماعة ومقره العاصمة ، وهو أرفع شأنًا ، وكان يعين من قبل ولى الأمر مباشرة ، وقضاة المدن ويعينون من قبل قاضى الجماعة أو من ولاية الأقاليم . فإذا ما اختار ولى الأمر القاضى صدر مرسوم بتعيينه ، وقد اتخذ القضاة المسجد مكانا للتقاضى وعاونهم فى مهمتهم مجموعة من الموظفين .

تعددت اختصاصات القضاة ، وقد عمد ولاية الأمر إلى نقل القضاة من مكان إلى آخر وأحيانا عزلهم ، وكان قاضى الجماعة ينتقل فى عدة أماكن قبل أن يشغل منصب قاضى الجماعة بالعاصمة .

وبجانب القضاة ، كان هناك نظام المظالم الذى ظهر واضحا فى عهد الموحدين ، إذ قام الخليفة المنصور الموحدى بالفصل بين المتنازعين .

كذلك كانت هناك وظيفة الحسبة التى لم تتضح صورتها فى عهد المرابطين

وعلى العكس من ذلك فى الدولة الموحدية ، إذ حرص خلفاء الموحدين على محاسبة أمناء الأسواق ، وقد تنوعت وتمعدت اختصاصات المحتسب .

شهدت البلاد فترة من الازدهار الاقتصادى والرخاء المادى ، وقد ساهم النظام المالى الذى وضعه ولاية الأمر ، بجانب التقدم الزراعى والصناعى ، فضلاً عن الرواج التجارى ، فى دفع عجلة الاقتصاد بالبلاد .

وكان للنظام المالى وما تضمنه من سياسة مالية ، بجانب مصادر الدخل المتنوعة وأوجه الانفاق المتعددة أثر كبير فى استقرار الحياة الاقتصادية .

تعددت الدواوين المالية واستحدثت بعضها فى عهد الموحدين كديوان التميز ، مع تعدد الوظائف المالية ، وتحديد أماكن جباية الأموال ، وتحديد أوقاتها وبجانب ذلك حرص ولاية الأمر على مراقبة المشتغلين بالشئون المالية ومحاسبهم .

تنوعت المصادر المالية للدولة من زكاة وضرائب وجزية وغنينة ، وقد زاد الموحدون على هذه المصادر الخراج الذى فرضه عبد المؤمن بن على ، على أقاليم الدولة .

ومن ناحية أخرى تنوعت النفقات ومنها نفقات الجيش والمرتبات ونفقات البناء والتعليم وغير ذلك من أنواع الإنفاق . وحتى تنظيم المعاملات المالية ، أصدر ولاية الأمر عملات نقدية متنوعة .

لعبت الزراعة دوراً هاماً فى اقتصاد البلاد ، وساعدت عدة عوامل على تقدم الزراعة وازدهارها ، وقد تنوعت المحاصيل وكان منها القمح والقطن وقصب السكر والزيتون وغير ذلك من المزروعات .

أمدت الحدائق والبساتين المنتشرة فى جهات متفرقة المواطنين بكميات كبيرة من الفواكة ومنها العنب والتين والرمال والبلح وغير ذلك . كذلك كانت الغابات والمراعى المنتشرة بحيواناتها المتنوعة التى زادت من الثروة الحيوانية بالبلاد .

كذلك أسهمت طبيعة المنطقة وكثرة الأنهار بها فى تزويد البلاد بكميات كبيرة من المياه وحل الرغى من الرخاء الذى تمتعت به المنطقة حدثت

بعض الأزمات الاقتصادية نتيجة لعوامل متعددة .

ساهمت الصناعة بجانب الزراعة في رخاء المنطقة ، وكان لتوفر المواد الخام مع وجود الأيدي العاملة أثرها في دفع عجلة الصناعة .

تعددت المراكز الصناعية في البلاد كفاس ومراكش وسبتة وغيرها ، وتنوعت المصنوعات بالبلاد كصناعة الورق والمنسوجات وسبك النحاس والصابون وصناعة السفن وغير ذلك .

ازدهرت الحركة التجارية بالبلاد ، سواء أكانت تجارة داخلية أو خارجية ، وقد ساعدت الطرق التجارية على ربط أجزاء البلاد .

تعددت المراكز التجارية كمدينة فاس ومراكش وغيرها ، وكان للسوق نظام وميعاد يقام فيه وطريقة للتعامل بين قصاده .

أما التجارة الخارجية ، فقد نشطت نتيجة لاستقرار الأوضاع السياسية والاقتصادية بالبلاد وقد تنوعت الصادرات والواردات .

قامت علاقات تجارية نشيطة بين المنطقة وعدة بلاد ويأتى في مقدمتها لإقليم الصحراء في الجنوب والأندلس في الشمال ثم أوروبا وأخيرا المشرق .

شهد مجتمع المغرب الأقصى حياة زاخرة بالنشاط والحركة في مجالات الحياة المتعددة ، وقام بهذا النشاط سكان البلاد . وهم يتكونون من البربر السواد الأعظم من السكان .

تمتعت بعض قبائل البربر بوضع اجتماعي متميز نتيجة مشاركتها في تأسيس الدولة ، ففي الدولة المرابطية احتلت قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة ولمطة مكانة ممتازة باعتبار أن مؤسس الدولة منهم ، فضلا عن قيامها بالعبء الأكبر في تأسيس الدولة ومشاركتها في أعمال الجهاد .

حتى إذا قامت دولة الموحدين ، أصبح المصامدة ومن انضم إلى الدعوة الموحدية في مرتبة إجتماعية متميزة .

شارك العرب الهلالية وخاصة في عهد الموحدين في أحداث البلاد ، وقد ظهرت آثارهم في النواحي الإدارية حين ساعدوا الخليفة عبد المؤمن بن علي في اختيار ابنه وليا للعهد ، وشاركوا في عمليات الجهاد بالأندلس ، كما أنهم

أقاموا بأماكن متفرقة بالبلاد ، وظهرت لهم آثار جنسية ولغوية بين سكان المنطقة .

وبجانب البربر والعرب عاشت أقليات أخرى كالسودانيين الروم والغز ..

شاركت طبقات المجتمع وطوائفه في صنع الحياة بالمغرب الأقصى ، وكانت الطبقة الحاكمة تتمتع بوضع اجتماعي متميز ، وقد استحدث الموحدون طائفة الطلبة هؤلاء الذين تعددت اختصاصاتهم فمنهم من اشتغل بالوظائف الإدارية بالدولة ومنهم الدعاة الذين قاموا بنشر الدعوة .

كذلك كان للفقهاء والعلماء وضع متميز وخاصة في عهد المرابطين حيث صارت مقاليد البلاد بأيديهم ، ونتيجة لذلك جمع بعضهم أموالا طائلة مما أثار حفيظة بعض الشعراء ونقمهم .

كذلك ساهم أصحاب المهن من تجار وصناع وأصحاب حرف متنوعة في دفع عجلة الاقتصاد بالبلاد .

تمتعت المرأة بمكانة طيبة في المجتمع المغربي ، وأصبح لها نفوذ في الدولة المرابطية ، وقد حرص ولادة الأمر على رعايتها ، كما أن بعضهن تزود من مختلف الثقافات .

عاش أهل الدمة جنبا إلى جنب مع بقية طوائف الشعب ، وقد ادعى بعض المؤرخين أنهم اضطهدوا في عهد المرابطين نتيجة نقلهم من مواطنهم بالأندلس إلى المغرب وفرض بعض الأموال عليهم ، وكان هذا إجراء عادلا تطلبته مصلحة الدولة وأمنها ، كما أن فرض المال لم يكن مقصورا عليهم بل شمل طوائف الشعب الأخرى .

كذلك لادعى بعض المؤرخين أنه لم يوجد أهل دمة بالبلاد في عهد الموحدين وأنهم أسلموا وقد أثبت عكس ذلك .

اهتم ولادة الأمر بالبناء والتعمير ، وشهدت المنطقة حركة في البناء لم تشهدها من قبل ، وكان طابع البناء يمتزج فيه الفن المشرقي بالفن الأندلسي ، وكان في مقدمة المنشآت ، إنشاء عدة مدن كمراكش ورباط الفتح وغير ذلك من المدن ، وبجانب ذلك أنشئت عدة قلاع في أماكن متفرقة .

كذلك اهتم ولاية الأمر بإنشاء العديد من القصور ، وقد لعبت المبادئ الدينية دورها في الإكثار من بناء المساجد ، وصاحب ذلك بناء المدارس والفنادق والقناطر وأخيرا مستشفى المنصور الموحدى .

كان للأسر نظامها وعاداتها المتعلقة بالزواج والاحتفال به ، وقد استن الخليفة المنصور الموحدى عادة تختين الفقراء والأيتام من أبناء العاصمة على نفقته الخاصة .

أثرت الأمراض والأوبئة في موت كثير من أبناء الشعب ، وقد اتبع السكان نظام العزل الصحى ، كما أن مستشفى المنصور الموحدى ساهمت في علاج المرضى ، ومساعدة الفقراء منهم بعد الشفاء ، وبجانب ذلك لعب الأطباء دورهم في معالجة أبناء الشعب وولاية الأمر .

تنوعت المجالس وتعددت ، فكانت هناك مجالس الخلفاء ، وما يدور فيها من مباحث علمية ومشكلات .

وكانت هناك مجالس الوعظ حيث قام الصالحون والعلماء بالدعوة إلى الله والرجوع إليه ، وأخيرا كانت هناك المجالس العامة التى يحضرها الولاية وكبار القوم .

تعددت الاحتفالات وتنوعت ، وكانت هناك الاحتفالات الدينية وما يصحبها من شعور دينى فياض خصوصا في شهر رمضان، وقد احتلت الاحتفالات العسكرية وما يتخللها من مواكب مكانها في نفوس المواطنين، حيث شهدت المدن المغربية العديد من الاحتفالات في نظام معين وما يصحب ذلك من دق للطبول ونشر للألوية مما يكسبها بهجة وجمالا . وأخيرا شهد المجتمع احتفالات متنوعة كالاحتفال بتولى أحد ولاية الأمر أو مجيء وفد هام إلى العاصمة وغير ذلك .

وجد أبناء المجتمع في المنزهات والحدائق مكانا للترويح والتسلية ، وقد وقف ولاية الأمر استنادا للمبادئ الدينية موقفا متشددا من الغناء واللهو وحاربوهما بشتى الطرق .

حفلت المائدة المغربية بالعديد من الأطعمة مما يدل على الثراء والرفاهية التى تمتع بها السكان ، وقد تنوعت الأطعمة ، فمنها ما كان يصنع للأثرياء ،

ومنها ما ينتسب في صناعته إلى بعض البلدان كالأندلس وإفريقية ومصر ،
ومنها أطعمة خاصة بفصل الصيف وأخرى خاصة بفصل الشتاء ، كذلك
تنوعت الأشربة ومنها شراب الربّ وأنزیز .

اكتسب المغاربة الملابس الصوفية ، وقد اتخذ المرابطون اللثام غطاء
أ لوجوههم ، وصار عادة يتميزون بها ويرجح أن ذلك راجع إلى طبيعة البيئة
الصحراوية التي عاشوا فيها .

تنوعت ملابس الموحدين ، كذلك تميزت ملابس جنودهم بالتنوع
والتعدد . وقد فرض الناصر الموحدي زيا خاصا لأهل الذمة إلا أنهم استغاثوا
به في إلغاء هذا الزي وقد استجاب لهم .

نشطت الحركة الفكرية بالبلاد ، وقد تضافرت عدة عوامل على
تنشيطها ، كذلك تعددت المراكز الفكرية وقد لعبت الحياة الدينية دورها في
تنشيط الحركة الفكرية وشهد السكان دعوتين دينيتين :

دعوة المرابطين ومؤسسها عبد الله بن ياسين ، ودعوة الموحدين
ومؤسسها ابن تومرت .

شهد السكان في عهد المرابطين حدثا دينيا ، هو إحراق كتب الإمام
الغزالي بأمر أمير المسلمين علي بن يوسف وكان مرد ذلك حقد جماعة من
العلماء على الغزالي لمهاجمته في كتبه طبقة علماء السوء .

استند ابن تومرت في تأسيس دعوته على عدة أفكار ومبادئ تأثر بها
في دراسته بالمشرق .

وقد تطورت الدعوة الموحدية في ثلاث مراحل : مرحلة التأييد ، ثم
مرحلة التشكك وعدم الاقتناع في عهد المنصور الموحدي . وأخيرا مرحلة
هدمها والقضاء عليها في عهد المأمون الموحدي .

نتج عن قيام ابن تومرت بنشر دعوته ، أن ثارت حرب كلامية
ودعائية بين أنصار الدعوتين : المرابطية والموحدية .

احتل المذهب المالكي منزلة طيبة في عهد المرابطين ، إذ كان ولاية الأمر
مالكية فضلا عن تمسك الشعب بالمذهب المالكي . وقد حاول الموحدون الحدّ

من ذبوع المذهب المالكي وانتشاره غير أن محاولتهم باءت بالفشل .
وقيام الدولتين على أساس دعوتين دينيتين أثرت في ولاية الأمر ،
و موقفهم المتشدد في تنفيذ أركان الدين وأحكامه .

وقد قام المرابطون بعبء القضاء على الضلالات المنتشرة في المغرب
الأقصى فضلا عن محاولات نشر الإسلام في جنوب الصحراء .

احتل المتصوفون مكانة مرموقة في المجتمع المغربي ، حيث التف حولهم
السكان بمظاهر الإعزاز والتقدير مما أحقق بعض العلماء وحاولوا الدس عند
ولاية الأمر ، غير أن محاولتهم لم تنجح في التقليل من شأن المتصوفين ، وقد
صاحب ذلك إيمان العامة بالخوارق والمعجزات ، وكان ذلك سلاحا استغله
ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي أحسن استغلال .

نشطت بعض العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه ، أما علم الكلام فلم
يزدهر إلا في عهد الموحدين .

ازدهرت الحياة الأدبية ، وساعد انتشار اللغة العربية بين أفراد الشعب
على القراءة والإطلاع . وقد حاول ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي استخدام
لغة البربر وكان ذلك لأهداف سياسية .

حظى الشعر بمنزلة طيبة وخصوصا في عهد الموحدين ، إذ شجع ولاية
الأمر الشعراء على التوجه إليهم والحصول على المنح والأموال ، كذلك لقي
النثر تشجيعا من ولاية الأمر .

تنوعت ثقافة ولاية الأمر وأبناء الشعب تبعا للمعهد العلمي الذي يدرسون
فيه ، وكانت الدراسات الدينية المتنوعة هي المنهج الأساسي الذي درسه أبناء
الأمة .

وقد تنوعت المواد الدراسية من لغة ونحو وتاريخ وسير وجغرافية
وفلك ، أما الفلسفة فلم تحظ باهتمام ولاية الأمر من المرابطين وعلى العكس من
ذلك ، اهتم ولاية الأم من الموحدين بالفلسفة والفلاسفة ، وخصوصا الخليفة
يوسف بن عبد المؤمن .

وقد ساهمت المكتبات وما اشتملت عليه من كتب ، مع تشجيع ولاية
الأمر على اقتناء الكتب في ازدهار الحركة الفكرية بالبلاد .

قسم الملاحق

- ١ — جدولان بأسماء أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين .
- ٢ — رسالة بشأن بيعة المنصور الموحدي بالخلافة .
- ٣ — صيغة ولاية العهد لعلی بن يوسف بن تاشفين .
- ٤ — رسالة بشأن تولية محمد بن عبد المؤمن ولاية العهد .
- ٥ — رسالة بشأن تولية الخليفة عبد المؤمن أبناءه أقاليم المغرب .
- ٦ — كتاب أمير المسلمين علی بن يوسف بن تاشفين إلى واليه ابن فاطمة يبين فيها أسس حكمه .
- ٧ — رسالة الفصول وفيها بعض أسس حكم الخليفة عبد المؤمن بن علی .
- ٨ — المرشدة لابن تومرت وهي خلاصة عقيدة التوحيد عند الموحدين .
- ٩ — التعريف ببعض المراجع .
- ١٠ — قائمة بأسماء المراجع .



أسماء أمراء المسلمين من المرابطين

- ١ — أبو بكر بن عمر اللمتوني ٤٤٨ هـ — ١٠٥٦ م
- ٢ — يوسف بن تاشفين ٤٦٥ هـ — ١٠٧٣ م
- ٣ — علی بن يوسف ٥٠٠ هـ — ١١٠٦ م
- ٤ — تاشفين بن علی ٥٣٧ هـ — ١١٤٢ م
- ٥ — إبراهيم بن تاشفين بن علی ٥٤٠ هـ — ١١٤٥ م
- ٦ — إسحق بن علی بن يوسف ٥٤٠ هـ — ١١٤٥ م

أسماء خلفاء الموحدين

- ١ — عبد المؤمن بن علي ٥٢٤ هـ — ١١٣٠ م
- ٢ — أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ٥٥٨ هـ — ١١٦٣ م
- ٣ — أبو يوسف يعقوب المنصور ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م
- ٤ — محمد الناصر ٥٩٥ هـ — ١١٩٩ م
- ٥ — أبو يعقوب يوسف المستنصر ٦١١ هـ — ١٢١٤ م
- ٦ — عبد الواحد المخلوع ٦٢٠ هـ — ١٢٢٣ م
- ٧ — أبو محمد عبد الله العادل ٦٢١ هـ — ١٢٢٤ م
- ٨ — يحيى المعتصم ٦٢٤ هـ — ١٢٢٧ م
- ٩ — أبو العلاء إدريس المنصور ٦٢٦ هـ — ١٢٢٩ م
- ١٠ — عبد الواحد الرشيد ٦٣٠ هـ — ١٢٣٢ م
- ١١ — أبو الحسن علي السعيد ٦٤٠ هـ — ١٢٤٢ م
- ١٢ — أبو جعفر المرتضى ٦٤٦ هـ — ١٢٤٨ م
- ١٣ — أبو العلا الواثق ٦٦٥ هـ — ٦٦٧ — ١٢٦٦ م — ١٢٦٩ م

الرسالة السابعة والعشرون

(بشأن بيعة المنصور الموحدى بالخلافة ودعوة الآخرين إلى البيعة)

وهي أيضا من إنشاء الكاتب أبى الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور :

« من الأمير يعقوب بن سيدنا أمير المؤمنين بن سيدنا أمير المؤمنين —
أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعرفته — إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان
والكافة بإغرناطة — آدام الله كرامتهم بتقواه ، وعرفهم عوارف نعماه
ورحماءه — سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

أما بعد فإننا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائه ، ونصلي
على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، والحمد لله الذى حفظ بهذا الأمر العظيم
رباط الإسلام ونظامه ، وأحيى بأحيائه رفاته ورمائه ، ونصب للمستضيئين
بأضوائه ، والمستبصرين فى اتباع سننه اللاحب واقتنائه ، أضواءه الهادية
وأعلامه ، واستحفظ أمره العزيز فى الدارين عن حرمانه ، والناهضين
بأعبائه وأمانته ، منتبهاً إليهم متناييده وزمانه ، ومثلها بهم مناهجه القويمة
وأحكامه ، وجعل إمامتهم الحميدة وإيالتهم المباركة السعيدة ، ملاذ الدين
وقوامه ، وظهور الحق وانتظامه ، وجب بتعاضدهم وتوازرهم ، وترافدهم
على تمشية أمر الله تعالى وتظايرهم غارب المهرج وسنامه ، وعمر ببركة
مساعيتهم ، وسعادة مأخذهم المرفقة ومناجيتهم ربوع الإيمان وخيامه ، وضم
نثره ونظم الثمامه ، والصلاة على محمد نبيه المصطفى ورسوله الأكرم المحببى ،
للذى أطفأ الله به احتدام الكفر واضطرامه وأزاح بأنواره الباهرة غهب
الشرك وظلامه ، وأعلى بحنيفة الحق منار الحق وعمامه ، وجعل بذأرته
المنجية ، وبثأرته المزلفة إلى الرضوان المدنية ، انقضاء لإرساله تعالى واختتامه
وكمال وحيه سبحانه إلى عباده وتمامه ، ضاعف الله له ولعترته الطيبين ،
وصحابته الأكرمين ، صلواته الجمة وسلامه والرضا عن الإمام المعصوم ،
المهدى المعلوم ، علم الهدى وإمامه الذى اختاره الله تعالى للهداية واعتماده ،
وارتضاه لتجديد شريعة جده — خليه السلام — بعد الدثور وأقامه ، وشنى
بعلومه الحلية ، وبراهينه الراضحة القطعية ، أدواء الجهل وأسقامه ، وجلا

بأضوائه الساطعة ، وتعلياته الرافعة الشكوك القاطعة ، دياجير الحالكه وإظلامه ، وعن صاحبه وخليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين القائم من الانتهاض بأمر الله مقامه ، والمعمل في إعلاء كلمته وتمكين أمره الحق ودعوته شأنه وحسامه ، المجرد في الوفاء بعهوده وانتجاز بشارته الصادقة ووعوده عزمه الكفيل بها واعتزاه ، والدعاء لسيدنا ومولانا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بنصر يسكب السعد غمامه ، ويجزل الخلد أقسامه ، ويقتضى الفور المسعد ، والفضل المعاون المنجد ، استمراره إلى قيام الساعة ودوامه . وهذا كتابنا إليكم — أسمعكم الله من بشائر هذا الأمر العزيز ما يملأ قلوبكم ارتياحا ويعمر صدوركم انشراحا ، وأوسع أرجاءكم وأكتافكم انبساطا في ظل الأمانة وانفساحا من حضرة أشبيلة — حرسها الله — ونحن نستوهب الله عوننا على ما قللنا من أمانته ، وانهاضا بما حملنا من نصر دينه وحمايته ، وانجادا على ما ننويه ونحاوله وندأب فيه من حفظ أمره ورعايته، والذي نوصيكم به تقوى الله العظيم، والعمل بطاعته، والتوكل عليه وان توقنوا بأن هذا الأمر السعيد محفوظ المقام ، منصور الإعلام، مسدد النقص والابرار، مقرون بمقاصده اليمن والنجاح على تعاقب الأدوار وتناوب الأيام . وأنه المصيب المنصور المصوح له الذي لا يضره من عانده ولا من خذله مع تقادم الأعصار وتطاول الأعوام ، بشرى صادقة الدلائل ويسرى صادقة المخاليل ، وأمر محروس لا يقدر فيه كيد كائد ولا خذل خاذل ، ولا يحل عقوده المبرمة ، وروابطه المستحكمة على تقوى الله المنتظمة ، وحدوث حادث ونزول نازل ، حتى ينجز الله له وعده الكريم في الاستيلاء على الأقرب والأبعد ، والانتها من ذروة الكمال والتمام في مسماها الأعلى الأصعد ، وإبداع أمانته العظيمة ، وعهوده الكريمة ، في الأبعد في الاختصاص فالأبعد ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين والحمد لله رب العالمين .

وأنه — وفقكم الله وسددكم ، وأعانكم على اتباع أوامره وانجذكم — لم تنزل رغبات الموحدين — أعزهم الله — واخوانهم العرب — وفقهم الله — تترادف على سيدنا أمير المؤمنين — أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته — في إرقائنا لهذا الرق وتقليدنا هذه الأمانة العظمى ، والافضاء إلينا بأمره الأعز

الأسمى ، فيقابلهم أعلى الله أمره ، وأعز نصره — من وعده الكريم بكمال مطلبهم وتمامه ، واتساقه على مقتضى آمالهم وانتظامه ، ويعرفهم بأن هذا له وقت يرتقب لعقده فيه وإبرامه ، ولما اذن الله تعالى في دنو الميقات المنتظر واقترابه ، وأراد سبحانه انجاز وعده الكريم لسائليه وطلابه ، أمره العظيم في معلنه الحافظ له ونصابه ، ورجع الموحدون — أعزهم الله — من غزوتهم المبرورة التي أعز الله بها المسلمين وأداهم ، وقمع المشركين وأذاهم ، وكرم باحراز أجرها ، واستخزان ذخرها حالهم ومآلم ، وبلغهم من نكاية أعدائهم وتدويخ أكتافهم وأرجائهم ، ما تجاوز أمانيتهم وآمالهم تعين الوقت الموعود ، وحضر الزمن الموسوم له المحدود ، وكان بحكم الاحتفال للغزوة المباركة ، وحرص الكافة على اغتنام أجور المساهمة فيها والمشاركة أجمع من الموحدون — أعانهم الله — ومن انضاف إليهم من الاجناد ، ومن كافة المغرب وأعيان أهل البلاد ، جمع كثير ، وحفل كبير ، يدخل فيما ارتبطوه عليه سائرهم وتنظيم فيما عقدوه جماعتهم الذين وراءهم وعشائرتهم ، فعرف كافيتهم بما تقدم فيه سؤال الموحدون والعرب — وفقهم الله — ورغباتهم ، وتكررت في استجابة طلباتهم ، وقرعت باب استفتاحه بدائهم ، وانتهت إلى إيثاره ، واختياره نهايتهم ، ووقفت عنده قصورهم الميمنة وغاياتهم ، فكان منهم من المبادرة إلى ذلك والاسراع ، والأعناق إلى إجابة داعية والاهطاع ، والتلقى لرايته المرفوعة بيمين الانتقاد والانطباع ما قضى باستحكام الاصفاق عليه من الكافة والاجماع ، ورغبوا في اكمال ذلك لفورهم . وألخوا في طلب المبايعة حينهم ، واتفقت عليه آراء كافيتهم وجميعهم . ولما تحقق فيهم خلوص الضمائر ، واستواء البواطن والظواهر ، واستحكام النيات فيه والبصائر أسعفوا بمطلوبهم ، ومكنوا من مرادهم ومحبوبهم ، وأحضروا لأخذ البيعة عليهم أفواجا ، وسلوكوا من الطاعة الصادقة سبلا فجابا ، واقتفوا في ذلك من آثار هذا الأمر العظيم جواد قاصدة ومنهاجا . وبادر الأعيان من الموحدون وغيرهم — وفق الله جميعهم — إلى البيعة وسارعوا ، وترادف الناس بعدهم وتتابعوا ، وأعطى الجميع صفقة أيديهم باخلاص من سرائرهم وبايعوا ، والتمسوا فروض البيعة وبشروطها وقبودها ، ووقفوا عند رسومها المعلومة وحدودها ، وأمضوا على أنفسهم أحكام حقوق الطاعة الصحيحة

وعهودها ، وارتضوها بنيات ، صادقة وعراثم إلى اغتنام الأجور مسابقة ،
وضمائر لكل شوب وريب مباينة مفارقة ، وبايعونا على ما بويح عليه الإمام
المعصوم المعلوم ، وخليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين — رضى الله عنهما —
وسيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين — أيده الله
بنصره ، وأمده بمعونته — من الإيمان والأمانة والعدل والعبادة ، والسمع في
المنشط والمكره والطاعة . وظهر على الكافة من دلائل البشرى ومخايل المسرة
بهذه النعمة الكبرى ، وشكر الله تعالى ما يسرهم له من اليسرى ، ما حقق
عند كل مؤمن ، وأوضح لدى كل مسلم موفق ، أن هذا الأمر السعيد ممكن
له في الأرض ، مخدوم الإرادة في البسط والتبض ، منصور اللواء ، مؤيد
على مر الأوقات والآناء إلى يوم الدين والعرض ، واتصلت المباينة المذكورة
لتصالا استوعب كافة الموحدين ومن معهم من الأجناد واخوانهم العرب
وأعيان أهل البلاد — وفق الله جميعهم .

ورأينا — وبالله التوفيق — أن نعرفوكم بهذا الأمر الأعظم الأخطر ،
لتأخذوا منه بالحظ ، وتناولوا ناجز خيرة الأنفس ومدخور أجره الأكبر ،
وتدخلوا بالانتظام في سلكه مداخل طائفته المفلحة وحزبه المظفر ، فتلقوا
وافده الأكرم بالقبول سمعا وطاعة ، وانشروا نبأه الأفخم ، في جهاتكم
وجنباكم إشادة وإشاعة وخلدوا عهده المؤكد الإلزام ، على كافة أهل
حواضركم وبواديكم وجماعة جماعة واستمسكوا بعروته الوثقى وغرزه ،
واعتصموا بكهفه الأوفى وحرزه ، واغتنموا الدعة والهدون في كنف أمانه
الشامل وعزه ، إن شاء الله وهو ولي توفيقكم وإرشادكم وإعانتكم على طاعته
وانجادكم بمنه .

أدام الله كرامتكم بتقواه — استدعت هذه الحالة التي عرفتم بها أن يزداد في
الخطبة الزيادة التي اشتمل عليها المدرج في طي هذا الكتاب فضعوها في
موضعها منه واكتبوا بنسخها إلى جميع جهاتكم إن شاء الله والسلام عليكم
ورحمة الله وبركاته .

كتب في السابع من جمادى الأولى عام ثمانين وخمسمائة .

(مجموع رسائل موحدية : ص ١٥٨ — ١٦٣)

صيفة ولاية العهد لعلى بن يوسف بن تاشفين

ولما كان فى سنة خمس وتسعين وأربعمائة ولى عهده الأمير أبى الحسن وكتب عنه ولاية العهد لابنه المذكور ، الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور وكان رحمه الله علم بلاغة به يهدى وإمام شرف قدمه العلم والندى .. ونص العهد :

الحمد لله الذى رحم عباده بالاستخلاف وجعل الأمانة سبب الائتلاف وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم الذى آلف القلوب المتنافرة وأذل لتواضعه الملوك الجبابرة (أما بعد) فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبى يعقوب يوسف بن تاشفين لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين خاف أن يسأله الله غدا عما استرعاه كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواء وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة من أكد الأشياء الكريمة ، كيف فى هذه الأمور العائدة بمصلحة الخاصة والجمهور ، وأن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة وخصه الله بها فى النظر فى هذه الأمور الدينية الشريفة قد أعز الله رماحه وأحد سلاحه فوجد أبنه الأمير الأجل أبى الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالى واهترأزا وأكرمها سجية وأنفسها اعترازا فاستنابه فيما استرعى ودعاه لما كان لىه دعى بعد استشارة أهل الراى على القرب والنأى فرضوه لما رضيه واصطفوه لما اصطفاه ورأوه أهلاً أن يسترعى فى ما استرعاه فأحضره مشروطاً عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط فقبل ورضى وأجاب حين دعى بعد استخارة الله الذى بيده الخيرة والاستعانة بحول الله الذى من آمن به شكره وبعد ذلك مواعظ ووصية بلغت من النصيحة مراعى قصية يقول فى خاتمة شروطها وتوثيق ربوطها كتب شهادته على النائب والمستناب من رضى إمامتهما على البعيد والقريب وعلم علماً يقيناً بما رضاه فى هذا الترتيب وذلك فى عام خمسة وتسعين وأربعمائة وكان من الشروط فى تقديمه للعهد التى اشترطها عليه أبوه تركب سبعة عشر ألف فارس بالأندلس موزعة على أنظار معلومة يكون منها بأشبيلية سبعة آلاف فارس وبقرطبة ألف فارس وبغرناطة ألف فارس وفى المشرق أربعة آلاف فارس وباقي العدد على ثغور المسلمين والمرابطين فى الحصون المصاينة للعدو .

(ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨)

الرسالة الثالثة عشرة

(بشأن تولية محمد بن عبد المؤمن وليا للعهد)

« من أمير المؤمنين — أيده الله بنصره وأمده بمعونته — إلى الطلبة الذين بسبته وطنجة — حرسها الله . وجميع من بهما من الموحدين والأشياخ والأعيان والخاصة والعامة ... وهذا كتابنا إليكم — كتبكم الله من اتخذ عند الرحمن عهدا ... من رباط الفتح — عمره الله ... ولما كنتم — أكرمكم الله — ممن اعتصم في هذا الأمر العظيم بحبله وعروته ... رأينا أن نعلمكم بما عقدته إخوانكم الموحدون على تقوى من الله ورضوان ، والتموه بأتم ارتضاء واستحسان ... وذلكم أن كثيرا من أولياء هذه الدعوة العلية وإخوانها . من أشياخ الأنظار وأعيانها تقدمت رغبتهم في أمر آخرته الخيرة لميقاتها ... وكانت هذه العشائر العربية الحلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها من حاضرة وبادية من أهل إقليمها وذوى ألبابها وحلومها ، يشيرون إلى ذلك انترأحهم ، ويعلمون بأنه غاية اقتراحهم ومادة نفوسهم وأرواحهم ، ولم تزل مخاطباتهم في ذلك تتردد حيناً بعد حين ، ورغباتهم تتأكد بما كان عندهم فيه من ثلج وحقين فلما اتفق بحمد الله وصولهم في هذه الوفادة للأخذ بأطنايب السعادة المنفية بهم على مقتضى الآمال والإرادة ، صرحوا لأول لقاءهم بما أضمره ، وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه ، وأعلموا أن محمداً — وفقه الله — هو الذى ارتضوه لحمل عبثهم وتخبروه ، ورغبوا في تقديمه على بلادهم وإنفاذه معهم على قصده في توليته ومرادهم . وكان استدعائنا لهم في هذه الوجهة المذكورة والحركة المبرورة لأمر قصدت فيها مذاكرتهم . ونويت بها مباشرتهم ، لم تكن مما ذكروه في رد ولا صد ، ولا كان ما سيره القدر جاريا معها في نظر .. ولما احتلنا جميعا هذا الرباط الميمون ، واستنلنا بفضل الله خير المعهود .. وكان الوفد المذكور بمدرجة الاياب ومرقب الالتفات والارتقاب ، تأكد اقتضاؤهم للجواب ، وتمكن حديثهم في معنى التقدم المذكور والاستصحاب ، فرأينا بعد استخارة الله تعالى أن نجتمع في هذا الموضع المبارك من وصله من شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالم وتذاكر معهم في ذلك الأمر المؤول ونعارضهم فيه على الجملة والتفصيل ، ونلقى إليهم حديث القوم المذكورين بأتم وجوه الإلقاء والتوصيل فكان ذلك على

ما قصد ، وذكروا في الأمر ما توخى فيه واعتمد ، وعرفوا بأن ذلك ليس مما بنى عليه ولا مما اعتقد ، فثارت منهم السواكن ، وغلبت على الظواهر والبواطن ، وعوين من أحوالهم لذكر فراق المذكور أغرب ما يعاين ، وتقديمهم الشيخ الأجل أخونا أبو حفص عمر بن يحيى — أعزه الله بتتوله — فقال هذا أمر نحن بتقديمه ، وأعلم بوجوبه ولزومه ، وأولى بتأمره علينا وتحكيمه ، ونحن السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه ، فهو مختارنا للدين والدنيا ومسؤولنا المأمول للحياطة والرعاية ، وأتبع ذلك من القول في معناه ما قصد أن يمكنه وأراد أن يوضح به عزمه عليه وبينه . وقال أكثر الحاضرين من الأشياخ والطلبة والعمال ومن أعلم به من الطلبة والفقهاء . ومن جرت مذاكرته في مثل هذه الآراء هذا أمر في ضمائر أكثرنا معتود ، وفي نفوس جمهورنا موجود ، وهو الذي ليس عليه من آمالنا مزيد ، واتفقت الكلمة من جميعهم أن في ذلك تجديد أمر الإمام المهدي رضى الله عنه — وتقويته وبسط شأنه المعظم وتسويته ، مالا يجوز تأخير عن ذلك المقام ، ولا يحل الخلو عن التقليد والالتزام ، وأن فيه من إبقاء الأمر في نصابه وإتيان الحق من أبوابه ، واتباع الدين من أخلائه وأحبابه ، وقطع كل منافق مرتاب عن أسباب نفاقه وارتبابه ، والنظر فيما يجمع كلمة الموحدين ، ويضم شمل المؤمنين بأوائل هذا القصد الصالح وأعقابه ، ما ابتنى عليه اتفاقهم واصفاقهم واسترسل فيه تعيينهم وإطلاقهم ، فاعملوا وفقكم الله بأن ذلك ليس في نفوسنا عقد سابق ولا نظر لاحق ... وإنما كان هذا القصد إلى ذكر السؤال المتقدم الذكر والكلام فيه على مقتضيات هذا الأمر ، وانقضى مجلس اليوم ، ومجالس بعده في ذلك الروم ، لا عن إجابة في ذلك المطلوب ، ولا عزم على وجه من وجوه الثأني والتسييب ، واجتمع الشيخ الأجل أبو حفص المذكور ، ومن تقدم ذكره من الطلبة والعمال بجميع من هنا من أشياخ الموحدين وأعيانهم ، وقدموا أهل القطر في أمرهم وذلك شأنهم ، وعرفوهم بما كان من قولهم فيه وبيانهم ، فاجتمع الملأ من آخره ... وأصفق الموحدون وجميع من معهم على تحمل العهد فيه وتقلده وأعربوا عما اعتقدوا به من تقوى الأمر وتأنيده ، ورد إلى أصله ومستنده ، وصار الجميع منهم (م ٣٤ — الحضارة)

فى حد من موالاة الاقتضاء ، على أتم وجوه الاختيار والارتضاء لم يتقدم فيه عهد ، ولا كان من مضاء آمالهم فيه بد ، ولما رأينا إتفاق كلمتهم على ربط هذا الأمر وعقده ، ولإجماع جمهورهم على ما فيه من نصر الدين وعضده ، استخرنا الله تعالى فى الاتفاق معهم على انفاذه وسألنا لهم السعادة الدائمة فى بيعتهم هذه ، ورجى لهم من الله تعالى لإجراء ذلك على ما عودهم من الإصابة فى المقاصد ، والنجاح فى طلب المصالح والمرشد وانعقدت البيعة المذكورة باتفاق جميعنا على الشمل والعموم ، وقامت بأمر الله ورسوله فى التفويض والتسليم ، وأتى الأمر فيها على أوفى شروط التكميل والتميم ، وابتدأها الشيخ الأجل أبو حفص المذكور يميناه ، قصدا إلى اعتقادها على أكرم وجه وأسناه ، وتتابع الأشياخ والطلبة بعده على درجاتهم ، وسرى النعيم فى أبشارهم ومنحاتهم وباشرها من حضرها من القبائل الموحدية وسائر إخوانهم المؤمنين قبلا بعد قبيل ، على أتم وجه وأنهج سبيل ، وظهر من تأليف على ذلك وتعاضدها واجتماع النفوس وتواردها .. ما ملك جوانح الكافة غبطة وأوسع أمر الموحدين بفضل الله عليهم مدا وبسطه ، وتم ذلك بعون الله على أوثق مبانيه وأطلق معانيه ، والله يعرفكم أجمعين وسائر إخوانكم من المؤمنين ، بركة هذا الاجتماع والإجماع ، ويوجد لكم ثمرة النعيم به والإمتاع وينهضكم فى فروض الدين بواجب الاقتداء والاتباع بمنه والسلام .

(مجموع رسائل موحدية من ص ٥٥ إلى ص ٦١ ت لىنى
بروفنسال)

الرسالة الرابعة عشرة

(بشأن تولية عيد المؤمن أبنائه أقاليم المغرب)

وهي أيضا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور :
من أمير المؤمنين - أيده الله بنصره وأمدّه بمعاونته - إلى الطلبة
والأشياخ والأعيان والكافة بسبته ، وفقهم الله وأدام كرامتهم بتقواه
سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فالحمد لله على تمكين أسباب الاجتماع والانتظام ، وتقريب
مدارك الانتفاع بأعطياته ، والصلاة على محمد نبيه المبتعث رحمة للأنام ،
وعصمة لأولى التمسك والاعتصام ، وعلى آله وصحبه الكرام ، الجارين
في انتهاز خيراته وإحراز بركاته إلى أبعد غايات الاغتنام وأقصى نهايات
الالتزام ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، قبلة الاهتداء ،
وخاتمة الختم النبوي في الكمال والتّام ، وموضع البشرى على آجر الزمان
وعقبى الأيام وهذا كتابنا إليكم - كتب الله لكم من تجدد الأنعام ، وتوفير
الحظوظ المسعده والأقسام ، ما ينور بصائرکم في الاعتناء والاهتمام ،
ويصحب أوائلکم وأواخرکم من الافتتاح وسعادة الأختتام - من رباط
الفتح - عمره الله - وفي سبيل الله ما يربط بروابط هذا الأمر العزيز
ويعقد ، وعلى طاعته وتقواه ما ينظم لرضاه ويسرد ، ولا مستعان سواه
فهو الذي يعين بفضله ويؤيد .

وقد تقدم إليكم - وصل الله لإكرامكم وإلى تعريفكم بالمسار وإعلامكم
ما كان من إجماع الموحدين وأصفياهم على عقد هذه البيعة المجددة والتزام
شروطها المذكورة ، وأن ذلك لم يكن له عندنا قصد متقدم ، ولا عهد
متوهم ، لكنه أمر أراد الله فأتته ، واختاره لعباده فشمله بآمالهم وعمه ،
ونرجو أن الخيرة التامة في انعقاده ، والسعادة العامة في التّامه واعتقاده ،
ولما استوى بفضل الله بناية المرصوص ، وثبت على الصديق والتّليح حديثه
المنصوص وتعين في سوابقه ولواحقه الصفاء والخلوص ، وكان من هذه
العشائر الهلالية والوفود المشرفية إياها الميمون ، وتأهل لها بتوفيق الله

وتسديده - حيزه الموعود ونصره المضمون ، ورأت أن الذى أملتة فى معنى الاختصاص بمحمد - وفقه الله - قد تأنى فى درج العموم ، وصار بمجمع الآمال فى قراره البيوت واللزوم ، رغبت رغبة مستأنفة فى استصحاب أحد إخوته - وفقهم الله - على التعيين ، وبينت ما فى ذلك من جمع الكلمة وضم أشات المصالح المقدمه بأتم وجوه التبيين ،

وأصفت على أن ذلك يقطع أسباب الاختلاف ويفتح أبواب الائتلاف ، ويعمر جوانب تلك الأرجاء والأكناف ، بأحوال الدعة والسكون واتصل ذلك بشيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم - وفق الله جميعهم - فتيبنوا فيه من وجوه المنافع ومقاصد المصالح والجوامع ما اعتقدوا وجوب سؤاله ، ورأوا قبل الخير فى مبادئ استقباله واتفقوا على أن يصحبهم المرغوب فى استصحابه لدفع دواعى الشغوب واجراء الأمر فى تفاصيله وحمله هناك على هذا القانون المبارك والأسلوب وانبعثت خواطر أهل البلاد كلها إلى التماس مثل هذا المسؤول المرغوب ، وأملوا ترتيب آمالهم للدين والدنيا على هذا الترتيب ، فسأل طلبة تلمسان وأعمالها ومن حضرها وبواديها أن يكون لهم من هذا الأمر المتجرد والشأن المسعد ، حظ يفوزون بنعماءه ، ويحوزون منه أزكى قسمة وأنماه ، بأن يستصحبوا من الأخوة المذكورين من يكون إليه استنادهم ويدور عليه اجتماعهم واعتمادهم ، ويتمكن به واستعانتهم واعتضادهم ، ويتم بالاتفاق معه أملهم من رفع الخلاف ومرادهم ، فتلقى ذلك من قبول الموحدين وتبينه ، وتقرره فى نفوس جميعهم وتمكنه ، ما أراهم طلبه فرضا ، وكونه كالبنيان المرصوص يشد بعضا ، وكانت المذاكرة فيه فتبين وجه المصلحة فى تلقيه ، وسبيل السداد فى تيسره وتأنيه ، واشتغل بالنظر فيما يصلح بذلك والاستعداد بما هنا وهناك ، وكانت بعض أيام مذاكرة من الشيوخ والطلبة والعمال ومن حضر ذلك المغرب الأوسط فى ترتيبه وتهذيبه ، وضمه إلى قوانين النظر السديد وأساليبه ، فرأوا الذى يعقد أمره بمعاقد السداد ، ويبنى بنيانه على قواعد الاتصال والإطراد ، ويقضى له من الاعتباط وما تقدم ذكره بأوفر حظوظ التوفيق والأسعار ، أن يكون فى وسط من الإخوة المذكورين من تسكن إليه قلوبهم ، ويتأنى به مسؤولهم من الإنفاق ومطلوبهم ، ويستريغون بالإجماع عليه ما كان يغريهم ، من

التنازع والتهالك ، ويغويهم ، وأن يكون أمر غمارة وماتصل بهم من عمل سبته وجهايها راجعا إلى العمل المذكور ، مرتبطا به في سائر الشئون والأمور ، وكان في ذلك من إعادة القول وتكريره ، وتفصيل المذكر وتفسيره ، ما أظهر سبيله على مظاهر البيان وأبرز مكنون الاستقامة به العيان .

ثم تذكر الطلبة العاملون على سبته وأعمالها — وفقهم الله — مع اخوانهم في معنى البحر ومجازه واتساع النظر في مراسيه وأحواله ، وكونه رابطا بين العدوتين جامعا إلى إصلاح الجهتين ، عائدا راجعا . وأنه إذا أبقى معه النظر في أمر غمارة وسائر القبائل إلى سبته وطنجه والخزيرتين ومالقة وأعمال جميعها محتاج إلى من يدور عليه ذلك المحيط ، وتجتمع إليه هذا النظر المؤيد البسيط وينزاح به عن اشغاله المهمة التقصير والتفريط ، وأنه الآن فيما يرام لهداه الغزوة الكبرى ، من إنشاء الأسطول — عمره الله — في جميع البلاد الصالحة للانشاء ، وغزو أعداء الله برأ وبحراً في كافة الأنحاء أحق والأرجاء أحق بالعناية والاهتبال ، وأسبق إلى التماس الارتباط والاتصال ، وأنه إن كان هنالك من الإخوة المذكورين من يساعد ، ويعاضد في ذات الله ويعاضد ، ويستدعى ما يجب استدعاؤه فلايكابر في ذلك ولايجاحد ، اتصلت المواد وانفصلت القواطع الحواد ، وتمكن التصافي من خدمة المتواد ، وارتبط البحر بالبر ، فكانت المعاملة فيه بين العاملين عليها بما يجب من المساعدة والبر . وأنت هذه الأمور — وفقكم الله — أمراً بعد أمر ، على غير قصد منا ولا ذكر ، بل على وجوه يعلم بالضرورة أنها نشأت لأحيائها ، وظهرت دون مقدمة لأعيانها ولما رأينا إتفاق الشيوخ والطلبة والعمال — وفق الله جميعهم — على ترتيب هذه الأمور وإصفاقهم على ما فيه من صلاح الجمهور ، وظهور أنوار المهدي ، — رضى الله عنه — في مشارق الوضوح والظهور استخرنا الله تعالى في إنفاذ ما رأوه ورجونا بمشيئة الله التوفيق لهم في تفسير ما أملاه ونووه ، وتذاكرنا معهم في أن الذي تكمل به هذه الإرادة ، وترجى بالتعاون عليه البركة ، والسعادة ، أن يكون مع كل واحد من المذكورين ، من ينتهى إليه الاستحسان ويقوم على خيره وفضله الخلاء والبيان ، فعين لهم من كبار الطلبة والحفاظ وأعيان الفقهاء والقضاة ونخبة الأمناء والثقة وخيار الأنجاد من الغزاة ، من يعينهم في جمع الع.كر وتمييز القبائل وتأليف

الكتائب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كافة المقاصد والمذاهب وأخذ الناس بالنفقة في دينهم وتعلم ما يتعين تعلمه باللازم الواجب؛ والعدل بين الأحكام؛ والقضاء بكتاب الله وسنة رسوله؛ وإجماع الأمة وإستخراج ما لله من وجوه السائغة الطيبة على غاية مستطاعهم من الترتيب والأحكام؛ ومباشرة الجمهور في سائر الأمور بما يجرى على مقتضيات الإيمان والإسلام؛ وانتخب لكل جهة من الجهات المذكورة من قدماء الموحدين وأوليائهم بقدر ما احتيج إليه فاشتركت في هذا الخير قبائلهم وتقدمت إلى أوائله أوائلهم، واستقبل منه الموحدون كافة ما يوالهم بفضل واستقامت هذه الأحوال بحمد الله على ما أمل من استقامتها؛ واعتمد من إظهارها على قواعد الحق وإقامتها.

وأعلمناكم - وفقكم الله - بها على الإجمال لتكونوا لسماع أبنائها والوقوف على جلائها كالمشاهدين لإيعازها وإمنائها؛ والمشاركين في إستحسانها وإرتضاها؛ وليس لنا في ذلك كله إلا بما يجرى بطاعة الله ورسوله في تيسير آمال الموحدين وموافقتهم ورغبتهم فيما يشيرون إليه بفضلهم وسابقتهم؛ والله يجعلنا وإياكم من شكر الاله إسرارا وإعلانا؛ واستدام بفضلله ورعايته يمنا وأمانا واستصحب في إلترام طاعته واغتنام مرضاته أعوانا وإخوانا بمنه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب في الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وخمسمائة
(مجموع رسائل موحدية، ج ١ ص ٦١ إلى ص ٦٦ ت ليني بروفسال)

كتاب أمير المسلمين على بن يوسف بن تائشفين
إلى واليه أبي محمد عبد الله بن فاطمة يبين فيها أسس حكمه

وكتب عنه - أي الكاتب أبو القاسم بن الجد - أيده الله ونصره إلى أبي محمد عبد الله بن فاطمة رحمه الله . كتابنا أطال الله في طاعته عمرك وأعز بتقواه قدرك وشد في ماتولاه أزرك وعضد بالتوفيق والتسديد أمرك من حضرة مراکش حرسها الله وقد رأينا والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء الطريق أن نحدد عهدنا إلى عمالنا عصمهم الله بالتزام أحكام الحق لئلا يثار أسباب الرفق لما نرجوه في ذلك من الصلاح الشامل والخير العاجل والآجل والله تعالى ييسرنا لما يرضيه من قول وعمل بمنه وأنت أعزك الله ممن يستغنى بإشارة التذكرة ويكتفى بلمحة التبصرة لما تأوى إليه من السياسة والتجربة فاتخذ الحق إمامك ، وملك يده زمامك وأجر عليه في القوى والضعف أحكامك ، وارفح لدعوة المظلوم حجابك ، ولا تسد في وجه المضطهد المهضوم بابك ، ووطئ للرعية حاطها الله اكنافك ، وابدل لها إنصافك واستعمل عليها من يرفق بها ويعدل فيها ، واطرح كل من يحيف عليها ويؤذيها ومن سبب عليها من عمالك زيادة أو حرق في أمرها عادة أو غير رسمها أو بديل حكما أو أخذ لنفسه منها درهما ظلما فاعزله عن عمله وعاقبه في بدنه والزمه رد ما أخذ متعديا إلى أدله واجعله نكالا لغيره حتى لا يقدم أحد على مثل فعله إن شاء الله وهو تعالى ولي تسديدك والملي بعصديك وتأبيدك لا إله غيره ولا خير إلا خيره .

(الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١١٧)

رسالة الفصول وفيها بعض نصائح الخليفة عبد المؤمن بن علي لأهل بجاية .
من الرسالة المعروفة برسالة الفصول : أنشأها الكاتب أبو جعفر بن عطية
عن إذن الخليفة عبد المؤمن إلى أهل بجاية يوصيهم بإقامة الحدود وحفظ الشرائع
وإظهار الحق بلزوم الواجبات : ١٠

وابتدى بأول مباني الإسلام ، فآخذ الناس بعلم التوحيد الذي هو أساس
الدين ومبناه ، وروحه ومعناه ، والقاعدة التي لا يثبت عمل دون تأصيلها
والرابطة التي لا يقبل دين دون تحصيلها ، فلا سبب لمن لم يتمسك بسببه ،
وقد بنى وجوب العلم بالفرائض على وجوب العلم به ، وهو لإثبات الواحد
ونفى ما سواه بتقييدات في الشريعة لا يكتفى معها إطلاق اللفظ دون تحقيق
معناه ، وذلك أن يعلم على وجهة وحده ليكون عن علم لا عن ضده ، وعن
يقين لا عن شك ، وعن إخلاص لا عن شرك وأن يقوله مع العمل
لا ينكل . ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربي ويتكلمون به ان يقرؤوا التوحيد
بذلك اللسان من أوله إلى آخر القول في المعجزات ، ويحفظوه ويفهموه ،
ويلزموا قراءته ويتعهدوه ، ويؤمر طلبة الحضر ومن في معانهم بقراءة
العقائد وحفظها وتعاهدها على سبيل التفهم والتبين والتنبه والتبصر
ويلزم العامة ومن في الديار بقراءة القصيدة التي أولها : اعلم ارشدنا الله وإياك
وحفظها وتفهمها ؛ واشمل في الالتزام الرجال والنساء والأحرار والعبيد وكل
من توجه عليه التكليف إذ لا يصح لهم عمل ولا يقبل منهم قول دون معرفة
التوحيد ؛ فمن لم يعرف المرسل لم يصدق بالمرسل والرسالة ؛ ومن حصل
على مثل هذه الحالة ؛ فقد تعثر في أذيال الضلالة ؛ فإن لم يبادر إلى التخلص
منها ؛ والإنفصال عنها ، وجب عليه حكم الكتاب ولاعت في إراقة دمه
لامحالة وأخذوا بإقامة الصلاة التي هي الكتاب الموقوف على المؤمنين
والحكم المشبوت على كل من آمن بهذا الدين ، والناحية عن الفحشاء والمنكر
على ما ورد في الكتاب المبين ؛ ولاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة ؛ فهو
ممحو من ديوان المؤمنين ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع من الوظائف
والقوانين وتاركها ميت في عداد الأحياء لخشاؤه تقضى عند إنقضائه أمد
هال والإملاء ؛ فخذوا من قبلكم بأقامة الصلاة على ما شرعت ؛ وأدائها

بسحب ما فرضت ؛ وخذوا الحوام ومن في الديار بحفظ أم القرآن وسوره معها ؛ وما تيسر من القرآن لتتم صلاتهم ؛ ويكمل عملهم ؛ ومن أضاع الصلاة وأهملها ولم يبادر إلى أداء ما فرض عليه منها فأجله للحين متاح ؛ وقتله بحكم الكتاب والسنة واجب .

وخذوا إيتاء الزكاة ؛ وبالكشف عن ما نعيها وتشخيص ممسكها أو التزير اليسير منها ؛ فالزكاة حق المال ؛ والجهد واجب على من منع منها قدر العقل ؛ فمن ثبت منعه للزكاة فهو لاحق بمن ثبت تركه للصلاة ؛ فمن منع كمن منع الشرع كله .

وأمر بالنظر في الربوب وتمييزها ؛ والهجوم على بائعها ومدمنى شربها ومستعملها فيراق مسكرها ؛ ويقطع منكرها وليعمد إلى من عمل المسكر الحرام عامداً وشربه مدمناً عليه ومعاهداً ؛ ولم ترعه الحدود ؛ ولم تقيد به القيود ؛ ولم يعظه الإعتبار ؛ ولم ينفعه الأذكار فيمحي أثره ؛ ويحذف خبره فالخمر أم الكبائر وجماع الإثم ؛ وكاشفة شمس العقل والبلاغة على كل قبيح من الفعل ؛ والفاتحة لكل مرتج من أبواب العصيان ؛ وهى رجس من أعمال الشيطان .

أمر بالكشف عن التلصص والحراة ؛ والتولج في مكان من الربب والغواية والإجتماع على السير الجاهلية من الملامى على فنونها وانواعها واختلاف آلاتها وما يتبعها من المناكر الناشئة عن أصل الجهالة ؛ والأفعال المنافية للشرعية الصادرة على أهل الدراعة والضلالة من الرجال المفسدين والغواة المضلين ؛ ومن النساء المفسدات المتفئنات في طرق الغوايات فاكشفوا عن هذه الأصناف ؛ وأثيروهم عن مكائدهم ونقبوا عليهم في مظانهم ؛ فمن شهد عليه منهم بشهادة صحيحة سالمة من الهوى والظنة باستصحاب حاله ، تماديه على الإحضار في محل باطلة ومحاله ؛ فبحكم كتاب الله — جل اسمه وتطاع سنة نبيه — صلى الله عليه وسلم — فيه .

وليكشف عن الذين يغرمون الناس ما ليس قبلهم ويأكلون بالباطل أموالهم وعن أهل العناد والتقاص والإخلال . والتثبط الذين إذا دعوا إلى

الجهاد ونودوا إلى الصلاح والرشاد ؛ صموا عن النداء وتلوموا في إجابة الدعاء ؛ وألقوا المعاذير المعربة عن العناد ؛ والناطق عن الضمائر الممثلة بسوء الاعتقاد ، وعن القبائل القوية على سير الجاهلية من الهرج فيما بينهم والقتل والفساد والخلل والانقياد إلى سلطان الجهل والخروج عن قانون الحق وضبط الأمر ، وعن أهل النفاق والتدليس الناطقين بما لا يعلمون ، القائلين : ما لا يفعلون فإذا تعينوا على التحقيق ، فليمض عليهم حكم الله تعالى الذي أمر به فيهم ،

(مجموع رسائل موحيه ١٣١ - ١٣٤ ، البيدق : أخبار المهدي ص ١٣٩ - ١٤٢)

المرشدة لابن تومرت

وهي خلاصة عقيدة التوحيد عند الموحدين

بسم الله الرحمن الرحيم . اعلم — أرشدنا الله وإياك — أن الله عز وجل
وحد في ملكه ، خالق العالم بأسره العلوى والسفلى والعرش والكرسى ،
والسموات والأرض وما فيها وما بينهما ، جميع الخلائق مقهورون بقدرته ،
لا تتحرك ذرة الإبازنه ، ليس معه مدبر في الخلق ، ولا شريك ، حتى قيوم
لا تأخذه سنة ولا نوم ، عالم الغيب والشهادة ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ،
ولا في السماء ، يعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها .
ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا يابس إلا في كتاب مبين . أحاط بكل
شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ، فعال لما يريد ، قادر على ما يشاء
له الملك والغنى ، وله العزة والبقاء ، وله الحمد والثناء ، وله الأسماء الحسنى
لا دافع لما قضى ، ولا مانع لما أعطى ، يفعل في ملكه ما يريد ، ويحكم في
خلقه ما يشاء ، لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ، ليس عليه حق ولا عليه
حكم ، فكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، لا يسأل عما يفعل
وهم يسألون . موجود قبل الخلق ، ليس له قبل ولا بعد ولا فوق ولا تحت
ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف ولا كل ولا بعض ، ولا يقال متى
كان ولا أين كان ولا كيف كان ، كون الأكوان ، ودبر الزمان ، لا يتقيد
بالزمان ولا يختص بالمكان ولا يلحقه وهم ، ولا يكفيه عقل ولا ينحصر في
الذهن ولا يتمثل في النفس ، ولا يتصور في الوهم ، ولا يتكيف في العقل
لا تلحقه الأوهام والافكار جل عن الشبيه والنظير ، ليس كمثله شيء وهو
السميع البصير

« ابن القنفذ في مبادئ الدولة الحفصية ص ٢١١ ، ٢١٢ »

تحقيق محمد الشاذلي النيفر ، عبد المجيد التركي

المراجع

أولا : المخطوطات

- (١) أكنسوس : أبو عبد الله محمد (ت سنة ١٢٩٤ هـ)
الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا
سيدى على السجلماسى - ميكروفيلم رقم ١٥٨٣
دار الكتب .
- (٢) التادلى : أحمد بن أبي القاسم بن محمد بن سالم
بن عبد العزيز الشعبي الهروى :
كتاب المعزى في أخبار مناقب الشيخ سيدى أبي
يعزى رقم ١٢٤٩ دار الكتب .
- (٣) التنسى : عبد الحليل :
الدر والعقيان في شرف بنى زيان رقم ٨٦٦١ ح
دار الكتب
- (٤) الحيلاني : عبد السلام الغرابلى :
رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس رقم ٩٧٣٢ ح
دار الكتب
- (٥) السيوطى : عبد الرحمن بن أبي بكر :
البستان في أخبار الزمان رقم ٢٠٢٤ تاريخ دار
الكتب
- (٦) الشطبي : محمد الشطبي المغربي :
كتاب الجمان في أخبار الزمان رقم ١٤١٦ تاريخ
دار الكتب
- (٧) العمرى : شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن مجلى
ابن دعجان (ت سنة ٧٤٩ هـ)
مسالك الأبصار في ملوك الأمصار رقم ٥٥٩ دار
الكتب

- ٨ (عيـ.ـناض : القاضى عياض اليحصبي (٥٤٤ هـ)
ترتيب المدارك وتقريب المسالك رقم ٩٦٧٣ ح
دار الكتب
- ٩ (العيني : بدر الدين أبو محمد محمود بن احمد بن موسى
ابن أحمد بن حسن (ت ٨٥٥ هـ)
عقد الحمان فى تاريخ أهل الزمان رقم ١٥٨٤
دار الكتب
- ١٠ (النويرى . شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد
نهاية الأرب فى فنون الأدب رقم ٥٤٩ دار الكتب
- ثانيا : المراجع العربية المطبوعة :
- ١١ (ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر
القضاعى : (ت ٦٥٨ هـ)
إعتاب الكتاب تحقيق د . صالح الأشر دمشق
سنة ١٩٦١
- ١٢ (نفس المؤلف : التكملة لكتاب الصلة : تعليق ونشر الفريد
بل وابن أبى شنب — الجزائر سنة ١٩١٩ م
- ١٣ (نفس المؤلف : الحلة السراء جزآن — تحقيق د . حسين مؤنس
ط ١ سنة ١٩٦٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر
- ١٤ (ابن الأثير : أبو الحسن على (٦٣٠ هـ)
الكامل فى التاريخ — ٩ أجزاء مطبعة الإستقامة
- ١٥ (أحمد أمين : ظهر الإسلام — الجزء الثالث ط ٢ سنة ١٩٥٩
لجنة التأليف والترجمة .
- ١٦ (د . أحمد زكى : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا
الغربية سنة ١٩٦١ المؤسسة العربية .
- ١٧ (د . أحمد عيسى : تاريخ اليمارسنات فى الإسلام سنة ١٩٣٩
دمشق

- ١٨ (الإدريسي : محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوړى الإدريسي (١٦٤٩هـ) وصف المغرب والأندلس من كتاب
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق تحقيق
دوزى ودى غوية ليدن سنة ١٨٦٦م
- ١٩ (أرسلان : شكيب — الحلل السندسية فى الأخبار
والآثار الأندلسية ط ١ سنة ١٩٣٦فاس .
- ٢٠ (أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر
المتوسط — ترجمة د. أحمد عيسى ، النهضة
المصرية .
- ٢١ (أشباح : يوسف — تاريخ الأندلس فى عهد
المرابطين والموحدين ج ١ سنة ١٩٤٠، ج ٢ سنة
١٩٤١ القاهرة .
- ٢٢ (ابن أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم
(ت سنة ٦٧٧هـ) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء
ت. د. نزار رضا بيروت سنة ١٩٦٥ .
- ٢٣ (بابا التنبكى : أبو العباس سيد أحمد بن أحمد : (١٠٣٦هـ :
١٦٢٧م) نيل الابتهاج بتطريز الديباج
ط ١ سنة ١٣٥١م مصر .
- ٢٤ (الباجى : محمد الباجى المسعودى : الخلاصة النقية
فى أمراء إفريقية سنة ١٢٨٣هـ تونس .
- ٢٥ (بالثيا : آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسى —
ترجمة د. حسين مؤنس ط ١ سنة ١٩٥٥ .
- ٢٦ (البراوى : د. راشد :
- حانة مصر الإقتصادية فى عهد الفاطميين سنة
١٩٤٨م النهضة المصرية .
- ٢٧ (بروفنسال : ليفى : الإسلام فى المغرب والأندلس —
ترجمة د. السيد محمود عبد العزيز سالم
والأستاذ محمد صلاح سنة ١٩٦٥ النهضة .

- (٢٨) نفس المؤلف : مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية سنة ١٩٤١ رباط الفتح .
- (٢٩) بروكلمان : كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ترجمة د. نبيه فارس ومنير البعلبكي ط ١ سنة ١٩٤٩ م.
- (٣٠) ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك (٥٧٨) : — الصلة في تاريخ أئمة الأندلس جزءان نشر وتصحيح السيد عزت الحسيني سنة ١٩٥٥ م.
- (٣١) البكري : أبو عبيد الله بن عبد العزيز : (٤٨٧) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب تحقيق دى سلان ط ٢ باريس سنة ١٩١١ .
- (٣٢) بن عبد الله : عبد العزيز : الطب والأطباء بالمغرب — الرباط سنة ١٩٦٠ م.
- (٣٣) نفس المؤلف : تاريخ المغرب جزءان — الدار البيضاء .
- (٣٤) نفس المؤلف : جغرافية المغرب ط ٢ سنة ١٩٥٦ الدار البيضاء
- (٣٥) نفس المؤلف : المعجم التاريخي — الدار البيضاء .
- (٣٦) بن عبد الله : عبد العزيز : مظاهر الحضارة المغربية جزآن ج ١ سنة ٥٧ ؛ ج ٢ سنة ١٩٦٢ الدار البيضاء .
- (٣٧) نفس المؤلف : معطيات الحضارة المغربية الجزء الأول سنة ١٩٦٣ : الرباط .
- (٣٨) نفس المؤلف : وحدة المغرب العربي عدد أول سنة ١٩٥٦ مجلة تطوان المغرب .
- (٣٩) بوجندار : محمد : تعطير البساط بذكر تراجم قضاة الرباط
- (٤٠) البوعياشي : أحمد بن عبد السلام : الريف بعد الفتح الإسلامي تطوان سنة ١٩٥٤ .

- (٤١) بوفيل : الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا — ترجمة الدكتور زاهر رياض سنة ١٩٦٨ الإنجلو .
- (٤٢) بونار : رابع : المغرب العربي : تاريخ وثقافة سنة ١٩٦٨، الجزائر .
- (٤٣) الميلى : أبو بكر الصنهاجى (القرن السادس الهجرى) أخبار المهدي بن قورموت وابتداء دولة الموحدون نشر ليفى بروفنسال سنة ١٩٢٨ باريس
- (٤٤) التادلى : أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن : التشوف إلى رجال التصوف ؛ نشره وصححه أدولف فور سنة ١٩٥٨ الرباط .
- (٤٥) التازى : عبد الهادى : احد عشر قرنا في جامعة القرويين سنة ١٩٦٠ المغرب .
- (٤٦) تاويت : محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفى : الأدب المغربى ط ٢ سنة ١٩٦٩ بيروت .
- (٤٧) إبن تومرت : المهدي محمد بن عبد الله : (٥٢٤هـ) أعزما يطلب سنة ١٩٠٣ الجزائر .
- (٤٨) ابن تيمية : الحسبة في الإسلام سنة ١٩٦٧ دمشق .
- (٤٩) الجرارى : عبد الله بن العباس : تقدم العرب في العلوم والصناعات وأستاذ يتهم لأوربا ط ١ سنة ١٩٦١ م دار الفكر العربى .
- (٥٠) الجزنائى : أبو الحسن على : زهرة الآس في بناء مدينة فاس سنة ١٩٢٢ م الجزائر .
- (٥١) جوليان : شارل اندرية : تاريخ أفريقية : ترجمة عوضى أباطة سنة ١٩٦٨ القاهرة .
- (٥٢) الجيلانى : عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام — جز ٢ أن ط ٢ سنة ١٩٦٥ بيروت .

- (٥٣) حتى : فيليب خورى : تاريخ العرب - للمجلد الثانى ط^١ سنة ١٩٥٢ دار العالم العربى .
- (٥٤) حركات : إبراهيم : المغرب عبر التاريخ ط^١ سنة ١٩٦٥ الدار البيضاء .
- (٥٥) ابن حزم الأندلسى : أبو محمد على : (٥٤٥٦) جمهرة أنساب العرب تحقيق لينى بروفنسال - دار المعارف .
- (٥٦) د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الالة الفاطمية فى المغرب ط^٢ سنة ١٨٥٨ النهضة المصرية .
- (٥٧) د. د. من إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى : ج ٤ ط^١ سنة ١٩٦٧ .
- (٥٨) نفس المؤلف : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ط^٢ سنة ٦٤ النهضة .
- (٥٩) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين سنة ١٩٥٧ النهضة
- (٦٠) نفس المؤلف : الإسلام والثقافة السربية فى إفريقيا ط^٢ سنة ٦٣ النهضة
- (٦١) د. حسن على : دولة الإدارة بالمغرب - رسالة ماجستير تحت الطبع
- (٦٢) حقى : إحسان : المغرب العربى - بيروت .
- (٦٣) حموده : د. د. على محمد : تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى ط^١ سنة ١٩٥٧ القاهرة
- (٦٤) ابن حوقل : أبو القاسم : (اواخر القرن الرابع) صورة الارض .
- (٦٥) الحموى : محمد ياسين : تاريخ الاسطول العربى سنة ١٩٤٥ دمشق .

- ٦٦) الحميرى : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (٨٦٦هـ)
صفحة جزيرة الأندلس — تحقيق ليفى
بروفنسال سنة ١٩٣٧ لجنة التأليف والترجمة
٦٧) ابن خاقان : أبو نصر الفتح محمد بن عبد الله القيسى (٥٣٥هـ)
قلائد العقيان ط ١ سنة ١٣٢٠هـ مصر .
٦٨) ابن الخطيب : الوزير محمد لسان الدين : (٧٧٦هـ) كتاب
أعمال الأعلام فيمن بوع قبل الإحتلام من
ملوك الإسلام — القسم الثانى تحقيق ليفى
بروفنسال سنة ١٩٣٤ رباط الفتح
٦٩) ابن الخطيب : الوزير محمد لسان الدين : (٧٧٦هـ) تاريخ
المغرب العربى الوسيط القسم الثالث من
كتاب أعمال الأعلام تحقيق د . أحمد مختار
العبادى والأستاذ محمد إبراهيم الكتانى —
الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ .
٧٠) نفس المؤلف : الإحاطة فى أخبار غرناطة : ت محمد عبد الله
عنان ، المجلد الأول سنة ١٩٥٥ دار المعارف .
٧١) نفس المؤلف : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية —
تصحيح السيد البشير الفورتى ط ١ تونس
سنة ١٣٢٩هـ .
٧٢) نفس المؤلف : رقم الحلل نظم الدول — تونس سنة ١٣١٧هـ .
٧٣) ابن خلدون : أبو زكريا يحيى بن أبى بكر محمد بن محمد
(٧٨٠هـ) بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى
عبد الواد — الجزء الأول الجزائر سنة ١٩٠٣م .
٧٤) بن خلدون : عيد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ) العبر وديوان
المبتدأ والخبر ج ٤ ، ج ٦ ، ج ٧
سنة ١٢٨٤هـ القاهرة
٧٥) نفس المؤلف : مقدمة ابن خلدون — بيروت — مطبعة الكشاف

- (٧٦) ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت سنة ٦٨١هـ) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - ٦ أجزاء ط ١ سنة ١٩٤٨ النهضة المصرية .
- (٧٧) ابن دحية : أبو الخطاب عمر بن الشيخ الإمام أبي علي (٦٢٣هـ) المطرب في أشعار أهل المغرب ط ١ الخرطوم سنة ١٩٥٤ .
- (٧٨) ديماند : م. س. : الفنون الإسلامية - ترجمة أحمد عيسى دار المعارف سنة ١٩٥٤ .
- (٧٩) ابن أبي دينار : محمد بن القاسم الرعيني القيرواني : كتاب المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ط ١ تونس سنة ١٢٨٦هـ
- (٨٠) ابن رسته : أبو علي أحمد بن عمر : الأعلام النفيسة ليلن سنة ١٨٩١م
- (٨١) الرفاعي : أنور الرفاعي وآخرون : المغرب العربي جغرافيا ط ١ دمشق سنة ١٩٤٩م .
- (٨٢) روجية لوتورنو : فاس في عصر بني مرين - ترجمة دنفولا زيادة بيروت . سنة ١٩٦٧ .
- (٨٣) الرئيس : د . محمد ضياء الدين : . الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ط ٢ سنة ١٩٦١ الإنجلو المصرية
- (٨٤) نفس المؤلف : النظريات السياسية الإسلامية ط ١ سنة ١٩٥٢ الإنجلو .
- (٨٥) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ترجمة د . زكي محمد حسن ، د . حسن أحمد محود .
- (٨٦) ابن أبي وزرع : أبو الحسن علي بن عبد الله (٧٢٦هـ) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب

- وتاريخ مدينة فاس جزان تحقيق محمد
الهاشمي الفيلاي الرباط سنة ١٩٣٦م ونسخة
أخرى طبع حجر رقم ١٩٦٨ دار الكتب
- (٨٧) الزركشي : أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي : تاريخ
الدولتين الموحدية والخفصية ط ١ تونس سنة ١٢٨٩هـ
- (٨٨) الزركلي : خير الدين : الأعلام مصر سنة ١٩٢٧.
- (٨٩) زكي محمد حسن : فنون الإسلام — ط ١ سنة ١٩٤٨م النهضة المصرية
- (٩٠) ابن زيدان : عبد الرحمن : إتحاف اعلام الناس بجمال
حاضرة مكناس — خمسة اجزاء — ط ١ سنة ١٩٢٩
الرباط
- (٩١) سعد محمد حسين : المهلبية في الإسلام ط ١ مصر سنة ١٩٥٣م.
- (٩٢) سعداوي : د. نظير حسان : نظام البريد في الدولة الإسلامية
مصر سنة ١٩٥٣م.
- (٩٣) ابن سعيد : الأندلسي : المغرب في حلى المغرب ج ١ سنة ٥٣٠هـ،
ج ٢ سنة ١٦٥٥ دار المعارف .
- (٩٤) نفس المؤلف : بسط الأرض في الطول والعرض ، تحقيق د.
خوان قرنيط خينيس سنة ١٩٥٨ تطوان.
- (٩٥) السلاوي : الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري :
(١٣١٥هـ) الإستقصا لأخبار دول المغرب
الأقصى ، تحقيق جعفر الناصري ومحمد
الناصرى جزآن سنة ٥٤٠ الدار البيضاء ؛
- (٩٦) السلفي : أحمد بن محمد بن أحمد (ت ٥٧٦هـ) أخبار
وتراجم أندلسية — تحقيق د. إحسان عباس
بيروت ط ١ سنة ١٩٦٣.
- (٩٧) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير : العصر الإسلامى
القومية سنة ١٩٦٦.

- ٩٨) نفس المؤلف : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ط ١ سنة ١٩٦٩
النهضة المصرية . ٥
- ٩٩) نفس المؤلف : ود. أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية
الإسلامية فى المغرب والاندلس - بيروت
سنة ١٩٦٩ .
- ١٠٠) شعيره : د. محمد عيد الهادى : المرابطون تاريخهم
السياسى ط ١ سنة ١٩٦٩ القاهرة .
- ١٠١) شلبى : د. أحمد : التاريخ الإسلامى والحضارة
الإسلامية ج ٤ ط ٣ سنة ١٩٦٩ النهضة المصرية
- ١٠٢) نفس المؤلف : السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى
سنة ١٩٦٤ النهضة .
- ١٠٣) نفس المؤلف : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
الجزء السادس ط ١ سنة ١٩٧٢ النهضة المصرية
- ١٠٤) الشيزرى : عبد الرحمن بن نصره : نهاية الرتبة فى طلب
الحسبة نشره الباز العرينى - لجنة التأليف
سنة ١٩٤٦ م.
- ١٠٥) ابن صاحب الصلاة : عبد الملك (نهاية القرن السادس الهجرى
تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم
الله أئمة وجعلهم الوارثين - السفر الثانى -
تحقيق عبد الهادى التازى - بيروت ط ١ سنة ١٩٦٤ م
- ١٠٦) د. صبحى صالح : النظم الإسلامية وتطورها ط ٢ سنة ١٩٦٨ - بيروت
- ١٠٧) الصفاقسى : محمود بن سعيد مقديش : نزهة الأنظار فى
عجائب التواريخ والأخبار تونس سنة ١٣٢١ هـ .
- ١٠٨) الضبى : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت سنة ٥٩٩)
بغية الملتمس - مدريد سنة ١٨٨٤ م.
- ١٠٩) طرخان : د. إبراهيم : امبراطورية غانة الإسلامية سنة ٧٠ -
الهيئة العامة للتأليف والنشر .

- (١١٠) الطرطوشي : أبو بكر محمد بن محمد الوليد (ت سنة ٥٢٠هـ)
سراج الملوك ط١ سنة ١٣٠٦هـ .
- (١١١) العبادي : د . أحمد مختار : دراسات في تاريخ المغرب
والأندلس ط١ سنة ١٩٦٨ الاسكندرية .
- (١١٢) عبد الله بن بلقين : ابن باديس بن حبوس بن زيري : (كان حيا
في القرن الخامس الهجري) مذكرات الأمير
عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة —
نشر وتحقيق ليفي بروفنسال دار المعارف
- (١١٣) ابن عبدون : محمد بن أحمد التجيبي (من رجال القرن
الخامس) : ثلاث رسائل اندلسية في آداب
الحسبة المحتسب ، تحقيق ليفي بروفنسال
القاهرة سنة ١٩٥٥ .
- (١١٤) : محمد بن عبد السلام . تاريخ المغرب — الجزء
الأول ، ط٢ سنة ١٩٥٧ تطوان .
- (١١٥) العدوي : د . إبراهيم : المسلمون والجرمان ط١ سنة ١٩٦٠
- (١١٦) بن عذارى : ابن عذارى المراكشي : (كان حيا ٧١٢هـ)
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب .
ج٤ تحقيق د . إحسان عباس ، بيروت
ط — سنة ١٩٦٧ ونسخة أخرى ج٤ تحقيق
أمبرزيو أويثي ميراندا تطوان سنة ١٩٥٦ .
- (١١٧) علام : د . عبد الله : الدعوة الموحدية بالمغرب
بالمغرب ط١ سنة ١٩٦٤ .
- (١١٨) نفس المؤلف : الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن
دار المعارف سنة ١٩٦٨ .
- (١١٩) علي بن يوسف : أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم : (كان حيا
سنة ٩٠٧هـ) الدوحة المشتبكة في ضوابط

- دار السكة ، تحقيق د. حسين مؤنس —
مدريد سنة ١٩٦٠ م.
- (١٢٠) العمرى : شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله [(ت ٨٧٤٩هـ) وصف أفريقيا والمغرب والأندلس
أواسط القرن الثامن للهجرة نشر حسن حسنى
عبد الوهاب . تونس .
- (١٢١) عنان : محمد عبد الله : عصر المرابطين والموحدين فى
المغرب والأندلس ، القسم الأول والثانى ط ١ سنة
١٩٦٤ القاهرة .
- (١٢٢) عياض : أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى
السبتى (ت سنة ٥٤٤هـ) الأعلام بحدود
قواعد الإسلام — تحقيق محمد بن تاويت
الطنجى — الرباط سنة ١٩٦٤ م.
- (١٢٣) ابن غازى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن على
(٩١٩). الروض الهتون فى أخبار مكناسة
الزيتون — طبع حجر مغربى
- (١٢٤) الغرناطى : محمد بن عبد الرحيم المعروف بابى حامد (٥٦٠)
تحفة الألبا ونخبة الإعجاب — ت جبرائيل
فيراند باريس سنة ١٩٢٥ .
- (١٢٥) الغزالى : أبو حامد محمد بن محمد (٥٠٥ هـ) احياء علوم
الدين ٥ أجزاء المطبعة التجارية .
- (١٢٦) غنيمه : محمد عبد الرحيم : تاريخ الجامعات الإسلامية
الكبرى تطوان سنة ١٩٥٣ .
- (١٢٧) الفاسى : محمد : التعرف بالمغرب سنة ١٩٦١ لجنة البيان .
- (١٢٨) فيرون : ريمون : الصحراء الكبرى — ترجمة . جمال
الدين الديننا صورى ود . نصرى شكرى القاهرة
سنة ١٩٦٣ .

- (١٢٩) ابن القاضي : احمد بن محمد بن محمد : جدوة الإقتباس
فيمن حل من الأعلام مدينة فاس — طبع حجر
فاس سنة ١٢٠٩ هـ .
- (١٣٠) ابن القطان : ابو علي الحسين (القرن السابع الهجري) : نظم
الحمان — تحقيق د. محمود علي مكى — تطوان
١٩٦٥ .
- (١٣١) القفطى : جمال الدين ابو الحسن علي بن القاضي الأشرف
يوسف : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ط ١ سنة
١٣٢٦ هـ مصر
- (١٣٢) القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١ هـ) صبح
الأعشى ج ٥ — وزارة الثقافة سنة ١٩٦٣ م .
- (١٣٣) ابن القنفذ : ابو العباس احمد بن حسين (ت ٨١٠ هـ)
الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق
محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى تونس
سنة ١٩٦٨ م .
- (١٣٤) الكتانى : محمد المنتصر : الغزالي والمغرب : بحث ضمن
مقالات وأبحاث ألفت في مهرجان دمشق
سنة ١٩٦١ — المجلس الأعلى .
- (١٣٥) الكعك : عثمان : الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط
لجنة البيان سنة ١٩٦٥ .
- (١٣٦) نفس المؤلف : محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب — معهد
الدراسات العربية سنة ١٩٥٨ .
- (١٣٧) كنون : عبد الله : مدخل إلى تاريخ المغرب ط ١ سنة
١٩٤٤ تطوان .
- (١٣٨) كنون : عبد الله : النبوغ المغربي — ثلاثة أجزاء ط ٢
سنة ١٩٦١ بيروت .

- (١٣٩) نفس المؤلف : أمراؤنا الشعراء — تطوان .
- (١٤٠) د . لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا — ط ٢ النهضة المصرية سنة ١٩٦٩ .
- (١٤١) لقبال : موسى : الحسبة المذهبية فى بلاد المغرب — نشأتها وتطورها ط ١ سنة ١٩٧١ الجزائر .
- (١٤٢) لويجى رينالدى : المدينة العربية فى الغرب — ترجمة طه فوزى
- (١٤٣) لين بول : طبقات سلاطين الإسلام — ترجمة مكى الطاهر الكعبي سنة ١٩٦٨ م منشورات البصرى .
- (١٤٤) ليوبولد توريس : الأبنية الأسبانية الإسلامية — ترجمة علي إبراهيم عدد اول سنة ١٩٥٣ مجلة المعهد المصرى — مدريد
- (١٤٥) ماجد : د . عبد المنعم — تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى — القاهرة سنة ١٩٦٣ .
- (١٤٦) مالك : ابو عبد الله مالك بن انس : موطأ الامام مالك — تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف — القاهرة سنة ١٩٦٧ .
- (١٤٧) الماوردى : أبو الحسن على بن محمد حبيب (ت ٥٤٥٠هـ) . الأحكام السلطانية ط ١ سنة ١٩٦٠ م الحلبي
- (١٤٨) مانويل جوميث مورينو : الفن الإسلامى فى أسبانيا — ترجمة د. لطفى عبد البديع ود. محمود عبد العزيز سالم — التأليف والترجمة .
- (١٤٩) مجهول : (كاتب مراکشى من كتاب القرن السادس الهجرى) — الإستبصار فى عجائب الأمصار نشر وتعليق د . سعد زغلول عبد الحميد — الاسكندرية سنة ١٩٥٨ .
- (١٥٠) مجهول : نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى - - - - - ونشرها ليفى بروفنسال باريس سنة ١٩٢٣ م .

- (١٥١) مجهول : تواريخ مدينة فاس — نشر سلفاتور كوسا —
بالرم سنة ١٨٧٨ م
- (١٥٢) مجهول : كتاب الطيخ في المغرب والأندلس في عصر
الموحدين تحقيق امبرزيو أويثي ميراندا —
مدريد سنة ١٩٦٥.
- (١٥٣) مجهول : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية — نشر
محمد بن أبي شنب — الجزائر سنة ١٩٢٠ م.
- (١٥٤) د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود في الأندلس سنة ١٩٧٠ —
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .
- (١٥٥) المراكشي : عباس بن إبراهيم: الأعلام بمن حل مراكش
وأغامت من الأعلام — ٨ أجزاء — فاس ط ١
سنة ١٩٣٦ م .
- (١٥٦) المراكشي : عبد الواحد : (النصف الأول من القرن السابع
الهجري) المعجب في تلخيص أخبار المغرب —
تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي
— القاهرة سنة ١٩٤٩ م
- (١٥٧) المراكشي : محمد عثمان : الجامعة اليوسفية — الرباط
سنة ١٩٣٧ م
- (١٥٨) المرير : محمد : الأبحاث السامية في المحاكم الإسلامية —
الجزء الثاني — تطوان سنة ١٩٥٢.
- (١٥٩) ابن مريم : أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد :
البيستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان —
مراجعة محمد ابن أبي شنب — الجزائر
سنة ١٩٠٨ م .
- (١٦٠) مشرفة : د. عطية : القضاء في الإسلام — ط ٢ سنة ١٩٦٦
شركة الشرقت الأوسط .

- (١٦١) المقدسى : المقدسى المعروف بالبشارى (١٣٧٨هـ): أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ط ٢ ليدن سنة ١٩٠٦م.
- (١٦٢) المقرئ : أحمد بن محمد (١١٤١هـ): نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد عشرة أجزاء مصر سنة ١٩٤٩
- (١٦٣) ملين : محمد الرشيد : عصر المنصور الموحدى - مطبعة الشمال الإفريقى .
- (١٦٤) المنونى : محمد : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين تطوان سنة ١٩٥٠ م.
- (١٦٥) ابن المؤقت : محمد بن محمد بن عبد الله : السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ، جزآن - طبع حجر - مراكش سنة ١٣٣٥هـ.
- (١٦٦) نفس المؤلف : الإنبساط بتلخيص الإغتهاط - مصر سنة ١٣٤٧ هـ .
- (١٦٧) مؤنس : د. حسين : عقد بيعة بولاية العهد لأبى عبد الله محمد المعروف بالخليفة الناصر الموحدى ، مجلة كلية الآداب ، مجلد ١٢ ج ٢ سنة ١٩٥٠.
- (١٦٨) مؤنس : د. حسين : تطور العمارة الإسلامية فى الأندلس جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٥١.
- (١٦٩) نفس المؤلف : فتح العرب للمغرب مصر سنة ١٩٤٧.
- (١٧٠) نفس المؤلف : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين والموحدين عدد ٣ سنة ١٩٥٥ مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية مدريد .
- (١٧١) الميلى : مبارك محمد : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث الجزء الثانى - المطبعة الجزائرية سنة ١٣٥٠ هـ.

- (١٧٢) النباهى : أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن (٥٧٧٦هـ)
تاريخ قضاة الأندلس — نشر ليفى بروفنسال
ط ١ دار الكاتب المصرى سنة ١٩٤٨ م .
- (١٧٣) هويدى : د. يحيى : تاريخ فلسفة الإسلام فى القارة
الإفريقية الجزء الأول الشمال الإفريقى سنة
سنة ١٩٦٥ النهضة المصرية .
- (١٧٤) نفس المؤلف : أعز ما يطلب مقالة ، العدد الخامس من المجلد
الرابع من تراث الإنسانية سنة ١٩٦٦ التأليف
والترجمة .
- (١٧٥) الوزير : أبو عبد الله محمد بن محمد الأندلسى : الحلل
السندسية فى الأخبار التونسية — ط ١ تونس
سنة ١٢٨٧ هـ
- (١٧٦) ياقوت الحموى : أبو عبد الله (٥٦٢٦ هـ) . معجم البلدان خمسة
أجزاء طهران سنة ١٩٦٥ .
- (١٧٧) يونس : د. عبد الحميد : الهلالية فى التاريخ والأدب
الشعبى : سنة ١٩٦٥ مطبعة القاهرة .

ثالثا — المراجع الاوربية

- 178 - Budgett Meakin : The Moorish Empire London 1899.
- 179 - Budgett Meakin : The Land of the Moors London 1901.
- 180 - Ch-André Julien : Histoire de L'Afrique du nord, de la Conquête Arabe, Paris, 1969.
- 181 - G A. Jackson : Algiers ; Giving a Complete Picture of the Barbary States, London 1817.
- 182 Henri Terrasse : Histoire du Maroc. Paris 1949
- 183 - James Cavanah Murphy : The History of the Mohammedan Empire in Spain, London 1816.
- 184 - J.D. Fage : An Introduction to the History of West Africa, Cambridge, 1965
- 185 - J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim Government of Barbary until the Six Century of the Hijra, London 1958.
- 186 - J. Spencer Trimingham : A History of Islam in West Africa, London 1963.
- 187 - Mahmud Pielvi : Islam in Africa, Lahor 1964.
- 188 - M. Mazheriddin Siddiqi : Development of Islamic State and Society West Pakistan, 1965.
- 189 - Nevill Barbour : A Survey of North West Africa (The Maghrib) London 1952
- 190 - Nevill Barbour : Morocco, London, 1965.
- 191 - Pascual de Gayanos : The History of the Mohammedan Dynasties in Spain, Vol.2.
- 192 - Rafael Altamira : A History of Spain : From the beginnings to the present day U.S.A. 1949.

- ۱۹۳ - René Millet ; Almohades, Paris ۱۹۲۳.
- ۱۹۴ - S.D. Goitein : Studies In Islamic History and Institution, Leiden ۱۹۶۸,
- ۱۹۵ - S.P. Scott : History of Moorish Empire in Europe V. ۲ Loudou ۱۹۰۴.
- ۱۹۶ - Stanley Lane Pool ; The Moors in Spain, London ۱۹۱۲.
- ۱۹۷ - Sir Thomas, w. Arnold : The Caliphate, England, ۱۹۲۴.
- ۱۹۸ - The Encyclopeadia of Islam, Vol, ۱, ۱۹۱۳ Vol. ۲, ۱۹۲۷, Holland.
- ۱۹۹ - Ercyclopeadia Britannica U.S.A., ۱۹۶۰.

APPROACH TO THE RESEARCH

The topic is about an important Middle Ages era of Morocco. It treats the official life, the economic life and the social life during the 5th and the 6th Hegira Centuries. I have divided my research into an approach and three parts.

This approach deals with the period extends from the 4th Hegira century to the middle of the 5th Heg. Cent. and which proceeded the existence of Almoravides' state in the Near East. The period which is known with its weakness and disunity. That region was divided into several within themselves struggling and competitive emirates, which resulted in a general unsettlement, prevailing all the region. That unsettlement which reflected on all sorts of life.

The 1st Part has been divided into four chapters: The 1st part treats the political life in the Near Morocco, since the set up of Almoravides' state till the end of the region of Almoravides' "Elnasir Elmohad". I referred to the part played by "Abdollah Ibn Yassin" during the accumulation of the Molathem's tribes in one groups, which rushed to the "Near Morocco" under the leadership of "Youssof Ibn Tashfin" who united the region under one authority. He, also, connected the Andalus to the new state. His son "Ali Ibn Youssof" followed him and completed the efforts of his father concerning the Andalus. I also refer to the appearance of "Ibn Toumert" on the stage of incidents and his revolution against the son which ended Almoravides' state and the set up of Almohades' state by leadership of "Abdelmoumin", and his collegian "Ibn Toumert". I refer also to the military efforts of "Abdelmoumin" and the extension of the state in his time, to East Africa and North Andalus, and then to the political and military energetics of Almohades' successive rulers till Elnasir Elmohad, who was completely conquered in the "Elkabt's battle in Andalus. That

battle was as a start of 'Almohades' state demolition and weakness.

The 2nd chapter is addressed with "The great Authority in the Country" I treat in that chapter, the relation between both Almoravides and Almohades, with Abbasian Caliphate and the reigns of both the families of Youssof Ibn Tashfin and the family of Abdelmomin of the country; then the way of the succession of men to the authority and their reigning titles. I refer to the system of appointing the prospective rulers and the system of choosing the future ruler and the way of preparing him and the system of depriving him and the system of depriving the mischievous of those rulers. I also handle the ministry system and the various ministers and their specializations and then the way of punishing them. After that I shift to the writers and their differences and specializations. Lastly I treat the financial system in Elmohades state.

In the 3rd chapter I treat the official system and the provincial division in the Near Morocco and way of choosing the provincial rulers and the way of preparing them. Then I treat the way of choosing and appointing those rulers and their authorities as provincial rulers and the way of transferring them and depriving them of their authorities. I also handle the police system.

But for the 4th chapter I call it the "Justice System". In that chapter I treat the importance of justice in the Near Morocco and the employing of many judges by the rulers. I refer, also, to the judge of the group and the main characteristics, those judges ought to possess and lastly the system of transferring those judges and dismissing them. Beside the system of Justice, there was the "Complaint Judge". Lastly I handle the

system of taxes in Almohades' state.

The 2nd Part: Its address is the economical life which I have divided it into three chapter :

I treat in the 1st chapter the financial system and which contains of the financiality which contains all sorts of various financial "Dawawins" offices, and what were invinted in Almohades state, of those systems. (After that I treat the financial policy of the rulers and the provincial rulers. I discuss the matter of "Kharag" (a sort of Islamic taxes) appointed by Abdelmomin for the Near Morocco and the other regions of the state. Then come to the manifestation of the financial resources of the state, containing the reference to the monetary system, measuring system and weighing one.

But for the 2nd chapter, which addressed under "Agriculture and Industry", I refer in it to the flourishing of agriculture. I handle after that the assorted plants and veketation and thier places of cultivation, such as wheat, cotton, sugar-cane, olive and other sorts of plants, add to that the various kinds of fruits and forests which was scattered in different places of the country. I also refer to the grasslands and their importance and the fishing economy; which the state was enjoying. Lastly I come to the economic catastrophes. Then I transmit to "Industry" and its progress and the causes of that progress. Then after that I refer to the industrial centres and the most important industries.

The 3rd chapter : which is called the "National and International Trades". In that chapter I refer to the environments of the trade flourishing throughout the country; and then come to the local roads and their effects on trade's flourishing. Then I mentioned the most important trading centres and the kinds of goods sold in every centre and the markets' system and the way of dealing in those markets. I handle after that

the international trade and the means of a communication with the outer world. Then after that I refer to the main resources of the country and the important imported goods. Lastly I handle the different trade relations between the Near Morocco and the near and far countries from her.

The Third Part : its address is the social life. That part is divided into five chapters :

The 1st chapter is about the elements of society. Those elements were the Barbarians who resembled the vast majority of the population. Then after that I write in details about the Sinhaja tribes and their characteristics and the most important tribes that constituted the Almoravides state. Then I describe Almoravides state on which the Almohades state was built. I refer to the most important tribes that constituted Almohades state. Then I treat the third element who were the Araab; specially Elhilalia tribes. I clear their taken part in Almoravides epoc then the manifestation of their part in the era of Almohades. In that period several traits of them printed the social life. Lastly, I com to the other races that lived besides the Arab and the Barbarians. Those races were the Sudanese, the Romans the Khaz. Then I ended the 3rd chapter by referring to the cause of population's decreasing.

The 2nd chapter, which is addressed under "The Society and its Circles". In that chapter the degree of the reigning circles. I refer to the students' circle and its system and traits. Then after that I transmit to the circle of fokahas olamas, judges and their standard of living. Then I treat the workers and their works and the industrials and their various works. Then I deal with the woman position in the society, her culture and her authority. Then I ended that chapter with Ahl-El-Zemma and their position during Almoravides and Almohades times.

But for the 3rd chapter; which is titled by the buildings, establishment and palaces. In that chapter I refer to the vast movement of buildings and the causes. Then I handle the establishment of some cities, towns and their system and then the building of the houses.

Then I refer to the military establishments such as castles fortifications and fences. Lastly I write about the public buildings such as mosques schools and others,

But in the 4th chapter, which is addressed under the customs and habits, I write about the family and its relations. Then I transmit to the health and the public health system. Then I handle the assemblies and their varieties. Then I treat the system of celebrations, such as the religious and military celebrations and other ways of celebrations such as the marching of them and their systems. Then I shift to point at the other ways of entertainments and after that the different kinds of common foods and drinks in the Near Morocco. Lastly, I write about the clothes and their differences and the habit of "litham" and the garments of the non-Islamic sects which are called the people of Zemama.

But in the 5th and last chapter, I write about the thinking centres. After that I handle the religious life in some details, where I treat the subject of Almoravides' call for belief and the burning of Elghazali and the call for belief to Almohades' thoughts and its development. Then I write about the belief of Imam Malik in the Almoravides state or the Almohades' one, and the practical application of the religion rules. Then I come to Almoravides and their efforts in calling for the Islamic and the mysticists and what had relations with them as the custom of blessing and the cause of that. Then I handle the religious written books and then the life of literature and science and the extension of the Arabic Language

and her spread. Then I treat the Life of literature and its environments and flourishing. Then I come to the culture of the reigning circle and the common. Then I handle after that the various cultural materials and their written-about-books. Lastly, I write about the libraires and their spread.

